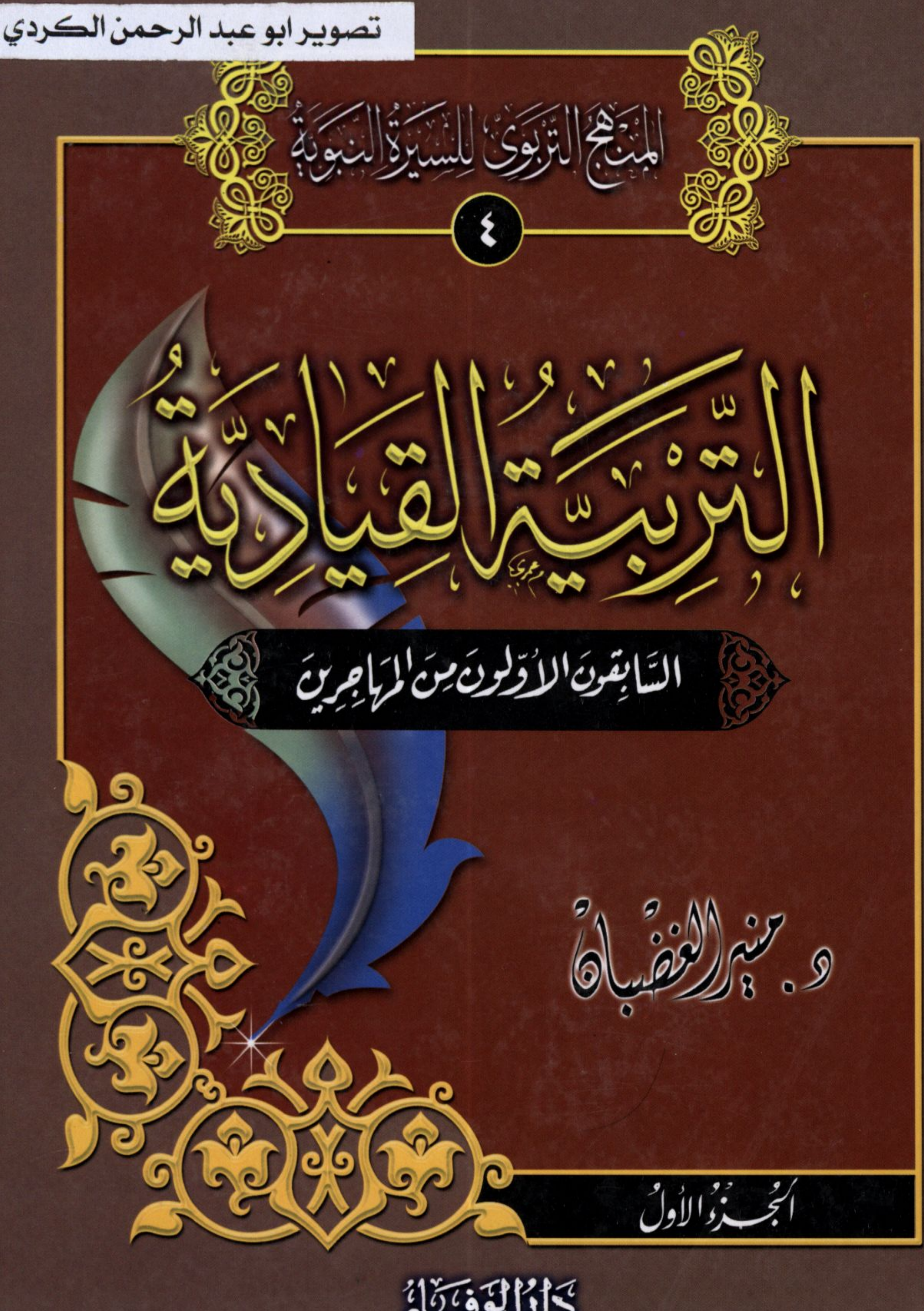


تصوير ابو عبد الرحمن الكردي
المنهج التربوي للسيرة النبوية
٤
التربية القيادية
السابقون الأولون من المهاجرين
د. منير الغضبان
الجزء الأول
دار الوفاء

الطبعة الرابعة
١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠
ت :٣٤٢٧٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨
المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

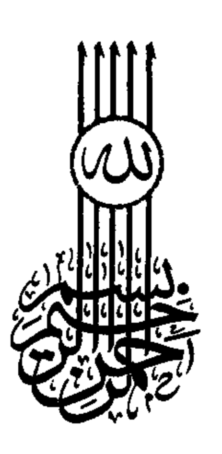


التربية القيادية

السابقون الأولون من المهاجرين

الجزء الأول

منير الغضبان



الإهداء

إلى جيل الصحوة الإسلامية الذى يبحث عن قيادات

أهدى هذا الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد القادة وإمام المربين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن دعا بدعوته وسار بهديه إلى يوم الدين .

وبعد:

الصحوة الإسلامية تملأ الأرض .

لكنها تبحث عن قيادات .

وكما يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ :« الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»[1]. فالأعداد الوفيرة الضخمة من الجنود تملأ كل فج ، جاهزة للتضحية والبذل، تتوقد حماسًا وحيوية أن ترى الإسلام يسود الوجود ، لكنها تنتظر القائد المبصر ، والرائد الحكيم الذى يخوض بها فى لجج البحار ، وفى الظلمات المدلهمة، فيكون الربان الماهر الذى يقودها إلى شاطئ السلامة ، ويحقق بها موعود الله فى الأرض .

فأين هذا القائد ؟

هل هناك معامل تخرج النخبة ، وتصنع القيادات ؟

أم أن القيادات الفذة هبة إلهية ، تعز وتندر ، إلى أن يأذن الله بفجر جديد على يد قائد جديد ؟؟

هما سؤالان واردان ، يشغلان بال الدعاة إلى الله فى الأرض .

وتختلف الإجابات ، ويطول الانتظار ، لكن العدو لا ينتظر ، وقد يستبق الدعاة الخطا فتقع المحنة ، وتمتد المطارق إلى الدعوة ، وتفتح الزنازين ، وتنصب المشانق ، ويشرد الأحرار .

ويعود البحث من جديد : أين القائد ؟

---

(١) ونص الحديث كما فى صحيح مسلم ١٩٧٣/٤/ ح ٢٥٤٧عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة » .

ولننتقل قبل الإجابة على السؤال إلى الوراء بعيدًا بعيدًا، فنقف بين يدى المصطفى - عليه الصلاة والسلام - سيد المرسلين ، وقائد ركب الإيمان فى الوجود.

لننتقل إلى القائد الأعظم ونظر إلى الجيل الذى رباه ، ماذا فعل هذا الجيل ؟

بما لا يقبل الجدل أنشأ هذا الجيل خلال ثلث قرن أعظم حضارة فى التاريخ : استوعبت الزمان والمكان والجوهر .

امتدت من الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا . ومن القسطنطينية شمالاً إلى أقاصى الجنوب فى آسيا وأفريقيا جنوبًا . وحكمت ثلثى الأرض آنذاك .

هذا من حيث المكان . أما من حيث الزمان . فقد امتدت أربعة عشر قرنًا أو تزيد بين جزر ومد . وفى مطلع هذا القرن . كان عملاق الإسلام العظيم يقف على قدميه كأحد الدول الكبرى فى الأرض . كانت خلافة العثمانية واحدة من ثمانى دولٍ كبرى تحكم هذا العالم . فلم تغب إذن شمس الإسلام عن الوجود منذ أن سطعت من حراء .

من الذى صنع هذا المجد ؟

قادة كبار . رباهم رسول الله ﷺ . فأبدعوا هذه الحضارة .

إنه الجيل الأول ، جيل الكبار فى بدر والحديبية الذين استلموا معَود التاريخ من يد رسول الله ﷺ . وتحركوا به لأقصى المعمور آنذاك .

تحدثنا عن الزمان والمكان ، ولم نتحدث عن الجوهر .

إننا حين نتحدث عن الزمان والمكان، فهناك حضارات سادت ثم بادت . وقاربت الحضارة الإسلامية من حيث الزمان والمكان . أما من حيث الجوهر . فهنا مفترق الطريق .

لقد حكم الإسلام الأرض خلال ثلاثين عامًا . وهى مدة خلافة النبوة كانت أعظم ما رأت البشرية من رحمة وعدل إنه العصر الذهبى للبشرية من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وهو القمة السامعةَ للبشرية . التى تحاول جاهدة فى كل جيل وقبيل أن تنسج على منواله ، أو تصعد نحو قمته ، أو تقترب من هديه .

لكنه يبقى الصورة والخيال ، وتبقى تلك الفترة السعيدة هى الأصل .

وشتان بين الأصل والصورة !

إن هذا الجيل من كبار القادة الذى صاغه نبى الهدى عليه الصلاة والسلام هو الذى نقل روح النبوة وهديها إلى كل أرجاء الوجود فحكم بهذا الهدى وأضاء الوجود بهذا النور .

إنه جيل قيادى فذ عزَّ نظيره فى التاريخ ، لأنه تربى بكتاب الله وآياته . وتربى برسول الله ومصطفاه من خلقه . فمن عنده مثل هذا المعهد ؟! ومن عنده مثل هذه المدرسة ، فليطلع لنا قرنه ؟!

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله تعالى ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله تعالى ، ثم تكون ملكًا عاضًا ، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون ملكًا جبرية فيكون ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعها الله تعالى ثم تكون خلافة على منهاج نبوة» ثم سكت [(١)] .

وحديثنا هنا عن الخلافة على منهاج النبوة ، التى نقلت تراث النبوة إلى الأرض وحكمت به ثلاثين عامًا من عمر البشرية ، فعن سفينة قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « الخلافة ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا »[(٢)] .

حديثنا فى هذا الكتاب بأجزائه الأربعة عن البذور الأولى التى بذرها رسول الله ﷺ وأنشأت هذا الجيل . ثم كيف تمت تربية هذا الجيل على يد رسول الله ﷺ .

وحسبى أن تستطيع هذه الأجزاء من التربية القيادية أن تجيب على هذا السؤال وما أظنها تفعل . فالأمر أكبر وأعمق وأعظم من الإحاطة به ممن يتسابقون للصعود من السفح إلى المرتقى الصعب .

ولكنها محاولة .

وأبدأ أحاول ، والله تعالى الموفق للصواب .

بقيت همسة أخيرة وأمل مجنح بعيد .

ترى آن أوان الأوبة الثانية لمنهاج النبوة . بعد الجولة الطويلة الصعبة فى الملك العاض ، والملك الجبرى ؟

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٢٧٣ والبيهقى فى (دلائل النبوة) وإسناده حسن. انظر: المشكاة ٣/ ١٤٨٧/ ح٥٣٧٨ .
(٢) رواه أحمد والترمذى وأبو داود وإسناده حسن . انظر المشكاة ٣/ ١٤٨٤ /ح٥٣٩٥.

قد يكون .

والذى لا نشك فيه أنها ستكون . وهل سيرعاها نبى هو المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ؟

وهل يكون جيلنا هو الإرهاصات والمقدمات لذلك الجيل ؟

نرجو الله ذلك .

وحتى لا نغوص فى التيه . فلننظر إلى معالم هذا المنهاج ، ولنغص فيه دراسة وفقهًا وسلوكًا ،علنا نكون المعبر لذلك الجيل .

والدال على الخير كفاعله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

المصطفى المختار

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أعلن عجزى ابتداءً عن الكتابة عن رسول الله ﷺ ، والإحاطة بعظمته أو إدراك فضله . ولكنى أثبت بعض المعالم التى تؤكد أن البشر جميعًا هم أعجز من أن يدركوا هذه الآفاق النبوية :

أولاً : قبل خلق آدم كان رسول الله ﷺ النبى المجتبى .

فعن ميسرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ،متى كنت نبيا ؟قال: « وآدم بين الروح والجسد »(١) .

قال الإمام السبكى : « قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تكون الإشارة بقوله : « كنت نبيا » إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقة من الحقائق . والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها، وإنما يعلمها خالقها ومن أمدَّه الله بنور إلهى . ثم إن تلك الحقائق يؤتى كل حقيقة منها ما يشاء فى الوقت الذى يشاء . فحقيقة النبى ﷺ قد تكون من قبل خلق آدم آتاها الله هذا الوصف بأن يكون خلقها . مهيأة لذلك ، فأفاضه عليه من ذلك الوقت فصار نبيا وكتب اسمه على العرش وأخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده . فحقيته موجودة فى ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها (٢) .

ثانيًا : فى أخذ الميثاق على النبيين :

يقول عز وجل : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا**

(١) رواه الإمام أحمد ،والبخارى فى تاريخه، والحاكم وصححه، ورواه ابن حبان فى صحيحه عن ابن عباس. انظر :سلسلة صحيح الجامع الصغير وزيادته للألبانى جـ ٤ ص ١٨٧ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام محمد بن يوسف الصالحى ٩٩/١ ط . القاهرة ١٣٩٢هـ . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ . فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1] .

(وعن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : ما بعث الله نبيا قط إلا أخذ عليه العهد ، لئن بعث محمد ﷺ وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره بأخذ الميثاق على أمته إن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . رواه البخارى فى صحيحه كما نقله الزركشى فى شرح البردة والحافظ بن كثير فى تاريخه وأول كتابه جامع المسانيد ، والحافظ فى الفتح فى باب حديث الخضر مع موسى . ولم أظفر به فيه . . .)[2] .

قال الإمام العلامة الحافظ شيخ الإسلام تقى الدين السبكى :

(فى هذه الآية من التنويه بالنبى ﷺ وعظيم قدره ما لا يخفى أنه على تقدير مجيئه فى زمانهم يكون مرسلاً إليهم فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته . ويكون قوله ﷺ « بعثت إلى الناس كافة » لا يختص به الناس فى زمانه إلى يوم القيامة بل يتناول من قبلهم أيضًا . وإنما أخذ المواثيق على الأنبياء ليتعلموا أنه المقدم عليهم ، وأنه نبيهم ورسولهم وفى ﴿ **أَخَذَ** ﴾ وهى فى معنى الاستخلاف . ولذلك دخلت لام القسم فى ﴿ **لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ** ﴾ ، ﴿ **وَلَتَنصُرُنَّهُ** ﴾ لطيفة أخرى . وهى كأنها البيعة التى تؤخذ للخلفاء، ولعل أيمان الخلفاء أُخذت من هذا . فانظر إلى هذا التعظيم العظيم للنبى ﷺ من ربه .

فإذا عرفت هذا فالنبى ﷺ نبى الأنبياء . ولهذا أظهر ذلك فى الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه . وفى الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلَّى بهم ولو اتفق مجيئه فى زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ﷺ ونصرته ، وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم)[3] .

وقد أشار عمه العباس ـ رضى الله تعالى عنه ـ إلى ذلك فيما رواه الطبرانى أن سيدنا العباس ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : يارسول الله ،إنى أريد أن أمتدحك . فقال له رسول الله ﷺ : « قل لا يفضض الله فاك » فقال ـ رضى الله تعالى عنه:

---

(١) آل عمران / ٨١ ، ٨٢ .

(٢ ، ٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ١ / ١٠٩ .

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخطف الورق (١)
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين(٢) وقد ألجم نسرًا (٣) وأهله الغرق
ووردت نار الخليل مكتتما تجول فيها وليس تحترق
تُنَقل من صالب(٤) إلى رحِم إذا مضى عالم بدا طبق(٥)
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف(٦) علياء تحتها نُطُق(٧)
وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض وضاءت بنورك الأفق
ونحن فى ذلك الضياء وفى النو ر وسبل الرشاد(٨) نخترق

وهذا منطوق حديث الرسول ﷺ « .بعثت من خير قرون بنى آدم قرنًا فقرنًا حتى كنت من القرن الذى كنت فيه »(٩) .

وعن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عنهما فى قوله تعالى : ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ (١٠) قال: « من صلب نبى إلى صلب نبى حتى صرت نبيا»(١١).

ثالثًا : وهو رسول الثقلين الإنس والجن ـ عليه الصلاة والسلام :

﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**﴾(١٢) فخصائصه ﷺ ودعوته للجن مباشرة فى مكة لا

---

(١) حيث يخصف الورق : إشارة إلى قوله عز وجل: ﴿ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ [الأعراف : ٢٢] أى فى صلب آدم .
(٢) السفين : جمع سفينة .
(٣) نسر : هو المذكور فى سورة نوح وهو أحد أصنامهم .
(٤) صالب : أى من صلب وصُلُب وصالب ثلاث لغات .
(٥) الطبق: القرن .
(٦) خِندف امرأة إلياس بن مضر .
(٧) نُطُق : جمع نطاق . وهى حبال يشد بها أوساط الناس .
(٨) سبل الهدى والرشاد للصالحى جـ١/ ٩٠ ، ٩١ .
(٩) صحيح البخارى ٣/ ٢١٩ كتاب المناقب باب صفة النبى ﷺ .
(١٠) الشعراء / ٢١٩ .
(١١)رواه البزار والطبرانى . رجاله ثقات .
(١٢) الجن / ١ ، ٢ .

يدرك كنهها إلا الله عز وجل . وذلك كما فى حديث ابن مسعود :

حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود ، وهو ابن أبى هند، عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال علقمة : أنا سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه فى الأودية والشعاب فقيل: استطير؟ اغتيل ؟ قال: فبتنا شر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء قال : فقلنا: يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فقال : «أتانى داعى الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أو فر ما يكون لحمًا ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم» قال رسول الله ﷺ : « فلا تستبخوا بهما فإنهما طعام إخوانكم »[1] .

وخصائص الرسول ﷺ فى خلقه وفى تكوينه وفى بعثته وفى حياته . وصفت بها المجلدات الكبار تتجاوز عالم البشر ، وعالم بنى آدم ، خصه الله تعالى بها من دون الخلق .

ومهما كتب عنه عليه الصلاة والسلام فلن يوفَّى فضله :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء
إمثَّلوا صفاتك للناس ... كما مثَّل النجوم الماء[2]

رابعًا : وهو مقدَّم على الملائكة :

ففى حديث المعراج فى الصحيحين عن صحبة جبريل عليه الصلاة والسلام للرسول ﷺ حتى سدرة المنتهى :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى .. ﴾[3] . وعند السدرة افترق الصاحبان . حيث وقف جبريل وتقدم الرسول ﷺ . يقول الإمام ابن حجر :

(١) مسلم جـ ١ / ص ٣٣٢ ك الصلاة ب الجهر بالقراءة فى الصبح .
(٢) من همزية البوصيرى .
(٣) النجم / ١٣ - ١٧ .

(وقع فى غير هذه الرواية زيادات رآها رسول الله ﷺ بعد سدرة المنتهى لم تذكر فى هذه الرواية . منها ما تقدم فى أول الصلاة: « حتى ظهرت لمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام » وفى رواية شريك عن أنس كما سيأتى فى التوحيد :« حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة تبارك وتعالى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده خمسين صلاة » الحديث . وقد استشكلت هذه الزيادة . . . وعند ابن أبى حاتم وابن عائذ عن طريق يزيد بن أبى مالك عن أنس : « ثم انطلق حتى انتهى بى إلى الشجرة . فغشينى من كل سحابة فيها من كل لون فتأخر جبريل وخررت ساجداً . . »)[1] .

فنحن مع رسول الله ﷺ الذى تجاوز آفاق السماوات والأرض، وتجاوز عوالم الإنس والجن والملائكة ، فأنى لأحدٍ من البشر أن يدرك آفاق عظمته ؟!

وهو كما وصفه البوصيرى ـ صاحب البردة :

ومحيا كالشمس منك مضىء ... أسفرت عنه ليلة غراء
فهنيئًا به لآمنة الفضل ... الذى شرَّفت به حواء
من لحواء أنها حملت أحمدًا ... وأنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب ... من فخار ما لم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما ... حملت قبل مريم العذراء

(١) فتح البارى ٧/ ٢١٦/ ٤٢ ـ باب المعراج .



الفصل الثانى
السابقون الأولون

التربية النبوية :

وحين نتحدث عن المنهج التربوى للسيرة النبوية . إنما نتحدث عن آثار رسول الله ﷺ فى هذه الأرض ، وفى بنائه خير القرون ، وفى عمله فى صياغة خير أمة أخرجت للناس .

هل تطلبون من المختار معجزة   يكفيه شعب من الأجداث أحياه
وكيف ساس رعاة الإبل مملكة   ما ساسها قيصر من قبل أو شاه

وروى البزار فى مسنده بسند رجاله موثقون من حديث سعيد بن المسيب عن جابر قال :قال رسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: « إن الله اختار أصحابى على الثقلين سوى النبيين والمرسلين »(1) .

فليس لدى الصحابة وحى خاص بهم . إنما هم نماذج بشرية خلقها الله تعالى بخصائص وملكات ومواهب ليست غريبة عن عالم البشر . لكن الشىء الذى تفوقوا به على البشر هو فضل الصحبة لرسول الله ﷺ . هذه الصحبة التى أتاحت لهم أعظم قدر من التربية النبوية على يد معلم البشرية صلوات الله عليه. فكانوا القمة فى الأرض ، والقدوة فى الخلق .

ومهمتنا أن نفقه كيف تمت هذه التربية من خلال آثارها على الأرض والدور الذى قدمته للبشرية .

والذى نؤكد عليه أن الجيل الأول من الصحابة والـذى سماهـم القرآن الكريـم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾ هم الذين تنصب عليهم الدراسة . والسابقون الأولون على قول الشعبى :

(السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية .

وقال أبو موسى الأشعرى وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين وقتادة : هم الذين

---

(1) أورده الإمام ابن حجر فى مقدمة كتابه الإصابة فى تمييز الصحابة ١ / ١٢ ، وهو فى مجمع الزوائد للهيثمى ١٠ / ١٦ .

صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ) (١) .

ونبتدئ بالسابقين الأولين من المهاجرين ثم السابقين الأولين من الأنصار والذين كانوا هم أهل بدر على رأى من قال إنهم الذين صلوا القبلتين . لأن تغيير القبلة كان قد نزل قبل بدر بشهر أو شهرين . قال أبو نعيم الفضل بن ركين (حدثنا زهير عن أبى إسحاق عن البراء أن النبى ﷺ صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه قبلته قبل البيت . وأنه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم. فخرج رجل ممن كان يصلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت . وقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن البراء قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة شهرا) (٢) ،(وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحوَّل إلى الكعبة فنزلت : ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ**. . .﴾) (٣)

(وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلى وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدها هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً ثم صُرف إلى الكعبة)(٤) .

وغزوة بدر الكبرى كانت بعد ثمانية عشر شهراً من الهجرة .

(وفيها (أى السنة الثانية) فى رمضان غزا رسول الله ﷺ غزوة بدر الكبرى وكانت الوقفة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان المعظم وهو يوم الفرقان)(٥).

وإنما لجأ أصحاب الرأى الثانى وهم أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين وقتادة إلى اعتبار الذين صلوا القبلتين هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ولم يعتبروا أهل بدر . لأن بدراً لم يحضرها جميع الصحابة، ولم يعزم عليهم رسول الله ﷺ فى ذلك إنما كان على التخيير (وندب المسلمين للخروج معه وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا لعل الله أن يغنمكموها » فانتدب الناس فخف بعضهم ، وثقل بعض،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٤٤ فى تفسير قوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [الآية ١٠٠] ، وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات وفى بعضهم خلاف .

(٢) صحيح البخارى ١/ ١١٠/٨ كتاب الصلاة (٣١) باب التوجه نحو القبلة .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٨ فى تفسير قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ٢/ ١٢ وقال : رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والبزار ورجاله رجال الصحيح .

(٥) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار فى سيرة النبى المختار لابن الديبع الشيبانى ٢/ ٤٩٨ .

وتخلف عنه بشر كثير ، وكان من تخلف لم يلم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً ، ولم يحتفل لها رسول الله ﷺ احتفالاً بليغاً فقال : « من كان ظهره حاضراً فليركب معنا » .. وحمل سعد بن عبادة رضي الله عنه عشرين جملا)[1]. كما أن هناك العديد من الصحابة الذين كانوا مهاجرين فى الحبشة، أو مقيمين فى قبائلهم بأمر رسول الله ﷺ .

فإذا اعتبرنا بدراً فاصلاً زمنياً . فيمكن القول : إن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم أهل بدر ومن صلى القبلتين فى ذلك الوقت . وهذه هى النخبة القيادية للأمة والتى كان المسلمون يطلقون عليها : أهل الحل والعقد وإذا كانت الآية الكريمة قد تحدثت عن فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . فقد كانت وصية رسول الله ﷺ بهم خاصة .

فعن عبد الرحمن بن عوف قال : لما حضرت النبى ﷺ الوفاة قالوا : يا رسول الله أوصنا ؟قال : « أوصيكم بالسابقين الأولين من المهاجرين وبأبنائهم من بعد، إلا تفعلوه لا يُقبل منكم صرف ولا عدل » [2] .

وفى فضل أصحاب بدر ، وأنهم خير هذه الأمة . ورد من الأحاديث الصحيحة ما بلغ حد التواتر ، نذكر أهمها :

ففى صحيح البخارى عن البراء بن عازب رضي الله عنه :« أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا مؤمن . وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر [3] .

وفى صحيح البخارى : أن جبريل ـ عليه السلام ـ قال للنبى ﷺ : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال: « من أفضل المسلمين » . قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة [4] .

وفى الصحيحين أيضاً أن النبى ﷺ قال : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [5] ،(أى : علم الله أنهم من أهل الجنة لما سبق أنه

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/٣١ ، ٣٢ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٠/١٧، وقال فيه:رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار إلا أنه قال:« أوصيكم بالسابقين الأولين ، وبأبنائهم من بعدهم ،وبأبنائهم من بعدهم » . ورجاله ثقات .

(٣) صحيح البخارى ٥ / ٩٣ ، ٩٤ ك. المغازى / ٦٤ ـ ٦ باب عدة أصحاب بدر .

(٤) صحيح البخارى ٥/١٠٣ ك . المغازى / ٦٤ ـ ١١ ، باب شهود الملائكة بدراً .

(٥) البخارى ٥/٩٩ ك . المغازى ٦٤ ـ ٩ باب فضل من شهد بدراً ، ومسلم ٤/١٩٤١ ك . فضائل الصحابة/ ٤٤ .

لم يشهدها إلا مؤمن ، كما أنه لم يجاوز النهر مع طالوت إلا مؤمن، ومن سبقت له العناية لم تضره الخيانة ، ولم يمت أحد منهم بحمد الله إلا على أعمال أهل الجنة ، ولا ينافى ذلك معاقبتهم على هفواتهم بعد ذلك، أخبر بذلك الكتاب وثبت فى الأخبار كحاطب وسعد وأبى لبابة ومسطح ومرارة وهلال ، والمراد أن الله علم أن ذنوبهم مغفورة بما ينالهم من البلاء والأذى فى الدنيا . وإذا كان كذلك فلم يغفر حينئذ على القطع لأحد ما تأخر من ذنبه إلا لمحمد ﷺ . أخبر بذلك الكتاب وثبت فى الأخبار من قوله : غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، محمول على غفران أول ذنبه وآخره لقوله: « ما قدمت وما أخرّت »، « وأوله وآخره » والله أعلم) (١).

والرأى الأول فى أن السابقين الأولين هم أهل بيعة الرضوان فله وزنه ، فما نزل فيهم من القرآن الكريم يجعلهم القدوة والأئمة فى الصحابة ثم فى الناس بعدهم : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٢) .

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٣) .

وعن حفصة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال النبى ﷺ : « إنى لأرجو ألا يدخل النار أحد ـ إن شاء الله تعالى ـ ممن شهد بدراً والحديبية» (٤).

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » (٥) .

(وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: « أنتم خير أهل الأرض » وكنا ألفاً وأربعمائة) (٦) .

ولابد من الإشارة إلى نقطتين اثنتين :

---

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار فى سيرة النبى المختار لابن الديبع الشيبانى ٢/ ٥٠٠ غزوة بدر الكبرى .

(٢) الفتح / ١٨ . (٣) الفتح / ٢٩ .

(٤) ابن ماجه ٢ / ٤٢٨١ ، وأحمد. صحيح الجامع الصغير للألبانى ٢ / ٣٢٥ .

(٥) أحمد ٣ / ٣٥٠ ، وأبو داود ، والترمذى، ومسلم ،عن أم مبشر ٤/ ١٩٤٢ ، ٢٤٩٦ .

(٦) البخارى ك . المغازى / ٦٤ ب . غزوة الحديبية ٣٥ ج ٥ ص ١٥٧ .

أولاهما : أن أهل بدر جزء من أهل الحديبية . فيما عدا من استشهد منهم أو كان فى مهمة نبوية فقد كانوا جميعاً مع رسول الله ﷺ فى صلح الحديبية . وما تخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار أحد . إنما تخلف بعض أبناء القبائل المجاورة للمدينة وهم الذين نزلت فيهم آيات سورة الفتح من ١٠ ـ ١٧ .

فأهل بدر إذن حازوا الحسنيين . وأحرزوا الفضلين . فضل بدر وفضل بيعة الرضوان .

ثانيهما : فى عقيدة أهل السنة والجماعة : أن أفضل الأمة أولاً :أصحاب بدر، ثم أصحاب بيعة الرضوان. وهذه الإشارة فيمن أتيح له أن يشهد بدراً . ولم يتح له أن يشهد الحديبية .

فيبقى السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أهل بدر هم قيادة الأمة وأهل الرأى فيها . وهم كانوا أهل الحل والعقد فيها .

ولا مجال للتفضيل بين السابقين الأولين من المهاجرين والسابقين الأولين من الأنصار من حيث العموم . أما من حيث الخصوص فالمجال رحب .

(قال محمد بن كعب القرظى : مرَّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَار** ﴾ فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ فقال : أبىُّ بن كعب. فقال :لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال: نعم . قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال: لقد كنت أرى أنا رُفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا . فقال أُبىٌّ : تصديق هذه الآية فى أول سورة الجمعة: ﴿ **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (١) ،وفى سورة الحشر : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ الآية (٢)، وفى الأنفال: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ** . ﴾الآية (٣) ،وذُكر عن الحسن البصرى أنه كان يقرؤها برفع ﴿**الأنصار**﴾ عطفا على: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُون** ﴾ . فقد أخبر الله العظيم أنه رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) (٤) .

لقد كان فقه عمر رضي الله عنه لها كما هى قراءة الحسن البصرى وهى أن الطبقة الأولى هى

---

(١) الجمعة / ٣ .
(٢) الحشر / ١٠ .
(٣) الأنفال / ٧٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٤٤ تفسير سورة التوبة ، الآية : ١٠٠ .

طبقة السابقين الأولين من المهاجرين ،والطبقة الثانية: هي طبقة الأنصار ، والطبقة الثالثة هي طبقة الذين اتبعوهم بإحسان حيث تكون ﴿**الأنصار**﴾ مرفرعة معطوفة على: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُون** ﴾ لكن أُبياً رضي الله عنه وفى القراءة التى عليها معظم القراء هى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار طبقة واحدة ، ومن أجل ذلك عندما فوجئ عمر رضي الله عنه بقراءة أُبيٍّ المعتمدة قال: لقد كنت أرى أنا رُفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا.

أقول :هذا من حيث العموم . أما من حيث الخصوص فالأفضلية قد ثبتت لكل صحابى على حدة من خلال النصوص النبوية الثابتة التى سنعرض لها فيما بعد، والتى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقدم الصحبة وعظمة التأثر والاقتداء بالنبى صلوات الله عليه .

ونلحظ هذه الأفضلية من خلال الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى كتابه فضائل الصحابة: (. . .عن عبد الله بن أبى أوفى قال : شكا عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد، فقال ﷺ: «يا خالد ،لم تؤذى رجلاً من أهلِ بدر ؟ لو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله » فقال : يا رسول الله ، يقعون عليَّ فأرد عليهم ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تؤذوا خالداً ، فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار) [1].

ومهما بلغ عمل المؤمنين بعد الصحابة وجهادهم وعبادتهم فلن يبلغوا أبداً فضل الصحبة: (حدثنا عبد الله قال:حدثنى أبى قال:حدثنا سفيان عن نسير بن ذعلوق قال : سمعت ابن عمر يقول : لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره) [2] .

وفى رواية أخرى:(حدثنا عبد الله حدثنى أبى قال:حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن سفيان ،عن نسير بن ذعلوق قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة خير من عبادة أحدكم أربعين سنة)[3] .

(وفى رواية عن سعيد بن زيد رضي الله عنه يقول : لمشهد شهده الرجل منهم يوماً واحداً فى سبيل الله مع رسول الله ﷺ غبَّر فيه وجهه أفضل من عمل أحدكم ولو عمر ما عمر نوح) [4] .

فإذا كان الفضل مرتبطاً ابتداء بصحبة المصطفى ﷺ فالتفاوت إذن قائم بين الصحابة فيما ذاقوه من هذه الصحبة، وكان السابقون الأولون على هذا هم أفضل هذه الأمة؛ لأنهم تلقوا من التربية النبوية أعظم قسط وأوفر نصيب من أيٍ من غيرهم . . ثم تأتى الطبقة الثالثة : طبقة الذين أسلموا قبل الفتح ﴿ **أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن**

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ، تحقيق وصى الله بن محمد عباس ١/ ٥٧ . وقال فى تخريج الحديث: إسناده صحيح .

(٢) المصدر السابق ١ / ٥٧ . وقال فى تخريج الحديث : إسناده صحيح .

(٣) المصدر السابق ١ / ٦٠ وقال فى تخريج الحديث : إسناده صحيح .

(٤) المصدر السابق ١ / ١٢٥ وقال فى تخريج الحديث : إسناده صحيح .

بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ (١) ثم الذين أسلموا من بعد وقاتلوا كل حسب اقتباسه من معين النبوة الخالد . واستمر هذا الينبوع والعطاء يغذى الأجيال التالية ثلاثة قرون متوالية .

فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتى على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقولون : فيكم من صاحب رسول الله ﷺ فيقولون : نعم ، فيفتح لهم . ثم يأتى على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال : هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون : نعم، فيفتح لهم . ثم يأتى على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون : نعم . فيفتح لهم » (٢) .

ولهذا نرى الدعاء المأثور فى الأمة : (وارض اللهم عن الصحابة والتابعين وتابع التابعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين) .

وأخيراً ونحن نتحدث عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . لابد أن نشير إلى أن فيهم مجموعات متتابعة . فالسابقون الأولون من المهاجرين فيهم الخلفاء الراشدون، ثم العشرة المبشرون ، ثم الخمسون قبل دار الأرقم ، ثم المهاجرون إلى الحبشة ، ثم الذين أسلموا قبل الهجرة .وكل هؤلاء تلقوا من رسول الله ﷺ بصور متفاوتة . وتأثروا فيه بدرجات مختلفة . فكان لكل صحابى مقامه وفضله . وكان لكل طبقة مقامها وفضلها . كذلك حسب ما أثر عنها عن رسول الله ـ صلوات الله عليه .

يقول الإمام الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله :

(نعم ،والذى ذهب إليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ . وأما من اتفق له الذبٍّ عنه والسبق إليه بالهجرة أو النصرة. وضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه لمن بعده . فظهر فضلهم . ومحصَّل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة كما تقدم ، فإن جمع بين مختلف الأحاديث المذكورة كان متجهاً ، على أن حديث: « للعامل منهم أجر خمسين منكم » لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة ، وأيضا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله فى ذلك العمل فأما من فاز به من شاهد النبى ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد . فبهذه الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة) (٣) .

---

(١) الحديد / ١٠ .

(٢) البخارى ج ٥ / ٢ ،ك فضائل أصحاب النبى ﷺ.

(٣) فتح البارى ٧/ ٧، ك ، فضائل أصحاب النبى ﷺ.



الفصل الثالث

قــريـش

اصطفاء الله تعالى قريشاً :

١ - عن شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة . واصطفى من قريش بنى هاشم . واصطفانى من بنى هاشم »(١) .

٢ - عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله ، إن قريشا جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم. فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كبوة من الأرض . قال النبى ﷺ: « إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم، من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلنى من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم . فأنا خيرهم نفساً . وخيرهم بيتاً »(٢) .

٣ - وعن المطلب بن أبى وداعة قال: جاء العباس إلى رسول الله ﷺ فكأنه سمع شيئا فقام النبى ﷺ على المنبر فقال: « من أنا ؟ » قالوا: أنت رسول الله عليك السلام. قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم فرقة . ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » (٣) .

٤ - وعن ابن عمر- رضى الله عنهما - قال : إنا لقعود بفناء النبى ﷺ إذ مرت بنا امرأة فقال بعض القوم : هذه ابنة الرسول ﷺ . فقال أبو سفيان : مثل محمد فى بنى هاشم مثل الريحانة فى وسط النتن . فانطلقت المرأة فأخبرت النبى ﷺ ،فجاء النبى ﷺ يعرف فى وجهه الغضب .فقال : « ما بال أقوال تبلغنى عن أقوام ؟ إن الله خلق السموات سبعاً فاختار العليا منها وأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار بنى آدم واختار من بنى آدم العرب ،واختار من العرب مضر ،واختار من مضر قريشا ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم . فأنا خيار من خيار من خيار،

---

(١) مسلم ، ك الفضائل ٤٣ب. فضل نسب النبى ﷺ ١/ج١ - ٢٢٧٦ج٤ ص ١٧٨٢ .

(٢) الترمذى ، ك المناقب، ب فضل النبى ٥٠ / ١ / ٣٦٠٧ وقال أبو عيسى : «هذا حديث حسن» .

(٣) المصدر السابق ٥٠ / ١ / ٣٦٠٨ وقال أبو عيسى (الترمذى) : «هذا حديث حسن» .

فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ،ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم » [1] .

فضل قريش :

١ ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ دخل عليها فقال: « لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله عز وجل » [2] .

٢ ـ عن على أن النبى ﷺ قال ــ فيما أعلم ــ : « قَدِّمُوا قريشاً ولا تَقَدَّمُوهَا . ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله عز وجل » [3] .

٣ ـ وعن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى قال : قال رسول الله ﷺ : «العلم فى قريش ، والأمانة فى الأزد » [4] .

٤ ـ وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « اطلبوا ــ أو قال : التمسوا ــ الأمانة فى قريش، فإن الأمين من قريش له فضل على أمين من سواهم ، وإن قوى قريش له فضلان على قوى من سواهم » [5] .

٥ ـ وعن جبير بن مطعم قال :قال رسول الله ﷺ: «إن للقرشى مثلى قوة الرجل من غير قريش » قيل للزهرى : ما عنى بذلك ؟ قال : نبل الرأى [6] .

٦ـ وعن رفاعة بن رافع أن رسول الله ﷺ قال لعمر: « اجمع لى قومك » فجمعهم عمر عند بيت رسول الله ﷺ فأتاهم فقال: « هل فيكم أحد من غيركم ؟ » قالوا: نعم، فينا حلفاؤنا ،وفينا بنو إخواننا ،وفينا موالينا . فقال: «حلفاؤنا منا وموالينا منا . وأنتم ألا تسمعون ﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُون ﴾ [7]. فإن كنتم أولئك فذاك وإلا فانظروا ،

---

(١) ذكره ابن تيمية فى اقتضاء الصراط المستقيم / ١٥٥ وقال : ومن الأحاديث التى تذكر فى هذا المعنى ماورويناه من طرق معروفة إلى محمد بن إسحاق الصنعانى. قال الهيثمى ٨/ ٢١٥: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه حماد بن واقد وهو ضعيف يعتبر به وبقية رجاله وثقوا .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٠/ ٣٥ وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . وهو عند أحمد ٤/ ١٠١ و٦/ ١٥٨.

(٣) المصدر السابق ١٠ / ٢٥ وقال : رواه الطبرانى وفيه أبو معشر وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح، وانظر : صحيح الجامع الصغير للألبانى ٤/ ١٣٦ . وقال عنه : صحيح ٤٢٦٠. وقد رواه البزار كذلك .

(٤) المصدر السابق ١٠ / ٢٥ وقال فيه : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وإسناده حسن .

(٥) المصدر السابق ١٠ / ٢٥ وقال فيه : رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى وإسناده حسن .

(٦) المصدر السابق ١٠ / ٢٦ وقال فيه : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبرانى ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح .

(٧) الأنفال / ٣٤ .

لا يأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالأثقال فنعرض عنكم » . ثم رفع يديه فقال : « يا أيها الناس ، إن قريشاً أهل أمانة ، فمن بغاهم العواثر أكبه الله بمنخريه » قالها ثلاثاً (١) .

٧ ـ وعن عبيد الله بن عمر بن موسى قال : كنت عند سليمان بن على فدخل شيخ من قريش . فقال سليمان : انظر الشيخ، فأقعده مقعداً صالحاً فإن لقريش حقاً ، فقلت: أيها الأمير، ألا أحدثك بحديث بلغنى عن رسول الله ﷺ قال : بلى. قلت : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « من أهان قريشاً أهانه الله » . قال : سبحان الله ، ما أحسن هذا ! من حدثك هذا ؟ قال : قلت : حدثنيه ربيعة بن عبد الرحمن، عن سعيد ابن المسيب ،عن عمرو بن عثمان بن عفان . قال قال أبى : يا بنى، إن وُليت من أمر الناس شيئا فأكرم قريشا، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أهان قريشاً أهانه الله » (٢) .

٨ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : بغض بنى هاشم والأنصار كفر، وبغض العرب نفاق (٣) .

٩ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : دخل علىَّ رسول الله ﷺ وهو يقول : «يا عائشة ،قومك أسرع أمتى بى لحاقاً » قالت : فلما جلس قلت : يا رسول الله ، لقد جعلنى الله فداءك ،لقد دخلت وأنت تقول كلاماً ذعرنى. قال : « وما هو؟ » قالت: تزعم أن قومى أسرع أمتك بك لحاقاً . قال : « نعم » قالت : وممَّ ذاك ؟ قال : « تستخلبهم المنايا وتنفس عليهم أمتهم » . قالت : فقلت : فكيف الناس بعد ذلك ؟ أو عند ذلك ـ قال : « دبا يأكل أشداؤه ضعافه حتى تقوم عليهم الساعة » والدبا : الجنادب التى لم تنبت أجنحتها (٤) .

١٠ ـ عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل قوم مادة ،ومادة قريش مواليهم » (٥) .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ١٠ / ٢٩ وقال فيه : رواه البزار واللفظ له ، وأحمد باختصار والطبرانى بنحو البزار ورجال أحمد والبزار وإسناد الطبرانى ثقات .

(٢) المصدر السابق ١٠ / ٢٧ وقال فيه : رواه أحمد وأبو يعلى فى الكبير باختصار والبزار بنحوه ، ورجاله ثقات .

(٣) المصدر السابق ١٠ / ٢٧ وقال فيه : رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

(٤) المصدر السابق ١٠ / ٢٨ وقال فيه :رواه أحمد والبزار ببعضه والطبرانى فى الأوسط ببعضه أيضاً وإسناد الرواية الأولى عند أحمد رجال الصحيح . وهو عند أحمد ٦ / ٩٠ .

(٥) المصدر السابق ١٠ / ٢٨ وقال فيه:رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط وفيه الحجاج بن أرطاة وهو ثقة، وبقية رجاله رجال الصحيح. وهو عند أحمد ٦ / ٢٣٩ .

يقول عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُون ﴾ [١] .

(قيل معناه : لشرف لك ولقومك . قاله ابن عباس ــ رضى الله تعالى عنهما ــ ومجاهد وقتادة والسدى وابن زيد واختاره ابن جرير ولم يحك سواه ، وأورد الترمذى هاهنا حديث الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذا الأمر فى قريش ،لاينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ، ما أقاموا الدين » رواه البخارى ، ومعناه : أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم . فهم أفهم الناس له . فينبغى أن يكونوا أقوم الناس بـه وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كـان خيارهـم وصفوتهـم من الخُلَّص مـن المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابـعهم،وقيـل:معنـاه :﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أى: لتذكيـر لـك ولقومك وتخصيصهـم بالذكر لا ينفى من سواهم ، كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾[٢] وكقوله تعـالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين ﴾[٣]. ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[٤] أى عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له)[٥] .

صلة الاصطفاء بالفضل :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه ﴾ [٦] .

فالله تعالى خالق الخلق حين اصطفى رسوله من خير الفريقين وخير القبائل وخير البيوت جعل فيه خير خصائص الخلق . فهو أزكاهم وأتقاهم وأعقلهم وأحلمهم وأشجعهم وأحكمهم وأكرمهم . ومن هذا المفهوم كذلك ، حين اصطفى الله تعالى قريشاً جعل فيها خصائص ومواهب وطاقات وإمكانات تفوق كل من حولها من البيوت والقبائل والأمم .

لكن المهم فى هذا الأمر هو توظيف هذه الطاقات فى سبيل الله . فحين يرافق هذا الفضل والشرف أن يستعمل فى سبيل الله وفى طاعة الله عندئذ يكون الأجر مضاعفاً ونامياً أما إذا استعمل فى غير ذلك فيكون الوزر مضاعفا كذلك. ويكون سخط الرب أشد على من اصطفاه لرسالة ، فتنكبهـا وسعـى لغيرها ، وأوضح صورة لذلك نساء النبى ﷺ :

---

(١) الزخرف / ٤٤ .
(٢) الأنبياء / ١٠ .
(٣) الشعراء / ٢١٤ .
(٤) الزخرف / ٤٤ .
(٥) تفسير ابن كثير ٦ / ٢٢٨ سورة الزخرف .
(٦) الأنعام / ١٢٤ .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (١) .

هذا من حيث الأجر الأخروى . ومن حيث المجال الدنيوى فالمسؤولية على قدر الطاقات والإمكانات . فكلما ازدادت الطاقات والمواهب كلما ازدادت ضخامة المسؤولية وثقل الأمانة وجسامة التضحيات .

فالجنة حفت بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات .

والذى يعدّه الله تعالى ليكون قائداً للأمة ، وإماماً للهدى ، ثم يتنكب هذا الطريق ويستعمل طاقاته ليكون إمام ضلالة ويتبع هواه . فيستحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وهذا الضلال الذى وقع فيه اليهود فقد اعتبروا اصطفاءهم على العالمين ميزة لهم دون ثمن . وأنهم شعب الله المختار ، ونسوا أنهم حين تنكبوا الطريق وعبدوا الطاغوت لعنهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله وجعل منهم القردة والخنازير .

ومن هذا المنحى نلاحظ كيف أن قريشاً عندما وضعت طاقاتها وإمكاناتها لحرب الله ورسوله ، كيف وقعت فى غضب الله وسخطه . وما خاطب الله تعالى به قريشاً فى القرآن المكى . عن الذين كفروا وما أعد الله لهم من عذاب أليم فى الدنيا والآخرة هو دليل كاف على عظمة هذه المسؤولية ولاشك أن الحديث عن الذين كفروا والذين آمنوا فى القرآن الكريم ماض إلى يوم القيامة ، لكنه نزل أول ما نزل . وخاطب قريشاً ومن حولها . ولذلك كانت الآية القرآنية محكمة بحيث تنفى كل لبس حول هذا الموضوع. فالذكر والشرف للقوم ترافقه المسؤولية الضخمة .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٢) .

وحين خرجت قريش تحاد الله ورسوله فى بدر وتعلن على لسان قائدها أبى جهل: (والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر ، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا)(٣) ،قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيهم : « اللهم هذه قريش قد أقبلت

---

(١) الأحزاب / ٣٠ ، ٣١ .
(٢) الزخرف / ٤٤ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٦١٨/١ .

بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسلك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم أحنهم[1] الغداة » [2] . وأنزل الله عز وجل فيها :

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[3] .

وبعد هذا الإيضاح، أعود لأذكر أن هذه الفضائل والمواهب والطاقات التى أعطاها الله تعالى لقريش ، إنما هى مواهب القيادة وطاقات القيادة وإمكانات القيادة .

ولنعد لنلحظها واحدة إثر أخرى، كما وردت فى الأحاديث الصحيحة والحسنة الآنفة الذكر، نجدها :

أولاً : العلم : كما فى الحديث الثالث: « العلم فى قريش» .

ثانياً : الأمانة : كما فى الحديث الرابع: « اطلبوا ـ أو التمسوا ـ الأمانة فى قريش فإن الأمين فى قريش له فضل على أمين من سواهم » .

ثالثاً : القوة : كما فى الحديث الرابع والخامس: « إن للقرشى مثلَىّ قوة الرجل من غير قريش» و «إن قوى قريش له فضلان على قوى من سواهم» .

رابعاً : الحكمة : كما فى الحديث الخامس قيل للزهرى : ما عُنى بذلك ، عن القوة المضاعفة ؟ قال : نبل الرأى .

وحين نراجع الخصائص المطلوبة فى القيادة والخلافة نلاحظ أنها لا تخرج عن هذه الخصائص الأربعة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ

---

(1) أحنهم : أهلكهم .

(2) السيرة النبوية ١/ ٦٢١ .

(3) الأنفال / ٤٧ ـ ٥١ .

اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

فالعلم فى (البسطة فى العلم) ،والقوة فى (البسطة فى الجسم) .

وحين تقدم يوسف عليه الصلاة والسلام للحكم قال : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) وذلك بعد أن قال له عزيز مصر: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٣) و ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (٤) .

وواضح أن « الأمانة » هى العنصر الرئيسى الثالث فى مواصفات القيادة .

وكلمة (الأمانة) شاملة تتسع لتأتى بمعنى (الاستقامة) و(التقوى) و(العدالة) . وأما الحكمة ورجحان الرأى والقدرة على المحاكمة والدهاء والقوة المعنوية .وما سماه الزهرى فى : (نبل الرأى) واضحة في قول الله عزوجل حين تحدث عن دعائم ملك داود عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾(٥) .

ولو عدنا إلى الخصائص المطلوب توفرها للقائد والحاكم المسلم و (للخليفة) و(للإمام الأعظم) لوجدناها كما وردت فى الأحكام السلطانية :

(فصل : وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة :

أحدها : العدالة على شروطها الجامعة .

الثانى : العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام .

الثالث: سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.

الرابع : سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض .

والخامس : الرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح .

والسادس : الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو .

والسابع : النسب ، وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع

---

(١) البقرة / ٢٤٦ ، ٢٤٧ . (٢) يوسف / ٥٥ . (٣) يوسف / ٥٤ .
(٤) القصص / ٢٦ . (٥) ص / ٢٠ .

عليه . ولا اعتبار بضرار حين شذَّ فجوزها فى جميع الناس[1] .

أما (الثالث) و (الرابع) فى (سلامة الحواس) و (سلامة الأعضاء) فالأصل توفرها فى كل فرد . ولاعبرة بالشذوذ الطارئ . وأما (السابع) فهو مناط الحديث عن قريش فهو (النسب) . وأما الأول (فالعدالة) هى (الأمانة) الواردة فى النصوص . و(الثانى) و(الخامس) و (السادس) هو ماعنيناه بـ (العلم) و(القوة) و(نبل الرأى) . وبهذا نجد أن الله تعالى حين اختص قريشاً بالخلافة والقيادة فقد أعطاها ووهبها الخصائص اللازمة لها .

وبعد هذا العرض نعود إلى النصوص الشرعية التى تتحدث عن أهلية قريش للقيادة فهى من الوفرة حتى جعلت الإجماع منعقداً على (النسب) كشرط سابع من شروط (الخليفة) و (الإمام الأعظم) .

قريش والولاية والحكم والإمامة العظمى :

١ـ (. . . عن عبد الله بن أبى الهذيل قال : كان عمرو بن العاص يتخولنا، فقال رجل من بنى بكر بن وائل : لئن لم تنته قريش ليضعن هذا الأمر فى جمهور من جماهير العرب سواهم . فقال عمرو بن العاص: كذبت، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قريش ولاة الناس فى الخير والشر إلى يوم القيامة ») [2].

٢ ـ (. . . عن حميد بن عبد الرحمن قال: توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر فى طائفة من المدينة . . «فيه : ولقد علمت ياس عد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد : «قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم، وفاجر الناس تبع لفاجرهم » [3] .

٣ ـ « . . . الأئمة من قريش، أبرارها أمراء أبرارها، وفجارها أمراء فجارها ، وإن أمّرت عليكم قريش عبدًا حبشياً مجدعاً فاسمعوا له وأطيعوا ، ما لم يخيّر أحدكم بين إسلامه وضرب عنقه ، فإن خير بين إسلامه وضرب عنقه، فليُقدم عنقه » [4] .

٤ ـ « . . . الأئمة من قريش ، ولهم عليكم حق ولكم مثل ذلك ، ما إن استرحموا رحموا ، وإن استحكموا عدلوا ، وإن عاهدوا وفوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقبل منه صرف ولا عدل » [5] .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى / ٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٠٣/٤ ، والترمذى ح ٢٢٢٧ ج ٤ / ٥٠٣ وقال : «حديث حسن غريب صحيح»، وانظر صحيح الجامع الصغير ١٣٧/٤ ـ ح ٤٢٦٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/١ ، وانظر: صحيح الجامع الصغير للألباني ح٤٢٦٧ ج٤/ ١٣٧ ، وقال عنه: صحيح .

(٤) الحاكم والبيهقى عن على رضي الله عنه صحيح الجامع الصغير للألباني ح٢٧٥٤ ج٢/ ٤٠٦ ، وقال عنه: صحيح .

(٥) مسند الإمام أحمد ٢٩/٣ عن أنس ، والنسائى والضياء، وصحيح الجامع الصغير ح٢٧٥٥ ج٢ / ٤٠٦ وقال عنه : صحيح .

٥ ـ « ... الخلافة فى قريش، والحكم فى الأنصار ، والدعوة فى الحبشة ، والهجرة فى المسلمين ، والمهاجرين بعد » (١) .

والأحاديث التى سبق أن استعرضناها هى التى جعلت الإجماع منعقداً على أن الخلافة العظمى لابد أن تكون فى قريش ، يقول الماوردى : (...والسابع النسب : وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه ، ولا اعتبار بضرار حين شذَّ فجوزها بين الناس ، لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه احتج يوم السقيفة على الأنصار فى دفعهم عن الخلافة لما بايعوا سعد بن عبادة عليها بقول النبى ﷺ: « الأئمة من قريش » فأقلعوا عن التفرد بها ، ورجعوا عن المشاركة فيها حين قالوا : منا أمير، ومنكم أمير ، تسليماً لروايته، وتصديقاً لخبره ورضوا بقوله :نحن الأمراء وأنتم الوزراء، وقال النبى ﷺ : «قدموا قريشاً ولا تَقَدَّموها » .

وليس مع هذا النص المسلم شبهة لمنازع فيه ، ولا قول لمخالف له)(٢) .

ونلاحظ من هذه النصوص كذلك ملاحظات ثلاثاً :

الأولى : أن كفاءة قريش فى الخلافة والإمرة كفاءة عامة فهم ولاة فى (الخير) و(الشر) « فبر الناس تبع لبرهم و فاجرهم تبع لفاجرهم » فهم الذين يملكون مقومات القيادة العظمى ، ولكنهم قد يسيرون يمنة ويسرة حسب الإسلام ودوره فى حياتهم .

الثانية : أن هذه المميزات التى أعطاها الله تعالى لقريش حيث وضع فيهم مقومات القيادة ، حين لا يطبقون منهج الله تعالى وشرعه فى الحكم فيستأثر الهوى فيهم بدل العدل ، عندئذ يقعون فى غضب الله وسخطه ولا تحميهم هذه المؤهلات من ذلك ، وكما يقول النص النبوى :

« فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل منه صرف ولا عدل » .

وهذا ما سبق أن أشرنا إليه من قبل ، وهو ارتباط عظم التكليف والمسؤولية بعظم الطاقات والإمكانات والمواهب المتاحة ، وأن التخلى عن هذه المسؤولية يجعلهم عرضة للعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٨٥، والطبرانى عن عتبة بن عبد ، صحيح الجامع الصغير ح٣٣٣٧ ج٣/ ١٣٦ ، وقال عنه : صحيح .
(٢) الاحكام السلطانية للماوردى ٦ .

عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾(١) .

الثالثة : هى أن الأمير العادى لا يشترط له شرط النسب وهذا يتضح من نص الحديث النبوى: « وإن أمّرت عليكم قريش عبداً حبشياً مجدعاً فاسمعوا له وأطيعوا » .

فالسمع والطاعة واجبان طالما أن هذا الأمير قد أخذ شرعيته من الخليفة ، مهما كان نسبه ومهما كان لونه ، إنما يتخلف السمع والطاعة حين يكون الأمر بمعصية أو يكون الأمر بغير ما شرع الله ، فعندئذ لا سمع ولا طاعة ، وعندئذ : « سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر أمره فنهاه فقتله» (٢) ،و « فإن خير بين إسلامه وضرب عنقه ، فليقدم عنقه » .

* * *

وبعد هذا العرض التمهيدى نشير إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين كانوا جلهم من قريش حسب المصطلح الشرعى الذى يجعل الحلفاء والموالى منهم ،« حلفاؤنا منا ، وموالينا منا » .

وليس بينهم بعد تعميم هذا التصور إلا أفراداً معينين أسلموا من قبائل مجاورة أمرهم رسول الله ﷺ أن يبقوا مع قبائلهم حتى يظهر هذا الأمر مثل : أبى ذر رضي الله عنه وعمرو بن عبسة السلمى ، والطفيل بن عمرو الدوسى وغيرهم .ولم يشهد بدراً من المهاجرين إلا قرشىٌ أصلاً أو حليفٌ أو مولىً لهم . وهؤلاء هم خير أهل الأرض ، ومهمتنا أن نتحدث كيف تمت صياغة هذا الجيل الأول على يد بانى الأمة ومعلم البشرية محمد صلوات الله عليه. . . وبذلك تكون الأرضية التى نتحدث عنها قد رسخت جذورها فى الأعماق ، وعلمنا أن مادة البحث فى السابقين الأولين من المهاجرين هى قريش .

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾(٣) .

---

(١) سورة ص / ٢٦ .

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٨ وقال فيه : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه ضعف .

(٣) سورة قريش .

الأربعة الأوائل

نعرض هنا للنصوص التى تتحدث عن الأربعة الأوائل الذين تشرفوا بالنور الإلهى قبل جميع الأمة ، وأكرمهم الله تعالى بذلك .

١ ـ (حدثنا عبد الله قال : حدثنى أبى قال: نا يوسف بن يعقوب الماجشون أبو سلمة قال: أدركت مشيختنا ومن نأخذ عنه منهم ربيعة بن أبى عبد الرحمن ومحمد بن المنكدر وعثمان بن محمد الأخنسى يقولون : أبو بكر أول الرجال أسلم) (١) .

٢ ـ (حدثنا عبد الله قال : حدثنى على بن مسلم بن سعيد قال: حدثنا يوسف بن يعقوب ـ يعنى الماجشون ـ قال: سمعت مشيختنا أهل الفقه منهم سعد بن إبراهيم ، وصالح بن كيسان وربيعة بن أبى عبد الرحمن وعثمان بن محمد الأخنسى وغير واحد يذكرون : أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال) (٢) .

٣ ـ (حدثنا عبد الله قال : حدثنا عبد الله بن صندل قال:حدثنا عبدالعزيز الدراوردى ،عن عمر بن عبد الله مولى غفرة عن محمد بن كعب : أن أول من أسلم من هذه الأمة برسول الله خديجة . وأول رجلين أسلما أبو بكر الصديق وعلى ، وأن أبا بكر أول من أظهر إسلامه) (٣) .

وتعرض السيرة النبوية إسلامهم على الصور التالية :

٤ ـ (قال أبو عمر : اتفقوا على أن خديجة أول من آمن ،وقال أبو الحسن بن الأثير : خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين ،لم يتقدمها رجل ولا امرأة ، وأقره الذهبى ، وقال محمد بن كعب القرظى : أول من أسلم من هذه الأمة برسول الله ﷺ خديجة ـ رضى الله تعالى عنها ـ رواه البيهقى .

وروى الدولابى عن قتادة والزهرى قالا : كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله ﷺ من النساء والرجال .

وحكى الإمام الثعلبى الاتفاق على ذلك . وقال النووى : إنه الصواب عند جماعة

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ٢٢٣ تحقيق وصى الله بن محمد عباس . وقال عنه : إسناده صحيح .
(٢) المصدر السابق / ٢٢٤ وقال عنه : إسناده صحيح .
(٣) المصدر السابق / ٢٢٥ وقال عنه : إسناده صحيح .

من المحققين . . . وقال الواقدى : أجمع أصحابنا أن أول المسلمين استجاب لرسول الله ﷺ خديجة) (١).

الوحى الأول وخديجة :

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : أول مابدئ به رسول الله ﷺ : الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح . ثم حُبّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث به ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : « ما أنا بقارئ » . قال: « فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى »، فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ » قال : «فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى »، فقال : اقرأ . قلت: «ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى ، فقال : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم** ﴾ (٢). فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ فقال :« زملونى زملونى » فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها بالخبر : « لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق،فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى . فقالت له خديجة : يا بن عم، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا بن أخى ،ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزَّل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً (٣) ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ: « أومخرجى هم ؟ » قال : نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى» (٤) .

وقال ابن إسحاق : (حدثنى وهب بن كيسان(٥) مولى آل الزبير قال :

---

(١) سبل الهدي والرشاد للإمام الصالحى ٢/ ٤٠٢ .
(٢) العلق / ١ـ٣.
(٣) جذعاً : شاباً قوياً .
(٤) البخارى ك١ ، ب١ .
(٥) وهب بن كيسان : ثقة من كبار الرابعة .

سمعت عبد الله بن الزبير[1] وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثى[2] : حدثنا يا عبيد كيف كان ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ قال : فقال عبيد ـ وأنا حاضر ـ يحدث عبد الله بن الزبير، ومن عنده من الناس :

كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية ـ والتحنث : التبرر ـ فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً ، أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى ما أراده من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر : شهر رمضان ـ خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله تعالى فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى ، قال رسول الله ﷺ: « فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ . قلت: ما أقرأ ؟ » قال : « فغتنى به حتى ظننت أنه الموت »، ثم أرسلنى فقال: اقرأ » قال : « قلت: ما أقرأ ؟ » قال : « فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ». ثم أرسلنى فقال: اقرأ . قال : « قلت: ماذا أقرأ ؟ » قال : « ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى »،فقال : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [3] ، قال : «فقرأتها ثم انتهى ، فانصرف عنى ،وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً » قال: « فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يامحمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل » قال : « فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل » قال: « فوقفت أنظر إليه ما أتقدم ولا أتأخر،وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء » قال : « فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك، ثم انصرف عنى ، وانصرفت راجعاً إلى أهلى ، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا إليها. فقالت: يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىّ ، ثم حدثتها بالذى رأيت » .

---

(١) عبدالله بن الزبير : أول مولود فى الإسلام .

(٢) عبيد بن عمير بن قتادة : مجمع على ثقته .

(٣) العلق / ١ ـ ٥ .

فقالت: أبشر يابن عم واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة. ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ،ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، وأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع فقال ورقة بن نوفل : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتينى ياخديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف وصنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها : فلقيه ورقة ابن نوفل وهو يطوف بالكعبة ، فقال : يا بن أخى أخبرنى بما رأيت وما سمعت ؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذّبنّه ، ولتؤذينّه ، ولتخرجنّه ، ولتقاتلنّه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه فقبّل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله) (١) .

إسلام على رضي الله عنه :

قال ابن إسحاق : (ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ وصدَّق بما جاءه من الله على بن أبى طالب . كان رسول الله ﷺ وخديجة يصليان سرا، ثم إن على بن أبى طالب جاء بعد ذلك بيوم فوجدهما يصليان فقال على: ما هذا يا محمد ؟ فقال رسول الله ﷺ :« دين الله الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته وكفر باللات والعزى ». فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل هذا اليوم ، فلست بقاضٍ أمرا حتى أحدِّث به أبا طالب ، وكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره فقال له:«يا على، إذا لم تسلم فاكتم هذا. فمكث على تلك الليلة، ثم إن الله تعالى أوقع فى قلب على الإسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علىّ يا محمد ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد » .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٣٥ - ٢٣٩ ، ويقول السهيلى فى تعليقه على بعض نقاط الاختلاف بين الروايتين :(وذكر نزول جبريل على رسول الله ﷺ : قال فى الحديث: «فأتانى وأنا نائم » وقال فى آخره: « فهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً » وليس ذكر النوم فى حديث عائشة ولا غيرها ، وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبى ﷺ جاءه جبريل فى المنام قبل أن يأتيه فى اليقظة توطئة وتيسيرا عليه ورفقاً به ، لأن أمر النبوة عظيم وعبؤها ثقيل ، والبشر ضعيف ، وسيأتى فى حديث الإسراء من مقالة العلماء ما يؤكد هذا ويصححه). انظر: الروض الأنف للسهيلى ١/٢٦٨، ٢٦٩ .

ففعل على رضي الله عنه وأسلم ، فمكث عليّ يأتيه على خوف من أبى طالب وكتم إسلامه ولم يظهره) (١) .

فرض الصلاة :

(حدثنا أحمد حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال : ثم إن جبريل أتى رسول الله ﷺ حين افترضت الصلاة فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى فانفجرت منه عين ماء مزن . فتوضأ جبريل عليه السلام ، ومحمد ينظر إليه ، فوضأ وجهه ومضمض واستنشق ومسح برأسه وأذنه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه ، ثم قام فصلى ركعتين ، وسجد أربع سجدات على وجهه ، ثم رجع النبى ﷺ وقد أقر الله عينه، وطابت نفسه، وجاءه ما يحب من الله فأخذ بيد خديجة حتى أتى بها العين ، فتوضأ كما توضأ جبريل ، ثم ركع ركعتين ، وأربع سجدات هو وخديجة ثم كان هو وخديجة يصليان سرا) (٢) .

(وعن أسامة بن زيد بن حارثة ــ رضى الله تعالى عنهما ــ أن جبريل أتى النبى ﷺ فى أول ما أوحى إليه فأراه الوضوء والصلاة ، فلما فرغ من الوضوء حتى حفنة من الماء فنضح بها فرجه .

رواه الإمام أحمد والدارقطنى من طريق رشدين بن سعد وهو ضعيف . . . ورواه أبو نعيم من طريق النضر بن سلمة وهو ضعيف عن عائشة ، ورواه أبو نعيم من طريق يزيد بن رومان عن الزهرى عن عروة عن عائشة ، وهذه الطرق يقوى بعضها بعضا ويدل على أن للقصة أصلاً ، وقد ذكر القصة ابن إسحاق ، ورواها البلاذرى عن الزهرى وقتادة والكلبى) (٣) .

أما رواية أبى نعيم والبيهقى من طريق يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ، فذكر مجىء جبريل ـ عليه السلام ـ وحديث البعث وفى آخره : (ففتح جبريل عينا من ماء فتوضأ ومحمد ﷺ ينظر إليه، فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ، ومسح برأسه وغسل رجليه إلى الكعبين ، ثم نضح فرجه وسجد سجدتين مواجهة البيت، ففعل محمد كما رأى جبريل يفعل) (٤) .

وروى الترمذى واستغربه، وابن جرير عن جابر قال : بعث رسول الله ﷺ يوم الإثنين ،وصلى عليّ يوم الثلاثاء (٥) .

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق . تحقيق سهيل زكار / ١٣٧ ، وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٣/ ٤٠٣ .

(٢) المصدر نفسه لابن إسحاق / ١٣٦ .

(٣) سبل الهدي والرشاد للإمام الصالحى ٢/ ٤٠٣ .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٠٣ .

(٥) الترمذى ك فى المناقب ج٥ ح ٣٧٢٨ ص ٦٤٠ .

صلاة على وخديجة :

(وعن عفيف الكندى قال : وكنت امرأ تاجرا ، فقدمت مكة فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبايع منه بعض التجارة وكان امرأ تاجرا قال : فوالله إنى لعنده بمنى إذ خرج رجل من خباء قريب منه، إذ نظر إلى السماء، فلما رآها مالت قام يصلى ، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذى خرج منه الرجل فقامت خلفه تصلى ، ثم خرج غلام حين ناهز الحلم من ذلك الخباء فقام معه يصلى قال : فقلت للعباس : يا عباس ما هذا ؟! قال: هذا محمد ابن أخى ابن عبد الله بن عبدالمطلب . قال : قلت : من المرأة ؟ قال : هذه امرأته خديجة ابنة خويلد. قال: فقلت : من هذا الفتى؟ قال : هذا علىّ بن أبى طالب ابن عمه . قال : قلت : فما هذا الذى يصنع ؟ قال : يصلى ، ويزعم أنه نبى ، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى ، وهو يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر . قال : فكان عفيف يقول ـ وهو ابن عم الأشعث بن قيس وأسلم بعد وحسن إسلامه : لو كان الله رزقنى الإسلام يومئذ فأكون ثانيا مع على ابن أبى طالب) (١).

إسلام أبى بكر الصديق :

(حدثنى عباس بن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه عن جده عن أبى صالح وغيره قالوا : كان سبب إسلام أبى بكر ــ رضى الله تعالى عنه ــ أنه كان صديقا لرسول الله ﷺ يكثر غشيانه فى منزله ومحادثته ويعرف أخباره ، فلما دعى رسول الله ﷺ إلى النبوة أتى معه ورقة بن نوفل وسمع قوله فيه ، فكان متوقعا لما اختصه فيه من كرامته) (٢) .

(وحدثنى محمد بن سعد عن الواقدى عن عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن أبى أنس عن أبيه عن عبد الرحمن بن سفينة قال :

كان أبو بكر يحدث أن رسول الله ﷺ عرض عليه الإسلام، فما زاد على أن قال : « أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله » . قال : فقلت : قد أجبتك إلى ما دعوت إليه، وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، قال : فما أمسى من ذلك اليوم حتى أسلم نفر من المسلمين دعاهم أبو بكر إلى الإسلام) (٣) .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ١٠٣/٩ ، وقال فيه : رواه أحمد وأبو يعلي بنحوه والطبراني بأسانيد ورجال أحمد ثقات .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ، فى كتاب : الشيخان . تحقيق د. إحسان صدقى العمدة / ١٩ .

(٣) أنساب الأشراف / ٢٢ .

(أبو الحسن على بن محمد المدائنى عن عيسى بن يزيد عن شرحبيل بن سعد قال:

قال أبو بكر : بينا أنا فى منزلى . وأنا أريد الطائف وحكيم بن حزام،إذ دخل علىّ الحارث بن صخر[1] فتحدث ،ودخل حكيم بن حزام فقال له الحارث: يا أبا خالد،زعم نساؤنا أن عمتك خديجة تزعم أن زوجها رسول الله ، فأنكر ذلك حكيم ، ودعوت لهما بطعام من سفرة أمرت باتخاذها لسفرنا ، فأكلا وانصرف الحارث، فقلت لحكيم : والله ما رأيت فى وجهك إنكار ماقال لك فى عمتك . فقال حكيم : والله لقد أنكرنا حالها وحال زوجها ، ولقد أخبرتنى صاحبتى أنها تسب الأوثان ، وما ترى زوجها يقرب الأوثان . قال أبو بكر : فلما أبردت خرجت أريد النبى ﷺ ، فابتدأت فذكرت موضعه من قومه وما نشأ عليه وقلت: هذا أمر عظيم لا يقارّك قومك عليه . قال :« يا أبا بكر، ألا أذكر شيئا إن رضيته قلته ، وإن كرهته كتمته ؟» قلت:هذا أدنى ما لك عندى، فقرأ علىّ قرآناً ببدء أمره ، فقلت : أشهد أنك صادق وأن ما دعوت إليه حق ، وأن هذا كلام الله ، وسمعتنى خديجة فخرجت وعليها خمار أحمر ، فقالت : الحمد لله الذى هداك يا بن أبى قحافة ، فما رمت مكانى حتى أمسيت ، فخرجت فإذا مجلس من بنى أسد بن عبد العزى فيهم الأسود بن عبد المطلب وأبو البخترى.فقالوا :من أين أقبلت ؟ قلت :من عند ختنكم وابن عمكم محمد بن عبد الله ، ذكرت لى عنده سلعة يبيعها بنسيئة ، فجئت إليه لأسومه بها فإذا سلعة ما رأيت مثلها ، قالوا : إنك لتاجر بصير ، وما كنا نعلم محمدا يبيع السلع ،ولا أنت ممن يبتاع السلع بنسيئة . وأتانى حكيم يقود بعيره ، فقال: اركب بنا . قلت : قد بدا لى أن أقيم ، إنى وقعت بعدك على بضاعة بنسيئة ما عالجت قط أبين ربحا منها ، قال : وعند من هى ؟ فما أعلمها اليوم بمكة . قلت : بلى وأنت دللتنى عليها ، فإن سميتها لك ، فالله لى عليك أن تكتمها ولا تذكرها لأحد؟ قال : نعم لك الله علىّ ألا أذكرها لأحد . قلت : فإنها عند ختنك محمد بن عبد الله .قال : وما هى ؟ قلت : لا إله إلا الله . فوجم ساعة . فقلت : مالك يا أبا خالد ، أتتهمنى على عقلى ودينى ؟! قال : لا ، وما أحب لك ما فعلت)[2].

قال ابن إسحاق : (ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة) .

روى البيهقى عن ابن إسحاق أن أبا بكر ــ رضى الله تعالى عنه ــ لقى رسول الله

---

(١) الحارث بن صخر . هو الحارث بن خالد بن صخر التيمى ابن خال أبى بكر الصديق ، وكان قديم الإسلام بمكة وهاجر إلى الحبشة .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري وفى ، كتاب (الشيخان) برواية البلاذري تحقيق د. إحسان صدقى العمدة/ ٢٢.

ﷺ فقال : أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا وتسفيهك عقولنا وتكفيرك إيانا ؟ فقال رسول الله ﷺ :« بلى إنى رسول الله ونبيه بعثنى لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنه لحق ، فأدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته»، وقرأ عليه القرآن فلم يعزٍ ولم ينكر بل أسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقر بحق الإسلام ، ثم رجع إلى أهله وقد آمن وصدق) (١) .

وروى البيهقى عن عمرو بن شرحبيل (أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : « إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا » فقالت: معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ، ثم ذكرت خديجة حديثه له وقالت : يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورقة . فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده . فقال: انطلق بنا إلى ورقة . فقال : « ومن أخبرك ؟ » قال : خديجة ، فانطلقنا إليه ، فقصا عليه . فقال : « إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد يا محمد ، فأنطلق هارباً فى الأرض » قال :لا تفعل،فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ، ثم ائتنى فأخبرنى . فلما خلا ناداه : يا محمد ، قل: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ حتى بلغ ﴿ **وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾ (٢) قل: لا إله إلا الله فأتى ورقة فذكر ذلك له فقال له ورقة: أبشر، ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بشرً به ابن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبى مرسل ، وأنك سوف تؤمر بالجهاد وبعد يومك هذا ، ولئن أدركنى ذلك لأجاهدنً معك . فلما توفى ورقة قال رسول الله ﷺ : «ولقد رأيت القس فى الجنة عليه ثياب الحرير ، لأنه آمن بى وصدقنى » يعنى ورقة .

فهذا منقطع فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾ (٣) ، و ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** ﴾ (٤) والله أعلم (٥) .

إسلام زيد بن حارثة :

قال ابن إسحاق :(ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى بن امرؤ القيس الكلبى ، مولى رسول الله ﷺ وكان أول ذكر أسلم ، وصلى بعد على بن أبى طالب) (٦) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ . ط. مكتبة المنار مع شرح أبي ذر الخشني ، تحقيق د. همام سعيد وزميله.

(٢) الفاتحة . (٣) العلق . (٤) المدثر .

(٥ ، ٦) دلائل النبوة ٢ / ١٥٨ تحقيق عبد المعطى قلعجى .

وقال المحب الطبرى تبعاً لأبى عمرو بن الصلاح :

(الأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها، فيقال : أول من أسلم مطلقا خديجة، وأول ذكر أسلم على بن أبى طالب ،وهو صبى لم يبلغ وكان مخفيا إسلامه، وأول رجل عربى بالغ أسلم وأظهر إسلامه أبو بكر بن أبى قحافة،وأول من أسلم من الموالى : زيد . وقال: هذا متفق عليه لا خلاف فيه ، وعليه يحمل قول على وغيره : أول من أسلم من الرجال أبو بكر : أى من الرجال البالغين) (١) .

(ويؤيده ما رواه خيثمة فى فضائل الصحابة عن الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : إن أبا بكر سبقنى إلى أربع لم أعتض بشىء منهن؛ سبقنى إلى إفشاء الإسلام ، وقدم الهجرة، ومصاحبته إلى الغار ، وأقام الصلاة وأنا يومئذ بالشعب يظهر إسلامه وأخفيه . . . الحديث) (٢) .

(١، ٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢/٤٠٧ .

الرجـــل الأول فى الأمة

لقد كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرجل الأول فى الأمة المحمدية بلا خلاف، وهذه النصوص تشهد بذلك :

١ـ (حدثنا عبد الله قال : حدثنى أبى قال :حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة عن الحكم قال : سمعت أبا جحيفة قال :سمعت عليا قال: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها ؟ فقالوا : نعم . فقال : أبو بكر) (١) .

٢ـ (حدثنا عبد الله قال : حدثنى أبو معمر قال :حدثنا أبو داود الحفرى عن بدر ابن عثمان عن عبدالله بن مروان قال : حدثنى أبو عائشة ـ وكان امرأ صدق ـ عن عبدالله بن عمر قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « إنى رأيت آنفا كأنى أتيت بالمقاليد والموازين ، فأما المقاليد فهى المفاتيح ، وأما الموازين فهى موازينكم هذه ، فرأيت كأنى وضعت فى كفة الميزان ، ووضعت أمتى فى كفة فرجَحْتُ بهم ثم وضع أبو بكر ووضعت أمتى فرجح بهم . . . . ») (٢) .

٣ـ (حدثنا عبدالله قال : حدثنى وهب بن بقية الواسطى قال: حدثنا عمر بن يونس اليمامى عن الحسن بن زيد بن حسن قال : حدثنى أبى عن أبيه عن على قال : كنت عند النبى ﷺ فأقبل أبو بكر وعمر فقال : « ياعلى، هذان سيدا كهول أهل الجنة وشبابها بعد النبيين والمرسلين ») (٣) .

* * *

ونلحظ من هـذه النصوص الثلاثة أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هـو خـير هـذه الأمـة بعـد نبيـها ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما فى الحديث الأول .

وهو : يعدل الأمة كلها ويرجح عليها كما فى الحديث الثانى .

وهو : خير الأمم وخير ولد بنى آدم بعد النبيين والمرسلين ، فهو سيد كهول وشباب أهل الجنة .

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ، وقال فيه المحقق : إسناده صحيح / ٧٩ .

(٢) المصدر السابق، وقال فيه المحقق : إسناده صحيح ١/ ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، وقال فيه المحقق : إسناده حسن ١/ ١٥٨ .

إذن، فنحن أمام عملاق لا نظير له ولا مثيل من البشر بعد الأنبياء والمرسلين، فمن أين جاءه هذا الفضل ، وكيف حاز هذا السبق ؟

من حيث الطاقات والمواهب :

لقد حاز رضي الله عنه عنه جميع مستويات الاصطفاء إلا الاصطفاء الأخير من بنى هاشم ، فهو عربى قرشى

ونسبه :

عبد الله بن عثمان ـ أبو قحافة ـ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، فهو إذن جزء من هذه القبيلة التى تحدثنا عنها والتى تحمل مقومات القيادة بعامة .

ننتقل بعد هذه الخصائص العامة إلى أهم المقومات الشخصية له رضي الله عنه :

١ ـ الصديق :

لقد مضى هذا الاسم علما على أبى بكر رضي الله عنه لم ينازعه فيه أحد . وهذا التصديق منبثق من الإيمان الذى وقر فى قلبه رضي الله عنه ،فقد أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن عمر رضي الله عنه قال : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم (١) .

ولا غرابة فى ذلك فقد مر معنا الحديث الصحيح السابق « .. ثم وضع أبو بكر ووضعت أمتى فرجح بهم » ولا شك أن هذا الرجحان هو بهذا الإيمان العظيم الذى ملأ عليه كيانه ووجوده .

ومقام الصديقية هو أعلى المقامات فى الوجود بعد مقام الأنبياء .. وقد لقبه عليه الصلاة والسلام هذا اللقب ولم تلقبه الأمة . ففى الحديث ـ الصحيح الذى رواه البخارى ـ عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه حدثهم أن النبى ﷺ صعد أحدا وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : « اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان »(٢) .

فهو الصديق كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنه .

بل نجد فى رواية أخرى أن هذه التسمية جاءت من عند الله ـ عز وجل ـ فعن حكيم ابن سعد قال : سمعت عليا يحلف : لله أنزل اسم أبى بكر من السماء الصدِّيق (٣) .

---

(١) البخاري باب مناقب المهاجرين وفضلهم ج ٥ ص ١١ م ٢ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي / م٥ / ج٩ / ٤٠ . وقال عنه : رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

(٣) السيرة النبوية لابن إسحاق . ت . سهيل زكار / ١٣٩ .

وهو لم يشك في الإسلام لحظة واحدة حين دعي إليه كما روى ابن إسحاق .

وحدثنا أحمد حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال : حدثنى محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن الحصين التميمى أن رسول الله ﷺ قال: « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما عتم حين ذكرته له وما تردد فيه » .

وقد حفظ له ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا المعنى ، وأثنى على تصديقه له :

(فعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته فقال النبى ﷺ : « أما صاحبكم فقد غامر » . فسلم وقال : إنى كان بينى وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى علىَّ فأقبلت إليك . فقال : « يغفر الله لك يا أبا بكر » ثلاثاً . ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبى بكر فسأل أثمَّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى إلى النبى ﷺ . فسلم فجعل وجه النبى يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال : يا رسول الله ، والله أنا كنت أظلم مرتين . فقال النبى ﷺ : « إن الله بعثنى إليكم فقلتم : كذبت وقال أبو بكر : صدق . وواسانى بنفسه وماله . فهل أنتم تاركون لى صاحبى ؟ » مرتين . فما أوذى بعدها) (١) .

٢ ـ الأمين :

وهو الأمين الزاهد فى الدنيا والراغب فى الآخرة : (فعن زيد بن ثبيع عن على رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله من يؤمر بعدك ؟ قال : « إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً فى الدنيا راغبا فى الآخرة ») (٢) .

ولا شك أن الصديقية هى مفتاح شخصيته . فقد كان يأخذ كل أمر بقوة كما ورد عن النبى ﷺ ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ (٣) ولا يرد إلى قلبه لحظة الوهن أو الضعف أو الشك . وحين نعرف هذا المفتاح نعرف سر عظمة هذه الشخصية التى قدَّر الله تعالى لها أن تكون الرجل الأول بجوار رسول الله ﷺ والرجل الأول بعده .

وهو كذلك فى سجل الأنبياء الأقدمين (فعن عبد الله بن عمر قال : وجدت فى بعض الكتب يوم غزونا اليرموك : أبو بكر الصدِّيق أصبتم اسمه ، عمر الفاروق قرن من حديد . . .) (٤) .

---

(١) البخارى باب مناقب المهاجرين م٢ ج ٥ / ٦ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ٢٣١ وقال المحقق : إسناده حسن .

(٣) البقرة / ٩٣ .

(٤) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ١٠٣ وقال المحقق : إسناده حسن .

ولهذا كان السباق الذى لم يبلغ شأوه أحد .

وإذا أردنا أن ندرك سر هذه العظمة ، وسر هذه الصفة . فنقول : إن المواهب والخصائص التى أعطاها الله تعالى له . قد قدَّر الله تعالى لها أن تنمو وتزكو على يدى رسول الله ﷺ . إن أكثر الناس صحبة فى الوجود لرسول الله هو أبو بكر الصديق . فهو صديقه منذ صباه . وإذن فقد كان يقتبس من النبى ﷺ منذ ذلك الوقت . وقبل الوحى وقبل الرسالة وكان ينهل من هذا النور ما شاء الله تعالى له أن ينهل . ولا أحد غيره بلغ هذا المبلغ وهذا الأمر متواتر ومعروف وكما مر معنا فى الرواية السابقة :

(كان سبب إسلام أبى بكر - رضى الله تعالى عنه - أنه كان صديقا لرسول الله ﷺ، يكثر غشيانه فى منزله ومحادثته ، ويعرف أخباره) .

ونستطيع أن نقول : إن أعظم الناس فقها بشخص رسول الله ﷺ هو الصديق لقد تلقى أعظم قدرٍ من التربية النبوية ، وأخذ من مشكاة النبوة ما لم يأخذه أحد :(فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ الناس وقال : « إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله » . قال : فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه، أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر فكان رسول الله ﷺ هو المخير . وكان أبو بكر أعلمنا فقال رسول الله ﷺ : « إنّ من آمن الناس علىَّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذا خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته. ألا لا يبقين باب إلا سد إلا باب أبى بكر ») (١) .

فالصحبة التى كانت قديمة أقدم من الدعوة . والله تعالى أثنى على أبى بكر رضي الله عنه فسماه صاحبه ﴿ ... **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ (٢) .

والمسلمون جميعا يعرفون هذا بأبى بكر رضي الله عنه .

(قال حسان بن ثابت :

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة	فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
القائم الثانى المحمود مشهده	وأول الناس منهم صدَّق الرسلا
خير البرية أتقاها وأعدلها	إلا النبى وأوفاها بما حملا
برا حميدا لأمر الله متبعا	يهدى بصاحبه الماضى وما انتقلا

(١) البخارى باب مناقب المهاجرين وفضلهم / م٢ ج ٥ / ٥ .
(٢) التوبة / ٤٠ .

قال: وقال الزهرى : أنشد حسان النبى ﷺ :

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعَّدوا الجبلا
وكان حبَّ رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به بدلا

فقال رسول الله ﷺ : « صدق »[1] .

تمثله الصفات النبوية:

ولسنا هنا بصدد تعداد فضائل الصديق رضي الله عنه أو ترجمته . ولقد أثنى الله تعالى عليه فى كتابه الكريم بأكثر من موضع . وأثنى عليه رسول الله ﷺ . ولكننا فى مجال عرض طاقاته وخصائصه أولاً . وبعدها نعرض للتربية النبوية التى تلقاها رضي الله عنه من النبى ﷺ .

يقول ابن إسحاق :

(فلما أسلم رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله عز وجل وكان رجلاً مؤلفاً لقومه محببا سهلاً . وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويتالفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته)[2] .

فعلمه وعراقة علمه بأخبار قومه من خير وشر ، وعلمه بأنساب قريش ، وحسن خلقه هيأت له هذه القدرة على التغلغل فى قومه والتأثير فيهم ، ودعوتهم إلى الله عز وجل.

ويكفى أن نذكر من هذه الصفات الخلقية التى كانت عنده فى الجاهلية ما ورد فى قصة هجرته مع ابن الدغنة :

(فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر رضي الله عنه مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر: أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى، قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتعين على

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى عن كتاب الشيخان / ٢٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ / ٣٧١ ط . مكتبة المنار.

نوائب الحق فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك . . .) (١) .

وحين نقارن بين هذين النصين ، نلحظ مدى تأثر شخص الصديق رضي الله عنه بشخص رسول الله ﷺ .

النص الأول : جواب خديجة ـ رضى الله عنها ـ لرسول الله ﷺ :

« إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

والنص الثانى : جواب ابن الدغنة لأبى بكر الصديق رضي الله عنه : « إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الحق » .

حين نقارن هذين النصين، ندرك مدى التطابق الخلقى بين رسول الله ﷺ وبين أبى بكر الصديق ، وهذا يعنى أن الصديق كان يحرص على أن يتمثل أخلاق النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كاملة فى الجاهلية قبل الإسلام ، ويظهر مدى تأثره فيه ، ويظهر عظمة التربية النبوية له .

ومن أجل هذا لم يتردد الصديق رضي الله عنه لحظة واحدة أن ينتقل من صديق حميم إلى جندى تابع مؤمن برسول الله ﷺ بعد أن كان ندا وصديقاً وصاحبا له .

الإرهاصات وأبو بكر :

لم يكن أبو بكر رضي الله عنه بعيداً عن جو الإرهاصات التى كانت تسود مكة وتعج بها كتب أهل الكتاب عن زمان نبى أظل قدومه ، وصلته الوثيقة برسول الله ﷺ وإعجابه بخلقه وشخصه . لا يجعله يتردد لحظة واحدة عن الإيمان به حين يذكر ذلك . فهو يعرف صدقه وأمانته أكثر مما يعرفه أحد آخر . ولدينا حديث الراهب بحيرى سنعرضه على ما قال به المحدثون :

(فعن أبى موسى الأشعرى قال : (خرج أبو طالب إلى الشام فخرج معه رسول الله ﷺ فى أشياخ من قريش . فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم . فخرج إليه الراهب . وكانوا من قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت قال : فهم يحلون رحالهم . فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك ؟ قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يمر بشجرة ولا حجر إلا

(١) البخارى ، باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة / م٢ . ج ٥ / ٧٣ .

خرَّ ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبى . وإنى أعرفه خاتم النبوة فى أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة . ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به وكان هو فى رعية الإبل قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله . فقال : انظروا عليه غمامة تظله ! فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة ، فلما جلس مال فىء الشجرة عليه . فقال : انظروا فىء الشجرة مال عليه . قال : فبينا هو قائم عليهم وهو يناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلوه . فالتفت فإذا هو بتسعة. وفى رواية الأصم: بسبعة نفر قد أقبلوا من الروم ، فاستقبلهم فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا إلى هذا النبى خارج فى هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس وإنا أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا ، فقال لهم :هل خلفتم خلفكم أحداً هو خير منكم؟ قالوا : لا . إنا أخبرنا طريقك هذا ، قال : أفرأيتم أمراً أراد الله عز وجل أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس ردَّه ؟ قالوا : لا . قال : فتابعوه وأقاموا معه . قال: فأتاهم . فقال : أنشدكم الله أيكم وليه ؟ فقالوا : أبو طالب . فلم يزل يناشده حتى رده . وبعث معه أبو بكر رضي الله عنه بلالاً . وزوَّده الراهب من الكعك والزيت . قال أبو العباس: سمعت العباس يقول : ليس فى الدنيا مخلوق يحدث به غير قراد وسمع هذا أحمد ويحيى بن معين من قراد . قلت : وإنما أراد به بإسناده هذا موصولاً . فأما القصة فهى عند أهل المغازى مشهورة) [1].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٢٦ وهى عند الترمذى فى جامعه فى ٥٠ /كتاب المناقب (٣) باب ما جاء فى بدء نبوة النبى ﷺ الحديث (٣٦٢٠) وقال أبو عيسى : «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٦١٥٢ ـ ٦١٧ وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه »وقال الذهبى : «أظنه موضوعاً فبعضه باطل ونقله ابن كثير فى البداية والنهاية (٢ : ٢٨٥ ، ٢٨٦) عن البيهقى وعن الحاكم وعن الترمذى وابن عساكر، وعقب عليه بقوله: فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعرى إنما قدم فى سنة خيبر ــ سنة سبع من الهجرة ــ ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق فى جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة، وعلى كل تقدير فهو مرسل، فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر ثنتا عشرة سنة ولعل أبا موسى تلقاه من النبى ﷺ فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة ، أو كان مشهورا مذكورًا أخذ من طريق الاستفاضة، وفيه : أن الغمامة لم تذكر فى حديث أصح من هذا . الثالث أن قوله : وبعث معه أبو بكر بلالاً إن كان عمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا ذاك ثنتى عشرة سنة فقد كان عمر أبى بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشر ، وعمر بلال أقل من ذلك فأين كان أبو بكر إذا ذاك ؟ وأين كان بلال ؟ كلاهما غريب . ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ــ فى زاد المعاد ١ / ٣ ووقع فى كتاب الترمذى وغيره أنه بعث معه بلالاً، وهذا من الغلط ، الواضح فإن بلالاً لم يكن إذا ذاك موجوداً وإن كان فلم يكن مع عمه ولا أبى بكر ، وذكر البزار فى مسنده هذا الحديث ولم يقل : وأرسل معه بلالاً ولكنه قال : رجلاً .

أقول : إن ابن إسحاق فى روايته هو الذى ذهب إلى أن عمر النبى ﷺ هو اثنتا عشرة سنة . ورواية ابن إسحاق بدون سند ، أما هذه الرواية فلم تحدد عمرًا للرسول ﷺ وسندها حسن عند جميع =

ولو أخذنا برأى فريق العلماء والمحدثين الذين رجحوا صحة الرواية لرأينا أن أبا بكر رضي الله عنه قد شهد بعينه هذه المعجزات للنبى ﷺ قبل البعثة . وشهدعلى الأقل قول بحيرى به . وليس فى أعماقه بعد سبرة شخص رسول الله ﷺ أدنى شك فى صحة هذا القول غير أن رسول الله ﷺ لم يكن يدرك ذلك ويعرفه حتى جاءه الوحى بحراء ودعاه إلى القراءة أولا ثم الإنذار ثانيا كما هو مشهور متواتر ، فلم يكن الأمر لدى الصديق يحتاج لأكثر من إقرار النبى ﷺ لقول بحيرى: أنه هو النبى المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يأت هذا الإقرار إلا من خلال الوحى الذى تلقاه بمكة صلوات الله عليه ـ وكما قال عنه عز وجل: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (١) .

ويذكر السهيلى صورة أخرى إضافة إلى تلك الحادثة فيقول :

(إسلام أبى بكر وسببه : وذكر أن رسول الله ﷺ عرض عليه الإسلام فما عكم عن ذلك ـ أى ما تردد . وكان من أسباب توفيق الله إياه ـ فيما ذكر ـ رؤيا رآها قبل ذلك ـ وذلك أنه رأى القمر ينزل إلى مكة ثم رآه تفرَّق على جميع منازل مكة وبيوتها، فدخل فى كل بيت منه شعبة ثم كأنه جمع فى حجره فقصها على بعض الكتابيين فعبرها له بأن النبى المنتظر الذى قد أظل زمانه تتبعهُ وتكون أسعد الناس به ، فلما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام لم يتوقف (٢) .

أبو بكر وتحريمه الخمر على نفسه فى الجاهلية :

أفردت لهذا الخلق هذه الفقرة لأهميته ، فالصديق رضي الله عنه كان بعيداً عن مساوئ

= المحدثين إنما تناولوا متنها . ولو ذهب التباس العمر من التباس الروايتين ذهبت فيهما الغرابة فيها ، والله أعلم .

أما بقية الغرائب فقد أوردها ابن كثير ورد عليها بالاحتمالات المذكورة .

(١) الشورى / ٥٢ .

(٢) وفى أسباب النزول للواحدى : أن أبا بكر رضي الله عنه صحب النبى ﷺ فى سفره إلى الشام ، فنزلوا منزلا فيه سدرة ، فقعد النبى ﷺ فى ظلها، وذهب أبو بكر يسأل عن الدين ، فقال له الراهب : الرجل الذى فى ظل الشجرة من هو ؟ قال : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قال : هذا والله نبى ، ما استظل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم إلا محمد بن عبد الله . أسباب النزول للواحدى ص ٢٥٤ط الحلبى.

الجاهلية ومباذلها كما كان رسول الله ﷺ بعيداً عنها ، ومن أجل هذا عاشا متصافيين متصاحبين فى الجاهلية ، ونقول : إن هذا الموقف مقتبس من نور النبوة كذلك ، ونسوق الخبر لصلته الوثيقة بهذا المفهوم :

(أخرج أبو نعيم فى الحلية بسند جيد عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: (لقد حرَّم أبو بكر الخمر على نفسه فى الجاهلية) [1] .ولفظ الخبر كما أخرجه الهندى فى الكنز عن عائشة:(ما شرب أبو بكر الصديق خمراً فى الجاهلية ولا فى الإسلام) [2] .

(وقد أخرجه أبو نعيم فى المعرفة عن أبى العالية قال : قيل لأبى بكر الصديق : هل شربت الخمر فى الجاهلية ؟ قال : أعوذ بالله ، فقيل له : ولم ؟ قال : كنت أصون عرضى وأحفظ مروءتى ؛ فإن من شرب الخمر كان مضيعا فى عرضه ومروءته قال : فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فقال : « **صدق أبو بكر** » . مرتين[3]).

وتصديق رسول الله ﷺ لأبى بكر فيما قاله ، له مدلوله الأعمق فى معرفته بجاهليته ، وبعد أبى بكر عنها ، وليس فقط لأثر الخمر على شخص شاربها ،وهو تصديق كذلك لتوارد هذه المعانى على نفس الصديق والتى كان يحدث بها رسول الله ﷺ فى الجاهلية .

إننا أمام رجل هو خير الخلق بعد النبيين والمرسلين من الذين حصلت خيريتهم مما وهبهم الله تعالى من طاقات وطبعهم من طبائع ، وبما اكتسب من بيئته وما حوله ، وعلى هذا نصل إلى أن أبا بكر رضي الله عنه يتربى على يدى رسول الله ﷺ منذ صباه ويتفاعل بأخلاقه ، ويقتدى بسلوكه ويهتدى بهديه ، ولم يكن حين جاءت الدعوة بحاجة إلى أى تربية خلقية أو نفسية أو سلوكية ، فهو قائم على الهدى النبوى ، ومن أجل ذلك انطلق إلى الدعوة من اللحظة الأولى التى بلغته ومضى إلى من حوله ممن يعرفهم على هذا النهج خلقا واستقامة وفضيلة يدعوهم إلى الإسلام .

لقد كانت اللبنة الأولى فى هذا الدين قد صيغت ذراتها بيد النبى ﷺ ، وبإشعاع روحه ونور هديه فمضت إلى من حولها تدعو إلى الله على بصيرة .

سماحة أبى بكر ونظرته إلى المال :

وحرصنا على ذكر هذا الجانب ؛ لأن رسول الله ﷺ أشار إليه مرارا ، وجعله

---

(١) الروض الأنف للسهيلى م ١ / ج ١ / ٢٨٨ .
(٢ ، ٣) كنز العمال ١٢ / ٤٨٨ .

العنصر الرئيسى بعد التصديق فى خيرية الصديق ، ونسوق بعض هذه النصوص التى تؤكد على ذلك :

١ ـ « . . إن من أمنّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبا بكر . . » [١] .

٢ ـ (إن الله بعثنى إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت وواسانى بنفسه وماله . .) [٢] .

٣ ـ « . . ما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر» . فبكى أبو بكر وقال : وهل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله [٣] .

٤ ـ (عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: « ما مال رجل من المسلمين أنفع لى من مالى أبى بكر » ومنه أعتق بلالا ،وكان يقضى فى مال أبى بكر كما يقضى الرجل فى مال نفسه) [٤] .

٥ ـ (وعن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : كان أبو بكر معروفا بالتجارة ، لقد بعث النبى ﷺ وعنده أربعون ألف درهم . فكان يعتق منها ويقوِّى المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف ثم فعل فيها مثلما كان يفعل بمكة) [٥] .

وتؤكد النصوص على أربعة معانٍ ذات صلة وثيقة بمفهوم التربية النبوية للصديق :

أولها : أن الصداقة بين الصاحبين والتعامل المالى الوثيق بينهما قديم قبل البعثة ، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد اختبر هذا الصديق واختاره وأثر فيه حتى جعل المال عنده يبذل للمعروف ، ولا يقتنى للكنز . فكان رضي الله عنه بيته موئل الضيفان وكان صرفه للمال كما قال ابن الدغنة :إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الحق .

وهذا كله يحتاج إلى بذل وإنفاق شخصى ، والمال هو الوسيلة لذلك ، بل أصبحت هذه سمته البارزة . فهو (شريف من أشراف قريش حيث انتهى الشرف فيها

---

(١) البخارى م٢ . ج٥ ص ٤ . (٢) المصدر نفسه ج٥ ص ٦ .
(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ٦٥ وقال المحقق : إسناده صحيح .
(٤) فضائل الصحابة / ٧٢ وقال المحقق: رجال الإسناد رجال الحسن ولكنه مرسل ، إلا أن مرسلات سعيد جعلوه من أصح المراسيل .
(٥) أنساب الأشراف للبلاذرى عن كتاب الشيخان / ٣٣ . تحقيق د . إحسان صدقى العمدة .

إلى عشرة رهط من عشرة أبطن منهم أبو بكر الصديق ، الذى انتهت إليه فى الجاهلية الأشناق ـ وهى الديات والمغارم ـ فكان إذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتملها غيره خذلوه) (١) .

فماله إذن فى صنائع المعروف وتحمل الديات ، وهو مصدَّق فى كل ما يحمل عن الغارمين والديات .

ثانيها : أن رسول الله ﷺ كان يتصرف فى مال الصديق كما يتصرف فى مال نفسه. ولولا أن الصديق رضي الله عنه بلغ من التجرد والحب والتعظيم لشخص رسول الله ﷺ ما قَبِلَ ذلك .

ولا فعل هذا رسول الله ﷺ فقد رفعه عليه الصلاة والسلام ليكون فى مصاف خلق الأنبياء، فيقول للنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : وهل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله .

ثالثها : وقد كان لهذا المال بالنسبة للدعوة فى أيام محنتها الصعبة دور ريادى ضخم مع مال خديجة ـ رضى الله عنها ـ فى تحمل أعباء الدعوة وتكاليفها الباهظة . والله تعالى من علياء سمائه شهد للصديق فى كتابه بهذا التجرد عن المال ، وهذا النفع فقالى عز من قائل : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَى** ﴾ (٢) .

رابعها : وبقى بهذه السماحة والندى حتى أنفق ماله كله . وجاء بما تبقى منه يوم تبوك . وقال : أبقيت لعيالى الله ورسوله فاستحق بهذه الصفة أن يكون خير هذه الأمة فهو (الأتقى) فإن ﴿ **أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم** ﴾ (٣) يقول ابن كثير ـ رحمه الله :

(وقوله تعالى : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى** ﴾ أى : وسيزحزح عن النار التقى النقى الأتقى ، ثم فسره بقوله : ﴿ **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى** ﴾ أى : يصرف ماله فى طاعة ربه، ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ﴿ **وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ** ﴾ أى : ليس بذله ماله فى مكافأة من أسدى إليه معروفاً فهو يعطى فى مقابلة ذلك وإنما دفعه لذلك ﴿ **ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى** ﴾ أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدنيا والآخرة فى روضات الجنات قال الله تعالى: ﴿ **وَلَسَوْفَ يَرْضَى** ﴾ أى : ولسوف يرضى من

(١) الدعوة فى حياة الصديق د . يسرى محمد هانى عن : مخطوط / ص ٢١ .
(٢) الليل / ١٧ ــ ٢١ . (٣) الحجرات / ١٣ .

اتصف بهذه الصفات . وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضي الله عنه حتى أن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى: ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ** ﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صدِّيقا تقيا كريماً جواداً بذالاً لأمواله فى طاعة مولاه ونصرة رسوله ﷺ فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل. ولهذا قال عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يد لك عندى لم أجزك بها لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟! ولهذا قال تعالى :﴿ **وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾ . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:« من أنفق زوجين فى سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله ،هذا خير » . فقال أبو بكر : ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال: « نعم، وأرجو أن تكون منهم ») (١) .

وتوضح رواية البخارى هذا النص :(فعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنفق من زوجين فى شيء من الأشياء فى سبيل الله دعى من أبواب ـ يعنى الجنة : يا عبد الله ، هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام وباب الريان » ، فقال أبو بكر : ما على هذا الذى يدعى من تلك الأبواب من ضرورة وقال : هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر ») (٢) .

(١) تفسير ابن كثير / ج ٧ / ٣١٠ سورة الليل .
(٢) البخارى ك . مناقب المهاجرين ، م٢ ، ج ٥ ص ٧ .



الفصل الرابع

المرأة الأولى فى الأمة

خير نساء الأرض :

وإذا كان حديثنا عن الصديق فيما مضى، وهو سيد كهول أهل الجنة ما عدا النبيين والمرسلين ، وهو خير هذه الأمة بعد نبيها ، كما روى على رضي الله عنه فإن حديثنا الآن عن خير أهل الأرض من النساء .

١ ـ (فعن هشام بن عروة قال : سمعت عبد الله بن جعفر يقول : سمعت علياً بالكوفة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» .

قال أبو كريب : وأشار وكيع إلى السماء والأرض) [١] .

٢ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون » [٢] .

٣ ـ عن أنس أن النبى ﷺ قال : « حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة ابنة محمد ، وآسيه امرأة فرعون » [٣] .

فهى ـ رضى الله عنها ـ واحدة من اثنتين فى نساء أهل الأرض . ومريم ـ رضى الله عنها ـ قد جاء اصطفاؤها فى القرآن الكريم :﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾[٤] ، وجاء اصطفاء خديجة ـ رضى الله

---

(١) صحيح مسلم : ك فضائل الصحابة . ب فضائل خديجة ـ رضى الله عنها ـ ج٤ ص ١٨٨٦، ورواه البخارى والترمذى .

(٢) الإمام أحمد والطبرانى ، صحيح الجامع الصغير م٢ ج٣ ص١٣٢ . وقال الألبانى عنه : صحيح .

(٣) مسند أحمد ٣ / ١٣٥ . ورواه الترمذى والحاكم .وقال عنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير: صحيح .

(٤) آل عمران / ٤٢ .

عنها ـ وخيريتها فى الأحاديث الصحيحة الآنفة الذكر .

وكما شرح النووى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحديث فقال:

(وأشار وكيع : أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير فى نسائها . وأن المراد جميع نساء الأرض، أى : كل من بين السماء والأرض من النساء . والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض فى عصرها) (١) .

أول الصلة بين النبى ﷺ وخديجة :

(روى ابن سعد وابن السكن وأبو نُعيم عن نفيسة بنت منية قالت : لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكامل فيه من خصال الخير . قال له أبو طالب: يا بن أخى أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا . وألحت علينا سنون منكرة ، وليست لنا مادة ولا تجارة . وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عيراتها فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع . فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك ولفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود . ولكن لا تجد من ذلك بدأ .

وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير، وتجارة تبعث بها إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش ، وكانت تستأجر الرجال . وتدفع إليهم الأموال مضاربة وكانت قريش قوماً تجاراً ومن لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم بشىء فقال له رسول الله ﷺ : « فلعلها ترسل إلىَّ فى ذلك » فقال أبو طالب : إنى أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمراً مدبرا . فافترقا .

وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ، وقبل ذلك ما كان من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فقالت : ما علمت أنه يريد هذا .

ثم أرسلت إليه فقالت : إنه دعانى إلى البعث إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك . وأنا أعطيتك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك . ففعل رسول الله ﷺ ثم لقى عمه أبا طالب فذكر ذلك له فقال :إنَّ هذا الرزق ساقه الله إليك. فخرج رسول الله ﷺ مع غلامها ميسرة وقالت خديجة لميسرة : لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً . فخرج هو وميسرة وعليه غمامة تظله ، وجعل عمومته يوصون به

---

(١) مسلم شرح النووى ج١٥ ص ١٩٨ ط . الكتب العلمية .

أهل العير، فخرج حتى قدم الشام فنزلا فى سوق بصرى فى ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له (نسطورا)، فاطلع الراهب إلى ميسرة ـ وكان يعرفه ـ فقال : يا ميسرة من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال ميسرة : رجل من قريش . فقال الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى . أفى عينيه حمرة ؟ قال ميسرة : نعم لا تفارقه فقال الراهب : هو هو ، وهو آخر الأنبياء ويااليت أنى أدركه حيث يؤمر بالخروج . . . فوعى ميسرة ذلك .

ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها . فكان بينه وبين رجل اختلاف فقال الرجل : احلف باللات والعزى . فقال رسول الله ﷺ:« ما حلفت بهما قط ». فقال الرجل القول قولك . ثم قال لميسرة وخلا به : يا ميسرة ، هذا نبى هذه الأمة والذى نفسى بيده، إنه لهو تجده أحبارنا منعوتاً فى كتبهم، فوعى ميسرة ذلك .

ثم انصرف أهل العير جميعاً ، وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره ، وكان الله تعالى قد ألقى على رسول الله ﷺ المحبة من ميسرة فكأنه عبد له . فلما كانوا بمر الظهران قال ميسرة للنبى ﷺ : هل لك أن تسبقنى إلى خديجة فتخبرها بالذى جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك . فركب النبى ﷺ قعوداً أحمر، فتقدم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة وخديجة فى عُلِّية لها، معها نساء فيهن نفيسة بنت منية فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك . ودخل عليها رسول الله ﷺ وخبَّرها بما ربحوا فسرَّت بذلك وقالت : أين ميسرة ؟ قال: «خلفته فى البادية» . قالت : عجّل عليه ليعجل بالإقبال . وإنما أرادت أن تعلم أهو الذى رأت أم غيره ، فركب رسول الله ﷺ وصعدت خديجة تنظر فرأته على الحالة الأولى فاستيقنت أنه هو فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، وأخبرها بقول الراهب نسطورا وبقول الآخر الذى خالفه فى البيع، قال ابن إسحاق : فلما رأت خديجة أن تجارتها قد ربحت أضعفت له ما سمَّت .

وكانت قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها من غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه فقال ورقة : يا خديجة إن محمداً لنبى هذه الأمة . وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه أو كما قال . وجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتى متى ؟ فقال ورقة فى ذلك :

لجـجـت وكـنـت فـى الذكـرى لجوجـا ... لهـم طالمـا بعـث النشيجـا
ووصف مـن خديجـة بعـد وصـف ... فقـد طـال انتظـارى ياخديجـا
ببطـن المكتيـن علـى رجائـى ... حديثـك أن أرى منـه خروجـا
بمـا أخبرتنـا مـن قـول قـسٍ ... مـن الرهبان أكـره أن يعوجـا
بـأن محمـداً سيسـود قومًا ... ويخصم مـن يكـون لـه حجيجـا
ويظهـر فـى البـلاد ضيـاء نـور ... يقيـم بـه البريـة أن تموجـا
فيلقـى مـن يحاربـه خسـاراً ... ويلقـى مـن يسالمـه فلوجـا
فـياليتنـى إذا مـا كـان ذاكـم ... شـهـدت فكـنـت أولهـم ولوجا[١]

زواجه ﷺ من خديجة :

(وسبب ذلك ما حدَّثها به غلامها ميسرة ،وما رأته من الآيات ،وما ذكره ابن إسحاق فى المبتدأ قال : كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فى المسجد، فاجتمعن يوماً فيه فجاءهن يهودى فقال : يا معشر نساء قريش، إنه يوشك أن يكون فيكن نبى فأيكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبه النساء وقبحّنه وأغلظن له. وأغضت خديجة على قوله . ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر ذلك فى نفسها. فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هى قالت : إن كان ما قاله اليهودى حقا ما ذاك إلا هذا .

واختلفوا فى سبب الخطبة ، فعند أبى سعد النيسابورى فى (الشرف) أن خديجة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت للنبى ﷺ : اذهب إلى عمك فقل له : عجّل إلينا بالغداة . فلما جاء قالت له : يا أبا طالب، ادخل على عمر وعمى فكلمه يزوجنى من ابن أخيك محمد بن عبد الله فقال أبو طالب : يا خديجة لا تستهزئى . فقالت : هذا صنع الله . فقام أبو طالب مع عشرة من قومه ، فذكر الحديث .

وعند الزهرى فى سيرته أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة ليتحدث عندها ، فلما قام من عندها جاءت امرأة فقالت : خاطباً يا محمد ؟ فقال : كلا . فقالت:ولم؟ فوالله ما فى قريش امرأة ـ وإن كانت خديجة ـ إلا تراك كفؤًا لها، فرجع رسول الله ﷺ خاطباً لخديجة مستحياً منها .

وعند يعقوب بن سفيان فى تاريخه عن عمار قال : مررت أنا ورسول الله ﷺ بأخت خديجة فنادتنى فانصرفت إليها ،ووقف لى رسول الله ﷺ فقالت : أما لصاحبك هذا

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/ ٢١٤ ـ ٢١٧ .

من حاجة فى تزويج خديجة ؟ فقال عمار : فأخبرته . فقال : بلى لعمرى . فذكرت ذلك لها . فقالت : اغدوا علينا إذا أصبحنا . فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة ، وألبسوا خديجة حلة . وذكر الحديث .

وعند ابن إسحاق فى المبتدأ أنها قالت له : يا محمد ، ألا تتزوج ؟ قال : «ومن» ؟ قالت : أنا. قال : « ومن لى بك ، أنت أيِّم قريش وأنا يتيم قريش» . قالت : اخطبنى . وذكر الحديث .

وروى ابن سعد عن نفيسة بنت منية: قالت : كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ،وأكثرهم مالاً .وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال . فأرسلتنى دسيساً إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام . فقلت : يا محمد ،ما يمنعك أن تتزوج ؟ قال:«ما بيدى ما أتزوج به» قلت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة والشرف ألا تجيب ؟

قال :« فمن هى ؟ » قلت : خديجة. قال :« وكيف لى بذلك ؟ »قالت : قلت : علىّ . قال : « فأنا أفعل » . فذهبت فأخبرتها فذكرت الحديث . قالت: فأرسلت إليه أن ائت ساعة كذا . فحضر وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها .

وعند ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ دخل مع عمه حمزة . وعند النيسابورى فى الشرف أن أبا طالب خرج مع عشرة من قومه حتى دخلوا على عمها فخطبها فزوجه فقال عمرو بن أسد : هذا الفحل لا يقدع أنفه .

قال ابن هشام : أصدقها عشرين بكرة . وقال البلاذرى والدمياطى : اثنتى عشرة أوقية ونشا ،قال المحب الطبرى : ذهباً .

وذكر أبو الحسين بن فارس وغيره ــ رحمهم الله تعالى ــ أن أبا طالب خطب يومئذ فقال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وضئضئ معد ،وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجاً ،وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ،وإن كان فى المال قِلاً فإن المال ظل زائل، وأمر حائل ،وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق حكمكم ،عاجله وآجله ،اثنتا عشرة أوقية ونشا .

فقال عمرو بن أسد عمها : هو الفحل لا يقدع أنفه . وأنكحها منه،ويقال :إن

ورقة هو الذى قاله ،قال ابن إسحاق فى (المبتدأ) : وكان تزويجه لها بعد مجيئه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً عقب صفر سنة ست وعشرين .

قال الزهرى : وقال راجز من أهل مكة فى ذلك :

لا تزهدى خديج فى محمد   نجم يضىء كما أضاء الفرقد) [١]

(وعن جابر بن سمرة ،أو رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : كان النبى ﷺ يرعى غنماً فاستعلى الغنم فكان فى الإبل هو وشريك له فأكريا أخت خديجة فلما قضوا السفر بقى لهم عليها شىء فجعل شريكهم يأتيها فيتقاضاهم ويقول لمحمد: انطلق ، فيقول : «اذهب أنت فإنى أستحى» فقالت مرة وأتاهم: فأين محمد ؟ قال : قد قلت له فزعم أنه يستحى فقالت : ما رأيت رجلاً أشد حياءً ولا أعف ولا. . . فوقع فى نفس أختها خديجة فبعثت إليه فقالت: ائت أبى فاخطبنى قال :« أبوك رجل كثير المال وهو لا يفعل» قالت : انطلق فالقه فكلمه فأنا أكفيك ، وائت عند سُكْرِه ، ففعل ، فأتاه فزوجه، فلما أصبح جلس فى المجلس فقيل له : أحسنت زوجت محمداً فقال : أو قد فعلت؟ ، قالوا : نعم فقام فدخل عليها فقال : إن الناس يقولون: إنى قد زوجت محمداً قالت : بلى فلا تسفهن رأيك فإن محمداً كذا فلم تزل به حتى رضى . ثم بعثت إلى محمد ﷺ بأوقيتين من فضة أو ذهب وقالت : اشتر حلة واهدها لى، وكبشاً وكذا وكذا ففعل) [٢] .

(وذكر الفاكهى عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان عند أبى طالب ، فاستأذن أبا طالب، فى أن يتوجه إلى خديجة ـ أى ولعله بعد أن طلبت منه ﷺ الحضور إليها ـ وذلك قبل أن يتزوجها فأذن له ،وبعث بعده جارية له يقال لها: نبعة، فقال : انظرى ما تقول له خديجة؟ قالت نبعة : فرأيت عجباً ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب، فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها ثم قالت : بأبى أنت وأمى والله ما أفعل هذا لشىء . ولكنى أرجو أن تكون أنت النبى الذى سيبعث ، فإن تكن فاعرف حقى ومنزلتى ، وادع الإله الذى سيبعثك لى ،فقال لها : « والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندى مالا أضيعه أبدا ،وإن يكن غيرى فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لايضيِّعك أبدا » . فرجعت نبعة وأخبرت أبا طالب بذلك)[٣] .

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢/ ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٩ / ٢٢١ وقال فيه : رواه الطبرانى والبزار ورجال الطبرانى رجال الصحيح غير أبى خالد الوالبى وهو ثقة والبزار أيضاً .

(٣) السيرة الحلبية ٢٢٨/١ ، وفتح البارى ٧ / ١٣٤ .

خير نساء الأرض والنبوة :

وإذا كنا مع الصديق فى الفصل السابق خير أهل الأرض عدا النبيين والمرسلين. فنحن هنا مع خيرة نساء الأرض . والله تعالى أعدَّها لتكون زوجاً لنبيه ، وأعدَّ خيرة نساء الأرض ليكن زوجات له فى الدنيا والآخرة . وفضل خديجة فى الجاهلية مشهور مثل فضل الصديق .فكان اسمها الطاهرة ؛ لعفتها وسمو خلقها.

(قال الزبير بن بكار : كانت تدعى قبل البعثة الطاهرة)(١) .

وكانت فى نسبها قد حازت على الاصطفاء كله إلا اصطفاء بنى هاشم . وهى أقرب النساء نسباً لرسول الله ﷺ ،تلتقى معه فى جد هاشم قصى . فهى خديجة بنت خويلد ابن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وهو عليه الصلاة والسلام محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى .

وفيما تميزت به من خلق وشرف ، ومال وجمال . أصبحت السيدة الأولى فى مكة بلا منازع .

وكما روى الواقدى من طريق أم سعد بنت سعد بن الربيع عن طريق نفيسة بنت أمية قالت : (كانت خديجة امرأة شريفة جلدة كثيرة المال ،ولما تأيمت كان كل شريف من قريش يتمنى أن يتزوجها)(٢).

وفى رواية : وهى يومئذ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً . وأكثرهم مالاً وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك . قد طلبوها وبذلوا لها الأموال .

وكانت خديجة عظيمة فى نفسها . فلم تر كفؤًا لها زوجاً إلا أن يكون نبياً . فهى وحدها التى توقفت عندما سمعت قول اليهودى : (يانساء تيماء، إنه سيكون فى بلدكن نبى يقال له: أحمد، يبعث برسالة الله ، فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فلتفعل . فحصبته النساء وقبحنه وأغلظن له . وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض له فيما عرض فيه النساء) (٣) .

ولم يطرق موضوع الزواج على نفسها إلا عندما سمعت الكرامات التى نقلها ميسرة. وما تعرف من خلق هذا الصادق الأمين . والحرى به أن يكون النبى المنتظر . وعندما ربطت بين القضيّتين لم تتردد لحظة واحدة فى الإقدام على الزواج ،وتذليل كل صعوباته وكانت تعيش على هذا الأمل منذ اللحظة الأولى كما مر معنا فى رواية

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨ / ٦٠ .
(٢) المصدر السابق ٨/ ٦١ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ١٥ .

الفاكهى . وقد أخذت بيد النبى ﷺ ووضعتها على صدرها ونحرها قائلة : (بأبى أنت وأمى، والله ما أفعل هذا لشيء ولكنى أرجو أن تكون النبى الذى سيبعث فإن تكن هو فاعرف حقى ومنزلتى وادع الإله الذى سيبعثك لى . فقال لها : « والله لئن كنت أنا لقد اصطنعت عندى ما لا أضيعه أبدا، وإن يكن غيرى فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا ») (١) .

لقد كان هذا الأمر هو الذى استحوذ على قلبها . وعندما تم زواجها من رسول الله ﷺ وهى تكبره بخمسة عشر عاماً ، رأت من خلقه ومروءته ما ملأ كيانها اعتزازاً وفخراً ، وأملاً بأن يكون هو النبى المنتظر . وكانت تنقل هذه المعانى إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل . الذى كان لا يفتأ يتحدث عن نبى أظل زمانه . ويقرأ فى الكتب، ويبحث فى الإرهاصات، التى رافقت سفر النبى ﷺ إلى الشام . وينتظر ، ويطول به الانتظار حتى يقول:

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا ... لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى ياخديجا
ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما أخبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا

التربية النبوية لخديجة ـ رضى الله عنها :

وكما ذكرنا عن الصديق رضي الله عنه فيما أتاح الله تعالى له من فضل ، أن يكون أسبق الناس إلى الاقتباس من مشكاة النبوة ، فقد هيأ الله تعالى هذا الفضل لخديجة ـ رضى الله عنها ـ فقد نهلت من معين المصطفى المختار خمسة عشر عاماً قبل البعثة ، تتربى على يديه ، وتتمثل خلقه وتأتسى به .وقد وجدنا العامل الحاسم، الذى دفعها إلى الثقة المتناهية برسول الله ﷺ، وأنه هو النبى المنتظر ، عندما فجأه الوحى فى حراء . هو هذا المستوى الخلقى الرفيع والأفق العظيم له حين قالت له : كلا والله لا يخزيك الله أبدا: إنك لتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتكسب المعدوم، وتؤدى الأمانة، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتعين على نوائب الحق، فاقبل الذى جاءك من الله فإنه حق ، وأبشر فإنك رسول الله حقا .

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٢٢٨ .

والمعايشة اليومية لسيد ولد آدم ـ لمدة خمسة عشر عاماً قبل البعثة ـ جعلتها تزداد يقيناً وإيماناً بأنه هو النبى المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجعلتها تنصهر بخلقه وشخصه ومثله .

ومع لحظات الوحى الأولى ، وفى الوقت الذى كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخشى أن يكون هذا الوحى رئياً من الجن قالت كلمتها الخالدة : أبشر يا بن عم، و اثبت فوالذى نفسى بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

لقد حازت فضل الصحبة قبل الخلق أجمعين ،وكانت تتعامل مع نبى منذ اللحظات الأولى لزواجها .

فما كان رسول الله ﷺ يطمح إلى الوحى، ولا يعرف شيئاً عنه ، ولم يكن بذهنه انتظار جبريل ، لقد كان الأمر جديداً كل الجدة عليه، حتى ليمضى فزعاً إلى خديجة ـ رضى الله عنها ـ يخاف أن يصيبه مس من الشيطان، ويخشى على عقله مما رأى وسمع. ولعل أمر النبوة فى حس خديجة ـ رضى الله عنها ـ أكبر منه فى حس النبى ﷺ فهى تأمل وتنتظر، وورقة من طرف آخر يأمل ويتوق وينتظر:

أتبكر أم أنت العشية رائح ... وفى الصدر من إضمارك الحزن قادح
لفرقة قوم لا أحب فراقهم ... كأنك عنهم بعد يومين نازح
وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصح
وظنى به أن سوف يبعث صادقاً ... كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يرى له ... بهاء ومنشور من الذكر واضح[1]

لقد كان الوحى مفاجأة كاملة لرسول الله ﷺ ، بينما كان عند أم المؤمنين خديجة تحقيقاً لانتظار طال،فخديجة وابن عمها ورقة كأنهم يرونه رأى العين أهلاً لهذه النبوة .

خديجة والوحى :

لقد كان رسول الله ﷺ يلقى أموراً قبل الوحى كانت كلها تمهد له فجأة الوحى:

١ـ كانت الرؤيا الأولى (أنه رأى فى منامه أن سقف بيته نزعت منه خشبة وأدخل فيه سلم من فضة، ثم نزل إليه رجلان فأراد أن يستغيث فمنع الكلام، فقعد أحدهما إليه والآخر إلى جنبه ، فأدخل أحدهما يده فى جنبه فنزع ضلعين منه . فأدخل يده فى

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق . تحقيق : سهيل زكار ص ١١٥ . ط . دار الفكر .

جوفه ورسول الله ﷺ يجد بردها، فأخرج قلبه فوضعه على كفه فقال لصاحبه : نعم القلب قلب رجل صالح ، فطهر قلبه وغسله ، ثم أدخل القلب مكانه وردّ الضلعين ، ثم ارتفعا ورفعا سلمهما فإذا السقف كما هو فذكر ذلك لخديجة بنت خويلد فقالت له : أبشر، فإن الله لا يصنع بك إلا خيرا . هذا خير الله فأبشر) [1] .

لقد بدأت علائم النور تظهر كما تقول خديجة . وقلبها يخفق أن تتابع .

٢ـ (وفى رواية : « إنى إذا خلوت وحدى أرى ضوءاً وأسمع نداءً : يا محمد أنا جبريل ،وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً » ،فقالت : معاذ الله، ما كان الله ليفعل ذلك بك . إنك لتؤدى الأمانة ،وتصل الرحم، وتصدق الحديث . فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له وقالت : اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل، فإنه رجل يقرأ الكتب، فيذكر له ما يسمع فانطلقا إليه ،فقصّا عليه فقال :« إذا خلوت وحدى سمعت نداءً خلفى : يا محمد ،أنا جبريل ،فأنطلق هارباً ». فقال ورقة : سبوح سبوح ! وما لجبريل يذكر فى هذه الأرض التى يعبد فيها الأوثان،جبريل أمين الله على وحيه بينه وبين رسله . لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتنى فخبرنى. فخرج ذات ليلة فسمع : السلام عليكم قال:فظنها فجأة الجن، فجاء مسرعاً حتى دخل على خديجة فقالت : ما شأنك؟ فأخبرها . فقالت : أبشر فإن السلام خير) [2] .

إنه الإرهاص الثانى الذى تتوق خديجة ـ رضى الله عنها ـ إلى الجديد منه . فقد آن الأوان إذن لبعث هذا النبى ، ويكفى أنها اطمأنت إلى أن جبريل أمين الله بينه وبين رسله .

٣ـ (ثم حبب إليه الخلاء ،فكان يخلو شهر رمضان بغار حراء ـ وفى لفظ: يلحق ـ ومعه أهله فيتحنث : فيتحنف فيه ـ وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع ـ وفى لفظ: يرجع ـ إلى أهله فيتزود لذلك،ويطعم من جاءه من المساكين،فإذا رجع من جواره كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل الكعبة فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته فيتزود لمثلها ، فقال لخديجة يوماً : «لما قضيت جوارى هبطت فنوديت، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، فنظرت عن شمالى فلم أر شيئاً، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً بين السماء والأرض فقلت : دثرونى دثرونى وصبوا علىَّ ماء بارداً ».

(وفى رواية أبى الأسود عن عروة عن عائشة قالت : كان أول شأنه يرى فى المنام ، وكان أول ما رأى جبريل بأجياد وصرخ جبريل: يا محمد، أنا جبريل فنظر يميناً وشمالاً

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى ١/ ٢٣٣ . (٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢/ ٣١٢ .

فلم ير شيئاً، فرفع بصره فإذا هو على أفق السماء فقال: يا محمد ،أنا جبريل . فهرب فدخل فى الناس فلم ير شيئاً ، ثم خرج عنه فناداه ثم هرب، ثم استعلن جبريل من قبل حراء) [١].

لقد انتقل الأمر من الرؤيا فى النوم، إلى سماع الصوت ورؤية المنادى. وغمرت الفرحة خديجة، فقد كانت فراستها صادقة وآن الأوان لبعثة النبى ﷺ .

٤- (حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد به، جاءه جبريل - عليه السلام - بأمر الله عز وجل فقال رسول الله ﷺ: « فجاءنى وأنا نائم فقال: اقرأ قلت : ما أقرأ ؟ فغتنى حتى ظننت أنه الموت ،ثم كشفه عنى. فقال: اقرأ ؟ فقلت : وما أقرأ ؟ فعاد لى بمثل ذلك .ثم قال: اقرأ، فقلت : وما أقرأ ؟ ما أقولها إلا تنجياً أن يعود لى بمثل الذى صنع فقال : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[٢] ثم انتهى، فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما صُوِّر فى قلبى كتابٌ ،ولم يكن فى خلق الله عز وجل أحد أبغض إلى من شاعر أو مجنون، فكنت لا أطيق أنظر إليهما . فقلت : إن الأبعد - يعنى لنفسه - شاعر أو مجنون ثم قلت : لا تحدث عنى قريش بهذا أبداً . لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسى منه فلأقتلنها فلأستريحن فخرجت ما أريد غير ذلك . فبينا أنا عامد لذلك إذ سمعت منادياً ينادى من السماء يقول : يا محمد،أنت رسول الله، وأنا جبريل، فرفعت رأسى إلى السماء أنظر إليه وشغلنى عن ذلك وعما أريد فوقفت وما أقدر على أن أتقدم ولا أتأخر ، وما أصرف وجهى فى ناحية من السماء إلا رأيته فيها . . فما زلت واقفاً ما أتقدم ولا أتأخر، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى حتى بلغوا مكة ورجعوا فقلت لها : « إن الأبعد لشاعر أو مجنون » فقالت : أعيذك بالله تعالى من ذلك يا أبا القاسم، ما كان الله ليفعل ذلك بك مع ما أعلم من صدق حديثك، وعظم أمانتك ،وحسن خلقك، وصلة رحمك ، وما ذاك يابن عم، لعلك رأيت شيئاً أو سمعته ، فأخبرتها الخبر، فقالت : أبشر يابن عم واثبت له، فوالذى يحلف به إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها، وكان قد قرأ الكتب، وتنصر وسمع من التوراة والإنجيل فأخبرته الخبر وقصت عليه ما قصَّ عليها رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع. فقال ورقة: قدوس قدوس ،والذى نفس ورقة بيده ،لئن كنت صدقتنى ياخديجة، إنه لنبى هذه الأمة . وإنه ليأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢ / ٣١٢ . (٢) العلق/ ١ ـ ٥ .

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ما قال لها ورقة ،فسهّل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم بما جاءه [١])[٢].

لقد انتهى الأمر عند خديجة رضي الله عنها نهائياً بأن زوجها محمداً ﷺ هو النبى المنتظر . وذلك من كلام ورقة وكلام الحبيب المصطفى لها . لكنها أرادت بما وهبها الله تعالى من حصافة عقل، وبعد نظر ، وعمق فكر. أن تتثبت شخصياً من ذلك .

٥ـ (حدثنا أحمد حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال : حدثنى إسماعيل بن أبى حكيم مولى الزبير، أنه حدث عن خديجة بنت خويلد أنها قالت لرسول الله ﷺ فيما تتثبته به فيما أكرمه الله من نبوته : يا بن عم ، هل تستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك؟ قال : « نعم » . فقالت: إذا جاءك فأخبرنى . فبينا رسول الله ﷺ عندها يوماً إذ جاء جبريل فرآه رسول الله ﷺ فقال : « يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى » . فقالت : أتراه الآن ؟ فقال :« نعم» . فقالت : فاجلس إلى شقى الأيسر فجلس فقالت : هل تراه الآن ؟ قال:« نعم» . قالت : فاجلس إلى شقى الأيمن ، فتحول فجلس . فقالت : هل تراه الآن ؟ قال :« نعم » . قالت فتحول فاجلس فى حجرى ، فتحول رسول الله ﷺ فجلس . فقالت : هل تراه الآن ؟ قال : « نعم » . فتحسرت فألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها ، فقالت : هل تراه الآن؟ قال : « لا ».قالت : ما هذا الشيطان ، إن هذا لملك يابن عم ،فاثبت وأبشر ، ثم آمنت به ، وشهدت أن الذى جاء به الحق)[٣].

وفى رواية للزهرى ـ رحمه الله ـ يلخص لنا هذا التسلسل تلخيصاً جيداً فيقول :

(وكان فيما بلغنا : أول ما رأى أن الله ـ عز وجل ـ أراه رؤيا فى المنام، فشق ذلك عليه. فذكرها رسول الله ﷺ لامرأته خديجة بنت خويلد بن أسد فعصمها الله ـ عز وجل ـ من التكذيب . وشرح صدرها بالتصديق . فقالت : أبشر فإن الله عز وجل لن يصنع بك إلا خيراً . ثم إنه خرج من عندها ، ثم رجع إليها فأخبرها أنه رأى بطنه شُقّ، ثم طهر وغُسل ثم أعيد كما كان. قالت : هذا والله خير فأبشر . ثم استعلن له جبريل بأعلى مكة فأجلسه على مجلس كريم معجب . كان النبى ﷺ يقول :« أجلسنى على بساط كهيئة الدرنوك فيه الياقوت واللؤلؤ ». فبشره برسالة ربه عز وجل حتى اطمأن النبى ﷺ فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ: اقرأ. فقال : كيف أقرأ ؟ قال : ﴿**اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ .**

(١) سبق أن تعرضنا لإزالة الاختلاف بين الروايات من قبل ص ٣٨.

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ١٤٧/٢، والسيرة النبوية لابن إسحاق برواية يونس بن بكير ص١٢١ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ١٥٢/٢ ، والسيرة النبوية لابن إسحاق برواية يونس بن بكير ص١٣٣ .

﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾ [1] ويزعم ناس أن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر ﴾ [2] أول سورة أنزلت عليه ، والله أعلم .

قال ابن شهاب : وكانت خديجة أول من آمن بالله وصدَّق رسول الله ﷺ قبل أن تفرض الصلاة .

(. . . قال : فقبل الرسول ﷺ رسالة ربه عز وجل واتبع الذى جاءه به جبريل عليه السلام من عند الله ـ عز وجل ـ فلما قبل الذى جاءه به من عند الله تعالى، وانصرف منقلباً إلى بيته جعل لا يمر على حجر ولا شجر إلا سلم عليه .فرجع مسروراً إلى أهله موقناً أنه قد رأى أمراً عظيماً فدخل على خديجة قال :« أرأيتك الذى كنت أخبرتك أنى رأيته فى المنام . فإنه جبريل عليه السلام استعلن لى ،أرسله إلىَّ ربى» . فأخبرها بالذى جاءه من الله عز وجل وما سمع منه فقالت : أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيرا . فاقبل الذى جاءك من الله عز وجل فإنه حق . وأبشر فإنك رسول الله حقاً . ثم انطلقت مكانها حتى أتت غلاماً لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس نصرانياً من أهل نينوى يقال له: عداس . فقالت له : يا عداس أذكرك بالله إلا ما أخبرتنى هل عندك علم من جبريل ؟ فقال عداس : قدوس قدوس ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التى أهلها أهل الأوثان ؟ فقالت : أخبرنى بعلمك فيه؟ قال : فإنه أمين الله بينه وبين النبيين ، وهو صاحب موسى وعيسى .

فرجعت خديجة من عنده فجاءت ورقة بن نوفل . وكان ورقة قد كره عبادة الأصنام هو وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فعمد هو وورقة يلتمسان العلم حتى وقعا بالشام ، فعرضت اليهود عليهما دينهم فكرهاه وسألا رهبان النصرانية . فأما ورقة فتنصر . . . فلما وصفت خديجة لورقة حين جاءته شأن محمد ﷺ.وذكرت له جبريل ـ عليه السلام ـ وما جاء به إلى رسول الله ﷺ من عند الله عز وجل . قال لها ورقة : يا بنية أخى ما أدرى لعل صاحبك النبى الذى ينتظر أهل الكتاب الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل، وأقسم بالله لئن كان إياه ثم أظهر دعواه ، وأنا حى لأبلين الله فى طاعة رسوله ﷺ وحسن مؤازرته الصبر والنصر ، فمات ورقة .

قال عروة : ففتح جبريل ـ عليه السلام ـ عيناً من ماء فتوضأ ، ومحمد ﷺ ينظر إليه ، فوضأ وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ، ثم نضح فرجه وسجد سجدتين مواجهة البيت ففعل محمد ﷺ كما رأى جبريل عليه السلام يفعل)[2] .

---

(١) العلق / ١ ـ ٥ .

(٢) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير برواية أبى الأسود عنه : تحقيق د . محمد مصطفى الأعظمى. ودلائل النبوة للبيهقى ٢ / ١٤٢ .

وهذا الاختصار هو الذى نرجحه . ونستبعد تماماً ما ورد فى رواية ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير أن يشك ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنفسه أن يكون شاعراً أو مجنوناً بعد رؤية جبريل رأى العين فى أعلى مكة . قد يكون هذا الشك وهو يسمع صوتاً ولا يرى شخصاً ، أو يرى رؤيا . أما بعد هذا الوضوح والجلاء . فالمنطق الطبيعى كما ورد فى هذه الرواية من فرح رسول الله ﷺ بما كلف به . وسلام الحجر والشجر عليه ، وكان دور خديجة ـ رضى الله عنها ـ هو التثبت عن جبريل هذا من أهل الكتاب .

النفسية النبوية:

نحن بحاجة إلى الوقوف مليا أمام نفسية النبى ﷺ . مع مراحل الوحى الإلهى له . فهو عليه الصلاة والسلام قد اصطفاه ربه فأبعده أولاً عن تلقى العلم البشرى القاصر حين اختاره أمياً . فأصبحت هذه من خصائصه الأولى ـ عليه الصلاة والسلام .

لقد كان علم أهل الكتاب يعج فيه الصحيح بالسقيم والمستقيم بالمنحرف ، والثابت من المدخول كما قال ـ عز وجل : **﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾**(١) .

فالقارئ يأتى لهذه الكتب فيختلط عليه الحق والباطل ، فحفظ الله رسوله ﷺ من ذلك أن يقرأ فى كتاب أو يطلع عليه .

ومع هذه الأمية ، فقد يوجد بعض الأميين الذين يقصدون أهل الكتاب ليأخذوا العلم منهم ويبنوا أحكامهم على ما يسمعون. والهوى عند أهل الكتاب لم يكن فقط فيما كتبوه بل كان بما حدثوا به كما يقول عز وجل: **﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾**(٢) .

وحفظ الله رسوله ﷺ من أن يأتى كاهناً أو يجلس إلى راهب يتلقى منه العلم .

لقد كان علم النبى ﷺ علماً ربانيا من لدن العليم الخبير ، لم يخالطه علم بشرى قاصر ، وكان حقاً صرفاً يطبعه الله ـ تعالى ـ فى قلب نبيه .

ومن هذا المنطلق ، فقد طبع الله تعالى نبيه على بغض الشعراء والكهان، وفطره على البعد عن الأحبار والرهبان .فالشعراء والكهان يزعمون صلتهم بالجن والشياطين ، والأحبار والرهبان يزعمون أنهم يتلقون من عند الله ـ عز وجل ـ وعصم الله تعالى نبيه

---

(١) البقرة / ٧٩ .

(٢) آل عمران / ٧٨ .

عن مصادر المعرفة البشرية هذه كلها ، وبقى فؤاده الشريف الذى غسل بماء زمزم مرتين أو أكثر ، ونزع حظ الشيطان منه الذى كان يتمثل بالعلقة السوداء . وتم هذا الاصطفاء الربانى وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الرابعة من عمره . وغسل قلبه الشريف ليتهيأ لتقبل الوحى . فحفظته العناية الإلهية من أى صلة بهذه المصادر .

وبينا كان المجتمع الجاهلى، ومجتمع أهل الكتاب ، والمثقفون والعلماء فيه يتلهفون إلى ظهور النبى المنتظر ، وخاصة أهل الكتاب الذين وصفهم الله تعالى بمعرفة هذا النبى فقال : **﴿ الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾**(١) .

أقول : بينما كان هؤلاء يعيشون هذه القضية بكل جوارحهم واندفاعهم النفسى، كان النبى ﷺ بمنأىً عن هذا ، ولا يخطر له على بال ، كما يقول التعبير القرآنى : **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾**(٢) فهو غافل عن كل ما يدور حوله عن هذه القضية .

ومن حكمة الله ـ عز وجل ـ أن يكون قلبه الشريف خالياً عن ذلك، حتى لا يصبو إلى هذا الأمر ويطمع إليه فيدفعه ذلك إلى الأحبار والرهبان يسألهم، ويبحث عن ذلك. وقد رأينا من هذه النماذج من كان يعد نفسه ليكون هو النبى المنتظر ، كما جرى مع أمية بن أبى الصلت الثقفى والذى رفض الإيمان حين فاتته هذه مع معرفته بالحق من عند الله ، وهو موقف معظم أهل الكتاب : **﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾**(٣) .

ومن هذا المنطلق ، نستطيع أن نفسر المواقف الأولى للنبى ﷺ من مقدمات الوحى. فلبغضه الكهان والشعراء ، ولخلو نفسه من الصبوة والتطلع إلى أن يكون نبى هذه الأمة ولاجتنابه القرب من الأحبار والرهبان فهو يعرف أن هذه الأحاديث تدور فى فلكهم وفى أخبارهم، ولكراهته للتطلع للسمعة والزعامة. لهذا كله كان يخشى أن يكون جزءاً من هذه النماذج. فكان يخشى على نفسه عليه الصلاة والسلام كما قال لخديجة ، وكان يخشى أن يكون للشيطان دور فى تزيين هذا الأمر له فى لحظاته الأولى . وكان يخشى إن صدَّق قبل أن يتثبت من هذه الأمور أن يكون خذلاناً ربانيا له .

---

(١) البقرة / ١٤٦ . (٢) يوسف / ٣ .
(٣) البقرة / ٨٩ .

وعلى ضوء هذا المنطلق الذى يلح القرآن الكريم عليه . نفسر المواقف النبوية المثبتة ابتداءً حتى فجأه الوحى واستعلن له فى حراء .

والملاحظة المهمة فى هذا المجال هى أن الوحى ابتداءً لم يكن فيه أكثر من النبوة . حيث اتصل جبريل الأمين بالأمين محمد ﷺ . بينما كان القدوم الثانى هو الذى جاء بالرسالة ؛ حيث لم يعد هناك بد من تحديد الموقف وقبول رسالة الرب جل وعلا .

يقول القاضى عياض : ليس هذا من معنى الشك فيما آتاه الله ، لكنه ﷺ عساه يخشى ألا يقوى على مقاومة هذا الأمر ، ولا يقدر على حمل أعباء النبوة فتزهق نفسه، أو ينخلع قلبه لشدة ما لقيه أولاً عند لقاء الملك ، قال : أو يكون قوله فى هذا الأول ما رأى التباشير فى النوم واليقظة وسمع الصوت قبل لقاء الملك ، وتحقق رسالة ربه فيكون ما خاف أولاً أن يكون من الشيطان . فأما منذ جاءه الملك برسالة ربه فلا يجوز عليه الشك ، ولا يُخشى من تسلط الشيطان عليه .

قال : وعلى هذا يحمل كل ما ورد من مثل هذا فى حديث عائشة .

ويؤكد المعنى الأول الذى ذكره القاضى عياض ، حديث إرساله ﷺ للناس (قال جابر : قال رسول الله ﷺ : « جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جوارى هبطت فاستبطنت الوادى ، فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً ، ثم نوديت فرفعت بصرى إلى السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى - وفى لفظ : على عريش - بين السماء والأرض - فرعبت منه - وفى لفظ : فجثيت ، وفى لفظ: فجئثت فرقاً - حتى هويت إلى الأرض، فرجعت حتى أتيت خديجة فقلت : زملونى زملونى وفى لفظ : دثرونى ، دثرونى - وصبوا علىَّ ماء بارداً» . فأنزل الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر** ﴾ ، أى المتلفف بثيابه عند نزول الوحى عليه ، ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ** ﴾ ، خوّف الناس بالنار إن لم يؤمنوا ، ﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** ﴾ عظِّم عن إشراك المشركين، ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾ عن النجاسة ، أو قصر ، خلاف جر العرب ثيابهم للخيلاء، فربما أصابتها النجاسة ، ﴿ **وَالرُّجْزَ فَاهْجُر** ﴾ فسَّره رسول الله ﷺ بالأوثان ﴿**فَاهْجُر** ﴾ ، أى دم على هجره .

قال ابن عباس والزهرى : فتتابع الوحى وحمى) (١) .

---

(١) البخارى م٢ ، ج٦ ك : التفسير ، سورة المدثر ص ٢٠١ ، ٢٠٢ الآيات : ١ - ٥ .

النفسية الصديقية لخديجة :

وحيث عرضنا جانباً من النفسية النبوية الطاهرة المصنوعة على عين الله ؛ لنفسر المواقف النبوية من المراحل الأولى للوحى . يمكن بعدها عرض نفسية الطاهرة الصديقة خديجة - رضى الله عنها - حول هذا الأمر .

لقد كانت خديجة سيدة نساء مكة - وهى سيدة نساء الأرض - تبحث عن الكمال البشرى من خلال البيئة المحيطة بها ، فرأت الحديث عن نبى يصطفيه الله تعالى من أهل الأرض ، ومن خلال القرائن المتعددة ؛ وما سمعته من ابن عمها ورقة وغيره ، وأن هذا النبى من أهل الحرم ، وما أشار إليه ذلك اليهودى عن قرب بعث هذا النبى : (فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل) .

كل هذه الأمور جعلتها تتجاوز الكهان والشعراء والقيادات المحلية ، ليكون محط نظرها ذلك النبى المصطفى من الله ، ومنذ أن توسمت بالنبى ﷺ تلك الخصائص والصفات التى تؤهله لهذا الموقع ، وما تداوله الرهبان عن أنه هو ، لم تتردد لحظة واحدة فى الزواج منه ، حتى تم ذلك الأمر .

والخلطة الزوجية اليومية ، والمعاشرة المباشرة تكشف المعدن الحقيقى للإنسان . فكثير من القيادات المشهورة تتكشف عيوبها الحقيقية من خلال المخالطة .

لقد كان الصادق الأمين محمد فى خلقه وفضله أهلاً للنبوة ، وثقتها بصدق الأخبار التى عاينتها وتأكدت منها ، رأت أن ليس فى مجتمع مكة كله من هو كفء لها غير محمد ﷺ ، وبعد أن تكاملت الأخبار لديها بذلك . وكانت خبرة خمسة عشر عاماً مع رسول الله ﷺ عمقت هذه المعانى ، ورسخت هذه الأحاسيس فى نفسها فهى فى كل يوم تكشف جانباً من العظمة النبوية ،وفى كل يوم تطلع على فضيلة عالية من فضائله - عليه الصلاة والسلام - وتزداد تأثراً به وحبا وتفانياً فى سبيله ، وتمضى لتكون الأداة - الطيعة المطواعة لتنفيذ كل ما يرغبه - عليه الصلاة والسلام . وحين حبب إليه الخلاء فى الأعوام الأخيرة قبيل البعثة ، كانت لا تتردد لحظة واحدة فى تهيئة هذا الجو الذى اختاره - عليه الصلاة والسلام - فهو فى قلبها وفى عقلها وفى وجدانها المثل الأعلى ، وثقتها بحكمته وحصافة عقله وسداد رأيه ، جعلت هذه الأمور ليست محل مناقشة عندها ، فهى تهيئ له الزاد وترافقه حين يرغب بذلك ، وتنتظر عودته من قلة الجبل على أحر من الجمر ، حين كان يتحنث فى حراء :ولعل هذا التحنث الذى رأته منه - عليه الصلاة والسلام - رفع وتيرة الأمل عندها إلى أعلى درجاته بأن يكون هو النبى المنتظر . وأخذت تحس بلهفة وشوق أن الموعد قد أزف وأن النبوة قد لاحت

أعلامها. ومن عظمة شخصيتها ـ رضى الله عنها ـ ذلك الكتمان لما فى نفسها من مطامح، وذلك التجمل بالصبر لما تحلم به من أمل فى أن يكون زوجها النبى المنتظر . وابتعدت عن الأضواء ؛ لتذوب شخصيتها فى شخصه ـ عليه الصلاة والسلام ، وثقتها بحكمته تنزع من نفسها أن تتردد لحظة واحدة فى تنفيذ قناعته ، فهى تعلم بفراستها أنه المعد لتلك المهمة العظمى على مستوى البشرية كلها ، لا على مستوى زعامة محلية وضيعة. لقد وظفت شهرتها الواسعة ، ومالها الوفير ، وعقلها الراجح ، وذكاءها الوقاد ، فى خدمة هذه الشخصية الجليلة التى تأمل بها أن تكون بدءاً لهداية البشرية الحيرى .

وكاد قلبها يخرج من بين ضلوعها من الفرح ، حين سمعت من محمد ﷺ لأول مرة عن تلك الأصوات التى تقول له : إنه رسول الله ، وعن سلام الحجر عليه ، وكيف يلتفت ولا يرى أحداً .

إنها تكظم كل انفعالاتها قبل هذه المفاجأة ، فلا تحدث محمداً ﷺ عن آمالها فيه . وهى ترى أن هذا الأمر لا وجود له فى تفكيره ، ولا أثر له فى قلبه وفؤاده . تدع هذا الأمر نجوى حرّى بين ضلوعها؛ ولذلك رأت فى أول هذه الإشارات ، التى بثها إياها ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الأمر قد وقع ، أو هو على وشك الوقوع . فقالت له : معاذ الله ، ما كان ليفعل بك ذلك ، إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث .

لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى حسها وفى أعماقها أكبر من كل من فى الأرض ، ولا يقبل حسها إطلاقاً أن يكون هذا رئياً من الشيطان ، على ما تعرف من مناحى عظمته وسموه وطهره . ومع ذلك ، فأرادت أن تتثبت أكثر حين ارتأت أن يذهب أبو بكر الصديق ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى ورقة . والحقيقة أنها تود أن يتثبت ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذلك ؛ لأنها رأت فى هذا الحديث ما أثلج صدرها يقينا بصحة فراستها وصحة تنبئها ، بأن هذا الأمر على وشك الوقوع .

وكان ﷺ يحدث الطاهرة خديجة ويبثها بكل ما فى نفسه . وقد أخذتها السعادة وغمرتها النشوة حين حدثها عن رؤياه الأولى ، فقالت له: أبشر ، فإن الله ـ عز وجل ـ يصنع بك خيراً ، وحين حدثها عن رؤياه بشق صدره قالت له : هذا والله خير فأبشر . وهى على ثقة برؤياه التى كانت تأتى بصدقها كفلق الصبح .وما هذه الرؤى الجديدة إلا رؤى صادقة كسوابقها ، لكنها بحصافة عقلها وتكامل شخصيتها لم تشأ أن تبث أحداً خبر هذه الرؤيا ، ولا تميل إلى أخذ الأحكام والقناعات منها ؛ لكن بعد أن برزت

الأصوات لتنادى رسول الله ﷺ وتسلم عليه ، وتتحدد الأصوات بـ : أنا جبريل ، وأنت رسول الله . كان لابد من الخطوة الحاسمة فى سؤال ورقة ، لعل جوابه يطمئن شخص النبى بذلك ، فهى على ثقة أن الله ـ تعالى ـ لا يخذله ولا يسلمه ، وهو على هذه الذروة الشامخة من الخلق .

وتكاد لا تنى وهى تعد اللحظات ، متى يأتى الأمر الجلى بعد هذه المقدمات ، وبعد كلام جبريل ؟ إن عمرها ومصيرها وحياتها ارتبطت بهذا المعنى ، ثم جاءها ﷺ ليقول لها : أرأيتك هذا الذى كنت أحدثك أنى رأيته فى المنام ، فإنه جبريل استعلن لى، أرسله إلىّ ربى ، وأخبرها بالذى جاءه من الله عز وجل وكانت هذه لحظة العمر ، فقد تأكد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أن ربه عز وجل أرسل له جبريل وقد رآه يملأ ما بين السماء والأرض .

وفى هذه اللحظة وصلت خديجة ذروة سعادتها ، بعد أن رأت حبيبها المصطفى يؤكد لها أنه رسول الله ، ولم تنتظر ثانية واحدة بسماعها الخبر ، بل قالت :

أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً ، فاقبل الذى جاءك من عند الله عز وجل ، فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله حقاً .

بقى عليها أن تسمع فى أذنها من هو جبريل هذا ؟ فقال لها عداس : إنه أمين الله بينه وبين النبيين ، وهو صاحب موسى وعيسى .

وقال لها ورقة ابن عمها : يا بنية أخى ، ما أدرى لعل صاحبك النبى الذى ينتظر أهل الكتاب ، والذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل .

أما خديجة ، فقد انتهى الأمر عندها بأن محمداً قد بعث ، منذ أن علمت أن جبريل ـ عليه السلام ـ هو رسول الله إلى محمد ـ صلوات الله عليه .

وكان هذا أهم انعطاف فى حياة الصديقة خديجة . فكانت أول من آمن من أهل الأرض على الأرض ، وأول من صلى لله على الأرض من أهل الأرض .

بهذه النفسية استقبلت خديجة الإسلام .

المؤمنة الأولى :

قال أبو عمر : اتفقوا على أن خديجة أول من آمن .

وقال أبو الحسن بن الأثير : خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين ، لم يتقدمها رجل ولا امرأة ، وأقره الذهبى . وقال محمد بن كعب القرظى : أول من

أسلم من هذه الأمة برسول الله ﷺ خديجة ـ رضى الله تعالى عنها [1] .

المصلية الأولى :

(حدثنا أحمد ، حدثنا يونس عن ابن إسحاق ، قال : ثم إن جبريل أتى رسول الله ﷺ حين افترضت عليه الصلاة فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى فانفجرت منه عين ماء مزن فتوضأ جبريل ـ عليه السلام ـ ومحمد ينظر إليه فوضأ وجهه ومضمض واستنشق ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه ،ثم قام فصلى ركعتين، وسجد أربع سجدات على وجهه ، ثم رجع النبى ﷺ قد أقرّ الله عينه ، وطابت نفسه، وجاءها ما يحب من الله ، فأخذ بيد خديجة حتى أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة ثم كان هو وخديجة يصليان سرا) [2] .

وفى رواية ابن إسحاق عن زياد البكائى :

(قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل العلم : أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ ، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ، فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ـ عليه السلام ـ ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به ، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته ، ثم انصرف جبريل ـ عليه السلام ـ فجاء رسول الله ﷺ خديجة ، فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ـ عليه السلام ـ ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته) [3] .

* * *

وإن كان فى نص هذين الحديثين ضعف لمدارهما على ابن لهيعة ، إلا أن حديث عفيف الكندى ، وصلاة رسول الله ﷺ وخديجة وعلى ، حديث رواته ثقات ، كما ذكرنا من قبل .

وعند أبى نعيم فى الدلائل (من طريق يزيد بن رومان عن الزهرى عن عروة عن عائشة .وهذه الطرق يقوى بعضها بعضا ، ويدل على أن للقصة أصلاً) [4] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢/ ٤٠٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق : تحقيق سهيل زكار / ١٣٦ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣١٠ ط . م المنار .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/ ٣٩٧ .

الوزيرة الأولى :

قال ابن إسحاق : (وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدَّق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من الرد عليه ، فيرجع إليها إلا تثبته وتهون عليه أمر الناس) (١) .

وفى رواية : وآمنت به خديجة ، وصدقت بما جاء من الله ووازرته على أمره ، فخفف الله بذلك عن نبيه، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردٍ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها ، إذا رجع إليها تثبته وتخفف علَيه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ـ رحمها الله تعالى .

ونرى أن نجلِّى صورة خديجة كاملة فى هذا الفصل ، إذ لم تعد تذكر فى السيرة فيما بعد إلا من خلال النص السابق .

فقد صمتت مصادر السيرة النبوية عن ذكر أية حادثة محددة طيلة عشرة أعوام من البعثة حتى لقيت وجه ربها ، ويدلنا هذا الصمت على أمر هام جدا ، هو أنها ـ رضى الله عنها ـ قطعت علائقها الاجتماعية وصلاتها العامة بالناس ، وتفرغت للنبى المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ تؤدى أعظم رسالة فى الوجود فى بيته ، وتحيا كل حياته ، إنها تذوب فيه وفى تحقيق كل آماله ورغباته . ويكفيها أن هذا السلوك سيكون القدوة والأسوة فيما بعد ، فالنساء المؤمنات فى الأرض حين يتمثلن هذا الموقف ، ويفقهن هذه القضية ، يعرفن أن المرأة تبلغ أعظم الدرجات حين تقف بجوار زوجها الداعية المجاهد ، وتهب نفسها له وتتخلى عن ذاتها من أجله، وتذوب فيه وفى قضيته بحيث تنسى شهرتها وثقافتها وعلمها ؛ لتكون بجوار زوجها ، فقد انقطعت خديجة ـ رضى الله عنها ـ عن كل ما حولها من أهل الأرض ، نسوة ورجالاً بعد النبوة ، وتفرغت لحبيبها المصطفى ﷺ تشد أزره وترعى حاجته ، وتكون بلسم جراحه وزوال ألمه ونصبه ، وذلك بعد أن كانت نجم نساء مجتمعها ، ومطمح آمال الرجال فى النساء ، فبلغت بهذا الجد والاجتهاد فى هذا المجال ، أعلى مراتب نساء أهل الأرض فى زمانها.

وكانت ثانية نساء أهل الأرض فى كل الأزمنة والعصور ، بعد مريم بنت عمران ، اللهم إلا ما كان من فاطمة ابنتها ـ رضى الله عنها ـ والذى يعتبر تفوقها على أمها تعظيماً لخديجة ـ رضى الله عنها ـ التى أنجبت وربَّت سيدة نساء أهل الجنة . ولا ننسى كذلك أنها وضعت مالها كله بين يدى رسول الله ﷺ ينفق منه ما يشاء على دعوته ، فكانت وأبو بكر خير من يمثل النساء والرجال فى هذا الوجود . وكانت خير صاحبة لرسول الله

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٠٥ ط . م المنار .

ﷺ ، كما كان أبو بكر رضي الله عنه خير صاحب له . والمال أهون ما يبذل فى هذا السبيل ، حين يبلغ الحب ذروته مع الحبيب ، والثقة أعظم ما تكون الثقة حين كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتصرف بمال خديجة الصديقة ـ رضى الله عنها ـ ومال أبى بكر الصديق كأنه ماله : «وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس » .

لقد أمضت عمرها كله وزيرة صدق لرسول الله ﷺ ، وكانت بجواره فى أقسى ظروف محنته ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجد عندها السلوان والراحة . يوضح عظمة خديجة ما روى عن مقامها فى نفس رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام :

أ ـ جاءت خولة بنت حكيم فقالت : يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة . قال : « أجل، كانت أم العيال وربة البيت » (١) .

ب ـ وعن عبد الله بن عمير قال : وجد رسول الله ﷺ على خديجة حتى خشى عليه، حتى تزوج عائشة (٢) .

جـ ـ وكما غضب ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يفكر أحد من المسلمين أن يرقى إلى مقام صاحبه أبى بكر رضي الله عنه فقد غضب ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تفكر واحدة من المسلمات أن ترقى إلى مقام صاحبته خديجة ـ رضى الله عنها ـ ولو كانت عائشة الصديقة ـ رضى الله عنها ـ وكان ثناؤه على الصديق أبى بكر مطابقًا لثنائه على الصديقة خديجة .

(عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوما من الأيام ، فأخذتنى الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزًا قد أبدلك الله خيرًا منها ؟ فغضب ، ثم قال : « لا والله ما أبدلنى الله خيرًا منها . آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ،وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » ، قالت عائشة: فقلت فى نفسى : لا أذكرها بعد بسيئة أبدًا) (٣) .

وكان غضب رسول الله ﷺ من أحب خلق الله له بعد أبى بكر رضي الله عنه من عمر كما كان غضب رسول الله ﷺ من أحب خلق الله له بعد خديجة ، من عائشة بنت

---

(١) ذكره ابن حجر فى الإصابة وقال : الحديث سنده قوى مع إرساله ٨/ ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ٨ / ٦١ .

(٣) رواه مجالد عن الشعبى عن مسروق عن عائشة ، وهو فى الاستيعاب لابن عبد البر ٤/ ١٨٢٣ ، ١٨٢٤، وقد أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٠٤ وقال فيه : رواه أحمد ، وإسناده حسن .

الصديق ـ رضى الله عنها . لقد كانت ـ رضى الله عنها ـ ملء سمعه وبصره ، وهبت حياتها له ، ومالها له ، ونفسها له ، ولا غرو أن تفعل هذا خير نساء الأرض بسيد ولد آدم ، وأن تفعل هذا بعد أن تربت على يديه ـ عليه الصلاة والسلام ـ خمسة عشر عامًا، تنهل من معين النبوة ، وتعب من خلق هذه الدوحة الطاهرة الزكية .

الفائزة الأولى :

وحق لها ـ رضى الله عنها ـ بعد الأولويات السابقة أن تكون الفائزة الأولى .

فهى أول من بشر من نساء المؤمنين بالجنة ، وأقر الله عينها بذلك قبل وفاتها، وقبل أن يبشر أحد من المؤمنين بذلك فى حياته ، وجاءت هذه البشرى محفوفة بالسلام عليها من رب العالمين ، ورسول رب العالمين جبريل .

(فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : أتى جبريلُ النبى ﷺ فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)(١).

ولا ندرى إن كان رسول الله ﷺ قد بشرها أنها خيرة نساء الأرض أم لا ، كما مر معنا فى الحديث السابق فى الصحيحين : « خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » .

أو أنها لقيت هذه البشرى بعد أن لقيت وجه ربها راضية مرضية ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ (٢) .

ولا ندرى إن أقرَّ رسول الله ﷺ عينها بأنها أنجبت سيدة نساء أهل الجنة فاطمة بنت محمد، وأعلمها بذلك أم لا ؟ وأنها أنجبت إحدى أربع نسوة هى خيرة نساء أهل الأرض كما مر معنا من قبل فى الحديث الصحيح : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون » .

والمرء لا يحب أن يكون أحدًا خيرًا منه إلا ولده . وأقر الله تعالى عين خديجة بأنها أنجبت سيدة نساء أهل الجنة فاطمة ـ رضى الله عنها ، فكانت وابنتها فاطمة تعادلان أمم الأرض ونساءها فى الخيرية والسيادة . (وقد أورد ابن عبد البر من وجه آخر عن ابن

---

(١) البخارى ، ك فضائل الصحابة باب تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها م٢، ج٥ ص٤٨، وعند مسلم ج٤ ص ١٨٨٧ ، ح ٢٤٣٢، والقصب عند جمهور العلماء قصب اللؤلؤ المجوف . وقيل : قصر من ذهب منظوم بالجوهر . والمراد بالبيت هنا : القصر .

(٢) الفجر / ٢٧ ـ ٣٠ .

عباس رفعه : « سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية » ، قال : وهذا حديث حسن يرفع الإشكال) (١) . ولعل خيرية مريم ـ رضى الله عنها ـ أنها كانت نبية يوحى إليها كما قال القرطبى : (لم يثبت فى حق واحدة من الأربع أنها نبية إلا مريم) (٢) .

لقد عاشت لقضية النبوة ، ووهبت نفسها لها ، وقدَّر الله تعالى لها أن تعيش مع رسول الله ﷺ خمسة عشر عامًا قبل البعثة ، فشهدت من هذا المعدن الكريم النفيس ما زادها يقينًا بصحة فراستها إلى أن جاء الوحى بتصديق هذه الفراسة ، وبقيت حتى اللحظة الأخيرة من حياتها تجاهد صابرة مصابرة ، وعاشت أحلك الظروف فى الدعوة ، وعاشت سنى الحصار الصعبة فى شعب بنى هاشم ، فكيف كافأها فى حياتها ـ عليه الصلاة والسلام ؟

يقول الإمام ابن حجر : (ووقع عند مسلم من طريق حفص بن غياث هذه فى آخر الحديث : قالت عائشة : فأغضبته يوما فقلت: خديجة ؟ فقال : « إنى رزقت حبها » ، قال القرطبى : كان حبه ﷺ لما تقدم ذكره من الأسباب . وهى كثيرة ، كل منها كان سببًا فى إيجاد المحبة ، ومما كافأ النبى ﷺ به خديجة فى الدنيا أنه لم يتزوج فى حياتها غيرها . فروى مسلم عن طريق الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : لم يتزوج النبى ﷺ على خديجة حتى ماتت . وهذا مما لا اختلاف عليه بين أهل العلم من الأخبار وفيه دليل على عظم قدرها عنده ، وعلى مزيد فضلها ؛ لأنها أغنته عن غيرها، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين ؛ لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عامًا انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عامًا وهى نحو الثلثين من المجموع ، ومع طول المدة فصان قلبها فيها من الغيرة ، ومن نكد الضرائر الذى ربما حصل له هو منه ما يشوش عليه بذلك ، وهى فضيلة لم يشاركها فيها غيرها . ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها ، فيكون لها مثل أجرهن ، ولما ثبت أن « من سن سنة حسنة » . وقد شاركها فى ذلك أبو بكر الصديق بالنسبة إلى الرجال ولا يعرف قدر ما لكل منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله ـ عز وجل) (٣) .

وكان لوفاتها ووفاة أبى طالب فى العام العاشر ، أشد الأثر على نفس النبى ﷺ حتى ليسمى المسلمون هذا العام بعام الحزن ؛ لوفاة هذين النصيرين الكبيرين له .

(١ ، ٢) فتح البارى للإمام ابن حجر العسقلانى ٧ / ١٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ٧/ ١٣٧ .

وبقيت ذكراها ماثلة فى كيانه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما من شىء يذكره بها إلا هاجت أشجانه لفراقها :

(ففى الصحيح عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول : «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة » ، قالت : فذكــرت له يومًا فقال : « إنى لأحب حبيبها») [1].

وعن عائشة قالت : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال : « اللهم هالة بنت خويلد » فغرت فقلت : ما تذكر من عجوز . . . [2] . وكما يقول النووى فى شرح مسلم :(فارتاح لذلك أى: هش لمجيئها ، وسر بها لتذكره بها خديجة وأيامها، وفى هذا كله دليل لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والعشير فى حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب) [3] .

(١) الإصابة لابن حجر العسقلانى ٨/ ٦٢ .

(٢) مسلم ج ٤ ص ١٨٨٩ ح ٢٤٣٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١٥/ ٢٠٢.



الفصل الخامس

الصبى الأول فى الأمة ، الرجل الرابع

على ونسبه :

(حدثنا عبد الله بن أحمد قال : قال أبى ـ رحمه الله :

على بن أبى طالب ـ واسم أبى طالب عبد مناف ـ بن عبد المطلب ـ واسم عبد المطلب شيبة ـ بن هاشم ـ واسم هاشم عمرو ـ بن عبد مناف ـ واسم عبد مناف المغيرة ـ ابن قصى ـ واسم قصى زيد ـ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر) (١) .

فقد فاز رضي الله عنه بكل الاصطفاءات ، فهو من بنى هاشم، ومن قريش، ومن كنانة، ومن إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فقد أخذ أجل الخصائص التى أعطاها الله تعالى لقريش وكرم بها بنى هاشم ، وهو أقرب الناس نسبًا لرسول الله ﷺ، يلتقى معه فى جده عبد المطلب.

يقول الإمام ابن حجر : (. . . وهو ابن عم رسول الله ﷺ شقيق أبيه واسمه عبد مناف على الصحيح ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وكانت ابنة عمة أبيه ، وهى أول هاشمية ولدت لهاشمى وقد أسلمت ، وصحبت ، وماتت فى حياة النبى ﷺ) (٢).

فهو سليل بنى هاشم أما وأبًا رضي الله عنه وأبو طالب غنى عن التعريف . لكن معرفة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ يلقى ضوءًا على هذا النجيب العظيم على ـ رضوان الله عليه .

(عن أنس بن مالك قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم (أم على) رضي الله عنه دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال : « رحمك الله يا أمى كنت أمى بعد أمى ، تجوعين وتشبعينى ، وتعرين وتكسينى ، وتمنعين نفسك وتطعمينى، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة » ثم أمر أن تغسل ثلاثا ، فلما بلغ الماء الذى فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياه ، وكفنها ببرد فوقه ،

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ، وقال المحقق : إسناده صحيح ، وذكر مثله ابن كثير فى البداية والنهاية ٧/ ٣٣٣ ، وقال : نص على ذلك الإمام أحمد وغير واحد من علماء النسب ١/ ٥٥٠ .

(٢) فتح البارى ٧/ ٧١.

ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصارى وعمر بن الخطاب وغلامًا أسود ، يحفرون ، فحفروا قبرها ، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده، وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه. فقال: «الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت ، اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى ، فإنك أرحم الراحمين» وكبّر عليها أربعًا وأدخلوها اللحد ، هـو والعباس بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق ـ رضى الله عنهم)[1] .

توفيت آمنة أم النبى ﷺ وهو ابن سبع سنين ، وتوفى جده عبد المطلب وهو ابن ثمانى سنين ، وانتقل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هذا السن إلى البيت الجديد، بيت عمه أبى طالب وانتقل ليعيش مع أم جديدة هى فاطمة بنت أسد ـ رضى الله عنها ـ وفاطمة هذه هى التى رعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى طعامه وشرابه ولباسه وراحته. وعاش ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى بيتها حتى تزوج من خديجة . فبقى فى كنفها ـ رضى الله عنها ـ سبعة عشر عامًا وعبَّر ـ عليه الصلاة والسلام ـ عما يكنّ لها من أحاسيس ومشاعر وما كانت تقدم له من رعاية وعناية وعطف وحدب وكما يقول ﷺ : «كانت أمى بعد أمى » لكن الذى يعنينا هنا نقطتان اثنتان :

الأولى : هى أن فاطمة بنت أسد الهاشمية كانت بهذه الصحبة الطويلة تمتح من معين النبوة ، وتتربى بأخلاق المصطفى ﷺ ، وتتأسى بخلقه وأدبه فكانت من أوائل الصحابيات ، ولم تتردد لحظة واحدة عن الإيمان به فهى تعرفه طفلا ويافعًا وشابا وتعرف كل مزاياه وخصائص عظمته ﷺ معرفة خيرة ومعاينة ومخالطة ، فكانت النموذج المتأسى بالنبوة . والمقتدى بالنبى وهى معاشرة يومية قلما حظى بها أحد .

الثانية : أن هذه القيم والمفاهيم التى تربت عليها فاطمة بنت أسد من طفلها محمد ﷺ ، وهذه الأخلاق التى اكتسبتها راحت بعد أن أنجبت أطفالها تربيهم عليها وتنشئهم على غراسها، فطاف على رضي الله عنه ابن هذه الدوحة المباركة الباسقة وسليل هذه العترة الطاهرة وكأنما قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ على تربيته منذ أيامه الأولى بتربية فاطمة ـ رضى الله عنها.

النقلة الجديدة :

وكانت النقلة الجديدة مما خبأ الله تعالى من الخير لعلى ـ رضوان الله عليه ـ الصبى الأول لهذه الأمة :

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان ، والحاكم ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد للهيثمى ٩/ ٣٥٧.

يقول ابن حجر العسقلانى ـ رحمه الله ـ عن على : (ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح ، وكان قد رباه النبى ﷺ من صغره لقصة مذكورة فى السيرة النبوية. فلازمه من صغره، فلم يفارقة إلى أن مات) (١) أما هذه القصة فكما روتها كتب السيرة:

قال ابن إسحاق : (وحدثنى عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد بن جبر بن الحجاج قال : كان من نعمة الله على علىّ بن أبى طالب ، ومما صنع الله له وأراده به من الخير ، أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه وكان من أيسر بنى هاشم : « يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلاً فنكلهما عنه » . فقال العباس : نعم . فانطلقا حتى أتيا أبا طالب. فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما .

قال ابن هشام : ويقال : عقيلاً وطالبا .

فأخذ رسول الله ﷺ عليا فضمه إليه ، فلم يزل علىٌّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا فاتبعه على رضي الله عنه وآمن به وصدقه ، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه) (٢) .

لقد كانت هذه النقلة الأولى إلى بيت النبى ﷺ انتقالا إلى المصدر الأصل . وكانت انتقالا وشرفا للطفل على أن يقوم على رعايته سيد الخلق محمد ﷺ مباشرة ودون واسطة ورسول الله ﷺ هو الذى سعى لذلك ، ففى عنقه دين عمه أبى طالب الذى رعاه فى صغره ، وفى عنقه دين امرأة عمه فاطمة بنت أسد التى حدبت عليه فى صغره ، وأعطته من حبها وحنانها ما عوض عليه فقد الأم ، فكانت أمه بعد أمه، وآن الأوان لأن يرد هذا الجميل وهو السيد المصطفى الذى له فى أعناق الخلائق المن والفضل . وقد ردّ لعمه الدين فى حياته ، فجاء بعلى ـ عليه السلام ـ لبيته يرعاه ويحوطه ويربيه . كما ردًّ له الفضل بعد وفاته ، كما روى عبد الله بن الحارث قال: حدثنا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال للنبى ﷺ :

ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : « هو فى ضحضاح من النار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » (٣).

وإن رسول الله ﷺ وهو يرعى عليا ويحوطه ؛ ليشهد به طفولته هو ـ عليه الصلاة والسلام .

وتعود ذاكرته إلى أيامه الأولى وهو يدرج فى بيت عمه أبى طالب، ويحرص ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يجعل من هذا الطفل رجلاً لا كالرجال فهو أقرب الناس

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للإمام ابن حجر العسقلانى ٧/ ٧١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣١٣.

(٣) البخارى م٢ ج٥ باب قصة أبى طالب ص ٦٥ .

رحمًا به . وقد أوكل إليه شأن تربيته . أما حاضنته ومربيته فى بيت النبوة فهى سيدة نساء العالمين ،خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها .

فأى بيت أشرف وأعز من هذا البيت ينشأ فيه هذا الطفل المحظوظ ؟

النقلة الثانية إلى الإسلام :

(روى يعقوب بن سفيان بإسناد صحيح، عن عروة قال : أسلم على وهو ابن ثمانى سنين. وقال ابن إسحاق :(عشر سنين). وهذا أرجحها، وقيل غير ذلك)(١).

أما قول ابن إسحاق فهو:(ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ ، وصلى معه وصدّق بما جاءه من الله تعالى على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ـ رضوان الله وسلامه عليه ـ وهو يومئذ ابن عشر سنين) (٢) .

وفى رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثنا أحمد حدثنى يونس عن ابن إسحاق قال :

(ثم إن على بن أبى طالب، جاء بعد ذلك بيومين فوجدهما يصليان فقال على : ما هذا يا محمد ؟ فقال النبى ﷺ : « دين الله الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده وإلى عبادته، وكفر باللات والعزى » فقال له على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدث أبا طالب . فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره فقال له :« يا على إذا لم تسلم فاكتم » فمكث على تلك الليلة ، ثم إن الله أوقع فى قلب على الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ما عرضت على يا محمد ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد » ، ففعل على وأسلم ، ومكث على يأتيه على خوف من أبى طالب ، وكتم على إسلامه ولم يظهر به) (٣) .

وبرزت الشخصية العظيمة لعلى ، وبرز أثر التربية النبوية عليها وهو ابن عشر سنين على الأرجح أو ابن ثمان سنين . ليسأل عن هذا الدين الجديد الذى رأى أحب خلق الله له عليه. رأى عليه محمداً ﷺ حاضنه ومربيه وابن عمه . ولم يجد حرجاً عليه

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ٧/ ٧٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣١٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن إسحاق تحقيق سهيل زكار ١ / ١٣٧ .

الصلاة والسلام ـ من أمرين :

الأمر الأول : أن يعرض هذا الدين على طفل فى الثامنة أو العاشرة من عمره. وذلك فى اللحظات الأولى من الوحى . والذى اضطرب كيانه له عليه الصلاة والسلام لفجأته له ، ولثقل الوحى ووطأته عليه .

لم يجد رسول ﷺ حرجاً فى ذلك .

ترى كم كانت ثقة النبى ﷺ بهذا الطفل الموهوب ؟ وكم كانت ثقته بحصافته ووفور عقله وسعة مداركه ؟ وأن يدعى بهذا الوضوح وهذه الصراحة لنبذ الأوثان والأصنام . ونبذ اللات والعزى . هذه الآلهة التى تعبد من دون الله .

إنه ﷺ مطمئن إلى أن الذى رباه قمة من قمم الرجال،وليس طفلاً عادياً فحسب .

الأمر الثانى : وحرص النبى ﷺ على كتمان الأمر لم يحل دون عرض هذا الدين على ابن الثامنة أو العاشرة . ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام لا يرواده شك فى كتمان الغلام لهذا الأمر خاصة إن طلب منه ذلك ، ومن أجل هذا . حين أراد على رضي الله عنه أن يعرض الأمر على أبيه أبى طالب قال له ﷺ : « يا على إذا لم تسلم فاكتم » .

ومضى على رضوان الله عليه ليتخذ بشخصه ومن ذاته قراراً وموقفاً . وأى قرار هذا ؟ .

ليتخذ قراراً بحرب قومه وعشيرته ، والمسيرة فى خط قد يقوده إلى القتل أو التعذيب على أقل تقدير .

إن فتى بهذا السن يناقش الأمر وحده . ويستجيب لرغبة ابن عمه محمد ﷺ فيكتمه حتى عن أبيه وأمه . إن فتى بهذا العقل وهذه الحصافة لخليق بالعظمة وخليق بأن يكون من أفذاذ العالم ، وكان . فهو هاشمى قرشى كنانى من نسل إبراهيم وإسماعيل ، ويملك وهو فى هذا السن أعلى مقومات القيادة ومستلزماتها من نباهة الرأى وبعد النظر .

وهل نتصور طفلاً قادراً على اتخاذ موقف من أخطر المواقف فى حياته ، ويواجه مجتمعه وأهله، وحتى يواجه أباه وأمه . ما أدرى إن كان غير ابن أبى طالب مؤهلا لهذا الموقف .

ولا عجب فهو ابن أبى طالب وابن فاطمة بنت أسد . أول هاشمى من أبوين هاشميين .

وهو ابن بيت النبوة . إنه تربية سيد ولد آدم محمد ﷺ ، وسيدة نساء العالمين

خديجة بنت خويلد .

وناقش الأمر فى ليله . وعاد مع الصباح إلى حبيبه المصطفى ﷺ، ثم طلب عرض الأمر ثانية عليه ليدرك أبعاده . وكان الجواب :

« تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد» . ففعل على وأسلم .

إنه الموقف الصعب الذى لا يقفه إلا أفذاذ الرجال . قرَّر فيه تغيير دينه وقبول دين جديد يواجه عقائد مجتمعه كاملة .

ورأينا عظمة هذا الدين وعظمة أفراده الذين قام قائم الدين عليهم . بأن كان أتباعه ثلاثة :

رجل : هو محمد ﷺ .

وامرأة : هى خديجة بنت خويلد .

وطفل : هو على بن أبى طالب .

وكما قال العباس رضى الله عنه : ووالله ما أعلم أحداً على ظهر الأرض على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة .

وكما يقول عفيف الكندى : فليتنى كنت آمنت به يومئذ فكنت أكون ثانياً مع على ابن أبى طالب .

أنت أخى فى الدنيا والآخرة :

وحين نتحدث عن خصائص هذا الصبى ، يأتينا فى قمة هذه الخصائص تلك الأخوة التى ربط فيها ﷺ بينه وبين هذا الطفل .

يقول الإمام الزرقانى وهو يتحدث عن المؤاخاة بين الصحابة :

(وكانت كما قال ابن عبد البر وغيره ، مرتين : الأولى بمكة قبل الهجرة بين المهاجرين بعضهم بعضاً على الحق والمواساة، فآخى بين أبى بكر وعمر، وطلحة والزبير، وبين عثمان وعبد الرحمن . رواه الحاكم . وفى رواية له بين الزبير وابن مسعود ، وبين حمزة وزيد بن حارثة . وهكذا بين كل اثنين منهم إلى أن بقى على فقال : آخيت بين أصحابك فمن أخى؟ قال : « أنا أخوك »، وجاءت أحاديث كثيرة فى مؤاخاة النبى ﷺ لعلى وقد روى الترمذى، وحسنه، والحاكم وصححه عن ابن عمر أنه ﷺ قال لعلى : « أما ترضى أن أكون أنا أخاك ؟ » قال : بلى . قال: « أنت أخى

في الدنيا والآخرة ») (١) .

يقول ابن إسحاق :

(وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال ـ فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقُل : « تآخوا فى الله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد على بن أبى طالب ، فقال : هذا أخى . فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين ، وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذى ليس له خطير ولانظير فى العباد، وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه أخوين . . .)(٢) .

ورواية الترمذى تقدِّم لنا الوضع النفسى الذى جاء به على رضي الله عنه عندما بقى بدون أخ. فعن ابن عمر قال : (آخى رسول الله،ﷺ بين أصحابه فجاء على تدمع عيناه. فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك . ولم تؤاخ بينى وبين أحد . فقال له رسول الله ﷺ : « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب) (٣) .

وكيف تمالك كيان على رضي الله عنه وهو فى مقتبل الشباب ، وقد طر شارباه ، ولما ينبت الشعر فى لحيته، أن يسمع مثل هذا الثناء من رسول الله ﷺ ، ولا يأخذه الزهو أو الغرور .

لقد ذكر ابن عبد البر أن المؤاخاة بين المهاجرين ـ رضى الله عنهم ـ كانت فى مكة،وعلى الرواية الراجحة فعمر علىّ لا يتجاوز الثلاثة والعشرين حين تمت الهجرة ، وهذا يعنى أن عمره عندما تمت المؤاخاة رضي الله عنه على الأغلب كانت قبل العشرين من عمره، وفى هذا السن ما حاز أحد بمثل هذا السبق ، ولا فاز أحد بمثل هذا الفضل ، وكما رأينا ثقة النبى ﷺ بصبيه الحدث . حيث يعرض عليه الإسلام وهو فى سن العاشرة ، نجد هذه الثقة تتجدد ، فيقول له ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأسلوب يزلزل كيان عظماء الرجال : « أما ترضى أن أكون أنا أخاك ؟ » قال : بلى .

وهل لابن أبى طالب أن يقول غير هذا الكلام . وهل كان حلمه يرتفع ويرتفع ليصل إلى هذا المستوى ويرقى إلى هذا الأفق ، معاذ الله . إنه مع رسول رب العالمين ، ومن جهة ثانية ، ففرق العمر بينهما يتجاوز الثلاثين عاماً ، يمكن أن يطمح بمثل هذا الفلك أبو بكر رضي الله عنه وأمثاله . أما على الفتى ، أما على الغلام، فأنى له أن يحلم بهذا المجد ؟! إنها حقيقة فوق أحلامه ، ومع ذلك يسأل : « ألا ترضى أن أكون أنا أخاك؟» قال : بلى . قال : « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » .

---

(١) شرح المواهب اللدنية للقسطلانى ١ / ٤٣٢ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٣) الجامع الصحيح للترمذى ك . المناقب ج ٣٧٢٠ م٥ / ٦٣٦ .

ورواية الترمذى تبرز لنا المستوى الذى كان علىٌّ يطمح إليه . لقد جاء وعيناه تدمعان أن بقى وحيداً بلا أخ من عشرات الصحب ، ألأنه صغير جداً نسيه رسول الله ﷺ ، ولم يقم له وزناً فى هذه المؤاخاة ؟! إنه واحد من هذه المجموعة الخيرة العظيمة فكيف لا يبكى إن فاته هذا الشرف ؟! وجاءه شرف لم يسمع بمثله قط فى الأولين والآخرين بعد النبيين والمرسلين : « ألا ترضى أن أكون أنا أخاك ؟ »، يقول له هذا الكلام وقد رباه دارجاً، ثم طفلاً صغيراً ،ثم يافعاً . بل لم يكن قد رأى النور عندما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الثلاثين من عمره . ومع هذا يرتفع به حتى يبلغ به السماك الأعلى فيقول له : «أنت أخى فى الدنيا . . .» ليس فى الدنيا فقط ، بل هناك على رؤوس الخلائق جميعاً : « . . . وفى الآخرة » .

« أنت منى وأنا منك » :

ثم يرتفع الغلام الصغير أكثر فأكثر . ليكون من الدوحة النبوية المباركة ، ويكون عليه الصلاة والسلام منه .

(فعن حبشى بن جنادة ،قال : قال رسول الله ﷺ : « على منى وأنا من على، ولا يؤدى عنى إلا أنا أو على » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب) (١) .

(وعن البراء بن عازب أن النبى ﷺ قال لعلى بن أبى طالب : « أنت منى وأنا منك » ، وفى الحديث قصة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح) (٢) .

وعند البخارى : (وقال لعلى : « أنت منى وأنا منك ») (٣) .

ويقول الإمام ابن حجر :(أى فى النسب والصهر والمسابقة والمحبة وغير ذلك من المزايا ، ولم يرد محض القرابة ، وإلا فجعفر شريكه فيها . . .) (٤) .

وقد سما على رضي الله عنه بحيث كان الرجل الوحيد فى الأرض وبنيه هم أهل رسول الله ﷺ .

ففى حديث مسلم برواية سعد رضي الله عنه :ولما نزلت هذه الآية : **﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾** (٥) ، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : « اللهم هؤلاء أهلى » (٦).

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى ك . المناقب ح ٣٧١٩ج ٥ ص ٦٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ح ٣٧١٦ / ص٦٣٥.

(٣، ٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٥٠٥ ــ ٥٠٧ .

(٥) آل عمران / ٦١ .

(٦) مسلم ك فضائل الصحابة ج٤ ص ١٨٧١ .

فإذا كانت فاطمة بنت النبى ﷺ ،والحسن والحسين من ذريتها وذرية النبوة. فعلى رضي الله عنه هو منضم إلى هذه الدوحة النبوية المباركة ، فيكون من رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا كانت التربية النبوية ذات الدور الأكبر فى هذا النسب إضافة إلى النسب الأصلى، فلا شك أن خديجة ـ رضى الله عنها ـ عنها هى التى شاركت فى هذا البناء.

يقول الإمام ابن حجر رضي الله عنه وهو يتحدث عن قول رسول الله ﷺ: «...وبشرها ببيت فى الجنة من قصب،لا صخب فيه ولا نصب» :

(وفى ذكر« البيت » معنى آخر؛لأن مرجع أهل بيت النبى ﷺ إليها لما ثبت فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ (١).

قالت أم سلمة : لما نزلت دعا النبى ﷺ فاطمة وعلى والحسن والحسين وجلّلهم بكساء فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى » الحديث أخرجه الترمذى وغيره (٢) ، ومرجع أهل البيت هؤلاء إلى خديجة ، لأن الحسين من فاطمة ، وفاطمة بنتها ، وعلىٌّ نشأ فى بيت خديجة وهو صغير ، ثم تزوج ابنتها بعدها ، فظهر رجوع أهل البيت النبوى إلى خديجة) (٣) .

ورسول الله ﷺ هو من على بحيث ينتهيان إلى أرومة واحدة ،وجد واحد هو عبد المطلب بن هاشم ،وأبو طالب وعبدالله أخوان شقيقان لأم واحدة، هى فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

ومع أن ولد أبى طالب من حيث القرابة كلهم فى مستوى واحد، مع على ابن أبى طالب رضي الله عنه لكن لم يفوزوا بهذا السبق ولم يحوزوا على هذا الفضل ، لأن المصاهرة التى تمت بين على بن أبى طالب رضي الله عنه وبين النبى ﷺ لم يفوزوا هم بها ، ولأن التربية فى بيت النبوة منذ نعومة أظفاره رضي الله عنه لم يفوزوا هم بها . وأكرم الله علياً رضي الله عنه من أهل الأرض جميعاً أن تكون ذرية النبى ﷺ وأهل بيته الموجودون إلى قيام الساعة هم من نسله وذريته رضي الله عنه ،فبناته ـ عليه الصلاة والسلام ـ جميعاً ماعدا فاطمة ، إما لم ينجبن وإما أنجبن ، ومات أولادهن دون إنجاب ، فالبشرية كلها تشرف فى أن يكون أهل بيت النبوة عوالاً على رسول الله ﷺ وعلى علىّ بن أبى طالب ، ولا غرو أن يقول له

---

(١) الأحزاب / ٣٣ .

(٢) وقد روي الحديث الإمام مسلم في ك فضائل الصحابة . ج٤ ص١٨٨٣ ح٢٤٢٤ ، وهو عند الترمذي ج٥ ح٣٨٧١ .

(٣) فتح الباري ج٧ ص١٣٨ .

ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أنت منى وأنا منك» .

وإن كان هناك أهل بيت خاصة وأهل بيت عامة ، فلا شك أن خاصته وأهله هم على والحسن والحسين وفاطمة ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ وأهل بيت عامة . هم أزواجه ، وبنو هاشم وبنو المطلب جميعاً الذين حرّمت عليهم الصدقة .

نحن مع هذا الطفل العظيم، أو أعظم أطفال الإسلام الذى قُدِّر له فيما بعد أن يكون الرجل الرابع فى الأمة، أو أن يكون الخليفة الرابع كذلك فى الخلافة الراشدة ، فيمثل مع إخوته الخلفاء الثلاثة منهاج النبوة فى الأرض .

ولكننا نتساءل : لم كان الرجل الرابع فى الإسلام ولم يكن الرجل الأول ، وهو رضي الله عنه الذى حدّد لنا الرجل الأول فى الأمة والرجل الثانى فى الأمة ، كما روى عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه وهو ابن على بن أبى طالب؟ قال: قلت : يا أبت من خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ قال : أبو بكر . قلت : ثم من ؟ قال : عمر . قلت : فخشيت أن أقول: ثم من؟ فيقول: عثمان . فقلت : أنت يا أبت ؟ فقال : أبوك رجل من المسلمين [1] .

ذلك لأنه لم يقدّر له أن يكون له الدور الأول فى المرحلة المكية فى الجهاد والمصابرة ضد أعداء الدعوة، بينما قدِّر لأولئك الثلاثة الأفذاذ أن يحملوا هذا العبء فى أصعب الظروف وأحلكها .

وقد أشار علىّ رضي الله عنه إلى هذا المعنى، فقال فيما روى عن الحسن بن على بن أبى طالب قال : (لما جاء رجل فقال : يا أمير المؤمنين كيف سبق المهاجرون والأنصار إلى بيعة أبى بكر وأنت أسبق سابقة وأورى منه منقبة ؟ فقال على : « ويلك إن أبا بكر سبقنى إلى أربع لم أوتهن، ولم أعتض منهن بشىء ، سبقنى إلى إفشاء الإسلام ، وقدم الهجرة ، ومصاحبته فى الغار ، وإقام الصلاة، وأنا يومئذ بالشعب يُظهر إسلامه وأخفيه، تستحقرنى قريش وتستوفيه ، والله لو أن أبا بكر زال عن مزيته مابلغ الدين العبرين[2] ولكان الناس كرعة ككرعة طالوت،ويلك إن الله ذم الناس ومدح أبا بكر فقال: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا . . .** ﴾[3]. أخرجه صاحب فضائل أبى بكر ، وخيثمة

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ج١٣٦ ص١٥٣ ، وقال المحقق عنه : إسناده صحيح وقد رواه البخارى ج٥ ص٩ فى ك فضائل الصحابة .

(٢) العبرين : الجانبين .

(٣) التوبة / ٤٠ .

بمعناه ، ورواه الدارقطنى فى الغرائب وضعّفه . . .) (١) .

ونلاحظ أن هذه الفضائل الأربعة، مرتبطة بالجهاد والمصابرة فى العهد المكى، حيث حمل أبو بكر رضي الله عنه عبء المواجهة الكبرى بجوار رسول الله ﷺ.

وها هو على رضي الله عنه يتحدث عن ذكرياته فى طفولته. فيقول:(من أشجع الناس ؟ فقالوا : أنت . فقال : أما إنى ما بارزنى أحد إلا أنصفت منه ، ولكنه أبو بكر . لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يجؤه وهذا يتلقاه ،ويقولون له : أنت تجعل الآلهة إلهاً واحداً . فوالله مادنا منا أحد إلا أبا بكر يضرب هذا ويدفع هذا ويقول : ويلكم ، أتقتلون رجلاً يقول ربى الله . ثم بكى على ثم قال : أنشدكم الله ، أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر . فسكت القوم. فقال على : والله لساعة من أبى بكر خير منه . ذاك رجل يكتم إيمانه ، وهذا يعلن إيمانه) (٢) .

وعندما قدّر لعلى رضي الله عنه أن يكون فى المواجهة المباشرة فكان ذلك فى آخر العهد المكى عند الهجرة، حيث أوكل له رسول الله ﷺ أخطر المهمات الفدائية وأشقها ، أن يبيت فى فراشه ، ويكون عرضة للسيوف المتلمظة بالحقد من قريش ، والتى تود أن تفتك بالمصطفى عليه الصلاة والسلام ، وأن يتخلف بعده بمكة ، ويؤدى الودائع لأصحابها ، ويلحق برسول الله ﷺ وحده ، فكان رجل المهمات الصعبة منذ ذلك الحين ، وكان على مستوى الأخوة التى شرفه بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعلى مستوى التمثيل الشخصى له حيث لا يبلّغ عنه إلا رجل من أهل بيته،وحين كان التمثيل الشخصى لرسول الله ﷺ رأينا كيف بعث رسول الله ﷺ علياً بصدر سورة براءة ، يتلوها على الناس فى الموسم وأبو بكر رضي الله عنه أمير الناس على الحج، كما روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال :(إن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبى بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال : « لا يبلّغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتى » فبعث بها مع على بن أبى طالب) (٣) .

---

(١) شرح المواهب للزرقانى ج١ ص٢٨٤ ، وقال الزرقانى عن خيثمة : وخيثمة بن سليمان بن حيدرة الإمام الحافظ أبو الحسن القرشى الطرابلسى أحد الثقات الرحالة، جمع فضائل الصحابة. وقوله: ككرعة طالوت لعله أراد : لولا أبو بكر لخالف الناس الدين كما خالفه كرعة لطالوت بالشرب من النهر الذى نهوا عنه .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ١٧٠ ،وقال عنه : «ولقصة أبى بكر شاهد من حديث على أخرجه البزار من رواية محمد بن على عن أبيه أنه خطب فقال : . . .» .

(٣) ورواه الترمذى فى التفسير وقال : « حسن غريب » ج٥ ح ٣٠٩٠ ص ٢٧٥ .



الفصل السادس

المولى الأول فى الأمة

وقدَّر الله أن يزاحم فى البدايات الأولى لهذا الدين بجوار المرأة والرجل والطفل ،مولى من موالى رسول الله ﷺ ،هو زيد بن حارثة .

الغلام اليفعة :

لم يكن زيد رضي الله عنه قرشياً ، فقد فاته هذا الاصطفاء ،ولم يكن من كنانة كذلك ، لكن نص الحديث النبوى الصحيح يجعل زيداً من قريش .

(فعن قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « مولى القوم من أنفسهم » (١) .

أما نسبه فهو : زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرئ القيس ابن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن كلب بن وبرة بن ... قحطان ، هكذا نسبه ابن الكلبى وغيره ، وربما اختلفوا فى الأسماء وتقديم بعضها على بعض وزيادة شيء فيها. وأمه سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت من بنى معن من طيئ) (٢) ، لكن كيف وصل مكة ؟

يحدثنا ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فيقول :

خرجت سعدى بنت ثعلبة أم زيد بن حارثة، وهى امرأة من طيئ تزور قومها وزيد معها فأغارت خيل لبنى القيس بن جسر فى الجاهلية ، فمروا على أبيات بنى معن رهط أم زيد فاحتملوا زيداً وهو يومئذ غلام يفعة فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، فقبضه رسول الله ﷺ ، وقد كان أبوه حارثة حين فقده قال :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدرى وإن كنت سائلاً ... أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل

فياليت شعرى هل لك الدهر رجعة ... فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل

تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل

---

(١) البخارى ٤١/١٢ فى الفرائض . باب مولى القوم من أنفسهم .

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر (على هامش الإصابة) ٥٤٤/١ .

وإن هبــت الأرواح هيجــن ذكــره ... فـيا طول مـا حزنـى عليـه ويا وجـل
سأعمل نص العيس فى الأرض جاهداً ... ولا أسـأم التطـواف أو تسـأم الإبـل
حياتــى أو تأتــى علــىّ منـيتى ... وكـل امرئ فـان وإن غره الأمــل
وأوصــى بـه قيسـاً وعمــراً كليهمــا ... وأوصـى يزيــداً ثـم بعـدهم جبل[1]

فحج ناس من كلب فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه ،فقال : بلغوا أهلى هذه الأبيات :

ألكنى[2] إلى قومى وإن كنت نائياً ... بأنــى قطيـن البيـت عنــد المشـاعـر
فكفوا من الوجد الذى قد شجاكم ... ولا تعمـلوا فى الأرض نـص الأباعـر
فإنــى بحمـد الله فـى خيـر أسـرة ... كــرام معـد كـابـراً بعـد كابـــر

قال : فانطلق الكلبيون وأعلموا أباه فقال : ابنى ورب الكعبة ! ووصفوا له موضعه ،وعند من هو، فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل بفدائه ، وقدما مكة فسألا عن النبى ﷺ فقيل: هو فى المسجد . فدخلا عليه ، فقالا : يا بن عبد المطلب ، يابن هاشم ، يابن سيد قومه أنتم أهل الحرم وجيرانه وعند بيته ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ،جئناك فى ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سنرفع لك فى الفداء . قال : «من هو ؟» قالوا : زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : «فهل لغير ذلك ؟ «قالوا :«ماهو ؟ » قال: « دعـوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً » . قالا : قد زدتنا على النصف وأحسنت . قال : فدعاه فقال : « هل تعرف هؤلاء ؟» قال: نعم .قال : «من هما؟ » قال : هذا أبى وهذا عمى . قال : « فأنا من قد علمت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما » فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكان الأب والأم .

فقالا: ويحك يا زيد،أتختار العبودية على الحرية،وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ، فإنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً .

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقـال : « يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى » .

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا ، فدُعى زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام) [3] .

---

(١) يعنى جبلة بن حارثة أخا زيد وكان أكبر من زيد .
(٢) ألكنى : أبلغ قومى .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص٤٠ - ٤٢ .

ونسأل عن عُمر زيد رضي الله عنه حين دخل بيت محمد ﷺ ، فيقول ابن عبد البر: (كان زيد هذا قد أصابه سَبأ فى الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام فى سوق حباشة وهو سوق بناحية مكة كان مجمعاً للعرب يتسوقون بها فى كل سنة ، اشتراه حكيم بن حزام لخديجة بنت خويلد فوهبته خديجة لرسول الله ﷺ. فتبناه رسول الله بمكة قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين، وكان رسول الله أكبر منه بعشر سنين ، وقد قيل: بعشرين) (١) .

وفى رواية الترمذى عن أبى عمرو الشيبانى قال: أخبرنى جبلة بن حارثة أخو زيد ، قال : قدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ابعث معى أخى زيداً ، قال : «هو ذا »، قال : « فإن انطلق معك لم أمنعه ». قال زيد : يارسول الله ، والله لا أختار عليك أحداً . قال : فرأيت رأى أخى أفضل من رأيى (٢).

وفى رواية عن عبد الملك بن أبى سليمان : (حدثنا أبو فزارة قال : أبصر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة غلاماً (٣) ذا ذؤابة قد أوقفه قومه بالبطحاء للبيع فأتى خديجة . فقالت: كم ثمنه ؟ قال : «سبعمائه ». قالت : خذ سبعمائه ، فاشتراه وجاء به إليها. فقال: « أما إنه لو كان لى لأعتقته ». قالت :هو لك، فأعتقه) (٤).

وقد سقت هذه الروايات جميعاً للوصول إلى ترجيح معين فى السن الذى كان فيه فى بيت رسول الله ﷺ ، وحيث إنا لا نملك سنداً صحيحاً يقطع بذلك . فقد كان عمره رضي الله عنه على أقل الروايات ثمان سنين وعلى أكثرها خمسة عشر عاماً وفى رواية الخمسة عشرة يتناسب مع فرق السن بينه وبين رسول الله ﷺ وهو عشر سنين ، إذ أن رسول الله ﷺ تزوج خديجة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

والذى يهمنا من هذا الأمر هو هذه الخاصية التى كانت لزيد رضي الله عنه فقد دخل بيت النبى ﷺ ، وهو فى أول حياته ، وتربى على يدىّ النبى ﷺ خمسة عشر عاماً قبل البعثة ، وهو ألصق الناس به ، وأقربهم إليه ، حتى أنه عليه الصلاة والسلام رفعه من مستوى الولاء إلى مستوى البنوة .

وذلك حين اختاره على أبيه وعمه وقومه .

لقد بلغ من حب زيد رضي الله عنه لمولاه محمد ﷺ وقبل أن يكرمه الله تعالى بالرسالة،

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ـ هامش الإصابة ١/ ٥٤٥ .
(٢) سنن الترمذى / ٥ ك المناقب ح٣٨١٥ / ص ٦٧٦ ، وقال عنه : «حديث حسن غريب ».
(٣) الغلام : هو الذى طر شاربه ، وناهز الحلم .
(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٢٢٣ . وقال المحقق فيه : إسناده منقطع .

حباً يفوق الوصف ، فهو منه بمثابة الأب والعم ، وهو روح حياته ، وهو سر وجوده ، فرفض قومه وأباه وأمه، وكان جوابه العظيم الفذ حين قال له أبوه : « ويحك يازيد أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك !!

قال : نعم ، لقد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً .

وقد خيّره رسول الله ﷺ دون أن يكون له عليه سلطان، إلا سلطان قلبه الذى ملك عليه حبّه وفؤاده ، إنه يعيش فى حضن بيت النبوة ، وحين يراه عليه الصلاة والسلام بهذا الوفاء وبهذا الحب ، ما تمالك أن قام وأعلن : « أشهدكم أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى » .

وارتفع ابتداء من العبودية إلى الولاء، ثم ارتفع بعد من الولاء إلى البنوة إلى أن جاء الإسلام وألغى التبنى .

هذه المزايا والخصائص التى نتحدث عنها للأربعة الأوائل،والتى لم يفز بها غيرهم، جعلتهم قمة هذه الأمة ، وما بلغوا هذه القمة إلا بمقدار ما اكتسبوا من رسول الله ﷺ من خلقه ومن علمه ، ومن طهره ومن فضله . فزيد وخديجة شرفهما الله تعالى بصحبة نبيه خمسة عشر عاماً قبل النبوة .

وأبو بكر كان صاحب رسول الله ﷺ منذ الفتوة . فكان شبيهه خلقاً ، وكان قرينه وصديقه حيث كانا فى سن متقاربة . وعلى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تفتح على الحياة عند رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ففضيلة الصحبة ، بلغت شأواً عند هؤلاء ، لم تبلغ عند أحد غيرهم ،وقبسوا من نور النبوة وعظمة أخلاقها ما لم يستشرف إليه أحد .

ولنعرف عظمة زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يكفى أن نعلم أنه أحد الأربعة الأوائل الذين دخلوا فى هذا الدين ، ومما لا شك فيه أنه أول مولى أسلم فى الأمة وفى بعض الروايات. يقول عنه الزهرى رحمه الله:

(ما نعلم أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة).(وقال عبدالرزاق : لم يذكره غير الزهرى، قلت : قد ذكره الواقدى بإسناد له عن سليمان بن يسار جازماً بذلك وقاله زائدة أيضاً)[1] .

حب رسول الله ﷺ له :

وهذا جانب آخر يوضح لنا عظمة هذه الشخصية وهو حب رسول الله ﷺ له. فقد كان ابناً له قبل تحريم التبنى ،ونجد من النصوص الصحيحة ما يوضح لنا هذا الجانب .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ٥٦٤ .

يقول عنه الذهبى: (الأمير الشهيد النبوى المسمى فى سورة الأحزاب، أبو أسامة الكلبى، ثم المحمدى سيد الموالى، وأسبقهم إلى الإسلام، وحبُّ رسول الله ﷺ، وأبو حِبِّه. وما أحب رسول الله ﷺ إلا طيبا، ولم يسمِّ الله تعالى صحابياً باسمه إلا زيد ابن حارثة... فعن محمد بن أسامة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «يا زيد، أنت مولاى، ومنى وإلىّ، وأحبُّ القوم إلىّ») (١).

(وعن عبد الله بن دينار، سمع ابن عمر، أن رسول الله ﷺ أمَّر أسامة على قوم، فطعن الناس فى إمارته فقال: «إن تطعنوا فى إمارته، فقد طعنتم فى إمارة أبيه. وايم الله إن كان لخليقا بالإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلىّ..») (٢).

(وفى رواية: «وإن كان أبوه خليقاً بالإمارة، وإن كان لأحب الناس كلهم إلى». قال سالم: ما سمعت أبى يحدث بهذا الحديث قط إلا قال: والله ما حاشا فاطمة) (٣)، (وعن خالد بن سلمة المخزومى قال: لما جاء مصاب زيد وأصحابه أتى رسول الله ﷺ منزله بعد ذلك، فلقيته بنت زيد فأجهشت بالبكاء فى وجهه. فلما رآها رسول الله ﷺ بكى حتى انتحب فقيل: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «شوق الحبيب إلى الحبيب»)(٤).

وحين نجد رجلاً من خلق الله يتحدث عنه سيد خلق الله بهذا الحب، ويجهش فى البكاء حتى ينتحب حين تبلغه شهادته. نعرف عظمة هذا المعدن الذى رأى فيه رسول الله ﷺ أنه أنفس المعادن التى عاش معها عمره. واحتضنه غلاماً. وخالطه فتى ورجلاً وكهلاً. فما ازداد إلا حباً فيه.

ويكفيه رضي الله عنه أنه هو الوحيد الذى فاز فى هذه الأمة بلفظ الحب، فكان يسمى زيد الحبّ، وأقر الله عينه بولده أسامة فى حياته. ففاز بلقبه كذلك، حيث كان يقال له: الحبُّ ابن الحبِّ.

ولم يقل هذا لأحد غيرهما فى هذه الأمة، ولا ننسى كذلك تلك المنقبة التى فاز فيها وحده من دون الأمة ومن دون الناس جميعاً، أنه هوالذى ذكر اسمه فى القرآن دون أى صحابى آخر فى قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا** ﴾(٥).

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٢٢٦. وقال عنه المحقق: أخرجه أحمد ٥ / ٢٠٤ مطولا وابن سعد ورجاله ثقات. وصححه الحاكم ٣ / ٢١٧ ووافقه الذهبى، وحسنه الحافظ فى الإصابة ٤ / ٥٠.

(٢) السير ١ / ٢٢٧، وقال المحقق: أخرجه أحمد من طرق، البخارى، مسلم، الترمذى، فى أبواب عدة.

(٣) السير ١ / ٢٢٧، وقال المحقق: رجاله ثقات.

(٤) السير ١ / ٢٣٠، وقال المحقق: رجاله ثقات، لكنه منقطع.

(٥) الأحزاب / ٣٧.

الخليق بالإمارة :

إننا لسنا بصدد ترجمة شخصية هنا . إنما نعرض للتربية النبوية التى نالت هؤلاء . ولم يدخلوا بعد فى الإسلام ، أو قد دخلوا للتوّ فيه ، ونعرض لمعدنهم قبل الإسلام ، ومدى تأثرهم بشخص رسول الله ﷺ قبل الإسلام كذلك . ومن أجل هذا جمعناهم تحت اسم : الأربعة الأوائل .

وزيد حين يطعن الناس بإمارته ، يقيمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ التقييم الدقيق، راداً ذلك الطعن قائلاً « وايم الله ،إن كان لخليقاً بالإمارة » .

فهو يحمل إذن خصائص القيادة بشهادة النبى ﷺ له .

هذه الشهادة النظرية، أما الشهادة العملية له . فكانت كما قالت عائشة ـ رضى الله عنها :(ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سرية إلا أمّره عليها ، ولو بغى لاستخلفه)[1] .

فهذا المولى إذن لم يكن فى حياته إلا أميراً . وما كان أميراً عليه إلا رسول الله ﷺ .

وترى عائشة رضى الله عنها أنه واحد من المرشحين للخلافة لو بقى حياً . وشاء رسول الله ﷺ أن يستخلف بعده . كما يحدثنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه مؤكداً هذا المعنى فيقول : غزوت مع النبى ﷺ سبع غزوات . ومع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره علينا رسول الله ﷺ [2] .

ويذكر الواقدى هذه الغزوات فيقول :

(أول سرايا زيد إلى القردة ، ثم إلى الجموم ،ثم إلى العيص ، ثم إلى المطرف ، ثم إلى جشمى ،ثم إلى أم قرفة ،ثم تأميره على غزوة مؤتة) [3] .

وإذن فمع أنه مولى رسول الله ﷺ . فقدكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعده ليكون قائداً فذاً ،ويربيه ليكون أميراً ، وهو يرى فيه خصائص الإمارة ،ويراه أنه خليق وجدير بها . وشاءت إرادة الله تعالى أن يسقط شهيداً وهو الأمير على المسلمين فى مؤتة .

وهكذا أراد الله تعالى أن يقوم بناء هذا الإسلام ابتداءً على أربعة عمد : رجل

---

(١) الإصابة فى تاريخ الصحابة لابن حجر ١ / ٥٦٤ .وقال عنه ابن حجر : أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة بإسناد قوى عنها .

(٢) أخرجه البخارى م٢ ج٥ص١٨٤ فى المغازى . كما أخرجه الحاكم ، ووافقه الذهبى على صحته ٣ / ٢١٨.

(٣) الإصابة ١ / ٥٦٤ .

وامرأة ومولى وصبى ، والمولى فى هذه الأمة كان جديراً بالإمارة والقيادة والخلافة . وودّع هذه الدنيا وهو أمير على ثلاثة آلاف هم أكبر جيش كان حتى ذلك الحين . وتحت إمرته العربى الهاشمى جعفر ـ رضوان الله عليه .

وندع الحديث عن الرجل الثانى فى الأمة عمر رضي الله عنه إلى موقعه عند إسلامه سنة ست من الهجرة .

الرجل الثالث فى الأمة

عثمان بن عفان

عثمان ونسبه :

وهو أقرب الناس نسباً لرسول الله ﷺ ، من العشرة المبشرين بعد على بن أبى طالب رضي الله عنه وفاته اصطفاء بنى هاشم فقط . فهو:

عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، فهو يلتقى مع رسول الله ﷺ فى جده الثالث عبد مناف ، وكثيراً ما يحسب بنو عبد مناف فرعاً كبيراً واحداً من شجرة قريش يضم بنى هاشم وبنى أمية وبنى نوفل وبنى المطلب .

ولكن التنافس على الشرف والزعامة كان كبيراً بين فرعى بنى عبد مناف . وهما بنو هاشم وبنو عبد شمس أو أمية . وكانت قيادات بنى أمية تتمثل آنذاك بعتبة بن ربيعة بن عبد شمس وأخيه شيبة ، وأبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، وسعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس . ولندرك هذه السيادة نذكر ما ورد عن حرب الفجار بين هوازن وكنانة ، وقريش من كنانة :

(وكان آخر أيام الفجار، أن هوازن وكنانة تواعدوا للعام القابل بعكاظ فجاؤوا للموعد، وكان حرب بن أمية رئيس قريش وكنانة،وكان عتبة بن ربيعة يتيماً فى حجره، فضربه حرب وأشفق من خروجه معه،فخرج عتبة بغير إذنه . فلم يشعر إلا وهو على بعيره بين الصفين ينادى : يا معشر مضر، علام تفانون ؟ فقالت له هوازن : ما تدعو إليه ؟ قال:الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم، وتعفو عن دمائنا، قالوا :وكيف ذاك؟ قال : ندفع إليكم رُهُنا منا . قالوا : ومن لنا بهذا ؟ قال : أنا . قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، فرضوا ورضيت كنانة ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام . فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهُن فى أيديهم عَفَوْا عن الدماء وأطلقوهم وانقضت حرب الفجار) [1] .

وكان هاشم هو الذى ينازع الشرف لحرب بن أمية، بينما آل شرف بنى هاشم بعد عبد المطلب إلى أبى طالب عم النبى ﷺ ، ومن أجل هذا عندما بُعث النبى ﷺ من بنى هاشم، وتنازع الشرف على أشده بين الحيين من بنى عبد مناف .كان الأصل أن

---

(١) سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف الصالحى ٢ / ٢٠٦ .

يقف بنو أمية فى الجانب الآخر دون أن يستسلموا ، لكن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان له شأن آخر ، حطم بهذا الشأن هذا التنافس، ورضى أن يكون تبعاً لمحمد بن عبد الله ﷺ سليل بنى هاشم .

ذكر أبو سعد النيسابورى فى كتاب شرف المصطفى من طريق محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان وهو الملقب بالديباج عن أبيه عن جده قال :

(كان إسلام عثمان أنه قال :

كنت بفناء الكعبة إذ أُتينا فقيل لنا: إن محمداً قد أنكح عتبة بن أبى لهب رقية ابنته. وكانت ذا جمال بارع وكان عثمان مشتهراً بالنساء وكان وضيئاً حسناً جميلاً أبيض مشرقاً ،جعد الشعر له جمة أسفل من أذنيه، جذل الساقين، طويل الذراعين، أقنى بيِّن القنا ـ قال عثمان : فلما سمعت ذلك دخلتنى حسرة ألا أكون سبقتُ إليها . فلم ألبث أن انصرفت إلى منزلى . فأصبت خالتى قاعدة مع أهلى ـ قال : وأمه أروى بنت كريز وأمها البيضاء بنت عبد المطلب. . وخالته التى أصابها عند أهله سعدى بنت كريز وكانت قد طرحت وتكهنت لقومها ـ قال عثمان : فلما رأتنى قالت :

أبشر وحُيِّيت ثلاثاً وتراً ... ثم ثلاثاً وثلاثاً أخرى

ثم بأخرى كى تتم عشراً ... لقيت خيرا ووُقيت شراً

ناكحت والله حصاناً زهراً ... وأنت بكرٌ ولقيت بكراً

قال فعجبت من قولها وقلت : ياخالة ، ماتقولين ؟ قالت :

عثمان ياعثمان ياعثمان ... لك الجمال ولك الشان

هذا نبى معه البرهان ... أرسله بحقه الديان

وجاءه التنزيل والفرقان ... فاتبعه لا تنبأ بك الأوثان

. . . . ثم انصرفت ووقع كلامها فى قلبى وبقيت مفكراً فيه ، وكان لى مجلس من أبى بكر الصديق ، فأتيته بعد يوم الإثنين فأصبته فى مجلسه ولا أحد عنده ، فجلست إليه فرآنى متفكراً . فسألنى عن أمرى وكان رجلاً رقيقاً فأخبرته بما سمعت من خالتى، فقال لى : ويحك يا عثمان ،والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ، هذه الأوثان التى يعبدها قومك أليست حجارة صُما لا تسمع ولا تُبصر ولا

تضر ولا تنفع ؟ قلت : بلى والله إنها كذلك . قال : والله لقد صدقتك خالتك ، هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه ،فهل لك أن تأتيه وتسمع منه ؟ فقلت : نعم . فوالله ما كان بأسرع من أن مر رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب يحمل ثوباً لرسول الله ﷺ . فلما رآه أبو بكر قام إليه فسارّه فى أذنه ، فجاء رسول الله ﷺ فقعد فأقبل علىَّ فقال : يا عثمان ، أجب الله إلى جنته ، فإنى رسول الله إليك وإلى جميع خلقه ، فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،وأن محمداً عبده ورسوله .ثم لم ألبث أن تزوجت رقية .

وكان يقال : أحسن زوجين رآهما إنسان رقية وزوجها عثمان) (١) .

يقول ابن إسحاق :

(فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله تعالى ، وكان رجلاً مؤلفاً فى قومه محبباً سهلاً،وكان أنسب قريش لقريش ،وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق حسن ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم على يديه فيما بلغنى : عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى . . . . .) (٢) .

ولم يكن عثمان رضي الله عنه نكرة فى قومه يوم أسلم . فقد كان يجاوز الثلاثين من العمر ، وكان على مستوى من الخلق شبيهاً بخلق الصديق ومن أجل هذا كان يختار مجلسه،وكان طموحه فى مصاهرة النبى ﷺ لإعجابه كذلك بخلقه وفضله ، فكان فى الجاهلية ابتداءً ينضم إلى هذه الدوحة .

وكان أول من استجاب للصديق ، ودخل فى الإسلام رامياً خلف ظهره كل الاحتمالات التى ستغضب قومه بنى أمية لأن يكون تبعاً لسيد بنى هاشم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه . ولا شك أن إسلامه قد هز أركان بنى أمية وأثار غضبهم وسخطهم ، لكن لم نسمع عن محاولات إيذائه أو اضطهاده ، وذلك لتقدمه فى السن فهو قد تجاوز الثلاثين ، ولكون فرعه من بنى أمية لا يطاوله به أحد ، فكل أولئك المشهورين عتبة وشيبة وأبو سفيان وسعيد بن العاص هم بنو عمه ، أما هو فهو ابن أبى العاص بن أمية .

---

(١) الإصابة فى تاريخ الصحابة للحافظ ابن حجر ١٠٦/٨/٤ ت٥٣٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣١٧ .

وفى هذا الفرع فهو السيد الثانى. أما سيد بنى أبى العاص بن أمية فهو الحكم عمه، وراعه أن يرى عثمان قد أسلم ، فحاول جاهداً أن يثنيه عن إسلامه ففشل . فقد روى محمد بن عمر قال :

(حدثنى موسى بن محمد بن إبراهيم بن حارث التيمى، عن أبيه قال: لما أسلم عثمان أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه رباطاً وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه . فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه) (١) .

ولا شك أن بنى أمية حين رأوا فشل الحكم فى ثنى عثمان عن إسلامه ، كانوا أشد يأساً وفشلاً فلم يتمكنوا من مواجهته .

وبقيت صلابته فى دينه وتحديه لعشيرته تعطيه السمة العليا من سماته فى ثباته على الحق الذى آمن به ، وتمسكه بهذا الدين الذى اعتنقه . .

لقد كانت عوامل إسلامه رضي الله عنه متعددة .

ولعل أول ما هيّج قلبه نحو هذا الإيمان هو ما صارح به رسول الله ﷺ بعد إسلامه فقال :

(. . . . يا رسول الله ، قدمت حديثاً من الشام ، فلما كنا بين معان والزرقاء فنحن كالنيام ، إذ منادٍ ينادينا : أيها النيام ، هبوا ، فإن أحمد قد خرج بمكة ، فقدمنا فسمعنا بك) (٢) . فليس فى مكة من اسمه محمد أو أحمد إلا رسول الله ﷺ، وهو حين يسمع بهذا الاسم يتمنى أن يكون هذا النبى من أقرب الناس له وأحبهم إليه .

والعامل الثانى : هو تلك العمومة التى تربط بينهما وهذه القرابة القريبة التى تصل بينهما فجدته البيضاء الهاشمية بنت عبد المطلب أم أمه أروى هى عمة محمد ﷺ فلم يفته شرف الولاء . .

والعامل الثالث : أن محمداً ﷺ من بنى عبد مناف ، وهو أشرف البيوتات القرشية، وعثمان ورسول الله ﷺ ينتهيان إلى هذا الأصل الباسق .

(كانت قريش بيضة فتفقأت ... فالمح خالصه لعبد مناف
الخالطين فقيرهم بغنيهم ... والظاعنين لرحلة الإيلاف
والرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين هلمّ للأضياف)(٣)

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٥ . (٢) المصدر نفسه ٣/ ٥٥ .

(٣) الروض الأنف للسهيلى ١/ ١٦١، ونسب هذا الشعر لعبد الله بن الزبعرى .

ومن كلام أبى طالب :

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها

وإن حصّلت أنساب عبد مناف ... ففى هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرها وكريمها[1]

والعامل الرابع : هو العظمة التى يراها فى خلقه ﷺ ، فهو وأبو بكر ينتميان للمدرسة النبوية التى تأثر فيها فى الجاهلية قبل النبوة .

خلق عثمان :

ولا أدل على هذا المعنى المذكور آنفاً من أن عثمان رضي الله عنه بعد أن رأينا صلته الوثقى بجانب النسب مع رسول الله ﷺ ، فلابد أن نرى الصلة الوثقى بجانب الخلق ، ويطالعنا فى هذا الصدد حديث رسول الله ﷺ المروى عن أبى هريرة قال :

(دخلت على رقية ابنة رسول الله ﷺ امرأة عثمان بن عفان وفى يدها مشط فقالت : خرج من عندى رسول الله ﷺ آنفاً رجَّلْتُ رأسه فقال : « كيف تجدين أبا عبد الله؟ » قلت : كخير الرجال ، قال : « أكرميه، فإنه من أشبه أصحابى بى خُلُقاً) [2] .

فشهادة رسول الله ﷺ فيه أنه من أشبه أصحابه به خلُقاً . هى من أعلى الشهادات فى هذا الوجود لمستوى هذا الصحابى العظيم ، وقد قال الله تعالى عن نبيه الكريم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [3].

وعثمان رضي الله عنه الأشبه خلقاً لرسول الله ﷺ هو على خلق عظيم ولا شك. ونعيد هذا التشابه ثانية إلى تلك الصلة فى النسب أولاً ثم فى الصداقة ثانياً ، فتأثر عثمان رضي الله عنه بالصديق ، وتأثر الصديق برسول الله ﷺ ، وكون عثمان أصغر بأربع سنين من الصديق ، وست سنين من رسول الله ﷺ تجعله يرى هذا المثل الأعلى ، ويحاول التأسى به والاقتداء به ولا شك، والشهادة النبوية تثبت نجاحه بهذا التأسى والاقتداء ، فأى ثناء يمكن أن نصف به عثمان رضي الله عنه أكبر من هذا الثناء .

وخلق الإسلام الحياء :

والخلق البارز الذى يمتاز به الإسلام هو الحياء ، فله السابقة والفضل على جميع الأخلاق : « إن لكل دين خلقاً ، وإن خلق الإسلام الحياء »[4] .

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٤٥ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١/ ٥١٠ ح٨٣٤ ،وقال المحقق فيه : إسناده صحيح .

(٣) القلم / ٤ .

(٤) صحيح الجامع الصغير للألبانى ، وقال فيه : رواه ابن ماجة من حديث أنس وابن عباس وهو حديث حسن .

وهذا الذى أعطى عثمان ﷺ منه أوفر نصيب . فلم يبلغ شأوه أحد بعد رسول الله ﷺ والنصوص من الوفرة بحيث لا تحتاج إلى مزيد : فعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

« أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى دين الله عمر ، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم على بن أبى طالب ، وأقرؤهم لكتاب الله أبى بن كعب. . . » (١).

فقد امتاز عثمان ﷺ بين الأمة بأنه أصدقها حياءً .

وبلغ من إكرام رسول الله ﷺ لهذا الحياء أنه كان يستحى منه .

(فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعاً فى بيتى كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له ، وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه - قال محمد: ولا أقول ذلك فى يوم واحد - فدخل فتحدث . فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر ، فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسوّيت ثيابك فقال: «ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة») (٢) .

وفى رواية : « إن عثمان رجل حيى ، وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحال ، ألا يبلغ إلىّ فى حاجته » (٣) .

ويالعظمة هذا الرجل الذى تستحى منه ملائكة السماء ويستحى منه رسول رب العالمين .

وإذا كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء فى خِدرها ، فلا عجب أن يقتفى ذو النورين أثره ، ويبلغ الذروة العليا فى هذا الخلق بعده .

ولكن هذا الخلق ، الحياء الذى جُبِل عليه عثمان، لم يكن ليمنعه من موقف الحق ، فهو على دماثته ولطفه ، وتهذيبه ، لم يستح من حمل لواء الإسلام فى أيامه الأولى ، وأن يكون الرجل الثالث فيه ، وأن يحتمل أذى التعذيب والحبس فى سبيل الله .

علم الهدى :

وخصيصة ثانية كانت لعثمان ، وضعته موضع القدوة والأسوة ، تتكامل مع هذا الخلق ولا تتعارض معه . فالحياء الذى لا يأتى إلا بخير لا يعنى أبداً مداهنة فى الله أو نفاقاً مكذوباً يتملق فيه المستحى الناس . وإن هذا الحياء لله وفى الله وهو خلق أصيل

---

(١) سنن ابن ماجة ١/ ٥٥ ح١٥٤ . وقال فيه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير : صحيح ١/ ٣٠٨ .
(٢ ، ٣) مسلم ك فضائل الصحابة ج٤ ح٢٦ ، ٢٧ ص ١٨٦٦ .

في ذى النورين رضي الله عنه يعنى أن يكون الاستحياء من الله ابتداءً وقبل كل شىء ، وهذا الاستحياء: يعنى أن يكون على منهج الله لا يحيد عنه حين تدلهم الخطوب وتصطرع الفتن:

(فعن ابن حوالة قال : أتيت على رسول الله ﷺ وهو جالس فى ظل دومة[1] وعنده كاتب يملى عليه فقال : « أنكتبك يا بن حوالة ؟ » قلت : فيم يا رسول الله ؟ فأعرض عنى وأكبّ على كاتبه يملى عليه ثم رفع رأسه إلىَّ فقال: « أنكتبك يا بن حوالة ؟ » قلت : فيم يا رسول الله ؟ فأعرض عنى وأكبّ على كاتبه يملى عليه . فنظرت فإذا فى الكتاب عمر ، فعرفت أن عمر لا يكتب إلا فى خير، فقال : « أنكتبك يابن حوالة ؟ » قلت : نعم ، فقال : « يا بن حوالة كيف تفعل فى فتن فى أطراف الأرض كأنها صياصى بقر ؟ » قلت : لا أدرى ما خار الله لى ورسوله . فقال : «فكيف تفعل فى أخرى تخرج بعدها كأن الأولى فيها انتفاخة أرنب ؟ » قلت : لا أدرى ما خار الله لى ورسوله . قال : « اتبعوا هذا » ورجل مقفى حينئذ فانطلقت فسعيت فأخذت بمنكبيه فأقبلت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: أهذا ؟ قال إسماعيل: مرة هذا ؟. قال : « نعم وإذا هو عثمان ») [2] .

وحين تقع الفتنة تدع الحليم حيراناً ، وتبدو عظمة الإيمان فى مثل هذه الفتن التى تزعزع الكبار، وتهز الرجال ، كما يقول ـ عليه الصلاة والسلام : « تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أُشْربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا . لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مربداً كالكوز مجخياً [3] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» [4] .

وقدّر الله تعالى لعثمان أن يكون إمام الأمة حين تقع الفتن ، فهو :

الأمين :

ولكونه بهذا الخلوص وهذا التجرد ، استحق القوامة على الأمة ، فهو القوى فى الحق والأمين عليه ، وقد لقّبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالأمين .

(فعن موسى بن عقبة قال : حدثنى أبو أمى حبيبة أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان فى الكلام، فأذن له فقام فحمد الله وأثنى عليه

---

(١) دومة: شجرة معروفة .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٤٤٨/١ ح٧١٩ . وقال فيه المحقق : إسناده صحيح .

(٣) كالكوز مجخياً : قلب ونكس حتى لا يعلق به حكمة . (٤) مسلم ك الإيمان ح٢٣١ ج١ ص١٢٨ .

ثم قال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنكم تلقون بعدى فتنة واختلافاً ـ أو قال: اختلافاً وفتنة ـ » فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله ؟ فقال :« عليكم بالأمين وأصحابه » وهو يشير إلى عثمان بذلك) (١) .

وكانت هذه التربية النبوية لعثمان تعده ليكون قائداً للأمة فى أحلك ظروفها وقلب محنتها، وتوجهه منذ اللحظات الأولى لذلك . وكان كل يوم يتلقى درساً جديداً فى المدرسة النبوية ، فتزداد خصائصه عمقاً وطاقاته توقداً ،ليحمل المشعل فيما بعد ،مشعل الهدى فى قلب الفتنة ، ثم رسم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ خطاً وأفقاً دعاه إليه ، وهذا الأفق يدل على عظمته كذلك .

القميص :

والقميص هو الحكم فى المفهوم الإسلامى(٢) .

(عن النعمان بن بشير، عن عائشة، قالت : أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن عفان فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فلما رأينا رسول الله أقبلت إحدانا على الأخرى فكان من آخر كلام كلّمه، أن ضرب بين منكبيه وقال : « يا عثمان، إن الله عز وجل عسى أن يلبسك قميصاً فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى ، يا عثمان، إن الله عسى أن يلبسك قميصاً فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى » ثلاثا فقلت لها : يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك ؟ قالت : نسيته والله فما ذكرته ، قال فأخبرته معاوية بن أبى سفيان)(٣) .

وأروع ما فى هذا التوجيه أن رسول الله ﷺ يدعو عثمان إلى أن يتثبت فى الحكم ويصبر عليه ولا يستجيب لنزغات المنافقين ، والعادة فى البشر أن حب السلطة والمنصب يتمكن فى قلوبهم ، ويقتلون الناس والخصوم ويذبحون المعارضين ولا يتخلون عن الحكم . فما بال عظيمنا هذا يؤكد عليه رسول الله ﷺ ألا يتخلى عن الخلافة ثلاثاً فى أوامر صارمة جازمة .

وما ذلك لشىء إلا لأن هذا المعدن العظيم قد ارتفع فى التربية ،وسما فى الخلق، ولم يعد حب الحكم والسلطة له ذرة فى قلبه . بل أصبحت العبودية لله ، والحرص

---

(١) إسناده صحيح كما فى فضائل الصحابة ١/ ٤٥٠ وقال المحقق عنه :أخرجه الحاكم (٣/ ٩٩) وصحح إسناده ووافقه الذهبى ، وقال ابن كثير فى البداية ٧ / ٢١٠ : « تفرد به أحمد وإسناده جيد حسن » .

(٢) فى القاموس المحيط : فصل القاف باب الصاد : وفى الحديث أن الله سيقمصك قميصاً : أى سيلبسك لباس الخلافة ٢/ ٣٢٧ .

(٣) فضائل الصحابة ١/ ٥٠٠، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، ورواه الترمذى ٥/ ٦٢٨ ،وقال فيه: «حديث حسن صحيح » .

على تنفيذ أحكامه هو الذى يحركه ، وحتى لا يغلب الورع على عثمان ، فيترك الخلافة خوفاً من الفتنة ،جاءه الأمر النبوى ألا يخلع ربقة الخلافة من عنقه .

لقد اطمأن ـ عليه الصلاة والسلام ـ على تربية هذا الجيل الرائد ،وعلى قيادته العليا ، وقد صفت نفوسهم من حظوظ السلطان والدنيا ، وتجردوا لله وحده . فكان الخوف على هذه القيادة أن تتخلى حقناً للدماء أمام المنافقين ، فكان التركيز والتوجيه النبوى على التمسك بالخلافة والمحافظة عليها أن تغدو ألعوبة بين يدى الانتهازيين والمتلمظين للسلطة والحكم .

هذه النوعية الفريدة فى التاريخ التى تصدر الأوامر لها فى التمسك بالخلافة هى التى تمنح من معين النبوة ما شاء لها أن تمتح ، وهى التى اختارها الله تعالى لترث الأرض وتقودها بهدى الله ورسوله ، وهى التى قدِّر لها أن تكون الشخصية الثالثة فى الأمة .

الرجل الثالث فى الأمة :

وإذا كان الإجماع على شخصية الشيخين أبى بكر وعمر على أنهما أول الأمة وثانيها ، وكان هناك خلاف فى الرأى بين على وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ أيهما ثالث الأمة ورابعها . فنأخذ شهادة على رضي الله عنه عنه استنتاجاً فى ذلك .

(فعن محمد بن الحنفية وهو ابن على بن أبى طالب قال : قلت : يا أبت من خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : أبو بكر ، قلت : ثم من ؟ قال : عمر ، قال : فخشيت أن أقول : ثم من ؟ فيقول : عثمان ، فقلت : أنت يا أبت . فقال : أبوك رجل من المسلمين) (١) .

وينقل لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه الصورة الثانية فيقول :

(كنا فى زمن النبى ﷺ لا نعدل بأبى بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبى ﷺ لا نفاضل بينهم) (٢) .

(وعن ابن عمر قال :خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس ، فقال: « رأيت قبل الفجر كأنى أعطيت المقاليد والموازين ، فأما المقاليد فهذه المفاتيح ، وأما الموازين فهذه التى يوزن بها فوضعت فى كفة ووضعت أمتي فى كفة فوزنت بهم فرجحت، ثم جىء بأبى بكر فوُزن بهم فوَزن ، ثم جىء بعمر فوزن بهم فوَزن ثم جىء بعثمان فوُزن بهم ثم رفعت ») (٣).

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١/١٥٣ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح .

(٢) البخارى م٢ج٥/١٨ ك فضائل الصحابة ، ب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ٩/٥٨ ،وقال فيه: رواه أحمد ٢/٧٦ ، والطبرانى إلا أنه قال: فرجح بهم فى الجميع ، وقال : ثم جىء بعثمان فوضع فى كفة ووضعت أمتى فى كفة، فرجح بهم ثم رفعت ، ورجاله ثقات .

ثالث المبشرين مع البلوى :

لقد أعده رسول الله ﷺ ليكون القائد الفذ الذى يحكم الأمة ،وأعلمه كذلك فيما أعلمه أن الجنة له ممتزجة ببلوى تصيبه :

(فعن أبى موسى رضي الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى حائط من حيطان المدينة،فجاء رجل فاستفتح، فقال النبى ﷺ:« افتح له وبشره بالجنة »، ففتحت له فإذا أبو بكر فبشرته بما قال النبى ﷺ فحمد الله .ثم جاء رجل فاستفتح فقال لها النبى ﷺ: « افتح له وبشره بالجنة »،ففتحت له فإذا هو عمر.فأخبرته بما قال النبى ﷺ فحمد الله. ثم استفتح رجل فقال له : « افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه » فإذا عثمان فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ فحمد الله ،ثم قال : الله المستعان) (١) .

ولقد عرف رسول الله ﷺ أن هؤلاء الثلاثة ، وهم يبشرون بأسعد ما يبشر به مخلوق على وجه الأرض ، لن تتزلزل شخصيتهم أمام الثناء ، بل سيزدادون قربى لله وتنسكاً وعبادة وخشية وطاعة ، ولن يجد الغرور أو الإعجاب منفذاً إلى نفوسهم ولو من ثقب إبرة ، فقد استوت شخصياتهم ونضجت وغدت أكبر من الثناء وأكبر من الإعجاب والغرور ، بعد أن صقلت بالإيمان الذى غمر وجودها كله .

الشهيد :

وزفّ له رسول الله ﷺ بشرى ثانية إضافة إلى بشرى الجنة أن الله ـ تعالى ـ سيصطفيه شهيداً إضافة إلى صحبته : ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾ (٢) .

(فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صعد النبى إلى أحد ،ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم ، فضربه برجله وقال : « اثبت أحد، فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيدان ») (٣) .

ذو النورين :

وندع لابن حجر فى الإصابة يحدثنا فى مقتطفات عن عثمان:

---

(١) البخارى م٢/ ج٥/ ١٦ ك فضائل الصحابة ، ب مناقب عثمان بن عفان .

(٢) آل عمران / ١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) البخارى م٢ ج٥ ص١٤ ك فضائل الصحابة ، ب مناقب عمر بن الخطاب .

(. . . كان ربعة، حسن الوجه ، رقيق البشرة ،عظيم اللحية ، بعيد ما بين المنكبين. . . وزوج النبى ﷺ ابنته رقية من عثمان وماتت عنده أيام بدر، فزوجه بعدها أختها أم كلثوم. فلذلك كان يلقب بذى النورين . . . وروى خيثمة فى فضائل الصحابة، عن طريق الضحاك ، عن النزال بن سبرة ،قلنا لعلى: حدثنا عن عثمان، قال: ذاك امرؤ يدعى فى الملأ الأعلى ذا النورين . وروى الترمذى من طريق الحارث بن عبد الرحمن عن طلحة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبى رفيق، ورفيقى فى الجنة عثمان بن عفان » ، وقال على : كان عثمان أوصلنا للرحم . . .) (١) .

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانى م١ ج٢ ص٢٢٣ .

الأيام الأولى فى الإسلام
والنخبة القيادية

قال ابن إسحاق :

(فلما أسلم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أظهر إسلامه، ودعا إلى الله وإلى رسوله ، وكان أبو بكر رجلاً مالفاً لقومه ،محبباً سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه .

قال : فأسلم بدعائه فيما بلغنى :

* عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب .

* والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة ابن كعب .

* وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب .

* وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب .

* وسعد بن أبى وقاص (مالك) بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن مرة بن كلاب بن مرة بن كعب .

فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا ، وكان رسول الله ﷺ يقول فيما بلغنى : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ماكان من أبى بكر بن أبى قحافة ما عكم[1] عنه حين ذكرته له وما تردد ، فيه »)[2].

---

(١) عكم : تردد أو تلبث .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣١٧ .

قال ابن إسحاق: (فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا ، وصدقوا رسول الله ﷺ بما جاء من الله)[١] .

قال ابن إسحاق : (ثم أسلم :

* أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر .

* وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر .

وفى رواية: ثم انطلق أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبى الأرقم وعثمان بن مظعون حتى أتوا رسول الله ﷺ فعرض عليهم الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن فأسلموا وشهدوا أنه على هدى ونور)[٢] .

وروى أبو الحسن خيثمة الأطرابلسى فى فضائله أن هؤلاء الأربعة أسلموا أيضاً على يدى أبى بكر) [٣] .

خمسة من العشرة المبشرين، أى نصفهم،هم من حسنات أبى بكر الصديق رضي الله عنه فحسنات نصف السادات الأوائل من الأمة فى صحيفة حسنات الصديق ، وحقٌ له أن يثقل ميزانه فى الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وحقٌ له رضي الله عنه أن يوضع فى ميزان وتوضع الأمة كلها فى ميزان أن يرجح بالأمة كلها.

وأبو بكر خدن رسول الله ﷺ ،وهو حسنة من حسناته عليه الصلاة والسلام . لم يكن إسلامه إسلام رجل ، بل كان إسلام أمة . فهو فى قريش كما ذكر ابن إسحاق فى موقع العين منها :

* كان رجلاً مألفاً لقومه محبباً سهلاً .

* وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر .

* وكان رجلاً تاجراً .

* ذا خلق ومعروف .

* وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق ، (من رواية يونس بن بكير) ١٤٣ .

(٣) سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف الصالحى الشامى ٢/ ٤١٢ .

* لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته .

* فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ،ممن يغشاه ويجلس إليه .

لقد كان أبو بكر كنزاً من الكنوز ادخره الله تعالى لنبيه ، فهو فى موقعه لا يمكن أن يكون إسلامه سراً لأنه ليس نكرة فى قريش ، لقد كان من أحب قريش لقريش ، فذلك الخلق السمح الذى وهبه الله تعالى إياه جعله من الموطئين أكنافاً ، من الذين يألفون ويؤلفون ، والخلق السمح وحده عنصر كاف لألفة القوم ، وهو الذى قال فيه عليه الصلاة والسلام :« أرحم أمتى بأمتى أبو بكر » (١) .

فالذى يملك هذا القلب الحى الذى وصفه عليه الصلاة والسلام فى الحديث الآخر: « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن. . . »(٢) ، لا شك أنه سيكون أرضاً خصبة معطاء ينبت عليها شجر الإيمان ، فكانت الأعمدة الأولى لهذا الدين من ثماره .

وعلم الأنساب عند العرب، وعلم التاريخ هما أهم العلوم عندهم ، ولدى أبى بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النصيب الأوفر منهما ، وقريش تعترف للصديق بأنه أعلمها بأنسابها وأعلمها بتاريخها وما فيه من خير وشر. فالطبقة المثقفة الواعية ترتاد مجلس أبى بكر لتنهل منه علماً لا تجده عند غيره غزارة ووفرة وسعة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء الشباب النابهون ، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائماً ، إنهم الصفوة الفكرية المثقفة التى تود أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانب آخر من جوانب عظمته ، وطبقة رجال الأعمال ، ورجال المال فى مكة ، هى كذلك من رواد مجلس الصديق ، فهو إن لم يكن التاجر الأول فى مكة ، فهو من أشهر تجارها ، فأرباب المصالح هم كذلك قصاده ، ولطيبته وحسن خلقه تلقى عوام الناس يرتادون بيته، فهو المضياف الدمث الخلق ، الذى يفرح بضيفانه ،ويأنس بهم ، فكل طبقات المجتمع المكى تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه .

وكان هؤلاء الخمسة يمثلون الطبقة الثانية ، من الفتيان والشباب النابهين الذين يؤمون بيته لينهلوا من علمه وليتدربوا على أصول التجارة وفن التعامل من جهة ثانية ، وهم من فروع شتى فى مكة ، فيهم التيمى طلحة ، والأموى عثمان ،والأسدى الزبير، والزهرى عبد الرحمن وسعد .

---

(١) رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة وغيرهم ، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع الصغير ٣٠٨/٢ ح ٩٠٨ .

(٢) رواه أحمد وغيره ١/ ٣٨٣ .

وهم يرتاحون عنده ، فليس عنده عنجهية الفروع الكبرى المتناطحة من بنى مخزوم وبنى أمية وبنى هاشم ، فهو من حيث النسب يبعد قليلاً عن الوسط ، لكنه خبير بهذه الأنساب وكأنه المعيار الذى يصهر فيه التراب ليبرز فيه المعدن الخسيس والنفيس ويميز الخبيث من الطيب .

إن هذه الفروع الخمسة التى تمثلت بهذه المجموعة النادرة، هى التى اختارها ـ رضى الله عنها ـ لتكون النواة الأولى لهذا الدين ، فهو اختيار متضلع خبير ، واختيار فقيه بالنفوس وفقيه بالرجال .

وهم الذين فاتحهم بهذا الدين الجديد على صغر سنهم ، فهو يراهم أرجح قريش عقلاً ، وأعمقهم أفقاً ، ومن خبرته فيهم يعلم أن آفاقهم أبعد من أن تحدها مكة وشيوخها ورجالها ، فهم طلاب حقيقة ورواد فكر ، وطلبة علم ، فبحث معهم وحدهم من دون رجال الأعمال ، ومن دون طبقة التجار الزملاء ، ومن دون العوام طلبة الضيافة ، ومحبى الفضول والاستمتاع بهذه المجالس ، فقد انتقاهم رضى الله عنه من كل قصاده من قريش وفاتحهم بهذا الدين الجديد .

وكان الإسلام الذى ركز دعائمه الأولى بالمرأة والطفل والمولى وأبى بكر ، ينتظر عناصر قيادية جديدة نابهة واعية ناضجة ، تنضم إلى الدوحة النبوية ، وتُهيأ للقيادة فى المستقبل .

لقد كان عثمان رضي الله عنه ، فى الرابعة والثلاثين من عمره .

وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فى الثلاثين من عمره .

وكان سعد بن أبى وقاص فى السابعة عشر من عمره .

وكان الزبير بن العوام فى الثانية عشر من عمره .

وكان طلحة بن عبيد الله فى الثالثة عشر من عمره .

وهؤلاء الخمسة مع أبى بكر وعلى ـ رضى الله عنهم ـ هم السبعة الأوائل .

(فعن سعيد بن زيد ـ أحد العشرة المبشرين ـ رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان على حراء ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن بن عوف فقال: « اثبت حراء، فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد»)[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٨٤ ، وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد ١/ ١٨٨ ، ١٨٩، وأبو داود (٤٦٤٨) فى السنة ، باب فى الخلفاء ، والترمذى (٣٧٥٨) فى المناقب باب : مناقب سعيد بن زيد وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجة (١٣٤) فى المقدمة : باب فضائل العشرة .

وأنشد الرياشى لرجل من قريش :

أيا سائلى عن خيار العباد ... صادفت ذا العلم والخبره
خيار العباد جميعاً قريش ... وخير قريش ذوو الهجره
وخير ذوى الهجرة السابقون ... ثمانية وحدهم نصره
على وعثمان ثم الزبير ... وطلحة واثنان من زهره
وبران قد جاورا أحمداً ... وجاور قبرهما قبره
فمن كان بعدهم فاخراً ... فلا يذكرن بعدهم فخره[١]

وفى الحديث الذى رواه مسلم (عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرك، فقال رسول الله ﷺ :« اسكن ، فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد » .

وعليه النبى ﷺ وأبو بكر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص)[٢] .

ولنقف مع هذه النماذج الأربعة : طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن ، بعد أن تحدثنا عن الرجال الأربعة فى الأمة أبو بكر وعثمان وعلى وزيد .

طلحة ممن قضى نحبه :

ينتمى هو والصديق إلى أرومة واحدة ، فهما من بنى تيم بن مرة ، وجاءته البشائر تدعوه إلى الالتحاق بالدين الجديد ، وغزت قلبه بالإسلام قبل أن يسلم .

فقد أخرج ابن سعد فى الطبقات عن محمد بن عمر[٣] قال :

(حدثنى الضحاك بن عثمان [٤] ، عن مخرمة بن سليمان الوالبى[٥] ،عن إبراهيم ابن محمد بن طلحة[٦] ، قال : قال طلحة بن عبيد الله : حضرت سوق بصرى فإذا راهب فى صومعته يقول : سلوا أهل هذا الموسم: أفيهم أحد من أهل الحرم ؟ قال طلحة : فقلت : نعم أنا ، فقال: هل ظهر أحمد بعد ؟ قال: قلت: ومن أحمد ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذى يخرج فيه وهو آخر الأنبياء ومخرجه من

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤ .

(٢) مسلم ك٤٤ فضائل الصحابة ب من فضائل طلحة والزبير ج٥ ح٢٤١٧ .

(٣) هو الواقدى .

(٤) صدوق يَهِمُ .

(٥ ، ٦) ثقة .

الحرم ، ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ ، فإياك أن تسبق إليه . قال طلحة : فوقع فى قلبى ما قال ، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة ، فقلت: هل كان من حدث ؟ قالوا : نعم محمد بن عبد الله الأمين تنبأ وقد تبعه ابن أبى قحافة . قال : فخرجت حتى دخلت على أبى بكر فقلت : أتبعت هذا الرجل ؟ قال : نعم ، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق . فأخبره طلحة بما قال الراهب ، فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ ، فأسلم طلحة وأخبر رسول الله بما قاله الراهب ، فسر رسول الله ﷺ بذلك) (١) .

ولكن سنه التى كان فيها فى الثالثة عشرة،لم تهيئ له دوراً مذكوراً يؤديه فى مكة، فكان فى الدورة القيادية بين يدى رسول الله ﷺ يرعاه حتى غدا بعد وفاته مرشحاً للخلافة ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض .

وقد فاز بالوسام الخاص به،وهو الذى قلّده إياه رسول الله ﷺ دون أن يشاركه فيه أحد ، هذا الوسام ، إنه ممن قضى نحبه ،وهو من الذين قضوا نحبهم .

(فعن موسى وعيسى ابنى طلحة عن أبيهما ،أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابى جاء يسأله عمَّن قضى نحبه : من هو ، وكانوا لا يجترئون على مسألته ﷺ يوقرونه ويهابونه ، فسأله الأعرابى فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ، ثم إنى اطلعت من باب المسجد وعلىّ ثياب خضر ، فلما رآنى رسول الله ﷺ قال : « أين السائل عمن قضى نحبه ؟ » قال الأعرابى : أنا، قال : « هذا ممّن قضى نحبه ») (٢) .

وفى الحديث الآخر : « من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » (٣) .

هذه شهادة رسول الله ﷺ له فى بلائه وجهاده ، وأما شهادته له فى سخائه وجوده :

فعن موسى بن طلحة قال : لما كان يوم أحد سماه النبى ﷺ طلحة الخير، وفى غزوة ذى العشيرة طلحة الفياض ، ويوم خيبر طلحة الجود .

الحوارى الزبير :

وهو الصديق الصدوق لطلحة حيث كانا متقاربين فى السن ونشآ فى الدوحة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢١٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٢٨ وقال المحقق فيه : أخرجه الترمذى فى المناقب ٥/ ٦٤٥ وقال: « هذا حديث حسن غريب » ، والطبرانى فى الكبير (٢١٧) وابن سعد ٣/ ١/ ١٥٦ وسنده حسن .

(٣) الترمذى ٥/ ٦٤٤ ح٣٧٣٩ وقال فيه : «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الصلت» .

النبوية يتلقيان النبأ العظيم لشخصيهما على يدى مربى البشرية محمد عليه الصلاة والسلام ، وعن صداقتهما التى زكاها عليه الصلاة والسلام بالمؤاخاة بينهما .(فقد ذكر الزبير بن بكار بسند له مرسل أن النبى ﷺ لما آخى بين أصحابه بمكة قبل الهجرة آخى بين طلحة والزبير) (١) . ثم أكرمهما بهذه المؤاخاة فى الآخرة بعد ذلك ، كما شهد صديقهما على رضي الله عنه بأن يكونا فى الجنة جارين من جهة لبعضهما ، ومن جهة ثانية جارين لرسول الله ﷺ ، فقد نالا بشائر سعادتهما فى الدارين وعاشاها فى الهجرة قبل وبعد :

فعن عقبة بن علقمة اليشكرى قال : سمعت على بن أبى طالب قال : سمعت أُذنى من فىّ رسول الله ﷺ وهو يقول : « طلحة والزبير جاراى فى الجنة »(٢) .

ولئن تفرد طلحة رضي الله عنه بـ (الشهيد الحى) و (ممن قضى نحبه) و(الفياض) و (الخير) و (الجود) ــ فقد تفرد الزبير ـ رضوان الله عليه ـ بوسام لم ينله أحد فى أمة محمد ﷺ ، هذا اللقب هو (الحوارى) ، ولا عجب فقد أشرف على تربية الزبير بن العوام صفية بنت عبد المطلب وهى عمة رسول الله ﷺ ، والتى كانت تعده ـ وهى الهاشمية العظمى ـ للقيادة ، وتعده لجلائل الأعمال . (فقد كانت صفية بنت عبدالمطلب تضرب الزبير وهو صغير وتغلظ عليه ـ وكان يتيماً ـ فعاتبها نوفل فى ذلك وقال : أنت تبغضينه، فقالت صفية :

من قال إنى أبغضه فقد كذب ... وإنما أضربه لكى يلب

ويهزم الجيش ويأتى بالسلب ... ولا يكن لما له خَبْءٌ مخب

يأكل ما فى الطّل من تمر وحب) (٣)

فهو قد تربى هاشمياً على يد صفية ، ليكون قائداً فيما بعد . وأسلمته لرسول الله ﷺ ابن اثنتى عشرة سنة ،وفى رواية ابن ثمان سنين . . ولكن وسامه الذى ناله كان فى الخندق يوم الأحزاب .

(قال البخارى ومسلم عن جابر: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق : «من يأتينا بخبر بنى قريظة ؟» فقال الزبير : أنا . فذهب على فرس فجاء بخبرهم، ثم قال الثانية . فقال الزبير : أنا . فذهب . ثم الثالثة ،فقال النبى ﷺ :

« لكل نبى حوارى ، وحوارى الزبير ») (٤) .

---

(١) الإصابة لابن حجر ٤/ ٢٩١ .

(٢) الترمذى ٥/ ٦٤٥ ح٣٧٤١ وقال فيه : «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» .

(٣) نسب قريش ٢٣٠ للمصعب الزبيرى ،والإصابة لابن حجر م٢ ج٣ / ٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٨ وقد أخرجه البخارى م٢ ج٥ ص٢٧. ومسلم ٤/ ٤١٥ فى الفضائل، وغيرهم .

والحوارى هو الصديق المصطفى .

وقال مصعب الزبيرى : الحوارى : الخالص من كل شيء ،وقال الكلبى : الحوارى : الخليل .وقد رأت صفية بأم عينها زبيرها الحبيب ولا يزال فى بداية طفولته كيف أثمرت تربيتها العنيفة فيه فقد كسر يد غلام ذات يوم فجيء بالغلام إلى صفية فقيل لها ذلك فقالت :

كيف وجدت زبرا [١] أأقطا أم تمرا [٢] أم مشمعلاً [٣] صقرا

بقى أن نعلم أنه ابن عمة رسول الله ﷺ من جهة وابن أخى خديجة بنت خويلد سيدة نساء العالمين فى عصرها . فهو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن قصى بن كلاب . فقد فاته اصطفاء بنى هاشم من جهة أبيه وإن لم يفته من جهة أمه ، ويلتقى فى الجد الرابع مع رسول الله صلوات الله عليه فهو من بنى أسد بن عبد العزى . بينما يلتقى طلحة فى الجد السادس مع رسول الله ﷺ فهو طلحة بن عبيد الله ابن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب .

الزهريان:

وهما سعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف بقية الثمانية .

أما نسب سعد فهو :سعد بن مالك (أبى وقاص) بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة .

ونسب عبد الرحمن فهو:عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث ابن زهرة بن كلاب بن مرة فهما أقرب العشرة لرسول الله ﷺ بعد على وعثمان والزبير. إذ يلتقيان فى الجد الرابع وهو كلاب بن مرة . فلم يفتهما إلا اصطفاء بنى هاشم ، ومثلا فرع بنى زهرة فى إرساء قواعد الإسلام الأولى . وإن كان سعد أقرب للمجموعة الأولى من حيث السن . فلم يتح له أن يؤدى دوراً مهماً فى المرحلة المكية. أما عبد الرحمن فقد كان قد تجاوز الخامسة والعشرين . وكان لوقوفه فى الصف الإسلامى دور مؤثر وفعال .

عبد الرحمن بن عوف :

وهو أول ممن تسمى بهذا الاسم كما يقول : (كان اسمى عبد عمرو ، فلما

---

(١) زبراً : الزبير .

(٢) الأقط : ما يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل .

(٣) المشمعل : السريع يكون فى الناس والإبل .

أسلمت سماني رسول الله ﷺ عبد الرحمن)[1] .

سيِّد المسلمين :

فقد رشحه رسول الله ﷺ للزواج تحت هذا الاسم : (فعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مجمع، أن عمر قال لأم كلثوم بنت عقبة امرأة عبد الرحمن بن عوف: أقال لك رسول الله ﷺ : «أنكحى سيد المسلمين عبد الرحمن بن عوف ؟» قالت : نعم) [2].

وفى رواية البخارى : « أنكحوا عبد الرحمن بن عوف فإنه من خيار المسلمين، ومن خيارهم من كان مثله » فقد جعله رسول الله ﷺ السيد المحتذى والمقتدى به . وجعله النموذج للخيرين فى الأرض .وذلك حين قال : « ومن خيارهم من كان مثله».

وشهد له ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالخيرية فى مكان آخر حيث قال عليه الصلاة والسلام :

« خياركم خياركم لنسائى » . فأوصى لهن عبد الرحمن بحديقة قومت بأربعمائة ألف [3] .

ولهذه السيادة والقدوة كان رسول الله ﷺ يبعثه فى الملمات ، ويهيئه للقيادة .

وحين جرى بعض الخلاف بينه وبين القائد الفذ خالد بن الوليد رضي الله عنه . غضب رسول الله ﷺ لعبد الرحمن من خالد ، وأوضح أن كل تلك العبقرية والبلاء فى الإسلام لا تعادل أمام بلاء عبد الرحمن شيئاً يذكر ولو كانت ملء أحد ذهباً . وذُكِرَ نموذجاً للصحاب الأوائل الذين رعاهم عليه الصلاة والسلام منذ اللحظات الأولى ، وهيأهم للقيادة المستقبلية . ووطن نفوسهم لتستوعب القيادات الجديدة دون أن يكون لديها أى حرج من ذلك . فقد كان عبد الرحمن رضي الله عنه جندياً فى جيش خالد . وكان بذلك يمثل القدوة العظيمة وهو يربى هذا الجيل على مفهوم السمع والطاعة للأمير بصورة عملية لا لفظية . كما حدَّد عليه الصلاة والسلام فضل هذا الجيل الرائد من خلال هذا الحوار :

(عن أنس رضي الله عنه قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن ابن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبى

---

(1) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٧٤، وقال المحقق عنه: أخرجه الحاكم ٣ / ٣٠٦ ،وصححه ووافقه الذهبى .

(2) المصدر نفسه للذهبى ١ / ٨٤ . وفى رواية البخارى : «أنكحوا عبد الرحمن بن عوف فإنه من خيار المسلمين ومن خيارهم من كان مثله» .

(3) المصدر نفسه ١/ ٨٥ وأخرجه الترمذى (٣٧٥٠) وقال :« حديث حسن غريب ».

ﷺ فقال : دعوا لى أصحابى فو الذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم») [(١)] وفى الرواية الأخرى :

(عن عبد الله بن أبى أوفى : شكا عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد فقال :

« يا خالد، لم تؤذ رجلاً من أهل بدر ؟ لو أنفقت ملء أحد ذهباً لم تدرك عمله » فقال : يا رسول الله ، يقعون فىَّ فأرد عليهم. فقال رسول الله ﷺ : « لا تؤذوا خالداً ، فإنه سيف من سيوف الله صبَّه الله على الكفار ») [(٢)] .

فقد جاءت هذه الرواية لتؤكد فضل عبد الرحمن رضي الله عنه وتضع الأمور فى نصابها بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وبين الذين اتبعوهم بإحسان بحيث يعرف كل ذى فضل فضله. ولا ننسى أن خالداً رضي الله عنه الذى قال له الرسول ﷺ هذا الكلام هو بطل الفتوح الإسلامية فى الأرض وقائدها مع العرب والفرس والروم . ومع ذلك كله لن يبلغ شأو ذلك الجيل الرائد .

سعد بن أبى وقاص :

وهو الذى دخل فى هذا الدين فى السابعة عشر من عمره . ودخل مدرسة التربية النبوية منذ الأيام الأولى للدعوة . حتى ليرى أنه ثلث الإسلام . يقول رضي الله عنه : (ما أسلم أحد فى اليوم الذى أسلمت، ولقد مكثت سبع ليالٍ وإنى لثلث الإسلام)[(٣)].

خال رسول الله ﷺ :

وقد أكرمه عليه الصلاة والسلام وهو الفتى الصغير عنده بأن رفعه حتى يقال له: خال رسول الله. ويفخر رسول الله ﷺ به وبخؤولته.

فقد أخرج الحاكم فى المستدرك عن جابر، قال : كنا جلوساً عند رسول ﷺ فأقبل سعد بن أبى وقاص، فقال النبى ﷺ : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » [(٤)] .

وكان سعد بن أبى وقاص من بنى زهرة وكانت أم النبى ﷺ من بنى زهرة فلذلك قال النبى ﷺ : « هذا خالى ».

والقرابة قريبة . فجد سعد لأبيه . وجد رسول الله ﷺ لأمه أخوان . وهما أهيب ووهب فهما ابنا عبد مناف بن زهرة . وبذلك التصق سعد أكثر وأكثر برسول الله

---

(١) مسند أحمد ٣ / ٢٦٦ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١ / ٥٧ ، وقال المحقق عنه : إسناده صحيح .

(٣) أخرجه البخارى فى الفضائل م٢ ج٤ ص ٢٨ .

(٤) المستدرك للحاكم ٣ / ٤٩٨ . وقال المحقق عنه : أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى وأخرجه الترمذى فى جامعه (٥ / ٦٤٩ ح ٣٧٥٢) وقال عنه : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا عن مجالد ».

صلوات الله وسلامه عليه . وقُدّر له أن يقود المسلمين فى أعظم فتوحاتهم فيما بعد : فى القادسية .

وكان المسلمون يسمونه : الأسد فى براثنه حين أشاروا على عمر رضي الله عنه به ليقود الجيش . وبنو زهرة بصورة دائمة حلفاء لبنى عبد مناف للقرابة القريبة بينهم . فزهرة بن كلاب وقصى بن كلاب أخوان . وعبد مناف بن قصى وعبد مناف بن زهرة أولاد عم .

ولكن حين جاءت الخطوب . وآن أوان التضحيات. كان سعد رضي الله عنه ابن نجدتها وبطلها . فكان وهو فى أول فتوته هو أول من أراق دماً فى سبيل الله . وكان حين دعا داعى الجهاد أول من رمى بسهم فى سبيل الله . وكان قد فاز بميزة انفرد بها عن غيره وشهد بها الجم الغفير من الصحابة وهى فداء رسول الله ﷺ له بأبويه .

وبلغ من حبه عليه الصلاة والسلام لخاله سعدٍ وهو يرى رميه الكفار بالنبل أن يفديه بأبيه وأمه : (فعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قالَ :

ما سمعت النبى ﷺ يفدى أحداً بأبويه إلا لسعد . فإنى سمعته يقول يوم أحد : «ارم ، فداك أبى وأمى »)(١) .

وفى رواية عن سعيد بن المسيب، عن سعد بن أبى وقاص، قال : (جمع لى رسول الله ﷺ أبويه يوم أحد) (٢) .

(وقد ساقه الحافظ ابن عساكر من بضعة عشر وجهاً . وساق حديث ابن أبى خالد عن قيس من سبعة عشر طريقاً بألفاظها . وساق حديث عبد الله بن شداد عن على «ما سمعت رسول الله ﷺ يجمع أبويه لأحد غير سعد » من ستة عشر وجهاً . رواه مسعر وشعبة وسفيان عن سعد بن إبراهيم عنه) (٣) .

وحين اشتد المرض بسعد عام الفتح بمكة، خشى الوفاة فيها وقد هاجر منها .

(قلت : يا رسول الله ، إنى أرهب أن أموت بأرض هاجرت منها . قال :

« لعلك أن تبقى حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون . اللهم امض لأصحابى هجرتهم ولاتردهم على أعقابهم»)(٤) .

---

(١) الترمذى ٥ / ٦٥٠ ج ٣٧٥٥ ، وقال عنه : «حديث حسن صحيح ».
(٢) المصدر نفسه / ٣٧٥٤ وقال عنه : « حديث صحيح » .
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ١٠٠ .
(٤) أخرجه أحمد ١ / ١٧٩ ، والبخارى (١٢٩٥) فى الجنائز . وغيرها .

فلم تنته رسالته ومسؤوليته بعد. كما بشره رسول الله ﷺ . وقد قيض الله تعالى له أربعين عاماً بعد هذه المرحلة شارك فى بناء الدولة المسلمة ،وقاد الفتوح فيها . وساس الأمة فيها . وكان أحد المرشحين الستة للخلافة .

وهكذا نرى أن حصيلة اليوم الأول من أيام الإسلام خمسة قياديين أسلموا على يدى أبى بكر رضي الله عنه . فهؤلاء هم ستة جعل الفاروق الخلافة فيهم كما يقول رضي الله عنه :

(.... فقالوا : أوصِ يا أمير المؤمنين ، استخلف .قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر ـ أو الرهط ـ الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ ، فسمَّى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن،وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شىء كهيئة التعزية له ـ فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّرَ ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة . . .) [1] .

وأين أمين الأمة ؟

لقد كان أمين الأمة من نتاج اليوم الثانى فى الإسلام . وكما مر معنا.

قال ابن إسحاق :

ثم أسلم أبو عبيدة عبد الله بن الجراح وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد .

وفى رواية : ثم انطلق أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبى الأرقم وعثمان بن مظعون حتى أتوا رسول الله ﷺ فعرض عليهم الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن فأسلموا وشهدوا أنه على هدى ونور .

وروى أبو الحسن خيثمة الأطرابلسى فى فضائله : أن هؤلاء الأربعة أسلموا أيضاً على يدى أبى بكر. فإن كان حصيلة اليوم الأول من جهاد الصديق هم الخمسة القياديون الذين ذكرنا طرفاً من حياتهم . فاليوم الثانى كان عامراً بأربع شخصيات هامة هى:أبو عبيدة بن الجراح . وأبو سلمة بن عبد الأسد ،وعثمان بن مظعون ،والأرقم ابن أبى الأرقم . ولنعرض إلى نبذة عن كل منهم :

أبو عبيدة بن الجراح :

وله فى قلوب المؤمنين القدح المعلى؛ لأن له فى قلب رسول الله ﷺ ذلك المكان المرموق ، والحب العظيم ، فهو ثالث المحبوبين .

(١) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٨ / ٦١ ح ٣٧٠٠ ك ٦٢ فضائل الصحابة .

(فعن عبد الله بن شقيق . قال : قلت لعائشة : أى أصحاب رسول الله ﷺ كان أحب إلى رسول الله ؟ قالت : أبو بكر . قلت : ثم من ؟ قالت: عمر. قلت : ثم من ؟ قالت : ثم أبو عبيدة بن الجراح، قلت : ثم من ؟ قال : فسكتت) (1) .

ولم يكن أحدٌ أدرى بخصائص عامر بن عبد الله بن الجراح من رسول الله ﷺ . فلم يكن الحب جزافاً إنما كان حباً وثيقاً مرتبطاً بعظمة هذا الجندى الذى يتربى على يدى قائده .

وقد اختاره عليه الصلاة والسلام ليكون أمين أمة الإسلام :

(فعن حذيفة رضي الله عنه قال: أتى النبى ﷺ أسقفا نجران العاقب والسيد، فقالا : ابعث معنا أميناً حق أمين. فقال : « لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين » فاستشرف لها الناس فقال : « قم يا أبا عبيدة» . فأرسله معهم) (٢) . وفى رواية البخارى : «لأبعثن - يعنى عليكم - أمينا حق أمين » ، فأشرف أصحابه ، فبعث أبا عبيدة رضي الله عنه) (٣) .

فلقد كان الكبار جميعاً يطمحون إلى هذا المنصب وإلى هذه الخصيصة . ولكنها كانت خاصة لأبى عبيدة رضي الله عنه . وحتى لا يتطرق الشك إلى أن هذا الأمر محصور بجيل أو بمكان. فقد جاء الحديث الآخر ليجعل أبا عبيدة رضي الله عنه أمين أمة الإسلام إلى يوم الدين :

فعن أبى قلابة قال : حدثنى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :

« إن لكل أمة أميناً ،وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح »(٤) .

وأول مواصفات القائد هو أن يكون القوى الأمين . وأبو عبيدة قرشى فاته اصطفاء بنى هاشم .فهو : أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، فيجتمع مع رسول الله ﷺ فى فهر .

فهو يحمل المواصفات العامة القرشية من القوة والأمانة ولكنها بلغت ذروتها عند أبى عبيدة الذى صار علماً على الأمانة فى الأرض وفى مجال خصائصه الخلقية . تطالعنا رواية ترفعه إلى أعلى الذرى فى هذا المجال :

فعن الحسن البصرى قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا لو شئت

---

(١) الترمذى / ج٥ ص ٦٠٧ ك المناقب ج ٣٦٥٧ وقال فيه : « هذا حديث حسن صحيح ».
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ١٢ .
(٣، ٤) البخارى م٢ ج٥ ص ٣٢ ب مناقب أبى عبيدة بن الجراح .

لأخذت عليه بعض خُلُقِه إلا أبا عبيدة » هذا مرسل[1] .

فقد كان ﷺ راضياً عن خلق أبى عبيدة كله .

وحيث أثنى عليه الصلاة والسلام عليه ، وبناءً على هذه الخصائص ،

وبعد أن رشّحه رسول الله ﷺ للإمرة فى أيامه وسماه أمين الأمة ـ نجد الصديق رضي الله عنه يرشحه للخلافة العظمى سواءً بسواء مع عمر رضي الله عنه . ولنمض إلى هذا الترشيح فى سقيفة بنى ساعدة كيف تم :

(ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال فى كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر لا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر : لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء هم أوسط العرب داراً ، وأعربهم أحساباً فبايعوا عمر أو أبا عبيدة)[2] .

أما عمر رضي الله عنه فقد فكانت ثقته به فوق الوصف . ويؤكد أنه لو كان حياً لاستخلفه دون أن يشرك معه أحد :

(فعن شريح بن عبيد وراشد بن سعد وغيرهما قالوا : لما بلغ عمر بن الخطاب سَرْغ[3] ، حُدِّث أن فى الشام وباءً شديداً فقال : إن أدركنى أجلى وأبو عبيدة حى استخلفته فإن سألنى الله عز وجل لم استخلفته على أمة محمد؟ قلت : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لكل أمة أميناً . وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . قال : فأنكر القوم ذلك وقالوا : ما بال علياء قريش ؟ يعنون بنى فهر) [4] .

فنحن إذن أمام عملاق من عمالقة الإسلام العظام، الذى كان عمر يفتقده فى حياته بعد وفاته بطاعون عمواس رضي الله عنه وهو أمير الشام كلها .

(فعن ابن أبى نجيح،قال عمر لجلسائه : تمنوا ، فتمنوا . فقال عمر : لكنى أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح).

ولئن فاتت الخلافة العظمى أبا عبيدة لوجود الشيخين أبى بكر وعمر ، فلم يفته أن يقود الأمة فى الحرب فيكون على رأس جيوشها ، وأن يقودها فى السلم فيكون على

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ /١٣ وقال المحقق فيه: أخرجه الحاكم ٢ / ٢٦٦،وقال:مرسل غريب ، ورواته ثقات ،وهو فى الاستيعاب وفى الإصابة ٥/ ٢٨٨ من طريق أخرى وقال الحافظ:مرسل ورواته ثقات .

(٢) البخارى م٢ ج٥ ص٨ ب مناقب أبى بكر .

(٣) سَرْغ : هو أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك . وقال مالك بن أنس : هى قرية بوادى تبوك وهناك لقى عمر من أخبره بطاعون عمواس .

(٤) أخرجه أحمد ١ / ١٨ ورجاله ثقات إلا أن شريح بن عبيد وراشد بن سعد لم يدركا عمر .

رأس ثغورها بالشام . فكان نعم الكفء لها . ونعم الرجل .

لقد كان أبو عبيدة ـ رضوان الله عليه ثالث الثلاثة .

صدّيق الأمة ، وفاروق الأمة ، وأمين الأمة .

وهكذا انضم تاسع العشرة ليكون حسنة من حسنات الصدّيق كما ذكر الأطرابلسى أن إسلام هؤلاء الأربعة ، أبو عبيدة والثلاثة على يدى أبى بكر .

لقد كان الصديق رضي الله عنه .هو الغواص الذى غاص فأخرج لآلئ هذه الأمة، وقدّمها لرسول الله ﷺ كى يصيغها بصياغة النبوة .

أبو سلمة بن عبد الأسد :

هو ابن عمة رسول الله ﷺ ، فاته اصطفاء بنى هاشم من جهة أبيه ، فهو مخزومى ، كما ورد فى نسبه : أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب. حيث يلتقى مع رسول الله ﷺ فى جده مرة . أما من جهة أمه فأمه برة بنت عبد المطلب .وحيث إنه استشهد زمن النبى ﷺ . نعرض لمقتطفات عامة عنه . توضح شخصيته كما ذكرها الذهبى :

(السيد الكبير أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة وابن عمته برة بنت عبد المطلب . أحد السابقين الأولين ، هاجر إلى الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وشهد بدراً وأحداً ومات بعدها بأشهر ، مات كهلاً فى سنة ثلاث من الهجرة رضي الله عنه .

قال الواقدى : حدثنا عمر بن عثمان اليربوعى، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبى سلمة وغيره قالوا :

شهد أبو سلمة أحداً ، وكان نازلاً بالعالية فى بنى أمية بن زيد،فجرح بأحد ، وأقام شهراً يداوى جرحه . فلما هلَّ المحرم دعاه النبى ﷺ وقال : « اخرج فى هذه السرية » ، وعقد له لواء وقال : « سر حتى تأتى أرض بنى أسد فأغر عليهم » . وكان معه خمسون ومائة . فساروا حتى انتهوا إلى أدنى قطن من مياههم ، فأخذوا سرحاً لهم ثم رجع إلى المدينة بعد بضع عشر ليلة. قال عمر بن عثمان : فحدثنى عبد الملك ابن عبيد قال : لما دخل أبو سلمة المدينة . انتقض جرحه . فمات لثلاث بقين من جمادى الآخرة ، يعنى سنة أربع .وقيل: مات أبو سلمة سنة ثلاث) (١) .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ١٥٠ ـ ١٥٣ .

فقد توفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وآخر عمل له أمير لرسول الله ﷺ على سرية من سراياه .

عثمان بن مظعون :

هو ابن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب الجمحى ، أبو السائب من سادة المهاجرين ومن أولياء الله المتقين الذين فازوا بوفاتهم فى حياة نبيهم فصلى عليهم ، وكان أبو السائب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول من دفن بالبقيع .

(روى كثير بن زيد المدنى، عن المطلب بن عبد الله قال : لما دَفَن النبى ﷺ عثمان ابن مظعون ، قال لرجل : «هلمَّ تلك الصخرة فاجعلها عند قبر أخى أعرفه بها ، أدفن إليها من دفنت من أهلى» ، فقام الرجل فلم يطقها . فقال يعنى الذى حدثه : فكأنى أنظر إلى بياض ساعدى رسول الله ﷺ حين احتملها حتى وضعها عند قبره) (١) .

(قال سعيد بن المسيب : سمعت سعداً يقول : ردَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا) (٢) .

قال أبو عمر النمرى :أسلم أبو السائب بعد ثلاثة عشر رجلاً،وهاجر الهجرتين وتوفى بعد بدر، وكان عابداً مجتهداً ،وكان هو وعلى وأبو ذر همُّوا أن يختصوا. وكان ممن حرم الخمر فى الجاهلية .

(وعن ابن عباس أن النبى ﷺ دخل على عثمان بن مظعون حين مات ، فأكب عليه ، فرفع رأسه فكأنهم رأوا أثر البكاء ، ثم جثا الثانية ، ثم رفع رأسه فرأوه يبكى ، ثم جثا الثالثة ، فرفع رأسه وله شهيق . فعرفوا أنه يبكى، فبكى القوم .فقال : « مه ، هذا من الشيطان » . ثم قال : « استغفر الله أبا السائب ! لقد خرجت منها ولم تلبس منها بشىء ») (٣) .

(وعن القاسم بن محمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قبل عثمان بن مظعون وهو ميت ودموعه تسيل على خد عثمان بن مظعون. صححه الترمذى) (٤) .

وعن ابن عباس (لما ماتت بنت رسول الله ﷺ قال : « الحقى بسلفنا الخير عثمان ابن مظعون ») (٥) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجنائز (٣٢٠٦) وسنده حسن لكنه مرسل .
(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧٥ ، والبخارى (٥٠٧٣، ٥٠٧٤) فى النكاح وغيرهما .
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ١٥٦ وقال المحقق عنه : فيه سفيان بن وكيع ضعيف وبقية رجاله ثقات .
(٤) المصدر نفسه ١/١٥٩. (٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢٤٤ .

فهذا مقام عثمان رضي الله عنه في قلب رسول الله ﷺ ،حيث بكاه هذا البكاء الشديد حزناً على فراقه ، وسماه عليه الصلاة والسلام : سلفنا الصالح .

الأرقم بن أبى الأرقم :

وهو الذى مثل مع أبى سلمة بن عبد الأسد أكبر شرخ فى جدار بنى مخزوم التى تناطح بنى عبد مناف الرئاسة والسيادة فينضمان إلى محمد بن عبد الله الهاشمى ويصبحان من أتباعه . وكان الأرقم فى أول شبابه فلم يكن عمره يتجاوز التاسعة عشرة حين أسلم . فهو أقرب إلى طبقة الفتيان منه إلى طبقة الشباب ، أقرب إلى على وسعد وطلحة والزبير .وفى بعض الروايات أنه فى سن السادسة عشرة . هذه العقلية المتفتحة التى هزت كيان عشيرتها . وانضمت إلى الإسلام التى فقهته وآمنت به . كان لها دور كبير فى الإسلام. يحدثنا عنه أحد أبناء الأرقم:

(قال : أخبرنا محمد بن عمران بن هند بن عبد الله بن عثمان بن الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى قال : أخبرنى أبى عن يحيى بن عمران بن عثمان بن الأرقم قال: سمعت جدى عثمان بن الأرقم يقول : (أنا ابن سبعة فى الإسلام أسلم أبى سابع سبعة . وكانت داره بمكة على الصفا،وهى الدار التى كان النبى ﷺ يكون فيها فى أول الإسلام. وفيها دعا الناس إلى الإسلام ، وأسلم فيها قوم كثير،وقال ليلة الإثنين فيها : «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام»، فجاء عمر بن الخطاب من الغد بكرة فأسلم فى دار الأرقم فخرجوا منها فكبّروا وطافوا البيت ظاهرين ، ودعيت دار الأرقم دار الإسلام ، وتصدق بها الأرقم على ولده فقرأت نسخة صدقة الأرقم بداره : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما قضى الأرقم فى ربعه ، ما حاز الصفا، إنها محرّمة بمكانها من الحرم لا تباع ولا تورث ، شهد هشام بن العاص وفلان مولى هشام بن العاص .

قال : فلم تزل هذه الدار صدقة قائمة فيها ولده يسكنون ويؤاجرون ويأخذون عليها حتى كان زمن أبى جعفر) [1] .

والأرقم رضي الله عنه أحد هذه المجموعة المباركة التى عاشت فى الإسلام قرابة سبعين عاماً . ولم نعلم أنه حمل مسؤولية قيادية .أما جنديته :(فعن محمد بن صالح ،عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال : آخى رسول الله ﷺ بين الأرقم بن أبى الأرقم وبين أبى طلحة زيد بن سهل . قالوا : وشهد الأرقم بن أبى الأرقم بدراً وأحداً والخندق

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢٤٤ .

والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ) (١) .

ولم ينس صاحب صباه ورفيق دربه حين حضرته الوفاة فأوصى أن يصلى عليه سعد بن أبى وقاص :

(قال : أخبرنا محمد بن عمر عن عمران بن هند عن أبيه قال : حضرت الأرقم ابن أبى الأرقم الوفاة فأوصى أن يصلى عليه سعد بن أبى وقاص . وكان مروان بن الحكم والياً لمعاوية على المدينة . وكان سعد قصره بالعقيق . ومات الأرقم فاحتبس عليهم سعد فقال مروان : أيحبس صاحب رسول الله ﷺ لرجل غائب ؟ وأراد الصلاة عليه فأبى عبيد الله بن الأرقم ذلك على مروان وقامت معه بنو مخزوم ووقع بينهم كلام . ثم جاء سعد فصلى عليه وذلك سنة خمس وخمسين بالمدينة وهلك الأرقم وهو ابن بضع وثمانين سنة) (٢) .

عاشر العشرة : سعيد بن زيد :

فهو الذى حدثنا رضي الله عنه عن هؤلاء العشرة . ومنه استقينا الحديث عن هذه العظمات : إنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب أبو الأعور القرشى العدوى .

أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ومن السابقين الأولين البدريين ومن الذين - رضى الله عنهم - ورضوا عنه. شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وشهد حصار دمشق وفتحها فولاه عليها أبو عبيدة بن الجراح .فهو أول من عمل نيابة دمشق من هذه الأمة. وله أحاديث يسيرة . فله حديثان فى الصحيحين ، وانفرد البخارى له بحديث . . وعُدّ سعيد بن زيد في البدريين فقال :قدم من الشام بعد بدر فكلم رسول الله ﷺ فضرب له بسهمه وأجره(٣) .وكذلك قال موسى بن عقبة وابن إسحاق،وامرأته هى ابنة عمه فاطمة أخت عمر بن الخطاب،أسلم سعيد قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم. قلت : ولم يكن سعيد متأخراً عن رتبة أهل الشورى فى السابقة والجلالة . وإنما تركه عمر رضي الله عنه لئلا يبقى له فيه شائبة حظ لأنه ختنه وابن عمه ولو ذكره فى أهل الشورى لقال الرافضى: حابى ابن عمه ، فأخرج منها ولده وعصبته ، فكذلك فليكن العمل لله(٤) .

(١، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢٤٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ١٣٥ ، وقال فيه المحقق: أخرجه الحاكم ٣ / ٤٣٨ ، والطبرانى وابن عبد البر والحافظ ١ / ١٣٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى مقتطفات من الصفحات ١٢٤،١٢٥ و ١٣٥ ـ ١٣٨ .

أول القادة عبيدة بن الحارث :

وأقر الله تعالى عين نبيه بوافد جديد جمع كل الاصطفاءات . عدا الهاشمية . فهو عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصى . ويكفى أن نعلم أن أهل البيت الذين لا تحل لهم الصدقة هم فقط بنو هاشم وبنو المطلب : (بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد) [١] . وكان عبيدة سيداً من سادات بنى عبد مناف ،وهو أسن بنى المطلب وأكبر من رسول الله ﷺ بعشر سنين ،فهو سيد هذه الدوحة المباركة ـ بنى المطلب .

وكى تتحطم وإلى الأبد نوازع الجاهلية الدفينة . (آخى رسول الله ﷺ بينه وبين بلال) [٢] وبذلك يكون سيد بنى عبد مناف الذى هم سر قريش وصميمها أخاً للعبد بلال بن رباح الحبشى .وذلك لينصهر هذا المجتمع انصهاراً كاملاً وتذوب الطبقية فيه .

وحيث إنه من غرة قريش وغرة بنى عبد مناف . فكان أول لواء عقد له فى المدينة بعد الهجرة النبوية .

قال ابن إسحاق : (وبعث رسول الله ﷺ فى مقامه ذلك بالمدينة عبيدة بن الحارث ابن المطلب بن عبد مناف فى ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المرة ، فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش فلم يكن بينهم قتال إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمى به فى الإسلام) [٣] .

قال ابن إسحاق : (وبعض الناس يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين ، وذلك أن بعثه وبَعث عبيدة كانا معا فشبه ذلك على الناس) [٤] .

ولم يكن عبيدة ــ رضوان الله عليه ــ من العشرة المبشرين لأنه استشهد ببدر فى حياة النبى ﷺ ، وكان أول اللاحقين بالجنة :

(فقد أخرج البخارى عن قيس بن عباد رضي الله عنه يقول : سمعت أبا ذر يقسم قسماً إن هذه الآية ﴿ **هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** ﴾[٥] أنزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ، وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة)[٦] ، وكان نصيب عبيدة من

---

(١) صحيح الجامع الصغير للألبانى م٢ ج٣ص٩ وقال فيه : رواه الطبرانى وهو صحيح عن جبير بن مطعم .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥١ .

(٣) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٣٤ . ط. الريان.

(٤) المصدر نفسه .

(٥) الحج / ١٩ .

(٦) فتح البارى ٨/ ١٩٧ .

هذه الآية ، حيث كان أول الفائزين السابقين فيها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾[1] .

الصدّيق سعيد بن زيد :

وحيث لم تسق له الشهادة ، فقد فاز بالصديقية :(فعن هلال بن يساف عن سعيد ابن زيد ، أن النبى ﷺ قال : « اسكن حراء فما عليك إلا نبى أو صدّيق أو شهيد » وعليه النبى وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وسعيد ابن زيد)[2] .

فكان الشهداء من العشرة نصفهم وهم : عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير.

وكان الصدّيقون من العشرة نصفهم وهم : إمام الصدّيقين أبو بكر ، وسعد وعبد الرحمن وسعيد بن زيد وأمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح .

وأعلى مراتب أهل الجنة فى الجنة : هى مراتب الأنبياء والصديقين والشهداء ، فهؤلاء سادة أهل هذه المراتب .

ولا غرو أن يكون سعيد بن زيد رضي الله عنه من الصديقين ، وهو ابن زيد بن عمرو ابن نفيل الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « يأتى أمة وحده »[3] وقال فيه : «دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين »[4] فقد آمن برسول الله ﷺ قبل أن يبعث ، وسعيد تربى فى هذه الأجواء الإيمانية الخالدة ، وتنسم عبيق هذا الهدى منذ أن طلع على الدنيا ، وواجه إعصار بنى عدى المتمثل بعمر بن الخطاب منذ نعومة أظفاره ، فقد استجاب لدعوة الله عز وجل وهو فى سن الخامسة عشرة ، وتحدى أسد الشرك آنذاك عمر وأعلن إسلامه بين يديه ، وكان يلقى التعذيب والسجن والأغلال من عمر حتى لا ينضم إلى المعسكر الإسلامى، فكان أحد الفتيان الخمسة من العشرة وهم :

---

(١) الحج / ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ١٣٩، وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة ، وهو حديث صحيح .

(٣) المصدر السابق ١/ ١٣٤ وقال المحقق فيه: إسناده حسن ، وذكره الحافظ فى المطالب والهيثمى فى المجمع.

(٤) المصدر نفسه ١/ ١٣١وقال المحقق فيه: ذكره ابن كثير فى البداية ٢/ ٢٤١ عن الباغندى عن أبى سعيد الأشج عن أبى معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة ، وقال: هذا إسناد جيد وليس هو فى شىء من الكتب .

على والزبير وطلحة وسعد وسعيد بن زيد، والذين كانوا دون العشرين من العمر .

ويمتد الزمن بفتانا سعيد بن زيد رضي الله عنه حتى يدلف إلى السبعين من العمر ونيف، ويكون فى مجلس أمير الكوفة المغيرة بن شعبة. فيسوق لنا الشهادة التالية :

(يحيى القطان وجماعة عن صدقة بن المثنى : حدثنى جدى رياح بن الحارث أن المغيرة كان فى المسجد الأكبر ، وعنده أهل الكوفة ، فجاء رجل من أهل الكوفة فاستقبل المغيرة . فسبّ وسبّ ،فقال سعيد بن زيد : من يسب هذا يا مغيرة ؟ قال : يسب على بن أبى طالب ، قال: يا مغير بن شعيب ، يا مغير بنَ شعيب : ألا تسمع أصحاب رسول الله ﷺ يسبون عندك ولا تنكر ولا تغيِّر ؟ فأنا أشهد على رسول الله ﷺ بما سمعت أذناى ، ووعاه قلبى من رسول الله ﷺ ،فإنى لم أكن أروى عنه كذباً ، أنه قال :

« أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعلى فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبد الرحمن فى الجنة ، وسعد بن مالك فى الجنة ، وتاسع المؤمنين فى الجنة » ولو شئت أن أسميه لسميته . فضجّ أهل المسجد يناشدونه يا صاحب رسول الله ﷺ : من التاسع ؟ قال: ناشدتمونى بالله والله عظيم . أنا هو ، والعاشر رسول الله ﷺ ، والله لمشهد شهده رجل مع رسول الله ﷺ أفضل من عمل أحدكم ولو عمرَّ ما عمرَّ نوح) [(١)] .

ونستمع إلى الحديث عن العشرة فى مجلس آخر :

(فعن عبد الرحمن بن حميد عن أبيه أن سعيد بن زيد حدّثه فى نفر أن رسول الله ﷺ قال : « عشرة فى الجنة : أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة وعثمان فى الجنة ، وعلى فى الجنة،والزبير وطلحة وعبد الرحمن وأبو عبيدة وسعد بن أبى وقاص » قال : فعد هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر فقال القوم : ننشدك الله يا أبا الأعور ــ من العاشر ؟ قال : ناشدتمونى بالله ، أبو الأعور فى الجنة .

قال أبو عيسى : أبو الأعور هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نوفل[(٢)] .

وسمعت محمداً يقول : هو أصح من الحديث الأول) [(٣)] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ١٠٣ وقال المحقق فيه : إسناده صحيح وأخرجه أحمد ١ / ١٨٧ ، وأبو داود وابن ماجة .

(٢) الأصح أنه (نفيل) وليس نوفل . ولعلها خطأ مطبعى .

(٣) سنن الترمذى : المناقب ٥ / ٦٤٨ ح ٣٧٤٨ .

وبقى المسلمون يعرفون لهذه النخبة القيادية فضلها ،وحيث بقى من هذا الرعيل عاشر العشرة رضوان الله عليه سعيد بن زيد . (فعن محارب بن دثار قال : كتب معاوية إلى مروان والى المدينة ليبايع لابنه يزيد فقال رجل من جند الشام :ما يحبسك ؟ قال : حتى يجىء سعيد بن زيد فيبايع . فإنه سيد أهل البلد وإذا بايع ، بايع الناس ، قال : أفلا أذهب فآتيك به ؟ وذكر الحديث)[1]. ويختم الذهبى حين يحدثنا عن سيرتهم فيقول :

(وهم أفضل قريش ، وأفضل السابقين المهاجرين وأفضل البدريين .وأفضل أصحاب الشجرة وسادة هذه الأمة فى الدنيا والآخرة)[2] .

أسماء بنت أبى بكر :

حمل أبو بكر لواء الدعوة رضي الله عنه فى مكة غير عابئ بأحد . لكن أثلج صدره ذات صباح أن ابنته أسماء الفتاة الكبرى عنده تعلن عن رغبتها فى الدخول فى الإسلام . وملأت الفرحة صدره فهى أول من استجاب له من داخل بيته . وصدّق بالله ورسوله . فقد انضمت إلى خديجة بنت خويلد ــ رضى الله عنها ــ وأصبحتا نواة المنطلق الإسلامى النسائى . وكانت تمضى إلى خديجة رضى الله عنها تتفقه فى دين الله وصار فى البيتين العظيمين الإسلاميين امرأتان تحملان مبادئ هذا الدين الجديد . فإذا كان أعداد المسلمين حتى اليوم هى دون الخمسة عشرة . فإن أسماء ـ رضى الله عنها ـ واحدة منهم . ومن اللواتى انضممن لهذا الموكب . كذلك أم أيمن حاضنة النبى ﷺ . فصرن الثلاثة خمس عدد المسلمين آنذاك .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ١٣٩ وقال المحقق عنه : أخرجه الحاكم ٣ / ٤٣٩ وسكت عنه الطبرانى فى الكبير ، وأخرجه البخارى فى التاريخ الصغير ١ / ١١٢ من طريق آخر .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ١٤٠ .

المستضعفون فى الأرض

يطالعنا بعد الحديث عن هذه النخبة القيادية فى السيرة النبوية المطهرة . ذكر المستضعفين فى مكة، الذين كانوا بعد الفتيان والشباب، هم الذين أصاخوا إلى هذه الدعوة وجذبت فؤادهم .ولم يكن الصدّيق رضي الله عنه بعيداً عن هذه الطبقة . فساهم بعد بناء الطبقة القيادية الأولى بتقديم رديف لها من هؤلاء المستضعفين .

(روى البخارى عن عمار بن ياسر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر)[1] .

ويوضح أبعاده حديث آخر :

فقد روى الإمام أحمد وابن ماجة عن ابن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله ﷺ .وأبو بكر ، وعمار بن ياسر ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال والمقداد)[2] .

وهؤلاء الأعبد الخمسة يوضحهم لنا الحافظ ابن حجر فيقول :

(وأما الأعبد الخمسة فهم: بلال بن رباح ، وزيد بن حارثة ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر فإنه أسلم قديماً مع أبى بكر. . . وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية بن خلف. ذكر ابن إسحاق أنه أسلم حين أسلم بلال فعذبه أمية فاشتراه أبو بكر فأعتقه ، وأما الخامس فيحتمل أن يفسر بشقران . فقد ذكر ابن السكن فى «كتاب الصحابة» عن عبد الله بن داود أن النبى ﷺ ورثه عن أبيه هو وأم أيمن وذكر بعض شيوخنا بدل أبى فكيهة عمار بن ياسر وهو محتمل ، وكان ينبغى أن يكون منهم أبوه وأمه فإن الثلاثة ممن كان يعذَّب فى الله . . . . . وأما المرأتان فخديجة والأخرى أم أيمن أو سمية)[3] .

---

(١) البخارى كتاب المناقب ، مناقب أبى بكر ٥ / ٥ .

(٢) مسند أحمد ١ / ٤٠٤ ،وسنن ابن ماجةـ المقدمة باب رقم ١١ ، وذكره الهيثمى فى الزوائد وقال : رجاله ثقات ،والحاكم فى المستدرك من وجه فيه زيادة وبنفس الإسناد ٣/ ٣٨٤، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ٧ / ٢٤ .

بلال بن رباح :

(وكان بلال مولى أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ لبعض بنى جمح مولداً من مولديهم وهو بلال بن رباح وكان اسم أمه حمامة)[1] ، (يقال: إنه حبشى وقيل : من مولدى الحجاز)[2] .

ومثل هذا الإنسان فى مكة يعادل رقماً من الأرقام . هو عبد وناهيك عن ذلك . فليس له دور فى الحياة إلا أن يخدم ويطيع . ويباع ويشرى كالسائمة . ومن هو أعلى منه كعباً . فحق الحياة له مرتبط بواجب الانقياد والطاعة . أما أن يكون له رأى أو يكون صاحب فكر ، أو صاحب قضية . فهذه جريمة شنعاء فى المجتمع المكى تهز أركانه وتزلزل أقدامه .

لكن الدعوة الجديدة ـ التى سارع لها الفتيان حتى المراهقون يتحدون آباءهم الكبار ـ لامست قلب هذا العبد المرمى المنسى . فأخرجته إنساناً جديداً على الوجود. يفد على سيد بنى هاشم محمد بن عبد الله الصادق الأمين بعد أن سرَّ به إليه أبو بكر سيد بنى تيم . ويتصل بعالم جديد كل الجدة عليه يخالف تلك الوثنية المخصصة للملأ من قريش . فسيد بنى هاشم هو رسول الله ﷺ أخذ يكون حركة جديدة قوامها هؤلاء الأفراد . فلم لا يكون عنصراً جديداً فى هذا البناء .

بل تطالعنا بعض الروايات لتجعل منه العنصر الثانى فى هذا الحزب . وذلك كما فى رواية مسلم عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال فى حديث طويل : (. . . . فتلطفت حتى دخلت عليه مكة . فقلت له : ما أنت ؟ قال :« أنا نبى » . فقلت : وما نبى؟ . قال: « أرسلنى الله » .فقلت وبأى شىء أرسلك ؟ قال : «أرسلنى بصلة الأرحام وكسر الأوثان ، وأن يوحَّد الله لا يشرك به شىء» . قلت له : فمن معك على هذا ؟ قال : « حر وعبد » ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به . فقلت : إنى متبعك . قال : « إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترى حالى وحال الناس ؟ ولكن ارجع إلى أهلك ، فإذا سمعت بى قد ظهرت فأتنى. . . »)[3] .

وعلى فرض أن هناك آخرين وهو الأرجح . لكن الثابت أن أول من أظهر إسلامه أبو بكر رضي الله عنه وكان الشخص الثانى الذى أظهر إسلامه بلال.

أى قوًى ضخمة تعتمل فى أعماقه . فتفجرت من خلال هذا الإسلام بعد ما ينوف عن ثلاثين عاماً من حياته . لقد تفجر بركان قلبه بعد أن آمن بهذا الدين . ولم يتمكن

---

(١) السيرة النبوية ١/ ٢٩٣ . (٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٤٧ .

(٣) مسلم ، ح ٨٣٢ .

وهو العبد الأعزل الأسود أن يكبت هذا الإيمان الذى يغلى فى قلبه كالمرجل . فانضم إلى محمد رسول الله ﷺ وإلى أبى بكر الصديق . فأظهر إيمانه وإسلامه .

إنه الإيمان حقاً الذى يصنع المعجزات. فكان يمكن لبلال أن ينهى حياته فى هذه الصحراء الحارقة. عبداً نكرة لا يدرى به أحد. لكنه وجد الفوهة التى ينطلق منها. والحقيقة أنها من عظمة هذا الدين أن يكون الرجل الثانى الذى يعلن إسلامه هو عبد بنى جمح ، بلال بن رباح ليس له ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، ولاسيوف تذود عنه .

ولو عدنا إلى الحديث الصحيح السابق ، وتابعنا تتمته :

(عاصم عن زر عن عبد الله : أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية ، وبلال وصهيب والمقداد . فأما النبى ﷺ وأبو بكر فمنعهما الله بقومهما ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد ، وصهروهم فى الشمس . فما منهم من أحد إلا وأتاهم على ما أرادوا إلا بلال . فإنه هانت عليه نفسه فى الله ، وهان على قومه فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول أحدٌ أحد) .

(وله إسناد آخر صحيح) [1] .

لقد رأى نفسه أكبر من الدنيا بعد أن اتصل برب الدنيا والآخرة ، وانضم إلى رسول الله ﷺ وأظهر هذا الانضام علانية وتحمل مسؤولية موقفه الجديد وعقيدته .

ولنشهد نماذج من ثمن هذا الانضمام لهذا الدين الجديد .

(وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ،ثم يقول له : (لا والله لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحدٌ أحد) .

قال ابن إسحاق : (وحدثنى هشام بن عروة عن أبيه قال :

كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك وهو يقول : أحدٌ أحدٌ والله يا بلال ، ثم يقبل على أمية بن خلف ، ومن يصنع به ذلك من بنى جمح فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً [2]) [3] .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٣٤٧ وقال المحقق فيه إسناده حسن . وورد فى الحلية والاستيعاب والطبقات .

(٢) لأتخذنه حناناً : لأتمسحن به وأتبرك به .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(محمد بن خالد الطحان : أنبأنا أبى عن داود عن الشعبى قال : كان موالى بلال يضجعونه على بطنه ويعصرونه ويقولون : دينك اللات والعزى فيقول: ربى الله أحد أحد؛ ولو أعلم كلمة أحفظ[1] لكم منها لقلتها . .) [2] .

أبو بكر يواجه المعضلة الأولى :

لقد كانت هذه أول قضية واجهت هذه الأمة الجديدة بعد إظهار إسلام الصديق وإعلان إسلام بلال . أخ فى الله يعذب ويشوى فى الرمضاء . وأبو بكر هو الوزير الأول لرسول الله ﷺ وكأنما غدا أبو بكر رضي الله عنه هو المسؤول عن التنظيم الإسلامى الجديد ، فقد أعطاه عليه الصلاة والسلام ثقته ليُدخل فى هذه الدعوة عناصر جديدة. وجاء مباشرة وفى اللحظات الأولى دور التضحية بالمال ، ولا قضية أكبر من الإنسان فى الميزان الإسلامى . فلابد من إنقاذه .

(فمر أبو بكر بهم فقالوا : اشتر أخاك فى دينك ، فاشتراه بأربعين أوقية، فأعتقه. فقالوا : لو أبى إلا أوقية لبعناه . فقال : وأقسم بالله لو أبيتم إلا بكذا وكذا ـ لشىء كثير ـ لاشتريته) [3] .

(هشام عن ابن سيرين أن بلالاً لما ظهر مواليه على إسلامه مطوه فى الشمس وعذَّبوه وجعلوا يقولون له : إلهك اللات والعزى ،وهو يقول : أحد أحد. فبلغ أبا بكر فأتاهم . فقال : علام تقتلونه ؟ فإنه غير مطيعكم . قالوا : اشتره . فاشتراه بسبع أواق فأعتقه) [4] .

وأخبر النبى ﷺ فقال : « الشركة يا أبا بكر» ، قال : قد أعتقته [5] .

(ابن عيينة عن إسماعيل عن قيس قال : اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون فى الحجارة بخمس أواق ذهباً ، فقالوا : لو أبيت إلا أوقية لبعناكه ، قال : لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته . إسناده قوى) [6].

وقال عطاء الخراسانى: كنت عند ابن المسيب فذكر بلالاً، فقال: كان شحيحاً على دينه، وكان يعذَّب فى الله فلقى النبى ﷺ. فقال: لو كان عندنا شىء ابتعنا بلالاً. فلقى أبو بكر العباس، فقال: اشتر لى بلالاً، فاشتراه العباس وبعث به إلى أبى بكر

---

(١) أحفظ : أكثر إثارة لحفيظتكم وحقدكم .

(٢ ، ٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٥٢ ، وقال المحقق فيه : محمد بن خالد الطحان ضعيف .

(٤) ابن سعد فى الطبقات الكبرى ٣ / ١ / ١٦٥ .

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٣٥٣ ،وقال المحقق فيه : أخرجه ابن سعد ، ورجاله ثقات لكنه منقطع.

(٦) المصدر نفسه .

فأعتقه)[1].

(.. حتى مر به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به . وكانت دار أبي بكر فى بنى جمح ، فقال لأمية بن خلف : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ! قال :أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى ؛ فقال أبو بكر : أفعل . عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به ؛ قال : قد قبلت؛فقال: هو لك.فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه ذلك وأخذه فأعتقه) [2] .

أ ـ عبد مسلم وهو ثانى اثنين يعلن إسلامه وهو بين يدى المشركين يعذبونه بأشد ما يكون العذاب . ويعلن كلمة التوحيد رغم كل هذا العذاب ، ويقول لهم : ولو أعلم كلمة أحفظ لكم منها لقلتها . فهو يتحداهم بكل إباء واستعلاء. ولا يعلم ما يغيظهم فيه أعظم من هذه الكلمة . فيصر عليها ويصبر على لظى الصحراء وأدراع الحديد والصخرة العظيمة التى توضع على بطنه ، والغلمان الذين يجرونه بالحبال ولا يعطيهم إلا « أحد أحد » .

ب ـ ويشير سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام إلى ما يعتمل فى نفسه فيقول : «لو كان عندنا شيء ابتعنا بلالاً » .

وفى فقه البناء التربوى لصدِّيق الأمة تعتبر هذه الكلمة توجيهاً للخطوة المطلوبة ، وانتهى الأمر .

جـ ـ وتحرك الصدّيق ليعالج الأمر سواءً عن طريق العباس بن عبد المطلب أو عن طريق التبادل مع العبد الأسود المشرك . أو عن طريق الشراء المباشر من أمية بن خلف بسبع أواق أو أربعين أوقية . كل هذه وسائل متاحة.لكن الهدف الرئيسى هو إنقاذ بلال رضي الله عنه من براثن الشرك .

د ـ وليس سراً يذاع حين يؤكد أمية بن خلف للصدّيق أن بلاء بلال إنما جاء بسببه: « أنت الذى أفسدته فأنقذه » .

فالإنسان عند الصديق إنسان يحمل عقيدة حراً كان أو عبداً . ولم يجد حرجاً فى أن يكون بلال هو الدم الجديد للدعوة بعد النخبة القيادية المذكورة آنفاً . وكان بلال وأبو بكر تربان . وطهارة نفس الصديق ، والذى يقصده عليه القوم . فأبى عليه أن

---

(١) المصدر السابق ١ / ٣٥٢ وقال المحقق فيه: أخرجه ابن عبد البر من طريق عبد الرزاق عن معمر عن عطاء فرجاله ثقات . لكنه مرسل .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٩٤ ،صرح ابن إسحاق بالسماع ورجاله ثقات.لكنه مرسل .

يفرّق بين الملأ والعبيد . فكان بلال من خلصائه وأصدقائه، دعاه إلى الدين فاستجاب له وانضم إليه .

هـ - واشتراه بسبع أواق أو بأربعين أوقية ذهباً . ولم يكن هذا عنده موضع مساومة. فاعتبر أمية نفسه أنه قد عقد صفقة رابحة ، وغرر بأمهر التجار الصديق. فقالوا له : لو أبى إلا أوقية لبعناه فهو عندهم بخس الثمن بعد أن فسد دينه . ولا يعادل أوقية ذهب وغرروا بالصديق فباعوه له بسبع أواق أو بأربعين أوقية . أما عند الصديق فهو الشخص الثانى فى التنظيم المعلن . وهو المسلم الجديد الذى ارتفع بإيمانه إلى مصاف الصديق فأظهر إسلامه . فكان جواب الصدّيق لهم :

(لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته) .

هذا هو الإنسان فى الدعوة الجديدة . فيُبذل كل غال ورخيص من أجل إنقاذه . ولو كان يكلف ميزانية الدولة الاحتياطية .فليس لدى هذه الحركة الجديدة مصدر للتمويل إلامال أبى بكر ، ومال خديجة .

و - وقبل أن يأتى التوجيه النبوى القيادى الثانى . كان الصدّيق رضي الله عنه ماضٍ فيه إلى منتهاه .

(وأخبر النبى ﷺ فقال : « الشركة يا أبا بكر ».قال : قد أعتقته) .

وأراد عليه الصلاة والسلام أن يشارك فى هذه الصفقة.ويحمل مع الصديق المسؤولية المالية . فكان الجواب : قد أعتقته . لقد كان عليه الصلاة والسلام يود أن يشارك . فيعتق حصته بعد ذلك . فى عملية بناء تربوية رائدة يدفع بها الصديق لإعتاق حصته . فكان السيد الفذ أبو بكر رضي الله عنه يدرك أبعاد القيادة النبوية وأهدافها . فيعتقه من اللحظات الأولى لشرائه فيصبح أخاً جديداً متحرراً من كل قيود الرق.لكن بلالاً رضي الله عنه. قد أصبحت نفسه فداءً للصديق فى ارتباط عضوى عجيب .

(أبو هشام الرفاعى : حدثنا ابن فضيل ، حدثنا إسماعيل ،عن قيس ،قال : بلغ بلالاً أن ناساً يفضلونه على أبى بكر فقال : كيف يفضلونى عليه وإنما أنا حسنة من حسناته ؟!) [1] .

وقبل أن نودع بلالاً رضي الله عنه فلابد من أن نعرف مقامه فى الدنيا والآخرة :

أما مقامه فى الدنيا :

فنستمع إليه من أحد عظيمى قريش . أحد العمرين، عمر بن الخطاب رضي الله عنه والرجل الثانى فى الأمة إذ يقول فيه: (عن جابر بن عبد الله أن عمر كان يقول :

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٣٥٩ .

(أبو بكر سيدُنا ، وأعتق سيدنا) . يعنى بلالا [١] .

وأما مقامه عند الله عز وجل :

(حسين بن واقد : حدثنا ابن بريدة ، سمعت أبى يقول : أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالاً فقال : « بم سبقتنى إلى الجنة ؟ ما دخلت الجنة قط إلاسمعت خشخشتك أمامى ، إنى دخلت الجنة البارحة ، فسمعت خشخشتك أمامى ، وأتيت على قصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا، قالوا: لعمر » فقال بلال: ما أذنت قط إلا صليت ركعتين ، وما أصابنى حدث إلا توضأت ، ورأيت أن لله علىَّ ركعتين ، فقال : « بها ») [٢] .

وأما مقامه عند نفسه : وقد بشره البشير النذير بالجنة فهو :

(عن أبى الدرداء قال : لما دخل عمر الشام ، سأل بلال أن يقرّه به ففعل . قال : وأخى أبو رويحة الذى آخى رسول الله ﷺ بينى وبينه . فنزل بداريا فى خولان . فأقبل هو وأخوه إلى قومٍ من خولان فقالوا : إنا أتيناكم خاطبين وقد كنا كافرين فهدانا الله ومملوكين فأعتقنا الله ، وفقيرين فأغنانا الله ، فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فلا حول ولا قوة إلا بالله) [٣] .

وعلى ضوئها حلت المعضلات :

بالتوجيه النبوى الرائد الأول : « لو كان عندنا شىء ابتعنا بلالاً » . اعتبر الصديق رضي الله عنه هذه الكلمة بمثابة خط دائم . وتفويض مستمر بهذا الاتجاه . فمضى يضع صلب ماله فى تحرير رقاب المؤمنين المنضمين إلى هذا الدين الجديد من الرق .

(ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب بلال سابعهم : عامر بن فهيرة شهد بدراً وأحداً . وقتل يوم بئر معونة شهيداً . وأم عبيس ،وزنِّيرة وأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى . فقالت : كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فردّ الله بصرها) [٤] .

وأعتق النهدية وبنتها وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار فمرّ بهما ، وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول: والله لا أعتقكما أبداً : فقال أبو بكر رضي الله عنه حِلُّ [٥] يا أم فلان . فقالت : حِلُّ أنت، أفسدتهما فأعتقهما ؛ قال: فبكم هما ؟ قالت :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٢٣٢ ورجاله ثقات .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٣٤٨ وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد والترمذى والطبرانى فى الكبير وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٣٥٨ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام١ / ٣٩٣ .

(٥) حل : تحللى من يمينك .

بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما وهما حرتان أرجعا إليها طحينها . قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال : وذلك إن شئتما . ومر بجارية بنى مؤمل حى من بنى عدى بن كعب . وكانت مسلمة ، وعمر بن الخطاب يعذِّبها لتترك الإسلام . وهو يومئذ مشرك وهو يضربها ، حتى إذا ملَّ قال : إنى أعتذر إليك إنى لم أتركك إلا عن ملالة فتقول : كذلك فعل الله بك . فابتاعها أبو بكر فأعتقها) (١) .

لقد بلغ من شأن الصدّيق أن أصبحت قريش . تعتبره هو المسؤول عن دخول كل امرئ أو امرأة فى هذا الدين الجديد . فحتى النهدية وابنتها عندما طالب سيدتهما أن تتحلل من قسمها لم تتمالك أن قالت له : أنت أفسدتهما . وسواءً أكان هذا ثابتاً أم غير ذلك . فقد أصبح وجوده على رأس الصف الإسلامى دافعاً قوياً للانضمام إلى هذا الصف .

وظاهر الأمر عند قريش أنه يجمع مجموعة من العجزة والصبيان والعبيد فيكوِّن منهم تنظيماً جديداً فماذا يفعل هؤلاء المستضعفون؟ وأى نصرة يستطيعون أن يقدموها له ؟ وأى عزوة أو مجموعة يجعل ولاءها له تستطيع أن تفعل شيئاً لمواجهة قريش فيما بعد ؟ هذا فى نظرهم . أما فى نظره رضي الله عنه فالنهدية وابنتها ، وجارية بنى مؤمل وزنيرة. وهن أكثرية السبعة . كل واحدة من هؤلاء تعدل عنده كل مشركى الأرض وطغاتها . وتعدل كل جبابرة قريش وطغاتها . فهى إنسان انضم إلى الحزب الجديد ، وحمل الراية وآمن بالعقيدة . ولو كان جارية ضعيفة أو صبياً مراهقاً أو عبداً مملوكاً . فهذه هى عناصر البناء الجديد .

وراح المجتمع المكى يتندر بأبى بكر رضي الله عنه الذى يبذل هذا المال كله لهؤلاء المستضعفين الذين يحتاجون إلى من يحملهم . حتى أوصلوا هذا الاستخفاف لأبى قحافة والد أبى بكر .

الشهادة الربانية :

(قال أبو قحافة لأبى بكر : يا بنى، إنى أراك تعتق رقاباً ضعافاً . فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون دونك ؟ قال: فقال أبو بكر رضي الله عنه :

يا أبت إنى إنما أريد ما أريد لله عز وجل . قال: فيتحدث أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه ، وفيما قال له أبوه :﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ** ﴾ إلى قوله

(١) المصدر السابق .

تعالى : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾[1] .

يقول الإمام ابن كثير بذلك : (وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضي الله عنه حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها ،وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ ، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة. . . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها . ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يد لك عندى لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ؟ ولهذا قال تعالى :﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ. وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾) [2] .

ونضيف إلى بلال رضي الله عنه من الأعبد الخمسة أبو فكيهة الذى دفعه إلى الإسلام صبر بلال وثباته على دينه ، لقد استهوته هذه البطولة ودفعته إلى أن ينضم إلى بلال ، يصيبه ما أصابه ، ويتحمل الأذى من أمية بن خلف وابنه كما تحمله بلال ، ولم يتوان الصدّيق أن يضم هذا العنصر الجديد إلى الإسلام. وأن يتعامل معه كتعامله مع بلال ـ رضوان الله عليهما ـ وكما ذكر الحافظ ابن حجر :

(وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية بن خلف ذكر ابن إسحاق أنه أسلم حين أسلم بلال . فعذبه أمية فاشتراه أبو بكر فأعتقه) . فقد كان إسلام العبيد تحدياً لعنجهية قريش . واعتبار ذلك منهم بوادر ثورة لابد أن توأد . غير أن الصدّيق هدّم الوائدين ، وترك النار تشتعل بهم من عبيدهم وصبيانهم وإمائهم وشبابهم دون أن يلقوا لها بالاً فى أول الطريق .

السعيدان شقران وابن فهيرة :

وقد تحدثنا عن زيد بن حارثة رضي الله عنه فى البداية بصفته المولى الأول فى الأمة . وهو بحماية رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما أن شقران رضي الله عنه بحماية المصطفى عليه الصلاة والسلام فقد ورثه مع أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ عن أبيه وهو رابع الخمسة وكان الخامس هو

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٩٤ ، والآيات من آخر سورة الليل ١٧ ـ ٢١ .

(2) تفسير ابن كثير ،سورة الليل ٧ / ٣١٠ .

عامر بن فهيرة رضي الله عنه وكان بحماية الصديق فهو مولاه .

(قال ابن إسحاق فى المغازى عن عائشة :كان عامر بن فهيرة مولداً من الأزد ، وكان للطفيل بن عبد الله بن سخبرة ، فاشتراه أبو بكر منه فأعتقه ، وكان حسن الإسلام) (١) وهو من حسنات الصديق (فعن عروة بن الزبير قال: كان عامر بن فهيرة من المستضعفين من المؤمنين . فكان ممّن يعذّبُ بمكة ليرجع عن دينه)(٢) وعن يزيد بن رومان قال : (أسلم عامر بن فهيرة قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها) (٣) .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى حديث لها طويل قالت :(وكان عامر بن فهيرة للطفيل بن الحارث أخى عائشة لأمها أم رومان . فأسلم عامر فاشتراه أبو بكر فأعتقه ، وكان يرعى عليه منيحة من غنم له) (٤) .

لقد كان شقران وعامر جنديين من جنود الإسلام . وكان أعظم إكرام لهما أن كان شقران عبد رسول الله ﷺ فهو معه فى كل حله وترحاله ينعم بهذه الصحبة فبلغ من الفضل مبلغ القمم . كان من أوائل المؤمنين والمهاجرين . وأكرمه الله تعالى أن يكون من البدريين من الذين اطلع الله عليهم يوم بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .وأولاه رسول الله ﷺ ثقته فى بدر (فاستعمله رسول الله ﷺ على الأسرى ولم يسهم له. فجزاه كل رجل له أسير فأصاب أكثر مما أصاب رجل من القوم من المقسم) (٥) . ولم يدع مشهداً من المشاهد إلا حضرها مع رسول الله ﷺ . وأولاه عليه الصلاة والسلام ثقته ثانية فى المريسيع .فعن أبى بكر بن عبد الله بن أبى جهم العدوى قال :

(استعمل رسول الله ﷺ شقران مولاه على جمع ما وجد من فىء رجال أهل المريسيع من رثة المتاع والسلام والنعم والشاء وجميع الذرية ناحية) (٦) .

وفاز بلحظات الوداع الأخير لحبيبه المصطفى ﷺ . فشارك فى غسله عليه الصلاة والسلام وشارك فى دفنه . وهذا من النعيم الدنيوى قبل الأخروى الذى قصرت دونه نعم أهل الأرض وهمم الصحابة الأفذاذ فى الوصول إليه . ولنشهد شقران . ونشهد معه هذه اللحظات الحية العنيفة قال ابن إسحاق:(فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء . فحدثنى عبد الله بن أبى بكر وحسين بن عبد الله من أصحابنا : أن على بن أبى طالب، والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس، وقثم بن العباس ،وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ هم الذين

---

(١) الإصابة فى تميز الصحابة لابن حجر م٢ج٣ ص١٥ . (٢ - ٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٢٣٠ .
(٥ ، ٦) المصدر نفسه .

ولوا غسله . وأن أوس بن خولى أحد بنى عوف بن الخزرج قال لعلى بن أبى طالب : أنشدك الله يا على وحظنا من رسول الله ﷺ ، وكان أوس من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل بدر قال : ادخل . فدخل فجلس ، وحضر غسل رسول الله ﷺ .

فأسنده على بن أبى طالب إلى صدره . وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه . وكان أسامة بن زيد وشقران مولاه هما اللذان يصبان الماء عليه . وعلى يغسله وعليه قميص يدلكه من ورائه لا يفضى بيده إلى رسول الله ﷺ ، وعلى يقول : بأبى أنت وأمى ما أطيبك حياً وميتاً ولم ير من رسول الله ﷺ شيئاً مما يرى من الميت) (١) .

لقد فاز رجل واحد من الأنصار بأن يشهد غسل النبى ﷺ ممثلاً لأنصار الله ولرسوله. وكان شقران أحد الخمسة الفائزين بهذا الفضل،كما كان أحد الأعبد الخمسة التى فازت بقصب السبق بالانضمام إلى هذا الدين الجديد .

وكان له الفوز الأخير بأن يكون آخر من ودّع هذا الجسد الطاهر .

(وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ، والفضل بن عباس وقثم بن العباس وشقران مولى رسول الله ﷺ . وقد قال أوس بن خولى لعلى بن أبى طالب : يا على . أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ ، فقال له: انزل . فنزل مع القوم وقدكان مولاه شقران حين وضع رسول الله ﷺ فى حفرته وبنى عليه قد أخذ قطيفة ، وقد كان رسول ﷺ يلبسها ويفترشها ، فدفنها فى القبر ، وقال : والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً) (٢).

وهكذا كان أحد الخمسة الذين كانوا أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ . لقد كان شقران خالصاً فى حياته كلها للبيت النبوى . وكان مملوكاً لرسول الله ﷺ من اللحظات الأولى التى أشرق الوجود بميلاده إلى اللحظات الأخيرة التى غادر فيها جسده الطاهر هذه الدنيا . وغيِّب فى الثرى . فأى صحبة تفوق أو تعظم هذه الصحبة .

أما ابن فهيرة فقد رزقه الله صحبة الصديق . وكان واحداً من ثلاثة من الذين فازوا بصحبة رسول الله ﷺ فى الهجرة . وكتبه الله من السعداء فى بدر . وشهد أحداً . وكان مع القراء السبعين فى بئر معونة . ورزقه الله الشهادة هناك.

(فعن أبى أسامة قال : قال هشام بن عروة فأخبرنى أبى قال : لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمرى قال له عامر بن الطفيل: من هذا ؟ فأشار إلى قتيل. فقال له عمرو بن أمية : هذا عامر بن فهيرة ، فقال : لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ، ثم وضع فأتى النبى ﷺ خبرهم فنعاهم فقال :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٣١٣. ط . دار الريان .
(١) المصدر نفسه ٤/ ٣١٤ .

« إن أصحابكم قد أصيبوا ، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا فأخبرهم عنهم. . . ») (١) .

فهو من هذه المجموعة السعيدة التى أخبر رسول الله ﷺ عنها أنها رضيت عن ربها ورضى عنها ربها ، وهو من خيرة هذه المجموعة السعيدة . فقد رأى المشرك جسده الطاهر يرفع بين السماء والأرض ، ولم يذكر هذا الفضل لصحابى غيره .

وفى رواية ابن سعد :

(. . عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ورجال من أهل العلم، أن عامر بن فهيرة كان من أولئك الرهط الذين قتلوا يوم بئر معونة . قال ابن شهاب : فزعم عروة بن الزبير أنه قتل يومئذ فلم يوجد جسده حين دفن ، قال عروة : وكانوا يرون أن الملائكة هى التى دفنته) (٢) .

فإذا كان حنظلة غسيل الملائكة . فابن فهيرة . دفين الملائكة . وإنه لفضل ما ينازعه فيه أحد .

ولابد من الإشارة إلى أن الفضل عند الله تعالى شيء ،والطاقات والكفاءات والمواهب شيء آخر ، وليس فضل الصحبة الذى لا يعدله فضل يغنى عن الأعمال الأخرى من الجهاد والتضحية والطاعات . فشقران وابن فهيرة وبلال هم من موالى قريش ، ومولى القوم منهم . ولكنه لم يلاحظ أنه أوسد إليهم أى مهمات قيادية . فالقيادة مواهب وملكات وخبرات . ولكنهم بفضل الله عز وجل وقد أكرمهم الله بصحبة سيد الكائنات محمد ﷺ كان لهم من الفضل القدح المعلى . ومن الثبات والتضحية والبلاء فى سبيل الله ما قدَّم أعلى النماذج للأجيال اللاحقة بعد ذلك .

إن البيئة المكية التى تتم التربية فيها . عنصرها الرئيسى الأول قريش والخلافة فى قريش فالأصل أن تخرج القيادات العليا كلها منها والقيادات الدنيا من باب أولى . ورسول الله ﷺ هو الذى يربى هذه القيادات ، ويصوغها الصياغة الإيمانية المطلوبة . وهذا لا يعنى أن التربية القيادية خاصة بقريش . ولايعنى أن الطاقات والمواهب القيادية محصورة فيها ولكن هذا يعنى أن بيئة قريش بيئة قيادات وجاء هذا الدين ليتم تفاعلها معه بإشراف المربى الأعظم ﷺ . فتقدم أعظم النماذج البشرية الفذة فى الوجود . حيث اكتملت العناصر كلها بأعظم نوعياتها ، وشاء قدر الله عز وجل أن تفوز هذه العناصر القيادية العليا بصحبة ثلاثة عشر عاماً مع المصطفى ﷺ وهو متفرغ لها وحدها، لينضم إليها فيما بعد الطبقة القيادية الثانية من السابقين الأولين من الأنصار .

---

(١) البخارى م٢ ج٥ص ١٣٦ باب غزوة الرجيع ورعيل وذكوان وبئر معونة .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٢٣١ .

العشرة المبشرون والمواجهة :

أما عبد الرحمن بن عوف وأبوعبيدة ـ رضى الله عنهما ـ فلم تذكر لنا كتب السيرة شيئاً من تعرضهم لأى أذى ، وأما عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ففى قصة إسلامه ومواجهتهم ما سنأتى للحديث عنه فيما بعد .

الصبى على :

وكان هذا الأمر منذ اللحظات الأولى للدعوة حيث كانت المواجهة مباشرة مع أبى طالب . قال ابن إسحاق : (وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفياً من أبيه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا . فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان. فقال لرسول الله ﷺ : يابن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال :« أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته، ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ـ أو كما قال ﷺ ـ بعثنى الله به رسولاً إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى . وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه أو كما قال » فقال أبو طالب : أى ابنِ أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه . ولكن والله لا يُخلَصُ إليك بشىء تكرهه ما بقيتُ .

وذكروا أنه قال لعلى : أى بنى ، ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال : يا أبت، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدَّقته بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته . فزعموا أنه قال له : أما أنه لم يدعُك إلا إلى خير فالزمه)(١) .

لقد أمكن الحفاظ على سرية الدعوة عند إسلام على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال لرسول الله ﷺ : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدث أبا طالب .

فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سرَّه قبل أن يستعلن أمره فقال له : « يا على إذا لم تسلم فاكتم » .

وأسلم على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكتم الأمر عن أبى طالب . وبقى الأمر سراً إلى أن عثر عليهما أبو طالب يصليان . وكانت أزمة لم يفد كتمان على فى تفاديها . فقال له عليه الصلاة والسلام: « أى عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته . ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ـ أو كما قال ﷺ ـ بعثنى الله به رسولاً إلى العباد. . » وبعد أن أوضح المصطفى ﷺ خصائص الدين الجديد . تحرك بعاطفة القرابة واستثار أعمق ما عند أبى طالب من مشاعر: « . . . وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣١٤ .

من أجابنى إليه وأعاننى عليه » أو كما قال . وتمت مواجهة الأزمة فى جانبها الأمنى ولكنها لم تنجح فى جانبها الدعوى . وكان الموقف : (أى ابن أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه . ولكن والله لا يُخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت» وهكذا أخذ على ـ رضوان الله عليه ـ الإذن باستمراره على دينه والتشجيع كذلك ، وتجاوز المحنة التى كان يمكن أن تنزل به . وانتقلت الدعوة إلى موقع جديد لأول مرة أن يعرف أوضاعها شخصية قيادية من خارجها دون أن تسلم ، ولكنها تستعد لحماية قائد الدعوة من أى خطر .

عثمان وعمه :

(قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى عن أبيه قال : لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحكم بن أبى العاص ابن أمية فأوثقه رباطاً وقال : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه . فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه) (١) .

الزبير وعمه :

(قال الليث : حدثنى أبو الأسود قال : كان عم الزبير يعلقه فى حصير ويدخِّن عليه ليرجع إلى الكفر فيقول : لا أكفر أبدا) (٢) .

القرينان :

وامتد أذى عم الزبير ـ رضوان الله عليه ـ إلى أبى بكر وطلحة :

(ولما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية (وهو عم الزبير) فشدهما فى حبل واحد ولم يمنعهما بنو تيم . وكان نوفل هذا يدعى أسد قريش فلذلك سمى أبو بكر وطلحة: القرينين. وكان النبى ﷺ قال: (اللهم اكفنا ابن العدوية) (٣) .

سعد وأمه :

فى الأنساب للبلاذرى عن سعد قال : أخبرت أمى أنى كنت أصلى العصر (أى الركعتين اللتين كانوا يصلونها بالعشى) فوجدتها على بابها تصيح : ألا أعوان يعينوننى عليه من عشيرتى أو عشيرته فأحبسه فى بيت . وأطبق عليه بابه حتى يموت ،أو يدع هذا الدين المحدث ؟ فرجعت من حيث جئت . وقلت : لا أعود إليك ولا أقرب

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٥ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/٥٤٥. ط. إحياء التراث العربى.

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢ / ٤٠٩ .

منزلك فهجرتها حيناً ، ثم أرسلت إليَّ أن عد إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار ، فرجعت إلى منزلى ، فمرة تلقانى بالبشر ، ومرة تلقانى بالشر ، وتعيرنى بأخى عامر وتقول : هو البر لا يفارق دينه، ولا يكون تابعاً . فلما أسلم عامر لقى منها ما لم يلق أحد من الصياح والأذى حتى هاجر إلى الحبشة) (١) .

سعيد بن زيد وابن عمه :

فعن قيس سمع سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل يقول : (والله لقد رأيتنى وإن عمر لموثقى وأخته على الإسلام قبل أن يسلم عمر . . .) (٢) .

فسبعة من العشرة من المبشرين لاقوا بوجه أو بآخر نوعاً من التعذيب من ذويهم . وكان الموقف النبوى أن ترك لهم المجال للتصرف المناسب فى مواجهة هذه المحنة . وكونهم الأفذاذ القادة .فقد رباهم عليه الصلاة والسلام على تحمل المسؤولية والاستعداد للمواجهة فى وقتها المناسب .لكن لا حرج أن يعرف القوم إسلامهم فلا خيار لهم عن الصلاة . ولا خيار لهم عن تحمل مسؤولية هذا الموقف وهم غير قادرين على المواجهة المعلنة فى حرب سافرة . لكن لابد من أن يكونوا مؤهلين لها ومستعدين لها فى وقتها المناسب . إنهم فتيان وشباب يتدفقون حيوية ويثبون انفعالاً . لكن الأوامر لم تصدر لهم بالمواجهة إنما صدرت لهم بالتحمل . ومحاولة التخلص من هذا التعذيب بالوسائل المكافئة له فلاحظنا أن ثباتهم أيأس قومهم منهم فتركوهم وشأنهم .

هذا الخيار الأول .

وكان الخيار الثانى الذى مر معنا هو خيار العبيد الذى حمل مسؤوليته الوزير الأول فى الأمة فاشتراهم جميعاً وأعتقهم حيث صاروا أحراراً لا سلطان لأحد عليهم . فلم يمسوا بعدها بسوء وكان هذا هو التوجيه المطلوب من هذه الصفوة الأولى أن تتصرف على ضوئه .

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٤٤٧ .

(٢) البخارى ٧ : ١١٧٦ ص ٢٧٨ .

الكوكبة الثانية

الزهريون الخمسة:

قدّر الله تعالى أن ينضم إلى الركب خمسة من بنى زهرة وحلفائهم ، كان على رأسهم عمير بن أبى وقاص أخو سعد ، وهما من أخوال رسول الله ﷺ ، واكتفى التاريخ فى حديثه عن عمير هذا أن يقدّمه لنا أحد شهداء بدر .

عمير الشهيد :

(فعن عامر بن سعد عن أبيه قال : رأيت أخى عمير بن أبى وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ للخروج إلى بدر يتوارى فقلت : ما لك يا أخى ؟ فقال : إنى أخاف أن يرانى رسول الله ﷺ فيستصغرنى ،فيردنى وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقنى الشهادة ، قال : فعُرض على رسول الله ﷺ فاستصغره ، فقال : «ارجع». فبكى عمير ، فأجازه رسول الله ﷺ ، قال سعد : فكنت أعقد له حمائل سيفه من صغره فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة ، قتله عمرو بن عبد ود) (١) .

ولا شك أن هناك خطأ فى الاسم ، فلا يعقل أن يكون عمير رضي الله عنه من السابقين الأولين وأسلم قبل دار الأرقم وعمره فى بدر ست عشرة سنة ، وإن كانت المصادر معظمها ذكرته كذلك مثل ابن إسحاق والذهبى وكتاب السير جميعاً ، فأصغر هؤلاء على رضي الله عنه وكان فى بدر قد ناهز العشرين عاماً وبارز الوليد بن عتبة .

إنما الصحيح فى الاسم هو عامر بن أبى وقاص ، إذ ذكرته معظم المصادر بأنه من مهاجرة الحبشة وهو أخو سعد كذلك ، وذكر ابن حجر عنه فى الإصابة أنه من السابقين الأولين: فقال عن الواقدى (ذكره الواقدى وقال : أسلم بعد عشرة رجال) .

ومثله يمكن أن يكون من مهاجرة الحبشة فهو أصغر من سعد بقليل ،وعمر سعد حين أسلم حوالى تسعة عشر عاماً أو ستة عشر عاماً على اختلاف فى ذلك . وينقل لنا سعد رضي الله عنه طرفاً من إسلام أخيه عامر مما يؤكد أن المقصود من السابقين هو عامر بن أبى وقاص لا عمير ـ رضى الله عنهم جميعاً .

ولنستمع إلى سعد وهو يحدثنا عن إسلامه وإسلام أخيه كما ذكرها لنا البلاذرى فى الأنساب عن سعد قال :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١٥٠ .

(أُخبرت أمى أنى كنت أصلى العصر، أى الركعتين اللتين كانوا يصلونهما بالعشى ، فجئت فوجدتها على بابها تصيح : ألا أعوان يعينوننى عليه من عشيرته أو عشيرتى فأحبسه فى بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث ؟ فرجعْتُ من حيث جئت ، وقلت : لا أعود منزلك ولا أقرب منزلك ، فهجرتها حيناً ، ثم أرسلت إلىّ أنْ عُدْ إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار. فرجعت إلى منزلى فمرةً تلقانى بالبشر ومرةً تلقانى بالشر ،وتُعيّرنى بأخى عامر وتقول:هو البرُّ لا يفارق دينه ولا يكون تابعاً ، فلما أسلم أخى عامر لقى منها ما لم يلق أحدٌ من الصياح والأذى حتى هاجر إلى الحبشة، ولقد جئت والناس مجتمعون على أمى وعلى أخى عامر ، وهى تعطى الله عهداً ألا يظلها نخل ولا تأكل طعامًا ولا تشرب شراباً حتى يدع صبأته ، فقلت لها : والله يا أمه لا تستظلين ولا تأكلين ولا تشربين حتى تتبوئى مقعدك من النار) (١).

وقال عنه البلاذرى :

(هاجر عامر الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وقدم مع جعفر ، ومات بالشام فى خلافة عمر) (٢) . هذا هو وافدنا الأول من الزهريين ، وأما الوافد الثانى فهو :

خبَّاب بن الأرتّ :

كان فى مقتبل شبابه وعلى مشارف العشرين من عمره يوم غزا قلبه هذا الدين الجديد . يقول ابن حجر : (خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب ابن سعد بن زيد بن مناة بن تميم التميمى ، ويقال الخزاعى أبو عبد الله ، سبى فى الجاهلية فبيع بمكة فكان مولى أم أنمار الخزاعية) (٣) ويقول ابن سعد عن أم أنمار : (وهى أم سباع الخزاعية ،حلف عوف بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة ، ويقال: بل أم خباب وأم سباع واحدة وكانت ختانة بمكة وهى التى عنى حمزة بن عبد المطلب يوم أحد حين قال لسباع بن عبد العزى وأمه أم أنمار: هلمَّ إلىّ يابن مقطعة البظور . فانضم خبّاب إلى آل سباع وادعى حلف بنى زهرة) (٤) .

فهو فى قريش حليف لا أصيل، ولكنه فى الإسلام قرشى، فحليف القوم منهم.

يقول عنه ابن حجر كذلك:(أسلم قديماً وكان من المستضعفين) ، وروى الباوردى أنه أسلم سادس ستة وهو أول من أظهر إسلامه وعُذِّب عذاباً شديداً لأجل ذلك .

ولنا معه مواقف ونحن نتحدث عن أثر الإسلام فى بنائه فيما بعد .

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٤٤٧ .
(٢) الإصابة لابن حجر العسقلانى م٢ ، ج٤ / ١٦ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١٦٤ .
(٤) الإصابة لابن حجر م١، ج٢ ص١٠١ .

عبد الله بن مسعود :

(هو عبد الله بن مسعـود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فأر بن مخزوم بن صاهلـة بـن كاهـل بـن الحارث بن تميم بـن سعـد بن هذيل بـن مدركة . . . ويكنى أبا عبد الرحمن . حالف مسعود بن غافل (أبوه) عبد بن الحارث بن زهرة فى الجاهلية . وأم عبد الله بن مسعود أم عبد بنت عبد ود . . . من هذيل) [1] .

وبين يدينا صورتان عن لقائه الأول مع رسول الله ﷺ وهو غض الإهاب فى سن المراهقة .

أما الصورة الأولى : فكانت انطباعات خاصة أخذت بقلبه كل مأخذ ، يقول فيها : (إن أول شـيء علمته من أمـر رسـول الله ﷺ ، قـدمـت مكـة مـع عمـومـة لى أو أنـاس مـن قـومى نبتـاع منها متاعاً . وكـان فى بغيتنا شـراء عطـر ، فأرشـدونا عـلى العبـاس ،فانتهيـنـا إليـه وهو جـالـس إلـى زمـزم،فجـلسـنـا إليه،فبينـا نحـن عنـده ، إذ أقبـل رجـل مـن بـاب الصفا أبيض تعلوه حمرة له وفرة[2] جعدة،إلى أنصاف أذنيه ، أشم[3] ،أقنى[4] ، أذلف[5] ، أدعج العينين[6] ، براق الثنايا [7] ، دقيق المسربة[8] ، شثن الكفين والقدمين[9] ، كث اللحية[10] ، عليه ثوبان أبيضان ، كأنه القمر ليلة البدر، ويمشى على يمينه غلام حسن الوجه ، مراهق أو محتلم ، تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها ، حتى قصد نحو الحجْر فاستلم ثم استلم الغلام ، واستلمت المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعاً ، وهما يطوفان معه ، ثم استقبل الركن، فرفع يده وكبّر ، وقام ثم ركع ، ثم سجد ، ثم قام ، فرأينا شيئاً أنكرناه، لم نكن نعرفه بمكة ، فأقبلنا على العباس ، فقلنا يا أبا الفضل ، إن هذا الدين حدث فيكم ،أو أمر لم نكن نعرفه ؟ قال: أجل ، والله ما تعرفون هذا ، هذا ابن أخى محمد بن عبد الله ، والغلام على بن أبى طالب ، والمرأة خديجة بنت خويلد امرأته ، أما والله ما على وجه الأرض أحد نعلمه يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة) [11].

فقد أخذ منظر رسول الله ﷺ بلبه كأنه القمر ليلة البدر ، وراح يتأمل جماله عليه الصلاة والسلام ، ثـم راح يتأمل عبادته،ولعل هذه الزيارة ، قـد تـم بها حلـف مسعود

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١٥٠ .
(٢) الوفرة : الشعر إلى أنصاف الأذنين .
(٣) أشم : ارتفاع قصبة الأنف وحسنها .
(٤) أقنى : أحمر الوجه .
(٥) أذلف: صغير الأنف مستوى الأرنبة .
(٦) أدعج العينين : أسود العينين .
(٧) براق الثنايا : بياض الأسنان .
(٨) دقيق المسربة : الشعر المستدق ما بين اللبة إلى السرة.
(٩) شثن الكفين والقدمين : غليظهما .
(١٠) كث اللحية : أن تكون غير دقيقة ولا طويلة .
(١١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٤٦٣، وقال فيه الذهبى : قال ابن شيبة : لا نعلم روى هذا إلا بشر الخصاف ، وهو رجل صالح .

ابن غافل مع عبد بن الحارث بن زهرة ،وقد بقى هذا المنظر وهذا الحديث محفوراً فى قلبه. وقد كان عليه أن يكدّ فى رعى الغنم على قراريط لعقبة بن أبى معيط ، ولم يغادر ذلك المنظر ذهنه إلى أن ساق الله تعالى إليه هذا القمر وهو يرعى الغنم ، يقول رضي الله عنه :

(كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبى معيط ، فمر بى رسول الله ﷺ وأبو بكر ، فقال : «يا غلام ، هل من لبن ؟ »قلت : نعم ، ولكنى مؤتمن ، قال:«فهل من شاة لم ينز عليها الفحل ؟ فأتيته بشاة فمسح ضرعها ،فنزل لبن ،فحلب فى إناء فشرب ،وسقى أبا بكر ، ثم قال للضرع :«اقلص» ، فقلص (زاد أحمد) قال : ثم أتيته بعد هذا ـ ثم اتفقا ـ فقلت : يارسول الله ، علمنى من هذا القول، فمسح رأسى ، وقال : «يرحمك الله إنك غُلَيِّم معلَّم » (١) .

دخل هذا الغلام الهذلى هذا الدين الجديد بنفس منفتحة ، وذكاء وقاد ، وهمة قعساء ، ليصبح فيما بعد معلماً من معالم الإسلام العظيمة الخالدة على الدهر ،ويكفى أن نعرض لجانب من مناقبه لنعرف ماذا فعل الإسلام برويعى الغنم هذا رضي الله عنه .

١ ـ أصبح حكماً للأمة المسلمة ، ووكيلاً لها عن رسول الله ﷺ فى الحب والكره (فعن القاسم بن عبدالرحمن قال : قال النبى ﷺ :

«رضيت لأمتى ما رضى لهم ابن أم عبد،وكرهت لأمتى ماكره لها ابن أم عبد»(٢) .

٢ ـ و هو الأمين على وحى الله أن يبلغ للناس كما أنزله الله تعالى على نبيه : (فعن عمر قال : قال النبى ﷺ : « من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد) (٣) .

٣ ـ وهو النموذج الحى عن رسول الله ﷺ بعد وفاته :(فعن أبى إسحاق بن عبد الرحمن بن يزيد قلنا لحذيفة : أخبرنا بأقرب الناس سمتاً من رسول الله ﷺ نأخذ عنه

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٤٦٥ وقال فيه : هذا حديث صحيح الإسناد ورواه أبو عوانة عن عاصم بن بهدلة وفيه زيادة منها: فلقد أخذت من فيه ﷺ سبعين سورة ما نازعنى فيها بشر . ورواه إبراهيم بن الحجاج السامى عن سلام أبى المنذر عن عاصم وفيه قال : فأتيته بصخرة منقعرة ، فحلب فيها . فأسلمت وأتيته .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد وقال فيه المحقق : مرسل رجاله ثقات والحديث صحيح بإسناد الحاكم ٢/ ٨٣٨ .

(٣) فضائل الصحابة ٢/ ٨٣٩ ،وقال المحقق فيه : وأما الحديث فصحيح من طرق أخرى ، رواه أحمد ١/ ٧ وابن ماجة ١/ ٤٩ عن أبى بكر وعمر وإسنادهما حسن .

ونسمع منه فقال : (كان أشبه الناس سمتاً [1] وحدباً ، ودلاً ، وهديا، برسول الله ﷺ ابن أم عبد) [2].

٤ ـ وهو أحد أربعة يتلقى عنهم القرآن فى الأمة : (فعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبى حذيفة ») [3] .

يقول عبد الله بن عمرو : لا أزال أحبه بعد ما رأيت رسول الله ﷺ بدأبه .

٥ ـ وهذا العلم العظيم فى الأمة ، والذى أبت عنجهية أبى جهل إلا أن يسميه رويعى الغنم .يكفى أن نعلم أنه كان رجلاً نحيفاً قصيراً شديد الأدمة . وبلغ من قصره أن يكون طوله طول الرجل جالساً (فعن زيد بن وهب قال : إنى لجالس مع عمر بن الخطاب إذ جاء ابن مسعود فكاد الجلوس يوارونه من قصره، فضحك عمر حين رآه ، فجعل عمر يكلمه ، ويتهلل وجهه ويضاحكه، وهو قائم عليه ثم ولّى ، فأتبعه عمر بصره حتى توارى فقال : كُنَيْف مُلِئ علماً) [4] .

٦ ـ ولقصره ودقة ساقيه شاء الله تعالى أن يكشف عظمته عنده :(فعن زر بن حبيش عن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكاً من الأراك للنبى ﷺ وكانت الرياح تكفؤه. وكان فى ساقيه دقة ، قال : فضحك القوم ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لهما أثقل فى الميزان من أحد») [5] .

٧ ـ ولئن شهدنا علم عبد الله بن مسعود ، والشهادات فيه ، فها نحن أمام عبد الله ابن مسعود الكفء بالإمارة والقيادة والمسؤولية ، والشهادة الأولى فيه من رسول الله ﷺ :فعن على قال : قال رسول الله ﷺ:« لو استخلفت أحداً من غير مشورة لاستخلفت ابن أم عبد »[6] .

٨ ـ وتأتى الشهادة الثانية من الفاروق عمر رضي الله عنه :(فعن أبى حارثة بن مضرب ، قال : قرئ علينا كتاب عمر هاهنا : إنى بعثت إليكم عماراً أميراً ، وبعبد الله ابن مسعود معلماً ووزيراً ،وهما من النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر فاسمعوا لهما

---

(١) السمت : حسن الهيئة ، وقيل هو من السمت : الطريق .

(٢) فضائل الصحابة ٢/ ٨٤٠ وقال المحقق فيه : إسناده صحيح .

(٣) فضائل الصحابة ٢/ ٨٤٢ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ، وهو فى المسند ٢/ ١٩٠، ١٩١.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٤٩١ وقال المحقق فيه: إسناده صحيح ، وكنيف : تصغير كنف وهو الوعاء .

(٥) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢/ ٨٤٣ ، وقال المحقق فيه : إسناده حسن وهو فى المسند (١/ ٤٢١) .

(٦) المصدر نفسه ١/ ٨٣٩ وقال المحقق فيه : رواه الحاكم (٣/ ٣١٨) عن عاصم بن ضمرة عن على ، ويكون الحديث حسناً عن طريقه .

وأطيعوا ، وآثرتكم بابن أم عبد على نفسى ، وجعلته على بيت مالكم »)[1] ورزقهم كل يوم شاة . وبعث حذيفة وابن حنيف على السواد فجعل لعمار شطرها وبطنها ، وجعل الشطر الباقى بين هؤلاء الثلاثة .

٩ ـ واختصه من الأمة بأنه صاحب العهد ، فعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر ، واهتدوا بهدى عمار ، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد »[2] .

مسعود بن الربيع القارى :

وهو رابع الزهريين وحليفهم ، قال ابن سعـد فيه : (مسعود بن الربيع بن عمرو ابن سعد بن عبد العزى من القارة ، حليف بنى عبد مناف بن زهرة بن كلاب ويكنى أبا عمير هكذا . قال أبو معشر ومحمد بن عمر: مسعود بن ربيع ، وقال موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق : مسعود بن ربيعة ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ،قال : أخبرنا محمد بن صالح عن يزيد بن رومان، قال: أسلم مسعود بن الربيع القارى قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم .

قال : وآخى رسول الله ﷺ بين مسعود بن الربيع القارىّ وبين عبيد بن النبهان ، قال : وذكر بعض من يروى العلم أنه كان لمسعود بن الربيع أخ يقال له عمرو بن الربيع صحب النبى وشهد بدراً .

قال محمد بن سعد: ولم أر شهوده بدراً يثبت، ولم يذكره أهل العلم بالسيرة)[3] .

واكتفى التاريخ بهذا الحديث المقتضب عن مسعود فثبتناه كما هو .

المطلب بن أزهر :

وهو من صميم بنى زهرة ، فهو المطلب بن أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة . فهو من السعداء الذين حمل التاريخ اسمهم بأنصع صفحاته ، وكان من السابقين السابقين ، وقُدِّر له من الفضل أن يهاجر إلى الحبشة ، ويلقى وجه الله تعالى فيها، بعد أن يسعد بانتمائه لهذا الدين بضع سنوات .

(هو ابن عم عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف الزهرى ،وهو أخو طليب من

---

(١) المصدر السابق ١/ ٨٤٢ وقال المحقق عنه : إسناده صحيح .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٤٧٨ ، وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم (٣/ ٧٥) وصححه ووافقه الذهبى .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١٦٨ .

السابقين الأولين إلى الإسلام ، ومن مهاجرة الحبشة ، وبها ماتا جميعاً ، وهاجر مع المطلب امرأته :رملة بنت أبى عوف بن صبيرة السهمية ، ولدت له بأرض الحبشة ابنه عبد الله ، وكان يقال : إنه أول من ورث أباه فى الإسلام ، قاله ابن إسحاق ، أخرجه أبو عمر ، وأبو موسى)[1] .

العامريون الثلاثة :

هم من قريش لكن من أقصاها ، وكانوا يعرفون هذا الفضل للب قريش .

ومن أجل ذلك قال سهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ حين طلب إجارته للدخول إلى مكة :(إن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب) [2] .

ولكن هؤلاء العامريين كانوا جنوداً مجهولين فى الصف الإسلامى ، وقدّر الله تعالى أن تكون القيادة والزعامة فى أخيهم سهيل بن عمرو الذى تأخر إسلامه لما بعد فتح مكة ، وبنو عامر بن لؤى كلها تقر بالقيادة لسهيل ، فعندما أُسِرَ فى بدر ، قال الأنصارى الذى أسره وهو مالك بن الدخشم :

أسرت سهيلاً فلا أبتغى ... أسيراً به من جميع الأمم
وخِندفُ تعلم أن الفتى ... فتاها سهيلاً إذا يظلم[3]

وجاء مكرز بن حفص أحد قادة بنى عامر ، فوضع نفسه أسيراً مكانه فى بدر ريثما يبعث للمسلمين بفدائه وقال :

رهنت يدى والمال أيسر من يدى ... علىَّ ولكنى خشيت المخازيا
وقلت سهيل خيرنا فاذهبوا به ... لأبنائنا حتى ندير الأمانيا[4]

أما إخوته السعداء الثلاثة الذين فازوا بالصحبة النبوية منذ سنيها الأولى فهم :

سليط بن عمرو :

ابن عبد شمس العامرى ، وقد ذكره ابن إسحاق فى مهاجرة الحبشة ولم يذكره موسى بن عقبة ، وذكره الواقدى وأبو معشر فى البدريين ، ولم يذكره موسى بن عقبة، وذكره ابن إسحاق فى تسمية الرسل إلى الملوك ، فقال : (وسليط بن عمرو

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير الجزرى ٥/ ١٨٦ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/ ٥٨٠ . (٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٥٤ .
(٤) المصدر نفسه ٢/ ٣٥٦ .

أرسله إلى هوذة بن على رئيس اليمامة ، ووصل هذا إسماعيل بن عباس عن ابن إسحاق عن الزهرى عن عائشة أخرجه الطبرانى ، وقد تقدم أن ابن إسحاق ذكره فيمن استشهد باليمامة وكذا ذكره ابن الكلبى) (١) .

لقد كان سليط جندياً ثقة مأموناً ، وداعية إلى الله تعالى يوم مضى بالرسالة إلى رئيس اليمامة هوذة بن على الحنفى . وكان جندياً مجاهداً يملك دمه وروحه فيبذلهما فى سبيل الله فى اليمامة نفسها، فكانت شجاعة الداعية الذى ينطق بالحق بين يدى أعتى العدو ، وشجاعة المجاهد الذى ينطق بالدم بين أسنة الرماح .

السكران بن عمرو :

ابن عبد شمس العامرى أخو سهيل بن عمرو ، ذكره موسى بن عقبة فى مهاجرة الحبشة وكذا قال ابن إسحاق ، وزاد أنه رجع إلى مكة فمات بها فتزوج النبى بعده زوجته سودة بنت زمعة زوجه إياها أخوه حاطب(٢) .

ولنشهد تلك اللحظات المؤثرة الحانية بين الزوجين الحبيبين السكران وسودة:

(كانت سودة بنت زمعة عند السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمرو ، فرأت فى نومها كأن النبى ﷺ أقبل يمشى حتى وطئ على عنقها ، فأخبرت زوجها بذلك فقال : وأبيك إن صدقت رؤياك لأموتن وليتزوجنّك رسول الله ﷺ، فقالت : حجراً وستراً ، ثم رأت فى المنام ليلة أخرى أن قمراً انقض عليها من السماء وهى مضطجعة وأخبرت زوجها فقال : وأبيك لئن صدقت رؤياك لم ألبث يسيراً حتى أموت وتزوجين من بعدى، فاشتكى السكران من يومه ذلك ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات وتزوجها رسول الله ﷺ)(٣) .

حاطب بن عمرو :

ابن عبد شمس العامرى ، الذى أقر الله تعالى عينه حتى شهد بدراً وفاز فيها بالمغفرة : «لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

(أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين معاً ، وهو أول من هاجر إليها فى قول . وشهد بدراً مع النبى ﷺ.

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ٣/ ١٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٣/ ١١٠ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٨/٨ ، ٣٩ . ونشير إلى أن ذكرنا السكران هنا مع أنه ليس من الخمسين الأوائل ، وإن كان من السابقين الأولين بمناسبة ذكر أخويه .

قال موسى بن عقبة وابن إسحاق والواقدى فيمن هاجر إلى أرض الحبشة ، وفيمن شهد بدراً : حاطب بن عمرو من بنى عامر بن لؤى) [1] .

خنيس بن حذافة السهمى :

إنه السهمى الوحيد بين الخمسين الأوائل ، وهو مثل أخيه فى الإسلام حاطب بن عمرو . نال شرف الهجرة إلى الحبشة ، والهجرة إلى المدينة ، وشرف شهود بدر ، فكان جنديا خالصاً لله ، انتهى دوره فى الحياة بهذه التضحيات العظيمة ، واشترك مع أخيه فى الإسلام السكران بن عمرو فى أن رسول الله ﷺ خلف على زوجتيهما بعد وفاتهما ، فقد كان صهر الفاروق رضي الله عنه وزوج ابنته حفصة .

(أسلم خنيس بن حذافة قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم .

قالوا : وهاجر خنيس إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فى رواية محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر الواقدى ، ولم يذكر ذلك موسى بن عقبة وأبو معشر .

وكان خنيس بن حذافة زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب قبل رسول الله ﷺ ، قالوا : وآخى رسول الله ﷺ بين خنيس بن حذافة ، وأبى عبس بن جبر، وشهد خنيس بدراً ، ومات على رأس خمس وعشرين شهراً من مهاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، وصلى عليه رسول الله ﷺ ودفنه بالبقيع إلى جانب قبر عثمان بن مظعون ، وليس لخنيس عقب ، رجل واحد) [2] .

لقد قُدِّر لخنيس رضي الله عنه فضل السبق فى الصحبة ، ومنذ السنة الأولى للدعوة ، وفضل الهجرتين ، وفضل السيادة فى بدر ، فكان الجندى الأمين الذى قضى فى حياة نبيه وهو على العهد ، وقُدِّرت القيادة لأخيه عبد الله ابن حذافة السهمى الذى ساهم فى كثير من المسؤوليات فيما بعد ، ولعمرو بن العاص السهمى رضي الله عنه فكانا من بنى سهم يحملان عبء القيادة ويمثلانها فى قريش .

عيّاش بن أبى ربيعة المخزومى :

وهو من أعيان بنى مخزوم ذكرته كتب التراجم بالعرض التالى : (عياش بن أبى ربيعة (عمرو) بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . يكنى أبا عبد الرحمن ، وقيل : أبو عبد الله ، وهو أخو أبى جهل لأمه ، وابن عمه ، وهو أخو عبد الله بن أبى ربيعة .

---

(1) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ١/ ٤٣٤ .

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٩٢ .

(كان إسلامه قديماً أول الإسلام ، قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة ، وولد له بها ابنه عبد الله ، ثم عاد إلى مكة ، وهاجر إلى المدينة هو وعمر بن الخطاب . ولم يذكره ابن عقبة وأبو معشر فيمن هاجر إلى الحبشة .

ولما هاجر إلى المدينة قدم عليه أخواه أبو جهل والحارث ابنا هشام ، فذكرا له أن أمه حلفت لا يدخل رأسها دهن ولا تستظل حتى تراه ، فرجع معهما ، فأوثقاه وحبساه بمكة ، وكان رسول الله ﷺ يدعو له . . . ولما مُنع عيَّاش من الهجرة قنت رسول الله ﷺ يدعو للمستضعفين بمكة - ويسمى منهم الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعيَّاش بن أبى ربيعة ، وقتل عيّاش يوم اليرموك ، وقيل : مات بمكة ، قاله الطبرى. . .) [1] .

قال ابن قانع والفرات ،وغيرهما :(مات سنة خمسة عشر بالشام فى خلافة عمر، وقيل: استشهد باليمامة ، وقيل: باليرموك) [2] .

ورجالات بنى مخزوم وقياداتها من الوفرة بمكان ، لكن الذى قُدِّر لعياش رضي الله عنه فضل السبق الأول وفضل الصحبة الأولى وفضل الهجرة ، إلى أن دفعه بره لأمه إلى العودة لمكة .

فأصبح مع صاحبيه المخزوميين الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، هاجس رسول الله ﷺ الأول ، حتى ليدعو لهم فى قنوته ، بأسمائهم بعد أن يدعو للمستضعفين بمكة ، ولم يجد إلا روحه يبذلها يوم اقتضى البذل ، فمضى شهيداً على الأرجح فى اليرموك أو فى اليمامة :

ولو لم يكن فى كفّه غير روحه   لجاد بها فليتق الله سائله

أسماء بنت سلامة زوج عياش :

وانضم إلى ركب السابقات الأول أسماءُ جديدة بعد أسماء بنت أبى بكر الصديق، فكانت رابعة السابقات ، وهى أسماء بنت سلامة بن مُخربة التميمية .

وأسلمت قديماً بمكة وبايعت وهاجرت إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية مع زوجها عياش بن أبى ربيعة ، فولدت له هناك عبد الله بن عياش[3] .

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٤/ ٣٢٠ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٣/٥/٤٧ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٣٠١ .

بنو عبد مناف

كانت قريش بيضة ففلقت　　　فالمح خالصه لعبد مناف

(قال الكلبى : كان أول من حمل السمراء من الشام ،ورحَّل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف ، وفى ذلك يقول ابن الزبعرى السهمى :

قل للذى طلب السماحة والندى　　　هلا مررت بآل عبد مناف
هلا مررت بهم تريد قِراهمُ　　　منعوك من ضُر ومن إتلاف
الرائشين وليس يوجد رائش　　　والقائلين هلم للأضياف
والخالطين فقيرهم بغنيهم　　　حتى يكون فقيرهم كالكافى)(١)

وسادة بنى عبد مناف هم بنو هاشم وبنو أمية .

ومن الذين أكرمهم الله تعالى من هؤلاء السادة أن يكونوا من بين الخمسين الأوائل بعد سيد البشرية محمد ﷺ ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان، ثالث رجال الأمة ورابعها ، بعد هؤلاء جعفر بن أبى طالب الهاشمى ، وخالد بن سعيد بن العاص الأموى ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وعبد الله بن جحش الأسدى حليف بنى أمية ، وكان أربعتهم قادة سادة .

جعفر بن أبى طالب :

يقول الذهبى عنه :(السيد الشهيد الكبير الشأن ـ علم المجاهدين، أبو عبد الله ابن عم رسول الله ﷺ عبد مناف (أبوطالب) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى الهاشمى. أخو على بن أبى طالب، وهو أسن من على بعشر سنين) (٢) .

(وقال : قال ابن إسحاق : أسلم جعفر بعد أحد وثلاثين نفساً .

إسماعيل بن أويس : حدثنا أبى عن الحسن بن زيد ،أن عليا أول ذكر أسلم ثم أسلم زيد ثم أسلم جعفر .وكان أبو بكر الرابع أو الخامس) (٣) .

(رُوى أن أبا طالب رأى النبى ﷺ وعليا رضي الله عنه يصليان ، وعلى عن يمينه فقال

(١) تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس للديار بكرلى ١٥٦/١ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠٦/١ .　　(٣) المصدر نفسه ٢١٦/١ .

لجعفر رضي الله عنه صِلْ جناح ابن عمك وصلِّ عن يساره) (١) .

وقال عنه ابن حجر : (. . .وأحد السابقين إلى الإسلام وأخو على شقيقه ، قال ابن إسحاق: أسلم بعد خمسة وعشرين رجلاً ،وقيل: بعد واحد وثلاثين ، قالوا : وآخى النبى ﷺ بينه وبين معاذ بن جبل ، وكان أبـو هريرة يقول: إنه أفضل الناس بعد النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وفى البخارى : كان جعفر خير الناس للمساكين، وقال خالد الحذاء عن عكرمة : سمعت أبا هريرة يقول : « ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطئ التراب بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبى طالب» رواه الترمذى والنسائى وإسناده صحيح .

وروى البغوى عن طريق المقبرى عن أبى هريرة قال :(كان جعفر يحب المساكين ، ويجلس إليهم ويخدمهم يخدمونه (ويحدثهم ويحدثونه) ، فكان رسول الله ﷺ يكنيه أبا المساكين) (٢) .

ولكن أعظم ميزة تميز بها جعفر رضي الله عنه هو أنه شبيه رسول الله ﷺ خُلُقاً وخَلْقاً .

فقد أخرج أحمد عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : اجتمع جعفر وعلى وزيد بن حارثة فقال جعفر : أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ ، وقال علىّ : أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ ، وقال زيد : أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله . فقال أسامة بن زيد : فجاؤوا يستأذنونه فقال : « اخرج فانظر من هؤلاء »، فقلت : هذا جعفر وعلى وزيد ، ما أقول أبى. قال : « ائذن لهم » ، ودخلوا فقالوا : من أحب إليك ؟ قال : « فاطمة ».قالوا : نسألك عن الرجال .قال: «أما أنت يا جعفر فأشبه خَلقك خلقى ، وأشبه خُلُقى خُلُقك ، وأنت منى ومن شجرتى.وأما أنت يا على فختنى وأبو ولدى وأنا منك وأنت منى . وأما أنت يازيد فمولاى منى وإلىّ وأحب القوم إلىّ » (٣).

ومن كان شبيه رسول الله ﷺ بخلقه وخلقه ، فهو جدير بالإمارة والمسؤولية والقيادة . وكان جعفر رضي الله عنه فى الإمارة والمسؤولية طيلة عمره فى الدعوة حتى قضى شهيداً ، والتى سنتحدث عنها فى إبانها ، وبلغ من حب رسول الله ﷺ له أن يكون لقاؤه به بعد غياب طويل يعادل فتح حصون يهود فى خيبر والنصر عليهم .

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٣٤١ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانى ١/ ١/ ٢٣٥ .

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٢٠٤ من طريق محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن أسامة عن أبيه ورجاله ثقات . انظر : سير أعلام النبلاء ١/ ٢١٤ .

فعن عبد الله بن نمير عن الأجلح عن الشعبى قال : لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر تلقاه جعفر ، فالتزمه رسول الله ﷺ وقبَّل بين عينيه، وقال : « ما أدرى بأيهما أنا أفرح : بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر » (١) .

ولكن هذا الحب كله لم يكن يدفعه لأن يقدِّمـه على زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ فكان هو الأمير الأول فى مؤتة ، وكان جعفر هو الأمير الثانى بعده .

فقد روى ابن سعد عن محمد بن عمر ،قال :(حدثنا عبد الله بن محمد بن عمر ابن على عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جعفراً ملكاً يطير فى الجنة تدمى قادمتاه ، ورأيت زيداً بدون ذلك . فقلت : ما كنت أظن أن زيداً دون جعفر» فأتاه جبرائيل فقال : إن زيداً ليس بدون جعفر ، ولكنا فضلنا جعفراً لقرابته منك) (٢) .

ولقد أمضى جعفر رضي الله عنه قرابة خمسة عشر عاما بعيـداً عـن رسول الله ﷺ ، وكـل ما أمضاه فى صحبته ﷺ هـو سـتة أعوام ونيف ، ولكن تكوينه العظيم الذى جبلـه الله تعالى عليه فى هـذا الشبه النبوى خَلْقاً وخُلُقاً ، جعله فى قمة الصحابة وسادتهـم .

ولابد أن نشير ونكرر كذلك أن القيادة العظيمة فى الإسلام يكون من أول مقوماتها الجندية الخالصة ، والذى لا يصلح لهذه الجندية فى السمع والطاعة والالتزام والانضباط التام فى أوامر قيادته ،لا يصلح أن يكون قائداً فيما بعد ،كما نشير كذلك إلى أن القيادة فى الإسلام ليست ميزة وترفعاً لمن يملكها أو تناط به ، بل هى تضحية حين تقتضى التضحية ،وفداء حين يقتضى الفداء ، وبذل حين يطلب البذل ، وجعفر رضي الله عنه مثّل أعظم نماذج التضحية والفداء والبذل فى الإسلام ،حين كان قائداً لجيشه ـ وهو ما يذكر فى حينه ـ دون أن تكون قيادته حصناً يتحصن داخلها بعيداً عن الخطر .

ومضى فى التاريخ الإسلامى بلقب ووسام لم يفز به أحد سواه فى هذا التاريخ . مضى بلقب : جعفر الطيار ذى الجناحين ، وبه كان يفخر علىّ رضي الله عنه :

وجعفر الذى يغدو ويمسى ... يطير مع الملائكة ابن أمى

وإذا كان جناحا رسول الله ﷺ هما على وجعفر كما حرص أبو طالب أن يكونا معه فى السنين العجاف للدعوة فقد كان جعفر ذو الجناحين الربانيين اللذين وُهِبهما من رب العزة يطير بهما فى الجنة .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٢١٣ . وقال عنه المحقق أخرجه الحاكم ٣/ ٢١١. وقال: إنما ظهر بمثل هذا الإسناد الصحيح مرسلاً ، وقال الذهبى: وهو الصواب .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢٨ .

أسماء بنت عميس :

وهى أسماء الثالثة التى تنضم إلى ركب النساء المبايعات المهاجرات المجاهدات وهى زوج جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه والخامسة فى ركب النساء المسلم .

(أخبرنا محمد بن عمر : حدثنا محمد بن صالح بن يزيد بن رومان قال : أسلمت أسماء بنت عميس قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم بمكة وبايعت ، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب فولدت له هناك عبد الله ومحمداً وعوناً ، ثم قتل عنها جعفر بمؤتة شهيداً فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة)[1] .

وهكذا صار عندنا الركب النسائى من :

خديجة بنت خويلد ، أم الفضل بنت الحارث ، أم أيمن ، أسماء بنت أبى بكر ، أسماء بنت سلامة بن مخربة ، أسماء بنت عُميس ، رضوان الله عليهن جميعاً .

ولا ننسى أن أم الفضل بنت الحارث هى أخت أسماء بنت عميس ، لأمها خولة بنت عوف بن زهير بن الحارث ، وخولة هذه هى أكرم امرأة أصهاراً فى الأرض .

خالد بن سعيد بن العاص الأموى :

وكان لإسلامه ضجة فى صفوف قريش هزت أركانها لأنه ابن أبى أحيحة سعيد ابن العاص ألد العدو لرسول الله ﷺ . وكان ثلمة فى جدار الشرك صدَّعت هذا الجدار. ولنستمع إلى قصة إسلامه التى تحمل جوانب من كيانه وشخصه ومشاعره رضي الله عنه .

قال محمد بن عمر : (حدثنى جعفر بن محمد بن خالد بن الزبير عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال : كان إسلام خالد بن سعيد قديما وكان أول إخوته، أسلم ، وكان بدء إسلامه أنه رأى فى النوم أنه واقف على شفير النار فذكر من سعتها ما الله به أعلم ، ويرى فى النوم كأن أباه يدفعه فيها ، ويرى رسول الله ﷺ آخذاً بحقويه لئلا يقع ، ففزع من نومه فقال : أحلف بالله أن هذه لرؤيا حق ، فلقى أبا بكر ابن أبى قحافة فذكر ذلك له. فقال أبو بكر: أُريد بك خير ، هذا رسول الله ﷺ فاتّبعه. فإنك ستتبّعه وتدخل معه فى الإسلام الذى يحجزك من أن تقع فيها،وأبوك واقع فيها . فلقى رسول الله ﷺ وهو بأجياد فقال : يا محمد، إلى ما تدعو ؟ قال : «أدعو إلى الله

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٢٨٠ .

وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يدرى من عبده ممَّن لم يعبده ». قال خالد : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسُر رسول الله ﷺ بإسلامه ، وتغيّب خالد وعلم أبوه بإسلامه فأرسل فى طلبه من بقى من ولده ممَّن لم يسلم ورافعًا مولاه ، فوجدوه فأتوا به إلى أبيه أبى أحيحة فأنَّبه وبكَّته وضربه بمقرعة فى يده حتى كسرها على رأسه ، ثم قال : اتبعت محمداً وأنت ترى خلافه قومه وما جاء به من عيب آلهتهم ، وعيب من مضى من آبائهم ؟ فقال خالد :قد صدق والله.واتبعته.فغضب أبو أحيحة ، ونال من ابنه وشتمه ثم قال : اذهب يا لكع حيث شئت فوالله لأمنعنك القوت .

فقال خالد : إن منعتنى . وإن الله يرزقنى ما أعيش به ، فأخرجه وقال لبنيه : لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به . فانصرف خالد إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويكون معه) (١) .

(وعن عبد الحكيم بن عبد الله بن أبى فروة قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن سعيد بن العاص يحدِّث عمرو بن شعيب قال : كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص ثالثاً أو رابعاً . وكان ذلك ورسول الله ﷺ يدعو سرا . وكان يلزم رسول الله ﷺ ، ويصلى فى نواحى مكة خالياً . فبلغ ذلك أبا أحيحة فدعاه فكلمه أن يدع ما هو عليه فقال خالد : لا أدع دين محمد حتى أموت عليه ، فضربه أبو أحيحة بقراعة فى يده حتى كسرها على رأسه ثم أمر به إلى الحبس ، وضيق عليه وأجاعه وأعطشه حتى لقد مكث فى حر مكة ثلاثاً مايذوق ماءً ،فرأى خالد فرجة فخرج ، فتغيب عن أبيه فى نواحى مكة حتى حضر خروج أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة فى الهجرة الثانية . فلهو أول من هاجر)(٢) .

لعل محنة خالد رضي الله عنه فى إسلامه كانت من أقسى المحن إذ ذاق الويلات جميعاً : فحبس فى الحر والهاجرة دون غذاء أو ماء ثلاثة أيام . وضُرب حتى كسرت المقرعة على رأسه ،وطرد من البيت فأصبح بلا مأوى . لقد فقد كل شىء . وكان جوابه : لا أدع دين محمد حتى أموت عليه .

وصدق فلقد مات على هذا الدين ، واستشهد فى سبيله وبقى عليه حتى الرمق الأخير . وأمضى سنيه الصعبة . شريداً مطارداً من أبيه وإخوانه وعشيرته حتى تبلغ الإذن النبوى بالهجرة خارج مكة . فكان أول المهاجرين رضي الله عنه .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٩٥ .

وبلغ التزامه بدينه وعقيدته مبلغاً مذهلاً. كما أنه خلع كل ربقة الجاهلية من عنقه، وكل ربقة العصبية من كيانه ولم والحديث عن هذا الأمر سهل وكتابة الصفحات عنه هيِّن ميسور لكن الممارسة العملية له هى التى تمثل عظمة هذه الدين وعظمة هذا الصياغة النبوية.

إن الدعاة إلى الله اليوم يعيشون فى دعوتهم ربع قرن أو نصف قرن وتبقى المعاناة عندهم من الصنف البشرى تنتاب كيانهم عصبية لقريب لهم أو حسيب ويصل بعضهم إلى موقع القيادة والمسؤولية ولا يتخلص من عصبية أو إقليمية. نضع هذا الواقع الأليم الذى نحياه والذى أبطأ بنا عن النصر الإلهى، وحال بيننا وبين التمكين فى الأرض والذى يكاد يكون سمة غالبة. نضع هذا الواقع الأليم. ونضع صورة خالد بن سعيد رضي الله عنه وهو يسمع عن مرض أبيه.

(فعن عمرو بن يحيى بن سعيد الأموى عن جده عن عمه خالد بن سعيد أن سعيد بن العاص بن أمية مرض فقال : لئن رفعنى الله من مرضى هذا لا يعبد إله ابن أبى كبشة ببطن مكة. فقال خالد بن سعيد عند ذلك : اللهم لا ترفعه)(١).

وقدمت لنا ابنته أم خالد ـ رضى الله عنها ـ عرضاً موجزاً لجهاد أبيها فقالت:

(كان أبى خامساً فى الإسلام، قلت : فمن تقدّمه ؟ قالت : ابن أبى طالب وابن أبى قحافة وزيد بن حارثة وسعد بن أبى وقاص، وأسلم أبى قبل الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، وهاجر فى المرة الثانية وأقام بها بضع عشرة سنة وولدتُ أنا بها، وقدم على النبى ﷺ بخيبر سنة سبع، فكلَّم رسول الله ﷺ المسلمين فأسهموا لنا، ثم رجعنا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ، وأقمنا. وخرج أبى مع رسول الله ﷺ فى عمرة القضية وغزا معه إلى الفتح هو وعمى يعنى عَمْراً وخرجا معاً إلى تبوك، وبعث رسول الله ﷺ أبى عاملاً على صدقات اليمن، فتوفى رسول الله ﷺ وأبى باليمن)(٢).

همينة بنت خلف :

وهى سادسة النساء المؤمنات زوج خالد بن سعيد رضي الله عنه.

ذكرها ابن سعد فقال : (همينة بنت خلف بن أسعد ... الخزاعية، أسلمت بمكة قديماً وهاجرت إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية مع زوجها خالد بن سعيد بن

(١) المصدر السابق ٤ / ٩٦.

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٩٦.

العاص بن أمية فولدت له هناك سعيد بن خالد ، وأمة بنت خالد) [1] . ويقال: إن اسمها أمنية كما أوردها ابن إسحاق فى السيرة .

عبد الله بن جحش :

وهو ينتمى فى الأصل إلى بنى أسد . لكنه حالف مع إخوانه حرب بن أمية فهو حليف بنى أمية وهو قرشى بالحلف ، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ . وهو من أمراء رسول الله ﷺ . يقول عنه ابن سعد :

(عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر . . .بن أسد بن خُزيمة،ويكنى أبا محمد ، وأمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى .

قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرنا محمد بن صالح عن يزيد بن رومان قال : أسلم عبد الله وعبيد الله وأبو أحمد بن جحش قبل دخول رسول الله ﷺ ، دار الأرقم) [2] .

ولقد رشحه رسول الله ﷺ للقيادة لمواصفات ذاتية يحملها كما يروى لنا سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه فى حديث طويل :

(. . . فقام غضبان محمر الوجه فقال : « أذهبتم من عندى جميعاً وجئتم متفرقين؟ إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة ؛ لأبعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش » . فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدى .فكان أول أمير أمّر فى الإسلام) [3] . وهو أول من فاز بلقب أمير المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ، فعن أبى معشر المدنى ، قال :فى هذه السرية تسمى عبد الله بن جحش أمير المؤمنين)[4].

أبو حذيفة بن عتبة :

ولم يكن إسلام أبى حذيفة بن عتبة رضي الله عنه بأقل أثراً ولا خطراً من إسلام خالد بن سعيد . فهو ابن سيد بنى عبد شمس عتبة بن ربيعة .

يقول عنه الذهبى : (السيد الكبير الشهيد أبو حذيفة ابن شيخ الجاهلية عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب القرشى العبشمى البدرى . أحد السابقين واسمه مهشم فيما قيل ، أسلم قبل دخولهم دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة مرتين .

---

(١) المصدر السابق ٨/ ٢٨٦ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٨٩.
(٣) مسند الإمام أحمد ١ / ١٧٨ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٩٠ .

وعن أبى الزناد أن أبا حذيفة بن عتبة دعا يوم بدر أباه إلى البراز فقالت أخته أم معاوية هند بنت عتبة :

الأحول الأثعلُ المذمـوم طائـره   أبو حذيفة شـر الناس فى الديـن
أما شكرت أباً رباك فـى صغـر   حتـى شببـت شباباً غير محجون

وكان أبو حذيفة طويلاً حسن الوجه مرادف الأسنان (وهو الأثعل) .

استشهد أبو حذيفة رضي الله عنه يوم اليمامة سنة اثنتى عشرة هو ومولاه سالم)[١] .

أما سيادة عتبة أبيه فلا ينازع فيها أحد . فهو الذى أنهى حرب الفجار بين كنانة وهوازن ،(وكان آخر أيام الفجار أن هوازن وكنانة تواعدوا للعام القابل بعكاظ فجاؤوا للموعد . وكان حرب بن أمية رئيس قريش وكنانة . وكان عتبة بن ربيعة يتيماً فى حجره فضربه حرب وأشفق من خروجه معه ، فخرج عتبة بن ربيعة بغير إذنه فلم يشعر إلا وهو على بعيره بين الصفين : ينادى : يا معشر مضر ، علام تفانون ؟ فقالت له هوازن: ما تدعو إليه ؟ قال : الصلح ، على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتعفوا عن دمائنا . قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : ندفع إليكم رُهنا منا .قالوا :ومن لنا بهذا ، قال : أنا . فقالوا : ومن أنت : قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . فرضوا ورضت كنانة ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام . فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرُهُن فى أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم وانقضت حرب الفجار .

وكان يقال : لم يسد فى قريش مُملق ـ يعنى فقيراً ـ غير عتبة بن ربيعة وأبى طالب. فإنهما سادا بغير مال)[٢] .

ولئن نجح عتبة بن ربيعة فى إيقاف حرب الفجار فى الجاهلية وهو الشاب الفتى ، فقد عجز عن ذلك فى بدر فى إيقاف حرب بدر بين قريش ورسول الله ﷺ حين وقف الموقف نفسه وبيّن :

(فلما سمع حكيم بن حِزام ذلك مشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحلف أمر حليفك عمرو ابن الحضرمى ؛ قال : قد فعلت ، أنت على بذلك . . . ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ١٦٦ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢ / ٢٠٦ .

يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته .

فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب . فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

قال حكيم: فانطلقت إلى أبى جهل فوجدته قد نثل[1] درعاً له من جرابها فهو يهنئها [2] ، فقلت له : يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وبكذا للذى قال. فقال: انتفخ والله سحْرُه[3] حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه ، وقد تخوَّفكم عليه . ثم بعث إلى عامر بن الحضرمى فقال :هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خُفرتك[4] ومقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ثم صرخ : واعمراه واعمراه ، فحميت الحرب ، وحقب [5] الناس واستوسقوا [6] على ما هم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة)[7] .

لقد فشل عتبة فى إيقاف الحرب . وقال عنه عليه الصلاة والسلام حين دعاهم إلى ذلك :

(وقد قال رسول الله ﷺ وقد رأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر: « إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر،إن يطيعوه يرشدوا »[8].

ولم يكن عند أحد من القوم خير . فقد استُفز وتحركت عصبيته . وكان أول المبارزين ، وأول القتلى بعد ذلك ، ولم يطيعوه يوم دعاهم إلى الرجوع فهلكوا . ولكن الذى يهمنا من سليل الزعامة: أبى حذيفة ، وقد لقى أباه يتحدى الله ورسوله يطلب المبارزة أن يكون هو الذى لبى النداء . لكن رسول الله ﷺ الذى منعه كما فى أسد الغابة .

---

(١) نثل : أخرج .
(٢) يهنئها : يطليها بعكر الزيت .
(٣) انتفخ والله سحره : كناية عن الجبن والسَحْر : الرئة .
(٤) انشد خفرتك : اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك : أى عهدهم .
(٥) حقب : اشتد .
(٦) استوسقوا : اجتمعوا .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣١٦ ، ٣١٧ .
(٨) المصدر نفسه ٢ / ٣١٤ .

(وفيه تقول هند بنت عتبة حين دعى إلى البراز يوم بدر فمنعه النبى ﷺ من ذلك):

الأحول الأثعل المشؤوم طائـره   أبو حذيفة شـر الناس فى الدين) [1]

ولنا مع أبى حذيفة رضي الله عنه فيما بعد وقفات طويلة ، إنما كان الحديث عنه هنا ؛ لنتعرف على اللبنات الأولى التى قام عليها البناء الإسلامى الشامخ فيما بعد . وكان البانى هو محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٧ / ٧١ .

العدويون والجمحيون والصاحبان

لقد كان بنو عدى وبنو جمح من الحلف المعادى لبنى عبد مناف فى الجاهلية ، والمنافس لهم . ففى حلف المطيبين:

(كان صاحب أمر بنى عبد مناف ، عبد شمس بن عبد مناف وذلك أنه كان أسن بنى عبد مناف . وكان صاحب أمر بنى عبد الدار عامرُ بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . فكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زُهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة . وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر مع بنى عبد مناف .

وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب ، وبنو عدى بن كعب مع بنى عبد الدار ، وخرجت عامر بن لؤى ، ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين) (١) .

ومن أجل ذلك كان أبو جهل زعيم بنى مخزوم يتوارث التنافس على الزعامة كابراً عن كابرٍ ضد بنى عبد مناف . وله مقولته المشهورة :

(قال:ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت :تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسىْ رهان . قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى تدرك مثل هذه . والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدِّقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه) (٢) .

وإن كان بنو عدى وبنو جمح لم يبلغوا من المجد والشرف ما بلغه بنو مخزوم. لكنهم كانوا يحملون إرث العداء لبنى عبد مناف والتنافس على الشرف معهم.

لكننا نلاحظ فى اللبنات الأولى للدعوة . أن وفرة من الخمسين الأوائل كانوا من بنى جمح وحلفائهم ومن بنى عدى وحلفائهم . لكن ما عدا ما ذكرناه منهم . فيغلب عليهم أنهم جنود مخلصون للدعوة .

وليس فيهم قيادات مشهورة . وسنعرض لهم بتعريف وافٍ يتناسب مع خطة البحث هنا من حيث التعريف الأولى بالسابقين الأولين فى الإسلام .

الجمحيون بنو الحارث الثلاثة :

كانوا إخوة ثلاثة :قذف الله تعالى فى قلوبهم الإسلام ،فانضموا إليه غير عابئين

(١ ، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٤٩ ، ٣٤٣.

بكل ما يحمله هذا الموقف من مخاطرة .

معمر بن الحارث بن معمر :

ابن صيب بن حذافة بن جمح (قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : أخبرنا محمد ابن صالح ، عن يزيد بن رومان ، قال : أسلم معمر بن الحارث قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم . قال : وآخى رسول الله ﷺ بين معمر بن الحارث ومعاذ بن عفراء . وشهد معمر بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وتوفى فى خلافة عمر بن الخطاب) (١) .

حاطب بن الحارث بن معمر :

(وكان قديم الإسلام فى مكة وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، ومعه امرأته فاطمة بنت المجلل العامرية . . وكان مع حاطب فى الهجرة إلى أرض الحبشة ابناه محمد والحارث ابنا حاطب . فمات حاطب بأرض الحبشة ، وقُدِم بامرأته وابنيه فى إحدى السفينتين سنة سبع من الهجرة وذكر ذلك كله موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وأبو معشر ومحمد بن عمر فى رواياتهم جميعاً) (٢) .

خطاب بن الحارث بن معمر :

و(كان قديم الإسلام وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ومعه امرأته فُكيهة بنت يسار الأزدى وهى أخت أبى تجراة ، ومات خطاب بأرض الحبشة فقدُم بامرأته فى إحدى السفينتين وكان لخطاب من الولد محمد) (٣) .

السائب بن عثمان :

ابن مظعون الجمحى . وأمه خولة بنت حكيم السلمية وأمها ضعيفة بنت العاص ابن أمية بن عبد شمس ، هاجر إلى الحبشة ، وكان من الرماة المذكورين ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين حارثة بن سراقة الأنصارى المقتول ببدر الذى أصاب الفردوس .

قال ابن سعد : (وشهد السائب بن عثمان بدراً فى رواية ابن إسحاق ، وأبى معشر، والواقدى ، ولم يذكره ابن عقبة . وكان هشام بن الكلبى يقول : الذى شهدها هو السائب بن مظعون أخو عثمان لأبويه .

قال ابن سعد : هذا وهم إلى أن قال : وأصابه سهم يوم اليمامة سنة اثنتى عشرة :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٠٢ .

(٢ ، ٣) المصدر نفسه ٣ / ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ومات منه) [1] .

لقد كان السائب ابن العائلة المسلمة . كذلك عثمان بن مظعون أبوه وعماه قدامة ابن مظعون وعبد الله بن مظعون . فهاتان العائلتان من بنى جمح . بنو مظعون ، وبنو الحارث انتقلتا من الجاهلية إلى الإسلام نقلة واحدة .

العـدويـون :

نعيم بن عبد الله النحام :

وهو من سادات بنى عدى . وحين نذكر إسلام عمر رضي الله عنه نذكر أنه هو الذى صرفه عن قتل رسول الله ﷺ بقوله له : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض ، وقد قتلت محمداً ؟

قال عمر : والله ما أراك إلا قد صبوت .

يقول نعيم : أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى؟ قال ختنُك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما . فرجع عمر عامداً إلى ختنه وأخته . . . [2] .

ولنعد إلى ترجمة هذا السيد العظيم كما هى عند ابن حجر فى الإصابة :

ونعيم بن عبد الله بن أسد بن . . . . . عدى بن كعب القرشى العدوى المعروف بالنحام. قيل له ذلك؛ لأن النبى ﷺ قال لـه « دخلت الجنـة فسمعت نحمـة [3] مـن نعيـم » .

وأخرج ابن قتيبة فى الغريب من طريق عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال : خرجنا فى سرية زيد بن حارثة التى أصاب فيها بنى فزارة ،فأتينا القوم خلوفاً . فقاتل نعيم بن النحام العدوى قتالاً شديداً . . . وقال مصعب الزبيرى : كان إسلامه قبل عمر ولكنه لم يهاجر إلا قبيل فتح مكة ؛ وذلك لأنه كان ينفق على أرامل بنى عدى وأيتامهم. فلما أراد أن يهاجر قال له قومه : أقم ودِن بأى دين شئت . وكان بيت بنى عدى بيته فى الجاهلية حتى تحول فى الإسلام لعمر فى بنى رزاح .

وقال الزبير : ذكروا أنه لما قدم المدينة قال له النبى ﷺ :« يا نُعيم إن قومك كانوا خيراً لك من قومى ». قال : بل قومك خير يا رسول الله . قال : « إن قومى أخرجونى وإن قومك أقروك » فقال نعيم : يا رسول الله ، إن قومك أخرجوك إلى

---

(1) سير أعلام النبلاء ١ / ١٦٤ .

(2) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٢٤ .

(3) النحمة : هى السعلة التى تكون فى آخر النحنحة الممدود آخرها .

الهجرة وإن قومى حبسونى عنها .

وقال الواقدى : حدثنى يعقوب بن عمرو عن نافع العدوى عن أبى بكر بن أبى الجهم قال : أسلم نعيم بعد عشرة وكان يكتم إسلامه . وقال ابن أبى خيثمة أسلم بعد ثمانية وثلاثين إنساناً (١).

وأخرج أحمد من طريق محمد بن يحيى بن حبان عن نعيم بن النحام قال: نودى بالصبح وأنا فى مرط امرأتى فى يوم بارد فقلت : ليت المنادى قال : من قعد فلا حرج، فإذا هو يقولها .

وذكر موسى بن عُقبة فى المغازى عن الزهرى ، أن نعيماً استشهد بأجنادين فى خلافة عمر وكذا قال ابن إسحاق (٢) .

واقد بن عبد الله اليربوعى ـ حليف :

فهو فى الأصل من بنى تميم أعز القبائل العربية . لكنه جاء إلى مكة وحالف بنى عدى فهو قرشى فى الحلف . . .ويحمل تاريخه أنه أول من قتل قتيلاً فى الإسلام. وترجمته :

(واقد بن عبد الله بن عبد مناة بن . . . يربوع بن . . . تميم . وكان حليفاً للخطاب ابن نُفيل قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى محمد بن صالح ، عن يزيد بن رومان قال : أسلم واقد بن عبد الله التميمى قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها . . . ولما هاجر من مكة إلى المدينة نزل على رفاعة بن عبد المنذر . قالوا : آخى رسول الله ﷺ بين واقد بن عبد الله التميمى وبشر بن البراء بن معرور .

وشهد واقد بن عبد الله مع عبد الله بن جحش سريته إلى نخلة وقتل يومئذ عمرو ابن الحضرمى فقالت يهود : عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله ، عمرو عمرت الحرب ، والحضرمى حضرت الحرب ، وواقد وقدت الحرب .

قال محمد بن عمر : وتفاءلوا بذلك فكان كل ذلك من الله على يهود . وشهد واقد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفى فى أول خلافة عمر ابن الخطاب وليس له عقب) (٣) .

---

(١) وهو الأصح على الغالب إذا أضيفت النسوة إلى الرجال الذين سبقوا للإسلام كما رتبهم الذهبى ـ رحمه الله ـ فى السيرة .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣ / ٥ / ٢٤٨ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٣٩٠ .

(وقال أبو عبيدة : كانت بنو يربوع تفتخر بأن منهم أول من قتل قتيلاً بالإسلام بين المشركين وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب :

سقينا من ابن الحضرمى رماحنا   بنخلة لما أوقد الحرب واقد) (١)

ولم يكن هذا الحدث فى المدينة عابراً ، بل كان حاسماً. وأصبح واقد من الأعلام الذين ترنو لهم الأنظار . فهو الذى أراق أول دم مشرك. حتى إن عبد الله بن عمر رضي الله عنه حرص على تسمية أولاده باسم الجيل الرائد الذى سبقه فى الجهاد والتضحية. فاختار اسم واقد لأحد أبنائه تيمناً واقتداء بواقد بن عبد الله العدوى بالحلف والولاء .

(قال عبد العزيز بن المختار عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال لى ابن عمر :

سميت ابنى سالماً بسالم مولى أبى حذيفة ، وسميت ابنى واقداً بواقد بن عبد الله اليربوعى . وقال ابن أبى حاتم عن أبيه: مات واقد هذا فى أول خلافة عمر) (٢).

بنو البكير الأربعة :

(عاقل بن أبى البكير :

هو ابن عبد ياليل بن . . . ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . وكان اسم عاقل غافلاً فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عاقلاً . وكان أبو البكير بن عبد ياليل حالف فى الجاهلية نُفيل بن عبد العزى جَد عمر بن الخطاب فهو وولده حلفاء بنى نُفيل . وكان أبو معشر ومحمد بن عمر يقولان: ابن أبى البكير ، وكان موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وهشام بن الكلبى يقولون : ابن البكير. قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرنا محمد بن صالح عن يزيد بن رومان قال : أسلم عاقل وعامر وإياس وخالد بنو أبى البكير بن عبد ياليل جميعاً فى دار الأرقم وهم أول من بايع رسول الله ﷺ فيها .

قال: وأخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى عبد الجبار بن عمارة عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : خرج عاقل وخالد وعامر وإياس بنو أبى البكير من مكة إلى المدينة للهجرة فأوعب رجالهم ونساؤهم فلم يبق فى دورهم أحد حتى غلّقت أبوابهم فنزلوا على رفاعة بن عبد المنذر، قالوا : وآخى رسول الله ﷺ بين عاقل ابن أبى البكير وبين مبشر بن عبد المنذر وقتلا جميعاً ببدر . . . وقتل عاقل بن أبى البكير يوم بدر شهيداً وهو ابن أربع وثلاثين سنة ، قتله مالك بن زهير الجشمى أخو أبى أسامة .

(١ ، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣ / ٨ / ٣١٢ .

خالد بن أبى البكير :

ابن عبد ياليل بن . . . ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . آخى رسول الله ﷺ بين خالد بن أبى البكير وبين زيد بن الدثنة، وشهد خالد بن أبى البكير بدراً وأحداً وقُتل يوم الرجيع شهيداً فى صفر سنة أربع من الهجرة ، وكان يوم قتل ابن أربع وثلاثين سنة وله يقول حسان بن ثابت :

ألا ليتنى فيها شهدت ابن طارق ... وزيداً وما تغنى الأمانى ومرثدا

فدافعتُ عن حبى خبيب وعاصم ... وكان شفاء لو تداركت خالدا

إياس بن أبى البكير :

ابن عبد ياليل بن . . . ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . آخى رسول الله ﷺ بين إياس بن أبى البكير والحارث بن خزمة، وشهد إياس بن أبى البكير بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

عامر بن أبى البكير :

ابن عبد ياليل بن . . . ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . آخى رسول الله ﷺ بين عامر ابن أبى البكير وثابت بن قيس بن شماس ، وشهد عامر بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ) [(١)] .

الصاحبان : عمار بن ياسر وصهيب بن سنان :

أما كيف تصاحبا فلصحبتهما قصة :

(ومن السابقين للإسلام صهيب . كان أبوه عاملاً لكسرى ، أغارت الروم عليهم فسبت صهيباً وهو غلام صغير ، فنشأ فى الروم حتى كبر ، ثم ابتاعه جماعة من العرب، وجاؤوا به إلى سوق عكاظ . فابتاعه منهم بعض أهل مكة أى وهو عبد الله بن جدعان . فلما بُعث رسول الله ﷺ مرَّ صهيب على دار رسول الله ﷺ . فرأى عمار ابن ياسر فقال له عمار بن ياسر : أين تريد ياصهيب ؟ قال : أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه . قال عمار : وأنا أريد ذلك . فدخلا على رسول الله ﷺ، فأمرهما بالجلوس ، فجلسا وعرض عليهما الإسلام وتلا عليهما ما حفظ من القرآن ، فتشهدا ثم مكثا عنده يومهما ذلك ، حتى أمسيا فخرجا مستخفيين فدخل عمار ابن ياسر على أمه وأبيه ، فسألاه: أين كان ؟ فأخبرهما بإسلامه ، وعرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما ما حفظ من القرآن فى يومه ذلك . فأعجبهما ،فأسلما على يده. فكان رسول الله ﷺ يسميه الطيب المطيب)[(٢)] .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٣٨٨ .

(٢) السيرة الحلبية ١ / ٤٥٥ . وهى فى الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٢٢٧ عن محمد بن عمر ،عن عبد الله بن أبى عبيدة عن أبيه ، عن عمار بن ياسر .

ولأن عماراً وصهيباً من الأعلام . فسنعرض لما ورد فيهما عن رسول الله ﷺ . ونرى دورهما فيما بعد فى عملية البناء الإسلامية الضخمة .

صهيب بن سنان :

هو ابن مالك بن عبد عمرو بن . . . النمر بن قاسط بن. . . . ربيعة بن نزار وكان أبوه سنان بن مالك أو عمه عاملاً لكسرى على الأبلَّة وكانت منازلهم بأرض الموصل،ويقال: كانوا فى قرية على شط الفرات مما يلى الجزيرة والموصل . فأغارت الروم على تلك الناحية فسبت صهيباً وهو غلام صغير . فقال عمه : أَنْشُدُ الله الغلام النمرى دجً وأهلى بالثنى . قال : والثنى اسم القرية التى كان أهله بها . فنشأ صهيب بالروم فصار ألكن فابتاعته كلب منهم ، ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان . وبعث النبى ﷺ لما أراد الله به من الكرامة ومنَّ به عليه من الإسلام . وأما أهل صهيب وولده فيقولون : بل هرب من الروم حين بلغ وعقل، فقدم مكة فحالف عبد الله بن جدعان وأقام معه إلى أن هلك ، وكان صهيب رجلاً أحمر شديد الحمرة ليس بالطويل ولا بالقصير ، وهو إلى القصر أقرب ، وكان كثير شعر الرأس ، وكان يخضب بالحناء [1] .

(ولما بعث رسول الله ﷺ ، كان من السابقين للإسلام ، قال الواقدى : أسلم صهيب وعمار فى يوم واحد وكان إسلامهما بعد بضعة وثلاثين رجلاً . وكان من المستضعفين بمكة الذين عُذِّبوا . . .) [2] .

وكان فى لسانه عجمة شديدة. وروى زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : (خرجت مع عمر حتى دخل على صهيب حائطاً بالعالية ، فلما رآه صهيب قال : ينَّاس ينّاس . فقال عمر : ما له لا أبا له يدعو الناس ؟ فقلت : إنما يدعو غلاماً له اسمه يُحنس وإنما قال ذلك لعقدة فى لسانه . فقال له عمر :

ما فيك شىء أعيبه يا صهيب إلا ثلاث خصال لولاهن ما قدمت عليك أحداً : أراك تنتسب عربيا ولسانك أعجمى، وتكتنى بأبى يحيى اسم نبى ، وتبذر مالك ، فقال :

أما تبذيرى فى مالى فما أنفقه إلا بحقه .

وأما اكتنائى بأبى يحيى، فإن رسول الله ﷺ كنَّانى بأبى يحيى فلن أتركها .

وأما انتمائى إلى العرب فإن الروم سبتنى صغيراً فأخذت لسانهم . وأنا رجل من النمر بن قاسط ، ولو انفلقت عنى روثة لانتميت إليها) [3] .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٢٢٦ .
(٢) أسد الغابة لابن الأثير الجزرى ٢ / ٣٧ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٠ .

وأى تربية أعظم من هذه التربية التى يقول فيها صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « ولو انفلقت عنى روثة لانتميت إليها ».

وذلك فى مجتمع كان يرى أكبر الشرف فى النسب ، فجاء الإسلام ليجعل التفاضل بالتقوى ، فلا يجد سيد من سادات المسلمين حرجاً أن ينتسب إلى روثة لو جاء منها .

(وروى الحميدى والطبرانى من حديث صهيب من طريق الستة عنه قال :

لم يشهد رسول الله ﷺ مشهداً قط إلا كنت حاضره ،ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرها ،ولم يسر سرية قط إلا كنت حاضرها ،ولا غزا غزاة قط إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله ، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم ، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم ، وما جعلت رسول الله ﷺ بينى وبين العدو قط حتى توفى)(١) .

ومن أجل هذه الفدائية الخالدة : استحق أن يكون أحد السباقين الأربعة فى الإسلام .

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « السباق أربعة : أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق فارس ، وبلال سابق الحبشة »(٢) .

ويقول الذهبى : وجاء هذا بإسناد جيد من حديث أبى أمامة ، وجاء من حديث أنس وأم هانئ(٣) .

قال الواقدى : مات صهيب بالمدينة فى شوال سنة ثمان وثلاثين عن سبعين سنة ، وكذلك قال المدائنى وغيره فى وفاته .

واختصه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بين المسلمين جميعاً ليصلى بالناس عقب وفاته . حتى ينتهى الستة من اختيار الخليفة .

روى سالم عن أبيه أن عمر قال: إن حدث بى حدثٌ فليصل بالناس صهيب ثلاثاً . ثم اجمعوا أمركم فى اليوم الثالث(٤) .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢ / ٣ / ٢٥٥ .

(٢) أورد الحديث ابن الأثير فى أسد الغابة بسنده عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٣ / ٣٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٢٠ ، وقال المحقق عنه : أما حديث أبى أمامة فأخرجه الطبرانى ، وحسن إسناده الهيثمى ٩/٣٠٨ . وأما حديث أنس فرواه الطبرانى أيضاً وقال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح غير عمارة بن زاذان وهو ثقة وفيه خلاف . وأما حديث أم هانئ فرواه الطبرانى ـ كما قال الهيثمى ـ ٩/٣٠٨: وفيه فائد العطار وهو متروك .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٢٦ .

عمار بن ياسر :

ابن عامر بن مالك بـن . . . يام بن عنس (زيد) بن مالك بن أُدُد . وبنو مالك ابن أُدُد من مذحج .

(الإمام الكبير أبو اليقظان ،العنسى ، المكى ، مولى بنى مخزوم أحد السابقين الأولين والأعيان البدريين ، وأمه سمية مولاة بنى مخزوم من كبار الصحابيات أيضاً) .

قال ابن سعد : قدم والد عمار بن ياسر بن عامر وأخواه الحارث ومالك من اليمن إلى مكة يطلبون أخاً لهم فرجع أخواه ، وأقام ياسر ، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . فزوجه أمةً له اسمها سُميَّة بنت خياط فولدت له عماراً ، فأعتقه أبوحذيفة ، ثم مات أبوحذيفة . فلما جاء الله بالإسلام ، أسلم عمار وأبواه وأخوه عبد الله .

ويروى عن عمار قال : كنت ترباً لرسول الله ﷺ لسِنِّه .

وعن الواقدى عن عبد الله بن أبى عبيدة عن لؤلؤة مولاة أم الحكم بنت عمار أنها وصفت لهم عماراً : آدم طوالاً مضطرباً ، أشهل العينين ، بعيد ما بين المنكبين لا يغير شيبه .

وعن كليب بن منفعة عن أبيه قال : رأيت عماراً بالكناسة: أسود جعداً وهو يقرأ ، رواه الحاكم فى المستدرك) [1] .

هذا هو الوصف الجسدى والمظهر الخارجى لعمار رضي الله عنه أما وصفه الحقيقى وعظمته الخالدة . فنـدع ذلك لرسول الله ﷺ . وهو يقدمـه لنا معلماً من معالم الإسلام العظيمـة .

١ـ فإذا كان تفاضل الناس بالإيمان والتقوى ، فلعمار منه أوفر النصيب .

فعن هانئ بن هانئ قال : كنا جلوساً عند على فدخل عمار فقال : مرحباً بالطيب المطيب ،سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن عمارًا ملئ إيماناً إلى مشاشه »[2])[3].

٢ـ ولأنه ملئ بالإيمان ، فقد ملئ بالهدى . فهو الذى يهتدى الناس به فى الظلمات : فعن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً : « اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر . واهتدوا بهدى عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد »[4] .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٤٠٦ – ٤٠٨ مقتطفات .

(٢) المشاش : رأس العظم الممكن المضغ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٤١٣، وقال المحقق فيه : ذكره الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٩٨،وقال :رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

(٤) المصدر نفسه ١ / ٤١٤ ،وقال المحقق فيه :حديث حسن وهو فى المسند، وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبى .

٣ـ وإذا كان هو معلم الهدى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلا غرابة أن الذى يواجه هذا المعلم ويحاربه إنما يصد عن سبيل الله . شعر أم لم يشعر . وقد علمنا سيف الله خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الأدب إثر خصومة بينه وبين عمار بن ياسر . ولا عجب فعمار من موالى بنى مخزوم . ولعل هذا الأثر الخفى عند خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث عهد بالإسلام ، دفعه إلى النيل من عمار ، أو الانتقاص منه . فجاء التوجيه النبوى ليجعل عمار ميزان الحق والعدل فى الإسلام ولاءً وعِداء . (فعن خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : كان بينى وبين عمار كلام فأغلظت له فشكانى إلى رسول الله ﷺ،فقال رسول الله ﷺ : « من يعاد عماراً يعاده الله ، ومن يبغض عماراً يبغضه الله » ، فخرجت فما شيء أحب إلىَّ من رضى عمار فلقيته فرضى . أخرجه أحمد والنسائى)[1] .

٤ـ وليس هذا الأمر خاصاً فى حالات الهدوء فى الأمة ، بل هو شامل كذلك حين تعصف بها الفتنة وتختلط لديها الأمور ولا يدرى الحليم موقع قدمه . فيبحث الناس عن هادٍ لهم فى هذه الظلم . وعن منقذ لهم فى هذه الفتن. فيبرز عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جديد . هو الذى يتبع عند الخلاف . وهو الذى يلجأ إليه عند التشاجر .

فعن سالم بن أبى الجعد ، جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : إن الله أمننا من أن يظلمنا ولم يُؤمنا من أن يفتننا . أرأيت إن أدركت فتنة ؟ قال : عليك بكتاب الله ، قال: أرأيت إن كان كلهم يدعو إلى كتاب الله ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق » إسناده منقطع[2] .

٥ـ وما ذلك لشيء إلا لأن عمار على الهدى والفطرة . فعن بلال بن يحيى أن حذيفة أُتى وهو ثقيل بالموت فقيل له : قتل عثمان فما تأمرنا ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أبو اليقظان على الفطرة ـ ثلاث مرات ـ لن يدعها حتى يموت أو يلبسه الهرم »[3] .

٦ـ وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولسلامة فطرته ،لا يختار إلا الأحسن والأرشد. فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:سمعت النبى ﷺ يقول: « ما خير ابن سمية بين أمرين إلا اختار أيسرهما »[4]. رواه الثورى وغيره، وبعضهم رواه عن الذهبى عن سالم عن على بن

(١) المصدر نفسه ١ / ٤١٥ ، وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد والحاكم ، وذكره الهيثمى فى المجمع٩/ ٢٩٦ وقال: رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٤١٦ ، وقال المحقق فيه : رجاله ثقات . لكنه منقطع .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٤١٧ ، وقال المحقق فيه : أخرجه ابن سعد وذكره الهيثمى فى المجمع ٩ /٢٩٨ وقال : رواه البزار والطبرانى فى الأوسط باختصار ورجالهما ثقات .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٤١٦ ،وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

علقمة عن ابن مسعود .

(عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبى ثابت عن عطاء بن يسار عن عائشة: سمعت النبى ﷺ يقول : « عمار ما عرض عليه أمران إلا اختار الأرشد منهما»)(١) .

رواه عبد الله بن حبيب بن أبى ثابت عن أبيه، قالت عائشة :

وقد كان عمار ينكر على عثمان أموراً لو كفّ عنها لأحسن. فرضى الله عنهما(٢).

٧ـ وإذا كان عمار رضي الله عنه على هذا الهدى فلا شك أن قتله بغى واعتداء عليه :

فعن ابن سعيد قال : أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المسجد ، فجعلنا ننقل لبنة لبنة وعمار ينقل لبنتين لبنتين ، فترب رأسه ، فحدثنى أصحابى ولم أسمعه من رسول الله ﷺ أنه جعل ينفض رأسه ويقول : « ويحك يابن سمية تقتلك الفئة الباغية » (٣). وفى الباب عن عدة من الصحابة فهو متواتر(٤) .

٨ ـ وقاتله يحمل الإثم كله (قيل :قتل عمار، وأخبر عمرو بن العاص فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن قاتله وسالبه فى النار ») (٥) .

٩ـ وإذا كان قاتله وسالبه فى النار فأين هو ؟ إنه فرد من ثلاثة تشتاق الجنان لهم . كما يشتاقون لها ، (فعن أنس مرفوعاً قال : « ثلاثة تشتاق إليهم الجنة: على ، وسلمان، وعمار ») (٦) ، وفى رواية بلال: ومن أجل هذا كان يقول وهو يودع دنياه : أزفت الجنان، وزوجت الحور العين ، اليوم نلقى حبيبنا محمداً ﷺ(٧) ـ فرضى الله عنه وأرضاه .

(١ ، ٢) المصدر السابق ١ / ٤١٦ مثل سابقه .

(٣) المصدر السابق ١ / ٤١٩ أخرجه مسلم (٢٩١٥) .

(٤) المصدر السابق ١ / ٤٢١ .

(٥) سير أعلام النبلاء ١ / ٤٢٥ وقال المحقق فيه : أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات .

(٦) المصدر نفسه ١ / ٤١٣ ،وقال المحقق فيه : أخرجه الترمذى ،وقال عنه :« حديث حسن غريب».

(٧) المصدر نفسه ١ / ٤٢٥ .

الأخـــوان

أبو ذر الغفارى ـ عمرو بن عبسة

هكذا تشير بعض الروايات إلى أنهما أخوان لأم واحدة ، وقد صدرا عن فكر واحد ، يقول ابن حجر الحافظ فى ترجمة عمرو بن عبسة :(ويقال : إنه كان أخاً لأبى ذر لأمه قاله خليفة ، قال: واسمها رملة بنت الوقيعة) (١) .

فمن هما هذان الأخوان ؟ وكيف انضما إلى هذا الدين الجديد ؟

عمرو بن عبسة :

ابن خالد بن عامر بن غاضرة . . . بن سُليم . . . السلمى أبو نجيح ويقال: أبو شعيب . ومضارب سُليم بعيدة عن مكة . فليس لها جوار معها ، لكن عمرو رضي الله عنه كان أكبر من بيئته وأكبر من قبيلته وأكبر من بلده وأمته . فهو يمثل طائفة قليلة فى العرب دُعيت بالحنفاء الذين رفضوا عبادة الأوثان ابتداء . وبرز منهم فى مكة أربعة هم: زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث . الذين اجتمعوا فقال بعضهم لبعض :

(تعلموا والله ما قومكم على شىء! لقد أخطؤوا دين إبراهيم ! ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شىء .

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية ـ دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب ، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيا . . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده ـ وأما زيد بن عمرو فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانـية وفـارق ديـن قومـه فاعتزل الأوثان والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموؤودة وقال: أعبد رب إبراهيم وبادى قومه بعيب ما هم عليه) (٢) .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ بن حجر العسقلانى ٣ / ٥ / ٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤.

لقد كان عمرو بن عبسة السلمى رضي الله عنه من مدرسة زيد بن عمرو بن نفيل العدوى. قد نفرت فطرته من الأوثان والأصنام . ولندع له رضي الله عنه يحدثنا عن هذا الفصام النكد بينه وبين الجاهلية ،قال :(رغبت عن آلهة قومى فى الجاهلية وذلك أنها باطل ، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب من أهل تيماء فقلت : إنى امرؤ ممن يعبد الحجارة ، فينزل الحى ليس معهم إله . فخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار فينصب ثلاثة لقدره ، ويجعل أحسنها إلهاً يعبده ، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه قبل أن يرتحل فيتركه ، ويأخذ غيره إذا نزل منزلاً سواه . فرأيت أنه إلهٌ باطل لا ينفع ولا يضر فدلنى على خير من هذا ؟

فقال : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها . فإذا رأيت ذلك فاتبعه فإنه يأتى بأفضل الدين .

فلم تكن لى همة منذ قال لى ذلك إلا مكة فآتى فأسأل : هل حدث فيها حدث ؟ فيقال : لا ، ثم قدمت مرة فسألت فقالوا : حدث فيها رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها) (١) .

لقد توجه قلبه إلى مكة ينتظر منها ذلك الرجل الذى يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها إلى أن تلقى ذلك الخبر السعيد بمبعث النبى ﷺ ،فمضى يشد الرحال إلى مكة .ويحدثنا عن ذلك اللقاء العظيم بينه وبين النبى ﷺ والذى انتهى بإسلامه فيقول: (كنت وأنا فى الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة ،وأنهم ليسوا على شىء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل فى مكة يخبر أخباراً ،فقعدت على راحلتى، فقدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً ، جرآء عليه قومه ،فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة ، فقلت له : ما أنت ؟ قال : « أنا نبى » فقلت : وما نبى ؟ قال : « أرسلنى الله » فقلت : وبأى شىء أرسلك ؟ قال: « أرسلنى بصلة الرحم ،وكسر الأوثان ،وأن يوحَّد الله لا يشرك به شىء ».

قلت له : فمن معك على هذا ؟ قال : « حر وعبد » قال : ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت : إنى متبعك قال : « إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ألا ترى حالى وحال الناس ؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بى قد ظهرتُ فائتنى » .

قال : فذهبت إلى أهلى) (٢) .

فلم تكن مكة تحتمل وجود رجل من غير قريش إلا أن يكون حليفا أو عبداً أو مولى. وخاصة إذا اتبع الإسلام. وكان عاجزاً عن أن يؤدى أى دور فى مكة. فلذلك

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢١٧ .

(٢) مسلم ح ٨٣٢ ج ١ ص ٥٦٩ باب إسلام عمرو بن عبسة .

توجه الأمر النبوى له بالعودة إلى أهله . حتى إذا سمع بظهور النبى ﷺ قدم عليه . ولا تحدثنا الروايات عن دوره فى أهله ، لكن أخاه أبا ذر من غفار . ومضاربها قريبة من مضارب سليم . كان لها شأن آخر . وكان أحد معالم الإسلام العظيم فيما بعد ، وإن كان مضى على النهج نفسه الذى مضى عليه عمرو من حيث عودته لأهله ، وكانت دوافعه وبواعثه إلى الإسلام لا تختلف عن دوافع عمرو رضي الله عنه وقصة إسلامه تعطينا إضاءات كثيرة توضح جوانب شخصيته نستعرضها كما وردت فى الصحيحين البخارى ومسلم ؛ لتتضح لنا ظاهرة أبى ذر وعمرو بن عبسة فى مراحل الدعوة الأولى وفى فجر انبعاثها من مكة :

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال :

(لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبى ﷺ قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ثم ائتنى . فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبى ذر فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر فقال : ما شفيتنى مما أردت ،فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة . فأتى المسجد فالتمس النبى ﷺ ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل ، فرآه علىٌّ فعرف أنه غريب . فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى أصبح ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه النبى ﷺ حتى أمسى فعاد إلى مضجعه فمر به علىٌّ فقال : أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى إذا كان يوم الثالث فعاد على مثل ذلك فأقام ثم قال : ألا تحدثنى ما الذى أقدمك ؟ قال : إن أعطيتنى عهداً وميثاقاً لترشدنى فعلت . ففعل فأخبره . قال : إنه حق وهو رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعنى ، فإنى إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء فإن مضيتُ فاتبعنى حتى تدخل مدخلى . ففعل .

فانطلق يقفوه حتى دخل على النبى ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبى ﷺ : « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى » .

قال : والذى نفسى بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم .

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ،وأن محمداً رسول الله ، ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه . وأتى العباس فأكبَّ عليه ، قال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنها طريق تجارتكم إلى الشام . فأنقذه منهم ، ثم

عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكب العباس عليه) [1].

ورواية مسلم تعطى إضاءات أكثر توضّح هذه الشخصية الفذّة .

فعن عبد الله بن الصامت قال :

خرجنا من قومنا غفار. وكانوا يحلون الشهر الحرام . فخرجت أنا وأخى أنيس وأمُّنا ، فنزلنا على خالٍ لنا فأكرمنا خالنا ، وأحسن إلينا ، فحسدنا قومه فقالوا : إنك إذا خرجت عن أهلك خالف عليهم أنيس ،فجاء خالنا فنثا علينا[2] الذى قيل له. فقلت: أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ولا جماع لك فيما بعد. فقربنا صِرمتنا[3] . فاحتملنا عليها ، وتغطى خالنا ثوبه فجعل يبكى . فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة ، فنافر[4] أنيس عن صرمتنا وعن مثلها[5] فأتيا الكاهن فخير أنيساً فأتانا أنيس بصرمتنا ومثلها معها .

قال : وقد صليت يا بن أخى قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين . قلت : لمن ؟ قال : لله . قلت : فأين توجه ؟ قال : أتوجه حيث يوجهنى ربى أصلى عشاء حتى إذا كان آخر الليل ألقيت كأنى خِفاء [6] حتى تعلونى الشمس .

فقال أنيس : إن لى حاجة بمكة فاكفنى، فانطلق أنيس حتى أتى مكة فراث[7] علىَّ ثم جاء فقلت : ما صنعت ؟ قال : لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله . قلت: فما يقول الناس ؟ قال :يقولون : شاعر ، كاهن ساحر.وكان أنيس أحد الشعراء.

قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر [8] ، فما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ، والله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون .

---

(١) البخارى م٢ ج٥ ص٥٩ باب إسلام أبى ذر . (٢) نثا علينا : أشاعه وأفشاه .

(٣) صرمتنا : الصرمة هى القطعة من الإبل وتطلق على القطعة من الغنم .

(٤) نافر : قال أبو عبيد وغيره فى شرح هذا : المنافرة : المفاخرة والمحاكمة ، فيفخر كل واحد من الرجلين على الآخر ثم يتحاكمان إلى رجل ليحكم أيهما خير وأعز نفراً . وكانت هذه المفاخرة فى الشعر : أيهما أشعر.

(٥) عن صرمتنا ومثلها : معناه تراهن هو وآخر أيهما أفضل ، وكان الرهن : صرمة ذا ، وصرمة ذاك ، فأيهما كان أفضل أخذ الصرمتين ، فتحاكما إلى الكاهن ، فحكم بأن أنيساً أفضل وهو معنى قوله : فخيَّر أنيساً ، أى جعله الخيار الأفضل .

(٦) الخفاء : الكساء . (٧) فراث : أى أبطأ .

(٨) أقراء الشعر : طرقه وأنواعه .

قال : قلت : فاكفنى حتى أذهب وأنظر ، قال : فأتيت مكة ، فتضعفت[1] رجلاً منهم فقلت : أين هذا الذى تدعونه الصابئ [2] ؟ فأشار إلىّ فقال : الصابئ . فمال علىّ أهل الوادى بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيا علىّ ، فارتفعت حين ارتفعت كأنى نُصُبٌ أحمر[3] . قال : فأتيت زمزم فغسلت عنى الدماء ، وشربت من مائها ، ولقد لبثت يا بن أخى ثلاثين بين ليلة ويوم ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى [4] ، وما وجدت على كبدى سخفة جوع [5] .

قال : فبينا أهل مكة فى ليلة قمراء[6] أضحيان[7] ، إذ ضُرب على أسمختهم[8] ، فما يطوف بالبيت أحد . وامرأتين منهم تدعوان إسافاً ونائلة ، قال: فأتتا على فى طوافهما فقلت : أنكحا أحدهما الأخرى ، قال : فما تناهتا عن قولهما . قال: فأتتا علىّ ، فقلت : هَنٌ [9] مثل الخشبة غير أنى لا أكنى ، فانطلقتا تولولان وتقولان : لو كان ها هنا أحد من أنفارنا [10] . قال : فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطان ، قال : « ما لكما ؟» قالتا : الصابئ بين الكعبة وأستارها . قال : « ما قال لكما؟ » قالتا : إنه قال كلمة تملأ الفم[11] . وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر . وطاف بالبيت هو وصاحبه ثم صلى . فلما قضى صلاته .كنت أول من حياه بتحية الإسلام . قال : فقلت: السلام عليك يا رسول الله ! فقال : « وعليك رحمة الله » ثم قال: « ممن أنت ؟ » قال : قلت : من غِفار . فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته، فقلت فى نفسى : كره أنى انتميت إلى غفار فذهبت آخذ بيده . فقدعنى[12] صاحبه، وكان أعلم به منى ، ثم رفع رأسه ، ثم قال:« متى كنت ها هنا ؟ » قال: قلت : قد كنت ها هنا منذ ثلاثين بين يوم وليلة . قال : « فمن كان يطعمك ؟ » قال: قلت : ماكان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى ، وما أجد على كبدى سخفة جوع قال : « إنها مباركة ، إنها طعام طعم »[13] .

---

(١) تضعفت : نظرت إلى أضعفهم فسألته .

(٢) الصابئ : منصوب على الإغراء ، أى : انظروا وخذوا هذا الصابئ .

(٣) نصبٌ أحمر : من كثرة الدماء ،والنصب : الحجر أو الصنم .

(٤) عكن بطنى : جمع عكنة وهو الطى من البطن من السمن .

(٥) سخفة جوع : هى رقة الجوع وضعفه وهزاله . (٦) قمراء : مقمرة .

(٧) أضحيان : مضيئة منوّرة .

(٨) أسمختهم: جمع سماخ وهو الخرق فى الأذن الذى يؤدى إلى الرأس، والمراد هنا أنهم ناموا فلا يسمعون.

(٩) هُنٌ : يستعمل كناية عن الفرج والذكر . (١٠) أنفارنا : الذى ينفر عند الاستغاثة .

(١١) تملأ الفم : أى عظيمة لاشىء أقبح منها . (١٢) قدعنى : كفنى .

(١٣) طعام طعم : أى تشبع شاربها كما يشبعه الطعام .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ائذن لى فى طعامه الليلة . فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر وانطلقت معهما . ففتح أبو بكر باباً . فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف ، وكان ذلك أول طعام أكلته بها . ثم غبرت ما غبرت ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقال : « إنى وجهت إلى أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك ، عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم » فأتيت أنيساً فقال : ما صنعت ؟ قلت : صنعت أنى قد أسلمت وصدقت . قال : مابى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدّقت . فأتينا أمنَّا . فقالت : ما بى رغبة عن دينكما . فإنى قد أسلمت وصدقت . فاحتملنا حتى أتينا قومنا غِفاراً. فأسلم نصفهم وكان يؤمهم إيماء بن رحضة الغفارى وكان سيدهم وقال نصفهم : إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا .فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقى ، وجاءت أسلم فقالوا :

يا رسول الله،إخوتنا نسلم على الذى أسلموا عليه . فأسلموا .

فقال رسول الله ﷺ : « غِفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله »(1) .

وهذه جوانب تتضح لنا من خلال إسلام أبى ذر وعمرو بن عبسة ـ رضوان الله عليهما .

الحنفاء :

وهم الذين كانوا فى الجزيرة العربية يعدون على الأصابع .نفرت فطرتهم الصادقة من عبادة الأوثان والأصنام، وأبو ذر أحدهم ممن كان يتأله فى الجاهلية . وعمرو رضي الله عنه كذلك . غير أنهم لم يكن لهم خطر فى مجتمعاتهم . وهم لا يدَّعون أولاً أنهم رسل الله ، وهم ثانياً لا يدعون إلى تنظيم وتعبئة لتواجه المجتمع الجاهلى . فتأثيرهم محدود جداً ، ولن يضير العرب وجود أمثالهم .وفى صفهم اليهود والنصارى وجميع أنواع الشرك كذلك .

واختلاف مواقفهم من جهة ثالثة يهوِّن الأمر على العرب . فبعضهم يجتهد ويدخل فى يهودية أو نصرانية . وينتظر النبى المنتظر الذى قد أظل زمانه ، وبعضهم يكتفى باجتناب عبادة الأصنام ويعبد الله كما تهديه فطرته .

عودتهما إلى قومهما :

وهنا افترق الموقف من أبى ذر وعمرو ـ رضى الله عنهما ـ عن بقية المسلمين . فهما أعجز من أن يكونا دعاة فى صف قريش .ولكنهما قادران على ذلك فى قومهما ،

---

(1) مسلم ج٤ ص١٩٢٣ ، ٢٤٧٣ باب إسلام أبى ذر رضي الله عنه .

كما أنهما قد يتعرضان لمزيد من الآلام والتضحيات التى قد تصل إلى قتلهم . دون أن يكون هناك أحد قادراً على حمايتهم . فقبائلهم تبعد مئات الأميال عن مكة . ولن تخوض هذه القبائل حرباً من أجلهم ،ومن أجل تطرفهم .ومكة كذلك لا تقبل فى أرضها إلا قرشيا بالنسب أو الولاء . ولن يوالهم أحد ذو شوكة يحميهم وهم أتباع الرسول ﷺ ؛ لأنهم جميعاً عليه . والمواجهة الآن مع قريش مواجهة سلمية لا تحمل معنى القتال . فالجنود الغرباء عبء على الدعوة لا سندٌ لها فى هذه المرحلة . يقول أبو ذر : يا رسول الله ، إنى منصرف إلى أهلى وناظر متى يؤمر بالقتال فألحق بك ، فإنى أرى قومك عليك جميعاً . فقال :« أصبت » فانصرف [(١)] .

السرية والضبط :

فقد كانت مهمة الفتيان الصغار لا تسمح لهم بالظهور والمواجهة وإعلان الإسلام. والذين يعلنون إسلامهم أشخاص محددون بتوجيه نبوى محدد . أما على رضي الله عنه الذى يمثل فى هذه المرحلة الجيل الأول علَّم أبا ذر كيفية التصرف عند احتمالات الكشف للخطة .

(إنى غادٍ فاتبع أثرى فإنى إن رأيت ما أخاف عليك اعتللت كأنى أهريق الماء . فآتيك . وإن لَم أر أحداً فاتبع أثرى حتى تدخل حيث أدخل)[(٢)] .

ومضى أبو ذر رضي الله عنه بعد ذلك يحمل سمتين). كانتا تميزانه عن الأمة كلها بلغ بهما الشأو الأعلى دون غيره . أما السمة الأولى فهى :

الصدق : فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما أقلَّت الغبراء ، ولا أظلَّت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر»[(٣)] .

أما السمة الثانية فهى :

الزهد : فعن مالك بن دينار أن النبى ﷺ قال : « أيكم يلقانى على الحال الذى أفارقه عليه ؟ » فقال أبو ذر : أنا . فقال له النبى ﷺ : « ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر ! من سرَّه أن ينظر إلى زهد عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبى ذر »[(٤)] .

وحتى لا تستهلك الإمارة والمسؤولية أبا ذر،فقد وجهه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢٢٢ . (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢٢٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٥٩ ، وقال المحقق عنه : حديث قوى بشواهده أخرجه الترمذى وابن سعد والحاكم .

(٤) المصدر نفسه ٢ / ٥٩ ،وقال المحقق عنه : ورجاله ثقات إلا أنه منقطع .

الـدعــوة : فأضاف للإسلام معسكراً جديداً خارج مكة والمدينة ،هو قبيلة غِفار . وذلك ثمرة جهد دؤوب تجاوز خمسة عشر عـاماً . يقول لـه ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

« فهل أنت مبلغ عنى قومك ، عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم؟ » .

واستجاب أبو ذر رضي الله عنه لتوجيه نبيه . فماذا كانت الثمرة :

(. . . فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفاراً فأسلم نصفهم وكان يؤمهم إيماء بن رحضة الغفارى ،وكان سيدهم .وقال نصفهم : إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا. فقدم رسول الله ﷺ فأسلم نصفهم الباقى)[1] . ولم يكتف رضي الله عنه بذلك . بل امتد أثره إلى معسكر مجاور هو معسكر أسلم الذين كان بريدة بن الحصيب الأسلمى رضي الله عنه يبث دعوته فيهم فجاءت أسلم فقالت :

يا رسول الله إخواننا ، نسلم على الذى أسلموا عليه . فأسلموا .

وخلَّد أبو ذر قومه غفاراً وجيرانهم أسلم حين استحقت القبيلتان الثناء النبوى الخالد على هذين الحليفين المسلمين القويين فقال :

« غِفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله » .

هذه ثمار أبى ذر فى الدعوة، أما فى :

الإمارة : فقد صرفه رسول الله ﷺ أن يبدِّد طاقاته فيها ، لقد خُلق داعية ولم يخلق أميراً . ها هو يقص علينا تلك التربية العظيمة التى وجهت طاقاته إلى موقعها المناسب :فعن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن ابن حجيرة الأكبر، عن أبى ذر ،قال : قلت : يا رسول الله ،ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال :

« يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها »[2] .

ولِمَ كان أبو ذر ضعيفاً رضي الله عنه ؟ وما هى عناصر ضعفه ؟ أما :

الشجاعة : فلم تكن تنقصه أبداً . والشجاعة والقوة من العناصر الأولى للجندية ، ومن العناصر الأولى للقيادة . ولا أدل على شجاعته مما كان عليه فى الجاهلية :

فعن خُفاف بن إيماء قال : كان أبو ذر يصيب ، وكان شجاعاً ينفرد وحده بقطع الطريق ويغير على الصُّرَم فى عماية الصبح على ظهر فرسه أو قدميه كأنه السبُع ،

---

(١) مسلم ح ٢٤٧٣ فى فضائل الصحابة .

(٢) مسلم / ج٣ ص ١٤٥٧ ح ١٨٢٥ باب كراهية الإمارة بغير ضرورة .

فيطرق الحى ، ويأخذ ما أخذ ، ثم إن الله قذف فى قلبه الإسلام، وسمع مقالة النبى ﷺ وهو يومئذ يدعو متخفيا [١] .

وهو الذى كان يواجه الركب الكافر وحده ، ويتحداهم كما كان يغير على الصرم فى عماية الصبح .

فكان يكون بأسفل ثنية غزال فكان يعترض لعيرات قريش فيقتطعها فيقول: لا أرد إليكم منها شيئاً حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فإن فعلوا ردّ عليهم ما أخذ منهم ، وإن أبوا لم يردّ عليهم شيئاً . فكان على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ ومضى بدر وأحد ، ثم قدم فأقام بالمدينة مع النبى ﷺ[٢] .

وهل كان ينقص أبا ذر رضي الله عنه :

العـلـم : أبداً . فقد كان من خلال صحبته لرسول الله ﷺ التى تجاوزت خمس سنوات متفرغاً للعلم يتلقاه من أعلم أهل الأرض محمد عليه الصلاة والسلام ، وينهل من شرف الصحبة ، خُلقاً وإيماناً .

قال ابن جريج ورجل عن زاذان قالا : سئل علىٌّ عن أبى ذر فقال : (وعى علماً عجز فيه . وكان شحيحاً حريصاً ، شحيحاً على دينه ، حريصاً على العلم ، وكان يكثر السؤال فيعطى ويمنع ، أما أن قد ملئ له فى وعائه حتى امتلأ) فلم يدروا ما يريد بقوله: وعى علماً عجز فيه . أعجز عن كشف ما عنده من العلم؟ أم عن طلب ما طلب من العلم إلى النبى ﷺ؟! [٣] .

ويشير الحافظ الذهبى إلى أن القوة كامنة فى قوة الرأى وتحمل مسؤولية الأمة وحسن التدبير نها ، وأبو ذر رضي الله عنه ، قد فرَّغ قلبه للآخرة . وكان حادى الركب إليها .

يقول الحافظ الذهبى ـ رحمه الله ـ :

(وقد قال النبى ﷺ لأبى ذر مع قوة أبى ذر فى بدنه وشجاعته :

« يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمرَّنَّ على اثنين ولا تولين مال يتيم »[٤] .

فهذا محمول على ضعف الرأى ؛ فإنه لو وُلى مال يتيم لأنفقه كله فى سبيل الخير، ولترك اليتيم فقيراً . فقد ذكرنا أنه لا يستجيز ادخار النقدين ، والذى يتأمر على

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى ٢ / ٥٥ . (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٢٢ .
(٣) المصدر نفسه ٤/ ٢٣٢ .
(٤) أخرجه مسلم ١٨٢٦ فى الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة .

الناس يريد أن يكون فيه حلم ومداراة . وأبو ذر رضي الله عنه كانت فيه حِدة ـ كما ذكرناه ـ فنصحه النبي ﷺ) [1] .

ودفعته هذه الوصية إلى أن يكون بعيداً عن الإمرة ، مجافياً لها. فعن ابن بريدة قال: (لما قدم أبو موسى لقي أبا ذر فجعل أبو موسى يكرمه . . كان أبو موسى قصيراً خفيف اللحم، وكان أبو ذر رجلاً أسود كث الشعر فيقول أبو ذر : إليك عني ! ويقول أبوموسى : مرحباً بأخي . فيقول : لست بأخيك ! إنما أنا أخوك قبل أن تلي) [2].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢ / ٧٥ .

(٢) السير ٢ / ٧٤ .

الخمسون قبل دار الأرقم

لدى استعراضنا للخمسين الأوائل قبل دار الأرقم نلاحظ أن هذه المرحلة لا تتجاوز السنتين . ومن الصعب أن نجد فى السيرة شيئاً خاصاً عنها ، إلا ما ورد ذكره عن إسلام بعض هؤلاء الصحابة ، وما رافق هذا الإسلام من حدث .

ونستطيع أن نستخلص معالم هذه المرحلة قبل دار الأرقم بالمعالم التالية :

١ ـ الاصطفاء :

فلم تكن الدعوة فى المنتديات العامة ، وفى أسواق العرب ، ولا حتى فى الكعبة المشرفة ، إنما كانت تتم فى المجالس الخاصة ممن يُتوسم فيهم الخير ، ويتفرس الرسول ﷺ وصحبه الأوائل فى أشخاصهم الطاقات والمواهب والقدرة على السرية وكتمان الأمر .

ولقد تجلى هذا الاصطفاء فى عظمته فى اختيار النخبة الأولى على يد الصديق رضي الله عنه والتى توسم فيها الخير ، وعلى يده أسلم ستة من العشرة المبشرين بالجنة . وهم الذين كانوا مرشحين فيما بعد للخلافة العظمى ، كما أسلم غيرهم كذلك ، وهذا الاصطفاء هو أثر من أثر التربية النبوية العظيمة للصديق ، والتى رافقته منذ الأيام المبكرة من عمره ـ كما ذكرنا من قبل .

٢ ـ الانضمام :

ومثل ظاهرة الاصطفاء كانت ظاهرة الانضمام ، فالذى كان يسمع بالإسلام ،أو يبحث عن النبى المنتظر ، أو يرى رؤيا ، أو يسمع بخبر ، فيقصد مكة ليسلم ، ومن كانت فطرته تنفر من عبادة الأوثان والأصنام ، أو كان واقع عبوديته يطحنه . فيحرص على أن يتنسم نسائم الحرية من خلال مبادئ هذا الدين الجديد ، أو يرى الإنسان قد ديست على آدميته تحت مطحنة الأعراف والتقاليد الجاهلية ، فيحاول أن يحطم هذا الواقع . مثل هذه النماذج كانت تأتى لتنضم إلى الإسلام وتتعرف عليه . وهى نماذج عالية فى المجتمع مثل النماذج المصطفاة . كانت قد وقع الفصام بينها وبين الجاهلية ومبادئها وقيمها وأعرافها ، وصممت على تحديها ، فوجدت فى الإسلام المنقذ لها من الظلمات إلى النور. ولم يكن الذين انضموا إلى المجتمع الإسلامى الجديد بدافع ذاتى أقل من الذين وقع عليهم الاصطفاء بصفتها عيّنات نفيسة فى المجتمع ومؤهلة لتنضم لهذا الدين .

٣ ـ السرية :

لكنَّ كلا الظاهرتين من الاصطفاء والانضمام كانتا مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً بالسرية . بحيث يتم بحث الأمر والدخول فى الإسلام دون ضجة ـ إلا فى بعض الأحيان وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحرص على تربية هذه النماذج على هذا المفهوم منذ اللحظات الأولى للدعوة . ومن أجل هذا عندما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على علىّ وهو فى هذه السن المبكرة : (قال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتى أحدِّث أبا طالب .

وكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره فقال له : « يا على إذا لم تسلم فاكتم هذا » .

فمكث ليلته ، ثم إن الله ـ تبارك وتعالى ـ هداه للإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ فأسلم)[1] .

وتدرَّب على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على السرية بعد هذه الحادثة ، وبرز ذلك من خلال لقائه مع أبى ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى قصة إسلامه .

(ففى رواية ابن عباس ، عن أبى ذر قال : أقبلت حتى أتيت مكة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه ، وأشرب من ماء زمزم وأكون فى المسجد . واضطجعت ، قال : فمر بى على فقال : كأن الرجل غريب ؟ قلت : نعم. قال : فانطلق إلى المنزل . قال : فانطلقت معه لا يسألنى عن شىء ولا أخبره ، فلما أصبحت احتملت قربتى وزادى إلى المسجد . . . فظللت ذلك اليوم حتى أمسيت ، فعدت إلى مضجعى . فمر بى على فقال : أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟ قلت : لا . قال : انطلق معى . فذهبت معه لا أسأله عن شىء ولا يسألنى عن شىء . فلما كان اليوم الثالث فعل ذلك. فأقامه ، فذهب معه ثم قال له : ألا تحدثنى ما الذى أقدمك هذا البلد ؟ فقلت له : إن كتمت علىّ أخبرتك ـ وفى رواية ـ : إن أعطيتنى عهداً وميثاقاً لترشدنى فعلت . ففعل. فأخبرته . فقال : أما إنك قد رشدت . إنه حق وإنه رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعنى فإن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأنى أريق ماءً ، وفى رواية: قمت إلى حائط كأنى أصلح نعلى وامضِ أنت. فإن مضيت فاتبعنى حتى تدخل من مدخلى ، فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه . .)[2] .

الفتيان والشباب :

وفى نظرة فاحصة لهؤلاء الخمسين نلاحظ أن العنصر الشبابى والفتوى هو الغالب

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٤٣٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/ ٤٢٣ .

عليهم ،وهذه النماذج لم تكن تأصلت بعد فيها قيم الجاهلية،واستحكمت فى نفوسها ، ولا تزال بعيدة عن التعصب لهذه القيم ، ولديها العقليات المتفتحة الحرة التى لا تحكمها عبودية الشهرة أو السلطة أو النفوذ ، وهى بعد هذا كله الله مؤهلة لتلقى التربية الإسلامية ، القرآنية النبوية ، دون أى حواجز أو أقفال على القلوب الله وهذه النماذج كذلك تحمل فى هذا السن عنصر الثورة على الأعراف والتقاليد التى تحكم المجتمع وتسيطر عليه فهيأ الله تعالى لها سيد الخلق يصوغها الصياغة المناسبة ، ويفجر طاقاتها المبدعة، ويرعى مواهبها الفائقة .

وحين ننظر نظرة شاملة لهذه المجموعة الأولى ، نلاحظ ما يلى بعد حذف العنصر النسائى :

١٥ دون العشرين

٢١ دون الثلاثين

وهذا يعنى أن ثلثهم من الفتيان والشباب ، وأن مايزيد على النصف من الشباب علماً بأن ستة عشر منهم لم تذكر كتب التراجم شيئاً عن أعمارهم وأن بين الخمسين قرابة الخمس من النساء .

دور المرأة :

والإسلام منذ لحظاته الأولى كان للإنسان كله ذكر أو أنثى لأنه من خالق الإنسان نفسه ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يكون أول من قذف الله تعالى فى قلبه الإسلام امرأة ، وكانت إحدى سيدات النساء فى الأرض ، وكانت وزير صدق لرسول الله ﷺ ، وكانت بقية النساء أزواجاً أسلمن مع أزواجهن. ماعدا بنات رسول الله ﷺ ، وأسماء بنت أبى بكر ، ولا شىء أعسر على المرء من أن يدخل فى الدين الجديد ، وتقف زوجته عثرة فى طريقه فهى سترى له بعض التصرفات والمواقف الغريبة التى تثير انتباهها وهى ستكشف سره لو بقيت على كفرها ودينها الأول. ولا شك أن النسوة كذلك كُنَّ شابات فى مقتبل العمر مثل أزواجهن،ولم تكن المرحلة مرحلة مواقف خلال السنتين الأوليين .إنما كان التكتم والسرية هى صورتها. ولم نجد شيئاً يذكر عن أى خلل فى هذا الجانب من العنصر النسائى رغم أن المعروف هو ضعف جانب السرية عند المرأة، ونشير كذلك إلى أن بعضهن لسن قرشيات. بل ينتمين إلى قبائل عربية كريمة مجاورة .

الأحرار والموالى :

وكانت الطبقية متفشية فى المجتمع المكى . فالطبقة العليا من قريش هى طبقة

قريش البطاح ، ففى السيرة الحلبية :

(وأنزل قصى القبائل من قريش : أى فإنه جعلها اثنتى عشرة قبيلة ، كما تقدم فى نواحى مكة بطاحها وظواهرها ، ومن ثم قيل لمن سكن البطاح قريش البطاح ، ولمن سكن الظواهر قريش الظواهر . والأولى أشرف من الثانية ، ومن الأولى بنو هاشم ، وإلى ذلك يشير صاحب الأصل فى وصفه ﷺ بقوله :

من بنى هاشم بن عبد مناف　　وبنو هاشم بحار الحياء

من قريش البطاح من عرف الناس　　لهم فضلهم بغير امتراء) [1]

يقول السهيلى :

(والأدرم أيضاً : المنقوض الذقن . وكان تيم بن غالب كذلك فسمى الأدرم ، قاله الزبير . وبنو الأدرم هؤلاء هم أعراب مكة وهم من قريش الظواهر ، لا من قريش البطاح ، وكذلك بنو محارب بن فهر وبنو معيص بن عامر)[2] .

وقريش البطاح ليسوا سواءً ، فبنو كعب بن لؤى أشرف من بنى عامر بن لؤى. ولهذا كان جواب سهيل بن عمرو حين طلب رسول الله ﷺ جواره :

« إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب » .

والطبقة الثالثة طبقة المحالفين لقريش . فهم أدنى رتبة من صميم قريش ، ويوضح هذا المعنى كذلك طلب الإجارة من الأخنس بن شريق ، وهو حليف بنى زهرة وليس من صميمهم .

فأجاب رسول الله ﷺ : « أنا حليف والحليف لا يجير » .

والطبقة الرابعة فى مكة طبقة الموالى : وهم الذين أُعتقوا من العبيد أو بقى ولاؤهم لأسيادهم ، وهؤلاء ليس لهم حقوق القرشى الأصيل .

والطبقة الخامسة فى مكة هى طبقة العبيد الذين يعاملون أسوأ معاملة ، وليس لهم شىء من الحقوق وإنما عليهم كل الواجبات إلا المشاركة فى الحرب فهم معفوون من ذلك .

ولا ننسى كذلك طبقة النساء التى كانت تلاقى من العنت والتحكم والدنو ما لا يتناسب مع آدميتها . كما يقول عمر رضي الله عنه :

كنا لا نعد النساء شيئاً .

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٢٠ .

(٢) الروض الأنف للسهيلى م١/ج١/١١٩ .

هذه الطبقية فى مكة التى عاشت عليها قروناً جاء الإسلام لينسفها من جذورها .

وشكَّل هؤلاء الخمسون نواة مجتمع جديد لا مثيل له فى الأرض. أصبح يشارك فيه بالصلة المباشرة مع سيد الخلق محمد ﷺ الموالى، والأحرار ، والعبيد، والنساء . يتلقى الجميع الوحى من رسول الله ﷺ عن رب العالمين ، ويتصلون برسول رب العالمين ، ويرتفع ذكرهم ومقامهم عند الله عز وجل ، فهم أشرف أهل الأرض ، وأكرم من فى الوجود ، وارتفع شعورهم بذلك فهم يتحدون الجحاجح من قريش ، ويتحدون أشراف العرب بصلتهم بالله عز وجل ، ورأينا كيف كان بلال العبد الحبشى الأسود يواجه سيد بنى أمية ونظراءه بقوله : أحد أحد .

وإن كان هذا الأمر سيتم الحديث بشكل أوفى عنه بعد إعلان المواجهة فى المرحلة القادمة .

العقيدة الجديدة :

والذى يجمع هؤلاء الخمسين هو التوحيد ورمزه لا إله إلا الله . والتصديق برسالة محمد ﷺ ، ورمزه محمد رسول الله. ولا يكفى فى هذه العقيدة إعلان التوحيد فقط . بل لابد من نبذ الشرك والأوثان والأصنام معه . وهنا تكمن الخطورة ، فقد كان من الصعب إخفاء معالم هذا الدين . حين ترى قريش أن بعض أبنائها ومواليها وعبيدها لا يشاركونها فى عبادة الأصنام والتمسح بالأوثان ، والتعظيم لهبل وإساف ونائلة . وحين ينأون فى المناسبات والأعياد عن هذا الحضور وتقديم القرابين والشعائر المناسبة. وهذا الذى أدى إلى كثير من المتاعب لهذا الجيل الجديد. فيأتى كل فرد فيه يلتقى مع رسول الله ﷺ ويحدثه عن معاناتهس،فيكبر فيه صبره وثباته. ويسعى جاهداً عليه الصلاة والسلام لإنقاذه وحمايته ما استطاع سبيلاً إلى ذلك ، ويشحذ طاقاته ومعنوياته بحيث ترتفع عن أوهاق الأرض لترتبط بمرضاة الله ، وينزل الوحى من السماء بهذا الواقع ، فيتغلغل الإيمان فى أعماق هذا الجيل الجديد ويشعر أنه متصل مباشرة بالله سبحانه عن طريق المصطفى الحبيب عليه الصلاة والسلام . لقد كان البعد عن تأدية الشعائر والسجود للأصنام هو الخطر الذى يكشف هذا التنظيم السرى بقدر . لكن فى هاتين السنتين ـ وعلى الأرجح ـ لم يعلن أحد إسلامه ، وكل ماذكر هو من باب الظن والتخمين لا من باب اليقين .

الصلاة فى الشعاب :

وللمحافظة على السرية التامة ، ولأن الصلاة مفروضة على المسلمين ، فكان لابد من اللقاء اليومى لتأدية هذه الصلاة ، والتى تمثل الصورة الإيجابية المعاكسة لعبادة

الأوثان والأصنام ،وهى الخضوع والطاعة والامتثال لله وحده ، وكان الأمر يتم بصورة سرية متناهية وتربط هذه اللقاءات عرى هذا المجتمع الجديد ، وتلتحم فيه عناصره ، وبقى الأمر على هذه الصيغة إلى أن وقعت تلك المفاجأة كما ترويها كتب السيرة . قال ابن إسحاق :

(وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب مستخفياً من أبيه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه . فيصليان الصلاة فيها فإذا أمسيا رجعاً . فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان ، فقال لرسول الله ﷺ :

يابن أخى ، ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال : « أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم ـ أو كما قال ﷺ ـ بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه » أو كما قال .

فقال أبو طالب : أى ابن أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لعلى: أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال :

يا أبت آمنت بالله ورسوله ، وصدّقته بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته. فزعموا أنه قال له : أما إنه لم يدعُكَ إلا إلى خير فالزمه) [١] .

وهذه هى المعضلة الأولى التى واجهها قائد الدعوة عليه الصلاة والسلام ، فقد عرف بالإسلام رجلٌ من خارج هذا الدين ولم ينضم إليه.لكنه من جهة ثانية أعلن مساندته الكاملة لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ رغم بقائه على شركه.وهذه صيغة جديدة يتعامل معها هذا المجتمع الجديد.فيطّلع مشرك على بعض جوانب هذا التنظيم بعلم الرسول ﷺ .ويقع نوع من الحلف المبدئى معه فى ضبط أسراره وحمايته من المخاطر .

وبرز أثر التربية النبوية من جديد على الطفل على بن أبى طالب رضي الله عنه الذى كان قد تردّد فى بداية الأمر فى الإسلام قبل أن يعلم أباه بذلك ـ كما تربى. وها هو الآن يقف بوضوح وشمم ونصاعة رأى يقول لأبيه دون لجلجة ولا تلعثم حتى ولا اعتذار عن إخفاء الأمر عنه :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣١٣ ، ٣١٤ .

(يا أبت ،آمنت بالله وبرسول الله ،وصدَّقته بما جاء به،وصلَّيت معه لله واتبعته)، ويعرف أبو طالب مدى الحب والتفانى الذى يحمله ابنه على لابن عمه محمد ـ صلوات الله عليه ـ والذى كان أبوه بعد أبيه ،فقال له:(أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه).

المواجهة الأولى :

قال ابن إسحاق :

(وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب ، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم . فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجه ، فكان أول دم أهريق فى الإسلام) [1] .

صحيح أن التعليمات النبوية تقتضى السرية التامة،لكن الحدود لهذه السرية هى المحافظة على الصلاة فى الشعاب دون تحد سافر لتأديتها فى البيوت أو فى الكعبة،لكن وقد انكشف الأمر دون إخلال أو تفريط أو هوادة. فلا تنصل من الإسلام أو تنكر له . لقد ابتدأ الأمر حواراً بين الفريقين ، وانتهى شجاراً بعد ذلك ، وحين يقع الشجار، ولابد من الدفاع عن النفس ، فهذا الجيل الذى أصبح الإيمان فى قلبه أعظم من الرواسى . والذى أصبح يمثل جند الله فى الأرض ، لا تنقصه الشجاعة ، ولا تفوته القوة ، فكان سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه الفتى الزهرى ، هو الذى أخذ بعظم البعير وضرب به الذين تحدوهم ، فشج أحدهم ، فكان أول دم أهريق فى الإسلام .

وسعد العنيف لم يكن يحتاج إلى استجماع قوته بمقدار ما كان يحتاج إلى كبح جماحه ، وقد حانت فرصة له للدفاع عن نفسه وإخوانه فليكن دفاعاً مشرفاً .

وسعد دائماً يحتاج إلى تهدئة ، وكفكفة من اندفاعه العظيم لهذا الدين ، فها هو القرآن الكريم ينزل ليخفف من غلوائه من جهة ، ويثنى على ثباته على دينه من جهة أخرى .

يقول ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا** . . . ﴾[2] :(أى إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ،ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفاً ، أى محسناً إليهما . . . قال الطبرانى فى كتاب العشرة عن . . . سعد بن مالك قال : أنزلت فىّ هذه الآية ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا** . . ﴾ الآية ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٢٦ .

(٢) لقمان / ١٥.

قال : كنت رجلاً براً بأمي فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الذى أراك قد أحدثت ، لتدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بى فيقال : يا قاتل أمه ، فقلت : لا تفعلى يا أمه ، فإنى لا أدع دينى هذا لشىء ، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت . فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ،فأصبحت قد جهدت . فمكثت يوماً وليلة أخرى لم تأكل . فأصبحت قد اشتد جهدها . فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت دينى هذا لشىء ، فإن شئت كلى، وإن شئت لا تأكلى ، فأكلت) [١] .

ولم تذكر لنا السيرة شيئاً على أعقاب موقف المواجهة الأولى . لكنها تذكر أن دخول دار الأرقم كان عقب هذه المواجهة حيث ابتدأت المرحلة الثانية . فكانت السنة الأولى فيها امتداداً للسنتين الأوليين . وكانت السنة الثانية فى دار الأرقم وهى بداية السنة الرابعة للبعثة التى آذنت بمرحلة جديدة وهى مرحلة الجهر بالدعوة .

دار الأرقم :

(ثم دخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ـ أى بعد هذه الواقعة . فإن جماعة أسلموا قبل دخوله ﷺ دار الأرقم . . . فكان ﷺ وأصحابه يقيمون الصلاة فى دار الأرقم ـ ويعبدون الله تعالى فيها . إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين) [٢] .

فقد غدت دار الأرقم السرية مركزاً جديدا للدعوة يتجمع فيه المسلمون ، ويتلقون عن رسول الله ﷺ كل جديد من الوحى ، ويستمعون له ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يذكرهم بالله ، ويتلو عليهم القرآن ، ويضعون بين يديه كل ما فى نفوسهم وواقعهم . فيربيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على عينه . كما تربى هو على عين الله عز وجل . وأصبح هذا الجمع المؤمن هو قرة عين النبى ﷺ ، وهو رأس ماله المذخور ،ولكنه كان يطمح مع ذلك كله إلى أن ينضم لهذا الركب المؤمن قيادات مكة أو بعض أشرافها . فتتمكن الدعوة فى الأرض ، ويأتى القرآن الكريم ليقول له :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً . وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾[٣] .

المواجهة الثانية :

وإن كانت المواجهة الأولى قد تمت فى شعاب مكة ،وفى ظروف صعبة يحوطها الدفاع عن النفس ،وبدون علم رسول الله ﷺ وإذنه ، فإن المواجهة الثانية كانت بين

---

(١) تفسير ابن كثير ٥ / ٣٨٣ .

(٢) السيرة الحلبية ١ / ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٣) المزمل / ١٠ ، ١١ .

ظهراني الكعبة ، وبإذن رسول الله ﷺ ، ومع أشراف مكة وقياداتها . وقد مثّل هذه المواجهة أبو ذر رضي الله عنه كما يروى ابن عباس عنه :

(. . . فعرض فأسلمت مكاني فقال : « يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى قومك فأخبرهم بأمرى ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل » ، فقلت: والذى بعثك بالحق - وفى رواية: والذى نفسى بيده - لأصرخن بها بين ظهرانيهم .

فخرجت حتى آتى المسجد . وقريش فيه فناديت بأعلى صوتى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ . فثار القوم فضربت لأموت . وفى رواية: حتى أضجعونى فأدركنى العبّاس فأكبّ علىّ ثم قال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأن طريق تجارتكم عليهم: فأقلعوا عنى، فلما أصبحت الغد رجعت فقلت مثلما قلت بالأمس . فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ فصنع بى ما صُنع بالأمس ،وأدركنى العباس فأكبَّ علىّ وقال مثل مقالته بالأمس)[1] .

لقد جلجلت مكة واهتزت من هذا التحدى الذى يأتيها من غريب من خارج صفها يدعو إلى دين محمد ﷺ ،ويعلنه بين ظهرانى الكعبة . والذى أنقذه من الموت إجارة العباس له ، وخوفهم على تجارتهم أن تبور من جراء عِداء غِفار لهم .

ولا شك أن هذه المواجهة من أبى ذر رضي الله عنه كانت ذات أثر نفسى رهيب عند قيادات مكة . فمن غفار يأتى من يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ولا سلطان لهم عليه بعد أن يمضى . فالأمر ليس مثل أمر ورقة بن نوفل أو أمر زيد بن عمرو . إن الأمر أكبر من ذلك . وقد وصل شرره وناره إلى حدود يثرب وإلى غفار .

ولم يكن الظن فى غير محله . فقد دفعت قريش ثمناً باهظاً لهذا الحقد على أبى ذر ، وهذا الضرب المبرح .

(. . . فجاء إلى النبى ﷺ فقال :

يا رسول الله أمّا قريش فلا أدعهم حتى أثأر منهم، ضربونى . فخرج حتى أقام بعسفان ، وكلما أقبلت عير لقريش يحملون الطعام ، ينفر بهم على ثنية غزال فتلقى أحمالها فجمعوا الحَنَط ، قال: يقول أبو ذر لقومه : لا يمس أحد حبة حتى تقولوا: لا إله إلا الله . فيقولون: لا إله إلا الله ويأخذون الغرائر) [2] .

لقد ضُرب أبو ذر قبل إسلامه لمجرد سؤاله عن الصابئ . كما فى مسلم :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢/ ٤٢٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٢٤ .

(فاستضعفت رجلاً منهم فقلت : أين هذا الذى تدعون الصابئ ؟ فأشار إلى فقال: الصابئ، فمال على أهل الوادى بكل مَدَرَة وعظم فخررت مغشيا علىّ فارتفعت حين ارتفعت كأنى نصب أحمر ، فأتيت زمزم فشربت من مائها ، وغسلتُ عنى الدماء . . . .) [(١)] .

لقد كان إعلان الإسلام لأول مرة فى الكعبة . رغم ما لقيه أبو ذر قبل إسلامه من تهمة الدخول فى الإسلام . وكان لهذه المواجهة أثرها النفسى والمعنوى فى صفوف المشركين ، وأثرها المادى الذى انعكس على تجارتهم فيما بعد .

التشريد والتعذيب الشخصى :

وقلما نجد أحد هؤلاء الصحابة المبكرين إلا ولقى أذى لإسلامه من قبيلته أو من أهله سواءً أكان ذلك الأذى مادياً أم معنوياً . وبعضه ينتهى عند الإصرار على الإسلام وبعضه لا ينتهى إلا بالشراء كما جرى مع بلال رضي الله عنه وصحبه ، وبعضها لا ينتهى إلا بالهجرة كما جرى لخالد بن سعيد رضي الله عنه :

(فضربه أبو أحيحة بقراعة فى يده حتى كسرها على رأسه،ثم أمر به إلى الحبس ، وضيّق عليه وأجاعه وأعطشه حتى لقد مكث فى حر مكة ثلاثاً ما يذوق ماءً . فرأى خالد فرجة فخرج فتغيّب عن أبيه فى نواحى مكة حتى حضر خروج أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة فى الهجرة الثانية فلهو أول من هاجر)[(٢)] .

وهو ما لقيه سعد رضي الله عنه والزبير وعثمان والصديق. كما قلنا من قبل .

(وكان الموقف النبوى أن ترك لهم المجال للتصرف المناسب فى مواجهة المحنة ، وكونهم الأفذاذ القادة فقد رباهم عليه الصلاة والسلام على تحمل المسؤولية ، والاستعداد للمواجهة فى وقتها المناسب .

هذا الخيار الأول ، أما الخيار الثانى فهو خيار العبيد الذى حمل مسؤوليته الوزير الأول فى الأمة فاشتراهم جميعاً وأعتقهم ، حيث صاروا أحراراً لا سلطان لأحد عليهم، فلم يُمسّوا بعدها بسوء) .

---

(١) مسلم ٤/ ١٩٢٠ح٢٤٧٣، باب من فضائل أبى ذر .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٩٥ .

النماذج القيادية :

كانت وفرة القيادات فى هؤلاء الخمسين هى أعلى النسب على الإطلاق من حيث الكم ومن حيث الكيف .

فمن حيث العدد : فقد كان ما ينوف عن العشرين منهم أى أكثر من نصفهم مارسوا مسؤوليات قيادية فى عهد النبى ﷺ وبعده ، وكانوا القادة الكبار فى الأمة ، أو كانوا مؤهلين لذلك . والعشرون الآخرون معظمهم قضوا شهداء أو ماتوا على عهد رسول الله ﷺ عدا النماذج النسائية الخالدة فيهم .

هذا من حيث العدد ، أما من حيث النوع : فقد كان فى هؤلاء الخمسين أعظم شخصيات الأمة على الإطلاق . كان فيهم تسعة من العشرة المبشرين بالجنة ، وهم أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ ، ومنهم نماذج كانت من معالم الإسلام العظيمة مثل: عمار وعبد الله بن مسعود وأبى ذر وزيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وغيرهم، ومنهم السباقون الأربعة . سباقو العرب والفرس والروم والحبش ، ومنهم أعظم نساء الأمة على الإطلاق خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها :

والنماذج العالية الأخرى ، مثل أم الفضل بنت الحارث ، وأسماء ذات النطاقين، وأسماء بنت عميس ، وغيرهن .

وقد أتيح لهؤلا الخمسين من الرجال والنساء ، أن يفوزوا بأكبر قدر من التربية على يد مربى البشرية الأعظم محمد ﷺ ، فكانوا هم حداة الركب ، وهداة الأمة .

الصلة المباشرة بالقرآن وقائد الدعوة :

إن القائد فى الإسلام يحتاج إلى عنصرين أساسيين لا غنى لأحدهما عن الآخر .

أما العنصر الأول: فهو الموهبة القيادية والطاقات المذخورة .

وأما العنصر الثانى: فهو الإخلاص والتجرد .

وبالنسبة للعنصر الأول فكما قلنا من قبل: إن كل قرشى مؤهل للخلافة العظمى ابتداء،فأعظم بيئة لإنتاج المستويات العليا من القيادات هى بيئة قريش.ولكن هذه الطاقات والمواهب والإمكانات المذخورة تحتاج إلى رعاية وتدريب وتربية ؛ لتكون فى أعلى فاعليتها . وقد هيأ القدر لهذه النماذج ، إمام البشرية وسيد المربين ، وسيد ولد آدم ليكون هو المشرف على هذه التربية، والمنفذ لها.

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[1] .

---

(١) آل عمران / ١٦٤ .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(1) .

وسعد هذا الجيل بالصلة المباشرة التى تكاد تكون يومية برسول الله ﷺ . بحيث لم يحظ بهذه السعادة أحد مثله . والمرحلة المكية كلها عموماً والتى كانت ثلاثة عشر عاماً .

وكان نتاجها قرابة المائتين من السابقين الأولين من المهاجرين ، كان هؤلاء الخمسون الأوائل هم أسعد الناس حظاً . وأوفر الأمة نصيباً بهذا الفضل؛ إذ عاشوا مع رسول الله ﷺ منذ اللحظات الأولى من النبوة حتى التحق بالرفيق الأعلى فى الجنة ، وهذا ما جعل أعلى القيادات وأعظمها فيهم .

هذا وما قيل عن العنصر الأول يقال عن العنصر الثانى كذلك .

فالتجرد والإخلاص يقومان على الإيمان العظيم، وقد هيأ الله تعالى لهذه المجموعة الأولى ألا يفوتها شىء من وحى الله عز وجل ، فهى مع رسول الله ﷺ تتلقى من ربها كل يوم جديداً،وبهم تتنزل الآيات وعلى مواقفهم يهبط الوحى ،ولرفع مستوياتهم الإيمانية يتنزل القرآن ،لقد كانوا رواد البشرية وكانوا الربانيين الذين اتصلوا به سبحانه. وجاءت الأوامر من الله تعالى لنبيه أن يرعاهم ويحوطهم ويربيهم فهم أعظم ثروة عنده.

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (2).

فالكلمة يقولها المسلم،يصححها له القرآن،والتصرف يفعله المسلم،يأتى الوحى يثنى عليه أو يعاتبه فيه. إنهم الجيل الربانى حقا الذى كان يعيش مع وحى الله فى كل يوم؛ ومن أجل هذا ارتفع المد الإيمانى عندهم بحيث وصل المرتبة العليا من الإحسان: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(3).

وكان الزاد من الإيمان أعظم من كل زاد الأرض : **﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾**(4) .

ورسول الله ﷺ يزكيهم ويربيهم ، وينقيهم من أوضار الجاهلية وأوهاقها . **﴿ فَاتَّقُوا**

---

(1) آل عمران / ١٥٩ .
(2) سورة الكهف / ٢٨ .
(3) البخارى ومسلم وغيرهما ،من حديث جبريل .
(4) البقرة / ١٩٧ .

اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾[1] .

فإذا كان السعيد الذى فاز بفضل الصحبة من رأى رسول الله ﷺ ولو مرة واحدة فى حياته وآمن به ، فكيف بمن كان الرفيق اليومى له ، يتلقى منه ، ويعبق من نوره ، ويتغذى من كلامه ، ويتربى على عينه؟ !

(١) الطلاق/ ١٠ ، ١١ .

الجهـر بالدعـوة
قيادة وتربية

وكان هذا فى أوائل السنة الرابعة للبعثة على الأرجح حيث انتقلت الدعوة إلى مرحلة جديدة بالأمر الربانى . وذلك بعد أن تجاوز عدد أبنائها ما ينوف عن الأربعين من الرجال .

وكانت هذه المرحلة قد كلف بتنفيذها سيد الخلق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بشخصه .

(قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَاصْدَعْ ﴾ : فاظهر ، ﴿ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ : بالقرآن وما فيه من الأحكام، وأصل الصدع : الشقّ والبينونة، أو أصله الشق فى الشيء الصلب كالزجاج ثم استعير لغيرها : أى اكشف الحق وأبنه عن غيره ، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] : اكفف عنهم ولا تبال بهم . والكف عنهم نسخ بآية السيف .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ ﴾ : خوِّف، ﴿ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[2] ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب وقد أنذرهم جهاراً)[3].

(روى ابن سعد عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال : أمر رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاء به من عند الله . وأن يُبادى الناس بأمره ، وأن يدعو إلى الله تعالى . فدعا فى أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بظهور الدعاء)[4] .

وروى البلاذرى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : (دعا رسول الله ﷺ سرا أربع سنين)[5]. وروى أيضاً عن جعفر بن عبد الله بن أبى الحكم قال :

(لما نزلت على النبى ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾، اشتد ذلك على النبى ﷺ وضاق به ذرعاً ، فمكث شهراً أو نحوه جالساً فى بيته حتى ظنَّ عماته أنه شاكٍ، فدخلن عليه عائدات فقال : « ما اشتكيت شيئاً ، لكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، فأردت جمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى » قلن : فادعهم ولاتجعل عبد العزى فيهم ـ يعنى أبا لهب ـ فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه .

---

(١) الحجر / ٩٤ .
(٢) الشعراء / ٢١٤ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٤٣١ .
(٤) طبقات ابن سعد ١ / ١٩٩ ط . بيروت .
(٥) أنساب الأشراف ١ / ١١٦ .

وخرجن من عنده، فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث إلى بنى عبد المطلب فحضروه ومعهم عدة من بنى عبد مناف وجميعهم خمسة وأربعون رجلاً ، وسارع إليه أبو لهب وهو يظن أنه يريد أن ينزع عما يكرهون إلى ما يحبون . فلما اجتمعوا قال أبو لهب :

هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم بما تريد ودع الصلاة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وإن أحب من أخذك فحبسك أسرتك وبنو أبيك إن أقمت على أمرك، فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتمدُّها العرب ، فما رأيت يا بن أخى أحداً قط جاء بنى أبيه وقومه بشر مما جئتهم به .

فأسكت رسول الله ﷺ فلم يتكلم فى ذلك المجلس ومكث أياماً وكثُر عليه كلام أبى لهب فنزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ فأمره بإمضاء ما أمره الله به وشجَّعه عليه. فجمعهم رسول الله ﷺ ثانية فقال : « الحمد لله ، أحمده وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» ثم قال :

« إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبُن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءا ، وإنها للجنة أبداً ، أو النار أبدا ، وإنكم لأول من أُنذر ، ومثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ بأهله فخشى أن يسبقوه فجعل يهتف: يا صباحاه » .

فقال أبو طالب : ما أحبَّ إلينا معاونتك ومرافدتك ، وأقبلنا لنصحك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم ، غير أنى والله أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أنى لا أجد نفسى تطوّع إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه .

وتكلم القوم كلاماً ليناً غير أبى لهب فإنه قال :

يا بنى عبد المطلب ، هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم ،وإن منعتموه قتلتم .

وقالت صفية بنت عبد المطلب لأبى لهب : أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك وإسلامه . فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ عبد المطلب نبى ،

فهو هو. فقال : هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال ، إذا قامت بطون قريش كلها ، وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله ما نحن عندهم إلا إكلة رأس) [1] .

وروى الشيخان والبلاذرى عن ابن عباس ، والشيخان عن أبى هريرة ومسلم عن قبيصة بن المخارق ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ لما أنزل عليه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [2] ، قام على الصفا فعلا أعلاها حجراً ثم نادى: « يا صباحاه». فقالوا : من هذا ؟ وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فاجتمعوا إليه، فقال رسول الله ﷺ : « إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى » قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً .

فقال : « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار. فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يابنى عبد شمس ،أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس عم رسول الله ﷺ ، أنقذ نفسك من النار فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة محمد، ويا فاطمة بنت محمد أنقذا أنفسكما من النار فإنى لا أملك لكما من الله شيئا ، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها ، إنى نذير بين يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا ؟

فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ إلى آخرها [3].

ثم قال رسول الله ﷺ « يا بنى عبد المطلب ، إنى والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة » [4] .

وعن على قال : جمع رسول الله ﷺ من بنى عبد المطلب فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة [5] ويشرب الفرق [6] ، قال: فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقى

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ١ / ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) الشعراء / ٢١٤ .

(٣) سورة المسد .

(٤) البخارى ك التفسير (سورة المسد) ومسلم كتاب الإيمان ح ٣٥١ ج ١ ص ١٩٣، وأنساب الأشراف للبلاذرى ١ / ١١٩ ـ ١٢١ .

(٥) الجذعة : الشاة الصغيرة .

(٦) الفرق : مكيال يسع ثلاثة آصع .

الطعام كأن لم يمس ، ثم دعا بغمر[1] فشربوا حتى شبعوا وبقى الشراب كأن لم يمس ولم يشرب فقال : « يا بنى عبد المطلب إنى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس بعامة . وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى» قال : فلم يقم له أحد ،قال: فقمت إليه وكنت أصغر القوم فقال: « **اجلس** » ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : « **اجلس** » حتى إذا كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى[2] .

* * *

١ ـ جاء الأمر القرآنى : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين** ﴾[3] والأمر : ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين** ﴾[4] ، ليؤذن بالانتقال إلى مرحلة جديدة من مراحل الدعوة هى مرحلة المواجهة مع الشرك ولكنها المواجهة السلمية فلابد من إعلان الدعوة، ولابد من كف اليد ﴿ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين** ﴾ وهذا يعنى التعرض لكل صنوف الأذى والصبر عليه دون المقاومة المكافئة أو الرد المباشر إلا فيما يقتضيه الدفاع عن النفس .

وحتى يشعر هذا الجيل المسلم الجديد بالصيغة المثلى للمواجهة ، والصيغة المثلى للصبر والتحمل . كان القائد الأعظم ﷺ هو الشخص الأول الذى يقوم بالتنفيذ ، وهو الذى يتحمل كامل المسؤولية .

وإليه صدرت الأوامر بذلك دون أن تصدر إلى غيره . بأن يعلنوا هذا الموقف. ولا شىء أعظم فى التربية من التربية بالقدوة والتربية بالمثل الأعلى .

٢ ـ وياله من موقف رهيب ، أن تواجه الأمة ، ويواجه الأقربون بدين جديد ينقض كل مقدسات الأمة وينسفها . ولم يكن أمام رسول الله ﷺ بد من المواجهة فالأمر ربانى لا مناص منه . لقد كان الأمر السابق :

﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ [5] .

وحيث إن صيغة الإنذار غير محددة ، فقد كانت تتم للقلوب المفتوحة والنفوس الحية المضيئة .

وكلما انتهت حادثة إنذار بصدٍ عن سبيل الله أو لجاج فى الكفر ؛ لأن الاصطفاء

---

(١) الغمر : الماء الكثير .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦ / ٣٠٢ وقال فيه :رواه أحمد (١ / ١٥٩) ورجاله ثقات .

(٣) الشعراء / ٢١٤ .

(٤) الحجر / ٩٤ .

(٥) المدثر / ١ ـ ٧ .

دقيق والانضمام منبثق من القناعة الداخلية الخالصة . أما الأمر الجديد فلا يرتبط أبداً بنماذج أو نوعيات إنما يقتضى الإعلان العام لقريش ، والإعلان الخاص للعشيرة الأقربين. فالنفوس تنز حقداً وكراهية ونفوراً من الإسلام ودعوة التوحيد . ومهما كان التريث ، فلا خيار من التنفيذ وكانت الدعوة الأولى للأقربين .

٣ـ فقد جمعهم عليه الصلاة والسلام على مأدبة غذاء يرعاها رب العالمين حيث أكل الخمس والأربعون من رجالات بنى هاشم وبنى المطلب من أكل لا يكفى لبضعة أفراد ، وكانت معجزة شهدوها بأعينهم وحسهم وذلك عوناً لعبده ورسوله فى صدق ما ادعاه حتى ليقول أبو لهب :

لهدّ [١] ما سحركم صاحبكم .ويقول على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

والله إن كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ، ثم قال: اسق القوم ، فجئتهم بذلك العُسّ [٢] فشربوا حتى رووا جميعاً ، والله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله[٣] .

ومع هذا كله فقد أخذ أبو لهب زمام المبادرة قبل أن يتكلم النبى ﷺ ، ووجَّه الحديث كما يشتهى فقال : هؤلاء عمرمتك وبنو عمك فتكلَّم بما تريد ودع الصلاة . واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة . . إلى آخر الحديث .

وكان النبى ﷺ كما وصفه صحبه : أشد حياءً من العذراء فى خدرها ، والقوم عنده فى ضيافته . فلم يتكلم فى ذلك المجلس .

وشاءت إرادة الله تعالى أن تتكرر المعجزة وتتكرر الوليمة ويتقدم النبى ﷺ بإنذاره فى المرة الثانية .

والملاحظ أن أبا لهب لم يكن يعرض الموضوع من إطار الصدق والكذب ، فهو أقل وأذل من أن يكذِّب رسول الله ﷺ وهو أصدق أهل الأرض . وعشيرته الأقربون أخبر الناس فيه ، ولكنه يتناول الأمر من جانب خطورة الموقف والمواجهة بين بنى هاشم والعرب قاطبة لو أيدوا رسول الله ﷺ فى ذلك .

٤ـ وكان ذلك العرض الوافى من رسول الله ﷺ لمبادئ العقيدة الجديدة التى تم التركيز فيها على الوحدانية والرسالة والجزاء والحساب ،والجنة والنار .

إنها مبادئ مرفوضة برمتها فى مجتمع مكة . ولكن الأمر الربانى المحدد بإنذار

---

(١) لهد : كلمة تتعجب بها ، واللام فيه للتأكيد، والمعنى هنا لنعم ما سحركم به .

(٢) العُس : القدح الكبير .

(٣) سبل الهدى والرشاد ١ / ١٨٧ ، ٢ / ٤٣٤ .

العشيرة الأقربين . يقتضى إيضاح هذه الكليات الكبرى فى هذا الدين من الإيمان بالله وحده وبمحمد رسول الله وباليوم الآخر، وبرز من خلال العرض مدى حب النبى ﷺ لقومه ، وحرصه على هدايتهم ، وحدبه عليهم ، حتى كأنه النذير العريان .

« ومثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ بأهله فخشى أن يسبقوه فجعل يهتف: يا صباحاه »[1] . لقد ابتدأ عليه الصلاة والسلام بحمد الله وحده ،والاستعانة به، وعرض بعدها شرف انتمائه لقومه وحرصه على مصلحتهم، ثم قدَّم مبادئ هذا الدين وختمها بهذا الحرص المسبق وكان هذا الموقف العظيم ، هو الذى هزّ كيان أبى طالب شيخ قريش . فاتخذ الموقف المضاد تماماً لأخيه أبى لهب ،وقال قولته المشهورة : (ما أحب إلينا معاونتك ومرافدتك وأقبلنا لنصحك ، وأشد تصديقاً لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم غير أنى والله أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أنى لا أجد نفسى تطاوعنى إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه) . لقد كانت مواساة أبى طالب عظيمة غير أنها مخيبة للآمال النبوية فهو قد رفض الدخول فى هذا الدين ، لكنه أعلن بصفته الشخصية تأييده ونصرته وسنده لابن أخيه الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام.

وهذه ظاهرة برزت الآن من أهم ظواهر هذه المرحلة الجديدة هى ظاهرة النصرة رغم اختلاف العقيدة وسنرى أبعادها وكيف تبلورت فيما بعد ليكون كل بنى هاشم والمطلب ـ عدا أبى لهب ـ وراء أبى طالب لحماية الرسول عليه الصلاة والسلام .

وحاولت صفية ـ رضى الله عنها ـ أن تحرك نخوة أخيها أبى لهب لعلها تثنيه عن حقده وحربه ـ لكن دون جدوى ـ ولكنها شفت صدر رسول الله ﷺ الذى يمتلئ أسى حين قالت :

(فو الله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ عبد المطلب نبى فهو هو).

٥ ـ وكان هذا العرض النبوى العظيم بداية صفحة جديدة فى تاريخ الدعوة كتب فيها الغلبة لتيار أبى طالب على تيار أبى لهب ، رغم المخاطر والصعوبات والأهوال التى اكتنفت هذا الموقف فيما بعد . ومن هؤلاء الخمس والأربعين لم يعلن إسلامه وولاءه التام لرسول الله ﷺ عقيدة وحمية إلا الصبى على بن أبى طالب فبايعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أخوته وصحبته .

---

(١) ورواية أحمد: « مثلى ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة ، فلما خشى أن يسبق ألاح بثوبه أُتيتم أُتيتم »، ثم يقول رسول الله ﷺ : « أنا ذاك » . رواه كله أحمد ٥ / ٣٣١ ، وقال فيه الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠ / ٢٢٨ : ورجاله رجال الصحيح .

القيادة فن ، وتجييش الأنصار والفدائيين عبقرية ، ورسول الله ﷺ مثَّل ظاهرة تكاد تكون فريدة فى التاريخ أن أضاف إلى النيف والأربعين عنده من الذين بايعوه على هذا الدين وتحمل مسؤولية هذه البيعة وهذا الإيمان أضاف نيفاً وأربعين آخرين حماة لشخصه وهم غير مؤمنين بدينه . وكان هذا إيذاناً ببدء نشر مبادئ هذا الدين وحمايته من أناس لا يؤمنون به .

٦ ـ لكن الأثر النفسى من جهة أخرى كان على رسول الله ﷺ أثقل من الجبال . فبين كل رجالات عشيرته الأقربين الخمس والأربعين لم يُفتح قلب واحد للنداء الإلهى. ولم يستجب للإيمان رجل واحد . فكم هى مسؤوليات الدعوة جسام ، وكم هو المستقبل ثقيل الوطأة أن يقف أقرب المقربين إليه يكفرون بدعوته وبرسالته . ولعلها أثقل صعوبة واجهته حتى الآن .

وهو ليس طالب ملك أو طالب حكم، إنه قائد دعوة، وصاحب رسالة وانتصاره الحقيقى ليس بحماية شخصه فحسب ،ولكن بانتشار مبادئ عقيدته وتبنى رسالته. لكنما الذى يخفف عنه أن جنده الحقيقيين ينوفون عن أربعين على ضعفهم وقلتهم،وفقرهم فهم يكونون النواة الأولى لمجتمع الإسلام العظيم .

٧ـ وحفظ رسول الله ﷺ للفتى الصغير على جرأته النادرة فى إعلان إسلامه بعد أن أجلسه ثلاث مرات . ولا يقف غيره أحد ليكون الساعد الأكبر له والنصير القوى له، وفى المرة الثالثة وحين طأطأ الجميع رؤوسهم لم يجد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حرجاً أن يضع يده بيد هذا الصبى ويقبل بيعته على أن يكون أخاه وصاحبه . وتطلع الرسول ﷺ إلى المستقبل البعيد يوم يعجم عود هذا الفتى ويصلب جسمه كيف سيكون السهم النافذ له فى الأرض ، من قومه وعشيرته ، وأن الله تعالى قد ادخر له هذا الفضل من بين أعمامه جميعا .

ويتندر أبو لهب بهذه البيعة فيقول لأبى طالب : يا أبا طالب ، ألا ترى ابنك ؟!

قال : دعوه فلن يألو ابن عمه خيرا .

وفى رواية : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك محمداً يأمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

٨ ـ وكانت الجولة الأولى لا يوجد فى حصيلتها غير على بن أبى طالب . ونحن نعلم أن اثنين من رجالات بنى هاشم قد انضما سرا لهذا الدين الجديد هما عبيدة بن الحارث وجعفر بن أبى طالب الذى كان فى مقتبل شبابه، لكن الظاهر أن الأوامر لهما ألا يعلنا دخولهما فى هذا الدين فى هذه المرحلة أو أنهما كانا غائبين عن هذا اللقاء

المشهود . وتأتى الجولة الثانية مع كل أهل مكة .

قام على الصفا فعلا أعلاها حجراً ثم نادى : « يا صباحاه » .

فقالوا : من هذا ؟ وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو. فقد تدفقت مكة كلها على نداء الرسول ﷺ لها، فأنذرها فى كل بطونها هول الموقف إن بقيت على تعنتها وكفرها ، وأن النار مصيرها ما لم تستجب لله ورسوله . وأكد أنه النذير بين يدى عذاب شديد .

وبرز أبو لهب من جديد وكشر عن أنيابه فلم يكتف بإعلان رأيه أمام عشيرته الأقربين بل أعلنه أمام قريش كلها ، فى عملية حاقدة لئيمة تجعل كل قريش صادة عنه طالما أن عمه الأقرب والألصق به يكذبه ويسفهه ويهجوه . قال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟

فنزلت : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ** ﴾، إلى آخرها [1] وانفض أبو لهب وانفضت مكة كلها وراءه . وبقى محمد ﷺ وحده على الجبل . لم ينضم له فى هذه الدعوة أحد . لكن عرفت مكة كلها أن محمداً ﷺ ماضٍ فى طريقه معلنًا دعوته ، غير متراجع عن هدفه أو متلجلج فيه .

فبدأت تعد العدة للمواجهة .

المواجهة ـ تربية :

لقد شهد المجتمع الإسلامى الجديد المكون من الخمسين الأوائل ، هذا النموذج العظيم فى المواجهة حيث يقف قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ذروة جبل الصفا ، ويدعو مكة بأسرها إلى هذا الدين ، وتصد مكة بأسرها عن هذا الدين ويتحمل تبعة ومسؤولية الصد وصعوبة وحراجة الموقف . فكان لابد بعد هذا من تحدٍ لهذا الطغيان وتم هذا التحدى على يد سبعة كانوا الأوائل فى المواجهة .

عن عاصم عن زر عن عبد الله بن عمر قال : (أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله ﷺ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وبلال ، وصهيب ، والمقداد ، فأما النبى ﷺ وأبو بكر فمنعهما الله بقومهما ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم فى الشمس ، فما منهم من أحد إلا وأتاهم على ما أرادوا إلا بلال . فإنه هانت عليه نفسه فى الله وهان على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد) وله إسناد آخر صحيح [2] .

---

(١) سورة المسد .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٣٤٧ .

ولنشهد المواجهة الثانية التي قادها الصدّيق رضي الله عنه :

روى الحافظ أبو الحسن سليمان بن خيثمة الأطرابلسى ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

(لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فى الظهور فقال : « يا أبا بكر إنا قليل » ، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرَّق المسلمون فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته وقام أبو بكر خطيباً ورسول الله ﷺ جالس . فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين ، فضربوا فى نواحى المسجد ضرباً شديداً ووطئ أبوبكر وضُرب ضرباً شديداً ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين[1] ويحرِّفهما لوجهه من على بطن أبى بكر وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة فرجعوا إلى أبى بكر ، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب وتكلم فى آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه[2] بألسنتهم وعذلوه[3] وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه . فلما خلت به ألحت عليه ، جعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله مالى علم بصاحبك . فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه . فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله. فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك . قالت : نعم ، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر دنفاً [4] فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم . قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع . قال : فلا شىء عليك منها . قالت : سالم صالح . قال : فأين هو ؟ قالت : فى دار الأرقم، قال : فإن لله علىَّ ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله ﷺ فأمهلنا[5] حتى إذا هدأت الرِّجْلُ[6] وسكن الناس خرجنا به يتكئ علىَّ حتى أدخلناه على رسول الله ﷺ ، فأكب عليه رسول الله ﷺ ،وأكبّ عليه المسلمون ، ورقَّ له رسول الله ، رقة شديدة . فقال أبو بكر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ،ليس بى بأس إلا ما

(١) نعلين مخصوفين : نعلين مُطَبَّقَتين .
(٢) مسَّوا منه : أى عنَّفوه ونالوا منه .
(٣) عذلوه : لاموه .
(٤) دنفاً : ملازماً المرض .
(٥) أمهلنا : صبرنا .
(٦) هدأت الرجل : سكنت .

نال الناس من وجهي ، وهذه أمي برَّة بولدها وأنت مبارك ، فعسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت .

وأقاموا مع رسول ﷺ في الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون رجلاً ، وقد كان حمزة ابن عبد المطلب أسلم يوم ضُرب أبو بكر) (١) .

***

١ ـ لقد كانت المبادرة من الصدّيق رضي الله عنه والإلحاح منه فهو شريك في الرأي وليس جندياً فحسب ، ولم يُستجبْ له ابتداء ،واستجيب له بعد ذلك . فأبو بكر هو الوزير الأول لرسول الله ﷺ وهو بمثابة نائب القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأبو بكر يدرك أن هذه المواجهة لن تأتي سليمة ، وليس بإمكان أربعين رجلاً أن يواجهوا مكة كلها، لكنه يدرك رضي الله عنه كذلك أن مكة لابد أن توطّن نفسها على التعامل مع هذا الواقع الجديد . صحيح أنها سترفض بادئ ذي بدء بكل عنف ، وستبطش بكل قوة، لكن الهدف الرئيسي هو أن تكسر تلك الهيمنة والسيطرة التي تُرعب بها المسلمين ، فتمنع ذكر الله وحده في مكة . ولن تكسر تلك الهيمنة والسيطرة إلا بهذا التحدي، ومع الزمن فسوف تخف تلك الحدة والسيطرة وتتجرع بمرارة سماع مبادئ هذا الدين الجديد .

٢ ـ وحيث إن الصدّيق رضي الله عنه يدرك خطورة الموقف . واقتداء بمثله الأعلى ﷺ فلم يَدْعُ جندياً مغموراً ليقف هذا الموقف ، ويتحمل مسؤوليته ، بل تقدَّم بنفسه ، وهو الوزير الأول ليعلن مبادئ الإسلام في مكة ، كما فعل عليه الصلاة والسلام يوم أعلنها على ذرى جبل الصفا بملئ فيه، وشتان بين رسول الله ﷺ وبين الصدّيق رضي الله عنه في عزة العشيرة ، فبنو تيم أضعف قبائل مكة، وبنو عبد مناف أعزها وأقواها شكيمة . وهذا يعني أنه لن يسلم ويكتفي القوم منه بالرد السلمي أو القول العنيف كما فعل أبو لهب بل سيتعرض لأذى لا قبل له به .

غير أن الأمر ليس سلامة شخصه بمقدار ما هو الانتقال بالدعوة خطوة إلى الأمام بهذا العدد الضئيل والتجمع الصغير .

٣ ـ وكان ذلك المشهد القوي وكانت المواجهة الأقوى التي نال منها كل مسلم ما ناله من أذى ،وكان نصيب أبي بكر أوفر نصيب والذي تجرأ عليه ليس سفيهاً من سفهاء مكة ، إنما تجرأ عليه زعيم بني أمية وسيد من كبار سادات بني عبد مناف . وهو يعلم أن وراءه عشيرة تمنعه وهو عتبة بن ربيعة . ومع ذلك رفض بنو تيم هذا التجاوز واجتمعوا

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢ / ٤٢٨ .

يهددون بقتل عتبة لو مات أبو بكر . وتحولت القضية إلى حمية قبلية ، وعصبية جاهلية، وشاءت إرادة الله تعالى أن يعافى أبو بكر وتحفظ الدعوة من الضياع فى متاهات الحرب الجاهلية وثاراتها الدفينة فتضيع العقيدة من خلالها .

٤ ـ ولم يكن هذا الجندى القائد ينطلق من ذاته ليسجل أمجاداً فى تاريخه الدعوى إنما كان خالصاً لله سبحانه ولرسوله . ومن أجل ذلك كان أول ما نطق به وفتح به فاه حينما استفاق من غيبوبته : ما فعل رسول الله ؟ فالعالم الذى يملك عليه كيانه يختلف جذرياً عن العالم الذى كان حوله والذى كان يعدُّ العدَّة للثأر من بنى عبد مناف فإذا بأبى بكر الذى ثاروا من أجله ووضعوا دماءهم علي أكفهم لفدائه يسأل عن سيد بنى عبد مناف : محمد رسول الله ﷺ ويقدم حياته على حياته وسلامته على سلامته، وتفرق بنو تيم بقصصهم من سيدهم الذى عاش لمحمد رسول الله ﷺ وعاشوا له . فهذا الفداء والحب لم يشهدوا له مثلاً فى تاريخهم من قبل .

٥ ـ وفى فقه عجيب لمفهوم السرية والتنظيم تصرّف أبو بكر رضي الله عنه فهو لن يطمئن على سلامة قائده إلا من خلال امرأة منضمة سراً لهذا التنظيم هى أم جميل بنت الخطاب،حيث وجه الصديق أمه أم الخير لبيت بنت الخطاب تسأل عن رسول الله ﷺ،ويالها من فدائية منضبطة ،تلك العدوية العظيمة أخت عمر. فهى لا تملك صلاحية إفشاء سر أمام امرأة أخرى خارج هذا التنظيم .فأجابت بدون تردد:(ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله) وهذا وضع الجندى الأمثل ، لكن الجندى الذى يحمل مسؤولية الدعوة ، يضع الحلول المناسبة لخطورة الموقف ، فأبو بكر رضي الله عنه لم يرسل أمه عبثاً إليها. إنما يثق بها ثقة معينة لا تدرى كنهها ولا بُعدها . فهل دخلت أمه فى الإسلام؟ لن نستطيع أن نبنى على هذا الظن ، وتصرفت تصرف اللبيبة الواعية المدركة التى يشتعل فى كيانها العظمة القرشية وقالت : وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت .

وتـم الأمـر ، ومضت لتشارك فـى معالجـة الموقـف بشخصها بجـوار الصدِّيق رضي الله عنه .

وامتنعت عن الكلام ، حين سألها الصديق ابتداءً عن رسول الله ﷺ . وحسبت أن يكون ناسياً أو ساهياً عن وجود أمه . فقالت له : هذه أمك تسمع ، فأجاب : لا عليك منها . وبذلك ألقت عن كاهلها همَّ التخوف من أمه . فهو أقدر منها على تقدير الموقف .

وتم التخطيط واختيار الوقت المناسب للمضى إلى دار الأرقم واللقاء مع رسول الله

ﷺ حين هدأت الرِّجْل . وكان ذلك الجو العاطفى الطاغى حيث التقى المسلمون الأربعون بفدائيهم العظيم الصديق ، وقد استعاد عافيته من جراحاته . وكانت الثمرة انضمام وافد جديد لهذه المجموعة العظيمة ، هذا الوافد هو أم الخير ، والدة أبى بكر الصديق رضي الله عنه :

أما الوافد الكبير ، الذى مثل خطوة أضخم إلى الأمام حمزة رضي الله عنه فسنتحدث عنه فيما بعد على فرض صحة الرواية أن إسلامه كان يوم ضُرب أبو بكر الصديق ـ رضوان الله عليه .

عمار وأبوه وأمه :

وها نحن أمام نموذج جديد فى الجهرية ، اختلف عن نموذج المصطفى ﷺ ، ونموذج الصديق ، وإن كنا قد عالجنا من قبل أمير الصابرين بلال وموقفه من قريش ، لنرى معلماً جديداً من معالم الدعوة على يد آل ياسر ـ عليهم رضوان الله .

(روى منصور عن مجاهد : أول من أظهر إسلامه سبعة ، فذكرهم ، زاد « فجاء أبو جهل يشتم سمية ، وجعل يطعن بحربته فى قبلها حتى قتلها ، فكانت أول شهيدة فى الإسلام ») [(١)] .

(وعن عمرو بن الحكم قال : كان عمار يعذّب حتى لا يدرى ما يقول ، وكذا صهيب وفيهم نزلت : ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** . . ﴾ [(٢)]) [(٣)] .

وروى البلاذرى (عن أم هانئ رضي الله عنها أن عمار بن ياسر وأباه ياسراً وأخاه عبد الله ابن ياسر وأمه سمية، كانوا يعذَّبون فى الله فمرَّ بهم رسول الله ﷺ، فقال : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة ». فمات ياسر من العذاب . وأغلظت سمية القول لأبى جهل فطعنها فى قبلها فماتت ورمى عبد الله فسقط) [(٤)] .

(منصور بن أبى الأسود : عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن سالم بن

---

(١) الاستيعاب ١٣/٤٩ وفيه قلبها . وكذلك فى «الإصابة» فى ترجمة سمية ، ولكنه بغير سند ، وقال الإمام أحمد : حدثنى وكيع ، عن سفيان ،عن منصور ، عن مجاهد ، قال : « أول شهيد كان فى أول الإسلام استشهد : أم عمار سمية ، طعنها أبو جهل بحربة فى قبلها » ، وهذا مرسل ، انظر : هامش السير ١/٤٠٩ .

(٢) النحل / ٤١ .

(٣) ابن سعد ٣/١/١٧٧ عن طريق الواقدى ، عن عثمان بن محمد ، عن عبد الحكيم بن صهيب ، عن عمرو بن الحكم. انظر : المصدر نفسه ١/٤٠٩.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذرى ١ / ١٩٠ .

الجعد عن عثمان ،قال رسول الله ﷺ :« صبراً آل ياسر،فإن موعدكم الجنة») [١].

قيل : لم يسلم أبو أحد من المهاجرين سوى عمار وأبى بكر .

مسلم بن إبراهيم والتبوذكى عن القاسم بن الفضل ، حدثنا عمرو بن مرة ، عن سالم بن أبى الجعد قال :

دعا عثمان نفراً منهم عمار ،فقال عثمان : أما إنى سأحدثكم حديثاً عن عمار وأمه وأبيه وهم يعذّبون، فقال ياسر للنبى ﷺ : الدهر هكذا . فقال له النبى ﷺ : «اصبر» ثم قال له : « اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت » [٢] . هذا مرسل .

وروى أبو بلج عن عمرو بن ميمون قال : عذَّب المشركون عماراً بالنار . فكان النبى ﷺ يمر به ، فيُمَرِّر يده على رأسه ويقول: « ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا ﴾[٣] على عمار كما كنت على إبراهيم »[٤] .

روى عبد الكريم الجزرى عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال:

أخذ المشركون عماراً فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ وذكر آلهتهم بخير فلما أتى النبى ﷺ قال : « ما وراءك ؟ » قال : شر يا رسول الله . والله ما تركتُ حتى نلت منك ؟ وذكرت آلهتهم بخير . قال : « فكيف تجد قلبك ؟» قال : مطمئن بالإيمان . قال : « فإن عادوا فعد »[٥] .

وعن قتادة ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ [٦] نزلت فى عمار [٧] .

وعن محمد بن كعب القرظى قال : أخبرنى من رأى عمار بن ياسر متجرداً فى سراويل قال : فنظرت إلى ظهره فيه حَبَطٌ كثير . فقلت : ما هذا ؟ قال : مما كانت تعذبنى به قريش فى رمضاء مكة [٨].

وعن عروة بن الزبير قال : كان عمار بن ياسر من المستضعفين الذين يعذبون فى

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٤١٠ ، وقال المحقق عنه:رجاله ثقات، لكنه منقطع ، وفى الباب عن جابر عند الحاكم ٣ / ٣٨٨ ، وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٤١٠ وقال المحقق عنه :أخرجه أحمد ١ / ٦٢ وذكره الهيثمى فى المجمع ٢٩٣/٩ وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٣) الأنبياء/ ٦٩ .

(٤) المصدر نفسه ١/ ٤١٠ وقال المحقق عنه: أخرجه ابن سعد ٣ / ١ / ١٧٧ .

(٥) المصدر نفسه ١ / ٤١١ وقال المحقق عنه : أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى ٢ / ٣٥٧ .

(٦) النحل / ١٠٦ .

(٧) المصدر نفسه ١ / ٤١٣ ، وقال المحقق عنه : قال الحافظ ابن حجر فى ترجمة عمار بن ياسر : واتفقوا على أنه نزلت فيه هذه الآية .

(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٢٤٨ والحَبَطُ : آثار الجرح أو السياط فى البدن .

مكة ليرجع عن دينه .

قال محمد بن عمر : والمستضعفون قوم لا عشائر لهم بمكة ، وليس لهم منعة ولا قوة . فكانت قريش تعذبهم فى الرمضاء بأنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم[1] .

١ ـ لقد كان آل ياسر من حلفاء بنى مخزوم ، جاؤوا من اليمن وحالفوا أبا حذيفة ابن المغيرة . ولا ندرى من كان يعذبهم من ولد أبى حذيفة لكن الأمر آل ظاهراً إلى ابن عمهم أبى جهل بن هشام ، الحاقد الألد على الإسلام . فكان يشتفى بتعذيبهم حيث لا ناصر لهم إلا الله ، وبدل أن يكون المجير لهم وهم حلفاء قبيلته بنى مخزوم . إذ به يروى حقده بإيذائهم وتعذيبهم . فمن يثأر لهم ، إن كان حليفهم هو الذى يذيقهم أفانين العذاب ؟

٢ ـ وحيث لا سلطان فى مكة فوق سلطان القبيلة . وأعلن آل ياسر إسلامهم بتحدٍ سافر لسلطان القبيلة هذا . ووجد أبو جهل الفرصة مواتية للثأر والانتقام وراح يعذبُ امرأة عزلاء عجوزاً . وإذا بها تصعر خده وأنفه فى التراب ، فتصر على إسلامها، وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتشتم اللات والعزى آلهته، فما يتمالك بعنجهيته اللئيمة إلا أن يطعنها بحربة فى قبلها وتسقط شهيدة فى سبيل الله وتسطر أول دم زكى يغذى هذه الدعوة وتنضم إلى خديجة ـ رضى الله عنها ـ فى السباق ، فإذا أول من يدخل فى الإسلام امرأة ، وأول من يستشهد فى الإسلام امرأة ، وسطرت بهذا الموقف الشجاع أعلى وأغلى ما تقدمه امرأة فى سبيل الله ؛ لتبقى كل امرأة مسلمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها ، ويهفو قلبها فى الاقتداء بها ، فلا تبخل بشىء فى سبيل الله بعد أن جادت سمية بنت خُباط بدمها فى سبيل الله .

٣ ـ ويقف قائد الدعوة ﷺ عاجزاً عن أن يقدّم شيئاً لآل ياسر . رموز الفداء والتضحية فليسوا بأرقاء حتى يشتريهم ويعتقهم ، ولا يملك أن يخوض حرباً لإنقاذهم فى الأربعين الذين معه ، ويشكو له ياسر البطل العظيم : الدهر هكذا، وهو لا يفيق من التعذيب ، حتى تنصب عليه الحمم الجديدة . فيقول له ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «صبر أ آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » .

ويقول له: « اصبر » ثم يدعو له بالمغفرة:« اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت» .

كل ما يزفه القائد العظيم لهؤلاء العمالقة بشرى المغفرة والجنة . أما تخفيف العذاب ، أو تخليصهم منه ، فلا طاقة له به ، وعليهم أن يصبروا فى سبيل الله حتى تشهد الأجيال المتلاحقة ويشهد الموكب المستمر على مدار التاريخ هذه الظاهرة : «صبراً

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٤٨ .

آل ياسر ،فإن موعدكم الجنة ».

وتشهد مكة استعلاء الإيمان فوق أنف الشرك ، فلئن ملك الشرك الجسد النحيل لياسر وسمية يعذّب ويجلد ، ويحرق فى النار ويصهر فى الشمس ، فلن يملك روحهما التى زُفت إلى عليين ، وارتفعت فوق أوهاق العذاب تضىء الطريق للسالكين بالدم الزكى الفوار .

٤ ـ وتبرز ظاهرة جديدة بعد ظاهرة ياسر وسمية ، هى ظاهرة عمار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأبو جهل يدرك مكمن الخطر فى آل ياسر . فياسر وسمية قد تجاوزا الستين من العمر ، أما عمار فهو الخطر الحقيقى . يكاد يكون فى سنه وهو الذى قاد أباه وأمه إلى الإسلام ، فلابد أن يلقى من التعذيب أضعاف ما لقى أبوه وأمه .

(فنظرت إلى ظهره فإذا فيه حبط كثير فقلت : ما هذا ؟ قال : هذا مما كانت تعذبنى به قريش فى رمضاء مكة). وحين أشرف على الموت ، اجتهد فذكر آلهتهم بخير،وذكر حبيبه المصطفى بشر ، فرأوا أنهم قد انتصروا عليه فأطلقوه وأتى كسير النفس،مكلوم الفؤاد، جريح الكبرياء ليقول لرسول الله ﷺ بعد أن سأله عليه الصلاة والسلام:« ما وراءك ؟ » قال :شر يا رسول الله، والله ما تُركت حتى نلت منك،وذكرت آلهتهم بخير.

إنه الآن أمام الاختبار العسير ، فهل يطرد من رحمة الله ؟ أم يتداركه الله برحمته وعفوه ؟ لا يدرى . قال له الرسول ﷺ : «كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئن بالإيمان. قال : « فإن عادوا فعد » .

ونزلت على قلبه برداً وسلاماً . وسكبت فى نفسه الفوارة القلقة برد اليقين وحالل السكينة . لكن الأمر ارتفع أكثر وأكثر حين جاءت شهادة رب العالمين له يتحدث عنه فتقول الآية الكريمة :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

فلا يزال أمام عمار دور ضخم يؤديه فى التاريخ الإسلامى ، ويساهم فى قيادة الأمة ويشكل معلماً من معالمها .

لا يزال أمامه قرابة الخمسين عاماً يعيشها ويشارك فى أحداثها ويصنع تاريخها . وليس المهم أن يستشهد الآن . فلا يزال قلبه مطمئناً بالإيمان . وهدف قيادة الشرك أن تستمر فى تعذيبه حتى يلقى مصير أبويه .

---

(١) النحل / ١٠٦ .

(عذّب المشركون عماراً بالنار ، فكان النبى ﷺ يمرّ به فيمر يده على رأسه ويقول :

« يا نار ، كونى برداً وسلاماً على عمار كما كنت على إبراهيم » .

وشاءت إرادة الله عز وجل أن يلقى عمار الشهادة وهو ينوف على التسعين ويحقق به الله تعالى الهدى فى معمعة الفتنة . فتقتله الفئة الباغية .

فعن عبد الله بن سلمة قال: رأيت عماراً يوم صفين شيخاً آدم طوالاً ، وإن الحربة فى يده لترعد فقال: والذى نفسى بيده ،لقد قاتلت بها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات . وهذه الرابعة ولو قاتلونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، لعرفت أننا على الحق ، وأنهم على الباطل) (١) .

وعمار ليس جنديا فحسب يُقتل ويستشهد ، وما بروحه ضن عن سبيل الله ،ولكنه من فصيلة القادة الذين يدركون المسؤولية عن الدعوة ، واتخاذ الموقف المناسب فى الوقت المناسب ، وقد رأى بأم عينه استشهاد أبويه ، وأدرك أنه هدف للعدو ، فلن يحقق للعدو هدفه . واجتهد فأعطاهم بعض ما يريدون وفوّت عليهم قتله. ليأتى القائد الأعظم ﷺ فيقرّ ظاهرة عمار لمن فى مستوى عمار وقال له :

« إن عادوا فعد » ، وجاء القرآن الكريم ليقرر هذه الظاهرة فى الأمة:

﴿ . . . إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالإِيمَان ﴾(٢) .

فهو استثناء القاعدة ، استثناء الذين يعطون لأعدائهم ما يريدون ويفتنون عن دينهم ويشرحون صدرهم بالكفر حفاظاً على حياتهم فعلى أولئك لعنة الله وغضبه ، والعذاب العظيم فى الآخرة .

وقرر القرآن الكريم هذه الظاهرة ، من خلال موقف عمار نفسه فى قوله عز وجل، وفي السورة نفسها : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٣) .

فأبو بكر رضي الله عنه فى جهريته يقود المسلمين لمواجهة يعلن فيها مبادئ الإسلام ، ويلقى ذلك الأذى ويقره عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٤٠٨ . وقال المحقق فيه : ورجاله ثقات إلا أن عبد الله بن سلمة وهو المرادى صدوق وقد تغير حفظه .

(٢) النحل / ١٠٦.

(٣) النحل / ٤١ ، ٤٢ .

وعمار بن ياسر رضي الله عنه فى جهريته وبعد أهوال التعذيب التى أشرفت به على الموت، يعطى العدو ما يريده من الكلام ، فيذكر آلهتهم بخير ، ويذكر نبيه الحبيب بشر ، ويقره عليه الصلاة والسلام .

ويحمل تاريخ هذه النخبة القيادية هذين النموذجين للأجيال اللاحقة بحيث يأخذ بها الدعاة إلى الله ضمن إطارها الصحيح وفى مستوياتها المناسبة ، وفى معاييرها الدقيقة، دونما إفراط ولا تفريط .

صهيب بن سنان ، والمقداد بن الأسود :

وقد كانا من السبعة الأوائل الذين أعلنوا إسلامهم على الملأ ، فماذا لقى المستضعفان ؟

قال مجاهد : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر، وبلال، وعمار ،وأمه سمية ،وصهيب،والمقداد .

قال مجاهد : فأما رسول الله ﷺ فمنعه عمه ، وأما أبو بكر فمنعه قومه . وأخذ الآخرون ـ سمى منهم صهيباً ـ فألبسوهم فى أدراع الحديد ، وصهروهم فى الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ فأعطوه ما سألوه ـ يعنى : التلفظ بالكفر ـ فجاء كل رجل قومه بأنطاع فيها الماء فألقوهم فيها ، إلا بلالاً هانت عليه نفسه .

فهما إذن من مدرسة عمار بن ياسر رضي الله عنه :

وصهيب صديق عمار وتربه ، وكلاهما تربان لرسول الله ﷺ .

يقول صهيب : (صحبت النبى ﷺ قبل أن يوحى إليه) (١) .

وكان إسلامهما معاً كما مر. قال عمار : لقيت صهيباً على باب دار الأرقم، وفيها رسول الله ﷺ فدخلنا ، فعرض علينا الإسلام ، فأسلمنا ،ثم مكثنا يوماً على ذلك حتى أمسينا فخرجنا ونحن مستخفون(٢) .

وكان إظهار إسلامهم بعد ذلك . وصهيب مولى لبنى تيم وهو من النمر بن قاسط، سبته الروم صغيراً ويعرف بالرومى . وهو أحد السباقين الأربعة كما ذكره رسول الله ﷺ : « وصهيب سابق الروم»(٣) .

ونظراً لولائه لبنى تيم فلا سلطان يحميه أو سلطة تمنعه .

---

(١) سيرأعلام النبلاء ٢ / ١٩ ، وهو فى المستدرك ٣ / ٤٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ١٩ وهو فى الطبقات ٣ / ٢٢٦، وإسناده ضعيف لإرساله .

فعن عمر بن الحكم قال : كان عمار بن ياسر يعذَّب حتى لا يدرى ما يقول ، وكان صهيب يعذّب حتى لا يدرى ما يقول فى قوم من المسلمين حتى نزلت :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] . ولا شك أن ترتيب الآيات فى المصحف ، يعطى الإضاءة كاملة على هذه المرحلة ويوضح كيف رعاهم الله بمغفرته لهول ما لقوه.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ . مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

لقد أقرَّ القرآن الكريم هذه الظاهرة: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ . وتحدث عن عقوبة من شرح بالكفر صدراً ، وعن مغفرة وثواب من صبر وهاجر بعد ما فتن وعذب، وكان عمار وصهيب والمقداد هم الذين تنزل بهم القرآن بذلك .

وبقى علينا أن نشير ونحن نتحدث عن هؤلاء الخمسة الكبار الذين تحدوا وأعلنوا الإسلام: ما هو وزنهم عند الله عز وجل ؟ وما هو وزنهم فى مجتمع الشرك؟ .

أحمد فى مسنده : حدثنا أسباط ،حدثنا أشعث عن كردوس عن ابن مسعود قال :

مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا: أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل فيهم القرآن: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾[3] .

ونقف عند هذا المعنى العظيم ، ونشهد كيف تربى هذا الجيل السعيد على عين الله عز وجل يرعاه ويحوطه ويصونه،كيف كان القرآن يتنزل نديا غضا طريا يتحدث عن هذه المجموعة المستضعفة ويخص أحياناً بالذكر بعضهم بأعيانهم .وحين نتلو الآيات القرآنية

---

(١) النحل / ١١٠ . (٢) النحل / ١٠٥ ــ ١١٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٢ ،وقال المحقق عنه:رجاله ثقات غير كردوس بن عباس لم يوثقه غيرابن حبان ومع ذلك فقد قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٢١ بعد أن نسبه لأحمد والطبرانى : ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة . والآيات من سورة الأنعام / ٥١ ــ ٥٨ .

كما نزلت . نرى أبعاد هذا البناء وأعماقه لهذا المجتمع الذى التحم بأفراده وانفصل عن المجتمع المشرك والملأ فيه .

وهذه هى الآيات التى نزلت تحتفل بهؤلاء المستضعفين وتنتصر لهم :

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ . وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ . قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ . قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾(١) .

وأمام هذه الآيات العظيمة تبرق بعض اللمحات المتصلة بالتربية :

ـ فبالقرآن وحده يتم بناء هذا الجيل، الجيل الذى يملأ قلبه خشية الله وحده فقط ، ومن أجل ذلك أعلن إسلامه فى هذا البحر من الشرك ، وبرز الخمسة العظام الذين لا ولى لهم ولا شفيع يحميهم من التعذيب إلا الله .

ـ وهؤلاء هم خاصة النبى ﷺ وليس الخمس والأربعون ذلك الحزب الثانى الذى تكون لنصرة محمد ﷺ من بنى هاشم والمطلب . ولم يدخل فى هذا الدين إنما هؤلاء الخمس والأربعون الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه هم حزب الله ورسوله . ولو تخلى عنهم لتخلى الله عنه وأصبح من الظالمين، ولإقرار عين هؤلاء يقول الله تعالى لنبيه : ﴿ .. فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(٢) .

ـ وأمام غطرسة الملأ من قريش الذين ينظرون بصغار إلى هؤلاء الذين أحاطوا بمحمد ، العبيد والموالى والفتيان الذين يغمسون فى العذاب دون أن يملك لهم إلا القول: «صبراً آل ياسر »، سعد ، خباب ، صهيب ، ابن مسعود ، بلال، المقداد ، (وإن

---

(١) الأنعام / ٥١ ـ ٥٨ .

(٢) الأنعام / ٥٢ .

كان سعد شريفاً من بنى زهرة لكنه مطرود من بيته لإسلامه حيث طـردته أمـه ، فانضم إلى هؤلاء الموالى) ويستخف الملأ بهم ويغمزهم قائلاً :أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ !

والله تعالى يصفعهم ويجيبهم : ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ .

ـ ثم يدع الله تعالى الملأ من قريش ويحث نبيه على تركهم لبناء هذا الجيل والتفرغ له وإعادة صهره من جديد . فلا شأن له إلا به . يصحح خطأه ويصوغ قلبه ، ويبنى مشاعره : ﴿ **وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1] .

ـ والقرآن يتنزل مفصلاً وحكماً بين هذا المجتمع الجديد . أما مجتمع الملأ الكبار. سادات قريش وقادتها فهم الآن مجرمون : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾[2] .

فقد خرجوا على ربهم بعد أن رأوا الآيات البينات وثاروا عليه ،وراحوا يقتلون أولياءه وجنده ويصبون العذاب صبا على أفراد حزبه .

ـ واشمخر الملأ أن يحتفظ محمد ﷺ بجنده المستضعفين الموالى ورفض أن يتبع أهواء الملأ بطردهم والتخلى عنهم: ﴿ .. **قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾[3]،ولو طردهم كما يزعمون لانضموا إليه، فهل يحطمون قيم مكة وأعرافها ويجلسون مع هؤلاء العبيد على مستوى واحد ؟ !

ـ ويتحدى الملأ محمداً ﷺ طالما أنه مرسل من ربه أن ينتقم منهم إن كان صادقاً وهم يقتلون أتباعه ويصهرون جنده بالحديد ويحرقونهم بالنار. فيقول الله تعالى له وهو يربى نبيه ويربى جنده ما يقول لهم : ﴿ **قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ . قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ** ﴾[4] .

وأقف عاجزاً أمام الانتقال لعظمة هذا البناء ، وأدع الحديث لسيد ـ رحمه الله ـ فى مقتطفات من الظلال حيث تمكن من أن يعبر القرون ويوضح عظمة هذا البناء .

(ونعود قبل الانتهاء من استعراض هذه الفقرة من السورة إلى بعض الآثار التى

---

(١) الأنعام / ٥٤ .
(٢) الأنعام / ٥٥ .
(٣) الأنعام / ٥٦ .
(٤) الأنعام / ٥٧ ، ٥٨ .

وردت عن ملابسات نزول هذه الآيات ، وعن دلالة هذه الآثار مع النصوص القرآنية على حقيقة النقلة الهائلة التى كان هذا الدين ينقل إليها البشرية يوم ذاك ، والتى ما تزال البشرية حتى اليوم دون القمة التى بلغتها يومها ثم تراجعت عنها .

قال أبو جعفر الطبرى : حدثنا هناد بن السرى ، حدثنا أبو زبيد ،عن أشعث ،عن كردوس الثعلبى ، عن ابن مسعود قال : مرَّ الملأ من قريش بالنبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك ! فنزلت هذه الآية:

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ . . ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾[1] ،وقال : حدثنى الحسين بن عمرو بن محمد العنقزى ، قال: حدثنا أبى ، حدثنا أسباط ، عن السدى ، عن أبى سعيد الأزدى ـ وكان قارئ الأزد ـ عن أبى الكنود ، عن خباب فى قول الله تعالى ذكره : **﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾** ،إلى قوله : **﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾** ،قال :جاء الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة بن حصن الفزارى[2] .فوجدا النبى ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب ، فى أناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حقروهم ، فأتوه فقالوا : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد . فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا،فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ! قال : « نعم » ، قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً . قال : فدعا بالصحيفة ، ودعا عليا ليكتب .قال : ونحن قعود فى ناحية إذ نزل جبريل بهذه الآية ، **﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**،ثم قال: **﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾** ، ثم قال : **﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾**[3] .

فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده ، ثم دعانا فأتيناه وهو يقول : **﴿ سَلامٌ**

---

(١) ولعلهم جاؤوا فى زيارة أو عمرة لمكة أيام دار الأرقم ، فرأوا رسول الله ﷺ ، فقالوا هذا الكلام .
(٢) الأنعام / ٥٢ ، ٥٣ . (٣) الأنعام / ٥٢ ، ٥٤ .

عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ، فكنا نقعد معه . فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[1] قال : فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد . فإذا بلغ الساعة التى يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم . وكان ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى ربى أن أبدأهم بالسلام»)[2].

* * *

نحن فى حاجة إلى وقفة طويلة أمام هذه النصوص . . . والبشرية بجملتها فى حاجة إلى هذه الوقفة كذلك . إن هذه النصوص لا تمثل مجرد مبادئ وقيم ونظريات فى حقوق الإنسان . إنها أكبر من ذلك بكثير، إنها تمثل شيئاً هائلاً تحقق فى حياة البشرية فعلاً تمثل نقلة واسعة نقلها هذا الدين للبشرية بجملتها تمثل خطاً وضيئاً على الأفق بلغته البشرية ذات يوم فى حياتها الحقيقية . . . ومهما يكن من تراجع البشرية عن هذا الخط الوضىء الذى صعدت إليه فى خطو ثابت على حداء هذا الدين . فإن هذا لا يقلل من عظمة تلك النقلة ومن ضخامة هذا الشىء الذى تحقق يوماً ؛ ومن أهمية هذا الخط الذى ارتسم بالفعل فى حياة البشر الواقعية . أن قيمة ارتسام هذا الخط بلوغه ذات يوم ، أن تحاول البشرية مرة ومرة ومرة الارتفاع إليه ما دام أنها قد بلغته ؛ فهو فى طوقها إذن وفى وسعها ، والخط هناك على الأفق ، والبشرية هى البشرية وهذا الدين هو هذا الدين ، فلا يبقى إلا العزم والثقة واليقين .

وقيمة هذه النصوص أنها ترسم للبشرية اليوم ذلك الخط الصاعد بكل نقطه ومراحله ومن سفح الجاهلية الذى التقط الإسلام منه العرب إلى القمة السامقة التى بلغ بهم إليها وأطلعتهم فى الأرض يأخذون بيد البشرية من ذلك السفح نفسه إلى تلك القمة التى بلغوها !

فأما ذلك السفح الهابط الذى كان فيه العرب فى جاهليتهم وكانت قيمة البشرية كلها فهو يتمثل واضحاً فى قولة الملأ من قريش: « يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك . أو فى احتقار الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى للسابقين من أصحاب النبى ﷺ بلال وصهيب وعمار وخباب وأمثالهم من الضعفاء وقولهما للنبى ﷺ : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد .

---

(1) الكهف / ٢٨ .

(2) فى ظلال القرآن م٢ ج٧ ط دار الشروق .

هنا تتبدى الجاهلية بوجهها الكالح ، وقيمها الهزيلة ، واعتباراتها الصغيرة . . . عصبية النسب والجنس واعتبارات المال والطبقة . . . وما إلى ذلك من اعتبارات هؤلاء بعضهم ليسوا من العرب ، وبعضهم ليسوا من طبقة الأشراف ! وبعضهم ليسوا من ذوى الثراء! ذات القيم التى تروج فى كل جاهلية ! والتى لا ترتفع عليها جاهليات الأرض اليوم فى نعراتها القومية والجنسية والطبقية !

هذا هو سفح الجاهلية . . . وعلى القمة السامقة الإسلام ! الذى لا يقيم وزناً لهذه القيم الهزيلة ولهذه الاعتبارات الصغيرة ، ولهذه النعرات السخيفة ! الإسلام الذى نزل من السماء ولم ينبت من الأرض فالأرض كانت هى هذا السفح ، هذا السفح الذى لا يمكن أن ينبت هذه النبتة الغريبة الجديدة الكريمة . الإسلام الذى يأتمر به ـ أول من يأتمر ـ محمد ﷺ محمد رسول الله الذى يأتيه الوحى من السماء والذى هو من قبل فى الذؤابة من بنى هاشم ، وفى الذروة من قريش ، والذى يأتمر به أبوبكر صاحب رسول الله ﷺ فى شأن هؤلاء الأعبد . نعم هؤلاء الأعبد الذين خلعوا عبودية كل أحد وصاروا أعبداً لله وحده ، فكان من أمرهم ما كان .

وكما أن سفح الجاهلية الهابط يرتسم فى كلمات الملأ من قريش ،وفى مشاعر الأقرع وعيينة فإن قمة الإسلام السامقة ترتسم فى أمر الله العلى الكبير لرسوله ﷺ .

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ . وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] ، ويتمثل فى سلوك رسول الله ﷺ مع هؤلاء الأعبد الذين أمرهم ربه أن يبدأهم بالسلام وأن يصبر معهم فلا يقوم حتى يقوموا وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وهو بعد ذلك رسول الله وخير خلق الله ، وأعظم من شرفت به الحياة .

أى شىء هائل هذا الذى تحقق فى حياة البشرية ؟ أية نقلة واسعة هذه التى قد تمت فى واقع الناس ؟ أى تبدل فى القيم، والأوضاع وفى المشاعر والتصورات فى آن ؟ والأرض هى الأرض ،والبيئة هى البيئة، والناس هم الناس ، والاقتصاد هو الاقتصاد ، وكل شىء على ما كان ، إلا أن وحياً نزل من السماء على رجل من البشر ، فيه من الله

---

(١) الأنعام / ٥٢ ـ ٥٤ .

سلطان ،يخاطب فطرة البشر من وراء الآكام، ويحدد للهابطين هنالك عند السفح فيستجيشهم الحداء على طول الطريق إلى القمة السامقة ، فوق . . . فوق . . . هنالك عند الإسلام ثم تتراجع البشرية عن القمة السامقة، وتنحدر مرة أخرى إلى السفح ، وتقوم مرة أخرى فى نيويورك وواشنطن، وشيكاغو ، وفى جوهانسبرج ، وفى غيرها من أرض الحضارة تلك العصبيات النتنة ، عصبيات الجنس واللون ، وتقوم هنا ، وهناك عصبيات (قومية) و (طبقية) لا تقل نتناً عن تلك العصبيات .

ويبقى الإسلام هناك على القمة . . . حيث ارتسم الخط الوضيء الذى بلغته البشرية. . . يبقى الإسلام هناك رحمة من الله بالبشرية لعلها أن ترفع أقدامها من الوحل،وترفع عينيها عن الحمأة . . .وتتطلع مرة أخرى إلى الخط الوضيء، وتسمع مرة أخرى حداء هذا الدين ، وتعرج مرة أخرى إلى القمة السامقة على حداء الإسلام .

ونحن لا نملك فى حدود منهجنا فى هذا الظلال أن نستطرد إلى أبعد من الإشارة، لا نملك أن نقف هنا تلك الوقفة الطويلة التى ندعو البشرية كلها أن تقفها أمام هذه النصوص ودلالتها لتحاول أن تستشرف المدى الهائل الذى يرتسم من خلالها فى تاريخ البشرية ، وهى تصعد على حداء الإسلام من سفح الجاهلية الهابط إلى تلك القمة السامقة البعيدة ،ثم تهبط مرة أخرى على (عواء) الحضارة المادية الخاوية من الروح والعقيدة ، ولتحاول كذلك أن تدرك إلى أين يملك الإسلام اليوم أن يقود خطاها مرة أخرى بعد أن فشلت جميع التجارب ، وجميع المذاهب ، وجميع الأوضاع ، وجميع الأنظمة ، وجميع الأفكار ، وجميع التصورات التى ابتدعها البشر لأنفسهم بعيداً عن منهج الله وهداه ، فشلت فى أن ترتفع بالبشرية مرة أخرى إلى تلك القمة ؛ وأن تضمن للإنسان حقوقه الكريمة فى هذه الصورة الوضيئة ، وأن تفيض على القلوب الطمأنينة ، مع هذه النقلة الهائلة،وهى تنقل البشرية إليها بلا مذابح،وبلا تعذيب ، وبلا جوع ،وبلا اضطهادات،وبلا إجراءات استثنائية تقضى على الحريات الأساسية ، وبلا رعب ،وبلا فزع ،وبلا فقر ، وبلا عرض واحد من أعراض النقلات التى يحاولها البشر فى ظل الأنظمة البائسة التى يضعها البشر ، ويتعبد فيها بعضهم بعضاً من دون الله .

فحسبنا هذا القدر هنا ، وحسبنا الإيحاءات القوية العميقة التى تفيض بها النصوص ذاتها ، وتسكبها فى القلوب المستنيرة :

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[1] .

---

(١) الأنعام / ٥٥ .

ختام هذه الفقرة التى قدمت طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول فى هذه النصاعة الواضحة ، كما قدمت هذه العقيدة ، وفصلت الاعتبارات والقيم التى جاءت هذه العقيدة لتلغيها من حياة البشرية ، والاعتبارات والقيم التى جاءت لتقررها : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ** ﴾ .

بمثل هذا المنهج ،وبمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا البيان والتفصيل ، نفصل الآيات التى لا تدع فى هذا الحق ريبة ولا تدع فى الأمر غموضاً ، ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق ، فالحق واضح ، والأمر بين ، بمثل ذلك المنهج الذى عرض السياق القرآنى منه ذلك النموذج .

على أن كل ما سبق فى السورة من تفصيل لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ، ومن بيان للحقائق وتقرير للوقائع يعتبر داخلاً فى مدلول قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ** ﴾ .

أما ختام هذه الآية القصيرة : ﴿ **وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ .

فهو شأن عجيب ،إنه يكشف عن خطة المنهج القرآنى فى العقيدة والحركة بهذه العقيدة .

إن هذا المنهج لا يعنى بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب ، إنما يعنى كذلك بيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً . . . إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين ، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق .

إن هذا المنهج هو المنهج الذى قرره الله سبحانه ، ليتعامل مع النفوس البشرية ؛ ذلك أن الله سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادى بالحق والخير يقتضى رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر ، والتأكد من أن هذا باطل ممحض وشر خالص ، وأن ذلك حق ممحض وخير خالص . . . كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق ، ولكن كذلك من شعوره بأن الذى يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل . وأنه يسلك سبيل المجرمين، الذين ذكر الله فى آية أخرى أنه جعل لكل نبى عدواً منهم : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ** ﴾[1] ، ليستقر فى نفس النبى ونفوس المؤمنين ، أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون عن ثقة ، وعن وضوح ، وعن يقين .

---

(١) الفرقان / ٣١ .

إن سفور الكفر والشر والإجرام ضرورى لوضوح الإيمان والخير والصلاح ، واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الربانى للآيات؛ذلك أن أى غبش أو شبهة فى موقف المجرمين فى سبيلهم ترتد غبشاً وشبهة فى موقف المؤمنين وفى سبيلهم ، فهما صفحتان متقابلتان ، وطريقان مفترقتان ، ولابد من وضوح الألوان والخطوط .

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين ، وتعريف سبيل المجرمين ، ووضع العنوان المميز للمؤمنين والعنوان المميز للمجرمين فى عالم الواقع لا فى عالم النظريات، فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممّن حولهم ، ومن هم المجرمون ، بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم ، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان ، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين .

وهذا التحديد كان قائما ،وهذا الوضوح كان كاملاً يوم كان الإسلام يواجه المشركين فى الجزيرة العربية ،فكانت سبيل المسلمين الصالحين هى سبيل الرسول ﷺ ومن معه ، وكانت سبيل المشركين المجرمين هى سبيل من لم يدخل معهم فى هذا الدين ، ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل، وكان الله سبحانه يفصل الآيات على ذلك النحو الذى سبقت منه نماذج فى السورة ـ ومنها كذلك النموذج الأخير ـ لتستبين سبيل المجرمين !

وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوى بعد ما بدّلتها وأفسدتها التحريفات البشرية حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف وهذه الملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة ، كذلك لا يجدى معها التلبيس !

ولكن المشقة الكبرى التى تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست فى شىء من هذا . . . إنها تتمثل فى وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين ، فى أوطان كانت فى يوم من الأيام داراً للإسلام يسيطر عليها دين الله وتحكم بشريعته . ثم إذا هذه الأرض وإذا هذه الأقوام تهجر الإسلام حقيقة وتعلنه اسماً وإذا هى تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا . وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقاداً ! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل فى الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا الكون المتصرف فيه ، وأن الله وحده هو الذى يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله ، وأن الله وحده هو الذى يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه فى

شأن حياتهم كله . وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله ـ بهذا المدلول ـ فإنه لم يشهد ولم يدخل فى الإسلام بعد كائناً ما كان اسمه ولقبه ونسبه ، وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله بهذا المدلول، فهى أرض لم تدن بدين الله ولم تدخل فى الإسلام بعد .

وفى الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين ، وفيها أوطان كانت فى يوم من الأيام داراً للإسلام ، ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله بذلك المدلول ، ولا الأوطان اليوم تدين بمقتضى هذا المدلول .

وهذا أشق ما تعانيه حركات الإسلام الحقيقية فى هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام .

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذى أحاط بمدلول لا إله إلا الله ، وبمدلول الإسلام فى جانب ، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية فى الجانب الآخر .

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين ، وطريق المشركين المجرمين ، واختلاط الشارات والعناوين ، والتباس الأسماء والصفات ، والتيه الذى لا تتحدد فيه مفارق الطريق .

ويعرف أعداء الإسلام هذه الثغرة ، فيعكفون عليها توسيعاً وتمييعاً وتلبيساً وتخليطاً حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصى والأقدام! تهمة (تكفير) المسلمين ، ويصبح الحكم فى أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله .

هذه هى المشقة الكبرى . . . وهذه كذلك هى العقبة الأولى التى لابد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله فى كل جيل .

يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ، ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله فى كلمة الحق والفصل هوادة ولا مهادنة ، وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف ، وألا تقعدهم عنها لومة لائم ، ولا صيحة صائح . انظروا إنهم يكفرون المسلمين !

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذى يظنه المخدوعون ! إن الإسلام بيّن والكفر بيّن ـ الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ـ بذلك المدلول ـ فمن لم يشهدها على هذا النحو، ومن لم يقمها فى هذه الحياة على هذا النحو ، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين .

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِين ﴾[1] .

أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة وأن تتم فى نفوسهم هذه الاستبانة ، كى تنطلق طاقاتهم كلها فى سبيل الله ، لا تصدُّها شبهة ، ولا يعوقها غبش، ولا يمنعها لبس . فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا فى يقين أنهم هم المسلمون وأن الذين يقفون فى طريقهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم المجرمون، كذلك فلن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان وأنهم وقومهم على مفرق الطريق ، وأنهم على ملة ، وأنهم فى دين وقومهم فى دين .

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِين ﴾ [2] .

* * *

وعودة إلى أحضان دار الأرقم التى أصبحت مركز اللقاءات بين القائد وجنده ، حيث تشير الرواية التى مرت معنا أن بنى البكير هم أول من أسلم فيها، كما تشير الروايات إلى أن عمار بن ياسر وصهيب بن سنان ـ رضى الله عنهما ـ التقيا أمام دار الأرقم ودخلا على رسول الله ﷺ ، وأسلما هناك ليخرجا بعد استخفائهما يعلنان الانتماء لهذا الدين .

وإذا كان المقداد بن الأسود من المستضعفين المعذبين فى مكة لأنه (كان مولىً للأسود بن عبد يغوث الزهرى فتبناه ، وقيل: كان عبداً أسود اللون فتبناه ، ويقال : بل أصاب دماً فى كندة ، فهرب إلى مكة وحالف الأسود)[3] . وهو (المقداد بن عمرو ابن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعى الكندى البهرانى وكان آدم طوالاً ذا بطن ، أشعر الرأس ، أعين ، مقرون الحاجبين ، عاش نحواً من سبعين سنة ، مات فى سنة ثلاث وثلاثين ، وصلى عليه عثمان بن عفان ، وقبره بالبقيع رضي الله عنه)[4] .

فقد أسلم إذن فى عرامة الشباب فقد كان سنه فى السابعة والعشرين من العمر ، وكان أهلاً للمواجهة مع الشرك وتحمل الأذى فى سبيل الله.

والقضية التى تحدث عنها (سيد) فيما مضى ، قضية استبانة سبيل المجرمين ، قد عانى منها الجيل الأول كما نعانى نحن منها اليوم . فنرى المقداد وقد خطه الشيب وتقدّم به السن يحدثنا عنه جبير بن نفير فيقول :

(جلسنا إلى المقداد يوماً ، فمرّ به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا

---

(١) الأنعام / ٥٥ .

(٢) أخذت بتفصيل من ـ فى ظلال القرآن لسيد قطب م٢ ج٧ ص ١٠٩٩ ـ ١١٠٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٣٨٥ .

(٤) المصدر نفسه ١/٣٨٦ .

رسول الله ﷺ . والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت فاستمعتُ .

فجعلتُ أتعجب ، ما قال إلا خيراً ، ثم أقبل عليه فقال :

ما يحمل أحدكم على أن يتمنى محضراً غيَّبه الله عنه لا يدرى لو شهده كيف يكون فيه. والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام كبَّهم الله على مناخرهم فى جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدّقوه ،أو لا تحمدون الله لا تعرفون ربكم إلا مصدقين بما جاء به نبيكم، وقد كفيتم البلاء بغيركم ؟ !

والله لقد بُعث النبى ﷺ على أشد حال بعث به نبى فى فترة وجاهلية ، ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان حتى أن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، ليعلم أن قد هلك من دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حميمه فى النار ، وأنها للتى قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾[1]) [2] .

فهو رضي الله عنه يحدثنا عن المعاناة فى هذا الجيل كيف يتم التمايز والمفاصلة بين مجتمع جديد يبنى على لا إله إلا الله وحده بخصائصه ومقوماته. ومجتمع مكة الذين ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان ،وكيف جاء الفرقان من الله فاستبانت به سبيل المؤمنين ، ومجتمع الإيمان ذى الخمسين عضواً من الرجال والنساء الذى (فتح الله قفل قلبه للإيمان) وبين سبيل المجرمين الذى يضم والد الأخ المسلم وأخاه الكافرين .

ويحدثنا عن تلك المعاناة الضخمة حين يفترق المسلم عن أعز أحبابه من أب وأخ ، وينفصم عن وليه الحميم فى سبيل الله فيتمايزان ويتفاصلان ، وقلبه يتقطر أسى على أن حميمه فى النار وهو مقيم على كفره .

ويتوجه المقداد لذلك الجيل الجديد الذى نبت فى الإسلام وترعرع فيه ، ورأى النور فى أحضانه ويطالب هذا الجيل أن يحمد الله تعالى على هذه النعمة، وأنه لم يتعرض لذلك الابتلاء الذى أخرج هؤلاء المسلمين مجتمعاً منفصلاً من قلب أوحال الجاهلية وظلماتها ، فلا يدرون لو كانوا فى ذلك الوقت أين يكونون وفى أى صف؟ وهل يفتح قفل قلبهم للإسلام ـ كما قذف الله تعالى فى قلب المقداد ذلك النور؟ أم سيبقى على كفره فيكبه الله على منخره فى جهنم ؟

إن تفصيل الآيات المنزل على الصحب العظام الذين يعيشون بالقرآن ونبى القرآن هو الذى أوضح سبيل المؤمنين وأوضح سبيل المجرمين الذين يبيتون الأذى لهذا

(١) الفرقان / ٧٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٣٨٨ نقلا عن حلية الأولياء لأبى نعيم ١ / ١٧٥ ، ١٧٦ .

المجتمع العضوى الجديد ، فينزل به ألوان العذاب والتنكيل من الذين سُدت سبل الإيمان فى وجوههم، فمثلوا عدوا من المجرمين للنبى وصحبه ومثلوا سبيل المجرمين .

لقد كان المقداد بن عمرو من أعاظم الرجال، فهو بالولاء قرشى، وهو فى النسب كندى، وكندة ملوك العرب ، وبقى المجتمع الإسلامى يعرف فضل المقداد ، ويعرف له أنه أول فارس فى الإسلام . فعن القاسم بن عبد الرحمن قال: (أول من عدا به فرسه فى سبيل الله المقداد بن الأسود) [1] .

(وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ) [2] .

وحفظ له عمر رضي الله عنه هذا الفضل فكان يعدُّه بألف من الرجال حيث بعثه مدداً لعمرو بن العاص عن ألف بطل .

ولكونه من ملوك العرب ، وعنده طاقات الحكم . فقد استعمله رسول الله ﷺ ، لكن هذا الاستعمال دفعه فيما بعد إلى النفور من كل مسؤولية .

لقد خشى على نفسه من شهوة الحكم وشهوة السلطان ، فابتعد عنهما ، وقنع أن يُمضى عمره جنديا مجاهداً وبطلاً مغواراً فى سبيل الله إذا دعا داعى الجهاد .

(فعن عمير بن إسحاق عن المقداد بن الأسود قال : استعملنى رسول الله ﷺ على عمل ، فلما رجعت قال : « كيف وجدت الإمارة ؟ » قلت : يا رسول الله ، ما ظننت إلا أن الناس كُلَّهم خَوَلٌ لى ، والله لا ألى على عمل ما دمت حيا) [3] .

فلم يتخل عن المسؤولية لأنه غير كفء لها ، إنما تخلى عنها خوفاً على نفسه أن تستبد به شهوة السلطان والحكم فيطغى ويبغى على الناس ؛ ولهذا آلى على نفسه ألا يكون أميراً قط .

وهذه مدرسة فذة فى التربية ، ترك رسول الله ﷺ للمقداد أن يكون فيها هو الحكم على نفسه ، ولم ينهه رسول الله ﷺ عن ذلك ، وحتى لا تعصف به الفتن ، وينوء تحت ثقلها ، ابتعد عنها .

إنه البناء النفسى العظيم الذى ينبثق من مدرسة الإيمان قبل أن يكون البناء السياسى والعسكرى .

إن الرجال الأفذاذ فى التاريخ هم الذين يعرفون قدر أنفسهم ، فيقتحمون أهوال

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١٦٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٨ ، وقال المحقق عنه :هو فى الحلية ١/ ١٧٤ ، وأخرجه الحاكم ٣/ ٣٤٩، ٣٥٠ وصححه ووافقه الذهبى .

الموت جنوداً منفذين ، وخشية أن يطغوا يفرون فراراً من المسؤولية والقيادة.

وبقى على هذا الخط حتى أشرف على الموت .

(فعن أبى راشد الحبرانى قال: وافيت المقداد فارس رسول الله ﷺ بحمص على تابوت من توابيت الصيارفة، وقد أفضل عليها من عظمه يريد الغزو. فقلت: قد أعذر الله إليك. فقال: أبت علينا سورة البعوث: ﴿ **انفروا خفافًا وثقالا** ﴾[1]) [2].

وأخيراً : لابد أن نذكر المقداد وقد أثنى عليه المصطفى ﷺ بصفته أحد عظماء الأمة ، ففى مسند أحمد لبريدة قال رسول الله ﷺ : « عليكم بحب أربعة : على وأبى ذر وسلمان والمقداد »[3] .

فهو أحد الأربعة الكبار الذين حث الله المسلمين فى الأرض على حبهم .

وهو من جهة ثانية أحد المقربين الأربعة عشر الذين اختصهم رسول الله ﷺ بالوزارة والصحبة .

(عن عبد الله بن مليل قال : سمعت عليا يقول : قال رسول الله ﷺ : « لم يكن من نبى إلا وقد أعطى سبعة رفقاء نجباء وزراء وإنى أعطيت أربعة عشر : حمزة ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وجعفر ، وحسن ، وحسين ، وابن مسعود، وأبو ذر ، والمقداد، وحذيفة ، وعمار ، وبلال ، وسلمان») [4] .

خباب بن الأرت :

خباب بن الأرت كان مع الذين أعلنوا إسلامهم رضي الله عنه وهو من المستضعفين .

ففى رواية عن مجاهد : (أول من أظهر إسلامه رسول الله ، ﷺ ، وأبو بكر، وخباب ، وبلال ، وصهيب ، وعمار) .

وأما ابن إسحاق فذكر إسلام خبَّاب بعد تسعة عشر إنساناً وأنه كمّل العشرين.

ولابد إذن من عرض جانب من معاناته رضي الله عنه حيث ذكر فى هذا النص أنه أحد السبعة بدل المقداد .

---

(١) التوبة / ٤١ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/٣٨٨ ، وقال المحقق عنه : أخرجه ابن سعد والحاكم وصححه .

(٣) أخرجه أحمد ٥/٣٥١، كما ذكر المحقق فى السير ١/٣٨٩ ،والترمذى (٣٧٢٠)، وفى سنده شريك القاضى وهو ضعيف .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/٤١٣ ، وقال المحقق عنه : أخرجه أحمد والترمذى فى المناقب وقال : «حديث حسن غريب» كذا قال :مع أن كثير النواء ضعيف .

روى البلاذرى ، عن أبى صالح، قال :(كان خبّاب قيناً ، وكان قد أسلم . فكان رسول الله ﷺ يألفه ويأتيه ، فأخبرت بذلك مولاته ، فكانت تأخذ الحديدة وقد أحمتها فتضعها على رأسه .

فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فقال : « اللهم انصر خباباً » فاشتكت مولاته رأسها وهى أم أنمار ، فكانت تعوى مع الكلاب ، فقيل لها: اكتوى ، فكان خباب يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوى بها رأسها) [1] .

ولئن أخذ الله ثأره من مولاته . فهذا لا يعنى أنه انتهى من التعذيب إذ انتقل من سلطة إلى سلطة ، وبقى يمثل جيل الابتلاء .

وعند عمر رضي الله عنه تسبر الرجال .

(فعن مجالد ، عن الشعبى ،قال:دخل خباب بن الأرت على عمر بن الخطاب ، فأجلسه على متكئه ، وقال : ما أحد على ظهر الأرض أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد .فقال له خباب:من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال: بلال.قال:فقال له خباب :

يا أمير المؤمنين ، ما هو بأحق منى ، إن بلالاً كان له فى المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لى أحد يمنعنى ، فقد رأيتنى يوماً أخذونى وأوقدوا لى ناراً ثم سلقونى فيها ، ثم وضع رجلٌ رجله على صدرى ، فما اتقيت الأرض إلا بظهرى . قال : ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص!) [2] .

وحين اشتد البلاء على خباب ، ولا ناصر له ينصره ، وليس له من دون الله ولى ولا شفيع ، فكان أن شكا إلى رسول الله ﷺ ما يعانيه ، وطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يدعو لهم ربهم أو يهلك عدوهم ، فيختصر المسلمون الطريق ، ويتم النصر على العدو بتوفير هذه الآلام .

يحدثنا خباب عن ذلك فيقول :

(شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تدعو الله لنا ؟ ألا تستنصر الله لنا ؟ فجلس محماراً لونه أو وجهه فقال لنا :

« لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له فى الأرض ، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه ثم يجعل بفرقتين ما يصرفه عن دينه ، ويمشط بأمشاط من الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه ،وليُتمَّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب منكم من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ، ولكنكم تعجلون » ، هذا

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ١/ ١٧٧ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١٦٥ .

حديث صحيح أخرجه محمد بن إسماعيل البخارى) [(١)].

وجاءت هذه الظاهرة من المنهج التربوى للقيادات ذات دلالات عدَّة :

١ ـ فقد اشتد الضغط والبلاء والتعذيب على المسلمين ، وعلى الغالب أن هذا الأمر قد تم فى وقت متأخر حين صار المسلمون قادرين على التحلق حول رسول الله ﷺ فى ظل الكعبة . وذلك بعد إسلام عمر رضي الله عنه ، وقد مرَّ على خبَّاب رضي الله عنه السنوات الطوال وهو مقيم على هذا الابتلاء .

٢ ـ وتصوُّر هذا الجيل الرائد عن النصر أنه مرتبط بدعاء نبوى ، ورفع البلاء مرتبط بدعاء نبوى ، أراد النبى ﷺ أن يصحح هذا التصور عند هذا الجيل ، فالله تعالى ينصر نبيه ودينه لو دعاه .

ولكن آثار هذا النصر تكون هشة وبناء العناصر الأولى يكون هشا ، سرعان ما ينهار تحت أى مطرقة . وليست هذه سنة الله فى الدعوات ، فسنته تعالى فى الدعوات أن تصبر النماذج العظيمة وتتحمل الأذى فى سبيل الله ويمسها البأساء والضراء ، وتضيق بها السبل حتى يكون بناؤها متيناً قويا محكماً صلباً ؛ ولهذا كان التوجيه النبوى لهذه الظاهرة ، على ضوء التوجيه القرآنى نفسه :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[(٢)] .

فجاء التوجيه النبوى ليربى القيادات على هذا المعنى :

« ثم يجاء بالمنشار فيوضع فوق رأسه ، ثم يجعل بفرقتين ما يصرفه عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه » .

فالقدوة فى الأجيال الصابرة الأولى ، وتحمل الأذى كما تحملوه سنة ربانية ، ثم تأتى الأجيال اللاحقة فتسير على خطا هذا الجيل الرائد. أمر لامناص منه فى الدعوات ، وليعلم خباب وإخوانه أنهم يخطون معالم السير للأجيال اللاحقة، وليسوا مهملين فى زاوية من زوايا التاريخ ، كما هم يعانون الآن .

---

(١) شرح السنة للبغوى ١٣/ ٣٣٥ ،وقال المحقق عنه : هو فى صحيحه (البخارى) ٦/ ٤٥٦ فى الأنبياء ، باب علامات النبوة فى الإسلام ، وفى فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ، وفى الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر .

(٢) البقرة / ٢١٤ .

٣ ـ وفرَّق عليه الصلاة والسلام وهو يربى هذه العناصر العظيمة بين نصر الدعوة ، ونصر الفرد ، فقد يكون نصر الدعوة بقتل الفرد ، وأما نصر الدعوة فقادم .

وليس الهدف كما يتصور هؤلاء المستضعفون ، أن تكُفَّ مكة عن أذاهم وانتهى الأمر وتحقق النصر ، إن نصر الدعوة أن تبلغ الآفاق والآماد ،وتقطع الأميال والوهاد ، وتعم كل شبر فى الأرض العربية ليس من مكة إلى جدة فحسب ، بل من صنعاء إلى حضرموت .

ويريد عليه الصلاة والسلام أن ينقل هـذه الثقة إلى جنوده وأتباعه،فيسترخصون كـل معانـاة وابتـلاء فـى سبيـل الـهدف العظيم القـادم فى سبيل انتصار هـذه الدعـوة وانتشارهـا .

٤ ـ وليس هذا النصر الذى تحدَّث عنه النبى ﷺ نصراً للدعوة فحسب ، بل هو دولة للإسلام كذلك . فلم يقل لهم عليه الصلاة والسلام : إن هذه الدعوة سوف يسيرون بها فى صنعاء وحضرموت والسياط على جلودهم ، أو جلود أبناء هذه الدعوة كما هى اليوم ، فهم يدعون إلى الله ، وحمم الأذى فوق رؤوسهم، بل ستنتصر الدعوة لتقيم دولة يرف الأمن فى جميع ربوعها وبقاعها .

« حـتى يسير الراكـب من صنعاء إلى حـضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه » .

أما الأرض فقد دانت كلها للإسلام ، وارتفعت راية التوحيد فيها ، وحكم الإسلام فى جميع أرجائها .

٥ ـ « ولكنكم تعجلون » فمتى ؟ هذا فى علم الله ، وكيف ؟ هذا فى علم الله ، وحتى يبلغ الكتاب أجله ، والعجلة هى التى تقصم ظهر الدعوات ، وتحطم القيادات . فالتعجل قبل الصياغة المناسبة لجيل رائد قوى صلب ، هو الذى يحول دون النصر ، أو يقدِّم نصراً مؤقتاً ليس فيه نماذج عالية ، وقدرات عالية ، فيحكم الناس دون أن تحكم العقيدة ، ويرى الناس أن الذين يحكمون بشريعة الله لا يمثلون هذه الشريعة ، بل هم مثل بقية النماذج الجاهلية ، يغلب عليهم هواهم ويستبد بهم سلطانهم ، ويؤثرون القرابة القريبة على الكفاءة الصادقة .

والعجلة والاستعجال كذلك ، قبل أن يعجم عود الدعوة ، وتستقيم قناة رجالها ، والعدو ضارب جذوره فى الأرض ، فينقض على الدعوة ورجالها ، ويبيدهم ليبدؤوا من نقطة الصفر ، هو مخالف لمنهج الله تعالى فى بناء الدعوات ؛ ولهذا فقد كانت هذه

المرحلة ، مرحلة صبر ومصابرة ، ومرحلة حوار وكف لليد عن المواجهة ، ومرحلة تبليغ للدعوة ، وتحمل لنتائج هذا التبليغ ، إلى أن تصبح الدعوة برجالها قادرة على المقاومة ، ثم قادرة على الهجوم واستئصال الشرك من الأرض .

والعجيب أن بعض الدعاة إلى الله تعالى اليوم حين يغفلون عن هذا المنهج ، ويواجهون العدو قبل الأوان المطلوب ويستعجلون الخطا ويحرصون على الثمار قبل نضجها ، ثم تقع بهم المصيبة يتأففون : أين نصر الله ؟

ألسنا مؤمنين،وهم كفار، فلماذا لا ننتصر؟ ولماذا لا تستجاب الدعوات؟ فإما أن يسقط بعضهم يأساً على الطريق،أو خداعاً فى تمكين محفوف بسيطرة الجاهلية. . . ولكنهم لا يعودون إلى ذاتهم ، فيبحثون عن أسباب تخلف النصر،ويبحثون أين خالفوا المنهج حتى حيل بينهم وبين هذا التمكين ،ويقفون على عتبة هذا الجيل الأول، فينظرون كيف تمت تربيته ، وكيف تمت صياغته، وكيف تمت حركته،فيعودون لإصلاح ما فسد ، أو يعودون لإقامة البناء من جديد،حيث لا ينفع الترميم،ولا يجدى الترقيع .

٦ ـ وعاش خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى رأى الإسلام يملك الأرض ، ويسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ، والذئب على غنمه . وحين وافاه أجله ، كانت الأرض تعج بالإسلام، وذلك بعد أربعين عاماً ونيف من تلك المرحلة . وها نحن نشهده فى لحظاته الأخيرة فى الكوفة ، فى أرض فارس يقول لولده :

(أى بنى إذا مُتّ فادفنى بهذا الظهر ، فإنك لو دفنتنى بالظهر ، قيل : دفن بالظهر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، فدفن الناس موتاهم . فلما مات خباب ـ رحمه الله ـ دفن بالظهر ، فكان أول مدفون بظهر الكوفة خبّاب) [١] .

وقال محمد بن عمر : وسمعت من يقول : هو أول من قبره علىّ بالكوفة وصلى عليه منصرفه من صفين [٢] .

عبد الله بن مسعود يجهر على خطا الصّدّيق :

لقد دعا رسول الله ﷺ عشيرته الأقربين ، ووقف فيهم خطيباً يدعوهم إلى الإسلام وهتف على ذرى الصفا :« واصباحاه ». فاجتمعت له قريش كلها ووقف فيهم خطيباً يدعوهم إلى الإسلام ، وخرج أبو بكر بالمستضعفين إلى الكعبة ، ووقف فيهم خطيباً بين يدى رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ، ولقى ما لقى ، وأشرف على الموت حين أشرفت الدعوة على الحياة بذلك .

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١٦٧ .

وها هو عبد الله بن مسعود أحد المستضعفين فى حوار مع صحبه حول الجهر بالقرآن .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال :

(كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا ، قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال : دعونى فإن الله سيمنعنى . قال : فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ رافعاً بها صوته ﴿**الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴾ ،قال : ثم استقبلها يقرؤها . قال : فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ قال: ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد فقاموا إليه فجعلوا يضربونه فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا فى وجهه . فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك . فقال : ما كان أعداء الله أهون منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً . قالوا : لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون) [(١)] .

فنحن هنا أمام قيادة مسؤولة تتخذ القرار دون أن تعود إلى رسول الله ﷺ ، وإذن فلها من الصلاحيات ما يؤهلها لاتخاذ هذا الموقف ضمن الإطار العام الذى لا يخرج عن طبيعة المرحلة ولا يحرج الجماعة المسلمة . فكل ما يتم فى هذا الأمر هو الأذى المتوقع على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وليس واجباً عليه أن يتعرض للأذى فى سبيل الله ، وليس واجباً عليه أن يجهر بالدعوة إلى الله دون أن يكون له عشيرة تمنعه ، لكن الجهر بالقرآن كما يرى الصحب أصبح ضرورة يترشح لها من يناسبها .

وتقدّم ابن مسعود رضي الله عنه وهذه المجموعة القيادية ترى أن احتمال حمايته ضعيف جدا .

فهو وخبّاب ، والمقداد ، وكل حلفاء بنى زهرة يتلقون الأذى لجهرهم بإسلامهم دون أن يحميهم أحد .

وليس كشفاً لعنصر جديد فى الساحة ، فلذلك أقروا عبد الله رضي الله عنه ليقوم بهذه المهمة ، حيث استعد ليتحمل الأذى فى سبيلها ، وأوذى وضرب وعُذب ، وهو يرى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٨٨ .

أن الله منعه ، مع كل هذا الضرب والأذى ، وأسمع قريشاً ما يكرهون وأبدى استعداده للعودة ثانية إليها . فأمر بالكف عن ذلك لأن مهمة الدعوة تحققت ، وهذا هو الهدف فى هذه المرحلة .

ولا يمكن أن نتصور إقدام نفر من صحابة رسول الله ﷺ على هذه المواجهة دون علم رسول الله ﷺ ، أو دون أن تكون لديهم الصلاحيات بذلك ودون أن يدركوا فقه المرحلة التى يعيشونها ، وقد شهدوا سماح رسول الله ﷺ لأبى ذر أن يعلنها بين ظهرانيهم ، وشهدوا وقوف الصدّيق خطيباً فى الكعبة ، وشهدوا افتتاح هذه المرحلة برسول الله ﷺ وهو يهتف بالدعوة على جبل الصفا ، ولهذه العوامل جميعاً قدروا ضرورة هذا الجهر وقاموا بالتنفيذ الفعلى ، ضمن الحدود المعقولة ، والصلاحيات المناطة بهم ، وليس عاطفة موّارة متدفقة دون مسؤولية أو عدم إدراك لأبعاد هذا الموقف ، بل كانت هذه المواقف جميعا لخدمة هذه المرحلة الجديدة واقتفاء واقتداءً وثمرة للتربية النبوية الخالصة .

أبو طـالب
وحمـايـة قـائد الدعــوة

بعد لقاء العشيرة الأقربين برز تياران متضادان فيه :

التيار الأول : ويقوده أبو طالب ، يدعو إلى تأييد محمد ونصرته ، ومواجهة من يعاديه .

التيار الثاني : ويقوده أبو لهب ، يدعو إلى الضرب على يد رسول الله ﷺ وحربه وكفه عن دعوته . لكن شرف أبى طالب ومقامه فى مكة كان أكبر من عنجهية أبى لهب وغطرسته ، وانحاز بنو المطلب وبنو هاشم إلى شيخهم أبى طالب .

الجولة الأولى :

قال ابن إسحاق :

(فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه ـ فيما بلغنى ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها . فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون ، وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ مظهراً لأمره لا يردُّه عنه شيء ، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس بن عبد مناف ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وأبو البخترى واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد ، والأسود بن المطلب ابن أسد ، وأبو جهل ، عمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج السهميان ، والعاص بن وائل السهمى . أو من مشى منهم فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ،وضلّل آباءنا ،فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلّى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردّهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه) [1].

لقد كانت قيادات قريش وهى تواجه الدعوة وقائدها على مستوى رفيع من الذكاء ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٧ .

فقد كان الوفد الذى مضى إلى رسول الله ﷺ يضم ثلاثة من سادة بنى عبد مناف ، واثنين من بنى أسد قبيلة خديجة ـ رضى الله عنها ـ بينما كان النصف الآخر من بنى مخزوم وبنى سهم .

لقد شطرا بنى عبد مناف شطرين ، وغُرّر بعتبة وشيبة وأبى سفيان ، وبأبى البخترى بن هشام، فمضوا مع الوفد يطالبون بكف محمد ﷺ ومنعه عن سب الآلهة وعيب الدين وتسفيه الأحلام .

وبذلك فوَّتوا على أبى طالب أن يكون مع عتبة وشيبة وأبى سفيان بنى عبد شمس ابن عبد مناف صفا واحداً لمواجهة قريش .

وكان همّ هذا الوفد هو منع محمد ﷺ من النيل من آلهتهم ودينهم، فهذا أكبر عارٍ يلحق بهم لو سكتوا على ذلك . وفوجئ أبو طالب بالموقف ،ووجد نفسه وحده مع بنى هاشم وبنى عبد المطلب. فقال لهم قولاً رقيقاً وردهم ردا جميلاً. فانصرفوا عنه .

الجولة الثانية :

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ثم شرى[1] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال بعضهم عن بعض وتضاغنوا [2] وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها ، وتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضا عليه ، ثم إنهم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا ومنزلة وشرفاً فينا . وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ، أو كما قالوا له . ثم انصرفوا عنه .

فعظُم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه .

قال ابن إسحاق : (وحدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حُدِّثَ أن قريشاً حين قالوا لأبى طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له :

يا بن أخى إنَّ قومك قد جاؤونى فقالوا كذا وكذا ـ للذى كانوا قالوا له ـ فابق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، قال : فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء[3] أنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه قال : فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) شرى : كثر وازداد .
(٢) تضاغن الرجال : تعادوا ، والضغينة : هى الحقد .
(٣) بدا له بداء : أى بدا له رأى جديد غيّر فيه رأيه السابق .

« يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . قال: ثم استعبر[1] رسول الله ﷺ فبكى ثم قام . فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال : اذهب يابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً) [2] .

(وعن عقيل بن أبى طالب قال : جاءت قريش إلى أبى طالب . فقالوا :إن ابن أخيك قد آذانا فى نادينا ومسجدنا فانهه عنا . فقال : يا عقيل ، انطلق فائتنى بمحمد ، فانطلقت إليه فاستخرجته من كنس ـ يقول: بيت صغير ـ فجاء به فى الظهيرة فى شدة الحر . فلما أتاهم قال :

إن بنى عمك زعموا أنك تؤذيهم فى ناديهم ومسجدهم ، فانته عن أذاهم فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال :

« ترون هذه الشمس ؟ » قالوا : نعم . قال : « فما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة » فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخى قط . فارجعوا) [3] .

لقد كانت هذه الجولة تحمل طابع الحسم والعنف ،وأبو طالب الشيخ الوقور يرى عِلْيَة قومه وسادة عشيرته يناشدونه أن يضع حدا لابن أخيه محمد ﷺ ، وفيهم من بنى عبد مناف أقاربه الأدنون ، ومن كانوا حلفاءهم من تيم وزهرة ، ومن العشائر المنافسة التى تنتظر مناسبة لتوقد ضرام الحرب من بنى مخزوم وبنى سهم وغيرهم ، لقد أجمعوا كلهم على مواجهته .

وليست المواجهة مع شيخ بنى هاشم استنتاجاً أو تلميحاً بل هى مواجهة صريحة ؛ لأن آثار دعوة محمد بن عبد الله قد برزت عياناً ، فتباعد الأقارب ، وتضاغن الرجال وساد التوتر أجواء مكة . فهم يقولون له كلاماً سافراً لا لبس فيه:

(فإما أن تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين) .

والمطالب التى يقدّمها القوم ليست مطالب تعجيز ولا تبرير فهم يقولون : (فإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا). وأى عربى يصبر

---

(١) استعبر : بكى وهطلت عبرته .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٧ وما بعدها .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٤٦، ٤٧ وقال : رواه البخارى فى التاريخ ،والبيهقى،واللفظ له .الدلائل ٢/ ١٨٦، ١٨٧ . وقال الهيثمى عنه فى مجمع الزوائد ٦/ ١٥ : «رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وأبو يعلى باختصار من أوله ، ورجال أبى يعلى رجال الصحيح» .

على ذلك ؟

لو كانت الدعوة المحمدية تقتصر على الدعوة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وتأكيد الوحدانية دون التعرض لتسفيه الأحلام ، وعيب الآلهة ؛ لهان الأمر فلكلٍ حرية معتقده بحيث لا تنال من معتقد الآخرين ، فكيف إذا كانت عقيدة أهل مكة كلهم بما فيهم أبى طالب هى التى تشتم وتعاب ، وهى عقيدة الآباء والأجداد المقدسين .

إن الخط الفاصل الذى يريدونه ليس التعرض للدعوة المحمدية أو إيقافها أو منعها ، إنهم يطالبون بإيقاف الاعتداء على آلهتهم ، وتسفيهها والنيل منها . فحرية المعتقد مصونة ، وحرية الدعوة مصونة ، لكن الذى يشكل التوتر والصراع، والثلم فى الكرامة هو عيب آلهتهم المقدسة ،وشتم آبائهم الذين اعتنقوا هذه العقيدة بأنهم كانوا على ضلال مبين .

ـ ولا غرابة أن نجد أبا طالب ـ فى لحظة من لحظات الضعف البشرى ـ يدعو أحب الناس فى الدنيا إلى قلبه ، ويرجوه أن يكف عن عيب الآلهة ، والنيل من العقيدة . لكف حرب لا يعلم مداها إلا الله (فابق علىَّ وعليك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق) .

فهو يعلن أنه لن ينفصل عنه ، وهو بجواره ، لكن هل لهذه الحرب من مخرج ؟ وهل من سبيل لتلبية مطالب القوم ؟ والأمر المطلوب هو ليس الكف عن إثبات التوحيد، بل الكف عن النيل من الشرك وتسفيهه . المطلوب ليس إيقاف (لا إله إلا الله) بل المطلوب إيقاف مقتضيات (لا إله إلا الله) حتى تتوضح أبعادها ، وتتحقق مضامينها .

ـ وكان الجواب النبوى الخالد كما فى رواية ابن هشام :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

وكما فى رواية الطبرانى والبيهقى :

« أترون هذه الشمس ؟ » قالوا : نعم . قال : « فما أنا بأقدر على أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة » .

فلابد أن يفصل الآيات ويوضحها لتستبين سبيل المجرمين ، وليتضح أن عقائد القوم باطلة ، وأن عقائد القوم كافرة ، فيتجنبها الناس، لا أن تتوضح (لا إله إلا الله) فقط ، بل المبدأ الخالد :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾(١) .

وبعد نفى الشرك ، وإعلان كفر من يعتقد به تأتى كلمة التوحيد .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(٢) .

- وأمام هذه المفاصلة البينة الواضحة ، اختار أبو طالب أن ينحاز إلى حماية محمد ﷺ ضد كل كبراء قومه وشيوخهم والملأ منهم ، قائلاً لرسول الله ﷺ كما فى رواية ابن هشام : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا). وكما فى رواية الطبرانى : (والله ما كذب ابن أخى قط فارجعوا) .

- ولم يكتف بهذا القول بينه وبينهم بل أعلن ذلك شعراً تتناقله الركبان فى جزيرة العرب : (ثم قال أبوطالب من شعر قاله حين أجمع لذلك من نصرة رسول الله ﷺ والدفاع عنه ، على ما كان من عداوة قومه وفراقهم له :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسَّد فى التراب دفينا

فامض لأمرك ما عليك غضاضة ... وأبشر وقر بذاك منك عيونا

ودعوتنى وعلمت أنك ناصحى ... فلقد صدقت وكنت ثم أمينا

لولا الملامة أو حذارى سبة ... لوجدتنى سمحاً بذاك مبينا

وعرضت ديناً قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينا(٣)

وتتسرب الأخبار إلى الصف المؤمن ، فيبتهجون فرحاً بهذا الموقف العظيم من أبى طالب ؛ لأنهم عاجزون عن حماية قائدهم عليه الصلاة والسلام . إلا بفنائهم عن آخرهم ، ولا يرضى لهم قائدهم ذلك الآن ، فهو حريص على ظُفر أدنى واحدٍ منهم مولىً أو طفل أو امرأة .

الجولة الثالثة :

قال ابن إسحاق :

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد ، أنهد فتىً فى قريش وأجمله ، فقالوا له فيما بلغنى : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش

---

(١) سورة الكافرون . (٢) سورة الإخلاص .

(٣) السيرة النبوية لابن إسحاق ١/ ١٥٥ تحقيق د . سهيل زكار .

وأجمله . فخذه فلك عقله ونصرته واتخده ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفَّه أحلامهم ، فنقتله فإنما هو رجل برجل . فقال :

والله لبئس ما تسومونني[1] أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه! والله هذا لا يكون أبداً ، أفلا تعلمون أن الناقة إذا فقدت ولدها لم تحنَّ إلى غيره !!

فقال له المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : لقد أنصفك قومك يا أبا طالب ، وما أراك تريد أن تقبل ذلك منهم . فقال أبو طالب للمطعم بن عدى :

والله ما أنصفتمونى ولكنك قد أجمعت على خذلانى ومظاهرة[2] القوم علىّ فاصنع ما بدا لك أو كما قال أبو طالب .

فحقب[3] الأمر عند ذلك ، وحميت الحرب ، وتنابذ القوم[4] ، وبادى بعضهم بعضاً فقال أبو طالب عند ذلك ، وإنه يُعرض بالمطعم ـ ويُعمُّ من خذله من بنى عبد مناف ، ومن عاداه من قبائل قريش . ويذكر ما سألوه فيما طلبوا منه ، وما تباعد من أمرهم :

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم	ألا ليت حظى من حياطتكم بكر[5]
من الخور[6] حبحاب[7] كثير رغاؤه	يُرش على الساقين من بوله قطر
تخلف خلف الورد[8] ليس بلا حق	إذا ما علا الفيفاء قيل له وبر[9]
أرى أخوينا من أبينا وأمنا	إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر
بلى لهما أمر ولكن تجرجما[10]	كما جرجمت من رأس ذى علق صخر[11]
أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلا	هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمر
هما أغمزا[12] للقوم فى أخويهما	فقد أصبحا منهم أكفهما صفر

(١) تسومونني : من السوم وهو فى البيع والشراء .
(٢) المظاهرة : المعاونة .
(٣) حَقَب : زاد واشتد .
(٤) تنابذ القوم : أى تركوا ما كان بينهم من عهد .
(٥) بكْرُ : الفتى من الإبل : أى أن بكراً من الإبل أنفع لى منكم . فليته لى بدلاً من حياطتكم .
(٦) الخور : جمع أخور ، وهو الضعيف .
(٧) الحبحاب : الكثير الكلام واستعاره هنا للرغاء .
(٨) الورد : المكان الذى ترده الإبل .
(٩) الوبر : دويبة قدر الهر .
(١٠) تجرجما : أى سقط وانحدر .
(١١) ذو علق : جبل فى ديار بنى أسد ، ترك صرف ذى علق ، لأنه اسم بقعة أو لضرورة الشعر .
(١٢) أغمزا : سببا الطعن .

هما أشركا في المجد من لا أبا له ... من الناس إلا أن يُرسَّ له ذكر[1]
وتيم ومخزوم وزهرة منهم ... وكانوا لنا مولىً إذا بُغى النصر
فوالله لا تنفك منا عداوة ... ولا منهمُ ما كان من نسلنا شفر[2]،[3]

وأبو طالب هنا يحاول ضم شقى بنى عبد مناف إليه ، وهما بنو عبد شمس ، وبنو نوفل، وينفخ فيهم نخوة العشيرة وحمية القبيلة ، لعلهما ينضمان إلى بنى هاشم وبنى المطلب فتقوى شوكة حزب نصرة محمد ﷺ .

الجولة الرابعة :

وذلك حين فشلت المحاولات الثلاث السابقة .

قال ابن إسحاق :

(ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله ﷺ بعمه أبى طالب ، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب فدعاهم إلى ما هم عليه من منع رسول ﷺ والقيام دونه فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه - إلا ما كان من أبى لهب عدو الله الملعون . فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه من جهدهم معه ، وحدبهم عليه ، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ، ومكانه منهم ليَشُدّ لهم رأيهم ،وليحدبوا معه على أمره فقال :

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرُّها وصميمها[4]
وإن حُصِّلت أشراف عبد منافها ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرِّها وكريمها
تداعت قريش غثها[5] وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت[6]حلومها[7]

---

(١) إلا أن يرَّس له ذكر : أى يذكر ذلك خفياً . (٢) شفر : أحد .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٣١ ولابن إسحاق ١/ ١٥٣ .
(٤) سرِّها وصميمها : أى خالصها وكريمها .
(٥) غثُّها : أصل الغث : اللحم الضعيف ، فاستعاره هنا لمن ليس نسبه هناك .
(٦) طاشت : ذهبت . (٧) حلومها : عقولها .

وكنا قديما لا نقر ظُلامة إذا ما ثنوا[1] صُعْر الخدود[2] نقيمها
ونحمى حماها كل يوم كريهة ونضرب عن أحجارها[3] من يرومها
بنا انتعش[4] العود الذَّواء[5] وإنما بأكنافنا تندى وتنمى أرومها[6])[7]

لقد قرَّرت قريش خطة جديدة حين عجزت عن القضاء على قائد الدعوة رغم كل المحاولات اليائسة ، حتى ليتنازل الوليد بن المغيرة عن ابنه عمارة ـ أنهد فتى فى قريش وأجمله ليعطيه لأبى طالب ؛ لتحقيق مصلحة قريش فى قتل محمد ﷺ . وحين كان موقف أبى طالب من الصرامة والصلابة بحيث قطع كل محاولات التخلى عن حبيبه المصطفى ﷺ .لم يكن أمام قريش بد من أن تنكب على (الذين آمنوا معه) يعذبونهم ويفتنونهم فى دينهم . إنها لجأت لذلك عند العجز التام عن قطع رأس الفتنة ـ كما تتوهم . ورأى أبو طالب أن الأمر جد . والحرب قد تقع على قدم وساق ، فدعا جميع رجالات بنى هاشم وبنى المطلب وأبطالها ، وحثهُم على نصر محمد سيد بنى هاشم . فأجابوه جميعاً إلا أبا لهب ، لقد استطاع أبو طالب أن يدحر أخاه أبا لهب بحيث يبقى منبوذاً وحده مع أعداء قومه ، ولم يستجب له إلا بنوه بينما انضم كل الشباب الهاشمى والمطلبى إلى شيخهم وعظيمهم أبى طالب ، وقرّت عين الزعيم الهاشمى بذلك ، فراح يفخر بهذا الجمع الضخم الذى سار كتلة واحدة لنصرة الأمين محمد بن عبد الله. وبرز الحزب الجديد الذى يكافئ الحزب الإسلامى،حزب أنصار محمد ﷺ وفيه بضعة وأربعون رجلاً ، خلا النساء والعواتق فى الخدور اللاتى كن على استعداد للموت حماية لسيدهم وشريفهم محمد بن عبد الله. ولا تزال كلمة صفية عمة محمد ﷺ ترّن فى أعماق البهاليل من بنى هاشم:(فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ عبد المطلب نبى ، فهو هو)،وأروى بنت عبد المطلب عمته الثانية تقول لابنها طليب :

(إن أحقّ من وازرت وعضدت خالك ، والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه

---

(١) ثنوا : عطفوا .
(٢) صعر الخدود : أى مائلة تكبراً .
(٣) نضرب عن أحجارها : ندفع عن حصونها .
(٤) انتعش : حيى وظهرت فيه الخضرة .
(٥) العود الذواء : الذى جفت رطوبته ولم يصل إلى حد اليبس .
(٦) أرومها : أصولها .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٣٣ .

الرجال لتبعناه وذببنا عنه) [١] ، وتقول لأخيها أبى لهب: (. . . فقم دون ابن أخيك واعضده وامنعه فإن يظهر أمره فأنت بالخيار أن تدخل معه أو تكون على دينك . فإن يُصب كنت قد أعذرت فى ابن أخيك) فقال أبو لهب: ولنا طاقة بالعرب قاطبة ؟ جاء بدين محدث) [٢] .

ونجد أبا طالب لم يشر فى أبياته إلى فضل بنى المطلب . ولا عجب فى ذلك فقد كان بنو المطلب يعتبرون أنفسهم وبنى هاشم شيئاً واحداً . وهو الذى قاله عليه الصلاة والسلام كما روى جبير بن مطعم قال : مشيت أنا وعثمان بن عفان ـ يعنى ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ـ إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، أعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا . ونحن وهم منك بمنزلة واحدة . فقال :

« إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » [٣] ، وفى بعض روايات هذا الحديث: « إنهم لما يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام » [٤] .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ : (وأما سهم ذوى القربى فإنه يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب؛ لأن بنى المطلب آزروا بنى هاشم فى الجاهلية ، وفى أول الإسلام ودخلوا معهم فى الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له : مسلمهم طاعة لله ورسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة ، وطاعة لأبى طالب عم النبى ﷺ . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا بنى عمهم فلم يوافقوهم على ذلك ، بل حاربوهم ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب رسول الله ﷺ ، ولهذا كان ذم أبى طالب لهم فى قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم ، إذ يقول فى ثنايا قصيدته:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً ... عقوبة شر عاجلاً غير آجل
بميزان قسط لا يخيس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل
لقد سُفِّهت أحلام قومٍ تبدلوا ... بنى خلف قيضاً بنا والعياطل
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم ... وآلى قصىٍّ فى الخطوب الأوائل)[٥]

ولابد من الإشارة فى ثنايا الحديث عن الدعوة إلى الفرق بين عيب الآلهة

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٤٢ . (٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٦/ ٢٤٤ .

(٤) يقول ابن حجر : وهذه الزيادة التى أشار إليها وقعت فى رواية ابن إسحاق المذكورة ولفظه : « إنا وبنو المطلب لم نفترق فى جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شىء واحد » وشبك بين أصابعه . فتح البارى ٦ / ٢٤٥ .

(٥) تفسير ابن كثير ـ سورة الأنفال ج٣/ ٣٢٥.

وبطلانها، وبين شتم الآلهة وسبها ، فقد يختلط الأمر على الداعية فيه :

يقول الله عز وجل : ﴿ **وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[1] .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية :

(يقول الله تعالى ناهياً لرسول الله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهى مقابلة المشركين بسبٍّ إله المؤمنين ، وهو (الله لا إله إلا هو) ، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية : قالوا : يا محمد ، لتنتهين عن سبك آلهتنا ، أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم : ﴿ **فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فيسب الكفار الله عدوا بغير علم ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ ثم قال : وقوله : ﴿ **كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾ أى : وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار ، كذلك زينا لكل أمة أى من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذى كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة ـ فيما يشاؤه ويختاره ، ﴿ **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ** ﴾ أى : معادهم ومصيرهم ،﴿ **فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ أى : يجازيهم بأعمالهم : إن خيراً فخير وإن شرا فشر)[2] .

والسباب والشتم للآلهة يعنى تصغيرها وتحقيرها ، وهى ضخمة مقدسة فى قلب عبادها ، وحين تنال هذه القداسة بالسب والشتم فيقابلون هذا الموقف بتصغير وتحقير مقدسات المسلم ، وسبها وشتمها وتتحول القضية إلى عداوة مستحكمة تضيع الحقيقة فى ثناياها ويصبح الغضب للذات والنفس ، والتعصب والهوى هو الذى يطمس على البصيرة .

وكنموذج لهذا الشتم ما روته كتب السيرة حين سأل أبو سفيان يوماً رسول الله ﷺ عن العزى قائلاً : ما أفعل بالعزى ؟ فأجابه رضي الله عنه تخرأ عليها . فقال له أبو سفيان : ويحك يا عمر إنك رجل فاحش ، دعنى مع ابن عمى فإياه أكلم .

وما ذكر يوم الحديبية فى جواب أبى بكر رضي الله عنه لعروة بن مسعود وقد راح يصم أصحاب رسول الله ﷺ بالجبن فقال أبو بكر له : امصص بظر اللات أنحن ننكشف عنه ؟! .

---

(١) الأنعام / ١٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير ـ سورة الأنعام ج٣/ ٧٩.

وما ذكرته كتب السيرة عن أبى ذر رضي الله عنه حين وجد المرأتين اللتين تدعوان إسافاً ونائلة فقال: (أنكحا إحداهما الأخرى ، فما تناهتا عن قولهما فأتتا علىّ فقلت: هن مثل الخشبة غير أنى لا أكنى) ، فانطلقتا تولولان وتقولان: لو كان هاهنا أحد من أنفارنا ، فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطتان قال: «ما لكما ؟» قالتا : الصابئ بين الكعبة وأستارها . قالا : «ما قال ؟ » قالتا : إنه قال لنا كلمة تملأ الفم) .

أقول : هذا هو الشتم الذى أُمر المسلمون بالكف عنه ، وذلك فى بداية الدعوة، وهم لا سلطان لهم على المشركين لو مضوا يسبون الله ورسوله لاستفزازهم بذلك .

أما أن يوضح المسلم عيب الآلهة ، وأنها حجارة لا تضر ولا تنفع ولا تغنى عن الله شيئاً ، ولا تملك نصراً لهم ولا رزقاً إلى غير ذلك من تبيان الحق وإيضاحه ، فهذا شىء آخر جاء المنهج القرآنى يقرّه ويذكره ، ويرد به على المشركين حججهم ودعواهم :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ . وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ . إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ . وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ . خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[1] .

(١) الأعراف / ١٩١ ـ ١٩٩ .

الخمسـون الثانيـة
ودار الأرقـم

لقد غدا للمسلمين دار يجتمعون فيها سرا ، ويتلقّون التربية النبوية ، وذلك بعد أن وقع ذلك الاصطدام بين سعد ﷺ ومن معه ، وبين نفر من المشركين ، وسالت الدماء فى ذلك ، أصبح مركز الدعوة اليوم هو دار الأرقم ، وقد انضم إلى الإسلام فى هذه الدار بنو البكير فى أوائل من انضم ، ويرجح أن يكون عمار بن ياسر وصهيب بن سنان قد انضما إلى الدعوة فيها كذلك كما ورد فى بعض الروايات .

ونشهد الآن الدفعة الجديدة التى انضمت سرا إلى الإسلام ، والتى تحدث عنها مؤرخو السيرة بقولهم كما ذكر ابن إسحاق :

(ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحُدِّث به ، ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يبادى الناس بأمره وأن يدعو إليه ، فكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغنى) .

ولئن كان الأرجح أن يكون عليه الصلاة والسلام قد دخل دار الأرقم فى بداية السنة الثالثة وكان الجهر بالدعوة فى مشارف الرابعة . فهذا العام والعام الذى يليه بعد الجهر بالدعوة شهد تقدماً ملحوظاً عند المؤمنين ، ودخل الناس أرسالاً من الرجال والنساء .

فلنتعرف على المجموعة الثانية التى انضمت لهذا الدين الجديد :

أولاً : بنو عبد مناف :

وقد كان الدخول منهم ضئيلاً ، ورأينا كيف تشكل حزب نصرة محمد ﷺ وعلى رأسه أبو طالب ، دون أن يعلن انضمامه لهذا الدين ، ولم يكن بين بنى هاشم ممن دخل فى هذا الدين إلا علىّ بن أبى طالب وأخوه جعفر ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، من بنى المطلب ، لكن بنى أمية ، ورغم الموقف العدائى لقيادتهم من الدعوة. فقد انضم عدد منهم ودخل فى الإسلام .

١ ــ عمرو بن سعيد :

رأينا الشخصية الفذة لخالد بن سعيد ﷺ الذى تحدى أباه ـ أبا أحيحة ـ عزيز

مكة، وراح أبوه يضربه بمطرقة كسرها على رأسه ومنعه القوت وطرده من بيته ، ووجّه أولاده جميعاً لمقاطعته ، غير أن أحد إخوانه وهو عمرو بن سعيد ، شذ عنهم ، وأشرق قلبه بالإسلام ، وأسلم ورسول الله ﷺ فى دار الأرقم .

وكان عمرو عند أبيه هو السند المكين فى حرب أخيه خالد : فعن عبد الله بن عمرو بن سعيد بن العاص قال :

(لما أسلم خالد بن سعيد ،وصنع به أبو أحيحة ما صنع فلم يرجع خالد عن دينه، ولزم رسول الله ﷺ حتى خرج إلى الحبشة فى الهجرة الثانية غاظ ذلك أبا أحيحة وغمّه وقال : لأعتزلن فى مالى لا أسمع شتم آبائى ولا عيب آلهتى هو أحب إلىّ من المقام مع هؤلاء الصُباة . فاعتزل فى ماله بالظُّريبة نحو الطائف . وكان ابنه عمرو بن سعيد على دينه ، وكان يحبه ويعجبه فقال أبو أحيحة :

ألا ليت شعرى عنك ياعمرو سائلاً إذا شبَّ واشتدت يداه وسلَّحا[1]
أتترك أمر القوم فيه بلابل وتكشف غيظاً كان فى الصدر موجحا[2]

فلما خرج أبو أحيحة إلى ماله بالظَّرَيْبة ، أسلم عمرو بن سعيد ولحق بأخيه خالد ابن سعيد بأرض الحبشة) [3] .

وعن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال :

أسلم عمرو بن سعيد بعد خالد بن سعيد بيسير ، وكان من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية ، معه امرأته فاطمة بنت صفوان الكنانية)[4] .

قال ابن حجر :

وكان أبوه هلك بمكان يقال له : بالظُّريبة ، وكان أخوه خالد أسلم أيضاً فقال لهما أخوهما أبان يعاتبهما وذلك قبل أن يسلم :

ألا ليت ميتاً بالظُّريبة شاهد لما يفترى فى الدين عمرو وخالد
أطاعا معاً أمر النساء فأصبحا يعينان من أعدائنا من يُكابد

فقال عمرو بن سعيد يجيبه :

---

(١) سلَّح : لبس سلاحه يحمله .
(٢) موجحاً : مستوراً مخبئاً .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٠٠ .
(٤) المصدر نفسه / ١٠١ .

أخى ما أخى لا شاتم أنا عرضه ... ولا هو عن سوء المقالة يقصر
يقول إذا اشتدت عليه أموره ... ألا ليت ميتاً بالظُّريبة ينشر
فدع عنك ميتاً قد مضى لسبيله ... وأقبل على الحق الذى هو أظهر[1]

وندع الحديث عن عمرو الذى شكل مع أخيه خالد الجبهة الإسلامية فى بيت أبى أحيحة . فهو من أشراف بنى عبد مناف ، وهو الذى ادخره الإسلام فيما بعد لينضم إلى أخيه ، والياً وقائداً ، إذ لم يفته من الشرف إلا الاصطفاء الهاشمى .

٢ ـ معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى :

وقد انضم إلى جبهة خالد وعمرو ابنى سعيد فهو مولى سعيد بن العاص بن أمية، وأسلم قديماً بمكة ، وهو من مهاجرة الحبشة .

(وخرج معيقيب من مكة بعد أن أسلم ، فبعضهم يقول: هاجر إلى الحبشة ، وبعضهم يقول: رجع إلى بلاد قومه ، ثم قدم مع أبى موسى الأشعرى حين قدم الأشعريون، ورسول الله ﷺ بخيبر ، فشهد خيبر وبقى إلى خلافة عثمان) [2] .

(وعُرِف معيقيب رضي الله عنه بثلاثة :

الأول : أن عمر رضي الله عنه ولاه خزينة الأمة لأمانته فـ(كان على بيت المال لعمر بن الخطاب)[3] .

الثانى : أن عثمان رضي الله عنه سلّمه خاتمه لأمانته ، وهو خاتم النبى ﷺ، ويعنى هذا أمانة سره (وهو الذى سقط من يده خاتم النبى ﷺ أيام عثمان رضى الله عنه فى بئر أريس فلم يوجد ، ومذ سقط الخاتم اختلفت الكلمة) [4].

الثالث : كان به داء الجذام رضي الله عنه فأكرمه عمر لفضله وسابقته وحضوره بيعة الرضوان فيقول عبد الله بن جعفر (ولقد رأيت عمر بن الخطاب يؤتى بالإناء فيه الماء، فيعطيه معيقيباً وكان رجلاً قد أسرع فيه ذلك الوجع فيشرب منه ثم يتناوله عمر من يده فيضع فمه موضع فمه حتى يشرب منه) . . . قال : وكان يطلب له الطب من كل من سمع له بطب حتى قدم عليه رجلان من أهل اليمن فقال : هل عندكما من طب لهذا الرجل الصالح ؟ فإن هذا الوجع قد أسرع فيه . فقالا : أما شىء يُذهبه فإنا لا نقدر عليه ، ولكنّا سنداويه دواءً يقفه فلا يزيد . قال عمر : عافية عظيمة أن يقف فلا يزيد. فقالا له : هل تنبت أرضك الحنظل ؟ قال : نعم . قال : فاجمع لنا منه . فأمر من

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٤/ ٣٠٠ .
(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٥/ ٢٤٠ .
(٣) الإصابة لابن حجر ٣/ ٦/ ١٣٠ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١١٧ .

جمع لهما منه مكتلين عظيمين ، فعمدا إلى كل حنظلة فشقاها بثنيتين ثم أضجعا معيقيباً ثم أخذ كل رجل منهما بإحدى قدميه ثم جعلا يدلكان بطون قدميه بالحنظلة ، حتى إذا امحقت أخذا أخرى حتى رأينا معيقيباً يتنخم أخضر مراءً ثم أرسلاه فقالا لعمر: لا يزيد وجعه بعد هذا أبداً . قال : فوالله ما زال معيقيبا متماسكاً لا يزيد وجعه حتى مات) [1] .

وعن خارجة بن زيد أن عمر بن الخطاب دعاهم لغدائه ، فهابوا وكان فيهم معيقيب وكان به جذام ، فأكل معيقيب معهم فقال له عمر : خذ مما يليك ومن شقك، فلو كان غيرك ما آكلنى فى صَحفَة ، ولكان بينى وبينه قيد رمح .

وهكذا وعى التاريخ معيقيباً على بلائه العظيم ، ولبلائه وجهاده فى الإسلام تولى المسؤولية التى تناسبه ، وقام بدوره خير قيام ، دون أن يحول مرضه عن ممارسته لواجباته ، واستغلال إمكاناته وطاقاته .

ثانياً : الزهريون :

وقد انضم ثلاث شخصيات من بنى زهرة وحلفائهم إلى الإسلام هم :

٣ ـ المقداد بن الأسود :

هو حليف بنى زهرة ، وسبق أن تحدثنا عنه فى الفصل السابق بما فيه الكفاية فى هذا المقام ، ولا حاجة لتكراره .

٤ ـ عتبة بن مسعود :

وكما انضم عمرو بن سعيد لأخيه خالد ،فقد انضم عتبة بن مسعود رضي الله عنه لأخيه عبد الله بن مسعود . ونأخذ ترجمته مباشرة من الإصابة :

(عتبة بن مسعود أخو عبد الله لأبويه ، تقدم نسبه فى ترجمته ، قال الزهرى : (ما كان عبد الله بأقدم هجرة من عتبة ، ولكن عتبة مات قبله) أخرجه الطبرانى ورواه عبد الرزاق بلفظ: (ما كان بأفقه . .) وهاجر عتبة إلى الحبشة فأقام بها إلى أن قدم مع جعفر بن أبى طالب ، وقيل: قدم قبل ذلك ، وشهد أحداً وما بعدها ، وقال البخارى فى الأوسط : حدثنا عبد الله حدثنى الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرنى السائب بن يزيد (أنه كان بعثه مع عتبة بن مسعود فى خلافة عمر) قال:وقال سعيد عن الزهرى : (بلغنى أن عمر كان يؤمّره) ، وروى الطبرانى وغيره من طريق أبى العميس عن أبيه أو عون بن عبد الله بن عتبة قال : (لما مات عتبة بكى عليه أخوه عبد الله فقيل له :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١١٧/٤ .

أتبكى ؟ قال : نعم أخى فى النسب وصاحبى مع رسول الله ﷺ وأحب الناس إلىّ إلا ما كان من عمر) ،وروى البخارى من طريق المسعودى عن القاسم قال : مات عتبة بن مسعود فى زمن عمر فقال : « انتظروا حتى يجىء ابن أم عبد » قلت : وهذا أصح من قول يحيى بن بكير : إنه مات سنة أربع وأربعين) (١) .

٥ ـ شرحبيل ابن حسنة :

وهو أحد القادة الكبار فى الإسلام وقد استوفى ابن الأثير ترجمته فنذكر منها :

(شرحبيل ابن حسنة ، وهى أمه ، واسم أبيه عبد الله بن المطاع . . . أخى تميم ابن مرة ، وقيل : إنه كِندى، وقيل : إنه تميمى ، وقيل غير ذلك ، يكنى أبا عبد الله، وأمه حسنة مولاة لمعمر بن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحى ، وكان شرحبيل حليفاً لبنى زهرة ، حالفهم بعد موت أخويه لأمه ، جنادة وجابر ابنى سفيان بن معمر بن حبيب ، ولما مات عبد الله والد شرحبيل ، تزوج أمه حسنة رجل من الأنصار من بنى زريق . . . وقال أبو عمر : كان شرحبيل من مهاجرة الحبشة ، ومن وجوه قريش ، وسيّره أبو بكر وعمر على جيش إلى الشام ، ولم يزل والياً على بعض نواحى الشام لعمر إلى أن هلك فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة ، وله سبع وستون سنة ، طعن هو وأبو عبيدة بن الجراح فى يوم واحد) (٢) .

ثالثاً : المخزوميون :

وهم أكبر البطون المناوئة لبنى عبد مناف وبنى هاشم ، وكانوا يتنازعون السيادة والشرف معهم ، وانضم فى هذه المجموعة الجديدة خمسة من كبار رجالاتهم وهم :

٦ ـ سلمة بن هشام :

ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى المخزومى، أسلم قديماً ، وأمه ضباعة بنت عامر بن قرط . . . وهو أخو أبى جهل بن هشام وابن عم خالد بن الوليد، وكان من خيار الصحابة وفضلائهم ، وهاجر إلى الحبشة ، ومُنع سلمة من الهجرة إلى المدينة ، وعُذّب فى الله عز وجل فكان رسول الله ﷺ إذا قنت فى الركعة من صلاة الصبح قال : « اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة، والمستضعفين بمكة » ، وهؤلاء الثلاثة من بنى مخزوم ، فأما الوليد بن الوليد فهو أخو

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٢ ج٤/٢١٦ .
(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٢/ ٥١٢ .

خالد ، وأما عياش بن أبى ربيعة بن المغيرة فهو ابن عم خالد .

وهاجر سلمة إلى المدينة بعد الخندق ، وقال الواقدى : إن سلمة لما هاجر إلى المدينة قالت أمه :

لاهـمّ رب الكعبـة المحرمـه أظهـر علـى كل عـدو سلمـه
لـه يدان فـى الأمور المبهمـه كفٌ بها يُعطى وكفّ مُنعمه

وشهد مؤتة ، وعاد منهزماً إلى المدينة ، فكان لا يحضر الصلاة؛ لأن الناس كانوا يصيحون به وبمن سلم من مؤتة : يا فرّارين ، فررتم فى سبيل الله ! ولم يزل بالمدينة مع رسول الله ﷺ حتى توفى فخرج إلى الشام مجاهداً ، حين بعث أبو بكر الجيوش إلى الشام ، فقتل فى مرج الصُّفَّر سنة أربع عشرة أول خلافة عمر ، وقيل : بل قتل بأجنادين فى جمادى الأولى قبل وفاة الصديق بأربع وعشرين ليلة) [١] .

٧ ـ هشام بن أبى حذيفة :

إنهما بنو المغيرة ، سلمة بن هشام بن المغيرة،وهشام بن أبى حذيفة بن المغيرة وهما من صميم مخزوم ، ومن بيت العدد والشرف والسؤدد،وانضمامهما كان ثلمة فى جدار بنى مخزوم (وكان قديم الإسلام فى مكة ،وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية فى رواية محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر،إلا أن محمد بن إسحاق كان يقول: هشام ابن أبى حذيفة وهذا منه وهم، إنما هو هاشم بن أبى حذيفة ولم يذكره موسى بن عقبة وأبو معشر فيمن هاجر عندهما إلى أرض الحبشة ،وتوفى وليس له عقب) [٢].

٨ ـ شماس بن عثمان :

وقد حفل تاريخه ببطولته العظيمة وفدائه العظيم فى الذب عن رسول الله ﷺ ، كما اشتهر بجماله ووضاءته ، ووضع هذا الجمال وهذه الوضاءة ترساً للدفاع عن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه . لقد دخل فى الإسلام وهو فتى عمره دون العشرين، واستشهد وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره .

فهو (شماس بن عثمان بن الشريد بن هرمى بن عامر بن مخزوم ، وكان اسم شماس عثمان . وإنما سمى شمّاساً لوضاءته فغلب على اسمه . . .وكان شماساً ممن هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية . . . ولما هاجر إلى المدينة نزل على مُبشِّر بن المنذر. . وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين حنظلة بن أبى عامر . . . وشهد شماس بن

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢/ ٤٣٥ . (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٣٥ .

عثمان بدراً وأحداً وكان رسول الله ﷺ يقول : «ما شهدت لشماس بن عثمان شبهاً إلا الجُنَّة ». يعنى مما يقاتل عن رسول الله ﷺ يومئذ ـ يعنى يوم أحد ـ وكان رسول الله ﷺ لا يرمى ببصره يميناً ولا شمالاً إلا رأى شماساً فى ذلك الوجه يذُب بسيفه حتى غُشى رسول الله ﷺ فترس بنفسه دونه حتى قُتل ، فحُمل إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة ، فقالت أم سلمة : ابن عمى يدخل على غيرى ! فقال رسول الله ﷺ : « احملوه إلى أم سلمة» ، فحُمِل إليها فمات عندها رحمه الله .فأمر رسول الله ﷺ أن يردّ إلى أحد فيدفن هناك كما هو فى ثيابه التى مات فيها ،وقد مكث يوماً وليلة ـ لكنه لم يذق شيئاً ـ ولم يُصل عليه رسول الله ﷺ ولم يغسله ، وكان يوم قتل رحمه الله ابن أربع وثلاثين سنة ، وليس له عقب)[1] .

(. . . وقال حسان يرثيه ويعزّى فيه أخته :

أقنى[2] حياءك فى ستر وفى كرم فإنما كان شمّاس من الناس
قد ذاق حمزة ـ سيف الله ـ فاصطبرى كأساً رواء ككأس المرء شمّاس)[3]

٩ ، ١٠ ــ هبَّار بن سفيان وأخوه عبد الله :

ابنا عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان هبّار قديم الإسلام فى مكة وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية فى روايتهم جميعاً ، وقتل يوم أجنادين فى الشام . وأخوه عبد الله بن سفيان ،وكان قديم الإسلام بمكة ، وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية فى روايتهم جميعاً . وقتل يوم اليرموك شهيداً فى خلافة عمر بن الخطاب[4] .

لقد كان بنو مخزوم أولو قوة وأولو بأس شديد ، وكان عمرو بن هشام أعدى العدو للإسلام . فكان أخوه سلمة بن هشام ، أحد الفدائيين الذين سقطوا شهداء على أرض المعركة فى سبيل هذا الدين ، وكما رأينا فأربعة من الخمسة المخزوميين قضوا شهداء فى سبيل الله .أحدهم وهو شماس بين يدى رسول الله ﷺ .لقد جعلوا حدَّهم ونكايتهم فى سبيل الله.وقدموا روحهم ودمهم فى سبيل الله ،وسطّروا لبنى مخزوم أمجاداً فى الأرض وفى السماء،وأخزوا عمرو بن هشام فرعون هذه الأمة،حين انضموا

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢٤٥ .
(٢) أقنى : احفظى .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٣/ ٢١٢ .
(٤) الطبقات الكبرى ٣/ ١٣٥ .

إلى الركب المؤمن رغم أنفه ، وقاتلوه فى بدر،وكانوا الوقود الإسلامى ضد الشرك والوثنية .

١١ ـ مُعَتِّب بن عوف :

وهو من حلفاء بنى مخزوم ، وينتهى نسبه إلى خزاعة ،هو الذى كان يقال له : ابن الحمراء ، ويكنى أبا عوف ، وكان من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية . . . ولما هاجر من مكة إلى المدينة نزل على مبشِّر بن المنذر . قالوا: آخى رسول الله ﷺ بين معتِّب بن الحمراء وثعلبة بن حاطب ،شهد معتِّب بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، ومات سنة سبع وخمسين وهو يومئذ ابن ثمانٍ وسبعين سنة [١] .

رابعاً : العدويون :

لقد كان عمرو بن هشام المخزومى ، وعمر بن الخطاب العدوى ، أعدى العدو للمسلمين، ولهذا كان دعاء رسول الله ﷺ :

« اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك:عمر بن الخطاب،أو عمرو بن هشام ». فانضمام عدوى إلى الإسلام هو ثلمة فى جدار بنى عدى . ومع ذلك فقد انضم فى المجموعة الثانية ثلاثة من بنى عدى قبل أن ينضم عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذى قلب الموازين كلها لصالح الإسلام ، أما هؤلاء الأربعة فكانوا :

١٢ ، ١٣ ـ عدى بن نضلة وابنه النعمان :

(ابن عبد العزى بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب . . . وكان لعدى ابن نضلة من الولد نعيم وآمنة ، وكان عدى بن نضلة قديم الإسلام بمكة . وهاجر إلى أرض الحبشة فى روايتهم جميعاً . ومات هناك بأرض الحبشة . وهو أول من مات ممن هاجر ، وأول من وُرِثَ فى الإسلام ، ورثه ابنه النعمان بن عدى) . واستعمله عمر ابن الخطاب على ميسان ، ولم يستعمل من قومه غيره ، وأراد امرأته على الخروج معه إلى ميسان فأبت ، فكتب إليها أبيات شعر وهى :

فمن مبلغ الحسناء أن حليلها[٢] ... بميسان يُسقى فى زجاج وحنتم[٣]
إذا شئت غنتنى دهاقين قرية ... وصناجة[٤] تحدو على كل ميسم

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢٦٤ .
(٢) حليلها : زوجها .
(٣) الحنتم : جرار خُضر تضرب إلى الحمرة .
(٤) صناجة : مغنية ذات أوتار .

إذا كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى   ولا تسقنى بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسؤوه   تنادمنا فى الجوسق[1] المتهدم

فبلغ ذلك عمر فكتب إليه : أما بعد : فقد بلغنى قولك :

لعل أمير المؤمنين يسؤوه   تنادمنا فى الجوسق المتهدم

وايم الله لقد ساءنى ، ثم عزله فلما قدم عليه سأله فقال : والله ما كان من هذا من شيء ، وما كان إلا فضل شعر وجدته ، وما شربتها قط .

فقال عمر : أظن ذلك ولكن لا تعمل لى عملاً أبداً . فنزل البصرة ، ولم يزل يغزو مع المسلمين حتى مات[2] . ويقال : إن الرجل كان صالحاً ، وإنما قال هذا الشعر ليعزله عمر[3] . لقد كانت سياسة الفاروق أن يبعد بنى عدى عن المسؤولية . لكنه وجد فى النعمان بن عدى رضي الله عنه عنه كفاءة من جهة ، وتكريماً له ولأبيه الذى توفى فى النأى والغربة فى الحبشة ، و جبراً ليتمه ، ولا ندرى ما حدا بالنعمان رضي الله عنه لقول هذه الأبيات ، هل هو حرص على التخلص من الإمارة . فلوّح لعمر بقوله :

لعل أمير المؤمنين يسؤوه   تنادمنا بالجوسق المتهدم

وهو أقصر الطريق لعزله ؟ أم السبب هو تحريك الغيرة فى زوجه لعلها تلحق به فى ميسان كما هو فى صدر الرواية : (وأراد امرأته إلى الخروج معه فأبت) ؟ أم هو فضل شعر وجده ، كما ذكر ذلك لعمر رضي الله عنه وأياً كان السبب. ومع تصديق عمر له ، لكنه يرفض أن يكون أحد ولاته يتغنى بهذا الشعر.

والله در هذا المجتمع الربانى العجيب الذى يرفض أن يكون أحد قادته يتغنى بمثل هذا الشعر فى فسحة من فسحات العمر ، ولله در هذا الجيل المحمدى الذى رباه رسول الله ﷺ على عينه وكان خير أمة أخرجت للناس .

١٤ ـ عروة بن عبد العزى :

(ابن حرثان بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب ، وأمه النابغة بنت خزيمة من عنزة ، وأخوه لأمه عمرو بن العاص بن وائل السهمى . وكان عروة قديم الإسلام بمكة ، وهاجر إلى أرض الحبشة فى رواية موسى بن عُقبة وأبى معشر ومحمد

(١) الجوسق : الحصن .
(٢) أسد الغابة ٥ / ٣٣٦ .
(٣) هامش أسد الغابة ٢٣٦ .

ابن عمر) [١] . (وقد هلك بأرض الحبشة ولا عقب له)[٢] .

١٥ ـ معمر بن عبد الله :

(ابن نضلة بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب ، وأمه الأشعرية ، وكان قديم الإسلام فى مكة ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فى روايتهم جميعاً ، ثم قدم مكة فأقام بها وتأخرت هجرته إلى المدينة ،ثم هاجر بعد ذلك ، ويقولون : إنه لحق بالنبى ﷺ بالحديبية ، يختلفون فيه وفى خِراش بن أمية الكعبى ، وهو الذى كان يرجِّل للنبى ﷺ فى حجة الوداع) [٣] .

وعنه قال : (قمت على رأس رسول الله ﷺ ومعى موسى لأحلق رأسه فقال : يا معمر مكَّنك رسول الله ﷺ من شحمة أذنيه قلت : ذاك من منن الله علَّى . قال: أجل . فحلقت رأسه) وهذا الحديث أخرجه البغوى فى ترجمة معمر بن عبد الله بن نضلة . . . وأخرج من وجه آخر عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن عبد الرحمن ابن جبير عن معمر بن عبد الله العدوى قال:

(بعثنى رسول الله ﷺ أوذن الناس بمنى: ألا يصوم أحد أيام التشريق . فهذا يقوى أنه واحد) [٤] .

ويشرف الفرد فى هذا الجيل أن يكون حلاق المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ والمبلغ عنه. فهذا من منن الله عليه كما قال عليه رضوان الله .

خامساً : الأسديون :

وهم قبيلة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكان فى هذه القبيلة نوفل بن خويلد أخوها. وكان يقال له: أسد قريش ، وابن العدوية نسبة لأمه . وكان شديداً على المسلمين ، وهو الذى قرن أبا بكر وطلحة فى حبل بمكة فهما يقال لهما : القرينان ، وقتل يوم بدر كافراً. ومع كل هذه الشده وهذا العداء . فقد فتح الله قلب ولده للإسلام وانضم رغم أنف أبيه إلى الركب المؤمن .

١٦ ـ الأسود بن نوفل :

(ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى . . كان قديم الإسلام بمكة، وهاجر إلى أرض الحبشة فى المرة الثانية . وهاجـر إلى المدينة بعد قدوم النبى ﷺ) [٥].

---

(١) الطبقات الكبرى ٤/ ١٤٠ .

(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٩ .

(٣) الطبقات الكبرى ٤ / ١٣٩ .

(٤) الإصابة لابن حجر م٣ ج٦ ١٢٨

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ١٢٠ .

١٧ ـ عمرو بن أمية :

ابـن الحـارث بن أسد بن عبد العزى بن قصى . . كان قديم الإسلام بمكة . وهاجـر إلـى أرض الحبشة فى المـرة الثانية فمات هناك ـ فى روايتهم جميعاً ـ وليس له عَقِـب .

١٨ ـ يزيد بن زمعة :

(ابن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى . أمه قريبة بنت أبى أمية أخت أم سلمة . أسلم قديماً وكان من مهاجرة الحبشة .

أما بيته وبيت أبيه وجده فكان بيت رأس الكفر . فجده أبو زمعة . كان أحد المستهزئين الذين ذكرهم الله فى القرآن فقال : ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾[(١)] ، قالوا : رمى جبريل فى وجهه بورقة فعمى . وكان من كبراء قريش . ذكروا أن رسول الله ﷺ ذكر ناقة ثمود فقال :

« انبعث لها رجل عزيز منيع فى رهط مثل أبى زمعة » . وكان ابنه زمعة من أشراف قريش قتل ببدر كافراً)[(٢)].

وقد خاض رهط أبى زمعة الحرب العوان ضد المسلمين فقتل منهم ببدر كافراً ثلاثة وهم : زمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود ، والحارث بن زمعة، ولقى شيخ الضلال أبو زمعة الحسرة كاملة على ولده ، وكانت قريش قد حرّمت البكاء على قتلاها حتى لا يشمت المسلمون بهم . فسمع أبو زمعة نائحة من الليل فقال لغلام له ، وقد ذهب بصره : انظر هل أُحِلَّ النحب ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة ـ يعنى زمعة ـ فإن جوفى قد احترق . قال: فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير أضلته قال : فذلك حين يقول الأسود :

أتبكـى أن يضـل لهـا بعيـر ... ويمنعهـا مـن النوم السهـود

فـلا تبكـى علـى بكـرٍ ولكـن ... علـى بـدر تقاصـرت الجـدود[(٣)]

من هذا البيت نشأ يزيد بن زمعة . وحين قتل أبوه وأخوه وعمه ببدر كفاراً كان مهاجراً فى سبيل الله فى النأى والغربة فى الحبشة (وقتل يوم الطائف شهيداً ، ليس له عقب ، جمح به فرسه يومئذ وكان يقال له: الجناح إلى حصن الطائف فقتلوه ، ويقال: بل قال لهم: أمنونى حتى أكلمكم فأمنوه ، ثم رموه بالنبل حتى قتلوه)[(٤)] .

---

(١) الحجر / ٩٥ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٢٠ .

(٣) نسب قريش ص ٢١٨ لمصعب الزبيرى .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٢١ .

سادساً : العبدريون :

من الملاحظ أن البطن القرشى الوحيد الذى لم يكن فيه مسلم فى الخمسين الأوائل هم بنو عبد الدار ، ولا بدع فى ذلك فأصل الخلاف هو بين بنى عبد الدار وبنى عبد مناف ، وللشقاق الذى جرى بينهما وقع الحلفان الكبيران فى مكة . حلف المطيبين وعلى رأسه بنو عبد مناف ، وحلف الأحلاف وعلى رأسه بنو عبد الدار ثم (تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت. ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام فقال رسول الله ﷺ : « ما كان من حلف فى الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة ») (١) .

ونحن الآن أمام مجتمع جديد يتكون ،لا مثيل له فى تاريخ البشرية حيث ينضم كل فرد إلى هذه القيادة ملقياً خلف ظهره انتماءه القبلى والعشائرى تحت إمرة سيد الخلق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليس العربى الهاشمى فقط. وكان أبرز المنضمين فى هذه الخمسين الثانية الأخوان : مصعب بن عمير ، وأبو الروم بن عمير (٢).

١٩ ـ مصعب بن عمير :

أحد أعلام الإسلام ومعالمه العظيمة . ولن نعرض إلا للخطوط العريضة من حياته رضي الله عنه فهو (ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى بن كلاب السيد الشهيد السابق البدرى القرشى العبدرى) (٣).

قال :أخبرنا محمد بن عمر،قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد العبدرى عن أبيه قال :

كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً وسبيباً (٤). وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرَّقه ، وكان أعطر أهل مكة . يلبس الحضرمى من النعال، فكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول:

« ما رأيت بمكة أحسن لمةً ولا أرق حُلَّةً ، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير » فبلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام فى دار الأرقم بن أبى الأرقم فدخل عليه فأسلم وصدّق به وخرج ، فكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه . فكان يختلف إلى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٥١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٨١ وقال المحقق عنه : تخريج قول النبى ﷺ: « ما كان من حلف . . .» رواه الإمام مسلم فى صحيحه ج٢ ص ٤١٠ ط دار الفكر . . وغيره .

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ١٤٥ .

(٤) السبيب : الثوب الرقيق .

رسول الله ﷺ سرا فبصُر به عثمان بن طلحة يصلى فأخبر أمّه وقومه فأخذوه فحبسوه فلم يزل محبوساً حتى خرج إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا فرجع متغير الحال قد حرج ـ يعنى غلظ ـ فكفّت أمه عنه من العذل [1] .

لقد دفع ثمناً باهظاً لإسلامه وهو الفتى المتنعم الرخى الهنى المترف .

وهذه صورة أخرى تمثل الحال البائس الذى وصل إليه مصعب رضي الله عنه بعد أن كان بشهادة رسول الله ﷺ أنعم فتىً فى قريش وأجمله .

(عن محمد بن كعب القرظى ،حدَّثنى من سمع على بن أبى طالب يقول : إنا لجلوس مع رسول الله ﷺ فى المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو . فلما رآه رسول الله ﷺ ،بكى للذى كان فيه من النعمة والذى هو اليوم فيه،ثم قال رسول الله ﷺ:« كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حُلَّة، وراح فى حلة، ووضعت بين يديه صحفة، ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟ » قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نتفرغ للعبادة ونكفى المؤنة، فقال رسول الله ﷺ: « لأنتم اليوم خير منكم يومئذ ») [2].

فلقد تحولت الحلة الناعمة الرقيقة إلى بردة مرقوعة بفرو وذلك فى ذات الله.

ويحدثنا أخوه سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه الذى آخى رسول الله ﷺ بينهما فيقول :

(عن سعد بن مالك قال : كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدته فلا نصبر عليه فما هو إلا أن هاجرنا ،فأصابنا الجوع والشدة فاستضلعنا بهما ،وقوينا عليهما، فأما مصعب بن عمير فإنه كان أترف غلام بمكة بين أبويه فيما بيننا ، فلما أصابه ما أصابنا لم يقو على ذلك ، فلقد رأيته وإن جلده ليتطاير عنه تطاير جلد الحية ،ولقد رأيته ينقطع به ، فما يستطيع أن يمشى ، فنعرض له القسى ثم نحمله على عواتقنا) [3] .

إننا أمام شهادة رسول الله ﷺ ، وشهادة على بن أبى طالب ، وشهادة سعد بن أبى وقاص . ولا ننسى ونحن نعرض للشهادتين الأخيرتين أن نشير إلى تلك المعاناة عند على وسعد .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ١١٦ .

(٢) رواه الترمذى ج٤ ص ٥٥٨ ، ح ٢٤٧٦ وقال : « هذا حديث حسن ».

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ١٤٨ وقال المحقق عنه : رجاله ثقات إلا أن صالح بن كيسان مؤدب عمر بن عبد العزيز لم يدرك سعد بن مالك فهو منقطع .

فحديث على فى بعض رواياته : « أنه استقى لحائط يهودى بملء كفه تمرا »

فقد بلغت به الحاجة ـ رضوان الله عليه ـ أن يعمل أجيراً ليهودى فى بستانه ، يسقى نخيله ، وكان أجره ـ رضوان الله عليه ـ ملء كفه تمرا .

وحديث سعد فى تتمته : (ولقد رأيتنى مرة قمت أبول من الليل ، فسمعت تحت بولى شيئاً يجافيه، فلمست بيدى فإذا قطعة من جلد بعير فأخذتها ، فغسلتها حتى أنعمتها ثم أحرقتها بالنار ، ثم رضضتها فشققت منها ثلاث شقات. فاقتويت بها ثلاثاً) .

وحين نذكر مصعب بن عمير لا ننسى أبداً أنه هو الداعية العظيم الذى اختاره رسول الله ﷺ ليمثله فى المدينة . فجاء ومعه سبعون من الأنصار قد دخلوا فى دين الله .

ولا ننسى مصعب بن عمير كذلك أنه هو المجاهد الذى أعطى اللواء فى بدر وأحد. ولا بدع فبنو عبد الدار حملة اللواء فى أحد قد سقطوا تسعة تحته . وسقط مصعب بن عمير العبدرى شهيداً فى أحد وهو يحمل اللواء . ونزل فيه قول الله عز وجل وفى أمثاله :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾(1) .

وها هو عليه الصلاة والسلام فوق جثمانه بعد شهادته :

(فعن عبيد بن عمير أن النبى ﷺ وقف على مصعب بن عمير وهو منجعف على وجهه فقرأ هذه الآية : **﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾** إلى آخر الآية ثم قال : « إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » ، ثم أقبل على الناس فقال : « أيها الناس: زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم ، فوالذى نفسى بيده لا يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه السلام») (2) .

وهذا شاهد ثانٍ له عند كفنه ، وهو أخوه فى الجهاد خباب بن الأرت أحد السبعة العظام الذين أعلنوا إسلامهم يحدثنا عنه فيقول :

(هاجرنا مع رسول الله ﷺ فى سبيل الله نبتغى وجه الله ، فوجب أجرنا على الله . فمنا من مضى ولم يأكل من أجره شيئاً . منهم مصعب بن عمير ، قتل يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفن به إلا نمرة . قال : فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه ، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه . فقال لنا رسول الله ﷺ: « أجمعوها

---

(1) الأحزاب / ٢٣ .

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ١٢١ .

مما يلى رأســه واجعـلوا علـى رجليـه من الإذخر » .ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها[1]) [2].

وشهادة أخيرة لهذا المشهد العظيم من محمد بن شرحبيل العبدرى قال :

كان مصعب بن عمير رقيق البشرة حسن اللمة ليس بالقصير ولا الطويل ، قتل يوم أحد على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة وهو ابن أربعين سنة أو يزيد شيئاً . فوقف عليه رسول الله ﷺ وهو فى بردة مقتول فقال :

« لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك ،ثم أنت شعثُ الرأس فى بردة » ثم أمر به يقبر . فنزل فى قبره أخوه أبو الروم بن عمير ـ وعامر بن ربيعة ، وسويبط بن سعد بن حرملة [3].

٢٠ ـ أبو الروم بن عمير :

هذان اللذان نزلا فى قبر مصعب أحدهما أخوه أبو الروم بن عمير الذى ذكره ابن الأثير فقال عنه: كان ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخيه مصعب الهجرة الثانية ،وشهد أحداً قال أبو عمر: (قد هاجر أبو الروم إلى أرض الحبشة،وقدم المدينة ،وهو ممن هاجر إلى أرض الحبشة وممنّ أسلم قبل بدر ولم يقدّر له شهودها ، وممن لم يقدّر لهم شهودها جماعة، قتل أبو الروم يوم اليرموك شهيداً) [4] .

٢١ ـ سويبط بن حرملة :

وثانيهما قريب مصعب ، من بنى عبد الدار . سويبط بن حرملة بن مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار بن قصى بن كلاب .

يعرف عنه التاريخ أنه هاجر الهجرة الثانية للحبشة ، وعاد إلى المدينة وحضر بدراً وأحداً .

ويعرف عنه القصة الطريفة له مع نعيمان (فروى أحمد ، من طريق عبد الله بن وهب بن زمعة ، عن أم سلمة ، أن أبا بكر خرج تاجراً إلى بصرى ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة وكلاهما بدرى ،وكان سويبط على الزاد فقال له نعيمان : اطعمنى قال : حتى يجيء أبو بكر . وكان نعيمان مضحاكاً مزاحاً فذهب إلى ناس جلبوا ظهراً فقال : ابتاعوا منى غلاماً عربيا فارهاً ؟ قالوا : نعم. قال : إنه ذو لسان،ولعله يقول : أنا حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعونى لا تفسدوه علىّ . فقالوا: بل نبتاعه ، فابتاعوه

---

(١) يهدبها : يجتنيها ويقطفها .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ١٢١ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ١٢٢ .

(٤) أسد الغابة لابن الأثير ٦ / ١١٣ .

منه بعشر قلائص ، فأقبل بها يسوقها . وقال : دونكم هو هذا . فقال سويبط : هو كاذب أنا رجل حر . قالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل فى رقبته فذهبوا به . فجاء أبو بكر فأُخبر فذهب هو وأصحابه إليهم فردوا القلائص وأخذوه . ثم أخبروا النبى ﷺ بذلك ، فضحك منها حولاً هو وأصحابه) .وأخرجه أبو داود الطيالسى والرويانى ،وقد أخرجه ابن ماجة،فقلبه ،جعل المازح سويبط والمبتاع نعيمان)[1] .

٢٢ : ٢٤ـ جهم بن قيس وابناه :

ونسبه (جهم بن قيس بن شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى،وأخوه لأمه جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف بن قصى . وكان جهم بن قيس قديم الإسلام بمكة ، وهاجر إلى أرض الحبشة فى المرة الثانية فى روايتهم جميعاً ، ومعه امرأته حريملة بنت عبد الأسود الخزاعية ، ومعه ابناه منها عمر وخزيمة ابنا جهم ، وتوفيت حريملة بنت عبد الأسود بأرض الحبشة)[2] .

٢٥ ـ فرّاس بن النضر :

(ابن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى . . . وكان قديم الإسلام بمكة ، وهاجر إلى أرض الحبشة فى المرة الثانية فى روايتهم جميعاً . . . وقتل يوم اليرموك شهيداً وليس له عقِب)[3].

لقد كان العبدريون السبعة جنوداً مخلصين برز على رأسهم مصعب بن عمير ذو الإمكانات القيادية ، وقضى منهم ثلاثة شهداء فى سبيل الله .

ونضيف إليهم أقرب المقربين لبنى عبد الدار وهو :

٢٦ ـ طليب بن عمير:

(ابن وهب بن كثير بن عبد بن قصى بن كلاب) ، وطليب ذو شأن . فهو ابن عمة رسول الله ﷺ .

(أسلم طليب فى دار الأرقم ، ثم خرج فدخل على أمه وهى أروى بنت عبد المطلب ، فقال : تبعت محمداً وأسلمت لله.فقالت أمه : إن أحق من وازرت وعاضدت ابن خالك ، والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لمنعناه وذببنا عنه . فقلُت : يا أمَّه فما يمنعك أن تسلمى وتتبعيه فقد أسلم أخوك حمزة ؟ فقالت : انظر ما يصنع أخواتى ثم أكون إحداهن . قال : فقلت : أسألك بالله إلا أتيته فسلمت عليه

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/ ٣/ ١٥٠ .

(٢ ، ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٢٢ .

وصدقتيه وشهدت أن لا إله إلا الله . قالت : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، ثم كانت بعد تعضد النبى ﷺ بلسانها ، وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره .

قالوا : وكان طليب بن عمير من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية، ذكروه جميعاً وأجمعوا على ذلك . قال : أخبرنا محمد بن عمر ،قال : أخبرنا حكيم بن محمد عن أبيه ،قال : لما هاجر طليب بن عمير من مكة إلى المدينة نزل على عبد الله بن سلمة العجلانى .

وعن عائشة بنت قدامة ، قالوا : قتل طليب بن عمير، يوم أجنادين شهيداً فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وهو ابن خمس وثلاثين سنة وليس له عقب) [1] .

لقد نصر رسول الله ﷺ بلسانه بعد أن قذف الله الإيمان فى قلبه . وبقى يعمل جاهداً حتى دفع أمه إلى الإسلام فأسلمت . ثم نصر الإسلام والمسلمين بيده .

(قال الزبير : وطليب المذكور أول من دمى مشركاً فى الإسلام بسبب النبى ﷺ . فإنه سمع عوف بن صبرة السهمى يشتم النبى ﷺ فأخذ له لحى جمل فضربه فشجّه فقيل لأروى :ألا ترين ما فعل ابنك ؟ فقالت :

إن طليباً نصر ابن خاله   واساه فى ذى دمه وماله

وحكى البلاذرى أن طليباً شجّ أبا لهب لما حصر المشركون المسلمين فى الشّعب . فأخذوا طليباً فأوثقوه . فقام دونه أبو لهب حتى يخلّصه وشكاه إلى أمه وهى أخت أبى لهب فقالت : خير أيامه أن ينصر محمداً)[2] .

لقد كان فتىً ذا شكيمة ورث القوة والعز من أبيه وأمه . وكان دون العشرين، وهو يضرب فى سبيل الله ، ولا يتمالك نفسه أن يرى ابن خاله رسول الله ﷺ يشتم أو ينال منه . وختم حياته بالشهادة فى سبيل الله .

سابعاً : التيميون :

وكما كان المنضمون للإسلام من الهاشميين أقلة . فكذلك كان المنضمون للإسلام من التيميين رهط أبى بكر رضي الله عنه فكان فى الخمسين الثانية منهم اثنان فقط هما :

٢٧ ـ الحارث بن خالد بن صخر :

(ابن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ، وأمه من اليمن ، وكان الحارث قديم الإسلام بمكة ، وهاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ومعه امرأته ريطة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٢٢ .   (٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٣ / ٢٩٣ .

بنت الحارث التيمية ، وولدت له هناك بأرض الحبشة موسى وعائشة وزينب وفاطمة بنى الحارث ، ومات موسى بن الحارث بأرض الحبشة . وقال موسى بن عُقبة وأبو معشر : إنهم خرجوا من أرض الحبشة يريدون الماء فوردوا على ماءٍ من مياه الطريق فشربوا منه فلم يبرحوا حتى توفيت ريطة وولدها غير فاطمة بنت الحارث) [1] . (ونجا وحده فقدم المدينة فزوجه رسول الله ﷺ بنت عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف) [2].

٢٨ ـ عمرو بن عثمان :

(ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . . . كان قديم الإسلام بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ، وقتل يوم القادسية شهيداً) [3] . وكان قد رجع مع السفينتين بعد الحديبية [4] .

ثامناً : الجمحيون :

حيث تكامل ركب بنى مظعون فى الإسلام . فبعد عثمان بن مظعون رضي الله عنه الذى كان من أوائل من أسلم ، انضم إلى الركب أخوه :

٢٩ ـ قدامة بن مظعون :

الذى أتيح له أن يساهم فى بناء الدولة المسلمة . إذ توفى أخوه عثمان فى بداية العهد المدنى . حيث شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، ولم تفته الهجرة إلى الحبشة كذلك . ثم تابع جهاده بعد رسول الله ﷺ ، وتزوج صفية بنت الخطاب أخت عمر ، وهو خال عبد الله بن عمر وحفصة أم المؤمنين (واستعمل عمر قدامة على البحرين فى خلافته وله معه قصة . . . وقد أخرجه عبد الرزاق بطوله قال : أنبأنا معمر عن ابن شهاب ، أخبرنى عبد الله بن عامر بن ربيعة ، أن عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين ، وهو خال حفصة وعبد الله بن عمر فقدم الجارود سيد بنى عبد القيس على عمر من البحرين ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن قدامة شرب فسكر ، وإنى رأيت حدا من حدود الله حقا علىّ أن أرفعه إليك . قال: من يشهد معك ؟ قال : أبو هريرة . فدعا أبا هريرة . فقال : بم تشهد . قال : لم أره يشرب ولكن رأيته سكران يقىء . فقال : لقد تنطعت فى الشهادة . ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٢٨/٤ .

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، هامش الإصابة م١/ ٢٩٢ .

(٣) الطبقات الكبرى ٤/ ١٨٤ . (٤) أسد الغابة ٤ / ٢٥٣ .

فقدم ، فقال الجارود : أقم على هذا كتاب الله . فقال عمر : أخصم أنت أم شهيد ؟ فقال : شهيد . فقال : قد أديت شهادتك . قال : فصمت الجارود ، ثم عدا على عمر فقال : أقم على هذا حد الله . فقال عمر : ما أراك إلا خصماً ، وما شهد معك إلا رجل واحد . فقال الجارود : أنشدك الله . فقال عمر : لتُمسكنّ لسانك أو لأسوءنك . فقال : يا عمر ما ذلك بالحق . يشرب ابن عمك الخمر وتسوؤنى . فقال أبو هريرة : يا أمير المؤمنين إن كنت تشك فى شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فاسألها وهى امرأة قدامة. فأرسل عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها فأقامت الشهادة على زوجها، فقال عمر لقدامة : إنى حادّك . فقال :لو شربتُ كما تقول ما كان لكم أن تحدُّونى . فقال عمر : لم ؟ قال قدامة : قال الله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا** ...... ﴾ الآية [1] . فقال عمر : أخطأت التأويل : إنك إذا اتقيت اجتنبت ما حرَّم الله . ثم أقبل عمر على الناس، فقال: ما ترون فى جلد قدامة ؟ فقالوا : لا نرى أن تجلده ما دام وجعاً . فقال عمر : لأن يلقى الله تحت السياط أحب إلىّ من أن ألقاه وهو فى عنقى ، ائتونى بسوط تام ، فأمر به فجُلِد ، فغاضب عمر قدامة وهجره، فحج عمر فحج قدامة وهو مغاضب له ، فلما قفلا من حجهما ونزل عمر بالسقيا نام ، فلما استيقظ من نومه قال : عجلوا بقدامة ، فوالله لقد أتانى آتٍ فى نومى فقال لى : سالم قدامة فإنه أخوك ، فعجلوا علىّ به . فلما أتوه أبى أن يأتى ، فأمر به عمر إن أبى أن يجروه إليه فكلمه واستغفر له) [2] .

أى مجتمع هذا يتحرك فيه سيد بنى عبد القيس من البحرين للمدينة ليشكو لأمير المؤمنين واليه الذى شرب الخمر . ويستدعى أمير المؤمنين واليه ليسأله ، ويبحث عن الشاهد الثانى ، فلا يكون إلا زوجة الوالى ، يصر أمير المؤمنين على جلد صهره وخال ولديه وأخيه الحبيب فى الإسلام وهو الذى شهد بدراً والمشاهد كلها ، ولا يعفيه أو يؤجله لوجعه . ثم يغضب الأخوان من بعضهما فيكتفى عمر رضي الله عنه بهاتف الليل الذى يقول له : سالم قدامة فإنه أخوك .

ثم يلتقى الأخوان على الله ويتصالحان ، ويستغفران لبعضهما بعضاً .

إن حدّ الله تعالى وتطبيقه فى حس هذا المجتمع الإسلامى هو أكبر من كل عظيم . ويصبح من أكبر القضايا على السطح إن تم التأخر فيه ، وردّ عمر رضي الله عنه تأول أخيه قدامة دون أن يتهمه فى نيته أو قلبه .

---

(1) المائدة / ٩٣ .

(2) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/ ٥/ ٢٣٣ .

فأى مجتمع فى هذا الوجود ترتفع قياداته إلى هذا المستوى الأرفع ، إلا المجتمع الربانى النبوى الأول ؟!

٣٠ ـ عبد الله بن مظعون :

فعن يزيد بن رومان قال : أسلم عبد الله وقدامة ابنا مظعون قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم . وهاجر عبد الله بن مظعون إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فى روايتهم جميعاً . وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . ومات سنة ثلاثين فى خلافة عثمان وهو ابن ستين سنة [١] .

٣١ ـ السائب بن عثمان بن مظعون :

وهاجر السائب بن عثمان إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية . . . . وكان السائب بن عثمان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ . . . وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وشهد يوم اليمامة وأصابه يومئذ سهم، وكانت اليمامة فى خلافة أبى بكر الصديق سنة اثنتى عشرة . فمات السائب بعد ذلك من ذلك السهم وهو ابن بضع وثلاثين سنة [٢] .

٣٢ ـ سفيان بن معمر :

قال محمد بن إسحاق : (كانت حسنة أم شرحبيل امرأة سفيان بن معمر وله منها من الولد خالد وجنادة ابنا سفيان بن معمر ، وكان سفيان قديم الإسلام بمكة ،وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ومعه ابناه خالد وجنادة ، وشرحبيل بن حسنة وأمه حسنة هاجر بها أيضاً إلى أرض الحبشة ، ولم يذكر موسى بن عُقبة وأبو معشر سفيان ابن معمر ولا أحداً من ولده فى الهجرة إلى أرض الحبشة) [٣].وهو سفيان بن معمر ابن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح القرشى الجمحى . . . وهلك سفيان وولداه جابر وجنادة فى خلافة عمر [٤] .

تاسعاً : السهميون :

٣٣ : ٤٠ ـ عائلة الشهداء :

إنهم بنو الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى .

كانوا إخوة سبعة ، قذف الله تعالى فى قلوبهم الإسلام ، واصطفاهم شهداء إلا

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٠٠ .
(٣) المصدر نفسه ٤/ ٢٠٢ .
(٤) الإصابة ٢/ ٣/ ١٠٨ .

واحداً كانت منيته على فراشه ،وقدموا نموذجاً عزَّ له نظير فى تاريخ الأمم والرسالات ، وأخ لهم ثامن من أمهم .

أبو قيس بن الحارث :

قديم الإسلام بمكة ، وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ، ثم قدم فشهد أحداً مع رسول الله ﷺ ، وما بعد ذلك من المشاهد ، وقتل يوم اليمامة شهيداً سنة اثنتى عشرة فى خلافة أبى بكر الصديق(١).

عبد الله بن الحارث :

أسلم قديماً بمكة ، هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وكان شاعراً ، وروى عنه ابن إسحاق قال : كان مما قيل من الشعر فى الحبشة أن عبدالله بن الحارث لما أمنوا بأرض الحبشة ، وحمدوا جوار النجاشى وعبدوا الله لا يخافون على دينهم أحداً فقال أبياتاً منها . (وكانت هذه الأبيات بمثابة برقية مستعجلة كتابية ، حتى غلب اسم المبرق على صاحبها عبد الله رضي الله عنه :

يا راكباً بلغه عنى مغلغلةً (٢) ... من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرئ من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ... ى فى الممات وعيب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله واطرّحوا ... قول النبى وعالوا (٣) فى الموازين
فاجعل عذابك فى القوم الذين بغوا ... وعائذاً بك أن يعلوا فيطغونى)(٤)

لقد كان عبد الله بن الحارث لسان المسلمين فى الحبشة،ووزير إعلامهم هناك . أما برقيته التى بعث بها فهى :

وتلك قريش تجحد الله ربها ... كما جحدت عاد ومَدْيَنُ والحِجر
فإن أنا لم أبرق(٥) فلا يسعنّنى ... من الأرض بر ذو فضاء ولا بحر
بأرض بها عبدَ الإله محمدٌ ... أُبيّن ما بى النفس إذ بُلِغَ النفْر

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٩٤ .

(٢) مغلغلة : رسالة .

(٣) عالوا : جاروا وظلموا .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٠٨ .

(٥) أبرق : أسافر بعيداً .

فسمى عبد الله بن الحارث ـ يرحمه الله ـ لبيته الذى قال «المبرق» [1] .

ثم غدا الشاعر الشهيد بعد ذلك (وقتل يوم اليمامة شهيداً سنة اثنتى عشرة فى خلافة أبى بكر الصدّيق) [2] .

السائب بن الحارث :

(وأمه أم الحجاج من بنى شنوق بن مرة ، وكان من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية ، وخرج يوم الطائف وقتل بعد ذلك بفحل بسواد الأردن ولا عقب له . وكانت فحل فى ذى القعدة سنة ثلاث عشرة فى أول خلافة عمر بن الخطاب)[3] .

الحجاج بن الحارث :

(وكان من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية ، وقتل باليرموك شهيداً فى رجب سنة خمس عشرة . ولا عقب له) [4] .

تميم (ويقال): نمير بن الحارث :

وأمه ابنة حرثان بن حبيب بن سواءة بن عامر بن صعصعة ، وكان من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية ، وقتل بأجنادين من أرض الشام[5] .

سعيد بن الحارث :

وأمه ابنة عروة بن سعد بن حذيم بن سلامان بن سعد بن جمح . . . وكان سعيد من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية . وقتل يوم اليرموك شهيداً فى رجب سنة خمس عشرة [6] .

معبد بن الحارث :

وأمه ابنة عروة بن حذيم . أسلم قديماً بمكة ، وذكره ابن إسحاق فيمن هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة [7] . وكان يقال له : (معمر بن الحارث) .

سعيد بن عمرو التميمى :

حليف لهم وأخوهم لأمهم ، أمه ابنة حرثان بن حبيب . . . بن عامر بن صعصعة. هكذا قال موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق . سعيد بن عمرو ،وقال أبو

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤١٠ .

(٢، ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ٤/ ١٩٦ .

(٥) أسد الغابة ١/ ٢٥٧ .

(٦) الطبقات الكبرى ٤/١٩٦ .

(٧) أسد الغابة لابن الأثير ٥ / ٢٣٤.

معشر ومحمد بن عمر : معبد بن عمرو. وكان من مهاجرة الحبشة للهجرة الثانية. قال الزبير بن بكار : استشهد بأجنادين مع أخيه تميم بن الحارث[1] .

بقى علينا أن نعلم أن هذه الأسود السبعة التى انضمت للإسلام ، وقدمت روحها ودمها فى سبيله أنهم جميعاً ولد أكبر طواغيت قريش الحارث بن قيس ، فهو أحد المستهزئين ، وثانيهم فى عداوته وأذاه لرسول الله ﷺ :

الثانى : الحارث بن قيس السهمى وهو ابن العيطلة ينسب إلى أمه ، وكان يأخذ حجراً يعبده فإذا رأى أحسن منه تركه وأخذ الأحسن .

وفيه نزلت : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ﴾ [2] أى مهويه. . . وكان يقول : لقد غرّ محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يَحْيَوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث . فأكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب عليه الماء حتى أنفذ بطنه. ويقال: إنه أصابته الذبحة . وقال بعضهم : امتخض رأسه قيحا .

قلت : القول الأول رواه عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما، عن قتادة ومقسم مولى ابن عباس[3] .

٤١ ـ هشام بن العاص :

وهو من القادة المجاهدين وأخو عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ والذى فاز مع أخيه بتزكية النبى ﷺ بإيمانهما . فقال : « ابنا العاص مؤمنان »[4] .

كان يكنى أبا العاص فكناه النبى ﷺ أبا مطيع. كان قديم الإسلام ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية . . . وقال ابن المبارك فى الزهد: عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: مر عمرو بن العاص بنفر من قريش فذكروا هشاماً فقالوا : أيهما أفضل ؟ فقال عمرو : شهدت أنا وهشام اليرموك . فكلنا نسأل الله الشهادة فلما أصبحنا حرمتُها ورزقها ـ وقال الواقدى عن مخرمة بن بكير عن أم بكر بنت المسور قالت :

كان هشام رجلاً صالحاً فرأى من بعض المسلمين بأجنادين بعض النكوص فألقى المغفر عن وجهه وجعل يتقدم فى نحر العدو ويصيح : يا معشر المسلمين إلىّ إلىّ أنا هشام بن العاص ، أمن الجنة تفرون؟ حتى قتل ، ومن طريق خالد بن معدان ، لما انهزمت الروم بأجنادين انتهوا إلى موضع لا يعبره إلا إنسان واحد، فجعلت الروم تقاتل

---

(١) أسد الغابة ٢ / ٣٩٨ . (٢) الفرقان / ٤٣ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢ / ٦٠٦ .

(٤) انظر : صحيح الجامع الصغير للألبانى ١ / ٩٦ .

عليه فقاتل هشام حتى قُتل ،ووقع على تلك الثلمة فسدَّها . فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يدوسوه فقال عمرو : أيها الناس إن الله قد استشهده ، ورفع روحه ، وإنما هى جثة ثم أوطأه وتبعه الناس حتى تقطع ،ثم جمعه عمرو بعد ذلك وحمله فى نطع فواراه[١] .

٤٢ ـ عبد الله بن حذافة :

وهو قائد آخر من قيادات بنى سهم (ابن قيس بن عدى بن سعد بن عمرو بن هصيص بن كعب . وهو أخو خنيس بن حذافة زوج حفصة بنت عمر ـ رضى الله عنها ـ قبل رسول الله ﷺ . وشهد خنيس بدراً ولم يشهد عبد الله بدراً ، ولكنه قديم الإسلام بمكة ، وكان من مهاجرة الحبشة الهجرة الثانية فى رواية محمد بن إسحاق ومحمد بن عمرو لم يذكره موسى بن عقبة وأبو معشر . وهو رسولُ رسول الله ﷺ بكتابه إلى كسرى. . . قال محمد بن عمر : وكانت الروم قد أسرت عبد الله بن حذافة. فكتب فيه عمر بن الخطاب إلى قسطنطين فخلى عنه[٢] . ومن مناقب عبد الله بن حذافة ما أخرجه البيهقى من طريق ضرار بن عمرو عن أبى رافع قال : وجَّه عمر جيشاً إلى الروم وفيهم عبد الله بن حذافة فأسروه . فقال له ملك الروم : (تنصر أشركك فى ملكى) . فأبى .

فأمر به فصلب ، وأمر برميه بالسهام فلم يجزع . فأنزل ، وأُمر بقدرٍ فصب فيها الماء وأُغلى عليه وأمر بإلقاء أسير فيها فإذا عظامه تلوح ، فأمر بإلقائه إن لَم يتنصر ، فلما ذهبوا به بكى . قال : ردوه فقال : لم بكيت ؟ قال :

تمنيت أن تكون لى مائة نفس تلقى هكذا فى الله . فعجب . فقال : قبِل رأسى وأنا أخلى عنك ! قال : وعن جميع أسرى المسلمين ؟ قال : نعم . فقبّل رأسه ، فخلَّى بينهم . فقدم بهم عمر ، فقام عمر فقبّل رأسه . وأخرج ابن عساكر لهذه القصة شاهداً من حديث ابن عباس موصولاً ، وآخر من فوائد ابن هشام من مرسل الزهرى[٣] .

٤٣ ـ قيس بن حذافة :

وهو أخو عبد الله،وخنيس أسلم قديماً بمكة ، وكان من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية . وكذا ذكره الواقدى ،قال : قدم بعد ذلك مكة . وهاجر إلى المدينة[٤] .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣ / ٦ / ٢٨٦ .
(٢) الطبقات الكبرى ٤ / ١٨٩ .
(٣) الإصابة م٢ ج٤/ ٥٦ .
(٤) المصدر نفسه م٣ ج٥ / ٢٤٩ .

٤٤ ـ محمية بن جزء :

(ابن عبد يغوث بن عويج بن عمرو بن زبيد الأصفر . . . كان حليفاً لبنى سهم، كانت ابنته عند الفضل بن العباس بن عبد المطلب فولدت أم كلثوم ، وأسلم محمية بن جزء بمكة قديماً وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية . وأول مشاهده المريسيع وهى غزوة بنى المصطلق ، قال : أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى جهم ،قال : استعمل رسول الله ﷺ على تقسيم الخُمس وسهمان المسلمين يوم المريسيع محمية بن جزء الزبيدى ، فأخرج رسول الله ﷺ الخمس من جميع المغنم ، فكان يليه محمية بن جزء) (١).

ويكفى لمحمية فضلاً أن يكون أول مشاهده المريسيع ، وأن يكون وزير الاقتصاد هناك فى هذا الموقع نفسه فيكون على الخمس والسهمان كلها الأمين القوى .

عاشراً : العامريون :

(إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب) .

هكذا قال سهيل بن عمرو سيد بنى عامر لرسول الله ﷺ حين طلب إجارته. وهذا يعنى أن بنى عامر بن لؤى أدنى رتبة من بنى كعب بن لؤى فى النسب القرشى . وإن كان سهيل بن عمرو هو الذى يقود الحرب ضد رسول الله ﷺ بصفته زعيم بنى عامر ، لكن هذه الزعامة ثلمت بأخويه اللذين أسلما مع الخمسين الأولى ، وبأخيه الثالث : السكران بن عمرو والذى تحدثنا عنه هناك وهو من مسلمة دار الأرقم وبابنه :

٤٥ ـ عبد الله بن سهيل :

(ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ، ويكنى أبا سهيل . . . وهاجر عبد الله بن سهيل إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية فى رواية محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر ولم يذكره موسى بن عقبة وأبو معشر ، ثم رجع إلى مكة فأخذه أبوه فأوثقه عنده وفتنه عن دينه .

قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى عطاء بن محمد بن عمرو بن عطاء عن أبيه قال : خرج عبد الله بن سهيل إلى نفير بدر مع المشركين وهو مع أبيه سهيل بن عمرو فى نفقته وحُملاته ، ولا يشك أبوه أنه قد رجع عن دينه ، فلما التقى المسلمون والمشركون ببدر وتراءى الجمعان انحاز عبد الله بن سهيل إلى المسلمين حتى جاء رسول الله ﷺ قبل القتال ، فشهد بدراً مسلماً وهو ابن سبع وعشرين سنة. . . وشهد عبد الله

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ١٩٨ .

ابن سهيل أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وشهد اليمامة وقتل بها شهيداً يوم جُواثا فى خلافة أبى بكر الصدّيق سنة اثنتى عشرة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وليس له عقب، فلما حج أبو بكر الصديق فى خلافته أتاه سهيل بن عمرو بمكة فعزاه أبو بكر بعبد الله ،فقال سهيل : لقد بلغنى أن رسول الله قال : « يشفع الشهيد لسبعين من أهل بيته ». فأنا أرجو ألا يبدأ ابنى بأحد قبلى) (١) .

٤٦ ـ مالك بن زمعة :

ابن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن . . . عامر بن لؤى وهو أخو سودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ .وكان قديم الإسلام وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ومعه امرأته عميرة بنت السعدى بن وقدان ، وتوفى مالك بن زمعة وليس له عقب(٢) . وقدم مع جعفر بن أبى طالب فى السفينتين(٣) .

٤٧ ـ أبو سبرة بن أبى رهم :

ابن عبد العزى بن أبى قيس بن عامر بن لؤى ، وأمه برة بنت عبد المطلب ، عمةُ رسول الله ﷺ . . . وكان من مهاجرة الحبشة الهجرتين جميعاً . وكان معه فى الهجرة الثانية امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، وشهد أبو سبرة بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وكان قد رجع إلى مكة بعد وفاة رسول الله ﷺ فنزلها فكره ذلك له المسلمون ، وولده ينكرون ذلك ، ويدفعونه أن يكون رجع إلى مكة فنزلها بعد أن هاجر منها ، وتوفى أبو سبرة بن أبى رهم فى خلافة عثمان .

٤٨ ـ عبد الله بن مخرمة :

ابن عبد العزى بن أبى قيس بن عبد ود بن . . .عامر بن لؤى ،ويكنى أبا محمد. وهاجر عبد الله بن مخرمة إلى أرض الحبشة الهجرتين معاً فى رواية محمد بن عمر . . . وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين فروة بن عمرو بن وذفة ، وشهد عبد الله بن مخرمة بدراً وهو ابن ثلاثين سنة وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وشهد اليمامة وقتل يومئذ شهيداً فى خلافة الصديق وهو ابن إحدى وأربعين سنة .

٤٩ ـ سعد بن خولة :

قيل: من حلفاء بنى عامر، وقيل: من مواليهم من أهل اليمن، وشهد بدراً وهو ابن خمس وعشرين سنة ،وشهد أحداً والخندق والحديبية. وكان سعد بن خولة قد

---

(١) المصدر السابق ٣ / ٤٠٦ .
(٢) المصدر نفسه ٣ / ٤٠٤ .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٦ / ٢٤ .

خرج إلى مكة فمات بها .

وقال عنه ﷺ : « لكن البائس سعد بن خولة » ، يرثى له رسول الله ﷺ أن مات بها وذلك أن رسول الله ﷺ: كان يكره لمن هاجر من مكة أن يرجع إليها أو يقيم بها أكثر من انقضاء نسكه[1] .

حادى عشر : الفهريون :

وهم آخر بطون قريش وأبعدها . شرفوا بأمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح الذى كان منهم ، بينما نجد فى الخمسين الثانية سبعة ينضمون إلى الإسلام ، منهم اثنان بدريان هما :

٥٠ ـ سهيل ابن بيضاء :

وهى أمه . وأبوه وهب بن ربيعة بن هلال . . . بن الحارث بن فهر ، ويكنى أبا موسى . . . وشهد سهيل بدراً وهو ابن أربع وثلاثين سنة ، وشهد أحداً والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، ومات سهيل بعد رجوع رسول الله ﷺ من تبوك بالمدينة سنة تسع وليس له عقب . . . وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ صلى على سهيل ابن بيضاء فى المسجد[2] .

٥١ ـ عمرو بن أبى عمرو :

ابن ضبة بن فهر من بنى محارب بن فهر ويكنى أبا شداد ذكره أبو معشر ومحمد ابن عمر فيمن شهد بدراً عندهما . وشهدها وهو ابن اثنين وثلاثين سنة ، ومات سنة ست وثلاثين[3] .

٥٢ ـ عياض بن زهير :

ابن أبى شداد بن ربيعة بن هلال بن . . . الحارث بن فهر ويكنى أبا سعد ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفى بالمدينة سنة ثلاثين فى خلافة عثمان بن عفان وليس له عقب[4] .

٥٣ ـ عمرو بن أبى سرح :

ابن ربيعة بن هلال بن . . . الحارث بن فهر . . . يكنى أبا سعد وهو معمر عند محمد بن عمر . هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وهاجر إلى المدينة ، وشهد بدراً

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٠٩ .
(٢) المصدر نفسه لابن سعد ٣ / ٤١٥ .
(٣) المصدر نفسه ٣ / ٤١٨ .
(٤) المصدر نفسه ٣ / ٤١٧ .

وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ومات بالمدينة سنة ثلاثين فى خلافة عثمان بن عفان .

أما الأربعة الآخرون ففاتهم شرف بدر وهم الأخوان :

٥٤ ـ الحارث بن عبد قيس :

ابن لقيط بن عامر بن ظرب بن الحارث بن فهر ، كان من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية[١] وأخوه .

٥٥ ـ سعيد بن عبد قيس :

وكان قديم الإسلام فى مكة، هاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية وقدم مع جعفر رضي الله عنه أو قبله كما ذكر البلاذرى[٢] .

٥٦ ـ عثمان بن عبد غنم :

ابن أبى شداد بن ربيعة بن هلال . . .بن الحارث بن فهر ، ويكنى أبا نافع . وكان قديم الإسلام بمكة ، وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية فى رواية موسى ابن عُقبة ، ومحمد بن إسحاق ومات بعد ذلك ولا عقب له[٣] .

نظرة شاملة :

ونظرة شاملة فى هذه الخمسين الثانية نلاحظ فيها الملاحظات التالية :

١ ـ أن المعلومات عنهم أقل توفراً منها عن الخمسين الأولى والكثير منهم انحصرت المعلومات عنهم فى هجرتهم إلى الحبشة ، أو شهودهم المشاهد مع رسول الله ﷺ .

٢ ـ وخمسة منهم توفوا بالحبشة ولم يعرف التاريخ عنهم أكثر من أسمائهم، فكانوا من السعداء فى هذه الأرض حيث رزقهم الله تعالى الدخول فى هذا الدين . والغربة عن الوطن فيه ،ولقوا وجه ربهم ولم يعرفوا من هذه الحياة إلا هذا الدين الذى أنقذهم من الظلمات إلى النور وقادهم من النار إلى الجنة .

٣ ـ لقد كان البدريون فيهم حوالى ستة عشر فقط . لأن أكثرهم عاد بعد بدر من الحبشة حيث استقر الوضع فى المدينة ، والباقون منهم عادوا مع جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه بعد الحديبية، وفاتتهم بدر وأحد والخندق وغيرها.

٤ ـ أما الذين شهدوا المشاهد بعد بدر ،وبعد الحديبية مع رسول الله ﷺ فارتفع

---

(١) أسد الغابة ١ / ٤٠٤ .

(٢) الإصابة م١ ج١ / ٢٩٦ .

(٣) الطبقات الكبرى ٤ / ٢١٤ .

عددهم إلى الثلاثة والعشرين وهم قريبون من النصف ، وهذا يدل على مدى الالتزام والانضباط العالى الذى كانوا يتمتعون به ، فهم جنود مخلصون صادقون فى هذا الدين الجديد . وإذا رفعنا الخمسة الذين توفوا فى الحبشة وأضفنا الشهداء فى العهد النبوى وبعده نلاحظ أن جميعهم مشاركون فى الأحداث . والنقص فى المعلومات هو الذى يقدم الفرق الطفيف بين المجموع الكلى والرقم الفعلى . فمجموع الشهداء معهم يرتفع العدد إلى ثمان وثلاثين صحابيا .

٥ ـ وإذا كنا لاحظنا فى الخمسين الأولى أن قرابة نصفهم من القادة الكبار . فإنا نلاحظ هنا أن نسبة القيادات قلت حيث اقتربت من خمسة عشر صحابيا . قُدر لهم أن يساهموا بجليل الأعمال ويشاركوا فى بناء الدولة المسلمة النموذج فى الأرض .

٦ ـ وقريب من هذا العدد تقريباً اختصهم الله تعالى بالشهادة . إما بين يدى الرسول ﷺ ، وإما إثر وفاته فى اليمامة ، وإما فى المعارك الإسلامية الأولى فى التاريخ الإسلامى مثل اليرموك وأجنادين والقادسية ، والتى كان لها الدور فى إنهاء الشرك والوثنية من الأرض .

٧ ـ ويكاد يكون معظم هؤلاء الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية . لكن كثيراً منهم كذلك عادوا بعد الهجرة الثانية إلى مكة وهاجروا إلى المدينة أو التحقوا بالمدينة ، مباشرة وشاركوا فى المشاهد الإسلامية .

٨ ـ ونقول عنهم أخيراً: إنهم قدّر لهم أن يكونوا أبناء هذه المدرسة العظيمة دار الأرقم ، حيث كانوا يتلقون التربية النبوية مباشرة ويومية ويعيشون الأحداث الأولى للإسلام ويكونون من صانعيها ، ويشهدون تنزل الوحى نديا حيا طريا ، ويتلقون المحن والأحداث الجسام بصبر وثبات عجيبين .

وكنا قد أرجأنا الحديث التفصيلى عن الذين قُدِّر لهم أن يساهموا فى البناء ، ونشهد أثر التربية النبوية فيهم أكثر إلى أوانها المناسب . ولا ننسى أن كل ما قُدّر لهم من فضل قد حازته الخمسون الأولى . فأولئك السابقون السابقون الذين فازوا بخيرى الدنيا والآخرة ،ولم يفتهم من التربية الربانية النبوية شىء . وأولئك السعداء .

حمزة فى الصف الإسلامى

لقد كان على رأس هؤلاء الخمسين حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ولكن حمزة يمثل تطوراً هاما لابد من متابعة الخطوات الأولى التى أدت إليه :

عظيم مكة والدعوة : كان الوليد بن المغيرة هو عظيم القريتين ، وهو الذى تصدر لمواجهة بنى عبد مناف ونبيهم بصفته سيد بنى مخزوم بلا منازع ومن قيادات مكة المعدودة .

قال ابن إسحاق : (والوليد بن المغيرة قال : أيُنزل على محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين ، فأنزل الله تعالى فيما بلغنى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾ إلى قوله تعالى : **﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾**) (١) .

وقد أعلن محمد ﷺ دعوته على الصفا ، فلم تعد سرا يُتوارى به ، وهذا يعنى أن العرب سوف تسأل عن هذه الدعوة من كل أقطارها ، خاصة وأنّ وفود العرب تفد إلى مكة فى موسم الحج من كل الأقطار والأمصار . ومحمد ﷺ فى مكة . فلابد من أن تقف قريش وقفة رجل واحد فى هذا المجال. ولنستمع إلى هذا العرض لصورة مكة آنذاك . والتحرك الذى قاده الوليد لمواجهة الإسلام فيها :

(روى ابن إسحاق ومقاتل فى تفسيره وابن أبى حاتم وأبو نعيم والبيهقى والواحدى من طرق عن ابن عباس قال :

لما أنزل الله على النبى ﷺ سورة غافر ، قرأها النبى ﷺ فى المسجد فسمعها الوليد، ثم انطلق إلى مجلس بنى مخزوم فقال :

والله لقد سمعت من محمد كلاماً آنفاً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن. إن أسفله لمغدق(٢) ، وإن أعلاه لمونق(٣) ، وإن له لحلاوة ،وإن عليه لطلاوة (٤) ، وإنه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٤٤ ، والآيتان من سورة الزخرف / ٣١ ، ٣٢ .

(٢) إن أسفله لمغدق : ريان .

(٣) إن أعلاه لمونق : حسن معجب .

(٤) الطلاوة : الحسن والقبول .

يعلو ولا يُعلى . ثم انصرف .

فقالت قريش : لقد صبأ [1] الوليد ، والله لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش كلها، وكان يُقال للوليد : ريحانة قريش ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه .

فانطلق حتى دخل عليه وهو حزين فقال : يا عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله . فقال : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً .

قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كارهٌ له . فقال : وماذا أقول فيه ؟ والله إنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن . فقال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : دعنى أفكر فيه) [2] .

وعند ابن إسحاق والحاكم والبيهقى بإسناد جيد أنه (اجتمع إلى الوليد نفر من قريش وكان ذا سن فيهم فقال لهم :

يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً ، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضاً. قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس أقِم لنا رأياً نقول فيه . قال : بل أنتم فقولوا، أسمع .

قالوا : نقول : كاهن . قال : والله ما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجْعه .

قالوا : فنقول : شاعر ، قال: ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهَزَجَه وقريضه ومبسوطه . فما هو بشاعر .

قالوا : فنقول : مجنون ، قال : والله ما هو بمجنون ، فقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنْقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول : ساحر . قال : والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم فما هو بنفْثه ولا عُقَده .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أصله لمغدق ، وإن فرعه

---

(١) صبأ : كفر ، وهنا تعنى دخوله فى دين محمد ﷺ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ١/ ٤٧٢ .

لمثمر ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر . فما يقول سحر يفرِّق بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته .

فتفرّقوا عنه بذلك ، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذّروه إياه وذكروه لهم .

وأنزل الله تعالى فى الوليد فى ذلك قوله :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[1]) [2] .

استطاع الوليد بن المغيرة بادئ ذى بدء أن يجمع كلمة مكة على الموقف الموحد ، أن فى مكة ساحراً يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وابنه ، والمرء وزوجه، وهو يعلم فى أعماقه أن هذا كذب وباطل .

لقد غُزى الوليد فى أعماقه ، وكما تقول الرواية : قرأ عليه رسول الله ﷺ سورة غافر ،وكانت أسارير وجهه توحى بارتياحه لما يسمع ، ومضى دون أن يعطى محمداً ﷺ جواباً محدداً ، لكن طمع رسول الله ﷺ بإسلامه كان كبيراً.

ولئن أسلم الوليد لتصبأن قريش كلها .

هذه هى الصورة التى كان النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرجوها،أن تسلم مكة كلها ، وحين يسلم الملأ من قريش ، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ، فقد ماجت مكة كلها بالإسلام ، وانتصر الدين .فجهاد خمس سنين كاف لنقل مكة من الكفر إلى الإسلام . وبذلك تقف صفا موحداً لتدعو العرب إلى هذا الدين الجديد ، وتحمل قريش مسؤولية الدعوة إلى الله .

هذا هو الطموح البشرى ، لكن إرادة الله تعالى الغلابة ، كانت تريد غير ذلك .

فالله تعالى لو شاء لهدى الناس جميعاً ، والله تعالى قادر أن يدخل مكة كلها فى

---

(١) المدثر / ١١ ـ ٣٠ .

(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ٢٩١ .

دين الله مع النداء الأول عند الصفا ، وشاءت إرادته أن تنصرف مكة كلها عن ذلك وألا يستجيب أحد ، وأن ينال عم محمد من محمد .

الله تعالى يريد لهذا المجتمع الجديد ـ الذى تصاغ لبناته لبنة لبنة ـ ألا يلقى فوقه ركام الجاهلية كله ، فيسلم الناس لأن الملأ أسلموا ، الله تعالى يريد أن تتم التربية لكل فرد على حدة . فيقبل على الإسلام لقناعته فيه ، ويتلقى كل يوم جديداً من عند الله عز وجل ، فيعمق إيمانه ، وترسخ قواعده ، ويشتد ساعد أولئك الفتيان الصغار ليكونوا هم القادة والجنود فيما بعد . يريد الله تعالى جيلاً لا يحمل شيئاً من ركام الجاهلية ، وأوضار الجاهلية ، وعصبيات الجاهلية ، وعمى الجاهلية ، يريد جيلاً تفتح قلبه بالإسلام وللإسلام منذ وعيه على الحياة، ويريده جيلاً قد انفصل عن مجتمع الجاهلية البغيض فى نفسه قبل أن يأتى الإسلام ليجد فيه المنقذ والخلاص ، وهكذا كانت هذه المائة تتكوّن من العناصر الشابة الفتية ، ومن المعادن النفيسة الخالصة ، التى لا يذبحها حب الشهرة ،وتقتلها شهوة الصيت والسمعة ،وهذا نموذج من هذه النماذج.

فقد رفض الوليد كل مقولات قومه: إن محمداً شاعر ،ساحر ، مجنون ،كاهن ، وكل ذلك باطل ، هذه حقيقة قناعته ، وحقيقة أعماقه ، لكن الشيطان الأكبر ، أبا جهل ، جاء ليطعن فى الوليد فى أعز ما عنده ليطعنه فى كبريائه ، ويطعنه فى ثروته ، ويطعنه فى مركزه .(إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله).

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾(١) .

وعبادة الوليد لزعامته هى أضخم قيمة على الإطلاق فصرفهم ابتداءً ،وعالج الموقف، وعالج أبعاده ، وأمضى ليله يفكر **﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾** (٢) .

وحقاً لقد قُتل الوليد . لقد بقى ميتاً ، وفاتته الحياة بهذا الدين حين رأى قريشاً تصدر كلها عن رأيه ، وتسلس له الزعامة ، وتلقى كل أحياء العرب برأيه الحصيف الذى طرحه (إن محمداً ساحر) **﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ**

---

(١) الأنعام / ١١٢ ، ١١٣ .
(٢) المدثر / ١٨ ــ ٢٠ .

﴿ يُؤْثَر ﴾ (١) .

مضى القوم برأى الوليد بن المغيرة ، لكن كيف مضى مجتمعنا الجديد بهذه الآيات،لقد جاءت بلسماً لجراحه ، وهزت أعماق وكيان كل فرد مسلم. فهذا الذى يتحدى الله ورسوله ، قد وصفه الله بالصغار والذل ، ووعده بجهنم وسقر : ﴿ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (٢).

ولا شىء أبداً على حساب هذا الجيل المؤمن .

وكى تكتمل صورة البناء والتربية ، نجد هذا الحدث الذى أعطى المجتمع المسلم الجديد أكبر شحناته .

القرآن ينتصر لابن أم مكتوم :

(ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ يكلمه ، وقد طمع فى إسلامه . فبينا هو فى ذلك إذ مر ابن أم مكتوم الأعمى ، فكلّم رسول الله ﷺ ، وجعل يستقرئه القرآن ، فشقّ ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره ، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد ، وما طمع فيه من إسلامه ، فلما كثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه . فأنزل الله تعالى فيه :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ . كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾(٣)) (٤).

وندع الحديث لسيد ــ رحمه الله ــ يصف هذا الحدث :

(إن هذا التوجيه الذى نزل بشأن هذا الحادث هو أمر عظيم جدا ، أعظم بكثير مما يبدو لأول وهلة ، إنه معجزة ،هو والحقيقة التى أراد إقرارها فى الأرض ، والآثار التى

---

(١) المدثر / ٢٢ ــ ٢٤ .
(٢) المدثر / ٢٨ ــ ٣٠ .
(٣) عبس / ١ ـ ١٦ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤٤٧/١ ، وقال المحقق عنه : رواه ابن إسحاق معلقاً ، ورواه الترمذى فى كتاب التفسير ج٥ص٤٣٢، ورواه الحاكم فى مستدركه ج٢ص٥١٤ ،وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم فقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة. قال الذهبى : وهو الصحيح لكن يشهد للترمذى ما رواه ابن حبان بسند صحيح ورجال ثقات . فيكون هذا الرجل قد توبع عن هشام ، وبه يكون الحديث صحيحاً كما قال الحاكم .

ترتبت على إقرارها بالفعل فى حياة البشرية ، ولعلها هى معجزة الإسلام الأولى ، ومعجزته الكبرى كذلك ، ولكـن هـذا التوجـيه يرد هكـذا ـ تعقيباً على حادث فردى ـ على طريقة القرآن الإلهية فى اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة فرصة لتقرير الحقيقة المطلقة ، والمنهج المطرد .

وإلا فإن الحقيقة التى استهدف هذا التوجيه تقريرها، والآثار الواقعية التى ترتبت بالفعل على تقريرها فى حياة الأمة المسلمة ،هى الإسلام فى صميمه، وهى الحقيقة التى أراد الإسلام ـ وكل رسالة سماوية قبله ـ غرسها فى الأرض.

هذه الحقيقة ليست هى مجرد : كيف يعامَل فرد من الناس ؟ أو كيف يعامل صنف من الناس ؟ كما هو المعنى القريب للحادث وللتعقيب ، إنما هى أبعد من هذا جدا ، وأعظم من هذا جدا ، إنها : كيف يزن الناس كل أمور الحياة ؟ ومن أين يستمدون القيم التى يزنون بها ويقدّرون ؟

والحقيقة التى استهدف هذا التوجيه إقرارها هى : أن يستمد الناس فى الأرض قيمهم وموازينهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة ، آتية لهم من السماء ، غير مقيدة بملابسات أرضهم، ولا بمواصفات حياتهم ولا نابعة من تصوراتهم المقيدة بهذه المواصفات وتلك الملابسات .

وهو أمر عظيم جدا ، كما أنه أمر عسير جدا ، عسير أن يعيش الناس فى الأرض بقيم وموازين آتية من السماء ، مطلقة من اعتبارات الأرض،متحررة من ضغط هذه الاعتبارات . ندرك عظمة هذا الأمر وعسره ، حين ندرك ضخامة الواقع البشرى ، وثقله على المشاعر ، وضغطه على النفوس ، وصعوبة التخلى عن الملابسات والضغوط الناشئة من الحياة الواقعية للناس ، المنبثقة من أحوال معاشهم ، وارتباطات حياتهم ، وموروثات بيئتهم ، ورواسب تاريخهم ، وسائر الظروف الأخرى التى تشدهم إلى الأرض شدا . وتزيد من ضغط موازينها وقيمها وتصوراتها فى النفوس .

كذلك ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك أن نفس محمد ﷺ قد احتاجت ـ كى تبلغه ـ إلى هذا التوجيه من ربه ، بل إلى هذا العتاب الشديد الذى يبلغ حدَّ التعجيب من تصرفه .

وإنه ليكفى لتصوير عظمة أى أمر فى هذا الوجود أن يقال فيه : إن نفس محمد ابن عبد الله ﷺ قد احتاجت ـ كى تبلغه ـ إلى تنبيه وتوجيه .

نعم يكفى هذا ، فإن عظمة هذه النفس وسموّها ورفعتها ، تجعل الأمر الذى يحتاج منها ـ كى تبلغه ـ إلى توجيه وتنبيه أمراً أكبر من العظمة وأرفع من الرفعة ! وهذه

هى حقيقة هذا الأمر الذى استهدف التوجيه الإلهى إقراره فى الأرض بمناسبة هذا الحادث المفرد ... أن يستمد الناس قيمهم وموازينهم من السماء ،طلقاء من قيم الأرض وموازينها المنبثقة من واقعهم كله ... وهذا هو الأمر العظيم .

إن الميزان الذى أنزله الله للناس مع الرسل ليقوِّموا به القيم كلها هو : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[(١)] .

هذه هى القيمة الوحيدة التى يرجح بها وزن الناس أو يشيل ! أو هى قيمة سماوية بحتة ، لا علاقة لها بمواصفات الأرض وملابساتها إطلاقاً .

ولكن الناس يعيشون فى الأرض ، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى،كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية فى حياتهم ، وهم يتعاملون بقيم أخرى فيها النسب ، وفيها القوة ، وفيها المال ، وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه القيم من ارتباطات عملية ، اقتصادية وغير اقتصادية ، تتفاوت فيها أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض . فيصبح بعضهم أرجح من بعض فى موازين الأرض .

ثم يجىء الإسلام ليقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ فيضرب صفحاً عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن فى حياة الناس ، العنيفة الضغط على مشاعرهم ، الشديدة الجاذبية إلى الأرض ، ويبدل من هذا كله تلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء المعترف بها وحدها فى ميزان السماء .

ثم يجىء هذا الحادث لتقرير هذه القيمة فى مناسبة واقعية محددة وليقرر معها المبدأ الأساسى : وهو أن الميزان ميزان السماء ،والقيمة قيمة السماء ،وأن على الأمة المسلمة أن تدع كل ما تعارف عليه الناس ، وكل ما ينبثق من علاقات الأرض من قيم وتصورات وموازين واعتبارات ، لتستمد القيم من السماء وحدها ، وتزنها بميزان السماء وحده .

ويجىء الرجل الأعمى الفقير ... ابن أم مكتوم ... إلى رسول الله ﷺ وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش عتبة وشيبة ابنى ربيعة[(٢)] ، وأبى جهل بن هشام، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، ومعهم العباس بن عبد المطلب ،والرسول ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ، ويرجو بإسلامهم خيراً للإسلام فى عسرته وشدته التى كان فيها بمكة ،وهؤلاء النفر يقفون فى طريقه بمالهم وجاههم وقوتهم ، ويصدون الناس عنه ،

---

(١) الحجرات / ١٣ .

(٢) فى بعض الروايات : أنه كان مع نفر من قريش ، وليس مع الوليد بن المغيرة فقط .

ويكيدون له كيداً شديداً حتى ليجمدوه فى مكة تجميداً ظاهراً ، بينما يقف الآخرون خارج مكة، لا يقبلون على الدعوة التى يقف لها أقرب الناس إلى صاحبها ، وأشدهم عصبية له فى بيئة جاهلية قبلية . تجعل لموقف القبيلة كل قيمة وكل اعتبار . ويجىء هذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله ﷺ وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر لا لنفسه ولا لمصلحته ، ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام .فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة فى مكة ،ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها ، بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار .

يجىء هـذا الرجل فيقول لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله .

ويكرر هذا وهو يعلم تشاغل الرسول ﷺ بما هو فيه من الأمر ، فيكره الرسول قطعه لكلامه واهتمامه ،وتظهر الكراهية فى وجهه - الذى لا يراه الرجل - فيعبس ويُعرض ، يُعرض عن الرجل المفرد الفقير الذى يعطله عن الأمر الخطير ، الأمر الذى يرجو وراءه لدعوته ولدينه الشىء الكثير ، والذى تدفعه إليه رغبته فى نصرة دينه ، وإخلاصه لأمر دعوته ، وحبه لمصلحة الإسلام ، وحرصه على انتشاره.

وهنا تتدخل السماء ، تتدخل لتقول كلمة الفصل فى هذا الأمر ، ولتضع معالم الطريق كله ، ولتقرر الميزان الذى توزن به القيم - بغض النظر عن جميع الملابسات والاعتبارات . بما فى ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر ، بل كما يراها سيد البشر ﷺ .

وهنا يجىء العتاب من الله - العلى الأعلى - لنبيه الكريم صاحب الخلق العظيم، فى أسلوب عنيف شديد . وللمرة الوحيدة فى القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب: ﴿ كَلَّا ﴾ وهى كلمة ردع وزجر فى الخطاب !ذلك أنه الأمر العظيم الذى يقوم عليه هذا الدين !

والأسلوب الذى تولى به القرآن هذا العتاب الإلهى أسلوب فريد ، لا تمكن ترجمته فى لغة الكتابة البشرية ، فلغة الكتابة لها قيود وأوضاع وتقاليد تغض من حرارة هذه الموحيات فى صورتها الحية المباشرة ،وينفرد الأسلوب القرآنى بالقدرة على عرضها فى هذه الصورة فى لمسات سريعة ،وفى عبارات متقطعة ،وفى تعبيرات كأنها انفعالات، ونبرات وسمات ولمحات حية !

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير

المخاطب! وفى هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب ـ سبحانه ـ أن يواجه به نبيه وحبيبه، عطفا عليه ،ورحمة به ، وإكراماً له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه .

ثم يستدبر التعبير ـ بعد مواراة الفعل الذى نشأ عنه العتاب ـ يستدبر إلى العتاب فى صيغة الخطاب فيبدأ هادئاً شيئاً ما : ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ** ﴾ ما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير . أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير ـ الذى جاءك راغباً فيما عندك من الخير ـ وأن يتيقظ قلبه فيتذكر فتنفعه الذكرى . ما يدريك أن يشرق هذا القلب بنور الله ،فيستحيل منارة فى الأرض تستقبل نور السماء ؟ الأمر الذى يتحقق كلما تفتح قلب للهدى ، وتمت حقيقة الإيمان فيه ، وهو الأمر العظيم الثقيل فى ميزان الله .

ثم تعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته ، وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب : ﴿ **أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ** ﴾ أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك ، وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة . . . أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل بأمره ، وتجهد لهدايته وتتعرض له وهو عنك مُعرض ! ﴿ **وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ** ﴾ ؟ ! وما يضيرك أن يظل فى رجسه ودنسه؟ وأنت لا تسأل عن ذنبه ، وأنت لا تنصر به ، وأنت لا تقوم بأمره ﴿ **وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ** ﴾ طائعاً مختاراً ، ﴿ **وَهُوَ يَخْشَىٰ** ﴾ ويتوقى ، ﴿ **فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ** ﴾ ويسمى الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب فى الخير التقى تلهيا . . . وهو وصف شديد .

ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر ، ﴿ **كَلَّا** ﴾ لا يكن هذا أبداً . . . وهو خطاب يسترعى النظر فى هذا المقام .

ثم يبين حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمها ورفعتها ،واستغناءها عن كل أحد ، وعن كل سند، وعنايتها فقط بمن يريدها لذاتها كائنا ما كان وضعه ووزنه فى موازين الدنيا : ﴿ **إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ** ﴾ . . . فهى كريمة فى كل اعتبار، كريمة فى صحفها المرفوعة المطهرة الموكل بها السفراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين فى الأرض ليبلغوها ، وهم كذلك كرام بررة ،فهى كريمة طاهرة فى كل ما يتعلق بها ، وما يمسها من قريب أو بعيد، وعزيزة لا يتصدى بها للمعرضين الذين يظهرون الاستغناء عنها ؛ فهى فقط لمن يعرف

كرامتها ويطلب التطهر بها .

هذا هو الميزان ، ميزان الله ، الميزان الذى توزن به القيم والاعتبارات ،ويقدّر به الناس والأوضاع ، وهذه هى الكلمة ،كلمة الله ،الكلمة التى ينتهى إليها كل قول ، وكل حكم ، وكل فصل .

وأين هذا ؟ ومتى ؟ فى مكة ،والدعوة مطاردة والمسلمون قلة ، والتصدى للكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية ،والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصى. إنما هى الدعوة أولاً وأخيراً .

ولكن الدعوة إنما هى هذا الميزان ، وإنما هى هذه القيم،وقد جاءت لتقرر هذا الميزان وهذه القيم فى حياة البشر ، فهى لا تعز ولا تقوى ولا تُنصر إلا بإقرار هذا الميزان وهذه القيم .

ثم إن الأمر ــ كما تقدم ــ أعظم وأشمل من هذا الحادث المفرد ، ومن موضوعه المباشر إنما هو أن يتلقى الناس الموازين والقيم من السماء لا من الأرض . ومن الاعتبارات السماوية لا من الاعتبارات الأرضية﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) ، والأكرم عند الله هو الذى يستحق الرعاية والاهتمام والاحتفال ، ولو تجرد من كل المقوّمات والاعتبارات الأخرى التى يتعارف عليها الناس تحت ضغط واقعهم الأرضى ومواصفاتهم الأرضية النسب والقوة والمال وسائر القيم الأخرى ـ لا وزن لها حين تتعرى عن الإيمان والتقوى . والحالة الوحيدة التى يصح لها فيها وزن واعتبار هى حالة ما إذا أنفقت لحساب الإيمان والتقوى .

هذه هى الحقيقة الكبيرة التى استهدف التوجيه الإلهى إقرارها فى هذه المناسبة، على طريقة القرآن فى اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة وسيلة لإقرار الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

ولقد انفعلت نفس الرسول ﷺ لهذا التوجيه ولهذا العتاب ، انفعلت بقوة وحرارة، واندفعت إلى إقرار هذه الحقيقة فى حياته كلها ، وفى حياة الجماعة المسلمة ، بوصفها هى حقيقة الإسلام الأولى، وكانت الحركة الأولى له ﷺ هى إعلان ما نزل له من التوجيه والعتاب فى هذا الحادث . وهذا الإعلان أمر عظيم رائع حقا ، أمر لا يقوى عليه إلا رسول ،من أى جانب نظرنا إليه فى حينه .

نعم لا يقوى إلا رسول على أن يعلن للناس أنه عوتب هذا العتاب الشديد ، بهذه

---

(١) الحجرات / ١٣ .

الصورة الفريدة فى خطأ أتاه ،إذ كان يكفى لأى عظيم غير الرسول أن يعرف هذا الخطأ أو يتلافاه فى المستقبل ، ولكنها النبوة. أمر آخر، وآفاق أخرى .

لا يقوى إلا رسول على أن يقذف بهذا الأمر هكذا فى وجوه كبراء قريش فى مثل تلك الظروف التى كانت فيها الدعوة ،مع أمثال هؤلاء المستعزين بنسبهم وجاههم ومالهم وقوتهم ،فى بيئة لا مكان فيها لغير هذه الاعتبارات إلى حد أن يقال فيها عن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم : ﴿ **لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ (١) ، وهذا نسبه فيهم لمجرّد أنه هو شخصياً لم تكن له رياسة فيهم قبل الرسالة ! ثم إنه لا يكون مثل هذا الأمر فى مثل هذه البيئة إلا من وحى السماء ، فما يمكن أن ينبثق هذا من الأرض . . . ومن هذه الأرض بذاتها فى ذلك الزمان .

وهى قوة السماء التى دفعت مثل هذا الأمر فى طريقه ،فإذا هو ينفذ من خلال نفس النبى ﷺ إلى البيئة من حوله فيتقرر فيها بعمق وقوة واندفاع ، يطرد به أزماناً طويلة فى حياة الأمة المسلمة .

لقد كان ميلاداً جديداً للبشرية كميلاد الإنسان فى طبيعته ،وأعظم منه خطراً فى قميته . . . أن ينطلق الإنسان حقيقة ـ شعوراً وواقعاً ـ من كل القيم المتعارف عليها فى الأرض ، إلى قيم أخرى تنزل له من السماء منفصلة منعزلة عن كل ما فى الأرض من قيم وموازين وتصورات واعتبارات وملابسات عملية، وارتباطات واقعية ذات ضغط وثقل ، ووشائج ملتبسة باللحم والدم والأعصاب والمشاعر ، ثم أن تصبح القيم الجديدة مفهومة من الجميع ، مسلماً بها من الجميع ، وأن يستحيل الأمر العظيم الذى احتاجت نفس محمد ﷺ كى تبلغه إلى التنبيه والتوجيه ، أن يستحيل هذا الأمر العظيم بديهية الضمير المسلم ، وشريعة المجتمع المسلم ، وحقيقة الحياة الأولى فى المجتمع الإسلامى لآماد طويلة من حياة المسلمين. إننا لا نكاد ندرك حقيقة ذلك الميلاد الجديد ؛ لأننا لا نتمثل فى ضمائرنا حقيقة هذا الانطلاق من كل ما تنشئه أوضاع الأرض وارتباطاتها من قيم وموازين واعتبارات ساحقة الثقل إلى الحد الذى يخيل لبعض أصحاب المذاهب (التقدمية) أن جانباً واحداً منها ـ هو الأوضاع الاقتصادية ـ هو الذى يقرر مصائر الناس وعقائدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعُرفهم وتصورهم للحياة ! كما يقول أصحاب مذهب التفسير المادى للتاريخ فى ضيق أفق ،وفى جهالة طاغية بحقائق النفس وحقائق الحياة .

إنها المعجزة ، معجزة الميلاد الجديد للإنسان على يد الإسلام فى ذلك الزمان.

---

(١) الزخرف / ٣١ .

ومنذ ذلك الميلاد سادت القيم التى صاحبت ذلك الحادث الكونى العظيم . . . ولكن المسألة لم تكن هينة ولا يسيرة فى البيئة العربية ، ولا فى المسلمين أنفسهم . . . غير أن الرسول ﷺ قد استطاع ـ بإرادة الله وبتصرفاته هو وتوجيهاته المنبعثة من حرارة انفعاله بالتوجيه القرآنى الثابت ـ أن يزرع هذه الحقيقة فى الضمائر وفى الحياة ، وأن يحرسها ويرعاها ، حتى تتأصل جذورها ، وتمتد فروعها وتظلّل حياة الجماعة المسلمة قروناً طويلة . . . على الرغم من جميع عوامل الانتكاس الأخرى .

كان رسول الله ﷺ بعد هذا الحادث يهش لابن أم مكتوم ويرعاه ويقول له كلما لقيه : « أهلاً بمن عاتبنى فيه ربى » ، وقد استخلفه على المدينة مرتين) (١).

أبو طالب يواجه موقف قريش :

قال ابن إسحاق : (فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها) (٢) .

وإذا أراد الله نشـر فضيلـة طويت أتاح لها لسان حسود

فقد كانت قريش ـ دونما وعى ـ تبث خبر رسول الله ﷺ فى موسم الحج على القبائل كلها ، وهى ترى أنها تحطم دعوته ، وتؤكد على أنه ساحر يفرّق بين المرء وأبيه ، والمرء وابنه ، والمرء وزوجه ، ولكنها جعلت دافعاً فى قلب هذه الوفود ، كى تتحدث عن محمد ﷺ وتفكر فى دعوته ، وتحاول الصلة المباشرة به للتعرف على حقيقته .

(وفى سيرة الحافظ : فانتشر بذلك ذكره فى الآفاق ، وانقلب مكرهم عليهم حتى كان من أمر الهجرة ما كان) (٣) .

ولكن هذه الشهرة من طرف آخر أقلقت زعيم الحزب الهاشمى أبا طالب ، فقرر أن يواجه هذا الموقف الجماعى من مكة بموقف مواجه .

(فلما خشى أبوطالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التى تعوّذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى ذلك من شعره أنه غير مسلم رسول الله ﷺ ولا تاركه لشىء أبداً حتى يهلك دونه فقال (٤) :

---

(١) فى ظلال القرآن م٦ / ٣٨٢٢ ـ ٣٨٢٧ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٣٧ .
(٣) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ٢٩١ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٣٨ .

إنه يعرض ابتداءً موقف العدوان الصرف من قومه عليه وعلى رهطه وعلى سيد قومه محمد بن عبد الله :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم | وقد قطّعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى | وقد طاعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوماً علينا أظنة[1] | يعضُّون غيظاً خلفنا بالأنامل

ويستعيذ ببيت الله الحرام من هذا العدوان :

وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى | وأمسكت من أثوابه بالوصائل[2]
قياماً معاً مستقبلين رتاجه | لدى حيث يقضى حلفه كل نافل[3]

و يستعيذ بكل الحرمات ومناسك الحج ، ثم يؤكد أنه وحزبه جميعاً فداءً لمحمد بن عبد الله . رجالاً ونساءً وأطفالاً :

فهل بعد هذا من معاذ لعائذ | وهل من معيذ يتقى الله عاذل
يطاع بنا أمر العدى وودوا لو أننا | تُسدّ بنا أبواب ترك وكابل
كذبتم وبيت الله نترك مكة | ونظعن إلا أمركم فى بلابل
كذبتم وبيت الله نُبزى[4] محمداً | ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرَّع حوله | ونذهل عن أبنائنا والحلائل[5]
وينهض قوم فى الحديد إليكم | نهوض الروايا تحت ذات الصلائل
وحتى ترى ذا الضغْن[6] يركب رَدْعَه[7] | من الطعن فعل الأنكب المتحامل
وإنا لعمر الله إن جد ما أرى | لتلتبسن أسيافنا بالأماثل
بكفى فتىً مثل الشهاب سميدع[8] | أخى ثقة حامى الحقيقة باسل

---

(١) أظنة : متهمين .
(٢) الوصائل : ثياب حمر كان البيت يكسى بها.
(٣) نافل : كل برىء .
(٤) نبزى : نسلم ونغلب عليه .
(٥) الحلائل : الزوجات .
(٦) ذا الضغن : صاحب العداوة .
(٧) يركب ردعه : يسقط وجهه على دمه .
(٨) سميدع : سيد .

ولم لا يضحى بالروح والدم والأهل والولد ، فى سبيل هذا السيد العظيم ؟!

وماترك قوم لا أبالك سيداً	يحوط الذمار[1] غير ذرب[2] مواكل[3]
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه	ثمال اليتامى[4] عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم	فهم عنده فى رحمة وفواضل

ثم يأتى بعد ذلك على زعماء بنى عبد مناف واحداً بعد الآخر يستحثهم لنصرته ، كما يتعرض لحلفائهم :

لعمرى لقد أجرى أسيد وبكره[5]	إلى بغضنا وجزآنا لآكل
وعثمان[6] لم يربع عليها وقنفذ	ولكن أطاعا أمر تلك القبائل
أطاعا أبيا وابن عبد يغوثهم	ولم يرقبا فينا مقالة قائل
كما قد لقينا من سُبيع ونوفل[7]	وكل تولى معرضاً لم يجامل
وذاك أبو عَمْرو[8] أَبى غير بغْضنا	ليظعننا فى أهل شاء وجامل[9]
وسائل أبا الوليد[10] ماذا حبوتنا	بسعيك فينا معرِضاً كالمخاتل
فعتبة لا تسمع بنا قول كاشح	حسودٍ كذوب مبغض ذى دغاول
ومرٍّ أبو سفيان[11] عنى معرضاً	كما مَرَّ قيل من عظام المقاول
يفرُّ إلى نجد وبرد مياهه	ويزعم أنى لست عنكم بغافل
أمطعم[12] لم أخذلك فى يوم نجدة	ولا معظم عند الأمور الجلاجل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا	عقوبة شر عاجلاً غير آجل

---

(١) يحوط الذمار : يحمى العرض . والذمار كل ما يلزمك حمايته . (٢) ذرب : فاسد .

(٣) مواكل : الذى يتكل على غيره .

(٤) ثمال اليتامى : يقال: فلان ثمال لبنى فلان إذا كان قائماً بأمرهم ويكون أصلاً لهم وغياثاً . وقد استسقت قريش بوجهه ﷺ أيام جده عبد المطلب ، وعمه أبى طالب . كما روى لنا النيسابورى عن رقيقة بنت أبى صيفى بن هشام . انظر :الروض الأنف للسهيلى ٢/٢٨.

(٥) أسيد وبكره : عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

(٦) عثمان أخو طلحة بن عبيد الله التميمى ، وقنفذ بن عمير بن جدعان التيمى . وكان التيميون حلفاءهم فى الجاهلية .

(٧) وسبيع بن خالد : أخو بلحارث بن فهر ، ونوفل بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى . وبنو أسد وزهرة حلفاؤهم فى الجاهلية كذلك .

(٨) أبو عمرو : قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف .

(٩) الجامل : اسم لجماعة الجمال ، ومثله الباقر اسم لجماعة البقر .

(١٠) أبو الوليد : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف .

(١١) أبو سفيان : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

(١٢) مطعم : بن عدى بن نوفل بن عبد مناف .

ثم يعود ليثنى على بنى عبد مناف قائلاً :

ونحــن الصميم مــن ذؤابة هاشم   وآل قصى فى الخطوب الأوائل
فعبد مناف أنتم خــير قومكــم   فــلا تشركوا فى أمركم كل واغل
لعمــرى لقــد وهنتــم وعجزتــم   وجئتم بأمــر مخطــئ للمفاصل

ثم يعطف على خصوم بنى عبد مناف من قريش ، فينال منهم جميعاً ، ويعود إلى الحبيب المصطفى ﷺ وسيد بنى هاشم وبنى عبد مناف ، يتحدث عن مناقبه ، وحبه والتفاف قومه عليه ، وإلقاء السيادة له :

لعمرى لقــد كُلِّفــتُ وجداً بأحمد   وإخوتــه دأب المُحــبّ المواصل
فلا زال فى الدنيا جمالاً لأهلهــا   وزينا لمـــن والاه رب المشاكــل
فمن مثْله فى النـــاس أىُّ مؤمَّــل   إذا قاسه الحكــام عنــد التفاضل
حليــمٌ رشيد عادل غير طائش   يوالــى إلهــاً ليــس عنــه بغافــل
فوالله لــولا أن أجــىء بسبة   تجـر علــى أشياخنــا فى المحافل
لكنّـا اتبعنـاه علــى كــل حالــة   مــن الدهــر جدا غير قول التهازل
لقــد علمــوا أن ابننـــا لا مكــذَّبٌ   لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
فأصبــح فينــا أحمــد فى أرومـــة   نقصر عنــه سَوْرَةَ المتطــاول(١)
حدبــتُ بنفســى دونــه وحميــتُه   ودافعــت عنــه بالذرا والكلاكل(٢)
فأيَّــدهُ رب العبـــاد بنصـــره   وأظهــر دينــاً حقّــه غيــر باطــل
رجـــال كـــرام غير ميل نماهـــم   إلــى الخيـر آبــاء كـرام المحاصل
فإن تــك كعــب من لــؤى صقيبة   فــلابــد يومــاً مرة من تزايل(٣)

قال ابن هشام : (هذا ما صح لى من هذه القصيدة ، بعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها) (٤) .

والذى يعنينا من هذا العرض ، هو أثر هذه القصيدة العصماء على الدعوة . فقد كان حزب الله سعيداً بهذه الحمية الهاشمية التى انتهت بفداء الحبيب المصطفى ﷺ . وأصبح حب بنى هاشم ديناً فى عنق كل مسلم ؛ لأنهم أصبحوا حماة رسول الله ﷺ ،

---

(١) سَوْرَةَ المتطاول: السورة المنزلة .

(٢) الذرا والكلاكل : الذرا جمع ذروة وهو أعلى ظهر البعير ، والكلاكل : جمع كلكل وهو معظم الصدر .

(٣) اخترت من القصيدة الأبيات التى حوت معانيها عامة ، أما أبياتها فضعف ما اخترته تقريباً .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٣٨ ـ ٣٤٧ .

وعرفت العرب قاطبة أن رهط محمد وقبيلته غير مسلميه ، ولو قتل أبناؤهم وحلائلهم، فلم تعد لدى العرب الجرأة الكافية على الحلف مع قريش ضده ، ووقفوا متفرجين عما ينكشف الصراع بين محمد ﷺ وقومه ، وفى ظل هذه الحماية ، كان رسول الله ﷺ يمضى فى دعوته ، ساهراً على صحبه ، مقيماً مع حزبه ، يبنى ويدعو ، وينير الدرب ويجاهد فى سبيل الله ، وقد رأى هؤلاء المستضعفين جنده وحزبه ، ولو كان قومه بنو هاشم وبنو المطلب حماته .

حمزة يقلب موازين مكة :

وأمام وضوح المعركة ، وسفور المواجهة ، كان أبو جهل يتآكل غيظاً وحقداً من محمد ﷺ ودعوته ، ويحترق قلبه كمداً من انتشار هذا الدين .

فقرر أن يتحدى العترة الهاشمية ، ويتحدى الحماية النبوية ، وينال من محمد ﷺ معلناً مواجهته العدائية لهذا الحزب والحلف . ولم يرتدع من تهديدات أبى طالب ، واستعداده باسم الحزب الهاشمى أن تراق الدماء دون محمد ﷺ ، فأحب أن يجرب حظه ، وعضلاته المفتولة وعنجهيته الجاهلية ، وينال من المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام، فماذا كانت النتيجة ؟

(عن محمد بن كعب القرظى قال : كان إسلام حمزة رضي الله عنه حمية ، وكان يخرج من الحرم فيصطاد ، فإذا رجع مرّ بمجلس قريش ، وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة فيمر بهم فيقول : رميت كذا وكذا وصنعت كذا وكذا ، ثم ينطلق إلى منزله ، فأقبل من رميه ذات يوم فلقيته امرأة فقالت : يا أبا عمارة ماذا لقى ابن أخيك من أبى جهل ، شتمه وتناوله وفعل وفعل ، فقال : هل رآه أحد ؟ قالت : أى والله ! لقد رآه ناس ، فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة فإذا هم جلوس ، وأبو جهل فيهم ،فاتكأ على قوسه وقال : رميت كذا وكذا وفعلت كذا وكذا ، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بها بين أذنى أبى جهل فدق سنتها[1] ثم قال : خذها بالقوس وأخرى بالسيف ،أشهد أنه رسول الله ﷺ ،وأنه جاء بالحق من عند الله .قالوا : يا أبا عمارة ، إنه سبّ آلهتنا ، وإن كنت أنت وأنت أفضل منه ما أقررناك وذاك ، وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً) [2] .

(وعن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق حليف بنى زهرة : أن أبا جهل اعترض لرسول الله ﷺ بالصفا فآذاه ، وكان حمزة رضي الله عنه صاحب قنص وصيد ،

---

(١) سنتها : طرفها .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٢٦٧/٩ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى مرسلاً ورجاله رجال الصحيح » .

وكان يومئذ فى قنصه فلما رجع قالت له امرأته ، وكانت قد رأت ما صنع أبو جهل برسول الله ﷺ: يا أبا عمارة لو رأيت ما صنع تعنى ـ أبا جهل ـ بابن أخيك ، فغضب حمزة ومضى كما هو قبل أن يدخل بيته ، وهو معلق قوسه فوق عنقه حتى دخل المسجد ، فوجد أبا جهل فى مجلس من مجالس قريش فلم يكلّمه حتى علا رأسه بقوسه فشجّه ، فقام رجال من قريش إلى حمزة يمسكونه عنه فقال حمزة : دينى دين محمد ، أشهد أنه رسول الله ، فوالله لا أنثنى عن ذلك ، فامنعونى عن ذلك إن كنتم صادقين .

فلما أسلم حمزة عزَّ به رسول الله ﷺ والمسلمون وثبت لهم بعض أمرهم وهابت قريش وعلموا أن حمزة رضي الله عنه سيمنعه) (١) .

لقد خسر التحدى المخزومى الذى راهن أبو جهل عليه أمام الشكيمة الهاشمية ، وحسب أن هذا العدوان والسباب والأذى سيمر دون أن تلقى بنو هاشم له بالا ، وكان هذا أول صدام بين الحزب الهاشمى وبين بنى مخزوم قادة قريش ضدهم .

إنها معركة جاهلية تدور بجوار حزب الله لصالح هذا الحزب المرتبط بالله تعالى مباشرة ، والذى يتلقى تعليماته وقيمه ومفاهيمه من عند الله ــ عز وجل .

ولم يكن حمزة يعنيه شيئاً من المعركة الدائرة بين قريش وابن أخيه محمد ﷺ ، خصوصاً بعد أن اتخذ شيخ بنى هاشم أخوه أبو طالب قراره بحماية رسول الله ﷺ ، وعلى رجالات بنى هاشم وبنى المطلب أن يكونوا يقظين وعلى أهبة الاستعداد لأى مواجهة ، وكان حمزة كذلك ، فهو صاحب صيد وقنص ، وقلما يكون دون قوسه ، إذا استدعى الأمر شيئاً من ذلك ، ولم يكن يعنيه فى هذه الدنيا إلا المحافظة على مقومات الزعامة ، فهو الأقوى ، وهو الأكثر صيتاً ، والأذيع شهرة فى مجال صيده ، وإذا كان جانب ابن أخيه محمد لا يرام ولا يضام ، فليس بينه وبين أبى جهل وأضرابه شىء من الخلاف ، وليدع العقيدة جانباً ، وليحافظ كل فريق وكل قبيل على حميته ومركزه .

هكذا كان حمزة رضي الله عنه والذى كان يكن لمحمد ﷺ حبا شديداً ينطوى عليه فى أعماقه . فهو عمه من جهة ،وهو أخوه من جهة ثانية فى الرضاعة وهو تربه ، ويعلم أى أخلاق يحملها هذا السيد العظيم ، وأى مآثر يتمتع بها ابن أخيه وتربه وأخوه الحميم . فلم يكن يفكر لحظة واحدة فى التخلى عن حمايته والذود عنه ، لكن له خمرته ،وله شهوته ، وله شهرته ، وله شجاعته ، وشكيمته .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٢٦٧/٩ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى مرسلاً ورجاله ثقات » .

وعندما مضى ليصد ذلك التحدى الأحمق من بنى مخزوم كان قد بلغت الحمية عنده ذروتها ، فلابد أن يثأر ولابد أن ينتقم ، وبعدها يفكّر فى العواقب، ولن تمر إهانة أعز إنسان عليه دون عقوبة رادعة تعيد بنى مخزوم إلى جحورهم ، إنها حمية الجاهلية الخالصة التى دفعته أن يقول لأبى جهل بعد أن أذاقه جزاء طغيانه وعنجهيته :

(دينى دين محمد ، أشهد أنه رسول الله ، فوالله لا أنثنى عن ذلك ، فامنعونى عن ذلك إن كنتم صادقين) .

إن الوقت الآن ليس وقت مناقشة وتبرير من أبى جهل عن أسباب عدوانه . لقد قطع الطريق عليه ،فدينه دين محمد ، ولتقدم قريش كلها لمواجهته ، ولن يضام جانب ابن أخيه ، أو يُمَسّ العرين الهاشمى . وآب أبو جهل بالخزى والندامة لهذه الحماقة ، وحاول أن يصحح خطأه دون أن تتطور القضية إلى حرب عوانٍ بين الفريقين والحزبين،وهذا أخطر ما فى الأمر أن يكون قد سبّب بحماقته دخول حمزة فى دين محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه .

وتم تلافى الأمر وعاد حمزة ، وقد هدأ روعه ، وبردت أعصابه ، فقد ثأر لمحمد ابن أخيه ، فماذا كان بعد ذلك ؟

(ثم رجع حمزة إلى بيته ،فأتاه الشيطان فقال:أنت سيّد قريش اتبعت هذا الصابئ، وتركت دين آبائك ،للمَوت كان خيراً لك مما صنعت ، فأقبل على حمزة بثّه فقال :ما صنعت؟ اللهم إن كان رشداً فاجعل تصديقه فى قلبى ،وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجاً .

فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان وتزيينه حتى أصبح ، فغدا على رسول الله ﷺ فقال :

يابن أخى ، إنى قد وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على ما لا أدرى ما هو أرشد هو أم غى شديدة ؟ فحدّثنى حديثاً ، فقد والله اشتهيت يابن أخى أن تحدثنى ، فأقبل رسول الله ﷺ عليه فذكّره ووعظه وخوّفه وبشره . قال : فألقى الله ـ عز وجل ـ فى نفسه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ فقال :

أشهد أنك صادق ، شهادة الصادق العارف ، فأظهر يابن أخى دينك ، فوالله ما أحب أن لى ما أظلته السماء ، وأنى على دينى الأول . فكان حمزة ممن أعز الله به

الدين) [1] .

وهكذا انضمت أقوى شخصية فى بنى هاشم انضمام العضوية فى حزب الله، وأصبح جندياً فيه . وصارت قريش تحسب ألف حساب لهذا الانضمام ، وتراجعت عن كثير من مواقفها لهذا الحدث الكبير .

وراحت تردد أبيات حمزة :

حمدت الله حين هدى فؤادى	إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز	خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا	تحدّر دمع ذى اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها	بآيات مبينة الحروف
وأحمد مصطفى فينا مطاع	فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نسلمه لقومٍ	ولمّا نقضى فيهم بالسيوف
ونترك منهمُ قتلى بقاعٍ	عليها الطير كالورد العكوف[2]

أما المؤمنون الصادقون ، فلم يمر عليهم أسعد من هذا الحدث بعد ؛ وأسعد الناس بإسلام حمزة كان الحبيب المصطفى ﷺ ، وذلك ليواجه كيد وخبث أبى لهب ،الذى كان أعدى العدو . فإن كان أبو لهب عمه يحاربه ويؤذيه . فهذا حمزة عمه يؤمن به وينصره ويحميه .

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق ــ برواية يونس بن بكير: ١٧٢. وأوردها الصالحى فى سيرته ٢/٤٤١، ت : سهيل زكار .

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق ــ رواية يونس بن بكير : ١٧٣ ، ت : سهيل زكار .

من نذر الحرب
إلى الحوار الفكرى

نحن على مشارف السنة الخامسة للبعثة ، وراحت قريش تدرس الأمر بجدية تامة، وتفتق ذهنها عن الحوار المباشر مع رسول الله ﷺ .

عتبة بن ربيعة على خطا الوليد :

(عن جابر بن عبد الله قال : اجتمعت قريش للنبى ﷺ يوماً . فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ،فليأت هذا الرجل الذى فرّق جماعتنا ،وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ، ولينظر ما يرد عليه .قالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة. قالوا : أنت يا أبا الوليد فأتاه عتبة ، فقال :

يا محمد ، أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ . قال: أنت خير أم عبد المطلب . فسكت رسول الله ﷺ . قال :

فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عِبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك،أما والله مارأينا سخلة أشأم على قومك منك ، فرّقت جماعتنا ، وشتّت أمرنا وعِبت ديننا ، وفضحتنا فى العرب حتى طار فيهم أن فى قريش ساحراً ، وأن فى قريش كاهناً ، ما ينتظر إلا مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى .

أيها الرجل ، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش فنزوجك عشراً ، فقال له رسول الله ﷺ: « أفرغت ؟ » قال : نعم . قال : فقال رسول الله ﷺ :

﴿ حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ حتى بلغ **﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾** [1] فقال عتبة: حسبك، حسبك ، ما عندك غير هذا ؟قال: « لا».

فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ فقال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته ، قالوا : هل أجابك ؟ قال : نعم . قال: والذى نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال : **﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾** . قالوا : ويلك يكلمك رجل بالعربية فلا تدرى ما قال ؟ قال : لا والله ، ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر

---

(١) فصلت / ١ ــ ١٣ .

الصاعقة) (١) .

أما رواية ابن إسحاق عن يونس بن بكير فهى :

(حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال : حدثنى يزيد بن زياد مولى بنى هاشم عن محمد بن كعب قال :

حُدِّثتُ أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً ،قال ذات يوم وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده فى المسجد : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى هذا فأكلمه أموراً لعلّه يقبل بعضها ؟ وذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ،فقالوا : بلى يا أبا الوليد ،قم فكلّمه . فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم ، وسفّهتَ به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

فقال : يابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت إنما تريد شرفاً شرّفناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن تراه ،ولا تستطيع أن ترده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، ولعل هذا الذى تأتى به شعر جاش به صدرك ، فإنكم لعمرى يا بنى عبد المطلب تقدرون منه على ما لا يقدر عليه أحد) . حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه ،قال رسول الله ﷺ : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم. قال: «فاستمع منى ». قال : أفعل . فقال رسول الله ﷺ : **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا . . .﴾** (٢) فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه . فلما سمعها عتبة أنصت له ، وألقى بيده خلف ظهره معتمداً عليها يستمع حتى

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/ ٢٠ وقال فيه : « رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندى وثقه ابن معين وغيره ، وضعّفه النسائى وغيره ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) فصلت / ١ ــ ٣ .

انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها ثم قال :

« قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت . فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال :

ورائى أنى والله سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ! يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ،خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا :سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه فقال: هذا رأيى لكم . فاصنعوا ما بدا لكم[1] .

وكانت هذه الجولة الأولى من المباحثات ، غزت أعماق عتبة بن ربيعة سيد بنى عبد شمس، ودفعته إلى أن يطالب قريش بسحب المواجهة مع النبى ﷺ . غير أن قريشاً لم تأخذ برأيه ، وتحدث عتبة عن أبعاد هذا الدين الجديد أن سيكون له شأن ، فلا جدوى من حرب محمد ﷺ ومواجهته، وما انتهى الأمر بين قريش وعتبة إلا واتهموه أن محمداً قد سحره .

ولم يختلف موقف سيد بنى عبد شمس عن سيد بنى مخزوم ، فى الانبهار الذى أصابهم بالقرآن الكريم ،وبقناعتهم أن هذا الكلام لا مثيل له من كلام البشر ، وأنه من عند الله ، لكن كلاهما ينطلقان من المحافظة على زعامتهما فى قومهما ، وبقى بينهما وبين الإيمان بمحمد ﷺ ، الحجاب الكثيف من الزعامة والشهرة والسلطة . لكن كلا الموقفين ينمان عن هزيمة فكرية فى صف قريش ، هى لصالح المجموعة المؤمنة .

كان الزعيمان الرديفان للوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة هما ، أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان بن حرب ، وقد روت كتب السيرة عنهما حقيقة إيمانهما بمحمد ﷺ، وأن الذى يحول بينهما وبين الإسلام هو الإصرار على الزعامة ، وعبادة الذات المقدمة على كل شىء .

أما قصة أبى جهل فيرويها لنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وقد حدثت معه قبل أن يسلم فيقول : (إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ ،أنى أمشى أنا وأبو جهل بن هشام فى بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ ،فقال رسول الله ﷺ لأبى جهل :

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق ١ / ٢٠٧ ، والسيرة النبوية لابن هشام برواية البكائى وهناك اختلاف طفيف جداً ١ / ٣٦٢ .

« يا أبا الحكم ،هلمَّ إلى الله وإلى رسوله ،إنى أدعوك إلى الله ».فقال أبو جهل :

يا محمد ،هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد أن نشهد أن قد بلَّغت . فنحن نشهد أن قد بلَّغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقول حقا لاتبعتك . فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليَّ فقال :

والله إنى لأعلم أن ما يقول حق . ولكن بنى قصى[1] قالوا : فينا الحجابة فقلنا : نعم ، قالوا : فينا الندوة ، قلنا : نعم .قالوا : فينا اللواء : قلنا : نعم . قالوا : فينا السقاية ، قلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبى فلا والله لا أفعل) [2] .

أما قصة أبى سفيان فكما رواها ابنه معاوية ـ رضى الله عنهما :

(خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفاً هند ،وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة إذ لحقنا رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان : انزل يا معاوية حتى يركب محمد . فنزلت عن الحمارة فركبها رسول الله ﷺ فسار أمامهما هنيهة، ثم التفت إليهما فقال : « يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة ، والله لتموتُن ثم لتبعثن ، ثم ليدخُلن المحسن الجنة والمسىء النار ، وأن ما أقول لكم حق ، وأنكم أول من أنذرتكم » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾حتى بلغ ﴿ **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[3] ، فقال له أبو سفيان : أفرغت يا محمد. قال : « نعم » . ونزل رسول الله ﷺ عن الحمارة وركبتها ، فأقبلت هند على أبى سفيان فقالت : ألهذا الساحر الكذاب أنزلت ابنى ؟ فقال : والله ما هو بساحر ولا كذاب)[4] .

لقد كان القرآن الكريم يسرى عن النبى ﷺ فيما يلقاه من عنت وتكذيب . فسورة فصلت التى قرأ رسول الله ﷺ معظمها على عتبة بن ربيعة ،تصفه وأمثاله فتقول عنهم وعن موقفهم من القرآن: ﴿ ... **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ** ﴾ [5] .

---

(١) يلتقى نسب عمرو بن هشام مع رسول الله ﷺ فى جده قصى بن كلاب بن مرة .

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق ١ / ٢١٠ ورواية ابن إسحاق عن هشام بن سعيد (صدوق) عن زيد بن أسلم (ثقة عالم) عن (المغيرة بن شعبة) أحد الصحابة .

(٣) فصلت / ١ ـ ١١ .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ٦ / ٢٠ وقال فيه : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وحميد بن منهب لم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

(٥) فصلت / ٣ ـ ٥ .

فسورة غافر بكل إيحاءاتها مع الوليد بن المغيرة ، وسورة فصلت بكل إيحاءاتها مع عتبة بن ربيعة لم تفجر كيانهم ، وتحول تركيبهم . وكانا كما وصفهما القرآن تماماً ﴿ . . . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ (١) .

لكن الصف المؤمن ، وهو يستمع إلى اللقاء الذى تم مع عتبة بن ربيعة ، وكيف رفض حبيبهم المصطفى ﷺ كل عروضه المغرية ،كان درساً تربويا خالط أحشاءهم، تعلموا منه الثبات على المبدأ والتمسك بالعقيدة ، ووضع المغريات من المال والجاه والباهة تحت أقدام المؤمنين .

إنه درس عملى ، شهده الصف المؤمن ، وهو يرى قائده يواجه أحد قادة الشرك بهذا الحزم وبهذه الصلابة من جهة،وذلك بعرض القرآن الكريم كما أنزله الله تعالى عليه ، على هذا القائد ،كما يرى ذلك الحلم العظيم والصدر الرحب ، وهو يستمع إلى ترهات عتبة بن ربيعة ، ونيله من رسول الله صلوات الله عليه . وقوله عنه : (إن فى قريش ساحراً) و(إن فى قريش كاهناً) ، (ما رأينا سخلة أشأم على قومك منك) و(إن كان بك رئيا من الجن) .

وكيف أغضى ــ عليه الصلاة والسلام ــ عن هذا الإفزاع فى السباب بحيث لا يصرفه ذلك عن دعوته وتبليغه إياها لسيد بنى عبد شمس .

كانت كل كلمة تصدر من سيد الخلق ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ مبدأ يحتذى، وكل تصرف ديناً يتبع ، وكل إغضاء خلقاً يتأسى به ، فهم مع مختار الله من خلقه محمد ــ عليه الصلاة والسلام .

وفقه هذا الدرس طلاب مدرسة الأرقم ، وشحن إيمانهم بشحنات حية وصلتهم بالسماء كأنما هى رأى العين .

قيادات مكة تدير الحوار :

ثم كان الحدث الثانى من المفاوضات الذى تحركت به كل قيادات مكة بلا استثناء .

وكان إيذاناً ببداية مرحلة جديدة ، محفوفة بالمخاطر،مليئة بالمحن،أضخم من سابقتها.

ونعرض هذا الدرس بكل تفاصيله وجزئياته كما يرويه لنا ابن عباس رضي الله عنهما :

قال ابن إسحاق :

ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء(٢)، وقريش

(١) فصلت / ٥ .

(٢) وصورة ذلك هم الخمسون الثانية الذين استعرضناهم فى الفصل السابق .

تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين.

ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة كما حدثنى بعض أهل العلم(١) عن سعيد بن جبير عن عكرمة مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال :

(اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث بن كلدة ــ أخو بنى عبد الدار ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ،وأمية بن خلف ، أو من اجتمع منهم) (٢) .

اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه . فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعزُ عليه عنتهم حتى جلس إليهم فقالوا .

يا محمد ،إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين، وشتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة . فما بقى أمر قبيح قد جئته فيما بيننا وبينك .أو كما قالوا له .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدُك علينا ،وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن قد غلب عليك ــ وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً ـ فربما كان ذلك،بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ :

«ما بى ما تقولون . ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ،ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ،ولكنّ الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ،فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى

---

(١) فى رواية يونس بن بكير فى السيرة لابن إسحاق قال : حدثنى شيخ من أهل مكة قديم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة . انظر :السيرة ١ / ١٩٧ .

(٢) مثلوا ستة من بطون مكة وهم: (عبد شمس ، عبد الدار ، أسد ، مخزوم ، سهم ، جمح) .

وبينكم» أو كما قال ﷺ .

قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماءً ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ،فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيّقت علينا ، وليبسط لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ،وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ،فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل ؟ فإن صدَّقوك . وصنعت ما سألناك ،صدَّقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله . وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «ما بهذا بعثت إليكم،إنما جئتكم من الله بما بعثنى به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ،فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله تعالى بينى وبينكم».

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا ،فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ،حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ:«ما أنا بفاعل،وما أنا بالذى يسأل ربه هذا،وما بعثت إليكم بهذا،ولكنّ الله بعثنى بشيراً ونذيراً ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة،وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم».

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفا ـ كما زعمت ـ أن ربك لو شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل ، قال : فقال لهم رسول الله ﷺ :

« ذلك إلى الله إن يفعله بكم فعل » .

قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عمَّا سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب ،فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا ،إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلِّمك هذا رجل باليمامة يقال له : الرحمن ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم :نحن نعبد الملائكة ، وهى بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قـام عنهم،وقـام معه عبدالله بن أبى أمية بن المغيرة ـ وهو ابن عمته فهو لعاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال له :

يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً يعرفوا بها منزلتك عند الله كما تقول ،ويصدِّقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجِّل لهم بعض ما تخوِّفُهم به من العذاب فلم تفعل ــ أو كما قال ــ فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله لو فعلت هذا ما ظننت أنى أصدِّقك . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوْه،وما رأى من مباعدتهم إياه. فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله ــ أو كما قال ــ فإذا سجد فى صلاته، فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ،فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا : والله لا نسلمك لشىء أبداً . فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف . ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلته إلى الشام . فكان إذا صلى صلَّى بين الرّكن اليمانى والحجر الأسود ،وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلى ، وقد غدت قريش ،فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل . فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش ، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة. فلما دنوت منه عَرَضَ لى دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ،ولا مثل قصرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحاق : فذكر أن رسول الله ﷺ قال : « ذلك جبريل ـ عليه السلام ـ لو دنا لأخذه » .

فلما قال لهم ذلك أبو جهل ،قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى . . . فقال : يا معشر قريش ، إنه والله نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . فقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة،حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب،وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر،لقد رأينا السحرة،ونفثهم وعقَدهم ،وقلتم: كاهن، لا والله

ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ،وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه . يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله . فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم :

إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاثة نأمركم بهن ، فإن أخبركم فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا أول الدهر الأول ما كان أمرهم،فإنه كان لهم حديث عجب؟ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه ، فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش . قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، فقد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبى ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فروا فيه ما بدا لكم .

فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا : أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هى قال : فقال لهم رسول الله ﷺ: « أخبركم عما سألتم عنه غداً » ولم يستثن ، فانصرفوا عنه فمكث رسول الله ﷺ ــ فيما يذكرون ــ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه فى ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما سألناه عنه . وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكْثُ الوحى عنه ، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر : الفتية ، والرجل الطواف ، والروح .

إذا كانت العروض السابقة قد تقدم بها عتبة بن ربيعة سيد بنى عبد شمس، فهى عروض شخصية لعله لا يملك القدرة على تنفيذها . فالآن يعرضها كل أصحاب الكلمة والسلطة فى مكة ، ويعرضون المال ليكون أكثرهم مالاً ، وأهم ما فى الأمر أنهم يعرضون عليه إن أراد ملكاً أن يتنازلوا له عن سلطانهم ويملكونه عليهم ، ولئن رفضوا عثمان بن الحويرث ملكاً بأمر قيصر ملك الأرض آنذاك ، فهم الآن باختيارهم يعرضون على رسول الله ﷺ أن يتوّجوه ملكاً .

١ ـ إن تجربة عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصى كما ذكرها الزبير (أن قيصر كان قد توَّج عثمان وولاه أمر مكة ـ بعد ما تنصر ودخل فى دينه ـ فلما جاءهم بذلك أنفوا أن يدينوا لملك ، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى بن قصى : ألا إن مكة حى لَقَاح لا تدين لملك فلم يتم له مراده ، وكان يقال له البطريق ، ولا عقب له ، ومات بالشام مسموماً . سمّه عمرو بن خفية الغسانى الملك) [١] .

إن قريشاً لم تهب قيصر ، ورفضت أمره ، ورفضت واليه عثمان بن الحويرث بن أسد . وكان على رأس الرافضين عم عثمان بن الحويرث ،الأسود بن أسد بن قصى ، ورفضوا أن ينصاعوا لملكه ، وها هم الآن بكل قياداتهم ـ إذ لم يعد رجل صاحب سلطة بمكة إلا هو معهم ـ يعرضون على رسول الله ﷺ أن يتوجوه ملكاً . وهذا يعنى أن خطورة محمد ﷺ ودعوته بلغت خطراً أكبر من مواجهة قيصر وأمره .

ويتساءل المرء ، كيف يتم الجمع بين النقيضين . فهذه القيادات لم تسلم خوفاً على سلطتها وملكها . ورأينا ما يحملون فى أعماقهم من تصديق لرسول الله ﷺ .

﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[٢] .

كيف يتم الجمع بين هذه الفكرة وبين فكرة التنازل عن السلطان والملك له. وبنظرة فاحصة يزول هذا التناقض ، فإذا كان محمد ﷺ طالب ملك وسلطان فقد استوى معهم ،والذين يُمَلِّكُونه قادرون على أن يخلعوه ، ويغدو رجلاً منهم ، وليس نبيا يوحى إليه من السماء . . . وينضم إليه أبناء كل القبائل بلا استثناء ، بحيث لم تستطع كل قبيلة أن تزعم أنه ليس فى صفوفها أتباع لمحمد .

عندئذ يمكن للقبائل أن يتحاربوا وأن يتفانوا أو أن يصطلحوا فى المحافظة على هذا الشرف .

وما حلف المطيبين ، وحلف الأحلاف ببعيد ، وما حرب الفجار بين كنانة وقريش

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ١/ ٢٥٥ .	(٢) الأنعام / ٣٣ .

ببعيد . وبنو عبد مناف أنفسهم منقسمون بين مؤيد ومعارض له . فعندئذ إما أن يشركهم فى الملك أو يبيتوا له كميناً ومؤامرة تزيحه عن ملكه ، أما خطر الدعوة إلى النبوة فكيف تواجه ، وهذا الكلام الآسر الذى يزلزل كيانهم . لا يشبهه كلام الإنس وكلام الجن فمن أين يأتون بمثله ؟

إن الأمر يمكن أن يكون بدون تتويج ، بأن لا يقطعوا أمراً دونه ، ويمكن أن يكون باعتراف بملكيته كما اعترفوا لجده قصى بن كلاب الذى دانت له مكة كلها ، ولكن هذا كله أهون من النبوة .

وراحوا يعرضون بعدها الأمور التافهة الرخيصة . زواجه بعشر من نساء قريش، وهم يعلمون نظافة الأمين وطهره ، ونأيه عن كل شبقهم الجنسى واندفاعهم وراء الفاحشة ، وأنه يعيش مع خديجة الصابرة المصابرة ، وقد بلغ أربعين عاماً فى أسعد أيامه وأحلى مراحل عمره .

ويعرضون العرض التافه الرخيص أن يداووه من الجن فربما غلب التابع عليه ، وإلا من أين لمحمد هذا الكلام الساحر الأخاذ ؟

٢ ـ وجاء الجواب النبوى حازماً حاسماً صارماً جامعاً مانعاً لكل هذه العروض وأمثالها ، وموضحاً الهدف الرفيع الذى يتحرك من أجله بعد أن أعلمهم أنهم لو أعطوه الشمس فى يمينه والقمر فى يساره ما ترك هذا الأمر .

إنه يحدد هنا هذا الأمر ، ويشرح جوانب العقيدة ، وطبيعة النبوة ، فهم الآن الذين دعوه ليسمعوا منه ، وقبل كان هو الذى يعرض عليهم ، ويشرح لهم ، ويمضى إلى مجالسهم . أما الآن فليس زعيماً واحداً . بل كل الملأ الذين كفروا واستكبروا من قومه :

« ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً . فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم . فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

وكان الجواب من الوضوح والنصاعة والبلاغة بحيث لا يستدعى كلاماً بعده ، ويدفعهم إلى اتباعه بدون ملك ، ولا سلطة ، ولا تسلط على رقابهم . إنه يطلب منهم الإيمان بهذه المبادئ والاعتناق لها ، ولا شىء وراء ذلك ، كما أنه لم يُزَوِّق هذه العقيدة بحيث يربطها بشىء من حطام الدنيا ، لو تبنوها .

« فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة » ، وإن رفضوه فلا تهديد ولا وعيد ولا ترعيب . إنما الصبر حتى يحكم الله بين الفريقين .

فقضية الرسالة والنبوة لا تحمل الغش والخداع ، ولا تحتمل كذلك التزيين والعروض المادية الأرضية .

٣ ـ وأمام هذه الصلابة ، انطلق الملأ من قريش كما انطلق كل ملأ فى التاريخ من قومهم يطلبون الخوارق والمعجزات المادية ، وعلى رأسها أن يسير عنهم هذه الجبال التى خنقتهم ، وأن يبسط لهم بلادهم فتنفجر الأنهار فيها ، مع معجزة ثانية هى إحياء قصى ابن كلاب شيخ مكة الأول وملكها الذى دانت له ولم تدن لغيره ، ليسألوه عن دين محمد ، ولو شهد لهم لاتبعوا محمداً كما يزعمون .

إن عملية طلب الخوارق والمعجزات هى خطة متبعة على مدى تاريخ البشرية الطويل ، ورغم حرص النبى ﷺ على إيمان قومه ، وتفانيه فى ذلك ، لكن التربية الربانية التى تلقاها من ربه ، والأدب النبوى الذى تأدب عليه ، جعله يرفض طلب المعجزة . فعبوديته الخالصة لله سبحانه ، تحول بينه وبين أن يطلب أن يجرى الله تعالى المعجزات على يديه .

« ما بهذا بعثت ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ،وقد بلغتكم ما أرسلت به . . . » .

مع أن أعظم نصر يحققه له ولدعوته ، وأعظم ذل وصغار لعدوه يكون لو برزت واحدة من هذه المعجزات .

وجاء القرآن الكريم ليصفع الملأ من قريش على هذا الطلب ، وينصر منهج محمد وصحبه فيقول لهم كما يقول ابن إسحاق : (وأنزل الله تعالى عليه فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وبعث من مضى من آبائهم من الموتى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾(١)) (٢) .

فقد انتصر القرآن للمنهج النبوى . وخاض المعركة بجوار رسول الله ﷺ ، وأكد

(١) الرعد / ٣١ ، ٣٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٨١ .

أن القرآن لم ينزَّل لذلك ، إنما أنزل منهجاً يُتَّبع ، ودستوراً يُنفذ ، وتعاليم تطبق .

وقوله عليه الصلاة والسلام :« ما بهذا بعثت ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم . فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

لقد كان الصف المؤمن يستمع لهذه الآيات القرآنية التى تصدق المواقف الخالدة . ويقطع كل اللجلجات والأمانى فى نفوسهم ، ولم لا يطلب الحبيب المصطفى المعجزات له ، فيؤمن قومه ؟!

جاء القرآن الكريم ليبنى قلوبهم وفطرتهم ، ويقول لهم بهذه الشدة وهذا العنف .

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

فالسنة الربانية ليست أن يسلم الملأ بالمعجزات ، لأن السنة الربانية أن تقع المعركة ويقع الجهاد بين الفريقين .

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ .

وهم الذين عليهم أن يصبروا كما صبر قائدهم الحبيب ، حتى يحكم الله تعالى بين الفريقين .

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

وإلى متى يستمر هذا الإملاء . ومتى يكون أخذ العزيز المقتدر. هذا غيب لا يعلمه إلا الله . ومهمة المؤمنين الصادقين أن يصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

٤ ـ وتابع الملأ من قريش التحدى أكثر فأكثر ، فهو لم يقبل كل عروضهم السخية، ولم يحقق لهم المعجزات ليكونوا أرغد الأمم فى الأرض . فليطلب لنفسه على الأقل ما يلاحظون من خلاله أنه أعلى كعباً منهم ، وأنه أعظم شأواً منهم ، وأنه رسول من عند الله كما يقول :

(فإذ لم تفعل هذا فخذ لنفسك،سل ربك أن يبعث معك مَلَكاً يصدِّقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك فيها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ؛ حتى نعرف فضلك فينا ومنزلتك عند ربك إن كنت رسولاً كما تزعم) .

لم يستطع عقل الملأ من قريش أن يستوعب أن فرداً منهم ـ ولا يشارك الملأ فى الحكم والسلطان ـ يختاره خالق السموات والأرض ، ويكلّمه ويوحى إليه ، ويتركهم. فمقومات الزعامة والشخصية لا تفوتهم : المال والبنون ، والكرم والشجاعة والنجدة ، وهم يملكونها على تفاوت بينهم . ومحمد ﷺ يملك أخلاقياتها ، الكرم والشجاعة والنجدة ، لكنه لا يملك وسائلها . فليس له بنون وليس له ثروة طائلة ، فبم يتفوق عليهم ؟ إن نفاسة المعدن ، وعظمة الخلق، وأصالة العنصر هى الميزان الحقيقى فى الإسلام ، يرافق هذا كله فقهاً فى دين الله ، وتقوى لله وخشية وطاعة .

أما عندهم : (أطعموا فأطعمنا ، وسقوا فسقينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وصرنا كفرسى رهان) . وحتى يقتنع الملأ بنبوته ﷺ يريدون مَلَكاً يراجع عنه ، ويريدون له جناناً وقصوراً وكنوزاً لا يحتاج معها إلى التماس المعاش كما يلتمسون .

وكان جواب قائد الدعوة : « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا . ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله بينى وبينكم » .

وينتظر جنود الدعوة ولو أمراً واحداً يدعو ربه فيه . لعل هؤلاء الملأ يؤمنون ، ويجىء الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ بالموقف المطابق لموقف قائدهم تماماً عليه الصلاة والسلام .

(وأنزل عليه فى قولهم : خذ لنفسك ، ما سألوه أن يأخذ لنفسه ، أن يجعل له جناناً وقصوراً وكنوزاً أو يبعث معه ملكاً يصدِّقه بما يقول ويرد عنه :

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً . تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾[1] ، وأنزل عليه فى ذلك من قولهم : **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾** [2]. أى جعلت بعضكم

(١) الفرقان / ٧ ــ ١٠ .

(٢) الفرقان / ٢٠ .

لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يُخَالفَوا لفعلت) (١) .

وهكذا وطّن المؤمنون أنفسهم على مشاق الطريق خلف قائدهم عليه الصلاة والسلام ، وأن الإرادة الربانية التى تريد أن تصوغ منهم القاعدة الصلبة . تقتضى منهم الثبات على الطريق اللاحب الطويل الذى ينتهى بنصر الله وتمكينه ، لكن الفتنة والمحنة طويلة طويلة .

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرا ﴾ .

٥ ـ وكان التحدى الأخير للنبى ﷺ من الملأ أن ينزل بهم عذاب الله إن كان صادقاً وإن كانوا كاذبين :(قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك لو شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل . قال : فقال رسول الله ﷺ : « ذلك إلى الله إن يفعله بكم فعل » . قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به ! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أوتهلكنا . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله . . .) .

ثم كانت مقولة ابن عمته عبد الله بن أبى أمية :

(. . . فوالله لا أؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك .

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه) (٢) .

لقد شعر المشركون بالانتفاش والعزة بالإثم بعد فشل مفاوضاتهم مع محمد ﷺ وشعروا أن محمداً قد عجز عن تحقيق كل ما طلبوا ، وبذلك أعذروا معه ، وبلغت قمة الإيذاء من ابن عمته الذى تحداه هذا التحدى .

وبقيت كلمة عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة تحفر فى قلب سيد الخلق سنين طوالاً ، قرابة عشرين عاماً . حين جاءه ليسلم .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٦ ، وقال المحقق عنه : صرح فيه ابن إسحاق بالسماع وهو منقطع ، أقول : وبقية رجاله ثقات ، وجميع عروض المشركين قد نزل بها قرآن يتلى ويرد على افتراءاتهم وتحدياته .

قال ابن إسحاق : (وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه ، فكلّمته أم سلمة فيهما ،فقالت : يارسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك ؛ قال :

« لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال » ، فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبى سفيان بنى له . فقال : والله ليأذننَّ لى ، أو لآخذنَّ بيد بنى هذا . ثم لنذهبنّ فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما ، ثم أذن لهما ، فدخلا عليه فأسلما) .

وكم الفارق هائل بين الموقفين :

الموقف الأول : فى السنة السادسة للبعثة ، وعبد الله بن أبى أمية يتبجح على ابن عمته محمد ﷺ ،و يقسم أنه لن يؤمن به حتى يأتى بسلم فيصعد فيها ، فيدخل فى السماء ، ثم يرجع ومعه كتاب ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أن هذا من عند الله .

والموقف الثانى : فى السنة الثامنة للهجرة ، وخلف رسول الله ﷺ جيشه اللجب من عشرة آلاف مقاتل ، وعبد الله بن أبى أمية الوحيد الكسير يقف بباب رسول الله ﷺ يطلب الإذن بالدخول عليه ليسلم ، بدون السلّم ودخول السماء والكتاب والملائكة الأربعة .

إنها عظمة هذا الدين وصبر رسوله ــ عليه الصلاة والسلام ،والجيل المؤمن الذى رباه هو الذى قاد إلى الموقف الثانى .

ولقد سجل القرآن العظيم هذا التعنت من الكفار ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى أمية . بصفته موقف الكفر ضد الإيمان على مدى التاريخ .

(وأنزل الله عليه فيما قاله عبد الله بن أبى أمية : ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولا** ﴾ (١)) (٢) .

---

(١) الإسراء / ٩٠ ــ ٩٤ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٨٢ .

وتتنزل بعد هذه الآيات سورٌ وآيات كبيرة طويلة تتحدث عن مواقف الملأ مع أنبيائهم . كمواقف الملأ من قريش ،وهى دروس فى التربية لطلاب دار الأرقم ، تجعلهم يلتحمون بهذه المعانى التحاماً بحيث تصبح جزءاً من كيانهم وذاتهم ، وأن العاقبة للمتقين . ولكن هذه العاقبة تسير ضمن الخط الذى تربى عليه قائدهم عليه الصلاة والسلام من ربه ، ورباهم عليه .

« فإن تقبلوا منى فهو حظكم فى الدنيا والآخرة . وإن تردوا علىَّ ، أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

٦ ـ وأمام فشل المفاوضات استغل فرعون الأمة هذه اللحظة العنيفة من التأزم لدى الملأ بما فيهم بنى عبد مناف وألقى قنبلته الموقوتة التى أخذ بها الضوء الأخضر باغتيال محمد ﷺ وذلك بإجماع الملأ كله فقال :

يا معشر قريش ، إن محمداً ،قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا وإنى أعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجر لا أطيق حمله ـ أو كما قال ـ فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى . فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نسلمك لشىء أبدا فامض لما تريد . . .) [1] .

وبلغت المؤامرة قمتها فالملأ مجمعون على تأييد أبى جهل فى موقفه ، وبينهم عتبة ابن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، وأبو البخترى بن هشام . قادة بنى عبد مناف وأنصارهم. ولم يمضوا لمحمد فيحذروه ،أو يعترضوا على هذا العمل الإجرامى المشين. فعجزهم فى المفاوضات يدفعهم إلى قتله .

إنهم لم يدخلوا أبداً فى الحديث عن مضمون هذا الدين وهذه العقيدة . وكل المفاوضات كانت تدور رحاها حول طلب الخوارق والمعجزات . ولكنهم أعجز من أن يناقشوا المبادئ التى طرحها عليهم عليه الصلاة والسلام . واستعد الجميع بما فيهم قادة بنى أمية أولا. وعبد مناف أن يشاركوا فى هذه الجريمة .

لقد قرَّر الملأ ، وقادة الكفر كله أن يقتلوا رسول الله ﷺ . فماذا كان ؟

(فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر . ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٦٨ ،وقال المحقق فيه : أخرجه البخارى فى كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ بهامش الفتح ج٨ ص ٣٨٠ ورواه أحمد والترمذى أقول: ورواه مسلم والنسائى كذلك لكن كل الروايات تشير إلى تهديد عدو الله أبى جهل أن يطأ عنق النبى ﷺ وهو يصلى =

يده ، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة . فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط . فهمّ بى أن يأكلنى) [1] .

وسواء كان تهديد أبى جهل بوطء عنق النبى ﷺ ـ كما ورد فى الصحيح ـ أو فى قتل النبى ﷺ ـ كما فى السيرة عند ابن هشام . فالثابت أن المعجزة قد وقعت ، وعلى قول ابن إسحاق أنها وقعت فى اليوم الثانى للمفاوضات وطلب المعجزات . والملأ من قريش جميعاً قد اجتمعوا ليشهدوا مقتل محمد رسول الله ﷺ وسيد البطحاء ـ كما يسمونه ـ أبو جهل ، وأعز قريش . كما يزعم نفسه . يعود مرعوباً ، ممتقعاً لونه ، ويعترف أمام الملأ جميعاً . أنه رأى خندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، أو رأى ذلك الفحل من الإبل ما رأى مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه قط .

كان المفروض على ضوء هذه الواقعة . أن يعلن أبو جهل إسلامه بعد أن رأى المعجزة بعينه ، ويتداعى الملأ من قريش يعلنون إسلامهم . ولكن القرآن الكريم يؤكد منهج هؤلاء الطغاة أنه لا يتغير ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** ﴾[2] .

أما الحادثة بالنسبة للصف المؤمن فما زادتهم إلا إيماناً وتسليما . أما الملأ وقد رأى سيدهم المعجزة بعينه ما زادوا إلا أن كان موقفهم كما يصفهم القرآن :

﴿ **وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾[3] .

وهم ليسوا على استعداد لأن يصغوا لهذا القرآن أو يستمعوا له :

﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا** ﴾[4] . ولم تكن هذه الإرادة الربانية بذلك إلا أنهم اختاروا بملء إرادتهم التولى عن الله ورسوله كما يؤكد القرآن ذلك : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ**

= فما فجئهم إلا وهو ينكص على عقبية ويتقى بيديه فقيل له : مالك ، قال: إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة . فقال رسول الله ﷺ : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » مسلم ٤ / ٢١٤٥ .

(١) المصدر السابق .
(٢) الإسراء / ٥٩ .
(٣) الأعراف / ١٣٢ .
(٤) الإسراء / ٤٥ ـ ٤٧ .

سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾[1] .

لكن هذا الموقف على العموم جعلهم يتراجعون عن المواجهة والحرب بعد هذه الهزيمة القبيحة التى حاقت بسيدهم . ودفعت أحد شياطينهم وطغاتهم إلى الموقف الجديد ضمن إطار الحوار الفكرى .

٧ ـ كان النضر بن الحارث من شياطين قريش ،وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وأسبنديار .فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله ، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة . الله خلفه فى مجلسه ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلمَّ إلىَّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسبنديار ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً منى ؟ .

قال ابن هشام : وهو الذى قال فيما بلغنى : ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾[2] .

قال ابن إسحاق :(وكان ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يقول فيما بلغنى : نزل فيه ثمان آيات من القرآن: قول الله عز وجل: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[3] وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن)[4] .

هذا التعريف بهذا المجرم . يعطينا صورة عن مدى الهزة العنيفة التى نزلت بالملأ بعد هزيمة أبى جهل وفشله .

صحيح أن القوم لم يسلموا ، ولكن المؤكد كذلك ،أنها زعزعت نفسياتهم جميعاً . ودعت النضر لأن يقول :

(إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيه . وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ،لا والله ما هو بساحر ، وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن . . .وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر . . .وقلتم : مجنون،لا والله ما هو بمجنون . . . فانظروا فى شأنكم. فإنه والله نزل بكم أمر عظيم.

وتمخض جمعهم وشوراهم عن سؤال أهل الكتاب عنه فى يثرب وهم أحبار

---

(١) الأعراف / ١٤٦ . (٢) الأنعام / ٩٣ . (٣) القلم / ١٥ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٧٠ . وقد رواه البلاذرى معلقاً ـ كما قال المحقق فيه ـ فى أنساب الأشراف ج١ / ١٣٩ .

يهود. وهم قد رأوا قسَّهم ورقة بن نوفل أول من آمن بمحمد ﷺ ، وسمعوا بقصة بحيرى من قبل . لكنهم اليوم يودون حسماً بهذا الأمر ، ويرغبون أن يأتى الجواب بتكذيبه . ليكون بين يديهم سلاحاً يحاربون به .

وكان جواب الأحبار: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ . فإن أخبركم بهنّ، فهو نبى مرسل . وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبى، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل . . .) .

لقد كان النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط من ألد أعداء رسول الله ﷺ وهما رسولا مكة إلى أحبار يهود . وعندما عادا إلى قومهم قالا لهم :(قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أخبرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبى . وإن لم يفعل فالرجل متقوّل)(١) .

فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هى ؟ قال :فقال لهم رسول الله ﷺ : « أخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن ، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون .خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه فى ذلك وحياً . ولا يأتيه جبريل ،حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما سألناه عنه،وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل، بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم .وخبر ما سألوه عنه من أمر: الفتية ، والرجل الطواف ، والروح .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه :

« لقد احتبسْتَ عنى يا جبريل حتى سؤت ظناً » . فقال جبريل :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾(٢) .

* * *

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٧١ وما بعدها ، وقال المحقق فيه : رواه ابن إسحاق معلقاً،ورواه الترمذى فى كتاب التفسير ج٤ ص ٣٦٦ ، ط عبد الرحمن عثمان ، حديث رقم ٥١٤٨ وقال :« هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ».

(٢) مريم / ٦٤ .

لا يبعد أن تكون أعظم محنة مر بها النبى ﷺ منذ أن أوحى إليه فى حراء حتى هذا الوقت هى هذه المحنة ،احتباس جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنه خمس عشرة ليلة وقد وعد المشركين أن يقدم لهم الجواب غداً. وانتشرت مقالة قريش فى مكة تتحدث عن عجز محمد عن الجواب. والمؤمنون يعانون مع قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أشد معاناة. ويحاول الشيطان أن يتسلل إلى هذه القلوب العامرة بالإيمان المترعة بالعقيدة بحيث يشكك فى نبوة محمد ﷺ. لكن دون جدوى، فالطرق مسدودة عليه .

وأبسط رد على الشيطان الرجيم من الجن : أن لو كان محمد ﷺ متقوِّلاً ودعيا . لأجابهم من اليوم الثانى واخترع هاتين القصتين من عنده، أو من عند رجل من أهل الكتاب . لكنها النبوة التى جاءه التهديد الربانى فيها :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾(١) .

أما شياطين الإنس الذين انطلقوا يجوبون مكة ، ويعلنون عن نكث محمد فى وعده وعهده ، وعجزه عن الجواب عن الأسئلة الثلاثة ،مما يؤكد نبوءة أهل الكتاب أنه متقوِّل كذاب .

لقد كان الصف المؤمن كله فى ذروة محنته . فالمحن الجسدية والتعذيب المادى ، ما أهونها أمام هذا العتو والتعالى من الطغاة والمستكبرين ، ومن المرجفين والمشككين. لقد كان الوحى هو بلسم كل جرح ،ودواء كل محنة ، وعافية كل بلاء ،وجلاء كل تكذيب ، لكن كيف إذا انقطع الوحى ؟

لقد تربى هذا الجيل على القرآن وبالقرآن ، راح يأخذ كل قيمه ، ومبادئه ، ومفاهيمه ،ومثله، وحبه ، وكرهه ، من الله تعالى مباشرة عن طريق الأمين جبريل. وكان ينتظر مع كل داهية ، قرآناً يتلى ، وما المحنة السابقة التى بلغت ذروتها فى التكذيب والإيذاء إلا أصبحت كالقطر الندى حين جاء القرآن سلواناً لرسوله ﷺ وللمؤمنين ، وأنهم على حق ، وأن هذه سنة الابتلاء وسنة الدعوات ، وسنة الرسل ، وسنة أعداء الرسل ، والعاقبة للتقوى .

أما وقد انقطع وحى السماء ورسول الله ﷺ بين ظهرانيهم ، ليهد هذا الأمر كيانهم، ويبلغ من المقام النبوى الرفيع المؤدب بأدب الله أن يقول لجبريل عندما جاء :

« لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤتُ ظنا » وكان جواب الحبيب للحبيب

---

(١) الحاقة / ٤٤-٤٧ .

المصطفى بما أنزل الله تعالى على حبيبه ورسوله : ﴿ **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾(١) .

وكان الجواب على التأخير من الوحى للرسول الحبيب ﷺ :

﴿ **وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً** ﴾(٢) .

فالمشيئة الربانية المطلقة هى التى تفعل فى هذا الوجود . وأعظم ما فى هذا الوجود وسيد الثقلين الإنس والجن ، إن هو إلا عبد خاضع لهذه المشيئة الربانية، إنه أحب خلق الله إلى الله عز وجل .

ومع هذا فلا يملك النفع والضر إلا بإذن الله ، ولا يملك العلم بالغيب إلا بما يأذن به الله ، ولا يملك أن يقول حرفاً واحداً من عنده إلا بما يوحى الله تعالى إليه .

وكم كان هذا الدرس البليغ فاعلاً فى نفس القائد العظيم عليه الصلاة والسلام ، وكم كان فاعلاً فى نفوس الصفوة المختارة من الخلق لتدرك بالواقع المحسوس مقام الألوهية ، ومقام النبوة ، ومقام العبودية ، وتبنى العقيدة فى نفسها واقعا عملياً حياً لا تفكيراً نظريا بحتا .

وخلال هذه السنوات الست ، تلقى المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أبلغ درسين وذلك فى عام واحد تقريباً . تلقى درس ابن أم مكتوم ، وتلقى درس ربط الفعل بالمشيئة . فهو يصنع على عين الله ، وهو مكلَّف بعدها أن يكون المربى الأعظم للجيل المؤمن الجديد .

وتلقى درساً ثالثاً سبق أن عوتب فيه ، وهو ألا يهلك نفسه لهداية قومه ، ولا تقتل الحسرة على هدايتهم شخصه ، فهو أعلى مقاماً عند الله أن تذهب نفسه عليهم حسرات .

والمشيئة الربانية التى اختارت خط الهداية هذا فى أول الطريق هو الأجدى والأنفع والأعظم .

فالجيل المؤمن الجديد لا يحتاج إلى مجرد أرقام ، إنه يصنع يوماً وراء يوم. وفى لقاء يومى مستمر ، بعيداً عن مؤثرات العشيرة والزعامة والجاه والسلطان، إنه يصاغ بالإسلام وبالقرآن ، خالياً من كل مورثات الجاهلية ، وكل فرد فيه خير من طلاع

---

(١) مريم / ٦٤ .

(٢) الكهف / ٢٣، ٢٤ .

الأرض ذهباً من المشركين . هذا الدرس هو مواساته بعد فشل المباحثات مع قومه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(١).

وتمهيد إلى أنهم لم يؤمنوا حتى بعد أن يعرفوا إجابات أسئلتهم عن الفتية فى الدهر الأول ، وعن الرجل الطواف فى الآفاق ، وعن الروح .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (٢) .

لقد عُرض حديث الفتية فى الدهر الأول درساً للمؤمنين الملاحقين المضطهدين أكثر منه هداية للمشركين . فالمشركون لن يهتدوا أبداً ولو عرفوا جواب الأسئلة الثلاثة. أما هؤلاء الفتية ، فهم مثل هؤلاء الفتية المختصين فى دار الأرقم ، ومرت الأجيال ، واهتدى الناس بهم وهم يغطون فى نوم عميق هاربين من الفتنة بدينهم وعقيدتهم . وكما كان المستقبل لهم فالمستقبل للإسلام . وطريق النصر والتمكين هو بهذه القلة المؤمنة . كأولئك السبعة أو الستة ، فعددهم لا يجدى والخلاف فيه لا يضير ، وغير ذى معنى .

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٣) .

أما طريق التمكين والنصر ، فهو ـ وذلك بعد عرض قصة الفتية الذين آمنوا وزادهم الله هدى .

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾(٤).

طريق النصر بهذا القرآن وبتطبيقه وتلاوته ، والعمل به ، هو الزاد وهو المدد وهو الهداية .

ثم بهذه القلة المؤمنة المجاهدة الصابرة . بهذا الرصيد الذى يغنى عن الملأ وأتباعهم والناعقين حولهم .

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٥) .

أما أولئك المكابرون المعاندون الجاحدون ، فالمفاصلة معهم هى الأصل .

---

(١) الكهف / ٦ .
(٢) الكهف / ٥٧ .
(٣) الكهف / ٢٢ .
(٤) الكهف / ٢٧ .
(٥) الكهف / ٢٨ .

﴿ . . . ولا تُطعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن ومَن شاءَ فَلْيَكْفُرْ . . . ﴾[1] .

فأولئك لابد من المفاصلة معهم والتميز عنهم ، ولابد لهذا المجتمع الوليد الجديد المؤمن أن يكون هو البديل عن ذلك المجتمع الجاهلى الآسن ، ولا يريد الإسلام مجتمعا خليطاً . تختلط فيه القيم والمبادئ والضغوط .

* * *

وأما الرجل الطواف فى الآفاق . فقد جاءت قصته بوضوح وجلاء تمثل سيطرة الإيمان فى الأرض ، والتمكين للإيمان فى الأرض ،والدور الفاعل فيها لمن آتاه الله من كل شىء سبباً،فأتبع سببا. والذى بلغ مشارق الأرض ومغاربها يحكم بشريعة الله، ويواجه الطواغيت والظلمة ،ويعين المستضعفين المظلومين ، ويقيم المنشآت والسدود بما أوتى من أسباب وبما فقه من سنن .

وقال تعالى فيما سألوه من أمر الروح : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا ﴾[2] .

وتصمت السيرة عن الموقف بعد جلاء الإجابات التى تقتضى أن يتبع الملأ محمداً بعد ذلك .كما أوهموا أنفسهم بذلك . لكن جو السورة ومقدماتها أكدت أن القوم ماضون فى غيِّهم ، ولو جئتهم بكل آية .

(فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدَّث. وموقع نبوته فيما جاءهم من علم الغيب حين سألوه عما سألوه عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين أتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً ،ولجوا فيما هم عليه من الكفر . فقال قائلهم :

﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُون ﴾[3] أى اجعلوه لغواً وباطلاً واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك،فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم)[4] .

---

(1) الكهف / ٢٨ ، ٢٩ .
(2) الإسراء / ٨٥ .
(3) فصلت / ٢٦ .
(4) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٨٦ .

الهجرة إلى الحبشة
والتطبيـق العملى للتربيـة

الجيل المؤمن يشهد إمامه الأعظم رائداً فى دعوته ،رائداً فى صبره ، رائداً فى ثباته ، رائداً فى تجلية عقيدته ، ويشهده قدوة فى المواجهة ،وقدوة فى الحوار، وقدوة فى المفاصلة على الحق .

ولابد أن يبدأ هذا الجيل بتحمل المسؤولية ، ويبدأ فى ممارسة البناء وهو على الطريق . فالتربية مستمرة ،والعمل للإسلام قائم لا انفصال بينهما البتة .

لقد كانت الهجرة إلى الحبشة نموذجاً تطبيقيا حيا للتربية التى تلقاها هذا الجيل من رسول الله ﷺ . ولنشهد أبعادها من خلال عرض جوانبها التفصيلية ، وإلقاء الأضواء على آثارها العميقة .

الهجرة الأولى إلى الحبشة :

فعن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

(لما ضاقت مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع رفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ فى منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شىء مما يكره ، ومما ينال أصحابه فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » .

فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها) (١) .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ،قال :

(لما كثر المسلمون وظهر الإسلام، أقبل كفار قريش على من آمن من قبائلهم يعذبونهم ليردوهم عن دينهم. فبلغنا أنه ﷺ قال للمؤمنين :

« تفرقوا فى الأرض فإن الله سيجمعكم » قالوا : إلى أين نذهب ؟ قال : « إلى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ٧٩ ، وهى كما قال ابن كثير : وأما رواية أم سلمة، فقد قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثنى الزهرى ،عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن أم سلمة، فرجاله رجال الصحيح ،وابن إسحاق قد حدّث عن رواته ، فلم يدلّس .

ها هنا » وأشار بيده إلى أرض الحبشة)[1] ، وذلك فى رجب سنة خمس من النبوة كما قاله الواقدى وزاد : فأقاموا شعبان ورمضان ، وفيه كانت السجدة، وقدموا فى شوال سنة خمس، فهاجر إليها ناس ذوو عدد ، منهم من هاجر بأهله ، ومنهم من هاجر بنفسه. وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة[2] .

وكان أول من هاجر صهر رسول الله ﷺ وابنته .

فعن أنس بن مالك قال : (خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما ،فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد ، قد رأيت ختنك ومعه امرأته .قال : « على أى حال رأيتهما ؟ » قالت : رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة وهو يسوقها .فقال رسول الله ﷺ :« صحبهما الله ،إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام»)[3] .

قال ابن إسحاق :

(وكان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس: عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ، ومن بنى عبد شمس: أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو أحد بنى عامر بن لؤى .

ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ، الزبير بن العوام بن خويلدّ .

ومن بنى عبد الدار بن قصى ، مصعب بن عمير .

ومن بنى زهرة بن كلاب ، عبد الرحمن بن عوف .

ومن بنى مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد ،ومعه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية ابن المغيرة .

ومن بنى جمح ، عثمان بن مظعون .

ومن بنى عدى بن كعب : عامر بن ربيعة حليف لآل الخطاب ، من عنز بن وائل معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة .

ومن بنى عامر بن لؤى : أبو سبرة بن أبى رهم .

ومن بنى الحارث بن فهر : سهيل ابن بيضاء .

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين من أرض الحبشة . وكان عليهم

---

(١) حديث مرسل . ورجاله رجال الصحيح . (٢) المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٣١٤ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ٧٣ ، وقد رواه البيهقى كما رواه الطبرانى ،وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٨٤: فيه الحسن بن زياد البرجمى ، لم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .

عثمان بن مظعون فيما ذكر لى بعض أهل العلم) (١) .

والملاحظ فى هذه الطليعة الأولى من المهاجرين أنها من أكرم البيوتات المكية وأعرقها . ولعل رسول الله ﷺ أراد أن يرتاد المكان هناك ، ويعرف إمكانية الإقامة لجنده فى الحبشة . ومن أجل هذا كان بينهم خيرة أصحابه . فثلاثة من المبشرين بالجنة كانوا بين هؤلاء العشرة . وهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ،وعبد الرحمن بن عوف ، وليس فيهم من الموالى أو العبيد أو المغمورين أحد .

والملاحظ كذلك أنهم موزعون على كل بطون قريش ـ فيما عدا بنى تيم وبنى سهم ـ فقد كان من كل بطن سيد من ساداته يجوب أرض الحبشة ليهيئ المقام لعشيرته هناك .

(ولما وصلوا الحبشة أقاموا عند النجاشى آمنين وقالوا : جاورنا بها خير جار على ديننا ، وعبدنا الله لانؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه . فلما رأت قريش استقرارهم فى الحبشة وأمنهم ،أرسلوا عمرو بن العاص السهمى ، وعبد الله بن أبى ربيعة المخزومى بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشى ـ واسمه أصحمة كما فى البخارى ـ ليردهم إلى قومهم فأبى ذلك وردهما خائبين) (٢) .

وقدم فى شوال سنة خمس كما مر نفر من مهاجرة الحبشة حين قرأ عليه الصلاة والسلام ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ** ﴾ حتى إذا بلغ ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ** ﴾ (٣) ألقى الشيطان فى أمنيته ـ أى فى قراءته . « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى » . فلما ختم السورة سجد ﷺ وسجد معه المشركون لتوهم أنه ذكر آلهتهم بخير(٤) . وفشا ذلك فى الناس وأظهره الشيطان حتى بلغ أرض الحبشة ومن بها

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٩٨، ٣٩٩ تتمة الخبر السابق .

(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٣١٥ ، ٣١٦ .

(٣) النجم / ١ ــ ٢٠ .

(٤) والذى قدمناه من قصة الغرانيق له طرق كثيرة : ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح وهى مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها بعضا . روى الأول ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .

قلت : ورواه الحافظ ضياء الدين المقدسى فى صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثانى : رواه ابن جرير عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

والثالث : رواه ابن جرير عن أبى العالية .

قال الحافظ (ابن حجر) : وقد تجرأ أبو بكر بن العربى كعادته فقال :ذكر الطبرانى فى ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها ، وهو إطلاق مردود عليه . وكذا قول القاضى : هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم . . . إلى آخر كلامه.

قال الحافظ : جميع ذلك لا يتمشى مع القواعد ،فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها ،دل ذلك على أن للقصة أصلاً . انظر : سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

من المسلمين ـ عثمان بن مظعون وأصحابه ـ فأقبلوا سراعاً من الحبشة حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركباً من كنانة ،فسألوهم عن قريش، فقالوا :ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم عاد لشتم آلهتهم وعادوا له بالشر فتركناهم على ذلك . فائتمر القوم فى الرجوع إلى الحبشة ، ثم قالوا : قد بلغنا مكة فندخل فننظر ما فيه قريش، ويحدث عهداً من أراد بأهله ثم نرجع . فدخلوها ، ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيراً ثم رجع إلى الحبشة ،كذا فى العيون .

وروى ابن إسحاق عن صالح بن إبراهيم عمّن حدثه عن عثمان بن مظعون أنه لما رجع من الهجرة الأولى إلى الحبشة دخل مكة فى جوار الوليد بن المغيرة. فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين وهو آمن ،رد عليه جواره . فبينما هو فى مجلس لقريش وفد عليهم لبيد بن ربيعة قبل إسلامه فقعد ينشدهم من شعره فقال لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

فقال عثمان : صدقت ، فقال : وكل نعيم لا محالة زائل . فقال : كذبت نعيم الجنة لا يزول . فقال لبيد : متى كان يؤذى جليسكم يا معشر قريش . فقام رجل منهم فلطم عثمان فاخضرت عينه ، فلامه الوليد على رد جواره ،فقال : قد كنت فى ذمة منيعة ،فقال عثمان : إن عينى الأخرى إلى ما أصاب أختها فى الله لفقيرة . فقال له الوليد : عد إلى جوارك . فقال : بل أرضى بجوار الله تعالى . لقد كان هؤلاء الرواد العشرة أو الأحد عشر . مع النسوة الأربع ، هم الذين اقتحموا المجهول ، ومضوا إلى بلاد غريبة كل الغربة عن أرضهم وأهلهم وعشيرتهم ، يتكلمون بغير لسانهم ، ويتبنون غير عقيدتهم ، ومع ذلك فالعدالة التى كانت عند النجاشى عمتهم ، وعاشوا بطيب مقام يعبدون الله كما يشاؤون ، لا يخافون على أنفسهم من رقيب أو حسيب . وذاقوا طعم حرية العقيدة وحرية العبادة دون خوف أو إرهاب أو وجل. وكان رئيسهم ـ على رواية ابن إسحاق ـ عثمان بن مظعون، وهى تجربة جديدة لأول مرة من نوعها،أن يخضع المسلمون لأمير غير رسول الله ﷺ . ولابد أن يتربوا على هذه الحياة،وعلى الانضباط والطاعة للإمرة واقعيا لا نظريا . ولابد من ذلك.فهم مقدمون على أن يقودوا البشرية فى مرحلة من المراحل، وليس على رأسهم رسول الله ﷺ.فلابد من التربية على هذه الطاعة.إذ لا يأنف أحد من طاعة رسول الله ﷺ بعد أن آمن بالله تعالى ربا،وبالإسلام ديناً ،وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا.

بل يفديه بالروح والمهج والدم . لكن أن يتعودوا على طاعة أحدهم . فهذه تجربة تربوية جديدة لم يألفوها من قبل، وحتى تأخذ التجربة مداها الأرحب. كان أميرهم

الذى اختاره رسول الله ﷺ . هو عثمان بن مظعون رضي الله عنه وعثمان من أضعف بطون قريش وأذلها ـ على حد تعبيرهم الجاهلى ـ فأين هو من الجحاجح من قريش ، من بنى مخزوم ، وبنى عبد مناف ، وبنى عبد الدار ، وبنى أسد ، وبنى زهرة،وبنى عبد شمس. ولا ننسى أن بين المسلمين ثلاثة من المبشرين بالجنة . وأحد هؤلاء الثلاثة عثمان بن عفان المنافى العبشمى الأموى السيد العظيم ،صهر رسول الله ﷺ على ابنته رقية .

وكانت هذه التجربة الحية الجديدة الأولى . لتنزع من نفوس هذا الجيل الرائد كل عصبية الجاهلية وتفاخرها بالآباء . فطاعة الأمير عثمان هى طاعة رسول الله ﷺ ، ومعصيته معصية لرسول الله . فلابد أن يخضع أبناء البيوتات القرشية العزيزة الأنيفة الكبيرة إلى أميرهم عثمان بن مظعون . ثم كانت العبرة التى تلتها أن تنامى إلى ذهنهم خبر إسلام قريش . هذا الإسلام الذى طالما حنوا إليه ، وإرادة الله تعالى تأباه فى محاولات البناء الأولى . فجاؤوا إلى مكة ولم يدركوا الحقيقة إلا قريب دخولهم إليها . وإن قريشاً على ما هى فى عتوّها وصلفها ، ومحادّتها لله ورسوله . وكان بالإمكان أن يعرفوا الحقيقة بتقدير ربانى ـ لو شاء سبحانه ـ من الحبشة ،أو فى منتصف الطريق أو يبعثوا أحدهم يتأكدون من صحة الخبر ، ولكن قدومهم كان عملية تربوية جديدة . يدركون من خلالها أن الطريق طويل . وهم بين خيارين صعبين ، خيار الغربة والحرية، وخيار الوطن والمحنة ، فلم يستطع أحد منهم الدخول إلا سرا أو بجوار . وكان عثمان بن مظعون رضي الله عنه أميرهم أحد الذين دخلوا مكة بجوار الوليد بن المغيرة . ورأينا نفاسة معدنه وعظمة تربيته يوم لم تحمله نفسه أن يمشى آمناً فى شوارع مكة وإخوانه يعذبون فى الله ويفتنون. والقائد الذى لا يعيش بأعصابه محنة جنوده هو قائد وصولى. والأمير الذى لا يتحسس همّ إخوانه ، هو أمير نفعى . بينما نجد عثمان يرد جوار الوليد ، ويعلن كلمة الحق فى مجلس قريش ، ويلقى الضرب والتعذيب مباشرة من المشركين ؛ لأنه كذَّب جليسهم وشاعرهم لبيد بن ربيعة . وأمام هذه الإهانة وأمام هذا التعذيب ،رسم فى الأفق خطاً وضيئاً للدعاة بقوله : والله إن العين الثانية لهى فقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله .

وبهذا الموقف الشجاع يدوس بأقدامه الذين ينهارون تحت أول صفعة ويخورون تحت أول محنة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ (١) .

وهو يتخذ هذا الموقف ، وليس مجبراً عليه ، فقد عرض عليه الوليد بن المغيرة أن يعيده إلى جواره ، وكما تقول رواية ابن إسحاق :

(والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال : أما والله يا بن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنيَّة ؛ لقد كانت فى ذمة منيعة . قال : يقول عثمان : بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس . فقال له الوليد : هلم يا بن أخى إن شئت فعد إلى جوارك ؛ فقال : لا) (٢) .

لقد أُتيح لنا أن نحلل نفسية عثمان الأمير بعد عودته إلى مكة رضي الله عنه وأن اختياره للإمارة كان من فقه فى النفوس ، وفقه فى الرجال ،ممن ينظر بنور الله صلوات الله وسلامه عليه .

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

قال ابن إسحاق :(ثم خرج جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة . فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه، فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً وولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلاً ، كان عمار بن ياسر فيهم . وكان مما قيل من الشعر فى الحبشة أن عبد الله بن الحارث بن سهم حين أمنوا بأرض الحبشة ، وحمدوا جوار النجاشى ،وعبدوا الله لايخافون على ذلك أحداً، وقد أحسن النجاشى جوارهم حين نزلوا به . قال :

يا راكباً بلغنْ عنى مغلغلة ... من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرئ من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ... ى فى الممات وعيب غير مأمون)(٣)

(١) العنكبوت / ١٠ ، ١١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

قريش تحاول إعادة المهاجرين إليها [1] :

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن مسلم الزهرى ،عن أبى بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومى ، عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ . قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا فيها خير جار (النجاشى) أمِنّا على ديننا ،وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ،ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة ،وكان من أعجب ما يأتيه الأدم[2]. فجمعوا له أدماً كثيراً ،ولم يتركوا بطريقاً من بطارقته إلا أهدوا له هدية . ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما :ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم. ثم قدِّما إلى النجاشى هداياه . ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم . قالت :

فخرجا حتى قدما على النجاشى ، ونحن بخير دار عند خير جار ،فلم يبق بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى . . . ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشى ، فقبلها منهم ، ثم كلماه ،فقالا له : أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاؤوا بدين ابتدعوه ،لا نعرفه نحن ولا أنت،وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ـ فهم أعلى بهم عيناً [3] ـ وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت : ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى .قالت :فقال بطارقته حوله :صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم .فأسلمهم إليهما .فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .قالت : فغضب النجاشى وقال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما ،ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى .حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم. فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ،وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ،وأحسنت جوارهم ما جاورونى .قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم . فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ﷺ ،

---

(١) هذا الفصل وما بعده فيما يتعلق بالهجرة إلى الحبشة مأخوذ من كتاب . فقه السيرة النبوية للمؤلف .

(٢) الأَدَم : الجلود وهو اسم جمع . (٣) أعلى بهم عيناً : أبصر بهم .

كائناً فى ذلك ما هو كائن . فلما جاؤوا ودعا النجاشى أساقفته . فنشروا مصاحفهم حوله . سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ،فقال له: أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ،وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئاً ،وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فعدد عليه أمور الإسلام . فصدقناه ، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله. فعبدنا الله وحده، ولم نشرك به شيئاً ،وحرّمنا ما حرّم علينا ،وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ،واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟ فقرأ عليه صدراً من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾[1] قالت : فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ــ وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا: والله لا أسلمهم إليكما .

تخطيط ذكى جديد :

قالت : فلما خرجنا من عنده،قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل خضراءهم .فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ــ وكان أتقى الرجلين فينا ـ :لا تفعل؛ فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا . قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد . قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيماً . فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول

(١) مريم / ١ .

والله ما قال الله ، وجاءنا به نبينا كائناً فى ذلك ما هو كائن ، قالت . فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ؟ قالت : فقال جعفر :

نقول فيه الذى جاء به نبينا ﷺ. نقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشى بيده فى الأرض . فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود . قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال . فقال : وإن نخرتم والله . فاذهبوا فأنتم شيوم بأرضى . (والشيوم : الآمنون) ،من سبكم غرم ـ من سبكم غرم ـ من سبكم غرِم ـ ما أحب أن لى دبراً من ذهب [١] وأنى آذيت رجلاً منكم ، ردوا عليهم هداياهما . فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين ردَّ علىَّ ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىَّ فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

مؤامرة جديدة تتحطم :

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك ، إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه ، قالت: فوالله ما علمنا حزنا حزنًا قط . كان أشد علينا من حزن حزنا عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى. فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه ، قالت: وسار إليه النجاشى ، وبينهما عرض النيل ، قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا ؟ قالوا : فأنت . وكان من أحدث القوم سنا ، قالت : فنفخوا له قربة فجعلوها فى صدره . ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم ، قالت : فدعونا الله تعالى للنجاشى بالظهور على عدوه ، والتمكين له فى بلاده . قالت : فوالله إنا لعلى ذلك متوقفون لما هو كائن . إذ طلع الزبير وهو يسعى . فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشى وقد أهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة. فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة [٢] .

---

(١) دبراً من ذهب : جبلاً من ذهب .

(٢) مجمع الزوائد ٦ / ٢٥ ـ ٢٧ ، وقال الهيثمى : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق ، وقد صرح بالسماع » . فالحديث صحيح . وهو فى السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤١٣ ـ ٤١٨ .

ونقف عند هذا الحدث لنفقه بعض دروسه لأهميته :

١ ـ رسول الله ﷺ هو الذى وجَّه الأنظار إلى الحبشة ، وهو الذى اختار المكان الآمن لجماعته ودعوته ؛ كى يحميها من الإبادة . وهذا يقتضى من قيادة الحركة الإسلامية فى كل عصر أن تخطط بحكمة وعمق بالغين لحماية الدعوة والدعاة ، وتبحث عن الأرض الآمنة التى تكون عاصمة احتياطية للدعوة ، ومركزاً من مراكز انطلاقها فيما لو تعرض المركز الرئيسى للخطر. أو وقع احتمال اجتياحه ،فجنود الدعوة هم الثروة الحقيقية. وهم الذين تنصب الجهود كلها لحفظهم وحمايتهم ، دون أن يتم أى تفريط بأرواحهم وأمنهم ،وداعية واحد يعادل كل كفار الأرض بل يرجح عليهم .

٢ ـ واختيار النوعيات الجيدة لهذه المهمات. كذلك هو الذى يضمن نجاح مثل هذه المهمة ـ وهى مهمة شاقة ولا شك . أن تفتح أرضاً جديدة وتكسب موقعاً جديداً فقرة عين أصحاب محمد ﷺ،توجهوا لهذه المهمة. ومنذ أن تأكد من سلامة الموقع الجديد راح أكثر الصحب إليه. وقد أوكل الأمر لجعفر رضي الله عنه بعد عثمان بن مظعون.

٣ ـ ووجود ابن عم رسول الله،وصهر رسول الله ،وابنة رسول الله ﷺ ذو دلالة عميقة على أن الأخطار لابد أن يتجشمها المقربون إلى القائد وأهله ورحمه ، أما أن يكون خواص القائد فى منأى عن الخطر ،ويدفع إليه الأبعدون غير ذوى المكانة . فهو خط خارج عن منهج سيد الدعاة ـ صلوات الله عليه .لقد كان عثمان ورقية كما قال عليه الصلاة والسلام عنهما :« إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام » .

٤ ـ ويجب ألا يغيب عن الذهن طبيعة المعركة بين الإسلام والكفر ، وأنها عملية بقاء أو فناء .

فلم ترض قريش بخروج أكثر أصحاب محمد عنها ــ رغم نأى[1] الحبشة وبعدها ــ ولم تسكت ، إنما راحت تلاحقهم إلى هناك ، خشية امتدادهم وقوتهم ، وتحاول أن تنزع هذا الموقع منهم فى تخطيط محكم ذكى؛فالهدايا إلى النجاشى والهدايا إلى بطارقته ووضع الخطة داخل مكة ، وكيف توزع الهدايا، وماذا يرافق التوزيع من الكلام . ونوعيات الرسل فى ذلك ، فعمرو من أصدقاء النجاشى ، وهو قادر على تأدية الدور الفعال فى هذه المهمة؟! وما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدونا ،وألا ننام عن مخططاته، وأن نعطيه حجمه الحقيقى ،وندرس كل تحركاته ،لنعرف كيف نواجه هذه التحركات .

٥ ـ وكان وعى القيادة النبوية ،وقيادة المسلمين فى الحبشة على مستوى الأحداث

---

(١) النأى : البعد .

والمهمات التى انطلقوا من أجلها ـ ومضوا لصنعها . فأبو طالب أسرع برسالته إلى النجاشى منذ اللحظة التى تحرك وفد قريش فيها إليه :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر — وعمرو وأعداء العدو الأقارب
وهل نالت أفعال النجاشى جعفرا — وأصحابه أو عاق ذلك شاغب[1]
تعلم ـ أبيت اللعن[2] ـ أنك ماجد — كريم فلا يشقى لديك المجانب[3]
تعلم بأن الله زادك بسطة — وأسباب خير كلها بك لازب[4]
وأنك فيض ذو سجال غزيرة — ينال الأعادى نفعها والأقارب[5]

والمسلمون على وعى بما يجرى . ولعل الأخبار قد وصلت إليهم بتحرك الوفد ، لكنهم غير قادرين على الدخول على الملك،أو الوصول إلى حاشيته فلا يملكون الهدايا التى يقدمون ، ولا يملكون الصداقة التى تحرك خصومهم من خلالها .فقد يملك العدو من الوسائل ما يعجز عنه الصف المؤمن فى تحرك هذا العدو لحرب هذا الدين ، لكنّ هذا لا يعذر الصف المؤمن أن يقف مكتوف الأيدى أمام إمكانات خصومه .

٦ ـ ورغم أن الخطة القرشية قد نفذت بحذافيرها كاملة ، غير أنها باءت بالفشل؛ لأن شخصية النجاشى العظيمة ـ والتى تم اختيار جوارها ـ رفضت أن تسلم المسلمين قبل السماع منهم.وبذلك أتاحت الفرصة أمام الدعاة إلى الله ليثبتوا وجودهم ، ولعلها تكون فرصة فريدة إن أحسن الدعاة الاستفادة منها ،فتحت أمامهم آفاقاً جديدة للنصر ، وإن ضيعوها كانوا لسواها أضيع.ومن أجل ذلك اجتمع الصحب حين جاءَهم رسول النجاشى بالحضور ، وتدارسوا الموقف من جميع وجوهه ، واستقر الرأى عندهم أن يعرضوا مبادئ الدين أمام النجاشى ، كما علّمهم ربهم ونبيهم ، والله تعالى حسبهم . فما خرجوا إلا لأجل هذا الدين .

وفى مثل هذه المواقف تنزلق الأقدام ، وتزل القلوب .فكثيراً ما يتوهم الدعاة أنهم لو صارحوا بحقيقة مبادئهم لخسروا حياتهم ومركزهم ، وتبدأ نقطة الانحراف صغيرة ، ثم تنفرج الزاوية ، فإذا الدعاة إلى الله ينسون رسالتهم التى لاقوا ما لاقوا من أجلها . وتصبح القضية عندهم أمنهم وراحتهم وحياتهم ،لا حياة دعوتهم وانتشار دينهم .

وعصم الله تعالى صحب نبيه من هذه الزلة ولا غرو ، فهم صفوة الصحب الذين

---

(١) عاق ذلك شاغب : منع الخير مشاغب .
(٢) أبيت اللعن : تحية يحيا بها الملوك فى الجاهلية .
(٣) المجانب : الداخل فى حمى الإنسان .
(٤) لازب : لاصق .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤١٢ .

تربوا بين يدى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه .

٧ ـ ولابد هنا من الوقوف مليا للتفريق بين نقطتين : النقطة الأولى : الفكرة والمبدأ الذى يجب أن يُعرض . والنقطة الثانية : أسلوب عرض المبدأ أو الفكرة .

وكثيراً ما يختلط الأمر لدى الدعاة إلى الله ، فيطيحون بالأسلوب جانباً ، ويقدِّمون ما يحفظون من نصوص مهما كان أسلوب عرضه ، فيخفقوا لعدم وجود الحكمة التى أمرهم الله تعالى بها ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[1] ، فيعودوا بالإخفاق على الناس ،وباللوم عليهم أو سبابهم دون أن يدركوا أنهم هم الذين نفَّروا الناس بأسلوبهم الفج ، ولم يكونوا دعاة إلى الله ورسوله .

ولعل الوقوف أمام الأسلوب الرائع الأخاذ الذى عرض به جعفر رضي الله عنه دين الله يبصر دعاة اليوم بمنهج الدعوة وطريقها .

٨ ـ وقبل المضى فى الحديث عن الأسلوب، يحسن الوقوف أمام شخصية جعفر رضي الله عنه الذى تم اختياره من المسلمين ليكون خطيباً لله ورسوله بين يدى الملوك، وبين يدى النجاشى ، وليتمكن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص ، وبليغهم كذلك الذى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب المثل بفصاحته حين يرى غبيا يتكلم فيقول : سبحان الله ! خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .

أ ـ فجعفر بن أبى طالب ألصق الناس برسول الله ﷺ ، فقد عاش معه فى بيت واحد ، فهو أخبر الناس بقائد الدعوة وسيد الأمة بين كل المهاجرين إلى الحبشة.

ب ـ وهذ الموقف بين يدى النجاشى يحتاج إلى بلاغة وفصاحة ،وبنو هاشم قمة قريش نسباً وفضلاً ،وجعفر فى الذؤابة من بنى هاشم . والله تعالى قد اختار هاشماً من كنانة . واختار نبيه من بنى هاشم . فهم أفصح الناس لساناً وأوسطهم نسباً.

جـ ـ وجعفر ابن عم رسول الله ﷺ ، ولا شك حين يتكلم أمام النجاشى ابن عم المبعوث رحمة للعالمين ، وأقرب الناس إليه؛ يجعل النجاشى أكثر اطمئناناً وثقة بما يعرض عن ابن عمه .

ولنسمع لجانب من هذه الرواية حول أهمية قرابة جعفر :

قال عمير بن إسحاق : حدثنى عمرو بن العاص قال : لما رأيت جعفراً وأصحابه آمنين بأرض الحبشة . قلت : لأستقبلن لهذا وأصحابه . فأتيت النجاشى فقلت : ائذن لعمرو بن العاص فأذن لى ، فدخلت فقلت : إن بأرضنا ابن عم لهذا (يعنى جعفراً)

---

(١) النحل / ١٢٥ .

يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد ، وإنا والله إن لم ترحنا منه وأصحابه لا قطعت إليك هذه النطفة (١) ولا أحد من أصحابى أبدا .

فقال : وأين هو ؟ قلت : إنه يجىء مع رسولك . إنه لا يجىء معى .

فأرسل معى رسولاً ، فوجدناه قاعداً بين أصحابه فدعاه فجاء ، فلما أتيت الباب ناديت : ائذن لعمرو بن العاص ونادى خلفى: ائذن لحزب الله ـ عز وجل ـ فسمع صوته . فأذن له قبلى ، فدخل ودخلت . وإذا النجاشى على السرير ، قال: فذهبت حتى قعدت بين يديه وجعلته ـ أى جعفر ـ خلفى . وجعلت بين كل رجلين من أصحابه رجلاً من أصحابى . فقال النجاشى : نجروا (أى تكلموا) قلت : إن بأرضك رجلاً ابن عمه فى أرضنا، ويزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد. وإنك إن لم تقطعه وأصحابه لا أقطع إليك هذه النطفة ولا أحد من أصحابى أبدا .

قال جعفر : صدق ابن عمى ، وأنا على دينه .

فصاح صياحاً وقال :أوه حتى قلت:ما لابن الحبشية لا يتكلم. فقال :أناموس كناموس موسى ؟ قال: ما تقولون فى عيسى ابن مريم؟ قال: أقول: هو روح الله وكلمته. قال: فتناول شيئاً من الأرض، فقال: ما أخطأ فى أمره مثل هذا. فوالله لولا ملكى لاتبعتكم. وقال لى: ما كنت أبالى أنك لا تأتينى أنت ولا أحد من أصحابك أبدا .

ثم قال لجعفر : أنت آمن فى أرضى من ضربك قتلته ، ومن سبَّك غرمته ، وقال لآذنه : متى استأذنك هذا فأذن له إلا أن أكون عند أهلى ، فإن أتى فأذن له (٢) .

د ـ ويكفينا من هذه الأمور جميعاً أهم جانبين فى جعفر بن أبى طالب ، شهد له بهما رسول الله ﷺ وهما : خلق جعفر المقتبس من مشكاة النبوة ، وجمال خلقه المنحدر من أصلاب النبوة .

فعن عبد الله بن أسلم مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لجعفر : « أشبهت خَلْقى وخُلُقى » .

فالخطيب بين يدى النجاشى عنده سمة النبى ﷺ فى هيئته، وسمته فى خلقه، وكفى بذلك فخرا . فطاقات النجاح المهمة إذن متوفرة لديه .

---

(١) النطفة : كناية عن البحر .

(٢) مجمع الزوائد ٦ / ٢٨ وقال : « رواه الطبرانى والبزار، وعمير بن إسحاق وثقه ابن حبان وغيره ،وفيه كلام لا يضر ، وبقية رجاله رجال الصحيح ،وروى أبو يعلى بعضه » .

٩ ـ اختار جعفر رضي الله عنه للإجابة التى وجدها فرصة سانحة بين يدى النجاشى ـ الأسلوب الأمثل فى العرض من خلال الخطوات التالية :

أ ـ وصف ما كان عليه أهل الجاهلية ، وركز على الصفات الذميمة التى لا تنتزع إلا بنبوة .

ب ـ عرض شخصية الرسول ﷺ فى هذا المجتمع الآسن الملىء بالرذائل، وكيف كان بعيدا عن النقائص كلها ، ومعروفاً بنسبه وصدقه وأمانته وعفافه ،فهو المؤهل للرسالة .

جـ ـ تحدث عن المبادئ العامة للدعوة ،أو عرض أخلاقيات هذا الدين الذى تلتقى مع كل أخلاقيات دعوات الأنبياء:نبذ عبادة الأوثان ،وصدق الحديث،وأداء الأمانة، وصلة الرحم،وحسن الجوار،والكف عن المحارم والدماء ،وإقام الصلاة،وإيتاء الزكاة .

وكون النجاشى وبطارقته موغلون فى النصرانية فهم يدركون أن هذه رسالات الأنبياء التى بعثوا بها من لدن موسى وعيسى ـ عليهما الصلاة والسلام .

د ـ فضح ما فعلته قريش بهم؛ لأنهم رفضوا عبادة الحجارة ، وآمنوا بما نزل على محمد ، وتخلقوا بخلقه .

هـ ـ أحسن الثناء على الملك بما هو أهله ، أنه لا يظلم عنده أحد وأنه يقيم العدل فى قومه .

و ـ وأوضح أنهم اختاروه كهفاً من دون الناس، فراراً من ظلم هؤلاء الذين يطالبون بهم . وبهذه الخطوات البينة الواضحة دحر بلاغة عمرو وفصاحته، واستأثر بلب النجاشى وعقله ،وكذلك استأثر بلب وعقل البطارقة والقسيسين الحاضرين .

ز ـ وعندما طلب الملك النجاشى شيئاً مما نزل على محمد ، جاء صدر سورة مريم فى غاية الإحكام والروعة والتأثير . حتى بكى النجاشى وأساقفته . وبلُّوا لحاهم ومصاحفهم من الدموع .

إن عبقرية جعفر رضي الله عنه فى حسن اختيار الموضوع ، والزمن المناسب، والقلب المتفتح ، والشحنة العاطفية ، أدت إلى أن يربح الملك إلى جانبه .

١٠ ـ ولا أرى بأساً من عرض رواية ثالثة . كذلك تعطينا بعض الإضاءات حول الداعية العظيم جعفر رضي الله عنه لتكون نبراساً بين يدينا نتأسى بها .

فعن عروة بن الزبير قال :(... فبعثت قريش فى آثارهم عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومى ، وعمرو بن العاص السهمى ،وأمروهما أن يسرعا السير حتى يسبقاهم

إلى النجاشي ، ففعلا ، فقدما على النجاشي، فدخلا عليه ، فقالا له : إن هذا الرجل الذي بين أظهرنا ، وأفسد فينا ، تناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك ـ ونحن لك ناصحون ـ وأنت لنا عيبة صدق، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف ويأمن تاجرنا عندك ، فبعثنا قومنا إليك لننذرك فساد ملكك، وهؤلاء نفر من أصحاب الرجل الذي خرج فينا ، ونخبرك بما نعرف من خلافهم الحق، وأنهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إلهاً ، ولا يسجدون لك إذا دخلوا عليك فادفعهم إلينا فلنكفيكهم .

فلما قدم جعفر وأصحابه وهم على ذلك من الحديث ، وعمرو وعمارة عند النجاشي ، وجعفر وأصحابه على ذلك الحال قال : فلما رأوا أن الرجلين قد سبقا ودخلا ، صاح جعفر على الباب : يستأذن حزب الله .

فسمعها النجاشي ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه ، فلما دخلوا وعمرو وعمارة عند النجاشي . قال :

أيكم صاح عند الباب ؟ فقال جعفر : أنا هو ، فأمره فعاد لها ، فلما دخلوا وسلموا تسليم أهل الإيمان ، ولم يسجدوا له . فقال عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد : ألم نبين لك خبر القوم ؟ فلما سمع النجاشي ذلك أقبل عليهم فقال : أخبروني أيها الرهط ما جاء بكم ؟ وما شأنكم ؟ ولستم بتجَّار ولا سؤَّال ؟ وما نبيكم هذا الذي خرج ؟ وأخبروني ما لكم ، لِمَ لم تحيوني كما يحييني من أتاني من أهل بلدكم ؟ وأخبروني ماذا تقولون في عيسى ابن مريم ؟

فقام جعفر بن أبي طالب وكان خطيب القوم ، فقال : إنما كلامي ثلاث كلمات ، إن صدقت فصدقني وإن كذبت فكذبني ، فأمر أحداً من الرجلين أن يتكلم ولينصت الآخر ، قال عمرو : أنا أتكلم . فقال النجاشي : أنت يا جعفر تتكلم قبله . فقال جعفر : إنما كلامي من ثلاث كلمات سل هذا الرجل أعبيد نحن أبقنا من أربابنا ؟ فارددنا إلى أربابنا . فقال النجاشي: أعبيد هم يا عمرو ؟ قال عمرو : بل أحرار كرام .

قال جعفر : سل هذا الرجل هل أهرقنا دماً بغير حقه ؟ فادفعنا إلى أهل الدم. فقال : هل أهرقوا دماً بغير حقه ؟ فقال : ولا قطرة واحدة من دم . ثم قال جعفر : سل هذا الرجل أخذنا أموال الناس بالباطل فعندنا قضاء ؟ فقال النجاشي : يا عمرو إن كانت على هؤلاء قنطار من ذهب فهو عليّ . قال عمرو :ولا قيراط . فقال النجاشي : ما تطلبونهم به ؟ قال عمرو :

فكنا نحن على دين واحد ، وأمر واحد فتركوه ولزمناه . فقال النجاشي : ما هذا الذي كنتم عليه فتركتموه وتبعتم غيره ؟ فقال جعفر :

أما الذى كنا عليه فدين الشيطان ، وأمر الشيطان . نكفر بالله ونعبد الحجارة، فأما الذى نحن عليه فدين الله ـ عز وجل ـ نخبرك : أن الله بعث إلينا رسولاً كما بعث إلى الذين من قبلنا . فأتانا بالصدق والبر ،ونهانا عن عبادة الأوثان ، فصدقناه واتبعناه. فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا ،وأرادوا قتل النبى الصادق ، وردنا فى عبادة الأوثان ، ففررنا إليك بديننا ودمائنا . ولو أقرنا قومنا لاستقررنا . فذلك خبرنا . وأما شأن التحية، فقد حييناك بتحية رسول الله ﷺ يحيى بها بعضنا بعضا . أخبرنا رسول الله ﷺ أن تحية أهل الجنة السلام ، فحييناك بالسلام . وأما السجود . فمعاذ الله أن نسجد إلا لله وأن نعدلك به .وأما فى شأن عيسى ابن مريم فإن الله ـ عز وجل ـ أنزل فى كتابه على نبينا أنه رسول قد خلت من قبله الرسل ،ولدته الصدّيقة العذراء البتول الحصان ، وهو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم . وهذا شأن عيسى ابن مريم .

فلما سمع النجاشى قول جعفر أخذ بيده عوداً ، ثم قال لمن حوله : صدق هؤلاء النفر ، وصدق نبيهم ، والله ما يزيد عيسى ابن مريم على ما يقول هذا الرجل، ولا وزن هذا العود . فقال لهم النجاشى : امكثوا أنتم شيوم ـ آمنون ـ قد منعكم الله .

وأمر لهم بما يصلحهم ، فقال النجاشى: أيكم أدرس للكتاب الذى نزل على نبيكم؟ قالوا :جعفر ،فقرأ عليهم جعفر صدر سورة مريم.فلما سمعها عرف أنه الحق . وقال: صدقتم وصدق نبيكم . أنتم والله صدِّيقون . امكثوا على اسم الله وبركته آمنين ممنوعين . وألقى عليكم المحبة من النجاشى) [1] .

* * *

لقد كان عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يمثل فى تلك المرحلة عداوة الله ورسوله ـ على مستوى نادر من الذكاء والعبقرية ، وكان فى عرضه لأمر جعفر قد شحن كل ما لديه من حُجة ، وألقى بها بين يدى النجاشى من خلال النقاط التالية :

أ ـ تحدث عن بلبلة جو مكة وفساد ذات بينها من خلال دعوة محمد ﷺ . وهو وافد مكة وممثلها بين يدى النجاشى . فكلامه مصدق لا يعتريه الشك ، وهو عند النجاشى موضع ثقته .

ب ـ طرق على أخطر وتر يخافه الحاكم ، وهو خطر زوال السلطة . وأتباع محمد الذين جاؤوا إلى الحبشة سيزلزلون الأرض تحت قدمى النجاشى ، كما أفسدوا جو مكة ولولا حب قريش للنجاشى وصداقتها معه ما تعنوا هـذا العناء لنصحـه (وأنـت لنا عيبة

---

(١) مغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير ص ١١١ ـ ١١٣ . وقد رواه عن عروة عمرو بن خالد (ثقة) عن ابن لهيعة (صدوق فى حديثه ضعف) عن أبى الأسود (ثقة) .

صدق ، تأتى إلى عشيرتنا بالمعروف ، ويأمن تاجرنا عندك) فلا أقل من رد المعروف بمثله ، ولا أقل من وفاء حسن الجوار والعلاقة بين مكة والحبشة من تحذيره من هذه الفتنة المخيفة .

جـ - وأخطر ما فى أمرهم هو خروجهم على عقيدة النجاشى - وكفرهم بها (فهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إلهاً،فليسوا على دين قومهم وليسوا على دينك) فهم مبتدعة دعاة فتنة .

د - ودليل استصغارهم لشأن الملك، واستخفافهم به؛ أن كل الناس يسجدون للملك لكنهم لا يفعلون ذلك . فكيف يتم إيواؤهم عندك، وهو عودة إلى إثارة الرعب فى نفسه من عدم احترام الدعاة له حين يستخفون بملكه ، ولا يسجدون له .

وما فعله عمرو فى هذا الموقف يمثل فى كل جيل دقة التخطيط فى حرب الإسلام ودعاته ، وتغذية الحاكمين بهذا السم الزعاف الذى ينفثونه على الدعاة ليقتلوهم به ، هو أن الدعوة الإسلامية ورجالاتها خطر على النظام الحاكم ، وخارجة عليه ، وسوف تبتلع النظام والحاكم ، ما لم يبادر إلى وأدها فى مهدها. وتحت هذه الراية أبيد الذين يأمرون بالقسط من الناس فى كل مكان فى الأرض ، وعادات الحاكم وتقاليده عرف ودين ، ومخالفتها أخطر من مخالفة الدين نفسه .

يساق للسجن إن سب المليك وإن سب الإله فكل الناس أحرار

هـ - لم يكن حزب الله غافلاً عن المؤامرة ، وكان يراقب تحركات العدو ، ومن أجل ذلك أسرع فاستلم زمام المبادرة ووصل جعفر ووفده ،ولم ينتظر حتى تأتى الظروف المواتية؛ لأنها قد لا تأتى وقد تقع الكارثة ما لم تتم المبادرة الواعية ، ومن أجل ذلك كان على الباب يستأذن . وبم يستأذن ؟

حزب الله يستأذن عليك .

فقد لامس بحكمة ولباقة واعية ، الجانب الدينى فى نفس النجاشى ، وأراد مباشرة أن يكسر الطوق الذى أحكمه عمرو ، فى أن قريشاً والنجاشى تحت راية واحدة . لقد حطّم تلك الراية ،ونفذ إلى أعماق النجاشى ليؤكد له أن جعفر ومن معه هم والنجاشى تحت راية واحدة ، راية التوحيد ، والوحى المنزل من الله ، والكتاب المنزل من عنده . بينما تخرج قريش خارج هذه الحظيرة ، وهم يعبدون الأوثان والأصنام ، ويقدسونها من دون الله .

و - ومن أجلها لم يتمالك النجاشى نفسه من الإذن بلا وعى ، فهل يتأخر عن

الإذن لحزب الله ؟ ولانسجامه مع هذا النداء الذى لامس أوتار قلبه . طلب ثانية إعادة الاستئذان من الرجل الذى صرخ : (حزب الله يستأذن عليك) .

ز ـ والمعركة على ضراوتها بين عمرو وجعفر، فاهتبل عمرو فرصة عدم سجود جعفر ووفده للملك، وقال مباشرة : ألم نبين لك خبر القوم ؟

فقد صدّق الواقع قول عمرو ، حين لم يسجدوا للملك ، وإذن فكل ما قالوه صحيح . بعد ثبوت جزء من قولهم وصحته . وصار النجاشى فى وضع محيّر . وإن كان لا يزال ألصق بقلبه لعمرو وعمارة . فكانت الأسئلة وكأنها تحديد للاتهامات المطروحة بأسلوب لبق من النجاشى : (ما شأنكم ؟ وما نبيكم الذى خرج ؟ وأخبرونى لِمَ لم تحيونى كما يحيينى من جاءنى من أهل بلدكم ؟ وأخبرونى ما تقولون فى عيسى ابن مريم).

ح ـ وبدلاً من أن يستسلم جعفر لهذا الهجوم ، ويأخذ فى الدفاع ،كان واعياً لكل ما يجرى حوله . واستلم ثانية زمام المبادرة ، ونقل الاتهام إلى عمرو وقومه فى كلمات موضحة محددة : إن مطالبة قريش بهم باطلة بشهادة سفير قريش نفسه . ثلاث كلمات دون أن يضيِّع الوقت فى غيرها : أعبيد هم ؟ هل أهرقوا دماً بغير حقه ؟ هل أخذوا أموال الناس بالباطل ؟

وكان الجواب كله لصالح حزب الله .فما كان الجاهليون ليكذبوا فى ذلك الوقت : (بل أحرار كرام . . . ولا قطرة واحدة من دم . . . ولا قيراط) . وذلك ليأمن ابتداء من سلامة الأرض التى يقف عليها قبل الخوض فى أمر الدين ، فذلك له حديث آخر يأتى فى موضعه .

ط ـ وحين يعرف النجاشى أن القوم أحرار كرام ، لم يزهقوا نفساً ، ولم يأكلوا مالاً بشهادة أعدائهم أنفسهم . فسيكون سماعه بعدها لعرضهم يختلف عما لو لم تتضح الصورة الآنفة الذكر .

لقد هدم جعفر بناء ضخماً أقامه عمرو . حين أكد نظافة حزب الله من كل لوثة بإقرار سفير قريش ، وأوجد الجو المناسب للحديث عن العقيدة . فليس هدف جعفر أن يحقق الأمان لحزب الله ، ولو كان كذلك لانتهى الأمر عند هذا الحد .

الهدف هو النجاشى نفسه ، قلبه وعقله وعاطفته ، أن يدعى إلى الله على بصيرة، وبغاية الحكمة والدقة دون أدنى ذرة من التفريط فى دين الله، فربْحُ النجاشى على حساب العقيدة هو خسارة لها فى حقيقة الأمر. وليكن . . . فسلامة الأسلوب وحسنه لا يعنى التحريف فى العقيدة لرضى النجاشى، ويأمن القوم .

ونحدِّد الكلام أكثر ، فليس الهدف النجاشي نفسه أن يحمى المؤمنين وينصرهم ؛ بل الهدف أن ينضم النجاشي للدعوة الجديدة . . . فما كان الأسلوب إذن انحرافاً .

ي ـ نعم ، هم لا يألهون عيسى ابن مريم . لكنهم كذلك لا يخوضون فى عرض مريم ـ عليها السلام ـ كما يخوض الأفاكون . بل عيسى ابن مريم كلمته وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطاهرة . وليس عند النجاشي زيادة عما قال جعفر ، ولا مقدار هذا العود .

ك ـ نعم ، وهم لا يسجدون للنجاشي . فهم معاذ الله ! أن يعدلونه بالله . ولا ينبغى السجود إلا لله . لكنهم لايستخفون بالملك . بل يوقرونه ويسلمون عليه كما يسلمون على نبيهم ، ويحيونه بما يحيى أهل الجنة أنفسهم به فى الجنة .

لم يكن الجواب فى الأولى والثانية سلباً فقط ، رفض الاعتراف بالألوهية ، ورفض السجود لله . بل كان من الإيجابيات ما يحبب النجاشي بهم ، ويحببهم بالنجاشي حين يحيونه كما يحيون نبيهم ، وحين يقولون عن عيسى ابن مريم : إنه روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطاهرة .

ل ـ وانتهى الأمر بأن أعلن النجاشي صدق القوم ، لكن يود أن يطمئن قلبه. فإذا كان هذا شأن الرسالة ، فلابد من سماع كلام مباشر لوحى الله تعالى، فروح الوحى الربانى يتضح لكل مبصر ذى عينين .

وتلا جعفر صدر سورة مريم . فكان برد اليقين الذى نزل على قلب النجاشي . فهؤلاء صدّيقون وحواريون ـ كحوارى عيسى ـ وهو المؤمن الصادق الذى يتمنى أن يكون فى خدمة رسول الله ﷺ الذى يأتيه الناموس كناموس موسى ، وهو يتقرب إلى الله بحمايتهم ، ويؤكد بعدها لعمرو أنه لا يضيره تجارة قريش ، ولا مال قريش ،ولا جاهها ، ولو قطعت علاقتها معه ، فهو حامى حمى حزب الله ـ عز وجل .

م ـ إن هذا العرض الحى لأكبر نجاح حققته الدعوة فى ذلك الوقت؛ أن تضم إليها ملكاً حاكماً ، لم يتم عَرَضًا وبسهولة ، لقد تم بحركة ووعى ، وعبقرية فى التخطيط والتنفيذ ، وحوَّل الكارثة المتوقعة الوشيكة، إلى أكبر غنم ظفر به المؤمنون آنذاك حتى ذلك الحين .

ومن أجل هذا عندما تعرض النجاشي للخطر ، قلق المسلمون ، وعرفوا أن استقرارهم مرتبط بمصيره ،وبعثوا الزبير فتى القوم ـ ليشهد نتائج الثورة على النجاشي، فهم يسابقون الأحداث ، ويعيشونها، فلم يشهدوا غما حضرهم كالغم فى ثورة القوم

على النجاشى . ولم يشهدوا فرحة نزلت بهم كفرحهم بفوز النجاشى على خصومه، كما تشير رواية أم سلمة .

هذا وتشير بعض الروايات إلى جانب دقيق فى الموضوع . هو أن النجاشى قد أخفى إيمانه يوم ثارت الأحباش ضده ، ليبقى مركز الحبشة آمناً للمسلمين . كما تشير كذلك إلى أنه أعد سفينتين للمسلمين فى تصور أسوأ الاحتمالات فيما لو فاز خصومه عليه . فلا تهمه نفسه ، إنما يهمه سلامة الدعاة فيهاجروا بها عند الخطر ، وينجوا بأنفسهم من الطغيان .

ن ـ وأقام المسلمون فى الحبشة فى خير دار عند خير جار . وبعضهم عاد إلى مكة سريعاً ، وبعضهم عاد عند الهجرة . وبعضهم عاد بعد بدر . وكانت العودة النهائية لهم بعد صلح الحديبية . وبعد اعتراف قريش بالدولة النبوية ، فلم يعد مركز الإسلام وعاصمته الأولى فى خطر ، وانتهت الحاجة إلى العاصمة الاحتياطية .

ونقول: إن هذه الحكومة الإسلامية الخاصة التى رأسها جعفر رضي الله عنه سبعة عشر عاماً. لم تتمكن من التوغل فى قلب الأحباش . لكنها حافظت على قاعدة صلبة قوية، قادرة أن تستوعب أعداداً جديدة إذا اقتضى الأمر ،وحافظت على المبادئ العليا للدين الذى دانت به ، وهو الإسلام رغم غياب شخص رسول الله ﷺ عنها ، فهى ممارسة للمسؤولية، وتجربة ميدانية خالدة تمت فى حياة رسول الله ﷺ بنجاح فائق . وبقى النجاشى على رأس الحكم فى الحبشة حليفاً قويا للمسلمين لو نزلت بهم محنة ضخمة، تتم عبادة الله فى ظل حكمه ودولته دون حرج أو خوف . وكان النجاشى فى كل خطواته جنديا من جنود الدعوة .حين كتم إيمانه وحين حافظ على حكمه ، يوضح هذا الجانب خطاب رسول الله ﷺ له ،وخطابه لقائده ـ عليه الصلاة والسلام .

روى البيهقى عن ابن إسحاق قال :(بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فى جعفر بن أبى طالب ،وكتب معه كتاباً فيه :« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم . سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ، ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بى وبالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفر بن أبى طالب،ومعه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فأقرّهم ودع التجبرس، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، وقد بلغت ونصحت،فاقبلوا نصيحتى ،والسلام على من اتبع الهدى » .

فكتب إليه النجاشى : إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن الأبجر، سلام عليك يا نبى الله من الله ورحمته وبركاته ، لا إله إلا الذى هدانى إلى الإسلام . فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى . فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرّبنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله تعالى رب العالمين ، وقد بعثت إليك يا نبى الله بأريحا بن الأصحم بن أبجر فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله . فإنى أشهد أن ما تقول حق) [١] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٣٠٨ ـ ٣١٠ .د / عبد المعطى قلعجى .

الرجل الثانى فى الأمة

عمر بن الخطاب

ونحن هنا أمام رجل من أعظم رجال الأرض، ومن أفضلهم بعد أبى بكر رضي الله عنه :

وعظمة عمر أنه خرق القاعدة التى تربط الفضل بطول الصحبة ؛فنجد أنه تأخر ست سنين بعد البعثة حتى أسلم ،وارتفع فجأة ليكون الرجل الثانى فى الأمة، ويتجاوز المائة الأولى تقريباً . ويغدو خلف أبى بكر:

« خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر » .

ونقف عند خصائصه رضي الله عنه إلى أن دخل فى الإسلام ، ثم نتوقف هناك . لنتابع المسيرة التربوية للنبى ﷺ مع هذه القمم البشرية .

ولم يفته من الاصطفاء العام إلا اصطفاء بنى هاشم فهو رضي الله عنه :

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى . فهو يلتقى مع رسول الله ﷺ فى كعب بن لؤى . وهو الجد السابع له ـ عليه الصلاة والسلام ـ (وذكر خليفة بسند له، أنه ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة . وكان إليه السفارة في الجاهلية) [١] وحين توزعت قريش المفاخر والمآثر . كان له بصفته سيد بنى عدى بن كعب مأثرة السفارة فى الجاهلية ، وهذا هو الذى ورثه من أبيه .

وحين كانت البعثة كان من الشخصيات المرموقة فى مكة ، وذات الشأن والخطر فيها ،وكان يتنافس مع أقرانه على الزعامة . غير أن بنى عبد مناف وبنى مخزوم كانا أعرق نسباً منه . فَسُبق فى هذا المضمار . وإن كان بنو مخزوم أخواله. وكانت هيبته وقوة شخصيته نابعة ابتداء من تكوينه الجسدى :

(فكان طويلاً جسيماً أصلع أشعر[٢] شديد الحمرة كثير السبلة[٣] فى أطرافها

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ٢ / ٤ / ٢٧٩ .

(٢) أشعر :كثير الشعر .

(٣) كثير السبلة : السبلة هى الدائرة فى وسط الشفة العليا ، أو ما على الشارب من الشعر.

صهوبة(1)) (2) .

وبلغ من طوله رضي الله عنه كما روى يعقوب بن سفيان عن زر بن حبيش بسند جيد قال :

(رأيت عمر أعسر أصلع آدم قد فرع الناس كأنه على دابة ، قال : فذكرت هذه القصة لبعض ولد عمر فقال : سمعنا أشياخنا يذكرون أن عمر كان أبيض ،فلما كان عام الرمادة ،وهى سنة المجاعة ترك أكل اللحم والسمن وأدمن أكل الزيت حتى تغير لونه ، وكان قد احمر فشحب لونه) (3) وبلغ من رجولته رضي الله عنه أنه كان (يأخذ أذنه اليسرى(4) بيده اليمنى ويجمع جراميزه (5) ، ويثب على فرسه فكأنما خلق على ظهره)(6) .

زعامته فى الجاهلية :

ويكفينا لنعلم قدر هذه الزعامة ؛أن رسول الله ﷺ اختاره من بين رجلين بمكة كلها ، يدعو الله تعالى أن يعز الإسلام بأحدهما .

فقد روى الإمام أحمد فى فضائل الصحابة ،عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبى جهل أو بعمر بن الخطاب » . قال : فكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب (7) .

ثم يرتفع رسول الله ﷺ بعمر رضي الله عنه خارج إطار قريش ليقارنه بالزعامات العربية العريقة فى الجزيرة العربية ،فيقرنه بعامر بن الطفيل سيد بنى عامر بن صعصعة . من أعز قبائل العرب ،فيقول عليه الصلاة والسلام، كما روى الإمام أحمد عن محمد بن سيرين ، عن النبى ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، أو عامر بن الطفيل »(8) .

لقد كان الإسلام والمسلمون بحاجة إلى شخصية فذة قيادية ؛ تقف بجوارهم فى مكة ،وتفرض وجودها على قريش . فكانت الدعوة النبوية الكريمة فى هذا الانتقاء من

---

(1) صهوبة : حمرة أو شقرة فى الشعر .
(2) أخرجه ابن أبى الدنيا بسند جيد ،كما ذكر ابن حجر فى الإصابة ٢ / ٤ / ٢٧٩ .
(3) المصدر نفسه ٢/ ٤/ ٢٧٩ .
(4) أذنه اليسرى : أى أذن الفرس .
(5) جراميزه : قوائمه وجسمه .
(6) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ٤/ ٢٧٩ .
(7) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ص ٢٥٠ ، ح٣١٢ ، وقال فيه المحقق : إسناده حسن ،وأخرجه أحمد فى المسند وغيره .
(8) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ٢٦٣ ، وقال فيه المحقق : رجال الإسناد ثقات ، لكنه مرسل كسابقه، إلا أنه متابع له لمجيئه من طريق آخر .

هذه الزعامات داخل مكة وخارجها ، واستجاب الله تعالى دعوة نبيه بعمر .

وكان شديد الوطأة على المسلمين ، يذيقهم ألوان العذاب وأفانين الاضطهاد . فعن قيس ، سمع زيد بن عمرو بن نفيل يقول : (والله لقد رأيتنى وإن عمر لموثقى وأخته على الإسلام قبل أن يسلم عمر . . .) (١) .

وكان شديد الوطأة على كل بنى عدى ، ليس على أخته وصهره فقط :

فعن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أمه أم عبد الله بنت أبى حثمة قالت :

(والله إنه لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر فى بعض حاجتنا - زوجها - إذ أقبل عمر حتى وقف علىّ ، وهو على شركه ،قالت : وكنا نلقى منه البلاء أذىً لنا وشرا علينا فقالت : فقال : إنه الانطلاق يا أم عبد الله .قالت: قلت: نعم والله لنخرجن فى أرض الله : آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا . قالت: فقال: صحبكم الله. ورأيت له رقة لم أكن أراها ،ثم انصرف، وقد أحزنه فيما أرى خروجنا . قالت : فجاء عامر من حاجتنا تلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً . ورقته وحزنه علينا . قال: أطمعت فى إسلامه ؟ قالت:قلت:نعم. قال: لا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام) (٢) .

ويعنينا من هذه الحادثة الجانب الخفى خلف هذه الزعامة . ورغم استمراره فى موقفه المعلن ضد الإسلام وحربه عليه ،وهو الذى حدا بعامر أن يقول :لا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب .

أما الجانب الخفى فهو حزنه لهذه الهجرة وتأثره لها . فلم تكن أعماقه تنطوى على الغل والحقد واللؤم ، كما هو الحال لدى أبى جهل . بل كانت أعماقه وفطرته تنضح بالمروءة والشهامة . وامرأة عزلاء تهاجر فى الأرض بعيداً خوفاً من التعذيب والتشريد تهز أعماقه وتحزنه .

وإن كانت هذه الفطرة تطمس أحياناً أمام الاعتداد بالقوة ، حين يرى تحدياً له من جارية ضعيفة وتحدياً لزعامته فى دخول هذا الدين .

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد /٢٧٨ ، وقال فيه المحقق : إسناده صحيح ، وأخرجه البخارى (٧ : ١٧٦) ص ٢٧٨.

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ٢٧٩ ، وقال عنه المحقق : إسناده حسن .

(ومرّ أبو بكر بجارية بنى مؤمل ـ حى من بنى عدى بن كعب ـ وكانت مسلمة،وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذ مشرك ،وهو يضربها، حتى إذا ملّ قال : إنى أعتذر إليك ، إنى لم أتركك إلا ملالة . فتقول : كذلك فعل الله بك . فابتاعها أبو بكر فأعتقها) (١) .

وحرصه على السيادة كان يدفعه ألا يكون فى عدى صوت واحد يؤازر محمد بن عبد الله سيد بنى هاشم . فقيم الجاهلية كانت تملأ قلبه . والمحافظة عليها محافظة على وجوده وبقائه . وإصرار محمد بن عبد الله على موقفه هو تحد صارخ لمكة وقريش . ولابد أن يقضى على هذا التحدى .

إسلامه يفجر مواطن العظمة فيه :

ليس لدينا رواية واحدة بإسناد صحيح، أو حسن عن إسلامه، إذ هناك أربع روايات بعضها أشهر من الأخرى لكنها جميعاً ضعيفة . غير أن شهرتها وتلقى الأمة لها بالقبول هو الذى يدفعنا إلى ذكرها . لكن هناك بعض الجوانب من القصة وردت بسند حسن ، أو صحيح . ونحن نعرض لهذه الروايات ابتداء ؛حتى يتضح مسار الشخصية لنقف مع الجوانب الصحيحة و الحسنة نستجلى منها عظمة هذه الشخصية .

(قال ابن إسحاق :ولما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة على قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ﷺ وردّهم النجاشى بما يكرهون ، وأسلم عمر بن الخطاب . وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ . وبحمزة حتى عازوا قريشاً (٢)) (٣) .

الرواية الأولى :

(قال ابن إسحاق : وكان إسلام عمر فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد ،وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من قومه من بنى عدى بن كعب قد أسلم ،وكان أيضاً يستخفى بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ، ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ،وهم قريب من أربعين ، ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٢٣ ط . مكتبة المنار .

(٢) عازُوا قريشاً : غلبوهم .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٢٢ .

ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب ،وأبو بكر بن أبى قحافة ـ الصديق ،وعلى بن أبى طالب،فى رجال من المسلمين ـ رضى الله عنهم ـ ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج من أرض الحبشة . فلقيه نعيم بن عبد الله فقال : أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش وسب آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم: أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم . قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد ابن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما ، فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ،وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها ﴿ طه ﴾ يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر تغيّب خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئاً ؛ قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى[1]. وقال لأخته:أعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرؤون آنفاً ؛أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ،وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها،قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها .فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه .فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها ﴿ طه ﴾، فقرأها فلما قرأ منها صدراً قال:ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع خباب خرج إليه فقال له : يا عمر ،والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإنى سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ». فالله الله يا عمر . فقال له عند ذلك عمر : فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب .فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ وهو فزع فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف . فقال حمزة بن عبد المطلب: فائذن له . فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء

---

(١) ارعوى : رجع يقال : ارعويت عن الشيء رجعت عنه .

يريد شراً قتلناه بسيفه . فقال رسول الله ﷺ : « ائذن له » ، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة . فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شديدة وقال : « ما جاء بك يا بن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة » ، فقال عمر : يا رسول الله ، جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله. قال : فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة . عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوهم .فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم) [١].

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه فى البخارى . إذ يقول سعيد : والله لقد رأيتنى وإن عمر لموثقى وأخته على الإسلام قبل أن يسلم عمر[٢] .

وهذ النص الصحيح يعنى اشتهار إسلام فاطمة وسعيد ـ رضى الله عنهما ـ وأن عمر قد ربطهما وثاقاً عقوبة على هذا الإسلام . بينما نرى هذه الرواية تشير إلى إسلام عمر رضي الله عنه مباشرة بعد معرفته بإسلام سعيد وفاطمة . ولهذه المخالفة الواضحة للصحيح اكتفينا بعرضها دون تعليق . يرى أستاذنا الشيخ سعيد الطنطاوى أنه لا تناقض بين الروايتين لأنه ليس بالضرورة أن يكون معنى النص (وإن عمر لموثقى على الإسلام وأخته) أن يكونا قد أعلنا إسلامهما ، إنما لاحظ عمر رضي الله عنه ميلهما إلى الإسلام بحيث لم يستطيعا أن يخفيا هذا الميل فأوثقهما على ذلك . ويسند وجهة نظره ـ حفظه الله ـ موقفه من نعيم بن عبد الله النحام . فبمجرد أن قال له : (أترى أن بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟) أجابه عمر : فوالله ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك الذى أنت عليه .وعلى هذا فلا تناقض بين الروايتين ؛ كما فى دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٢١٩ .

وهى من جهة ثانية مبهمة بدون سند .حتى أن ابن إسحاق يرويها مضعفاً فيقول : (هذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم) دون أن يذكر اسم راوٍ واحد منهم .

الرواية الثانية :

قال ابن إسحاق : (وحدّثنى عبد الله بن أبى نجيح المكى عن أصحابه عطاء ومجاهد أو عمن روى ذلك :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٢٣ .　　　(٢) سبق تخريجه .

إن إسلام عمر فيما تحدّثوا به عنه أنه كان يقول :

كنت للإسلام مباعداً . وكنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبّها وأسر بها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة عند دور عمر بن عبد بن عمران المخزومى . قال : فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك ، قال : فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً . قال : فقلت : لو أنى جئت فلاناً الخمار . وكان بمكة يبيع الخمر؛ لعلى أجد عنده خمراً فأشرب منها . قال : فخرجت فجئته فلم أجده . قال : فقلت : فلو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين . قال : فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة . فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وكان مصلاه بين الركنين ؛ الركن الأسود والركن اليمانى . قال: فقلت حين رأيته :والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول .قال : فقلت:لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنه ، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها ، فجعلت أمشى رويداً ، ورسول الله ﷺ قائم يصلى يقرأ القرآن ، حتى قمت فى قبلته فاستقبلته .ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة . قال : فلما سمعت القرآن رقّ له قلبى . فبكيت ودخلنى الإسلام . فلم أزل قائما فى مكانى ذلك ، حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن حسين وكانت طريقه ، حتى يجزع المسعى [١]، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب ، ودار ابن أزهر بن عبد عوف الزهرى ،ثم على دار الأخنس بن شريق ،حتى يدخل بيته .(وكان سكنه ﷺ فى الدار الرقطاء[٢] والتى كانت بيدى معاوية بن أبى سفيان)[٣] قال عمر رضي الله عنه : فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس ودار ابن أزهر أدركته. فلما سمع رسول الله ﷺ حسى عرفنى،فظن رسول الله ﷺ أنى اتبعه لأوذيه فنهمنى[٤] ثم قال:« ما جاء بك يابن الخطاب هذه الساعة ؟ » قال: قلت:جئت لأومن بالله ورسوله ،وبما جاء من عند الله،قال:فحمد الله رسول الله ﷺ ،ثم قال:«قد هداك الله يا عمر »،ثم مسح صدرى، ودعا لى بالثبات ، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ ،ودخل رسول الله بيته) [٥] .

ونلاحظ أنه ليس فى المتن أى تناقض مع الصحيح الوارد عن سعيد بن زيد رضي الله عنه

---

(١) حتى يجزع المسعى: يقطعه، يقال جزعت الوادى : قطعته، وفى سائر الأصول : حتى يجيز على المسعى.

(٢) الدار الرقطاء : أصل الرقطاء التى فيها ألوان وكذلك الأرقط .

(٣) هذا مدرج من كلام ابن إسحاق .

(٤) نهمنى : زجرنى .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٢٧ . قال المحقق :صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده منقطع .ورواه أحمد فى مسنده مختصراً من غير طريق ابن إسحاق . . . ورواه الطبرانى فى الأوسط إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر . وما ذكره الهيثمى بخصوص رواية الطبرانى ينطبق على رواية أحمد فيكون الحديث ضعيفا .

كما نلاحظ فيه ما يلى :

١ـ لقد كانت سيادة أبى بكر رضي الله عنه فى الجاهلية تختلف عن سيادة عمر رضي الله عنه فسيادة أبى بكر مضمخة بعبيق النبوة . إذ كان يحمل أخلاق رسول الله ﷺ من جهة (يفك العانى ، ويصل الرحم ، ويصدق الحديث) كما كان بعيداً عن أوزار الجاهلية ومجالس اللهو والشراب فيها . فبرأه الله تعالى من أوضارها جميعاً بصداقته وصحبته للنبى - صلوات الله وسلامه عليه ، أما عمر رضي الله عنه فكان جزءاً من المجتمع الجاهلى بكل تقاليده وقيمه ، يحرص على حضور مجالس اللهو والشراب معهم . ويتنافس على الزعامة معهم ، ويشرب الخمر ، ويشارك فى الملذات بجوارهم . لكن المخفى وراء هذه المظاهر كلها فطرة . لايعادلها فطرة أحد من أهل الأرض . إنما يفوقها فطرة الصديق.

٢ ـ ولعل هذه المظاهر الخادعة. تتناسب مع مظاهر موسى ـ عليه الصلاة والسلام، الذى تأثر بحبه لقومه فقتل المصرى. كما قال ـ عز وجل ـ عنه: ﴿ **فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾[1] . ولقد شبه رسول الله ﷺ عمر بموسى، فقال: « وإن مثلك يا عمر كمثل موسى ﷺ قال: ﴿ **وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ »[2] .

٣ ـ إن القرآن الكريم منذ أن لامس شغاف قلبه ! انتفضت فطرته من تحت الركام حيّة متفجرة بالحق (فلما سمعت القرآن رق له قلبى وبكيت ودخلنى الإسلام).

الرواية الثالثة :

(. . . عن أسلم قال : قال لنا عمر: أتحبون أن أعلمكم بدو إسلامى ؟ قلنا نعم، قال : كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ ، فبينا أنا فى يوم حار فى بعض طرق مكة إذ لقينى رجل من قريش فقال : أين تذهب يا بن الخطاب ؟ قال : قلت : أريد هذا الذى الذى ، قال : عجباً لك، تزعم أنك هكذا ،وقد دخل عليك هذا الأمر بيتك . قلت : وما ذاك ؟ قال : أختك قد صبت . قال : فرجعت مغضباً ، وقد كان

---

(١) القصص / ١٥ ـ ١٧ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦ / ٨٧ وقال فيه : « . . . ورواه الطبرانى أيضاً، وفيه أبو عبيدة ولم يسمع من أبيه ولكن رجاله ثقات » ، والآية من سورة يونس / ٨٨ .

رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة يصيبان من طعامه. قال: وقد كان ضم إلى زوج أختى رجلين ،فجئت حتى قرعت الباب .قال : من هذا؟ قلت: ابن الخطاب ،قال : وكانوا يقرؤون صحيفة معهم . فلما سمعوا صوتى اختفوا ونسوا الصحيفة . فقامت المرأة ففتحت لى . فقلت : يا عدوة نفسها ، قد بلغنى أنك صبوت ، وأرفع شيئاً فى يدى فأضربها فسال الدم . فلما رأت الدم بكت وقالت : يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل . فقد أسلمت. قال: فجلست على السرير . فنظرت فإذا بكتاب من ناحية البيت .فقلت:ما هذا ؟ أعطينيه . قالت :لست من أهله، إنك لا تغتسل من الجنابة، ولا تطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون. فلم أزل بها حتى أعطتنيه، فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم . فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة . ثم رجعت . فإذا فيه :﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [1] ـ كلما مررت باسم من أسماء الله ذعرت ـ ثم رجعت إلى نفسى حتى بلغت :﴿ **آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[2] فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فخرج القوم يتنادون بالتكبير استبشاراً بما سمعوا منى وحمدوا الله وقالوا : يا بن الخطاب أبشر، فلما عرفوا منى الصدق قلت لهم : أخبرونى بمكان رسول الله ،قالوا :هو فى بيت فى أسفل الصفا . فخرجت حتى قرعت الباب . قيل: من هذا ؟ قلت: ابن الخطاب ، وقد عرفوا شدتى على رسول الله، ولم يعلموا إسلامى ، قال:فما اجترأ أحد منهم بفتح الباب ،فقال رسول الله ﷺ :« افتحوا له . فإن يرد الله به خيراً يهده» قال : ففتحوا لى ، وأخذ رجل بعضدى حتى دنوت من النبى ﷺ فقال : « أرسلوه » فأرسلونى فجلست بين يديه فأخذ بمجمع قميصى فجبذنى إليه .وقال:« أسلم يابن الخطاب، اللهم اهده »، قال : قلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة . وقد كان استخفى، وكنت لا أشاء أن أرى رجلاً إذا أسلم يضرب. إلا رأيته . فلما رأيت ذلك قلت: ما أحب إلا أن يصيبنى مما يصيب المسلمين . فذهبت إلى خالى وكان شريفاً فيهم . فقرعت عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب .فخرج . فقلت : أشعرت أنى قد صبوت؟ قال : لا تفعل وأجاف الباب دونى، قلت : ما هذا بشىء،فخرجت حتى جئت رجلاً من عظماء قريش .

---

(1) الحشر / ١ .

(2) الحديد / ٧ ، ٨ .

فقرعت الباب ، فخرج فقلت : أشعرت أنى قد صبوت ،قال : لا تفعل.قلت قد فعلت، فدخل فأجاف الباب،قال : فانصرفت،فقال لى رجل : أتحب أن يعلم بإسلامك . قلت: نعم ، قال : إذا جلس الناس فى الحجر فائت فلاناً رجلاً لم يكن يكتم السر فاصنع إليه، وقل له فيما بينك وبينه: إنى قد صبوت . فإنه سوف يظهر عليك ويصيح ويعلنه . قال : فلما اجتمع الناس فى الحجر جئت إلى الرجل ،فدنوت، فأصفيت إليه فيما بينى وبينه أنى قد صبوت .فقال : قد صبوت؟ قلت : نعم ، فرفع بأعلى صوته ،وقال : ألا إن ابن الخطاب قد صبا. فثاب إلىّ الناس فضربونى وضربتهم. فقال خالى : ما هذا ؟ فقيل: ابن الخطاب . فقام على الحجر فأشار بكمه: ألا إنى قد أجرت ابن أختى . فانكشف الناس عنى . وكنت لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يضرب إلا رأيته وأنا لا أُضرب . فقلت : ما هذا بشىء حتى يصيبنى ما أصاب المسلمين،وأمهلت حتى إذا جلس خالى قلت : اسمع . قال : ما أسمع ؟ قلت: جوارك عليك رد . قال : لا تفعل يا ابن أختى . قلت: بلى هو ذاك قال: ما شئت ، فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الإسلام) (١) .

يقول الإمام الزرقانى : (روى حديث أسلم عن عمر هذا بطوله البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى، ورواه الدارقطنى عن حديث أنس . وابن عساكر والبيهقى عن ابن عباس ،وأبو نعيم عن طلحة وعائشة كلهم عن عمر نحوه . فهذه طرق يعضد بعضها بعضاً فانجبر ما فيه من ضعف أسامة) (٢) .

وفى فتح البارى لَمح البخارى بإيراد قصة سوار بن قارب فى إسلام عمر إلى ما جاء عن عائشة وطلحة عن عمر ، أن هذه القصة كانت سبب إسلامه ،ومن جملة القصة التى رواها البخارى قال عمر : (بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: ياجليح ، أمر نُجيح رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله . فوثب القوم قلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا .ثم نادى : يا جليح ،أمر نجيح رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله .فقمت فما نشبنا أن قيل : هذا نبى) (٣) .

الرواية الرابعة :

(وعن عمر رضي الله عنه قال : خرجت أبغى رسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته قد

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١ / ٢٨٥ وما بعده ، وقال المحقق فيه : إسناده ضعيف .
(٢) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى ١ / ٣٢١ .
(٣) البخارى ٥ / ٦١ باب إسلام عمر .

سبقنى إلى المسجد ،فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، قال :فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال : فقرأ :﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ** ﴾، قلت : كاهن . قال : ﴿ **وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ، إلى آخر السورة [١] فوقع الإسلام من قلبى كل موقع) [٢] .

١ ـ تجمع الروايات كلها على أن القرآن الكريم منذ أن لامس شغاف قلبه حوله تحويلاً إلى الإسلام . فلم يكن إسلامه ذلك الإسلام البطىء الذى يرد على القلب آناً بعد آخر ، وقد يحتمل سنين طويلة حتى يتحول إلى الإسلام لشدة الركام الجاثم على الفطرة . لقد كان إسلامه انقلاباً جذرياً ، وفى لحظات شعر بأنه غدا إنساناً آخر ، وولد إنساناً جديداً غير الذى كان من قبل .

وبطبيعة شخصيته التى لا تقبل المواقف الوسط ،ولا ترضى الدون أو التذبذب أو التردد . طلب مباشرة المضى إلى النبى ﷺ لإعلان الإسلام على يديه ، ولم يجد فى نفسه حرجاً بعد أن تجلى الحق له ،أن يعلن هذا الإسلام بعد اشتهاره بأنه ألد عدو للإسلام وأهله .

إن قوة هذه الشخصية لا توجد إلا عند أعاظم الرجال . الذين يرون أنفسهم أكبر من مجتمعهم ومن كل من حولهم . فهو لا يرهب أحداً فيما يراه أنه الحق وهو لا يهاب عظيماً أو طاغية أو مجتمعاً عندما يؤمن أن موقفه الحق الصراح . لقد كانت لمسة القرآن له بمثابة التيار الكهربائى الذى حرق كل بذور الشك فى نفسه فى لحظة واحدة . وتناولت ذرات كيانه .فصاغها صياغة جديدة ؛ بحيث تنبثق من الإسلام والعبودية لله وحده . . . وما وصفه به عليه الصلاة والسلام ليعطينا إشارة واضحة على ذلك . إن الشرك الذى تلوث به قد حال دون تفجر طاقات فطرته وإبداعها ، ومن اللحظة التى كشط هذا الشرك عنها . تدفق المعين العظيم لها .

وسنشهد هذا التدفق . فى بعض اللقطات . التى ثبتت صحتها عن موقفه بعد إسلامه .

٢ ـ إعلانه الإسلام لكل رجالات مكة :

(عن نافع مولى عبد الله بن عمر ،عن عبد الله بن عمر ، قال :لما أسلم عمر بن الخطاب قال : أى قريش أنقل للحديث ؟ قيل له : جميل بن معمر الجمحى ، قال :

---

(١) الحاقة / ٤٠ ــ ٥٢ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٩ / ٦٢ ، وقال فيه :« رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات ، إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمراً » .

فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت أتبع أثره أنظر ما يفعل وأنا غلام ، أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال : أما علمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد ﷺ ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجر رجليه واتبعه عمر ، واتبعت أبى ،حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش - وهم فى أنديتهم حول الكعبة - ألا إن عمر قد صبا . قال : يقول عمر من خلفه :كذب ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،وأن محمداً عبده ورسوله . قال : وثاروا إليه قال : فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم قال : وطلح[1] فقعد وتاموا على رأسه ،وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم فأحلف أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا . قال : فبينا هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه جبة حبرة وقميص قومس[2] حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر بن الخطاب قال : فمه ،رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم ؟ هكذا [3] عن الرجل ، قال : فو الله لكأنما كانوا ثواباً كشف عنه ، قال عبد الله: فقلت لأبى بعد أن هاجرنا إلى المدينة : يا أبت ، من الرجل الذى زجر القوم عنا بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ قال : ذاك العاص ابن وائل السهمى) [4] .

وعن ابن عمر قال : لما أسلم عمر اجتمع الناس عليه فقالوا : صبا عمر مرتين ، وكنت على ظهر بيت فأتى العاص بن وائل السهمى وعليه قباء ديباج مكفوف بحرير فقال : صبا عمر صبا عمر ، أنا له جار ، فتفرق الناس عنه ، قال ابن عمر : فتعجبت من عزه [5] .

٣ - إعلانه الإسلام لكبير مكة :

(قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة ، تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة ؟ حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت ،قال :قلت : أبو جهل بن هشام ،وكان من أخواله فأم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، فخرج إلىّ فقال : مرحباً وأهلاً يابن أختى ما جاء بك؟ قال : قلت : جئت أخبرك أنى قد آمنت بالله ورسوله محمد ﷺ وصدقته بما جاء به ،قال : فضرب الباب

---

(١) طلح : أعيا وتعب .

(٢) قميص قومس :منسوب إلى كورة كبيرة فى ذيل جبال طبرستان .

(٣) هكذا : فى ابن هشام : خلوا .

(٤) فضائل الصحابة للإمام أحمد ، وقال المحقق : إسناده حسن ١ / ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٥) المصدر نفسه ، وقال المحقق : إسناده حسن ١/ ٢٨٢ .

فى وجهى وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به) [1] .

* * *

لقد كان مع خاله عمرو بن هشام يتنافسان الزعامة . ويتسابقان فى حرب الإسلام . وهو الذى تولى تنفيذ مهمة القتل حين عجز عنها أبو جهل كما فى الرواية (أن أبا جهل جعل لمن يقتل محمداً مائة ناقة حمراء وسوداء ، وألف أوقية من فضة . فقلت : يا أبا الحكم ، الضمان صحيح ؟ قال: نعم . . .) وحين طرق الباب على خاله استبشر به وحسب أنه نفذ المهمة ، وحسب الشخصية الواضحة الجلية العظيمة لعمر لن يأتى ليعتذر من أبى جهل ويخفى إسلامه ،ولن يتلكأ لحظة واحدة فى إعلانه بأنه أصبح على رأس المعسكر المعادى له . وهو لم يتمكن من النوم بعد فرحه بإسلامه . ولن يكون إسلامه حدثاً عاديا . فليأت رأس الكفر أبا جهل، وأشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ فيعلن افتتاح المعركة معه، ويعلن المبارزة معه ، فإذا أبلغ الرأس فقد وقعت المعركة . ولكن أبا جهل وفى اللحظة الحاسمة . غلبه حقده ، وانهار من داخله بدلاً عن المواجهة . واكتفى بالتعبير عن غيظه الدفين وحقده اللئيم بإغلاق الباب ،وأن يقول له : قبحك الله وقبح ما جئت به .

إنهما الندان الزعيمان اللذان اختارهما رسول الله ﷺ ليدعو لهما أن يعز الله الإسلام بأحبهما إليه، واستجاب الله تعالى دعاء نبيه . وكان ابن الخطاب هو صاحب الخطوة الربانية . وعلى عمر رضي الله عنه أن يدفع الثمن . وعلى التو واللحظة أبلغ الخبر لنده أبى جهل .

ولما وجد أن أبا جهل قد تراجع أمامه وأغلق بابه ، وانطوى يلوك حقده . بقى يقلب أمره طيلة الليل كيف تكون المواجهة ، وأبلغ زعيماً آخر بإسلامه فاكتفى بإغلاق الباب بوجهه . ولم يكن له بد أن يواجه قريشاً كلها بهذا الدين ،ووجد من يدله على أنقل قريش للخبر . فقيل له : جميل بن معمر الجمحى، ومع تناثر خيوط الفجر كان عند جميل يبثه الخبر .

لقد قرر عمر رضي الله عنه أن يواجه المجتمع المكى كله . وحتى تتم هذه المواجهة، فقد مضى لأنقل قريش للحديث إلى جميل بن معمر الجمحى . وحيث كانت قريش فى أنديتها ،صرخ بأعلى صوته بأن عمر قد صبا ، ولا يضير عمر تكذيب الخبر . بمقدار ما يضيره أن يكون الإسلام صريحاً واضحاً : (كذب ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله) . فهو لا يكتفى بقول جميل .

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ، وقال المحقق فيه : منقطع رجاله ثقات ١ / ٢٨٤ .

بل يعلنها صريحة مدوية متحد بها جبروت مكة وطغيانها بكلمة التوحيد الصراح. وأحست مكة وأحس رجالاتها أن كيانهم قد انهد .

فانقضوا عليه جميعاً بكل ما يحملون من حقد ، وما يحملون من كفر يضربونه ويضربهم . إنه لا يرضى أن يهمس بإسلامه همساً، بل يريد أن يعلم مكة كلها بهذا الدين الجديد . فهو الذى لا يعرف قلبه الخوف ولا الوهن . لقد مضى فى بداية طريقه وقبل إسلامه يريد قتل محمد . وهو على استعداد أن يواجه بنى عبد مناف جميعاً وأسودهم وأبطالهم؛ ليبطل ذلك الدين الجديد الذى سفَّه الآلهة وفرَّق الكلمة . هذه هى شخصيته وقوة شكيمته . وها هو الآن يمضى بعد أن حمل الراية الجديدة ليواجه لا بنى عبد مناف فقط . بل ليواجه مكة كلها ، وواجههم يضرب ويضرب حتى زالت الشمس .

وكما كان يترك الجارية ويقف عند الضرب لها لإسلامها . وبعد أن يعيا من الضرب قائلا لها :والله ما تركتك شفقة بك . ولكنى تركتك لأنى مللت . هو هنا يعيا من الوقوف فيجلس ويتابع النزال والقتال . فيضرب ويضرب . ولا يجد حرجاً أن يعتبر نفسه هو المسؤول عن الإسلام فى مكة ،ويحدد مستقبله فيها فيقول :

(افعلوا ما بدا لكم فأحلف أن لو كنا ثلاثمائة رجل تركناها لكم ، أو تركتموها لنا). خلال لحظات ، بعد أن كان يقود جحفل الشرك ليقتل محمداً وينهى معسكر الإيمان . ها هو الآن يعلن أنه سيمضى فى هذا الإسلام ، ويجمع له الجموع ، ويعبئ له الدعاة حتى يبلغوا ثلاثمائة . ولتكن الحرب الفاصلة بين الإيمان والكفر . وليبدو وجه مكة الحقيقى إما للإسلام وجنده ، وإما للكفر وأهله .

إن عظمة هذه الشخصية وعظمة هذه الفطرة . هى التى دفعت به إلى أن يتقدم الجميع بعد ذلك ،وشاءت إرادة الله تعالى ألا يبلغ العدد ثلاثمائة . وتبقى مكة معقل الكفر حتى تفتح عليهم بعد سبعة عشر عاماً . لتدخل كلها فى الإسلام لا أن تنقسم إلى معسكرين . وترك المسلمون مكة حين لم يتجاوزوا المائتين إلى أرض جديدة ينطلقون بالإسلام منها من جديد .

ويدخل العاص بن وائل سيد بنى سهم؛ليحذر قريش مغبة الأمر وخطورة الموقف . وبنى عدى الذين سوف يفتحونها حرباً على مكة ، وبنى سهم حلفاءهم حين ينضمون لهم ، وعلى تقاليد الجاهلية يجير عمر ، فلا تجرؤ أهل مكة على رفض هذه الإجارة . طالما العاص بن وائل جزء من معسكر الشرك نفسه .

٤ ـ ثم ماذا بعد هذه المعركة الحامية الوطيس بينه وبين رجالات مكة ؟

الأمر عنده هو أمر هذه الجماعة التى ينتسب إليها ، والتى أصبح جزءاً منها ، فلا

يكفيه أن يعذّب أو يضرب لإعلان إسلامه ، بل لابد من المواجهة والتحدى .

أ ـ (روى أنه لما أسلم قال : يا رسول الله ، لا ينبغى أن يكتم هذا الدين . أظهر دينك ، فخرج ومعه المسلمون وعمر أمامهم معه سيف ينادى لا إله إلا الله محمد رسول الله ،حتى دخل المسجد فقالت قريش : لقد أتاكم عمر مسروراً . ما وراءك يا عمر، قال : ورائى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن تحرك أحد منكم لأمكنن سيفى منه ثم تقدّم أمامه ﷺ يطوف ويحميه حتى فرغ من طوافه) (١).

ب ـ (وأخرج محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى تاريخه بسند فيه إسحاق بن أبى فروة عن ابن عباس؛ أنه سأل عمر عن إسلامه ، فذكر قصته بطولها ، وفيها أنه خرج ورسول الله ﷺ بينه وبين حمزة وأصحابه الذين كانوا اختفوا فى دار الأرقم . فعلمت قريش أنه امتنع فلم تصبهم كآبة مثلها ، قال : فسمانى رسول ﷺ يومئذ الفاروق)(٢) .

جـ ـ (وعن عبد الله بن مسعود قال : إن كان إسلام عمر لفتحاً وهجرته لنصراً وإمارته رحمة . والله ما استطعنا أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر ، قاتلهم حتى ودعونا فصلينا) ، وفيه رواية: (ما استطعنا أن نصلى عند البيت ظاهرين) (٣) .

د ـ (وعن ابن مسعود قال : لقد أحببت عمر حبا حتى لقد خفت الله . ولو أنى أعلم أن كلباً يحبه عمر لأحببته ، ولوددت أنى كنت خادماً لعمر حتى أموت . ولقد وجد فقده كل شيء حتى العضاه . إن إسلامه كان فتحاً ،وإن هجرته كانت نصراً ،وإن سلطانه كان رحمة) (٤) .

هـ ـ وعن ابن مسعود قال : (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) (٥) .

* * *

لقد كان رضي الله عنه فاروقاً بين الحق والباطل .وهكذا قدّر الله تعالى واستجاب لدعوة نبيه أن يعز الإسلام به . وكما يقول ابن مسعود ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب،أو بأبى جهل بن هشام » ، فجعل الله دعوة رسوله ﷺ لعمر ابن الخطاب فبنى عليه الإسلام ، وهدم به الأوثان (٦). وفى رواية عن أنس بن مالك

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٣٢٢ .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للإمام ابن حجر العسقلانى ١ / ٢ / ٢٨٠ .
(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ٩ / ٦٣ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن القاسم لم يدرك جده ابن مسعود » .
(٤) فضائل الصحابة ١ / ٢٤٧ ، وقال المحقق فيه : إسناده حسن .
(٥) فضائل الصحابة ١ / ٢٨١ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح .
(٦) مجمع الزوائد للهيثمى ٦١/٩ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بنحوه ،ورجال الكبير رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد ، وقد وثق » .

رضي الله عنه قال : (إن رسول الله ﷺ دعا عشية الخميس فقال : « اللهم أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب ،أو بعمرو بن هشام ،فأصبح عمر يوم الجمعة فأسلم ») [1] .

وحين أسلم على يدى رسول الله ﷺ وزالت الغشاوة عن قلبه،ورفع الركام عن معدنه جاءته الشحنة العظيمة من رسول الله ﷺ والتى وصلت تيار قلبه بالله ـ عز وجل .

فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ضرب صدر عمر بيده حين أسلم ثلاث مرات،وهو يقول : « اللهم اخرج ما فى صدر عمر من غل وأبدله إيماناً » يقول ذلك ثلاث مرات[2].

وإذا كانت يد العناية الإلهية قد امتدت عن طريق جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فانتزعت العلقة السوداء حظ الشيطان من صدر رسول الله ﷺ .فقد امتدت يد العناية النبوية . فضربت على صدر عمر ثلاث مرات . وتضرعت إلى الله تعالى؛ أن يقذف من قلبه ذلك الغل الأسود على الإسلام ، ويقذف فى قلبه إيماناً .وكانت الدعوة تمضى إلى عنان السماء ليستجيب لها ربها ، فتعيد بناء عمر من جديد ، ويعيد تركيبه من جديد على ضوء هذه الشحنة العظيمة من الضربة والدعوة النبويتين على صدر عمر . فغدا بذلك كما يقول ابن مسعود :

(والذى نفسى بيده لو أن من فى الأرض اليوم وضعوا فى كفة الميزان ،ووضع عمر فى الكفة الأخرى لرجح شق عمر) [3] .

لقد شحذ بالإيمان ،وملأت الشحنة قلبه وكيانه .وما لنا نبعد وبين يدينا حديث رسول الله ﷺ يقول : « إنى رأيت آنفاً كأنى أتيت بالمقاليد والموازين ، فأما المقاليد فهى المفاتيح ، وأما الموازين فهى موازينكم هذه . فرأيت كأنى وضعت فى كفة الميزان ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بهم . ثم وضع أبو بكر ووضعت أمتى فرجح بهم ، ثم وضع عمر ووضعت أمتى فرجح الميزان بهم » [4] .

وكأنما هذه الدعوة قد أعطت عمر قدم ست سنين فى هذه الدعوة ؛ لأن غل السنوات الست قد تحول إيماناً كله . فعوض بذلك عن فضل الصحبة التى فاتته هذه السنوات الست .وأخذ موقفه الطبيعى فى الأمة .وكان نقطة تحول فى الأمة ؛حيث

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٩/ ٦٢، وقال فيه:«رواه الطبرانى فى الأوسط ،وفيه القاسم بن عثمان البصرى وهو ضعيف».

(٢) المصدر نفسه ٩ / ٦٥ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات » .

(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١ / ٢٧٠ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح ،ونلاحظ أن هذا القول كان بعد وفاة الصديق .

(٤) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١ / ٢٠٦ ح ٢٢٨ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح .

ابتدأت عزتها بإسلامه ، وابتدأت عبادتها الجهرية بإسلامه. وكان أول فتح فى الإسلام ، هو إسلام عمر . حتى لتشارك السماء فرحتها واستبشارها بذلك ،كما روى ابن ماجة عن رسول الله ﷺ قوله :« لما أسلم عمر نزل جبريل فقال : يا محمد ، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر » (١).

وحيث تبوأ عمر رضي الله عنه مكانه فى الإسلام ، رافقه بعدها أربع خصائص وفضائل تتناسب مع جوهر معدنه العظيم وهى :

١ ـ جعل الله الحق على قلبه ولسانه:

فصياغته بعد أن تمت بالإسلام جعلته ميزان الحق والباطل فى الأمة ، وجعلته الفاروق بين الحق والباطل كذلك .

(فعن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « إن الله ـ عز وجل ـ جعل الحق على قلب عمر ولسانه ») (٢) .

وروى مثل هذا بإسناد حسن عن أبى هريرة رضي الله عنه وبإسناد صحيح عن أبى ذر رضي الله عنه كذلك(٣) وهذه الفضيلة لم تذكر لأحد إلا له رضي الله عنه فالوضوح والشجاعة والاستقامة فى شخصه تحرق كل دخل أو زيف أو دخن يمكن أن يتسلل إليه . ومرد هذا ولا شك إلى أن الشيطان الذى ينزغ فى قلب ابن آدم يند خوفاً منه حين يراه . ولهذا كان شيطانه قد احترق مع هذا الباطل ؛ لأن الشيطان الأكبر يرتجف منه ويفرق منه ،كما يقول عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فجا قط إلا سلك فجا غير فجك » (٤) .

لقد ابتعد عنه الشيطان . وفى رواية: يهرب منه إذا لقيه . وبذلك كان جلاء الحق عنده مرآة صادقة لعظمة شخصيته .

٢ ـ الملهم :

وإذا كان الشيطان قد انتهى دوره معه ، وانتهى معه الباطل كذلك . فهناك صورة أعلى هى أن الله تعالى يسدده على الحق من عنده .

---

(١) رواه ابن ماجة عن ابن عباس ١ / ١١ ، وقال فيه : « فى الزوائد إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف عبد الله بن خراش ، إلا أن ابن حبان ذكره فى الثقات ، وأخرج هذا الحديث من طريقه فى صحيحه » .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١/ ٢٥٠ ح ٣١٣ ، وقال المحقق فيه : إسناده حسن ، وأخرجه أحمد والترمذى وابن حبان وابن سعد وغيرهم .

(٣) فضائل الصحابة ١/ ٢٥١ ح٣١٦ ، ٣١٧ .

(٤) البخارى ٥/ ١٤ ،ب مناقب عمر .

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء . فإن يكن من أمتى منهم أحد فعمر » وفى رواية : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدّثون فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر »[1] يقول ابن حجر ـ رحمه الله : (وتمحضت الحكمة فى وجودهم ـ أى المحدّثين ـ وكثرتهم بعد العصر الأول فى زيادة شرف هذه الأمة بوجود أمثالهم فيها ، وقد تكون الحكمة فى وجودهم وكثرتهم مضاهاة بنى إسرائيل فى كثرة الأنبياء فيهم . فلما فات هذه الأمة كثرة الأنبياء فيها ؛لكون نبيها خاتم الأنبياء عُوّضوا بكثرة الملهمين . وقال الطيبى : المراد بالمحدّث :الملهم البالغ فى ذلك مبلغ الأنبياء فى الصدق)[2] . وعرف المسلمون ذلك فى عمر رضي الله عنه فكانوا يتحدثون فيما بينهم أن الله تعالى بعث ملكاً يسدّد عمر إذا أخطأ . ولاغرابة . فإذا كان الشيطان قد انتهى دوره عند عمر . فالملك هو الذى يكون له اللمة الدائمة التى توجه إلى الخير . فعن طارق بن شهاب قال :

(كنا نتحدث أن عمر بن الخطاب ينطق على لسانه ملك)[3] .

٣ ـ علمه ودينه :

ومع ما فاته خلال هذه السنوات الست من العلم . فهو رضي الله عنه عوض بالإيمان بدلاً عن الغل فى قلبه . وأعطى علماً لدنياً نبوياً لم يبلغه أحد إلا الصدّيق ـ رضوان الله عليه ـ قبله .

وكم تكون عظمة هذا الرجل الذى أعطى الإيمان والعلم .

(أخبرنى حمزة عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا نائم شربت ـ يعنى اللبن ـ حتى أنظر إلى الرى يجرى فى ظُفُرى ـ أو فى أظفارى ـ ثم ناولت عمر » قالوا: فما أوّلته يا رسول الله ؟ قال : « العلم »[4] .

هذا علمه الذى استقاه فضلة النبى ﷺ ، ودينه كذلك قد أُريه رسول الله ﷺ فى المنام : فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا علىّ وعليهم قُمُصٌ فمنها ما يبلغ الثدى ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ، وعُرِض علىّ عمر وعليه قميص اجتره». قلت: فما أوّلته يا رسول الله ؟ قال :

---

(١) البخارى ٥/ ١٥ ،ب مناقب عمر . (٢) فتح البارى ٧/ ٥١ ،ب مناقب عمر .

(٣) فضائل الصحابة ١/ ٢٦٣ ح ٣٤١ ، وقال المحقق فيه : إسناده صحيح .

(٤) البخارى ٥/ ١٣ ،ب مناقب عمر رضي الله عنه .

«الدين »[1] .

فقد استوفى رضي الله عنه من الآية تمامها وكمالها ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينا** ﴾[2] .

وإن كان علىّ رضي الله عنه فيما رُوى عنه فى الصحيحين؛ أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر . فقد روى فى الصحيح عنه،وقد هدّه مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ما كان يحب أن يلقى الله تعالى بصحيفة أحد إلا بصحيفة المسجّى فى فراشه . وهو عمر .

فعن ابن عباس قال : (وضع عمر على سريره فتكنّفه الناس يدعون ويصلّون قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يرُعنى إلا رجل آخذ منكبى فإذا علىٌّ ،فترحم على عمر وقال: ما خلّفت أحداً أحب إلىّ أن ألقى الله تعالى بمثل عمله منك ، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك ،وحسبت أنى كنت كثيراً أسمع النبى ﷺ يقول:«ذهبت أنا وأبو بكر وعمر،ودخلت أنا وأبو بكر وعمر،وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»)[3] .

وهكذا ملك عمر أزمّة الفضل ومقومات القيادة ، فهو من قريش ، وتلقى العلم فأخذ فضلة النبوة .وبلغ من الحكمة وسداد الرأى أن جعل الله الحق على لسانه وقلبه.وحقٌّ أن يكون موطن القدوة : « اقتدوا باللذَين من بعدى أبى بكر وعمر »[4] .

٤ ـ القائد العبقرى :

إنه خلق ومقومات وخصائص القيادة فى كيانه ، فأين نرى ذلك فى حديث النبوة عنه (فعن أبى هريرة رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا أنا نائم رأيتنى على قليب[5] عليها دلو . فنزعت[6] منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبى قحافة ، فنزع بها ذَنوباً [7] أو ذنوبين ، وفى نزعه ضعف والله يغفر له ضعفه . ثم استحالت غَرْبًا [8] فأخذها ابن الخطاب ، فلم أرَ عبقرياً [9] من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس

---

(١) البخارى ١/ ١٥ ،ب مناقب عمر . (٢) المائدة / ٣ .

(٣) البخارى ١/ ١٤،ب مناقب عمر .

(٤) فضائل الصحابة ١/ ٣٣٢ ح ٤٧٨ ،وقال المحقق فيه : إسناده صحيح .

(٥) قليب : بئر . (٦) نزعت : ملأت الدلو بالماء .

(٧) الذنوب : الدلو الكبيرة إذا كان فيها الماء . (٨) غَرْبًا : أى دلواً عظيمة .

(٩) العبقرى : المراد به كل شىء بلغ النهاية . وأصله أرض يسكنها الجن . ضرب بها العرب المثل فى كل شىء عظيم .

بعطن [1] »، وفى رواية :« يفرى [2] فريه») [3] .

(اتفق من شرح هذا الحديث على أن ذكرالذنوب إشارة إلى مدة خلافته . وفيه نظر؛ لأنه ولى سنتين وبعض سنة . فلو كان ذلك المراد لقال: ذنوبين أو ثلاثة . والذى يظهر لى أن ذلك إشارة إلى ما فتح فى زمانه من الفتوح الكبار وهى ثلاثة . ولذلك لم يتعرض فى ذكر عمر إلى عدد ما نزعه من الدلاء وإنما وصف نزعه بالعظمة إشارة إلى كثرة ما وقع فى خلافته من الفتوحات .والله أعلم . وذكر الشافعى تفسير هذا الحديث فى « الأم » فقال بعد أن ساقه : ومعنى قوله : « وفى نزعه ضعف » قصر مدته وعجلة موته ، وشغله بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والازدياد الذى بلغه عمر فى طول مدته) انتهى . فجمع فى كلامه ما تفرق فى كلام غيره . ويؤيد ذلك ما وقع فى حديث ابن مسعود فى نحو هذه القصة ،فقال النبى ﷺ : « فاعبرها يا أبا بكر » فقال: ألى الأمر من بعدك ، ثم يليه عمر ، قال: « هكذا عبّرها الملك » أخرجه الطبرانى[4] .

لقد وصفه رسول الله ﷺ بالعبقرية .وهى ملك له وحده لم يوصف بها غيره فى الحكم والسياسة والإدارة . كما رأينا فى تفسير الشافعى لها . ثم فى تفسير شراح الحديث . ويسند هذا المعنى ، الحديث الحسن الآخر الذى تحدث عن عظمته فى الحكم والفتوح حتى يقود العرب والعجم (فعن أبى الطفيل أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا أنزع الليلة إذ وردت على غنم سود وعفر ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين ،وفى نزعه ضعف والله يغفر له ،فجاء عمر فاستحالت غربًا ، فملأ الحياض وأروى الواردة، فلم أر عبقريا أحسن نزعاً من عمر فأولت السود العرب والعفر العجم») [5] .

وسنشهد فيما بعد كيف ربى رسول الله ﷺ هذه الشخصية القيادية الفذة . بعد أن رأينا مقوماتها .

(١) ضرب الناس بعطن : هو مناخ الإبل إذا شربت ثم صدرت .
(٢) يفرى : يعمل عمله البالغ .
(٣) البخارى م٢ ج٥ / ٧ ب مناقب الصديق ،ص١١ ب مناقب عمر .
(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ٩ / ٧١ ،وقال فيه : « رواه الطبرانى وإسناده حسن » .
(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٩ .

حصار الشعب .. تربية جديدة

لقد كان إسلام عمر سنة ست ، وفى ذى الحجة منها بداية مرحلة جديدة ، وحين أصبحت قريش عاجزة عن مواجهة المسلمين بإسلام عمر رضي الله عنه وحين أصبحوا قادرين على الصلاة فى البيت جهراً وعلانية ، لا تملك قريش إلا أن تشدّد النكير على أبناء القبائل من غير بطن بنى هاشم .

(روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى قال :

لما كثر المسلمون وظهر الإسلام أقبل كفار قريش على من آمن من قبائلهم يعذبونهم ويؤذونهم ليردوهم عن دينهم . فبلغنا أنه ﷺ قال للمؤمنين :

« تفرقوا فى الأرض فإن الله سيجمعكم » .

قالوا : إلى أين نذهب ؟ قال : « إلى ها هنا » وأشار بيده إلى الحبشة) (١) .

وبدأ الخروج الجماعى أمام سطوة قريش بتوجيه نبوى؛ بحيث لا تقع سلطة قريش عليهم ، ويكاد يكون جميع المسلمين قد مضوا إلى الحبشة .فقد هاجر من الخمسين الأوائل أربعة وعشرون ،وهاجرت الخمسون الثانية تقريباً .ولم يبق فى مكة إلا المجموعات التالية . وهذه لم تغادر مكة إطلاقاً : وهم محمد رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر ، ثم :

رهط النبى ﷺ : وهم حمزة بن عبد المطلب ، وأبو مرثد الغنوى ،وابنه مرثد حليفا حمزة رضي الله عنه ، وعبيد بن الحارث ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة، وشقران مولى رسول الله ﷺ وأنسة مولاه كذلك ،وعددهم تسعة .

رهط الصدّيق رضي الله عنه : وهم طلحة بن عبيد الله ، وعامر بن فهيرة ، وبلال بن رباح، وعددهم أربعة .

ورهط عمر رضي الله عنه : وهم نعيم بن عبد الله النحام ، وسعيد بن زيد، وواقد بن عبد الله ، وخالد ، وعاقل ، وعامر ،وإياس بنو البكير ،وعددهم ثمانية .

ورهط متفرقون : هم سعد بن أبى وقاص ، وأخوه عمير بن أبى وقاص (أو عامر) والأرقم بن أبى الأرقم ، وخباب بن الأرت ، ومعمر بن الحارث ، ومسعود بن ربيعة، فكان مجموعهم ستاً وعشرين صحابيا .

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٣١٤ .

وكأنما نقل مركز الدعوة كله إلى الحبشة . وبقى حول رسول الله ﷺ كتيبة الفدائيين الذين يحمونه ــ عليه الصلاة والسلام . وإن كان عثمان فى بعض الروايات أحدهم . على رأى من قال : إنه لم يهاجر إلا الهجرة الأولى إلى الحبشة.

تكاد تكون أخبار هذه السنوات الثلاث منقطعة عنا ؛ إذ أنهم دخلوا الشعب فى هلال المحرم سنة سبع للبعثة ، وانتهى الحصار فى السنة التاسعة . وسنحاول تتبع ملامح هذه السنوات العجاف ،وكيف كانت التربية النبوية مستمرة لهذا الجيل الرائد .

الصحيفة القاطعة الظالمة :

قال أبو الأسود والزهرى وموسى بن عُقبة وابن إسحاق : إن قريشاً لما رأت أصحاب رسول الله ﷺ ، قد نزلوا بلداً أصابوا فيه أمناً وقراراً ، وإن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وإن عمر قد أسلم ،وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة حتى عازوا قريشاً ، فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل. فأجمعوا رأيهم ، واتفق رأيهم على قتل رسول الله ﷺ وقالوا : قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا ، فقالوا لقومه :

خذوا منا دية مضاعفة وليقتله رجل من غير قريش ، ويريحنا ،وتريحون أنفسكم .

فأبى قومه بنو هاشم من ذلك ، وظاهرهم بنو المطلب بن عبد مناف .

فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه ، فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم وإخراجهم من مكة إلى الشعب ،واجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، ولا يقبلوا منهم صلحاً ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفة ثم تعاهدوا وتعاقدوا على ذلك .

والذى كتب الصحيفة ، قال ابن إسحاق : منصور بن عكرمة . قال ابن هشام: ويقال : النضر بن الحارث . فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت بعض أصابعه . وقال غيره : بغيض بن عامر فشلت يده .وقال غيره : هشام بن عمرو بن الحارث العامرى ، وأسلم بعد ذلك .

ويجمع بين هذه الأقوال باحتمال أن يكون كتب منها نسخ .

ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ،وقطعوا عنهم الأسواق، ولم يتركوا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم ، فلما فعلت ذلك

قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب ، فدخلوا معه فى الشعب مؤمنهم وكافرهم ، فالمؤمن ديناً ، والكافر حمية . وخرج من بنى هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم ، ولقى هند بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشاً فقال : يا بنت عتبة هل نَصرت اللات والعزى وفارقت من فارقها وظاهر عليها ؟ قالت : نعم جزاك الله خيراً يا أبا عتبة .

وروى البلاذرى عن ابن عباس قال : حصرنا فى الشعب ثلاث سنين ، وقطعوا عنا الميرة حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة فما يبايع حتى يرجع ، حتى هلك من هلك .

وقال أبو طالب فيما صنعت قريش من ذلك واجتمعوا له :

ألا أبلغا عنى على ذات بيننا ... لؤيا وخصا من لؤى بنى كعب
ألم يعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبيا كموسى خُطَّ فى أول الكتب
وأن عليه فى العباد محبة ... ولا خير ممن خصه الله بالحب
وأن الذى لصقتمُ فى كتابكم ... لكم كائن نحساً كراغية السقب[1]
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ... ويصبح من لم يجن ذنباً كذى ذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودة والقرب
وتستجلبوا حرباً عواناً وربما ... أمر على من ذاقه حلب الحرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا ... لعزاء من عضٍّ الزمان ولا كرب
ولما تبن منا ومنكم سوالف[2] ... وأيد أترت[3] بالقساسية الشهب
بمعترك ضنك[4] ترى كسر القنا ... به والنسور الطخم[5] يعكفن كالشرب
كأن مجال الخيل فى حجراته ... ومعمعة الأبطال معترك الحرب
أليس أبونا هاشم شد أزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ... ولا نشتكى ما إن ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفائظ والنهى ... إذا طار أرواح الكماة[6] من الرعب

---

(١) كراغية السَّقب : السقب وهو من الرغاء وهو أصوات الإبل ،والسَّقب :ولد الناقة وأراد بها هنا ولد ناقة صالح ﷺ التى عقرها قُدار ، فرغا ولدها ، وصاح برغائه كل شيء له صوت . فهلكت ثمود . فضربت العرب ذلك مثلاً فى كل هلكة .

(٢) سوالف : أعناق .

(٣) أترت : قطعت .

(٤) ضنك : ضيق .

(٥) الطخم : التى فى لونها سواد .

(٦) الكماة : الشجعان .

قال ابن إسحاق وغيره : فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا ،ولا يصل إليهم شيء إلا سرا مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش .

وقد كان أبو جهل لقى حكيم بن حزام معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة وهى مع رسول الله ﷺ فى الشعب . فتعلق به وقال له:أتذهب بالطعام لبنى هاشم ؟ ! لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة. فقال له أبو البخترى بن هشام بن الحارث - وهلك كافرا - طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلّ سبيل الرجل . فأبى أبو جهل حتى نال كل واحد منهما من صاحبه ، فأخذ أبو البخترى لَحْى بعير فضربه به فشجه ، ووطئه وطئاً شديدا ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ،وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم .

وكان أبو طالب فى طول مدتهم بالشعب يأمر رسول الله ﷺ ، فيأتى فراشه كل ليلة حتى يراه من أراد به شراً أو غائلة . فإذا نام أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ أن يأتى بعض فرشهم فيرقد عليه.

فلم يزالوا إلى تمام ثلاث سنين(١) .

وفى رواية ابن إسحاق عن يونس بن بكير :

ثم عمد أبو طالب فأدخل الشعب ابن أخيه وبنى أبيه ، ومن اتبعهم من بين مؤمن دخل لنصرة الله ونصرة رسوله ﷺ ، ومن بين مشرك يحمى ، فدخلوا شعبهم،وهو شعب فى ناحية من مكة . فلما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة إلى قريش وأخبروهم بالذى قال النجاشى لمحمد ﷺ . اشتد وجدهم ،وآذوا النبى ﷺ وأصحابه أذى شديداً وضربوهم فى كل طريق ، وحصروهم فى شعبهم ،وقطعوا عنهم المادة من الأسواق . فلم يدعوا أحداً من الناس يُدخل عليهم طعاماً ولا شيئا مما يرفق بهم . وكانوا يخرجون من الشعب إلى الموسم . وكانت قريش تبادرهم الأسواق فيشترونها ويغلونها عليهم . ونادى منادى الوليد بن المغيرة فى قريش : أيما رجل وجدتموه عند طعام يشتريه به فزيدوا عليه ، وحولوا بينهم وبينه، ومن لم يكن عنده نقد فليشتر وعلىّ النقد .ففعلوا ذلك ثلاث سنين حتى بلغ القوم الجهد الشديد ، وحتى سمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب ، وكان المشركون يكرهون ما فيه بنو هاشم من البلاء ، حتى كره عامة قريش ما أصاب بنى هاشم وأظهروا كراهيتهم لصحيفتهم القاطعة الظالمة التى تعاهدوا فيها على محمد ﷺ ورهطه ، وحتى أراد رجال منهم أن

(١) سبل الهدى والرشاد الإمام الصالحى ٢ / ٥٠٢ - ٥٠٤ .

يبرؤوا منها . وكان أبو طالب يخاف أن يغتالوا رسول الله ﷺ ليلاً أو سرا ، فكان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه أو رقد ، بعثه أبو طالب عن فراشه وجعله بينه وبين بنيه خشية أن يقتلوه ، وتصبح قريش فيسمعوا من الليل أصوات صبيان بنى هاشم الذين فى الشعب يتضاغون من الجوع . فإذا أصبحوا جلسوا عند الكعبة فيسأل بعضهم بعضا فيقول الرجل لصاحبه :كيف بات أهلك البارحة ؟ فيقول : بخير ، فيقول : لكن إخوانكم هؤلاء الذين فى الشعب بات صبيانهم يتضاغون من الجوع حتى أصبحوا . فمنهم من يعجبه ما يلقى محمد ﷺ ورهطه ،ومنهم من يكره ذلك . فقال أبو طالب ، وهو يذكر ما طلبوا من محمد ﷺ وما حشدوهم فى كل موسم يمنعونهم أن يبتاعوا بعض ما يصلحهم ، وذكر فى الشعر :

ألا من وليهم آخر الليل معتم ... طوانى وأخرى النجم لم يتقحم
طوانى وقد نامت عيون كثيرة ... وسائر أخرى ساهر لم ينوَّم
لأحلام قوم قد أردوا محمداً ... بسوءٍ ومن لا يبتغى الظلم يظلم
سعوا سفهاً واقتادهم سوء رأيهم ... على قائل من رأيهم غير محكم
رجاء أمور لم ينالوا نظامها ... وإن حشدوا فى كل نفر وموسم
يرجون أن نسخى بقتل محمد ... ولم تختضب سمر العوالى من الدم
يرجون منا خطة دون نيلها ... ضراب وطعن بالوشيح المقوم
كذبتم وبيت الله لا تقتلونه ... جماجم تلقى بالحطيم وزمزم
وتقطع أرحام وتنسى حليلة ... حليلا وتفشى محرماً بعد محرم
وينهض قوم فى الدروع إليكم ... يذبون عن أحسابهم كل مجرم[1]

* * *

١ ـ تكاد تكون قضية الصحيفة قضية الحزب الهاشمى الذى كان على رأسه أبو طالب ، بينما كان دور حزب الله دوراً ثانوياً فى هذا الموضوع . فقد استطاعت قريش وعلى رأسها بنو مخزوم أن تدير الموضوع فى إطار قبلى بحت ؛ لتتم المفاصلة على ضوء ذلك ، وتختلط أوراق حزب الله ضمن القبائل . فيتحطم ذلك البنيان الجديد .

٢ ـ ولكى تضمن قريش نجاح خطتها حصرت الأمر فى شخص محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو القائد لحزب الله ، وهو رسول الله الذى يتلقى الوحى. فإذا انتهى أمره يمكن معالجة أمر أتباعه بعد ذلك . واتفقت كلمة قريش على قتل رسول الله ﷺ. وحين فشلت كل العروض السابقة على رئيس الحزب الهاشمى بقتله جاؤوا بعرض جديد مفاده: أن يُقتل محمد ﷺ من شذاذ القبائل غير قريش،ويأخذ بنو عبد مناف دية

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق . ت / سهيل زكار ١٥٩ ، ١٦٠ .

مضاعفة ، ويبقى أمر قريش بعيداً عن البلابل والصراعات وتعود الألفة لمكة .

٣ ـ ووقف أبو طالب زعيم بنى هاشم وقفة الأسود بصلابة لا تعرف المهاودة ، فهو لن يسلم محمداً لهم . وفى بنى هاشم وبنى المطلب عين تطرف . وتفاصل الفريقان ، كل مصرٌ على رأيه . وخرجت قريش بقرار الحصار الاقتصادى والاجتماعى المذكور ، وكانت ذروة نصر المشركين فى المعركة فى هذا القرار الذى حاز على إجماع قريش ، ومعهم بطنان من بنى عبد مناف (ألا يناكحوهم ولا ينكحوا إليهم ،ولا يبايعونهم ولا يبتاعون منهم). وكان القرار يقصد ابتداء بنى هاشم ، فانضم بنو المطلب إليهم ، فشمل هذين البطنين ،ولم يخرج من بنى هاشم ـ ويخون قومه ـ إلا أبو لهب الذى انضم إلى قريش ضد عشيرته،وقال: قد نصرتُ اللات والعزى يا معشر قريش .

ويذكر رسول الله ﷺ هذه المأساة بعد خمسة عشر عاماً حين افتتح مكة ، وأقام بجيشه اللجب بالمكان نفسه الذى تآمرت به قريش عليه .فقال كما فى الصحيح: « منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر» [(١)].

٤ ـ وكان وضع حزب الله فى حرج شديد ؛ إذ أن دخولهم الشعب مع بنى هاشم. يجعل كل مسلم متهماً بخيانة قبيلته ؛حيث انضم إلى بنى هاشم تاركاً قبيلته . ومن جهة ثانية ، فلا يريد رسول الله ﷺ لحزبه أن يخوض معركة على أساس قبلى ، إنما يريدها واضحة جلية بين الإيمان والكفر . وفى هذه القضية قد التبست الراية بين بنى هاشم من جهة ، وقريش من جهة ثانية ، ومن أجل ذلك كان توجيه رسول الله ﷺ لحزبه أن يتفرق ، ويتجمع فى الحبشة حتى تنتهى هذه المحنة ، وترك للحزب الهاشمى أن يحمل مسؤولية المواجهة القبلية ، ولم يبق حوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا عشرات من القياديين فى حزب الله ، يشاورهم ويواجه بهم المعضلات ، وبقى حوله الأسدان العظيمان حمزة بن عبد المطلب ،وعمر بن الخطاب ،كما بقى عنده وزيره الأول أبو بكر الصديق ، وفدائيه الأول على بن أبى طالب ، وأقرانه : سعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وبقى نصف العشرة المبشرون بجواره .

٥ ـ ووقف أبو طالب سيد بنى هاشم مع بنى هاشم وبنى المطلب وقفة رجولة قلما يجود التاريخ بمثلها . فقد تقبلوا الحصار ببطولة نادرة ، وتحملوا الجوع والشظف والفقر فداء لسيدهم محمد بن عبد الله . وكان لشعر أبى طالب فى مواجهة قريش وقع الصاعقة عليها . فلن يسلموا محمداً إلا بحرب عوان تندر فيها الرؤوس ، وتؤط فيها السواعد ، وترمى الجماجم بزمزم والحطيم، وتختضب سمر العوالى من الدم .كما

---

(١) البخارى م٢ ج٢ / ١٨٨،ب غزوة الفتح .

رأينا فى قصيدتيه العظيمتين ، فسيد بنى هاشم هو سيد قريش رغم أنفها الصادق الأمين النبى كما يقول ، كما كان موسى نبياً من قبل . ووصف الحرب الكريهة أدق وصف حيث النسور عواكف على الجثث ، ومجال الخيل فى قلب مكة معترك الحرب ، وبنو هاشم هم بنو الحرب لا يملونها حتى تملهم . وحين تطير أرواح الكماة من الرعب هم رجال الحفائظ والنهى وأهل الثبات والمصاولة .

٦ ـ ولم يكتف زعيم بنى هاشم بالقول ، بل أتبعه بالفعل . فقد كان محمد ﷺ بحماية سيوف هاشمية تحوطه من كل مكان ، ولا يدعه ينام فى فراشه حتى لا يغتاله أحد من فتاك العرب ، بل يجعله ينام بينه وبين بنيه فهو أعظم شىء فى حياته وحياة قومه . وليدع بما شاء ومن شاء فهم حماة عرينه وهم فداة شخصه .

٧ ـ وكان لهذا الثبات العظيم على كل لأواء المحنة والإصرار على افتداء محمد بالروح والدم والمهج من الحزب الهاشمى قادة وقاعدة . أن بدأ الوهن يتسرب لصف مكة ، وبدأ التراجع والضمير الحى يهتز فى قلب هذا المجتمع الجاهلى ، أمام صبيان بنى هاشم الذين يتضاغون من الجوع ، إنها ليست معركة شريفة ، معركة الند للند ، بل هى معركة لئيمة خسيسة أحس بها ذوو النجدة والشهامة داخل المجتمع المكى ، ولم ير أبو البخترى بن هشام حرجاً أن ينزل بأبى جهل كل غضبه وحقده . فهو الذى يسعر النار ضد بنى هاشم ، وهو الذى يوقد التنور لإبادة هذا البطن .

٨ ـ وكانت تعليمات الرسول ﷺ لأفراد حزب الله ألا يواجهوا العدو ، وأن يضبطوا أعصابهم . فلا يشعلوا فتيل المعركة أو يكونوا وقودها . وإن أعظم تربية فى هذه المرحلة هى صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومة حمزة وعمر ، وأبى بكر وعثمان ، وغيرهم وغيرهم . فحمية حمزة على جاهليته دفعته للبطش بأبى جهل وهو على دينه ، بينما يقف متفرجاً على معركة أبى البخترى وأبى جهل حسب الأوامر الصادرة له ، وعمر بن الخطاب لا يتمالك أن يبطش بأخته وختنه ، وأن يواجه قريشاً كلها . ومع ذلك يلقى كل هذا الأذى وهذا الحقد ، وهذا الظلم وعليه أن يكف يده ، ويصبر ، وليس على حادثة واحدة فقط ، أو يوماً واحداً فقط بل ثلاث سنين عجاف، تحترق أعصاب حزب الله ولا يسمح له برمية سهم أو شجة رأس . بينما يتصارع أهل مكة من أجل محمد ﷺ ، ويطأ أبو البخترى بن هشام أبا جهل وطئا شديداً ؛ لأنه يود أن يحول دون وصول القمح لخديجة ـ رضى الله عنها ـ زوج رسول الله ﷺ وعمة حكيم بن حزام .

إن هؤلاء العشرين الذين كانوا على أعلى مستوىً من الانضباط والولاء والطاعة

يكاد يذهل العقل وواحد منهم يواجه أمة بكاملها وقد فعلها عمر رضي الله عنه وفعلها أبو بكر رضي الله عنه فليس من مهمتهم الآن وخلال هذه السنوات المواجهة . ولعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ دفع الكثيرين من أصحابه إلى الحبشة خشية أن يخرج أحد منهم عن طوره . فيغتال بعض قيادات مكة. وتقع الحرب على أساس قبلى، وتضيع العقيدة فى متاهات هذه الحرب ، وتعود البسوس من جديد ، أو داحس والغبراء من جديد . أو حرب الفجار من جديد ،وإن كان ولابد أن تقع فلتكن، وليكن حزب الله بمنأى عنها ، والحزب الهاشمى على استعداد أن يضحى بكل أفراده ذوداً عن سيده محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه .

٩ ـ ولقد حدّثنا سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه عن أجواء الجوع والفاقة فى الشعب . وهو الذى أهرق أول دم فى الإسلام . فقال :

(لقد جعت حتى أنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته وما أدرى ما هو إلى الآن . وفى رواية يونس ـ أن سعداً قال : خرجت ذات يوم لأبول فسمعت قعقعة تحت البول . فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ثم أحرقتها ، ثم رضضتها ، وسففتها بالماء فقويت بها ثلاثاً . وفى الصحيح : أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق السمر حتى أن أحدهم ليضع كما تضع الشاة .

وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئاً من الطعام لعياله ، فيقوم أبو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لايدركوا معكم شيئاً ، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن أن لاخسار عليكم . فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافاً ، حتى يرجع إلى أطفاله ، وهم يتضاغون من الجوع ، وليس فى يديه شىء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبى لهب ، فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ، ومن معهم جوعاً وعرياً . وهذه إحدى الشدائد الثلاث التى دلّ عليها تأويل الغطات الثلاث التى غطه جبريل حين قال له: « اقرأ » ، قال: « ما أنا بقارئ »)(١) .

١٠ ـ وإن كان المرء لا يعجب من ثبات المؤمنين وصبرهم . فهم يفيؤون إلى عقيدة يبتغون بها رضا الله ـ عز وجل ـ ويرجون جنة عرضها السموات والأرض . لكن العجب كل العجب من هؤلاء الرجال البضعة والأربعين من بنى هاشم وأمثالهم من بنى المطلب الذين تقرحت أكبادهم من الجوع ،وأكلوا الخنط وورق السمر ، ورأوا أولادهم يتضاغون من الجوع ، وثبتوا على مبدئهم فى الذود عن محمد ﷺ ، وهو الذى يدعو

---

(١) الروض الأنف للسهيلى م١ ج٢ / ١٢٨ .

إلى غير عقيدتهم ، وهو الذى يسفه أحلامهم ،وينال من آلهتهم .

لكن الخلق العظيم لسيد البشرية ، والسحر العظيم الذى استهوى أفئدتهم به، حتى لاقوا كل ما لاقوه فداءً له ، ليعطينا دلالة واضحة على عظمة هذه الشخصية التى طغت على هذه الشخصيات ، فأذابتهم فيها وهم على غير عقيدتها ، وهم على شركهم وعلى وثنيتهم، كما يدل على مدى تغلغل الأعراف الجاهلية فى نفوسهم ، فهم وراء عميدهم وشيخهم وزعيمهم أبى طالب فى حماية محمدٍ ولو واجهوا قومهم جميعاً حتى آخر رمق من حياتهم .

محاولات القتل الجماعية :

لم يعد بإمكان فرد أن يجرؤ على قتل رسول الله ﷺ ، لكن بعض المحاولات الجماعية قامت ، واستطاع القادة العظام أن يردوها.

١ ـ من ذلك ما حدّث به عثمان بن عفان ــ رضى الله تعالى عنه ــ قال : (كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده فى يد أبى بكر ،وفى الحجر ثلاثة نفر جلوس: عقبة بن أبى معيط ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، فمر رسول الله ﷺ ، فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره ، فعرف ذلك فى وجه النبى ﷺ . فدنوت منه حتى وسطته ـ أى جعلته وسطاً . فكان ﷺ بينى وبين أبى بكر . وأدخل أصابعه فى أصابعى وطفنا جميعاً . فلما حاذاهم قال أبو جهل : والله لا نصالحك ما بلَّ بحر صوفة ، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا . فقال رسول الله ﷺ :« أنا ذلك » ، ثم مشى عنهم فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان الشوط الرابع ناهضوه ، أى قاموا له ﷺ ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه ﷺ ، فدفعت فى صدره ، فوقع على استه، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبى معيط ، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف ، ثم قال : « أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه » ـ أن ينزل عليكم عاجلاً ـ قال عثمان : فو الله ما منهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة .فجعل رسول الله ﷺ يقول:« بئس القوم أنتم لنبيكم » ، ثم انصرف إلى بيته وتبعناه حتى انتهى إلى باب بيته.ثم أقبل علينا بوجهه فقال:« أبشروا فإن الله ـ عز وجل ـ مظهر دينه ، ومتمم كلمته ، وناصر نبيه . إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلاً » ، ثم انصرفنا إلى بيوتنا . فوالله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر)(١) .

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٤٧٢ لعلى بن برهان الدين الحلبى .

٢ ـ وفى البخارى عن عروة بن الزبير ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ ؟ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر ـ رضى الله تعالى عنه ـ فأخذ بمنكبيه ودفعه عن رسول الله ﷺ ،قال : ﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ** ﴾ الآية(١) .

وعنه (أى عبد الله بن عمرو) ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : ما رأيت قريشا أصابت من عداوة أحد ما أصابت من عداوة رسول الله ﷺ ، ولقد حضرتهم يوماً وقد اجتمع ساداتهم وكبراؤهم فى الحجر . فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط ، لقد سفَّه أحلامنا ،وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرَّق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم . فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن، ثم مرَّ طائفاً بالبيت . فلما مرَّ بهم لمزوه ببعض القول فعرفنا ذلك فى وجهه ، ثم مرّ بهم الثانية فلمزوه بمثلها ، فعرفنا ذلك فى وجهه ، ثم مرّ بهم الثالثة فلمزوه ، فوقف عليهم وقال : « أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح » .

فارتعبوا لكلمته ﷺ وما بقى رجل منهم إلا كأنما على رأسه طائر وقع . فصاروا يقولون : انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا ، فانصرف رسول الله ﷺ فلما كان الغد ، اجتمعوا فى الحجر ،وأنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وهم يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ـ يعنى عيب آلهتهم ودينهم ــ فقال : « نعم أنا الذى أقول ذلك » فأخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول: ﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ** ﴾ . فأطلقه الرجل ووقعت الهيبة فى قلوبهم فانصرفوا عنه . فذلك أشد ما رأيتهم نالوا من رسول الله ﷺ (٢) .

وفى رواية :(ألست تقول فى آلهتنا كذا وكذا ؟ قال :« بلى » ، فتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقيل له : أدرك صاحبك . فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله ﷺ والناس مجتمعون عليه ، فقال: ويلكم ﴿ **أَتَقْتُلُونَ**

---

(١) البخارى م٢ ج٢/٥٨ باب ما لقى رسول الله ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ،والآية من سورة غافر: ٢٨.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦ / ١٦ ، وقال فيه : « فى الصحيح طرف منه ،رواه أحمد وقد صرح ابن إسحاق بالسماع ورجاله رجال الصحيح » .

رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ فكفوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبى بكر يضربونه ، قالت ابنته أسماء : فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا أجابه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام) (١) .

وروى البزار وأبو نعيم من رواية محمد بن على ـ بن أبى طالب ـ عن أبيه أنه خطب فقال : من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت . قال : أما أنا ما بارزنى أحد إلا انتصفت منه . ولكنه أبو بكر لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش هذا يجؤه وهذا يتلببه ويقولون : أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً ؟! فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا ويقول : ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ، ثم بكى على، ثم قال : أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر ؟ فسكت القوم فقال على : والله لساعة من أبى بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ؛ ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه (٢) .

وعن أنس بن مالك قال : لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشى عليه ، فقام أبو بكر فجعل ينادى: ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾. فقالوا : من هذا ؟ فقالوا: أبو بكر المجنون(٣) .

٣ ـ وعن فاطمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت : اجتمع مشركو قريش فى الحجر فقالوا : إذا مرّ محمد فليضربه كل واحد منا ضربة ، فسمعتُ فدخلتُ على أبى فذكرت ذلك له ـ أى قالت له وهى تبكى : تركت الملأ من قريش قد تعاقدوا فى الحجر فحلفوا باللات والعزى ومناة وإساف ونائلة إذا هم رأوك يقومون إليك فيضربونك بأسيافهم فيقتلونك . فقال ﷺ : « يا بنية اسكتى » ـ وفى لفظ : « لا تبكِ » ـ ثم خرج ﷺ ـ أى بعد أن توضأ ـ فدخل عليهم المسجد . فرفعوا رؤوسهم ثم نكسوا ، فأخذ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم ، ثم قال : « شاهت الوجوه » . فما أصاب رجلاً منهم إلا قتل ببدر » (٤) .

* * *

لقد أصبح هم قريش كلها منصبا على قتل رسول الله ﷺ ، وفشلت كل المحاولات فى تسليمه من عمه وقومه ، ولم يعد هناك من حل إلا التفكير بالقتل

---

(١) السيرة الحلبية ، لابن برهان الدين الحلبى ١ / ٤٧٣ ، ٤٧٤ . وهو فى مجمع الزوائد ٦ / ١٦ ، وقال فيه: « رواه أبو يعلى وفيه جد الزبير لم أعرفه وبقية رجاله ثقات » .

(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٢٩٢ .

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ٦ / ١٧ ، وقال فيه : « رواه أبو يعلى والبزار ، وزاد فيه : فتركوه وأقبلوا على أبى بكر . ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) السيرة الحلبية ١ / ٤٧٤ .

الجماعى ليضيع دمه فى القبائل . لكن الرجال العظام أبا بكر وعمرو وعثمان وأمثالهم كانوا لهذه المحاولات بالمرصاد .وضمن إطار حماية النبى ﷺ حين يتعرض للخطر ، فهذه من القضايا التى لا تقبل التأخير، أو كف اليد حتى أن الفتى الزبير رضي الله عنه كان أول من سل سيفه لحماية رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ :

فعن هشام ، عن أبيه عروة بن الزبير قال : إن أول رجل سلَّ سيفه فى الله : الزبير بن العوام . نفخة نفخها الشيطان ، أخذ رسول الله . فخرج الزبير يشق الناس بسيفه والنبى ﷺ بأعلى مكة ، قال : « ما لك يا زبير ؟ » .

قال : أخبرت أنك أخذت . قال : فصلى عليه ودعا له ولسيفه [١] .

مراكز جديدة للدعوة فى الأرض العربية :

صحيح أن الدعوة توقفت فى مكة أمام أعنف انتصار حققته قريش على محمد ﷺ، لكن هذه الدعوة مضت تشق الأرض العربية ، بعد مركز الحبشة القوى الذى يمثل كذلك أعظم انتصار فى ذلك الوقت على دولة الكفر . وبرزت هذه المراكز فى محاور ثلاثة :

أ ـ وفد النصارى الذين أسلموا :

قال ابن إسحاق :(ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه فى المسجد . فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة . فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله ــ عز وجل ، وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ــ فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال. ما نعلم ركباً أحمق منكم ــ أو كما قالوا ــ فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم،لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه،لم نأل أنفسنا خيرا .

ويقال :إن النفر من النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم أى ذلك كان .

فيقال ـ والله أعلم ـ : فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم**

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ، وقال المحقق عنه : مرسل صحيح ، وأخرجه أبو نعيم وعبد الرزاق والحاكم ح ١٢٦٦ ص ٧٣٥ .

به يُؤْمنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا به إِنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا من قَبْله مُسْلمينَ . أُوْلَئكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ . وَإِذَا سَمعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾(١))(٢) .

* * *

والملاحظ أن هذا أكبر تجمع يدخل الإسلام منذ البعثة ، بينما كان الإيمان فرديا من قبل وبعد كذلك . وهذا انتصار للدعوة ،وقرة عين للمؤمنين ،والتجمع الإسلامى فى مكة والحبشة .

فيزداد الذين آمنوا إيمانا .

إن أى انتصار للدعوة ، وخاصة من أهل الكتاب من النصارى ومن علمائهم ، يرفع الثقة عالية بالمستقبل لهذا الدين من هذه الأعداد المتناثرة من حزب الله بين مكة والحبشة ،فى وقت تبلغ المحنة ذروتها أثناء الحصار الشامل من الكفر فى الأرض .

ب ـ الطفيل بن عمرو الدوسى :

روى ابن سعد عن أبى عون الدوسى ، والبيهقى عن ابن إسحاق وابن جرير وأبو الفرج الأموى عن العباس بن هشام عن أبيه : (أن الطفيل بن عمرو حدّث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيبا . فقالوا له :

يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وفرَّق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرّق بين المرء وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمع منه .

قال :فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه،وحتى حشوت فى أُذُنى حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفاً (٣) فرقاً (٤) من أن يبلغنى شىء من قوله.

فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة، فقمت قريباً منه ، فأبى الله تعالى إلا أن يسمعنى بعض قوله . فسمعت كلاماً حسناً فقلت فى نفسى : إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىَّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى من أن أسمع من هذا

(١) القصص / ٥٢ ـ ٥٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) كرْسُفاً : قُطناً .
(٤) فرقاً : خوفاً .

الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلت ، وإن كان قبيحاً تركت ! فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ فتبعته فقلت : إن قومك قد قالوا كذا وكذا وإنى شاعر فاسمع ما أقول . فقال النبى ﷺ : « هات » . فأنشدته ، فقال رسول الله ﷺ :« وأنا أقول فاسمع » . ثم قرأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها (١) ،و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ إلى آخرها (٢) ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ إلى آخرها (٣) ، وعرض علىّ الإسلام . فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وقلت : يا نبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى . وإنى راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم. فقال : « اللهم اجعل له آية » .

فخرجت إلى قومى فى ليلة مطيرة ظلماء حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر ، وقع نور بين عينى مثل المصباح . فقلت : اللهم فى غير وجهى إنى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى . فتحول فوقع فى رأس سوطى كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط عليهم من الثَّنية حتى جئتهم ، فلما نزلت أتانى أبى فقلت : إليك عنى يا أبت فلستُ منك ولست منى . فقال : لم يا بنى ؟ قال : قد أسلمت وتابعت دين محمد . قال : أى بنى ! فدينى دينك . فقلت : فاغتسل وطهر ثيابك ففعل ثم جاء ، فعرضت عليه الإسلام فأسلم ، ثم أتتنى صاحبتى فقلت: إليك عنى فلست منك ولست منى. قالت : ولِم بأبى أنت وأمى ؟ قلت : فرَّق بينى وبينك الإسلام وتابعتُ دين محمد . قالت : فدينى دينك . فقلت : اذهبى فتطهرى ، ففعلت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت ، ولم تسلمْ أمى . ثم دعوت دوساً فأبطؤوا علىّ ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبى الله إنه قد غلبنى على دوس الزنا فادع الله عليهم . فقال : « اللهم اهد دوساً وائت بهم ، ارجع إلى قومك وارفق بهم » .

فرجعت فلم أزل بأرض قومى أدعوهم حتى هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق، فقدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم ، ورسول الله ﷺ بخيبر ، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحقنا رسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين .

وقال الطفيل لما أسلم :

---

(١) سورة الإخلاص . (٢) سورة الفلق .

(٣) سورة الناس .

ألا بلـــغ لديـك بنــي لــؤى | على الشنآن والغضب المردِّى
بــأن الله رب النـاس فـــرد | تعالى جدُّه عــن كل نــدٍّ
وأن محمـــداً عبـــد رســـول | دليـل هـدى وموضح كل رشد
رأيـت لـه دلائـــل أنبأتنــــى | بأن سبيلـه يهـدى لقصــد
وأن الله جلّلـــه بهـــــاءً | وأعلى جـدَّه فـى كـل جَـدِّ
وقالـت لـى قريـش عـدِّ عنـه | فـإن مقالـه كالعـرِّ [1] يعـدى
فلمـا أن أملـت إليه سمعــى | سمعـت مقالـه كمشور شهـد[2]
وألهمنــى هدايـــا الله عنـــه | وبـدَّل طالعى نحسى بسعـدى
ففـــزت بمـا حبـاه الله قلبـــى | وفـاز محمـد بصفـاء ودى [3]

* * *

ولا شك أن شعر الطفيل قد غزا قريشاً ،وأقلقها هذا المركز الإسلامى الجديد فى دوس ، وأن محاولاتها فى صرف سيد دوس عن الإسلام قد باءت بالفشل . ولكنها مع ذلك لا تفكر إلا بنظرها القاصر ، فهى منتفشة بنصرها فى المقاطعة. آملة أن تنتهى بإبادة بنى هاشم حتى يموتوا جوعاً وعطشاً أو تسليم محمد لقتله ، وإراحة مكة منه . وما تنتهى ضربة على الرأس حتى تأتيها الضربة الثانية فهذا ضماد الأزدى يقدم وافداً لمكة باحثاً عن محمد ﷺ .

جـ ـ ضماد الأزدى :

عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أن ضماداً قدم مكة وهو من أزد شنوءة. وكان يرقى من الريح ـ ولعل المراد به اللمة من الجن ـ فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمداً مجنون . فقال : لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى . قال : فأتيته فقلت : يا محمد ، إنى أرقى من الريح ، فإن الله يشفى على يدى من يشاء فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » ، فقال ضماد : أعد علىَّ كلماتك هؤلاء ، فأعادهن رسول الله ﷺ ثلاث مرات .فقال : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ،وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك

---

(١) العر : الجرب .

(٢) مشور شهد : كالشجر الذى يؤخذ منه العسل ، وأرض ماشرة : اهتز نباتها .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢ / ٥٤٨ ـ ٥٥٠ .

هؤلاء . هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه . وقال له رسول الله ﷺ : « وعلى قومك ؟ » .

قال : وعلى قومي[1] .

* * *

لقد كان هذا القرآن حين يلامس أوتار البشرية ، ويمس الفطرة الإنسانية ، سرعان ما يتفاعل مع هذه القلوب ويلبى هذه الفطرة ويتعامل مع الكينونة الإنسانية كلها ، فتهتز ذرات الكيان الإنسانى من جراء سماعه ، وتعود فتترتب ترتيباً جديداً فى بوتقة الإيمان العظيم ، وكذلك كلام سيد الخلق محمد ﷺ. وهاتان تجربتان رأيناهما للطفيل الدوسى وضماد الأزدى . وكل واحد منهما جاء معبأ بفكرة محددة . فأحدهما حشا أذنيه كرسفاً خوفاً من سحر محمد ﷺ ، وثانيهما جاء ليرقى محمداً من لمة الجن ، أو أثر الجنون ، وإذا بالقرآن يتلى، وبالمصطفى ينطق ، فيزيح هذا الركام الهش كله ، ويلامس أوتار القلوب ، فتنتفض حية بالإيمان ، وليس للطفيل أو لضماد مصلحة تذكر عند محمد ﷺ ، أو خوف على مركز اجتماعى أو تناطح على سلطة ، أو تنازع على زعامة . فسرعان ما تجاوبا وانقلبا دعاة فى قومهما إلى الله ورسوله . وكم كان هذا الصف المؤمن تتفجر فى قلبه ينابيع الإيمان ، ومصابيح الهدى وهو يعيش مع القرآن الكريم ، وسيد الخلق العظيم كل يوم ، فيبنى بناءً لا مثيل له فى هذا الوجود .

هذا ونعيد إلى الذاكرة مراكز القوى الإسلامية السابقة التى شهدناها مع أبى ذر الغفارى الذى مضى إلى غفار حسب التوجيهات النبوية،وأبى موسى الأشعرى. الذى ترجح الروايات أنه أسلم ابتداءً،ثم مضى إلى قومه الأشعريين ثم انضم إلى جعفر وأصحابه وهم عائدون إلى المدينة. وقد قدم مع وفد الأشعريين،الذين انضموا لهذا الدين .

وأصبح فى الشمال والجنوب بالنسبة لمكة بؤر خطر ، ومناطق نفوذ لمحمد ﷺ تجعل قريش فى توتر مستمر .

هزيمة جديدة لأبى جهل :

وبعد هذه الانتصارات والفتوح للدعوة فى جوانب الجزيرة العربية ، شاءت إرادة الله ـ عز وجل ـ أن يلقى أبو جهل والذى يسمونه : سيد البطحاء قسطاً وافياً من الذل على يدى رسول الله ﷺ مباشرة . يزعزع مركزه ، ويمرغ كبرياءه .

قال ابن إسحاق :(حدثنى عبد الملك بن أبى سفيان الثقفى ـ وكان واعية ـ قال :

---

(١) السيرة الحلبية لابن برهان الدين ٢ / ٣٩ .

قدِم رجل من إراش بإبل له فابتاعها منه أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها ، فأقبل حتى وقف على نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى ناحية المسجد . فقال :

يا معشر قريش ، من رجل يعيننى على أبى الحكم بن هشام ، فإنى غريب وابن سبيل وقد غلبنى على حقى ، فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل - لرسول الله ﷺ يهزؤون به ؛ لما يعلمون بينه وبين رسول الله ﷺ من العداوة - اذهب إليه فهو يعينك عليه .

فأقبل الإراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ فذكر له ذلك . فقام معه . فلما قام معه ،قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع . وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه ،فضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : « محمد فاخرج إلىَّ» فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة ، لقد انتقع لونه ، فقال : « اعط هذا حقه ». قال : نعم لا تبرح حتى أعطيه الذى له . فدخل ثم خرج إليه بحقه فدفعه إليه . فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لى بحقى . وجاء الرجل الذى بعثوا معه فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟ قال : رأيت عجباً من العجب ! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه فقال : « اعط هذا حقه » قال : نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه . فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه . ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء فقالوا : ويلك ما لك ؟ والله ما رأينا مثلما صنعته قط . قال : ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابى فسمعت صوته فملئت رعباً ،ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لاكلنى) (١) .

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن يزيد بن رومان ، وأبو نعيم عن أبى يزيد المدنى وأبى فرعة الباهلى :

(أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس فى المسجد معه رجال من أصحابه إذ أقبل رجل من زبيد يقول : (يا معشر قريش ، كيف تدخل عليكم المادة (٢)،أو يجلب إليكم جلب ، أو يحل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم فى حرمكم ؟) يقف على الحلق حلقة حلقة . حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فى أصحابه . فقال له رسول الله ﷺ :« ومن ظلمك ؟ » فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خير إبله ،فسامه أبو جهل ثلث أثمانها ، ثم لم يَسُمْهُ بها لأجل أبى جهل أحد شيئاً ، ثم قال: فأكسد علىَّ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٣ ، ٣٤ .   (٢) المادة : السلع والتجارات .

سلعتى وظلمنى. قال رسول الله ﷺ : « وأين جمالك؟ » قال : هى هذه بالحزورة[1]. فقام رسول ﷺ وقام أصحابه فنظر إلى الجمال فرأى جمالاً فرها [2] ، فساوم الزبيدى حتى ألحقه برضاه . فأخذها رسول الله ﷺ فباع جملين منها بالثمن ، وأفضل بعيراً باعه ، وأعطى أرامل بنى عبد المطلب ثمنه ، وأبو جهل جالس فى ناحية السوق لا يتكلم . ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال : « يا عمرو ، إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابى فترى منى ما تكره ». فجعل يقول : لا أعود يا محمد . لا أعود يا محمد ، فانصرف رسول الله ﷺ ، وأقبل أمية بن خلف ومن حضر فقالوا : ذللت فى يدى محمد فإما أن تكون تريد أن تتبعه وإما رعب دخلك منه . فقال : لا أتبعه أبدا. إن الذى رأيت منى لما رأيت معه . قد رأيت رجالاً عن يمينه وشماله معهم رماح يشرعونها [3] إلىَّ لو خالفته لكانت إياها . أى لأتوا على نفسى) [4] .

* * *

لقد شاءت الإرادة الربانية أن تهز ذلك الطاغوت المتعجرف بمعجزة يراها بعينه كما رأى مثلها من قبل يوم يبست يده على الحجر . وأن يكون هذا الدرس علانية كذلك . وعلى أعين الملأ من قريش . فيخرج ليلقى رسول الله ﷺ وما معه روحه من الرعب والخوف، ويسرع فى التوِّ فينفذ أمر محمد ﷺ . والمؤمنون الصابرون الصامدون والهاشميون الأفذاذ . يعانون أشد أنواع المعاناة . منه ومن كيده وحقده ،حتى يفنى هذا البطن من بنى عبد مناف كله . وكم هو الأثر المعنوى العظيم فى الصف المؤمن والصف الهاشمى لهذه الحادثة . إنها لتحيى قلوبهم ، وتنعش أرواحهم ، وتشمخ بأنوفهم ، أنهم على الحق، وأن محمداً ﷺ هو الأكرم ، وهو الأعز ،وهو الأعلى من سيد البطحاء. ويقابل هذا الموقف كذلك . تلك الخلخلة فى الصف المكى،والاضطراب فى المواقف ،والصغار لسيد البطحاء فى نفوس صف قريش . لقد كان هذا الموقف النبوى العظيم أكبر أثراً بكثير من أن توظف القضية للنيل من حزب قريش الذى يحارب المسلمين . وفضح مطله فى مجتمع لا يخضع إلا للقوة ، وفى مجتمع يحكم فيه الملأ الضعاف والشرفاء ، إن الموقف العملى فى استرداد الحق واستعلائه أجدى ألف مرة من خطب عصماء فيه .

صرع بطل قريش ركانة المطلبى :

وحتى يشهد الجيل المؤمن الصابر المصابر من هو قائده ، ويشهد الشرك وجحافله

---

(١) الحَزْوَرَة : مكان معروف بمكة . (٢) فرهاً : جيدة .

(٣) يشرعونها : يميلونها . (٤) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢ / ٥٥٢ .

من البطل الذى يقارعه ،كان هذا الحدث الضخم الذى تجاوبت به جنبات مكة كذلك .

قال ابن إسحاق :(وحدثنى أبى إسحاق بن يسار قال :

كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف أشد قريش . فخلا يوماً برسول الله ﷺ فى بعض شعاب مكة . فقال له رسول الله ﷺ : « يا ركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ » قال : إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك . فقال له رسول الله ﷺ : « أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ » قال : نعم . قال : « فقم حتى أصارعك » . فقام إليه ركانة يصارعه . فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئاً . ثم قال : عد يا محمد. فعاد فصرعه . فقال : يا محمد والله إن هذا للعجب أتصرعنى؟! فقال رسول ﷺ : « وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمرى » . قال : ما هو ؟ قال : « أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى » قال : ادعها . فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يدى رسول الله ﷺ . فقال لها : « ارجعى إلى مكانك » قال : فرجعت إلى مكانها .

قال : فذهب ركانة إلى قومه فقال : يا بنى عبد مناف ، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض . فوالله ما رأيت أسحر منه قط ثم أخبرهم بالذى رأى والذى صنع)[1] .

وركانة عندما يتكلم لا يُشك فيه فما تحداه أحدٌ إلا صرعه ، وحين يخبر قريشاً كيف أن رسول الله ﷺ صرعه مرتين ، ودعا الشجرة إليه . ثم عادت . وكونه لم يسلم كذلك .كلها عوامل لا تدع مجالاً للشك فى صحة قوله ؛ لأنه أسلم فى الفتح وأطعمه رسول الله ﷺ خمسين وسقا . والدلالة الكبرى لهذا الحديث هى أن تصفع قريشاً بأن صبر محمد وصحبه ليس ناجماً عن ضعف أو خور . إنما هو صبر الرجال الأشداء الذين يواجهون الفكر بالفكر ، وأن الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ هى الهدف الرئيسى لهم ، وليس الصراع على السلطان ، وإثبات القوة ، وعرض العضلات ،ولو كان هذا الأمر ؛ لرأوا فى صغار سيدهم أبى جهل ، وصرع مصارعهم ركانة ما يقنعهم بحقيقة القوة الربانية التى تسند الأمين وصحبه .

هذه السنوات الثلاث على ما حوت من محن ، وما حملت من حرب وابتلاءات

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٥ ، ٣٦ ، وقال المحقق فيه : رواه أبو داود فى كتاب الأدب . والترمذى فى كتاب اللباس ،وقال : « هذا حديث حسن غريب ». ورواه البيهقى فى الدلائل والسنن ، ورواه الحاكم فى المستدرك ، وعبد الرزاق فى المصنف ، وذكره ابن القيم فى الفروسية ، وهذا سنده : حدثنا إبراهيم ابن على المقرى ، عن حماد ، عن عمرو بن دينار ،عن سعيد بن جبير عن ابن يحيى فذكره . قال ابن القيم : هذا إسناد جيد متصل . وبه يكون الحديث حسناً بطرقه .

للصف المؤمن وحليفه من بنى هاشم وبنى المطلب ، قد أبرزت مجموعة مبادئ ومنطلقات ووقائع كانت كلها لصالح الجيل الرائد :

أولا : أثبتت بصورة قاطعة أن حب قوم محمد لمحمد ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ،حب لم يشهد العرب له مثيلاً . فقد صبروا على الجوع والشظف والعطش، وصبروا على كساد تجارتهم وأكلوا ورق الشجر ولم يتخلوا عن عميدهم وعظيمهم محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه .

ثانيا : تأكد لدى الصف المشرك أن هذه الضغوط ،وهذه المحاصرة . عاجزة عن تحقيق الهدف الرئيسى منها وهى تسليم محمد ﷺ لقتله ؛ بل زادت قوم محمد تعلقاً وحباً و تلاحماً مع سيدهم وزعيمهم ، وأنهم مستعدون فعلاً لخوض معركة تفنيهم عن آخرهم دون أن يتنازلوا عن قلامة ظفر من محمد ﷺ لقريش.

ثالثا : بدأ الجو المكى يحس بخطأ قراره ، خصوصاً أولئك الذين لهم أرحام ووشائج مع بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وأنهم قد استجروا لحرب يستغلها أبو جهل وأمثاله، وأنهم يشاركون قريشاً فى قتل بطنين عظيمين من بنى عبد مناف هما أشرف بطونها ، وسادة قبائلها ، وكانت هذه الصورة هى التى هيأت المجال لذلك الانقلاب الداخلى فى مكة ، وإلغاء الصحيفة القاطعة الظالمة .

رابعا : أثبتت عظمة الصف المؤمن فى التزامه بأوامر قائده ،وبعده عن التصرفات الطائشة . فلم يكن هناك شىء أسهل من اغتيال أبى جهل ، وإشعال معركة غير مدروسة لا يعلم إلا الله مداها ، وغير متكافئة ، تضيع فيها العقيدة ، وتتحول إلى حرب قبلية داخلية ، تفنى فيها قريش ؛ بسبب دعوة محمد ﷺ . فتنسى الدعوة وتحمل الأجيال صورة متشائمة عن هذا الرجل الذى جاء بدعوة أفنت قريشاً ، وقضت على رجالاتها وشبابها . فالتميز لم يتم بعد على أساس الإيمان والكفر إنما هو تميز تختلط فيه العصبية القبلية بالعقيدة والإيمان .

خامسا : وتلك الانتصارات التى تمت فى الحبشة، وفى نجران، وفى أزد شنوءة،وفى دوس ،وفى الأشعريين وفى الغفاريين . كانت تتم فى خط واضح . يكون سنداً للإسلام والمسلمين . ومراكز قوى يمكن أن تتحرك فى اللحظة الحاسمة وامتدادات للدعوة . تتجاوز حدود مكة الصلدة المستعصية .

سادسا : وكانت هذه السنوات الثلاث للجيل الرائد زاداً عظيماً فى البناء والتربية،حيث ساهم بعضه فى تحمل آلام الجوع والخوف ، والصبر على الابتلاء ، وضبط الأعصاب ، والضغط على النفوس والقلوب ،ولجم العواطف عن الانفجار ،

كما ساهم بعضه الآخر ، فى تلقى آلام الغربة عن الأرض والأهل، وأعظم آلام هذه الغربة هى فراق الحبيب المصطفى ﷺ والبعد عنه ، وفقدان هذه الصحبة التى لا تعادلها كنوز الأرض ، ولكنها فى سبيل الله ،وكما يقول ابن سعد :

(لما قدم أصحاب النبى ﷺ مكة من الهجرة الأولى ، اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديداً .فأذن لهم رسول الله ﷺ فى الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية . فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة ،ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ونالوهم بالأذى ، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره لهم ،فقال عثمان بن عفان : يا رسول الله ، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا : فقال رسول الله ﷺ : « أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإلىّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً» : قال عثمان : فحسبنا يا رسول الله) (١) .

لقد استطاعت هذه القيادات أن تمارس مسؤولياتها فى حياة النبى ﷺ ،وتتمرس بشؤون الحكم والإدارة ،وتشارك فى القرار بالمناقشة والمشورة ، وتتدرب على المواقف والتعامل مع العدو اللدود ، والصديق القريب ، وتتعلم من قائدها ـ عليه الصلاة والسلام ، كيفية التعامل مع النوازل والحوادث،وكيف تضع لكل موقف الحلول المناسبة له ، والبدائل الممكنة ، وتقدم الأولويات الكبرى فى البناء والتربية ، وتبليغ الدعوة على مواقف العنف والانفعال والغضب الذى يفقد الصف الإسلامى زمام المبادرة ، ويحطم كل مؤامرات العدو فى الزج بالصف المسلم فى معركة غير متكافئة ، كما تعلمت كيف يكون الثبات على المبدأ ، والوضوح فى العقيدة ، بحيث لا تختلط المواقف الثابتة بالحلول المؤقتة .

إن كل لحظة يعيشها الصف المؤمن مع قائده ــ عليه الصلاة والسلام ــ تعطيه درساً، وتبنى به عظمة ، وتعده لريادة البشرية فيما بعد .

سابعاً : ونقول كذلك : إن كثيراً من الشخصيات فى الصف المشرك كانت تُبنى فى داخلها بالتربية النبوية ، وتتأثر بعظمة هذه الشخصية ، وتتفاعل فى أعماقها مع المبادئ التى يقدمها الدين الجديد ،لكن سيطرة الملأ،وسطوة الكبراء كانت تحول دون إبراز هذا التفاعل وهذا الحب وهذه التربية .وختام قصة الصحيفة تقدم لنا أجلى بيان عن ذلك .

نقض الصحيفة الظالمة والانقلاب الداخلى :

قال ابن إسحاق وغيره :(وبعث الله تعالى على صحيفتهم الأرضة فأكلت أو

---

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٢٠٧ ط . بيروت .

لحست ما فى الصحيفة من عهد وميثاق ، وفى رواية أنها لم تترك فى الصحيفة اسماً لله إلا لحسته ،وأبقت ما كان من شرك أو ظلم أو قطيعة وأطلع الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله على ذلك فذكره رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب . فقال عمه أبو طالب : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : « نعم » ، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ـ وفى رواية قال : لا والثواقب ما كذبتنى قط .

فانطلق بعصابة من بنى هاشم وبنى المطلب حتى أتوا المسجد وهم خائفون لقريش، فلما رأتهم قريش فى جماعة أنكروا ذلك، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليُسلموا رسول الله ﷺ برمته إلى قريش . فتكلم أبو طالب فقال : جرت أمور بيننا وبينكم لم نذكرها لكم . فأتوا بصحيفتكم التى فيها مواثيقكم فلعلَّه أن يكون بيننا وبينكم صلح ، وإنما قال ذلك أبو طالب خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها . فأتوا بصحيفتهم مجمعين لا يشكون أن رسول الله ﷺ يدفع إليهم فوضعوها بينهم ، وقالوا لأبى طالب : قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم .

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم فى أمر هو نَصَفٌ بيننا وبينكم: إن ابن أخى أخبرنى ، ولم يكذبنى أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله تعالى عليها دابة فأبقت اسم الله وأكلت غدركم وتظاهركم علينا بالظلم ـ وفى رواية : فلم تترك اسماً لله تعالى إلا لحسته وتركت غدركم وتظاهركم علينا بالظلم . فإن كان كما يقال فلا والله لا نسلمهُ حتى نموت من عند آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم . فقالوا : قد رضينا بالذى تقول. ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر بخبرها قبل أن تفتح .

فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبوطالب عن رسول الله ﷺ قالوا : هذا سحر ابن أخيك وزادهم ذلك بغيا وعدوانا . فقال أولئك النفر من بنى هاشم وبنى المطلب : إن أولانا بالكذب والسحر غيرنا . فإنا نعلم أن الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر .

وقال أبو طالب : علام نحصر ونحبس وقد بان الأمر وتبين أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة ، ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة فقال : اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا . ثم انصرفوا إلى الشعب) [1] .

قال ابن إسحاق :(وبنو هاشم وبنو المطلب فى منزلهم الذى تعاقدت فيه قريش

---

(١) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى ١ / ٣٣٧ عن موسى بن عقبة ، وفى السيرة لابن إسحاق رواية يونس مثله / ١٦٢ .

عليهم فى الصحيفة التى كتبوها ،ثم إنه قام فى نقض تلك الصحيفة التى تكاتبت فيها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب نفر من قريش ، ولم يُبْل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة بن عامر بن لؤى ،وذلك أنه كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، فكان هشام لبنى هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف فى قومه . فكان فيما بلغنى يأتى بالبعير وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب ليلاً قد أوقره طعاماً ، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم ثم يأتى به قد أوقره بزا فيفعل به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبى أمية بن المغيرة .. وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب. فقال : يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب ، وتنكح النساء، وأخوالك من بنى هاشم حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ أما إنى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً قال : ويحك يا هشام ! فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى أنقضها . قال : قد وجدت رجلاً . قال : فمن هو؟ قال : أنا .قال زهير : ابغنا رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف فقال له : يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً . قال: ويحك ! فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ؟ قال : قد وجدت ثانياً . قال: من هو ؟ قال : أنا .قال : ابغنا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، قال : ابغنا رابعاً . فذهب إلى أبى البخترى بن هشام فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدى . فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك . قال : ابغنا خامساً .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم. فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم . ثم سمّى له القوم .

فاتعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة ، فاجتمعوا هناك ، فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها ،وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبى أمية عليه حُلة ، فطاف بالبيت سبعاً ،ثم أقبل على الناس فقال :

يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لايباع ولا يبتاع

منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبوجهل وكان فى ناحية المسجد : كذبت والله لاتشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت . قال أبوالبخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرُّ به قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها ، قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، تُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان. قال وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم ،قال ابن إسحاق : فلما مزقت الصحيفة وبطل ما فيها . قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئك النفر الذين قاموا فى نقضها يمدحهم :

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود[1]
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت ... وأنْ كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها إفك وسحر مجمع ... ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد
جزى الله رهطاً بالحجون تبايعوا ... على ملأ يهدى لحزم ويرشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم ... مقاولة[2] بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا ما مشى فى رفرف الدرع أحرد[3]
جرى على جُلَّى الخطوب[4] كأنه ... شهاب بكفى قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤى بن غالب ... إذا سيم[5] خسفاً [6]وجهه يتربد[7]
طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه يُسقى الغمام ويُسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد ... يحض على مقرى الضيوف ويحشد
قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رُقد
همُ رجعوا سهل ابن بيضاء راضيا ... وسر أبو بكر بها ومحمد) [8]

* * *

لا نجد للصف المسلم فى قضية الصحيفة ابتداءً وانتهاء أى دور . فالذى يملكونه

---

(١) أرود : أرفق . والبحرى فى هذا البيت هم المهاجرون إلى الحبشة من المسلمين .
(٢) المقاولة : الملوك .
(٣) أحرد : بطيء المشى لثقل الدرع عليه ، رفرف الدرع : ما فضل منه .
(٤) جلى الخطوب : الأمر العظيم منها . (٥) سيم : كلف .
(٦) خسفاً : ظلماً وذلاً . (٧) يتربد : يتغير إلى السواد .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٦ ـ ٢٣ وقد أخذنا بعض أبيات القصيدة ولم نأخذها كلها .

هو الصبر والمصابرة فى هذه المحنة ، إنما كان الدور ابتداءً وانتهاء هو للحزب الهاشمى أولاً . ثم للشخصيات القرشية المشركة ثانياً،ولكنا نرى الإرادة الربانية تحف بهذا الصف وتحوطه،وتقدم له مكاسب جديدة كل يوم،فقصة الدابة التى أكلت الظلم والقطيعة من الصحيفة،ورغم علم الله ـ عز وجل ـ أنها لن تغير فى واقع الكفار والمشركين لكنها جاءت مرحلة على الطريق؛ ليزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الحزب الهاشمى فى صحة موقفه . فأبو طالب سيد بنى هاشم يثق بصدق ابن أخيه ثقة مطلقة ليس فيها أدنى ذرة من الريب،ووراءه أفراد الحزب على تفاوت فى هذه الثقة،ويكفيه فقط أن يقول له ابن أخيه محمد : إن الأرضة قد أكلت من الصحيفة ما أكلت،حتى ليقسم :

لا والثواقب ما كذبنى قط ، أو ما كذب ابن أخى قط .

وليس ثقة بشخص ابن أخيه؛ بل ثقة بأنه يوحى إليه ، وذلك عندما سأله: أربك أخبرك بهذا ؟قال: «نعم»،وتعامل مع العدو بهذه الثقة هو وقادة الحزب،فيمضى مع عصابة من بنى هاشم وبنى المطلب ليواجهوا قريشاً بهذه الحقيقة،وقريش ترى فى هذا القدوم الانتصار الأعلى، فلا شك عندها أن هؤلاء ما قدموا إلا لتسليم محمد ﷺ لهم.

ويعجب المرء من قول أبى طالب لقريش :

إن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى ، أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله عليها دابة فأبقت اسم الله وأكلت غدركم وظلمكم وتظاهركم علينا ، فإن كان كما يقال. فلا والله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم .

فهو قول امرئ واثق بصحة قول ابن أخيه وصدقه ، وتنزل الوحى عليه هو ومن معه ، وإلا لما عرض ابن أخيه للموت والقتل حين عرض هذا العرض الضخم ، والذى يخسره القضية كلها .

وليس عدم إيمان أبى طالب وأمثاله من المجتمع المكى، تكذيباً لرسول الله ﷺ . ولكنه إصرار على تأليه العادات والأعراف الجاهلية ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾ (١).

ولكن وجود الموقفين المتباينين فى الحزب المشرك ،هو أن بعضه يرى فى انتصار محمد انتصاراً له ، وبعضه يرى فى انتصار محمد هزيمة له، وزعزعة لزعامته وقيادته .

---

(١) الزخرف / ٢٣ .

وهو الحزب الذى يقوده أبو جهل وأتباعه ، وننظر للقضية من زاوية أخرى وهى أن ثبات صحة القول النبوى فى أنحاء مكة قد عزَّز الموقف لبنى هاشم وبنى المطلب وزادوا إصراراً على حماية محمد ﷺ حتى آخر قطرة من دمهم ، ورغم أنه دفع قريشاً للتصلب أكثر ، لكن موقفها تبدى هزيلاً وسخيفاً ، وظلمها توضح بشعاً وبغياً . فتخلخل المجتمع المكى لهذا الموقف ، وكان الانقلاب الذى قاد لنقض الصحيفة .ولكنه كذلك بنى فى أعماق كل قرشى سواءً آمن أم لم يؤمن بأن محمداً صادق لا ريب فى صدقه ولا شك .وأنه يوحى إليه .

لكن عملية الإقدام على الإسلام عملية ضخمة لها تكاليفها الباهظة ولها نتائجها الرهيبة . فقد تكلف المقدم على الإسلام حياته ودمه وتقضى على مركزه وتجارته ، فما له وهذه المهامة الصعبة .

إن الإسلام قد انتصر من خلال هذه الحادثة ، ولو لم يسلم أحد من أهل مكة . وازداد المؤمنون إيماناً بربهم وبصدق نبيهم ، فارتفعت الشحنات فى قلوبهم وتزودوا أكثر وأكثر بهذا السلاح العظيم الذى يفلُّ كل أسلحة الأرض ، وارتبطوا بنبيهم ارتباط مصير وحياة أو موت .

ولكن من الناحية الحركية فهم ينتظرون الأمر من قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى المواجهة . فقد كظموا انفعالاتهم وضبطوا أعصابهم ، وهذه فرصة جديدة . تدفعهم ليواجهوا هذا البغى والظلم بالقوة،لكن القيادة النبوية الحكيمة المرتبطة بالوحى الربانى. لم تأذن بذلك بعد ، وتدع لهذا الحزب الحليف أن يقوم بدور أو حركة ما لفك هذا الحصار ، ولا تزال هذه القلة المحبوسة المعدة لتقود الأرض كلها تتلقى التربية اليومية المستمرة من رسول الله ﷺ ، وتتمكن من الصلاة بالكعبة التى أصبحت أمراً واقعاً مفروضاً على قريش. بعد إسلام الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه رغم قلة عدد المسلمين المتبقين فى مكة ، ولن يتراجع المسلمون عن هذا الموقع،وهذا المكسب . فعمر يده على سيفه فى كل لحظة لكل من تسول له نفسه أن يحول دون حرية العبادة لحزب الله ــ عز وجل ــ فى بيت الله الحرام أو غيره ، وقد خاض وحده معركة غير متكافئة مع قريش كلها . بعد إسلامه ، ثم فرض هذا النصر مع كتيبة الإسلام يوم تحرك بها مع رسول الله ﷺ إلى الكعبة،وأدوا عبادتهم هناك ،وعجز الصف المشرك عن المواجهة .

وأرى ـ والله أعلم ـ أن مدرسة دار الأرقم قد انتهى دورها بعد الحصار حين انتقل المركز إلى شعب أبى طالب ، وأصبحت القيادة والتربية هناك ، وانتقل المركز الآخر إلى الحبشة ،وعلى رأسه شبيه رسول الله ﷺ خلقاً وخُلُقا جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه .

وحاكم الشعب أبو طالب ، وحاكم الحبشة النجاشى ، وابن أبى طالب أمير المؤمنين فى الحبشة ، وسيد الخلق ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ أمير المؤمنين فى شعب أبى طالب .

* * *

ثم كان الانقلاب الضخم الذى قاده خمسة من أبطال مكة ، كما وصفهم أبو طالب .

كان أولهم هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى ، وهو سيد فى قومه ، لكن بنى عامر بن لؤى ،أدنى شرفاً من بنى كعب بن لؤى فهو بشخصه عاجز عن أى تغيير ، وواضح أن أبعد مدىً وصل إليه فى التعاون مع أخواله لأمه بنى هاشم هو أن يفك الحصار بشخصه ويبعث بالطعام واللباس للمسلمين والمشركين فى الشعب .

لكن هذا لا يكفى ، والمحاولات الفردية أثرها ضعيف ، ومن ناحية أخرى فقد تمنع بالقوة ؛لأن القانون الذى عُلِّق بالكعبة بإجماع مكة لا يبيح ذلك، ولابد من السعى لإلغاء هذا القانون بالقوة . فاختار سنده الثانى من بنى مخزوم عشيرة أبى جهل ، فأخواله بنو هاشم وبنو المطلب وأمه عاتكة بنت عبد المطلب ، وهو زهير بن أبى أمية ، وحرك فيه وتران رئيسان . أولهما : وتر القرابة والرحم ، وثانيهما : وتر النيل من طغيان أبى جهل ابن عمه الذى يقود هذا الحصار ، وليس بنو هاشم أخواله ولو كانوا كذلك ما فعل ما فعل . فإذا به يرى تجاوباً فى أعماقه ، لكنه الخوف من المواجهة هو الذى يحول بينه وبين إعلان موقفه فأفهمه هشام أنه معه ، ولا ننسى أن زهير بن أبى أمية هو أخو عبد الله بن أبى أمية ،الذى وقف أسوأ موقف من ابن خاله محمد ﷺ وقال له : والله لن أؤمن بك حتى ترقى إلى السماء وأنا أنظر إليك ثم تدخل فيها ، وتأتى ومعك كتاب ومعك أربعة من الملائكة ويشهدون أن هذا من عند الله ، ومع هذا ما أظن أنى أصدقك . ويكاد يكون موقف الأخوين ينطبق على موقف أبى طالب وأبى لهب . فأبو لهب عـم رسول الله ﷺ يغلى حقداً على ابن أخيه محمد ﷺ كموقف عبد الله هذا ، وموقف أبى طالب يتأجج اندفاعاً وحبا وذوداً عن محمد ﷺ كموقف زهير هذا الذى أعلن تجاوبه مع هشام للمواجهة ، ودل هذا على ذكاء هشام حين اختار أول أنصاره من قلب العدو وعينه من بنى مخزوم .

وكان الرجل الثالث المطعم بن عدى وهو سيد بنى نوفل من بنى عبد مناف، وهو الذى بلغه تقريع أبى طالب ، ولم يجرؤ أن ينضم إلى بنى هاشم وبنى المطلب ، وتحت الضغط والإكراه أقر هذه الصحيفة الظالمة ، فوجد متنفساً من هشام وزهير ، لكن هؤلاء

الثلاثة الموزعين على البطون الثلاثة ، لايزالون بحاجة إلى سند آخر قوى .

وكانت أقرب البطون إلى بنى هاشم وبنى المطلب وبنى نوفل هو بطن بنى أمية بن عبد شمس وكان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب هم قادته . غير أن هشام قائد الانقلاب أحجم عن هؤلاء الثلاثة ، فقد طغا عليهم حب الزعامة والسيادة ويخشون من بنى عمهم بنى هاشم أن يسبقوهم سؤدداً و شرفاً ، وكان تعاطفهم مع الصحيفة تعاطفاً واضحاً وظاهراً ، رغم ما أبدوه فى بداية الأمر من حياد .

وحين نخرج من بنى عبد مناف نلقى بنى أسد وهم أقرب البطون لبنى عبد مناف . فكلاهما أخ وعم . فعبد مناف بن قصى ، وأسد بن عبد العزى بن قصى . واختار أبا البخترى بن هشام الذى كان واضحاً فى تعاطفه المستمر مع رسول الله ﷺ ، وهو الذى شج أبا جهل أكثر من مرة ، وموقفه فى ضربه لأبى جهل بالسوط ليدل دلالة واضحة أن عواطفه مع بنى هاشم ،ولا يستحى منها، ولا يخفيها ، وبذلك أصبح القادة الأربعة الكبار يبحثون عن خامس وكان خامسهم زمعة بن الأسود ، ولا ندرى كيف انضم لهم . فلم يعهد عنه من قبل أى تعاطف مع المسلمين ، غير أنه سيد بنى أسد وابن سيدهم وأبوه كان من المستهزئين بالدعوة والرسالة .

المهم أن هذه المجموعة المختارة من عيون بطون قريش : قدمت الشخص الأول فيها للمواجهة زهير بن أبى أمية فهو المخزومى الذى يستطيع ابتداءً أن يواجه بنى مخزوم ويواجه ابن عمه أبا جهل بن هشام ، وحين كان الرد عنيفاً عليه من أبى جهل : (كذبت لا تشق) . فانضم إليه سيد بنى أسد معلناً رده على أبى جهل: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت ، وسنده السيد الثانى فى بنى أسد أبو البخترى بن هشام الذى ما فتئ يجرؤ على أبى جهل ،ويتحداه قائلاً : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، وانضم سيد بنى نوفل بن عبد مناف المطعم بن عدى معلناً تأييده لإخوانه الثلاثة : صدق وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها ، وكان آخرهم تحركاً هشام بن عمرو وهو المخطط الأول للانقلاب .

وأحس أبو جهل أن الأمر سقط من يده ، فتجرع غصته قائلاً : هذا أمر قُضى بليل ،تشوور فيه فى غير هذا المكان ، ولا شك أن بقية الآراء المحبوسة بدأت تظهر معلنة تأييدها لهذا الموقف الجديد من هذه القيادات المكية ، وانتهى الحصار بعدها ، ومزقت الصحيفة ، وبطل مفعولها ، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلى ممارسة حياتهم من جديد وألغى الحصار إلى الأبد .

بين الثبات على المبدأ والاعتراف بالفضل :

ولا شك أن الموقف السابق هو الذى مهد الجو للموقف الجديد ، والقناعة التى

ملأت قلوب قيادات مكة بأنهم بغاة وظلمة ، وأن الدابة أكلت بغيهم وظلمهم ، ومحمد ﷺ كشف هذا الأمر دون أن يرى الصحيفة أو يصل إليها ، لا شك أن هذا الموقف هو الذى حدا بالقيادات المذكورة للتحرك ضد الصحيفة ، ونجحت القضية ، وبقيت فى ذهن المسلمين عامرة خالدة حتى هاجروا إلى المدينة ، وهم يذكرون هذه النصرة العظيمة . فلا ينسى حسان بن ثابت شاعر الإسلام الخالد أن يرد المعروف إلى أهله ، ويثنى على المطعم بن عدى الذى قدّم مكرمة ثانية فى تاريخه ، وهى إجارة رسول الله ﷺ ، فيما بعد وذلك برثاء له حين وفاته :

أيا عين فابكى سيد القوم واسفحى ... بدمع وإن أنزفته فاسكبى الدما
وبكىّ عظيم المشعرين كليهما ... على الناس معروفاً له ما تكلما
فلو كان مجد يخلد الدهر واحداً ... من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا ... عبيدك ما لبى مهلٌ وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها ... وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا هو الموفى بخفرة جاره ... وذمته يوماً إذا ما تذمما
فما تطلع الشمس المنيرة فوقهم ... على مثله فيهم أعزَّ وأعظما

ولم ينس حسان رضي الله عنه المخطط الأول للانقلاب على الصحيفة هشام بن عمرو فقال فيه :

هل يوفين بنو أمية ذمة ... عقداً كما أوفى جوار هشام
من معشر لا يغدرون بجارهم ... للحارث بن حبيب بن سخام
وإذا بنو حِسلٍ أجاروا ذمة ... أوفوا وأدّوا جارهم بسلام [1]

وحفظ التاريخ الإسلامى هذا الثناء على المشركين فى مواقفهم العظيمة فى حماية الدعوة ومساندتها ، والذود عنها وعن رجالها ، ولابد هنا من مراجعة لفقه التربية النبوية فى هذا المجال ، فقد تختلط الأوراق أحياناً بين هذا الثناء وبين الموادة لمن حادّ الله ورسوله ، وبين المداهنة فى العقيدة لتحقيق الحماية المطلوبة ، وما أحوج الدعاة إلى الله ، وقادة الحركات الإسلامية إلى تملى هذه المواقف وتدبرها ؛ بحيث لا تختلط الأوراق عندهم فينزلقون بعيداً عن الإسلام وهم لا يشعرون .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٣ ، ٣٤ .

لقد كان الصف المسلم كله وعلى رأسه قائده سيد ولد آدم - عليه الصلاة والسلام - فى جبهة واحدة مع بنى هاشم مسلمهم ومشركهم ضد صف قريش الذى يود قتل رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه. وحقيقة الأمر أن هذا الجناح من المشركين الذى يمثله أبو طالب وقومه خلفه هم الذين وقفوا فى خندق الصف المؤمن وانضموا له لحمايته ، وتحملوا الأذى فى سبيله وتحملوا الجوع والحصار والتضييق لحماية قائده . وكانوا على استعداد تام لأن يفنوا عن آخرهم قبل أن يسلموا سيد بنى هاشم محمد ﷺ إلى أعدائه . ونسأل عن الثمن الذى قدّمه عليه - الصلاة والسلام - لهذه الحماية . ويأتى الجواب : لا شىء . لقد بقى - عليه الصلاة والسلام - ومن معه من حزب الله ماضون فى نشر عقيدتهم وإيضاح مبادئهم التى تتناقض مع عقائد مشركى بنى هاشم وزعيم الحزب الهاشمى نفسه أبى طالب ،وبقى يسفه الأحلام،ويعيب الآلهة، ويدعو إلى الله الواحد، والقرآن يتنزل طيلة هذه السنوات الثلاث يوضح هذه العقيدة ، ويركز هذه المبادئ ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، ويدافع عن الذين آمنوا ، بل كان أبو طالب فى إعلامه وشعره كثيراً ما يتكلم بلسان المسلمين ويتحدث عن محمد رسول الله ﷺ وليس ابن أخيه فقط :

ألم يعلموا أنا وجدنا محمداً   نبيا كموسى خُطَّ فى أول الكتب
وأن عليه فى العباد محبة   ولا خير ممن خصه الله بالحب

وقوله كذلك فى أحد أبياته :

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

ونعلم كذلك أن قادة الشرك قد سجدوا حين ألقى الشيطان أثناء تلاوة رسول الله ﷺ ذلك الثناء على آلهتهم : (تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى) واستعدوا لينهوا المعركة مع رسول الله ﷺ بهذا الحل الوسط وذكر آلهتهم بخير . وكيف أنهم عادوا فقلبوا ظهر المجن ، وأعلنوا الحرب العوان حين تبرأ رسول الله ﷺ مما ألقاه الشيطان .

إن الثناء على موقف مشرك، أو على مشرك لمواقفه العظيمة من تأييد الدعوة وحمايتها شىء ، والثناء على العقيدة والشرك شىء آخر .

وحتى تتضح صورة التميز العظيم نعرض هنا لتجربة الوزير الأول لرسول الله ﷺ أبى بكر الصديق ؛ وذلك حين طلب منه ثمن لهذه الحماية خلال مرحلة الحصار التى

نحن بصددها لتكون التربية النبوية قد أخذت مداها الأرحب لهذا الجيل الرائد المعد لقيادة البشرية .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت :

(. . فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومى ، فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى . قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فأنا لك جار ، ارجع اعبد ربك ببلدك . فرجع وارتحل معه ابن الدغنة عشية فى أطراف قريش . فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكلَّ ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تُكذِّب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ؛فإنا نخاف أن يفتن نساءنا وأبناءنا .فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر. فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ،ولا يستعلن لصلاته ،ولا يقرأ فى غير داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلى فيه، ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه . وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن .وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين . فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا له : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره ،فأعلن بالصلاة والقراءة فيه،وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك ، فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان . فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال:قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتى فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له . فقال أبو بكر . فإنى أرد إليك جوارك . وأرضى بجوار الله ــ عز وجل . والنبى ﷺ يومئذ بمكة) [1] .

لقد كان مبدأ الإجارة من المبادئ العربية المقننة . وجاء ابن الدغنة من قبيلة نائية ليجير أبا بكر فى مكة ، وقُبل جواره ، فى أن يعبد الله تعالى فى بيته ، ولكن قريشاً على وعى فهى تعرف من أبو بكر . وأنه أول رجل فى الإسلام . وقد قاد علية

(١) البخارى م٢ ج٥ ص ٧٣ ـ ٧٥ ب هجرة النبى ﷺ .

أصحاب محمد إلى الإسلام . وعندما دهم خطره الأطفال والنساء جُنّ جنونها وراحت تواجه هذه الفتنة الجديدة . وأراد ابن الدغنة أن يحول دون الدعوة المستعلنة وأبى بكر ثمناً لاستمرار هذا الجوار . فرفض أبو بكر ذلك وبقى فى العراء دون حماية . وهو السيد العظيم فى قومه ، يلقى صنوفاً من المواجهات والإيذاء فى سبيل الله .

ونستطيع أن نقول : إن هذا الجوار قد يصلح لأفراد دون آخرين ، ومثل أبى بكر الزعيم الأول فى الإسلام لا يقبل أن يتراجع عن موقع احتله فى التأثير على الآخرين ودعوتهم ، وتنازل عن الجوار فى سبيل ذلك . ولم يمر عليه إلا لحظات حتى قبض ثمن التخلى عن جوار ابن الدغنة فى الحرب المستعلنة بين الفريقين .

(يقول ابن إسحاق : وحدثنى عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد قال : لقيه سفيه من سفهاء قريش ، وهو عامد إلى الكعبة ، فحثا على رأسه تراباً . قال : فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل . فقال أبو بكر : ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت هذا بنفسك . قال : وهو يقول : أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك !) [1] .

إن السيد الذى تعرف قبائل العرب فضله ، وله يد على كثير من أشرافهم ورجالاتهم ، ها هو فى مكة ، يُحثى التراب على رأسه . وكان فى الصف الإسلامى من هو جاهز بإشارة عابرة أن يقتل هذا السفيه ويجهز عليه ، لكن الخطة النبوية فى هذه المرحلة هى تحمل الأذى فى سبيل الله ، وعدم الرد بالمثل ما أمكن ذلك ، فالوقت لم يحن بعد للمواجهة ، والمسلمون يعيشون على أعصابهم وتكاد تتلف أعصابهم وهم يُطالبون بالصبر على الأذى فى سبيل الله ، والمضى قدماً فى الدعوة ، والقرآن يتنزل ليهدئ هذه الأعصاب ، ويُروض هذه النفوس الجامحة ، التى لا تعرف إلا الثورة لأدنى مؤثر. يروِّضها على أن تتحرك تلقائيا بأمر الله ورسوله لا بأمر أى دافع آخر،وأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ الذى واجه عتاة مكة وأشرافها ، وضاربهم حماية لقائده ـ عليه الصلاة والسلام ، والذى عرَّض حياته للخطر يوم كان أول خطيب فى سبيل الله ، هو هو نفسه الذى يكتفى بأن يكون رده على لؤم قيادات مكة : أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! ولابد لهذا الجيل أن يتمرس بالحلم ويُبنى به وينشأ عليه؛ لتبقى العقيدة هى المحرك الأول والأخير فى حياته.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٦ .

ذروة المحنة . . وذروة التكريم

عودة الغائبين :

انتهى الحصار ، وعاد المسلمون إلى وضعهم الطبيعى ، ولعل توجيهات مضت مع رسالة أبى طالب الهاتفية الشعرية التى يتناقلها الركبان حتى تصل الحبشة :

ألا هـل أتـى بحرينا صنـع ربنـا على نأيهـم والله بالنـاس أرود
فيـخـبرهـم أن الصحيفة مـزقت وأن كـل مـا لـم يرضه الله مُفْسَدُ

وبزوال هذه المحنة العصيبة ، وفى المرحلة الجديدة التى بدأت الأنظار تتطلع فيها خارج مكة ، بدأت عودة المهاجرين إلى الحبشة من جديد ، ويربط ابن إسحاق عودتهم بخبر إسلام أهل مكة ، ولعل هذا الخبر شاع مرة ثانية بعد نقض الصحيفة .

يقول ابن إسحاق : (وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أنَّ ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً ، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفياً .

فكان ممن عاد من بنى عبد شمس وحلفائهم : عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهيلة بنت سهيل بن عمرو ، ومن حلفائهم عبد الله بن جحش .

ومن عاد من بنى نوفل : عتبة بن غزوان حليف لهم من قيس بن غيلان .

ومن عاد من بنى أسد : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .

ومن عاد من بنى عبد الدار: مصعب بن عمير ،وسويبط بن سعد بن حرملة.

ومن عاد من بنى عبد بن قصى : طليب بن عمير بن وهب بن عبد .

ومن بنى زهرة بن كلاب : عبد الرحمن بن عوف ، والمقداد بن عمرو حليف لهم، وعبد الله بن مسعود حليف لهم .

ومن بنى مخزوم بن يقظة : أبو سلمة بن عبد الأسد معه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية ، وشماس بن عثمان بن الشريد ، وسلمة بن هشام بن المغيرة ، وعياش بن أبى ربيعة بن المغيرة ، ومن حلفائهم عمارَ بن ياسر ـ يشك فيه إن كان خرج إلى الحبشة أم لا ؟ ومعتب بن عمرو .

ومن عاد من بنى جمح : عثمان بن مظعون ، وابنه السائب،وقدامة بن مظعون ، وعبد الله بن مظعون .

ومن عاد من بنى سهم : خنيس بن حذافة ، وهشام بن العاص بن وائل .

ومن عاد من بنى عدى: عامر بن ربيعة حليف لهم مع امرأته ليلى بنت أبى حثمة.

ومن عاد من بنى عامر بن لؤى :عبد الله بن مخرمة ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وأبو سبرة بن أبى رهم معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، والسكران ابن عمرو معه امرأته سودة بنت زمعة ، ومن حلفائهم سعد بن خولة.

ومن عاد من بنى الحارث بن فهر : أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن الحارث ، وسهيل ابن بيضاء ، وعمرو بن أبى سرح .

فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً . فكان من دخل منهم بجوار فيمن سمى لنا عثمان بن مظعون الجمحى دخل بجوار الوليد بن المغيرة ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، ودخل بجوار من أبى طالب ، وكان خاله ، وأم أبى سلمة : برة بنت عبد المطلب) (١) .

(ومات رجلان بمكة ، وحبس منهم سبعة ، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون) (٢).

وهكذا عادت القوة الإسلامية إلى مكة من جديد وصاروا بضعاً وستين رجلاً أو يزيدون ، حيث أخذت الدعوة وضعها الطبيعى،وعاد الحزب الإسلامى واضح المعالم، بين العقيدة ليواجه المشركين فى مكة ، ولعله لم يبق من القيادات الكبرى فى الحبشة إلا أميرهم جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه :

فالأربعة المبشرون بالجنة الذين كانوا فى الحبشة كانوا من العائدين منها وهم عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح . وعاد ثقل الوجود الإسلامى يزعج مكة وتخطط لمواجهته خصوصاً ودخول الناس فى الإسلام لا ينقطع على بطنه ، وحيث أصبحت حرية التحرك الإسلامى والعبادة فى مكة متاحة بعد إسلام عمر رضي الله عنه فقد بقيت الصلة مع نور الوجود محمد ﷺ يومية مستمرة، والاقتباس من هذا النور دؤوب من قبل الجيل السعيد الذى أكرمه الله بالحظوة بصحبته ـ عليه الصلاة والسلام ، والشحنات الإيمانية ، والبناء الخلقى والتربوى فى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥ ـ ١٠

(٢) تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس للديار بكرى ١/ ٢٨٩ .

تمكن فى القلب والكيان البشرى كله .

وفاة أبى طالب .. المحنة القاسية :

قال ابن إسحاق :

(ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله . قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها . فانطلقوا بنا إلى أبى طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا[1] أمرنا)[2] .

قال ابن إسحاق : (فحدثنى العباس بن عبد الله بن معبد بن عباس ، عن بعض أهله عن ابن عباس، قال: مشوا إلى أبى طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ، عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، فى رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب : إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ،وتخوّفنا عليك ،وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ،فادعه ، فخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه . فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال : يا بن أخى ، هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك . قال : فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم » قال أبو جهل : نعم وأبيك ،وعشر كلمات ؛ قال:«تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » . قال : فصفّقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً . إن أمرك لعجب ؟ ! قال: ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه . قال : فتفرقوا . فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ : والله يا بن أخى ، ما رأيتك سألتهم شططاً . قال : فلما قالها أبو طالب طمع رسول الله ﷺ فجعل يقول له : « أى عم ، فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » قال : فلما رأى حرص رسول الله ﷺ قال : يابن أخى ، والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها ، لا أقولها إلا لأسرك بها . قال : فلما تقارب من أبى طالب الموت قال : نظر العباس إليه يحرك شفتيه . قال : فأصغى إليه بأذنه . قال : فقال : يا بن أخى ، والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها . قال: « لم أسمع » .

---

(١) يبتزونا : يسلبوننا أمرنا و يغلبوننا عليه .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٧ .

قال وأنزل الله تعالى فى الرهط الذين كانوا اجتمعوا إليه وقال لهم ما قال ، وردّوا عليه ما ردوا : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ ـ يعنون النصارى لقولهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾(١). ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾(٢) ثم هلك أبو طالب) (٣) .

وفى رواية البخارى عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال :

(لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية. فقال النبى ﷺ: « أى عم ؛ قل : لا إله إلا الله ، أحاجّ لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ؛ أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك » فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾(٤)) (٥).

وحكى عن هشام بن السائب الكلبى أو أبيه أنه قال :

لما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال :

يا معشر قريش ، أنتم صفوة الله من خلقه (وقلب العرب فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدَّم الشجاع ، والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، وشرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم إلب ،وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية(٦) فإن فيها مرضاة الرب ، وقواماً للمعاش ، وثباتاً للوطأة ، صلوا أرحامكم فإن فى صلة الرحم منسأة(٧) ،واتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون من قبلكم ، أجيبوا الداعى ،وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام)(٨) إلى أن قال:

(وإنى أوصيكم بمحمد خيراً ،فإنه الأمين فى قريش والصدِّيق فى العرب ، الجامع

---

(١) المائدة / ٧٣ .
(٢) ص / ١ ـ ٨ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٦٧ .
(٤) التوبة / ١١٣ .
(٥) البخارى م٢ ج٦ ص٨٧ ، سورة براءة .
(٦) البنية : الكعبة .
(٧) منسأة : فسحة فى الأجل .
(٨) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ٣٤٣ .

لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاءنا بأمر قَبِله الجنان ، وأنكره اللسان مخافة الشنآن ، وايم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف ، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته ، وصدَّقوا كلمته ، وعظَّموا أمره فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محّضته العرب ودادها ، وأصغت له فؤادها ، وأعطته قيادها . يا معشر قريش ، كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ، ولو كانت لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهى ، ثم هلك) (١) .

أما وقت وفاة أبى طالب فكما يقول شارح المواهب ومؤلفها :

(ولما أتت عليه ﷺ تسع وأربعون سنة ، وثمانية أشهر ، وأحد عشر يوما ، كما حرره بعض المتقنين مات عمه أبو طالب بعد خروجهم من الشعب فى ثانى عشر رمضان سنة عشرة من النبوة ، وقيل بعد ذلك بقليل فى شوال من السنة العاشرة) (٢) .

وروى الشيخان عن العباس رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك ، فهل ينفعه ذلك ؟ قال : « نعم وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح منها » (٣) .

وروى مسلم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه» (٤) .

وفى رواية : « إن أدنى أهل النار عذاباً ، ينتعل بنعلين من نار ، يغلى دماغه من حرارة نعليه » (٥) .

يقول السهيلى : (وفى رواية يونس عن ابن إسحاق زيادة . وهى أنه قال : «يغلى منهما دماغه حتى يسيل على قدميه » ؛ ومن باب النظر فى حكمة الله ومشاكلة الجزاء للعمل أن أبا طالب كان مع رسول الله بجملته متحزباً له ، إلا أنه مثبِّت لقدميه على ملة عبد المطلب ، حتى قال عند الموت : أنا على ملة عبد المطلب فسلّط العذاب على قدميه خاصة لتثبيته إياهما على ملة آبائه)(٦) .

---

(١) شرح المواهب اللدنية (نص المواهب) ١/٣٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ١/٣٣٧ .

(٣) صحيح البخارى : كتاب المناقب . وصحيح مسلم ، كتاب الأيمان ، حديث رقم ٣٥٨ .

(٤) صحيح مسلم ج١ باب أهون أهل النار عذاباً ح٣٦٢ .

(٥) المصدر نفسه ح٣٦١.

(٦) الروض الأنف للسهيلى م١/ج٢ / ١٧ .

وفاة خديجة ـ رضى الله عنها ـ :

ثم بعد ذلك بثلاثة أيام ،وقيل : بخمسة فى رمضان بعد البعثة بعشر سنين على الصحيح ـ كما قال الحافظ ـ ماتت الصديقة الطاهرة خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ ودخل عليها ﷺ وهى فى الموت فقال : « تكرهين ما أرى منك وقد يجعل الله لك فى الكره خيراً » ، وأطعمها من عنب الجنة. رواه الطبرانى بسند ضعيف. وأسند الواقدى عن حكيم بن حزام أنها دفنت بالحجون، ونزل ﷺ فى حفرتها وهى ابنة خمس وستين سنة ، ولم تكن يومئذ الصلاة على الجنازة . وكان رسول الله ﷺ يسمى ذلك العام الذى ماتا فيه عام الحزن . وقالت له خولة بنت حكيم : يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خُلَّة لفقدك خديجة ، قال : « أجل ، كانت أم العيال وربة البيت » . وقال عبيد بن عمير: وَجَدَ عليها حتى خُشِيَ عليه ،حتى تزوج عائشة. رواهما ابن سعد .

وكانت مدة إقامتها معه خمساً وعشرين سنة على الصحيح كما فى الفتح ، وزاد : وقال ابن عبد البر: أربعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر. ثم بعد أيام من موت خديجة الواقع فى رمضان تزوج عليه السلام فى شوال بسودة بنت زمعة ، وفى سيرة الدمياطى : ماتت خديجة فى رمضان ، وعقد على سودة فى شوال ثم على عائشة ، وبنى بسودة قبل عائشة . والله أعلم (١) .

لقد هُزمت قريش فى قضية الصحيفة نتيجة التفكك الداخلى فى صفها . وبقى الجو هادئاً نسبيا ، لكن الغيظ يأكل قلب المشركين فى مكة ، فلا تستطيع أعينهم أن ترى محمداً ﷺ ماض فى سبيله يدعو إلى الله على بصيرة وهى عاجزة عن أن تمدَّ إليه يدها. وترى فى هذا الشيخ المهيب أبى طالب عقبة كأداء دون القضاء على رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ، ومن أجل هذا عندما دق الوهن بأبى طالب ونزل به المرض؛ تداعى قادة مكة لدراسة احتمالات الموقف بوفاة أبى طالب، والأشراف هم الأشراف والقادة هم القادة ، أبو جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب وغيرهم ،ورأوا رأياً جديداً اتفقوا على عرضه على أبى طالب. حيث عادوا للتفكير فى التفاوض مع رسول الله ﷺ. على أمل الوصول إلى حل، ولعل تجربة الصحيفة فى رأيهم يمكن أن تدخل تعديلاً فى تفكير سيد الخلق محمد ﷺ،وكانوا قد عرضوا عليه فى المساومات السابقة أن يعبد ربهم ويعبدوا ربه على فترات. فجاء الرد القرآنى الحاسم: **﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾**(٢) .

---

(١) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى ١/ ٣٤٤ .

(٢) سورة الكافرون .

والطرح الجديد الذى اتفقوا عليه إن رأوا تعنتاً من محمد ﷺ ، أن يدعهم ودينهم ويدعونه ودينه ، فيكف عن شتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، والنيل من الأوثان والأصنام ، مقابل حريته وحزبه فى التمسك بدينهم كما يشاؤون ، وهى هدنة ، لعلها توقف النزيف المكى الذى يدفع بالشباب نحو الإسلام .

ولا شك أن هذا التفكير يحمل فى ثناياه هزيمة نفسية ، ووضعاً جديداً ما كانت مكة لتقبله ؛ لولا فشل كل محاولات الحرب والإبادة ضد الله ورسوله . وأصبح فى صفوف قياداتها من يتعاطف مع محمد ويرفض أساليب البغى والطغيان عليه وعلى دعوته .

والثبات العظيم على المبدأ من قائد الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الذى حقق هذه المكاسب للدعوة . ويدرك الجيل المؤمن إدراك البصير الواعى ، ويكاد يلمسه لمس اليد أن هذه الانتصارات هى ثمرة هذا الثبات من جهة ، ومن جهة ثانية ثمرة ضبط النفس العظيم لدى هذا الجيل الذى لم يعط فرصة واحدة لقيادات مكة فى البطش بالمسلمين ونقض عهود أبى طالب ومواثيقه .

ولعلى أستشرف الزمن فأشير إلى أن هذه القيادات المكية وبعد سنوات عندما كانت وجهاً لوجه أمام حزب الله الناشئ،وفتيانه الذين صاروا شباباً وعجم عودهم ، وصلبت قناتهم .

عندما كانت المواجهة ، سقطوا صرعى بسيوف هذا الجيل الرائد ، فشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة،والذين طلبوا المواجهة من الأكفاء من قومهم ، تقدم لهم حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، والفتى على بن أبى طالب الذى غدا فى الخامسة والعشرين من عمره ، وقتلوهم وقضى على فحل قريش وسيد البطحاء فيها الفتيان الذين لم تطِرَّ شواربهم بعد ، والمستضعفون عبد الله بن مسعود الذى قال له فرعون هذه الأمة :

لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يا رويعى الغنم .

لقد كان عليه الصلاة والسلام يدرك مدى قوة وصلابة حزبه ورجاله ولكنه يريد أن يتثبت أكثر وأكثر من آثار المواجهة . وكما ترد التوجيهات الربانية له :

« لم أؤمر بالقتال بعد » .

ولعل هذه الرواية التى أوردها ابن إسحاق بسنده عن يونس بن بكير ، تعطينا صورة جلية عن واقع هذه الطليعة المؤمنة :

(حدثنا يونس ، عن حُبيب بن حسان الأسدى ، عن مسلم بن صبيح قال :

قال أصحاب رسول الله ﷺ : إنا قد كثرنا ، فلو أمرت كل عشرة منا فأتوا رجلاً من صناديد قريش ليلاً وأخذوه فقتلوه ، فتصبح البلاد لنا ؟ فسر النبى ﷺ بذلك حتى رؤى فى وجهه،فقام عثمان بن عفان فقال : يا رسول الله أبناءنا ، آباءنا ، إخواننا ، فما زال عثمان يردد حتى سئم رسول الله ﷺ قولهم الأول ، ورؤى فى وجهه ، حتى رفض ذلك ، وأخذنا المشركون حين أمسينا فما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إلا قد أعطى الفتنة غير بلال فإنه قال : الأحد الأحد) (١) .

فالتفكير فى السيطرة بالقوة على مكة فى محاولة اغتيالات جماعية لقيادات مكة كانت ترد على تفكير رجالات حزب الله ، ويسر رسول الله ﷺ أن يرى هذا الحماس منهم ، لكنه لا يندفع به ، إنما يدع المجال للآراء المعارضة والمناقشات المستفيضة ، فتعود القناعة ، بعكس هذا الرأى من خلال الشورى لا من خلال الأوامر الصارمة ، ورسول الله ﷺ لديه أوامر ربانية بكف اليد حتى يأتى الإذن ، ومع ذلك فكان هذا لا يمنع عرض الآراء المخالفة والسماح لها ، وتشجيعها والدفاع عنها ؛ ليحس هذ الجيل أنه شريك فى قرار مصيره .

وحين التقى الرسول ﷺ مع قيادات مكة فى بيت أبى طالب ، وعادت ذكرى اللقاء الأول قبل سنين خلت ،يوم أجابهم ذلك الجواب الحاسم :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . ولكنهم يأملون أن يكون لمرور الزمن والخبرة والمعاناة والآلام التى نزلت بالمؤمنين مجال فى تغيير الرأى . . . ولذلك حين عرض عليه الصلاة والسلام قوله عن الكلمة الواحدة التى تعطيها قريش ، شدت انتباههم تماماً بأن الأوان قد آن لبعض التنازلات الهامة ، وأصغوا أكثر وأكثر حين تحدث عن أثر هذه الكلمة أن تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم . فليست نصرا محلياً لمكة إنما هو نصر دولى فى الأرض . سارع عبد الزعامة والسلطة أبو جهل للقول :

بلى وأبيك وعشر كلمات .

فإذا كانت الكلمة تحقق هذه الأمجاد ، فلتكن ، وسيعطونها له . مقابل هذا الثمن الربيح ،وهم يعرفون أن محمداً لا يكذب . فقال لهم ـ عليه الصلاة والسلام :

« تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » فقالوا :

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق ١ / ١٩٣ ، تحقيق : سهيل زكار .

(أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟! إن أمرك لعجب) ثم قال بعضهم لبعض :

(إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه) قال : فتفرقوا .

وعرفت قريش أن هذه الكلمة لا تعنى إلا أن يتركوا دين آبائهم وأجدادهم ، فهو لم يرض لهم فقط أن يقولوا : لا إله إلا الله ، إنما طلب منهم أهم مقتضياتها ، وتخلعون ما تعبدون من دونه. وهو الذى يسمى بمصطلحنا الإسلامى : البراءة من كل أنواع الشرك ، وتحديد العبودية لله وحده دون سواه .

وجانب آخر يتضح لنا من خلال هذا اللقاء،هى مدى جدية الأمر عند قريش ، وهى على شركها وحربها لرسول الله ﷺ ، وكل قريش تعرف أن هذه الكلمة حين تقال تعنى الانضمام إلى الصف المسلم ، والانقياد والامتثال لأمر الله ونهيه دون اعتراض ، وخلع كل صور العبودية لغير الله ـ عز وجل . إن هذا الجيل العربى القرشى الذى نزلت الدعوة فى صفه يدرك معنى الكلمة ، ومسؤولية الكلمة . وأنها كلمة تغيّر المسار، وتبدل الحياة ، وتقط دونها الرؤوس ، وتقطع بها الرقاب ، ومن أجل ذلك رفضوا جميعاً أن يلفظوها ولو مجرد لفظ ، فهم فى مفاهيم الشرف والرجولة عندهم ، يدركون مسؤولية الكلمة وأن اللفظ فيها ثم الخروج عليها ، عار ينقص قدرهم ، ويقل شرفهم ، لقد رأينا اليهود الذين لا يقيمون وزناً لمسؤولية الكلمة ، يقولون كما ذكر القرآن الكريم عنهم : ﴿ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١).

ويبدو أثر الكلمة أكثر وأكثر لدى أبى طالب ، فهو يقول لابن أخيه : والله ما أراك سألتهم شططاً . ويطالب الرسول ﷺ عمه بها وهو على فراش الموت : «فقلها يا عم ، استحل لك بها شفاعتى يوم القيامة» ، ويتمنى أبو طالب أن يقولها ليسر ابن أخيه الحبيب ، ليثلج صدر أحب خلق الله إليه ، وهو لا يرى بها حرجاً ، ولعله مقتنع بها ، لكن العار الذى أصبح الخوف منه ديناً ، والسبة على بنى عبد المطلب أن يقال : إنه قالها خوفاً من الموت ، دفعته لهذا الإصرار على الكفر .

وكما فى رواية البخارى ، الرسول ﷺ يلح على عمه بقولها وشيطانا مكة أبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أمية ينفخان فيه عزة الآباء والأجداد :

---

(١) آل عمران / ٧٢ .

يا أبا طالب ، أتترك ملة عبد المطلب ؟ !

ويبقى خوف العار ـ على تصور أبى طالب ـ والمحافظة على الشرف ، والخوف على السبَّة هو الذى يدفعه ليكون آخر كلامـه من الدنيا : على ملة عبد المطلب .

إن هؤلاء العرب الألداء الأعداء على كل ما فيهم من غلظة وجفوة وقساوة وحقد، لكن شرف الكلمة عندهم يعادل حياتهم ، فهم على استعداد أن يقاتلوا محمداً ﷺ عشرين عاماً ، دون أن يقولوا هذه الكلمة ، فهم يعرفون أنها عهد وخط حياة ، وتحديد منهج ، وليست كلمة عابرة خالية من المضمون .

وكم يتمنى المسلم اليوم فى أجيالنا المنكودة التى تدين بالإسلام أن يدركوا خطورة هذه الكلمة ـ كلمة التوحيد ـ كما يدركها الجاهليون ، وأن يفقهوا مضمونها ومقتضياتها كما يدركها الجاهليون العتاة ، وأن يحسوا بمسؤوليتها وأبعادها كما يحس بها الجاهليون المشركون ، ولا أقول : عوام المسلمين ، بل أقول : قادة المسلمين والدعاة الكبار فيهم أن يدركوا شرف كلمة التوحيد والانتساب لهذا الدين والانتماء لهذه العقيدة ، فيكونوا على مستوى هذا الانتماء ومستوى هذه الدعوة ، ومستوى هذا الشرف ، لقد فقدوا حقيقة هذه الكلمة ، فلم تدن لهم العرب ، ولم يملكوا بها العجم ؛ لأنهم يتعاملون مع الألفاظ الخالية من المقتضى والمضمون .

وما أحوجنا أن يبقى هذا الدرس ماثلاً فى أذهاننا ، والذى خلّده القرآن الكريم فأنزل فيه :

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ (١) .

ونعود إلى وصية أبى طالب للملأ من قريش ، فالمفاهيم التى عرضها من القيم الجاهلية لا يوجد فيها قيمة إلا وهى فى الإسلام من بدهياته ومبادئه ، لكن أبا طالب يرى أن هذه القيم جميعاً قد تجسدت بابن أخيه محمد ﷺ ، وكأنه ينظر من حجب الغيب فيرى المستقبل لهذا الدين وللرسول ﷺ ، ويرى أن العرب جميعاً سوف تنضوى

---

(١) ص / ١ ـ ٨ .

تحت لواء ابن أخيه وأن قريشاً ستبقى صادة معاندة ، حتى تصبح صناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعافها أرباباً ، وأعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، وكم تمنى أن يفسح الله فى الأجل ليذود عن محمد الدواهى ويواجه الهزاهز .

ولتقرّ عين أبى طالب فولداه الأسدان العظيمان جعفر وعلى حملوا هذا العبء عنه، وقدموا حياتهم وأرواحهم ذوداً عنه وعن دينه ، حتى أن جعفر يسقط شهيداً مع الروم لا مع العرب ، وقد قطع نصفين ، وقطعت يداه فى سبيل الله ، فكان جعفر الطيار ، وعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجندل الأبطال ، ويفرى الكماة ، ويقارع الصناديد،ومن بين من يقارعهم صديق أبيه عمرو بن عبد ود العامرى، ويتحداه عند الهزاهز ويقول له :

اصبر أتاك مجيب صوتك غير عاجز

إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

غير أن قريشاً تنكرت لشيخها ، وكانت تنتظر لحظة وفاته؛ لتتحلل من كل عهودها وقيودها ، وتشفى غيظها بإيذاء محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ، ويفقد الرسول ﷺ أعظم وزيرين له فى حياته : أبا طالب عمه و خديجة زوجه فى عام واحد وفى شهر واحد ، حتى ليسمى هذا العام بعام الحزن .

إن فقدان امرأة ليهز من كيان سيد الخلق ، ويدخل عليه خلة لفقدها ، ويحس بفراغ لا يملؤه ولن يملأه أحد بعدها ، فكم هذه المرأة قد بلغت من العظمة والسمو والنبل حتى ليرى فيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعظم سلوان وأكبر نصير حين عزّ النصير، لقد استطاعت السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ أن تحميه فى الداخل فتمسح همه ، وتأسو جرحه ، وتقر عينه . كما استطاع أبو طالب أن يحطم كل الطغاة من أن ينالوا منه ويصلوا إليه ، وصدق أبو طالب حين قال :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

ووُسّد دفيناً فى التراب . فلننظر كيف وصلوا بجمعهم عليه ؟ وكيف أقبلوا بكل أحقادهم وغيظهم يصبّونه صبا على رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ؟

الإيذاء بعد الوفاة :

« أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة »[1] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير للألبانى ، وقد رواه البخارى، وأحمد، والنسائى عن سعد بن أبى وقاص م١ ج١ ٣٣٢، ٣٣٣ .

أ ـ (عن عبد الله بن مسعود قال : بينا رسول الله ﷺ فى المسجد وأبو جهل بن هشام ، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة ، وعقبة بن أبى معيط ، وأمية بن خلف ، ورجلان آخران كانوا سبعة وهم فى الحجر ، ورسول الله ﷺ يصلى ، فلما سجد أطال السجود فقال أبو جهل : أيكم يأتى جزور بنى فلان فيأتينا بفرثها فنُكفئه على محمد ﷺ . فانطلق أشقاهم عقبة بن أبى معيط ،فأتى به فألقاه على كتفيه ورسول الله ﷺ ساجد . قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندى منعة تمنعنى ،فأنا أذهب إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأقبلت حتى ألقت ذلك عن عاتقه، ثم استقبلت قريش تسبُّهم فلم يرجعوا إليها شيئاً ، ورفع رسول الله ﷺ رأسه كما كان يرفع عند تمام السجود ،فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال:« اللهم عليك بقريش ـ ثلاثاً ـ عليك بعتبة وعقبة وأبى جهل وشيبة »[1] .

ثم خرج من المسجد فلقيه أبو البخترى بسوط يتخصر به . فلما رأى النبى ﷺ أنكر وجهه فقال : مالك ؟ فقال النبى ﷺ : « خلٍّ عنى » . قال : علم الله لا أخلى عنك أو تخبرنى ما شأنك فلقد أصابك شيء . فلما علم النبى ﷺ أنه غير مخل عنه أخبره فقال : « إن أبا جهل أمر فطرح علىّ فرث » . فقال أبو البخترى : هلم إلى المسجد ، فأتى النبى ﷺ وأبو البخترى فدخلا المسجد ثم أقبل أبو البخترى إلى أبى جهل فقال : يا أبا الحكم أنت الذى أمرت بمحمد ﷺ فطُرح عليه الفرث ؟ قال : نعم. قال : فرفع السوط فضرب به رأسه . قال : فثار الرجال بعضها إلى بعض . قال : وصاح أبو جهل : ويحكم هى له ، إنما أراد محمد ﷺ أن يلقى بيننا العداوة وينجو هو وأصحابه)[2] .

لقد هُشّمت كرامة أبى جهل ومرغت بالوحل عدة مرات ،وهو سيد البطحاء كما كانوا يطلقون عليه ، لكن حقده طغى عليه ، وكان أكبر من عقله ، فلم يرعو أو يرتدع أمام هذه المعجزات أو الإهانات .

لقد كان أول ما ناله حين رجع خزياً مرعوباً يوم أخذ الحجر ليشدخ به رأس رسول الله ﷺ وهو ساجد ، وفضحه القرآن حين قال فيه :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ .

---

(١) روى هذا القسم البخارى م٢ ج٥ ص٥٧ وفى دعائه : « اللهم عليك بالملأ من قريش أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف » أو أبى بن خلف ـ شُعبة الشاك ـ فرأيتهم قتلوا يوم بدر غير أمية أو أبى تقطعت أوصاله فلم يلق فى البئر .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/ ١٧ ، ١٨ ، وقال فيه : « رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وفيه الأجلح بن عبد الله ، وهو ثقة عند ابن معين وغيره ، وضعفه النسائى وغيره » .

أَرَأَيْتَ إن كَذَّبَ وتَولّىٰ . أَلَمْ يَعْلَم بأَنَّ اللَّهَ يرَىٰ . كَلاَّ لئِن لَّمْ ينته لَنَسفَعًا بالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة . كَلاَّ لا تُطِعْهُ واسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ (١) .

لقد جاءه العذاب فى دنياه ورأى هولاً من نار وأجنحة ، أو رأى فحلاً من الإبل ما رأى مثل هامته قط . ورأى أن الله قادر على أن يأخذ بناصيته الكاذبة الخاطئة إلى جهنم ، ولكنه أصر على كفره ، وراح يتحدى بأن ناديه وجماعته أكثر من جماعة محمد ﷺ .

ورأى الجيل المؤمن كيف تتدخل الإرادة الإلهية فتُذل هذا العدو ، وراح الجيل يقرأ هذا العداء الشرس الحاقد مع أول وحى الله إلى الأرض فى سورة القلم، وبقى هذا الدرس للأجيال اللاحقة قرناً بعد قرن . إن هذه الدعوة طريقها مخضوب بالأشواك ، ففى قراءتها ودعوتها يقف المجرمون والعتاة ينهون عن الصلاة ، وينهون عن الدعوة ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويبقى الأمر القرآنى الخالد للصف المسلم : ﴿ كَلاَّ لا تُطِعْهُ واسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ .

وكان الذل الثانى: الذى لاقاه من حمزة بن عبد المطلب يوم شج وجهه ، وشدخ رأسه بقوس عم رسول الله ﷺ أمام الملأ من قريش وفى الكعبة . وكان أن خسر الصف المشرك فتى بنى هاشم وأعزه شكيمة لينضم إلى الصف المسلم لحمق وسفاهة أبى جهل .

وكان الذل الثالث : يوم شجه أبو البخترى بن هشام وحمزة ينظر بلحى البعير، حين أراد أن يحول دون القوت وذهابه لخديجة من حكيم بن حزام بن خويلد.

وكان الذل الرابع : يوم أهين وضرب بسوط أبى البخترى بعد إلقاء الروث على ظهر محمد ﷺ وهو ساجد ، وذلك أمام الملأ من قريش .

وكان الذل الخامس: على يد محمد ﷺ نفسه ، أمام الملأ من قريش كذلك ، كما تروى كتب السيرة ، وكما مر معنا يوم دفع للإراشى حقه من الإبل صاغراً بين يدى رسول الله ﷺ .

(قدم رجل من إراش بإبل له فابتاعها منه أبو جهل بن هشام ، فمطله بأثمانها ، فأقبل حتى وقف على نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى ناحية المسجد ، فقال : يا معشر قريش من رجل يعيننى على أبى الحكم بن هشام ؟ فإنى غريب وابن سبيل وقد غلبنى على حقى . فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذاك الرجل ـ لرسول الله ﷺ ـ

---

(١) العلق / ٩ ـ ١٩ .

يهزؤون به لما يعلمون بينه وبين رسول الله ﷺ من العداوة : اذهب إليه فهو يعينك عليه . فأقبل الإراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فقام معه ، فلما قام معه ، قالوا لرجل ممّن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع ، وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال: من هذا ؟ قال : « محمد ، فاخرج إليّ » فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة . لقد انتُقع لونه ، فقال : « اعط هذا حقه » . قال : نعم لا تبرح حتى أعطيه الذى له . فدخل ثم خرج إليه بحقه فدفعه إليه .

فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذ لى بحقى .

وجاء الرجل الذى بعثوا معه فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟ قال : رأيت عجباً من العجب ! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه . فقال: « اعط هذا حقه » . قال : نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل ،فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه ، ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء فقالوا : ويلك مالك والله ما رأينا مثل ما صنعته قط ؟ قال : ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب علىّ بابى فسمعت صوته ، فملئت رعباً ثم خرجت إليه ، وإنّ فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلنى) (١) .

أما ذله الأكبر فهو الذى سيلقاه كما حدث الله تعالى عنه : **﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾** (٢) .

ب ـ نثر التراب على رأسه : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب . حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً .

قال ابن إسحاق : فحدثنى هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير قال : لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب ، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله ﷺ يقول لها : « لا تبكِ يا بنية ، فإن الله مانع أباك » .

ويقول بين ذلك: « ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» (٣) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٣ . والقصر : أصل العنق.

(٢) الدخان / ٤٣ ـ ٤٩ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٦ ، ٦٧ .

وروى الطبرانى وأبو نعيم ، عن أبى هريرة ـ رضوان الله عنه ـ قال : لما مات أبو طالب تجهموا رسول الله ﷺ فقال : « يا عم ، ما أسرع ما وجدت فقدك » .

وروى البيهقى عن عروة مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال :

« ما زالت قريش كاعَّين[1] حتى مات أبو طالب » .

ورواه الطبرانى والبيهقى من طريق آخر عن عائشة مرفوعاً .

وروى ابن سعد ، عن حكيم بن حزام وثعلبة بن صعير قالا :

(لما توفى أبو طالب وخديجة ، اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان ، فلزم بيته، وأقلَّ الخروج ، ونالت قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه ، فبلغ ذلك أبا لهب فجاء فقال : يا محمد امض لما أردت ، وما كنت صانعاً ، إذ كان أبو طالب حيا فاصنعه ، لا واللات والعزى لا يوصل إليك حتى أموت .

وسبَّ ابن الغيطلة النبى ﷺ فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولّى وهو يصيح: يامعشر قريش صبأ أبو عتبة ، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبى لهب فقال : ما فارقت دين عبد المطلب ولكن أمنع ابن أخى أن يضام حتى يمضى لما يريد ، قالوا : قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم .

فمكث رسول الله ﷺ أياماً يذهب ويأتى لا يعترض له أحد من قريش ، وهابوا أبا لهب إلى أن جاء عقبة بن أبى معيط وأبو جهل بن هشام إلى أبى لهب فقالا له : أخبرك ابن أخيك أين مُدخل أبيك ؟ فقال أبو لهب : يا محمد أين مُدخل أبى عبد المطلب ؟ قال :« مع قومه ». فخرج أبو لهب إليهما فقال: قد سألته فقال: مع قومه. فقالا له: يزعم أنه فى النار. فقال : يا محمد، أيدخل عبد المطلب النار ؟ فقال رسول الله ﷺ:« نعم، ومن مات مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار ». فقال أبو لهب : لا برحت لك عدوا وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار . فاشتد عليه هو وسائر قريش) [2] .

قال ابن إسحاق :(وكان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ فى بيته : أبو لهب، والحكم بن أبى العاص بن أمية ، وعقبة بن أبى معيط ، وعدى بن الحمراء ، وابن الأصداء الهُذَلى ، وكانوا جيرانه لم يُسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبى العاص ، وكان أحدهم فيما ذكر لى يَطرح عليه رحِمَ الشاة وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها فى برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً يستتر به منهم إذا صلى . فكان

---

(١) كاعين : جبناء وضعفاء عنى .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢١١ .

رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى ـ كما حدثنى عمر بن عبد الله بن عروة بن الزبير ، عن عروة بن الزبير ـ يخرج به رسول الله ﷺ على العود فيقف به على بابه ثم يقول :« يا بنى عبد مناف ، أى جوار هذا ! » ثم يلقيه فى الطريق) [(١)] .

* * *

صورة جديدة من صور التربية تعرض بين يدى الصفوة المختارة من الخلق ، والمعَدَّة لتحمل الرسالة بعد سيد الخلق . هذه الصورة هى استعداد أبى لهب فجأة وهو العدو الألد لرسول الله ﷺ ليكون النصير الأول له ـ عليه الصلاة والسلام ، ولا غرابة فى الموقف . فدافع الشهرة والزعامة هو الذى يحرك أبا لهب فى البداية والنهاية ، فهو مع أخيه أبى طالب شخص عادى . والهيبة والزعامة والقيادة لأخيه ولكنه عندما يقف فى الموقف المعاكس لأخيه وقومه سوف يفوز بالحظوة عند قريش ويكون حديث الناس . أما وأبو طالب قد توفى ، وذهب ظله الثقيل عنه ، فيمكن أن يتبوأ موقفه من الزعامة دون منازع ، ومن أجل ذلك ، جاء لابن أخيه قائلاً :

يا محمد ، امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حيا فاصنعه ، لا واللات والعزى لا يوصل إليك حتى أموت .

فهو ليس أقل من أخيه أبى طالب شأناً ومنزلة فى قريش . خصوصاً عندما تأكدت قريش أن أبا لهب لم يسلم فقالوا له: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم .

إنه لقاء إرث الزعامة التى لا ينازعه فيها أحد .

غير أن شيطانى قريش الكبيرين أبى جهل بن هشام ، وعقبة بن أبى معيط ، لم يرفأ لهما جفن أمام هذا الموقف الكئيب . وهما يعرفان أعماق أبى لهب ، ويعرفان أن المصلحة والحرص على الزعامة هو الذى حدا بأبى لهب لهذا الموقف، وليس الحب والتعظيم والتفانى فى محمد بن عبد الله . وهذه المصلحة والزعامة حين تتغير سرعان ما يقلب أبو لهب ظهر المِجّن جرياً وراءها ، فأثارا فى نفسه مُدخل عبد المطلب بعد وفاته ، وتقديس الآباء والأجداد والأوثان دين فوق كل شىء لدى هذا الزعيم الأحمق .

وكانت اللحظة الحرجة بين قائد الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين عمه أبى لهب ، وحراجة الموقف أنه قد تنهار الحماية كلها من خلال الجواب على هذه القضية . والمسلمون مغلولو الأيدى وممنوعون عن المواجهة ، وحبيبهم المصطفى فى خطر .وهو صاحب القرار فى هذا الأمر .

وحاول عليه الصلاة والسلام أن يعطى جواباً عاماً فى البداية فقال:« مع قومه ».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٥، ٦٦ .

لكن المتآمرين الكبار ، لن يدعوا هذا الجواب ، حتى يصلوا إلى جواب محدد . وذلك حين سأل أبو لهب ابن أخيه محمداً ﷺ :

يا محمد ، أيدخل عبد المطلب النار ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار » (١) .

والقضية الآن قضية عقيدة لا تحتمل الإبهام ، ففى ذهن مشركى مكة جميعاً أنهم على ملة عبد المطلب . فلو كان الجواب أنه فى الجنة لاعتبروا أنفسهم جميعاً مثله . وهو لم يدرك البعثة والرسالة . وهم أدركوها ، وعلى ذلك ، فقد تربح الدعوة وقائد الدعوة حماية ، ولكنها تخسر عقيدة ، وتعطى بلبلة وانحرافاً فى أذهان المسلمين والمشركين على السواء . فلا مناص من القول: « نعم ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار » .

---

(١) قضية أجداده ــ عليه الصلاة والسلام ــ وأنهم من أهل الفترة ، والاستئناس بقول الله ــ عز وجل: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِين﴾ [الشعراء / ٢١٩] ، قضية مشهورة عند علماء المسلمين . وننقل فى هذا قول الإمام الزرقانى ـ رحمه الله : (وقد قال الحافظ ابن حجر فى بعض كتبه، والظن بآله ﷺ ـ يعنى الذين ماتوا قبل البعثة ــ أنهم يطيعون عند الامتحان) يوم القيامة ، أخرج البزار وأبو يعلى عن أنس قال : قال ﷺ : «يؤتى بأربعة يوم القيامة بالمولود والمعتوه ومن مات على الفترة والشيخ الفانى كلهم يتكلم بحجته . فيقول الرب تعالى لعنق من النار : ابرز ويقول لهم : إنى كنت أبعث لعبادى رسلاً من أنفسهم ، وإنى رسول نفسى إليكم : ادخلوا هذه . فيقول من كتب عليه الشقاء : يارب أندخلها ومنها كنا نفر ؟ ومن كُتبت له السعادة يمضى فيقتحم فيها مسرعاً فيقول الله : قد عصيتمونى وأنتم لرسلى أشد تكذيباً ومعصية فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار » . وأخرج أحمد وابن راهويه والبيهقى وصححه عن الأسود بن سريع وأبى هريرة معاً رفعاه: «أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات فى فترة . فأما الأصم فيقول : رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول : رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوننى بالبعر . وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً . وأما الذى مات فى الفترة فيقول: رب ما أتانى لك رسول . فيأخذ مواثيقهم ليطيعنّه . فيرسل إليهم أن ادخلوا النار فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها يسحب إليها » ، وأخرج البزار عن سعيد عن أبى سعيد رفعه : « الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود : الهالك فى الفترة يقول: لم يأتنى كتاب ، ويقول المعتوه : رب لم تجعل لى عقلاً أعقل به خيراً ولا شرا ، ويقول المولود : رب لم أدرك العقل . فتُرفع لهم نار فيردها من كان فى علم الله سعيداً ،ويمسك عنها من كان فى علم الله شقيا لو أدرك العمل » . . . وفى الباب أحاديث أخر كما مرت الإشارة إليه فإذا أطاع جماعة كما هو صريح الأحاديث فما الظن بالآل إلا أنهم يطيعون ويدخلون الجنة (إكراماً له ﷺ) وكفى بظن هذا الحافظ حجة إذ لا يقوله إلا عن أدلة كالنهار (وقال فى الأحكام) وكذا فى(الإصابة) : (ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب وآل بيته الجنة فى جملة من يدخلها طائعاً فينجو)؛ لأنه ورد ما يدل على أنه كان على الحنفية والتوحيد حيث تبرأ من الصليب وآله. فقد روى ابن سعد عن ابن عباس أنه قال لما قدم أصحاب الفيل : لا نغلبن صليبهم رمى لهم عدوا محالك . وأورده جماعة بلفظ : وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك . وفى طبقات ابن سعد بأسانيده: أن عبد المطلب قال لأم أيمن بركة : لا تغفلى عن ابنى فإنى وجدته مع غلمان قريباً من السدرة وأن أهل الكتاب يقولون : إن ابنى نبى هذه الأمة . . .) . شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٢١٩ .

واستطاع التآمر القرشى أن يعيد أبا لهب إلى حظيرته . ويبقى وحده ـ عليه الصلاة والسلام . فيتجرأ السفهاء عليه فينثرون التراب على رأسه ، ويتجرأ الجيران عليه، فيطرحون فرثهم فى برمته ، أو يطرحونها عليه . وبعضهم يطرح رحم الشاة عليه وهو يصلى . والأوامر مشددة من رسول الله ﷺ ألا يقدم المسلمون على غيلة لعدوٍ أو سفيه ، أو يقدموا على طعنٍ بجرح أو ضرب بسيف أو سهم ؛حتى لا تشتعل المعركة قبل أوانها المحدد ، وواحد منهم قادر أن يقطع هذا السفيه إرباً إرباً . وقد رأينا هؤلاء العظام فى المعارك كما يصفهم العدو : ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب أصحاب محمد محمداً .

يقيمون جُدراً من اللحم والدم ، ومتاريس من الأرواح والأجساد حتى لا يصل أذى إلى رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ ويسقطون صرعى بين يديه ، ويذهلون عن حلائلهم وأبنائهم لحمايته .

عواطف المسلمين تتأجج غيظاً من هؤلاء العتاة العداة ، والتربية النبوية تطالبهم بكف اليد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والأذى ينصب على سيدهم وسيد خلق الله كافة، وهم يفدونه بالأرواح والمهج . لكن عظمة هذا الحب وهذا التفانى هو فى طاعته عليه الصلاة والسلام ، وفى كبح جماح عواطفهم المتأججة الفوارة .

ويأتى غوث الله تعالى لنصر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ، فيكفيه أكابر مجرميها حين ينجح الجيل المسلم فى الولاء الخالص ، والطاعة الخالصة لله ورسوله ، ويكفى هذا الجيل مؤونة المواجهة فى هذه المرحلة :

إنا كفيناك المستهزئين :

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ** ﴾ كما استهزئ بك وهذه تسلية للنبى ﷺ ﴿ **فَأَمْلَيْتُ** ﴾ أمهلت ﴿ **لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ** ﴾ بالعقوبة ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ (١) .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾ (٢) بأن أهلكناهم بآفة ﴿ **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ (٣) .

---

(١) الرعد / ٣٢ .
(٢) الحجر / ٩٥ .
(٣) الحجر / ٩٦ ـ ٩٩ .

قال الجمهور ـ ومنهم ابن عباس ـ فى أكثر الروايات عنه : كانوا خمسة . وقال فى رواية : كانوا ثمانية . وصححه فى الغرر ، وجزم به أبو عمرو العراقى فى الدرر .

الأول : الأسود بن عبد يغوث الزهرى :

وهو ابن خال رسول الله ﷺ . قال البلاذرى :

(كان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه : قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر ، ويقول للنبى ﷺ : أما كلمت اليوم من السماء يا محمد . وما أشبه هذا القول . فخرج من عند أهله ، فأصابته السموم فاسودَّ وجهه حتى صار حشيا . فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب ـ فرجع متلدِّدا حتى مات عطشاً .

ويقال: إن جبريل ﷺ أومأ إلى رأسه، فضربته الأكلة فامتخض رأسه[١] قيحاً . ويقال : أومأ إلى بطنه فسقى بطنه ومات حَبناً [٢]، ويقال : إنه عطش فشرب الماء حتى انشق بطنه) [٣] .

(قلت [٤] : والقول الأول رواه أبو نُعيم بسند ضعيف عن ابن عباس ، ورواه أيضاً عن الربيع بن أنس وزاد : وكان رجلاً أبيض حسن الجسم ، والقول الثانى: رواه الطبرانى والبيهقى والضياء بسند صحيح ، والقول الثالث : رواه أبو نعيم من طريقين ضعيفين .

وروى ابن أبى حاتم والبلاذرى بسند صحيح عن عكرمة ، أن جبريل حنى ظهر الأسود حتى احقوقف [٥] صدره . فقال رسول الله ﷺ : « خالى ، خالى » . فقال : دعه عنك يا محمد فقد كفيته) .

ولا تخالف بين هذه الروايات لاحتمال أن جميعها حصل له.

الثانى : الحارث بن قيس السهمى :

وهو ابن الغيطلة ينسب إلى أمه ، وكان يأخذ حجراً يعبده ، فإن رأى أحسن منه تركه وأخذ الأحسن . وفيه نزلت: ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** ﴾ [٦]. وكان يقول: لقد غرَّ محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث . فأكل حوتاً مملوحاً ، فلم يزل يشرب عليه الماء حتى انقدَّ بطنه، ويقال: إنه أصابته الذبحة. وقال بعضهم: امتخض رأسه قيحاً.

---

(١) امتخض رأسه : أى تحرك .
(٢) الحَبن : عظم البطن .
(٣) أنساب الأشراف ١ / ١٣١ ، ١٣٢ .
(٤) القول للصالحى مؤلف السيرة الشامية .
(٥) احقوقف : انحنى .
(٦) الفرقان / ٤٣ .

قلت : القول الأول رواه عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما عن قتادة ومقسم مولى ابن عباس .

الثالث : الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى :

(قال البلاذرى ـ رحمه الله ـ : كان هو وأصحابه يتغامزون بالنبى ﷺ وأصحابه ويقولون : قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر ، ثم يمكون ويصفرون. وكلّم رسول الله ﷺ بكلام شقّ عليه. فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يعمى الله بصره، ويثكله ولده، فخرج يستقبل ابنه وقد قدم من الشام ،فلما كان ببعض الطريق جلس فى ظل شجرة فجعل جبريل ﷺ يضرب وجهه وعينيه بورقة من ورقها خضراء ، ويشوك من شوكها حتى عمى فجعل يستغيث بغلامه . فقال له غلامه : ما أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك ، ويقال : إن جبريل ﷺ أومأ إلى عينيه فعمى فشُغل عن رسول الله ﷺ ، ولما كان يوم بدر قتل ابنه زمعة بن الأسود . قتله أبو دجانة ،ويقال : قتله ثابت بن الجذع ، وقُتل ابنه عقيل أيضاً وقتله حمزة بن عبد المطلب وعلى رضي الله عنه اشتركا فى قتله . وقيل: قتله على وحده رضي الله عنه) [1] .

الرابع : مالك بن الطلاطلة :

هو ابن عمر بن غُبشان ذكره فيهم ابن الكلبى والبلاذرى وكان سفيهاً فدعا عليه رسول الله ﷺ ، واستعاذ بالله من شره فعصر جبريل بطنه حتى خرج خلاؤه من فمه فمات [2] .

وقال البلاذرى : وقال غير ابن الكلبى: أشار جبريل إليه فامتخض رأسه قيحاً [3] .

وقال آخر : هو عمرو بن الطلاطل ، وذلك باطل .

الخامس : العاص بن وائل السهمى :

قال البلاذرى : ركب حماراً له ويقال: بغلة بيضاء ، فلما نزل شعباً من تلك الشعاب ،وهو يريد الطائف ربض به الحمار أو البغلة على شبرقة ، فأصابت رجله شوكة منها ،فانتفخت حتى صارت كعنق البعير ومات ،ويقال :إنه لما ربض به حماره أو البغلة لدغ فمات مكانه . قلت : الأول رواه البلاذرى ، والقول الثانى رواه أبو نعيم بسند ضعيف عن ابن عباس . وروى الشيخان وابن إسحاق عن خبَّاب بن الأرت قال :

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ١ / ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ١٥٤ .

(٣) وما هنا موافق للبلاذرى فى أنساب الأشراف ١ / ١٣٩ .

كنت قيْنا حداداً فى الجاهلية ، فعملت للعاص بن وائل سيوفاً . وفى رواية : سيفاً ، فجئته أتقاضاه فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ . فقلت : لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث . قال : وإنى لميت ثم مبعوث ؟ ! قلت : بلى . قال : دعنى أموت وأبعث فنؤتى مالاً وولداً فأعطيك هنالك حقك . ووالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله منى ولا أعظم حقاً . فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ **أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً . أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً . كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً . وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً** ﴾[1] [2] .

السادس : الحكم بن أبى العاص بن أمية :

قال البلاذرى : (كان ممن يؤذى رسول الله ﷺ يشتمه ويسمعه ما يكره . وكان رسول الله ﷺ يمشى ذات يوم وهو خلفه يخلج بأنفه وفمه،وبقى على ذلك ، وأظهر الإسلام يوم الفتح ، وكان مغموصاً عليه فى دينه . فاطَّلع يوماً على رسول الله ﷺ وهو فى بعض حجر نسائه . فخرج إليه بعنزة ، وقال : « من عذيرى من هذا الوزعة ؟ لو أدركته لفقأت عينه » أو كما قال ﷺ ، ولعنه وما ولد وغرَّبه من المدينة ، فلم يزل خارجاً منها إلى أن مات عمر بن الخطاب رضي الله عنه) [3] .

قلت :وروى أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان رجل خلف النبى ﷺ يحاكيه ويلمض،فرآه النبى ﷺ فقال :« وكذلك كن ». فرجع إلى أهله فليط به مغشيا عليه شهراً ثم أفاق وهو كما يحاكى رسول الله ﷺ . وهذا المبهم، الظاهر أنه الحكم .

السابع : الوليد بن المغيرة :

قال البلاذرى:(فمر الوليد برجل يقال له: حرَّاث ـ وهو يريش نبلاً له ويصلحها، فوطئ على سهم منها فخدشته خدشا يسيراً. ويقال: عَلَق بإزاره ، فخدش ساقه خدشاً خفيفاً فأهوى إليه جبريل فانتفض الخدش ، وضربته الأكلة فى رجله أو ساقه فمات .

---

(١) مريم / ٧٧ ـ ٨٠ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب التفسير سورة مريم م ٢ ج ٦ ص ١١٨ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ١ / ١٥١ .

الثامن : أبو لهب :

وكان من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ .

(قال البلاذرى : وكان يطرح القذر والنتن على باب رسول الله ﷺ فرآه حمزة بن عبد المطلب وقد طرح من ذلك شيئاً فأخذه وطرحه على رأسه . فجعل أبو لهب ينفض رأسه ويقول : صابئ أحمق . فأقصر عما كان يفعل ، لكنه كان يدس من يفعله) (١) .

قال : وروى ابن أبى الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « كنت بين شر جارين : بين أبى لهب وعقبة بن أبى معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى » .

قالت : وكان رسول الله ﷺ يقول : « يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ » ثم يميطه عن بابه .

قالوا : وبعث أبو لهب ابنه عتبة بشىء يؤذى به رسول الله ﷺ فسمعه يقرأ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (٢) فقال : أنا كافر برب النجم . فقال رسول الله ﷺ : « سلط الله عليه كلباً من كلابه » ، فخرج فى تجارة فجاء الأسد وهو بين أصحابه نائم بحوران من أرض الشام ، فجعل يهمس ويشم حتى انتهى إليه فمضغه مضغة أتت عليه ، فجعل يقول وهو بآخر رمق : ألم أقل لكم : إن محمداً أصدق الناس ؟! ثم مات .

قلت : وصوابه عُتَيْبةُ بالتصغير كما سيأتى ذلك فى أبواب إجابة دعوته .

ومات أبو لهب بداء يُعرف : بالعَدَسة (٣) . كانت العرب تتشاءم به وتفرُّ ممن ظهر به . فلما أصاب أبا لهب تركه أهله حتى مات ، ومكث مدة لا يُدفن حتى خافوا العار فحفروا له حفرة فرموه فيها كما سيأتى بيان ذلك .

وكانت امرأته أم جميل ابنة حرب تؤذى رسول الله ﷺ كثيراً وهى حمالة الحطب، وإنما سمّاها الله تعالى بذلك؛ لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه بالليل على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر هو وأصحابه لتعقرهم بذلك ، فبينا هى ذات يوم تحمل حزمة أعيت فقعدت على حجر تستريح أتاها ملك فجذبها من خلفها بالحبل الذى فى عنقها فخنقها به.

وذكر البلاذرى ممن كان يؤذى رسول الله ﷺ أبو الأصداء ، وكان يقول لرسول الله ﷺ : إنما يعلمك أهل الكتاب أساطيرهم ، ويقول للناس: هو معلَّم مجنون ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فإنه لعلى جبل إذ اجتمعت عليه الأروى فنطحته حتى قتلته (٤) .

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ١/ ١٥١ . (٢) النجم / ١ .

(٣) العدسة : بثرة تخرج بالبدن فتقتل ، وإنما هلك أبو لهب بعد غزوة بدر .

(٤) سبل الهدى والرشاد للإمام محمد بن يوسف الصالحى ٢/ ٦٠٥ ـ ٦١١ .

وذكر ابن إسحاق فيهم أمية بن خلف الجمحى .

قال ابن إسحاق : وكان إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ . الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَه ﴾ (١) .

والنضر بن الحارث . . . كان إذا جلس رسول الله مجلساً فدعا فيه إلى الله وتلا عليهم القرآن وحذَّر قريشاً ما أصاب الأمم الماضية ، خلفه فى مجلسه إذا قام فحدّثهم عن ملوك الفرس ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين .

ومنهم الأخنس بن شريق، واسمه أبى ، وذكر غير واحد أنه أسلم بعد ذلك.

ومنهم أبى بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط .

قال ابن إسحاق : وكانا متصافيين حسناً ما بينهما .

روى ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير ، وعبدالرزاق فى المصنّف وابن جرير وابن المنذر عن مقسَم مولى ابن عباس كلاهما عنه أن أبا معيط ـ وفى رواية : عقبة بن أبى معيط ـ كان يجلس مع رسول الله ﷺ بمكة ولا يؤذيه . وكان رجلاً حليماً ـ وفى رواية : أنه أمية بن خلف ـ فقالت قريش : صبأ أبو معيط ـ وفى رواية: كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً . فدعا أهل مكة كلهم . فصنع طعاماً ثم دعا رسول الله ﷺ إلى طعامه فقال : « ما أنا بالذى آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . فقال : أطعم يابن أخى. فقال: « ما أنا بالذى أفعل حتى تقول » . فشهد بذلك . وطعم من طعامه . وقدم خليله من الشام ليلاً فقال لامرأته : ما فعل محمد مما كان عليه ؟ قالت : أشدَّ ما كان أمراً . فقال : ما فعل خليلى أبو معيط ؟ قالت : صبأ . فبات ليلة سوء فلما أصبح أتاه ابن أبى معيط فحياه ، فلم يرُد عليه التحية . فقال : مالك لا ترد علىّ تحيتى ؟ فقال : كيف أرد عليك تحيتك وقد صبأت ؟ قال : أو قد فعلتها قريش ؟ لا والله ما صبأت . ولكن دخل علىّ رجل فأبى إلا أن يأكل من طعامى إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى قبل أن يطعَم فشهدت له .

قال : ما أنا بالذى أرضى عنك حتى تأتيه فتبزق فى وجهه ـ وفى رواية : ما يبرئ صدورهم إن أنا فعلت ؟ قال : تأتيه فى مجلسه فتبزق فى وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلم من الشتم . ففعل . فلم يزد النبى ﷺ أن مسح وجهه من البزاق.

---

(١) سورة الهمزة .

ونقل جماعة منهم أبو ذر الخشنى عن أبى بكر النقاش ؛ أن عقبة لما تفل فى وجه النبى ﷺ رجع ما خرج منه إلى وجهه فصار برصاً .

ثم التفت إليه النبى ﷺ فقال : « إن وجدتك خارجاً من جبال مكة ضربت عنقك صبراً » . وقال أبى بن خلف : والله لأقتلن محمداً فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « بل أنا أقتله إن شاء الله » . فلما بلغ ذلك أبيا أفزعه لأنهم لم يسمعوا من النبى ﷺ قولاً إلا كان حقاً .

فلما كان يوم بدر ، وخرج أصحاب عُقبة ، أبى أن يخرج فقال له أصحابه : اخرج معنا .فقال: قد وعدنى هذا الرجل إن وجدنى خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقى صبراً . فقالوا : لك جمل أحمر لا يدرك فلو كانت الهزيمة طرت عليه،فخرج معهم. فلما هزم الله المشركين وَحَلَ به جمله فى أخدود من الأرض فأخذه رسول الله ﷺ أسيراً فى سبعين من قريش وقدم إليه ابن أبى معيط فقال : أتقتلنى من بين هؤلاء؟ قال: « نعم » . فقام إليه على بن أبى طالب فضرب عنقه ، ولم يقتل من الأسارى يومئذ غيره [1] .

فلما كان يوم أحد خرج أبى مع المشركين ، فجعل يلتمس غفلة رسول الله ﷺ ليحمل عليه فيحول رجل بين النبى ﷺ .فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال لأصحابه: « خلوا عنه » ، فأخذ الحربة ورماه بها فوقعت فى ترقوته ، فلم يخرج منه دم كثير ، واحتقن الدم فى جوفه ، فجعل يخور كما يخور الثور ، فاحتمله أصحابه وهو يخور فقالوا : ما هذا الذى بك ! فوالله ما بك إلا خدش. فقال: والله لو لم يصبنى إلا بريقه لقتلنى ! أليس قد قال : « أنا أقتله » . والله لو كان الذى بى بأهل ذى المجاز لقتلهم . فما لبث إلا يوماً حتى مات .

وأنزل الله فى (ابن) أبى معيط : ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولا** ﴾ [2] .

ومنهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم.

قال البلاذرى وغيره: كنَّاه رسول الله ﷺ بذلك وكان يكنى قبل ذلك أبا الحكم [3] .

---

(١) المشهور أنه قتل معه النضر بن الحارث صبراً كذلك،ومرثية قتيلة بنت الحارث أخته فيه مشهورة متواترة .

(٢) الفرقان / ٢٧ ـ ٢٩ .

(٣) أنساب الأشراف ١ / ١٥٥ .

قال : ورُوى عن رسول الله ﷺ أنه من قال لأبى جهل : أبا الحكم فقد أخطأ خطيئة يستغفر الله منها (١) .

ورُوى عنه أنه قال : « لكل نبى فرعون ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل » (٢) .

قال ابن إسحاق: ولقى أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ فقال له : والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا ، أو لنسبَّن إلهك الذى تعبد. فأنزل الله تعالى :

﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) . فذكر لى أن رسول الله ﷺ كفَّ عن سب آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله ـ عز وجل .

ولما أنزل الله ـ عز وجل : **﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . . . ﴾** تخويفاً لهم بها، قال أبو جهل: يا معشر قريش: أتدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا. قال: عجوة يثرب بالزبد! والله لئن استمكنا منها لنتزقمنَّ منها ، فأنزل الله ـ عز وجل: **﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾** (٤) .

* * *

١ ـ لابد أن نستشعر ابتداء أننا مع سيد الوجود محمد ﷺ . وأن الله تعالى يخفف عنه حين يذكر له خبر إخوانه من المرسلين الذين استهزئ بهم، وكثيرا ما يستعرض القرآن الكريم القصص التفصيلية لهؤلاء الرسل مع أقوامهم. وهذه هى سنة الدعوات التى لا تتخلف: **﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾** (٥).

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (٦).

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾(٧) .

---

(١) أنساب الأشراف ١ / ١٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ١ / ١٢٥ .
(٣) الأنعام / ١٠٨ .
(٤) الدخان / ٤٣ ـ ٤٩ .
(٥) الفرقان / ٣١ .
(٦) الأنعام / ١١٢ .
(٧) الأنعام / ١٢٣، ١٢٤ .

ونلحظ أن هذه الآيات توجه إمام الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى الصبر. ففى الأولى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾وفى الثانية: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ وفى الثالثة: ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ .

والآيات تطالب الصف المسلم وراء قائده ــ عليه الصلاة والسلام ــ أن يكف يده، ويترك هؤلاء للعقوبة الإلهية ، فالله الذى تكفل بالنصر ، والله تعالى هو الذى تكفل بالصغار للمجرمين ، وما على الجيل المؤمن إلا أن يكون شاهداً حيا على هذا النصر للمؤمنين ، وهذا الصغار للمجرمين فى هذه المرحلة ، وسيد الساحة الآن هو محمد ﷺ الذى يقع عليه التكذيب والأذى والاستهزاء ، وهو رسول الله ﷺ ، وهؤلاء أعداء الله ورسوله . وشاءت إرادة الله ـ عز وجل ـ أن يتوفى أبو طالب ، وأن ينكص أبو لهب ، وأن يتلقى القائد العظيم بعض الأذى والعذاب والاستهزاء والمكر والتحدى ، وأن يتلقى كما تلقى إخوانه المؤمنون من قبله . وإخوانه وجنوده ينظرون إليه . وقلوبهم تتفطر ألماً وحزناً عليه . وأن إراقة دمائهم أسهل عليهم ألف مرة من أن يلقوا قائدهم ــ عليه السلام ، يتجرأ عليه هؤلاء السفهاء ، ويتمالأ عليه هؤلاء الملأ فى موقف موحد ينالون منه ومن دعوته . وهم الذين عرضوا من قبل على رسول الله ﷺ أن ينقضوا فى ليلة واحدة على أولئك الملأ ، فيجندلونهم قتلى جميعاً ، وتصبح مكة للمسلمين وحدهم . ورسول الله ﷺ ينهاهم عن ذلك .

٢ ـ وحيث إن رسول الله ﷺ هو سيد الوجود كله ، وليس سيد هؤلاء الصحب وحدهم ، فكل من فى الوجود يهيم حباً وشوقاً برسول الله ﷺ ، ويسبح بحمد الله خالق السموات والأرض. فلابد أن يكون له شرف الثأر لرسول الله ﷺ من هؤلاء المتغطرسين العتاة .

إننا حين نذكر أن الشاة بكت وشكت لرسول الله ﷺ ما تعانيه . وأن الجمل بكى بين يدى حبيبه عليه الصلاة والسلام وسجد له. وأن رسول الله ﷺ قال : « إن هذه الذراع لتخبرنى أنها مسمومة » . حين ندرك ذلك ، نستشعر أن هذه البهيمة التى اختارها الله ـ عز وجل ـ لتكون أداة قتل أعدائه ، لتدرك أنها تثأر لحبيبها ـ محمد عليه الصلاة والسلام . فتلك الأروى فى الجبال التى اجتمعت تنطح أبا الأصداء الهزلى بقرونها حتى قتلته ، لتحس أنها تخوض معركة فى سبيل الله ، ونصراً لرسول الله ﷺ، وذلك الأسد فى الزرقاء ، الذى اقتحم ركب قريش كله وانقض على عتيبة بن أبى لهب، فقضمه وأكله ، ليدرك أنه يقتل عدوا من أعداء الله ورسوله ، وذاك الحمار أو البغل الذى ينزلق بالعاص بن وائل السهمى فوق شبرقة شاكة يحس أنه يؤدى دوراً

مكلفاً به فى الإنهاء على العاص بن وائل . وتلك الحية أو العقرب التى لدغته ـ كما فى الرواية الأخرى ـ هى أسعد ما تكون أن تقتل عدواً من المجرمين لحبيبها محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

فقد أخرج أحمد وابن أبى شيبة والدارمى وأبو نعيم، عن جابر بن عبد الله قال : دفعنا مع رسول الله ﷺ إلى حائط بنى النجار فإذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شدَّ عليه . فأتاه النبى ﷺ فدعاه واضعاً مشفره فى الأرض حتى برك بين يديه فقال : « هاتوا خطاماً » ودفعه إلى صاحبه ثم التفت وقال : « ما بين السماء والأرض إلا يعلم أنى رسول الله إلا عاصى الجن والإنس » [1] ، وعن أبى سعيد الخدرى قال : عدا الذئب على شاة فأخذها ، فطلبها الراعى فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه فقال: ألا تتقى الله تنزع منى رزقاً ساقه الله ــ عز وجل ــ إلىّ . فقال : يا عجباً ! ذئب مقعى على ذنبه يكلمنى بكلام الإنس . فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك : محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق . قال : فأقبل الراعى يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزوى إلى زاوية من زواياها ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ فنودى: الصلاة جامعة ثم خرج فقال للأعرابى: أخبرهم، فأخبرهم فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذى نفس محمد بيده ، لاتقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ، ويخبر فخذه ما أحدث أهله بعده » [2] .

وما يعلم جنود ربك إلا هو .

حتى الأكلة التى جاءت فأكلت رأس الأسود ، والجرثومة التى نزلت برأس أبى لهب هى من جند الله المسخر لقتل أعدائه . وليست هذه البهائم فقط ، بل الجمادات كذلك فى هذا الوجود لتتجاوب مع سيد هذا الوجود رسول الله ﷺ ، ففى الحديث الصحيح :

« إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم علىَّ قبل أن أبعث، إنى لأعرفه الآن » [3] .

وفى الحديث الصحيح عن الشجرة التى شهدت لرسول الله ﷺ بالرسالة ، والجذع الذى حنَّ إلى حبيبه محمد ــ عليه الصلاة والسلام، وأحد الجبل الذى « يحبنا ونحبه» .

هذه الجمادات التى تجاوبت مع سيد الوجود ﷺ بأمر ربها ، لا عجب أن نجد ورقة الشجرة التى تضرب وجه ابن عبد يغوث، والشوكة التى علقت برجل الأسود ، والسهم

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى ١ / ٢٥٧ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٨ / ٢٩١ ، وقال فيه : « رواه أحمد والبزار ورجال أحد إسنادى أحمد رجال الصحيح ».

(٣) مسلم ج ٤ ح ٢٧٧ ، ص ١٧٨٢ .

الذى علق بكعب ابن المغيرة ، والسموم التى ضربت وجه ابن عبد يغوث؛ أن تكون هذه كلها من جند الله لنصر ـ نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأن تملك من دفء المشاعر والأحاسيس بصورة لا يعلم كنهها إلا الله ، وهى تؤدى رسالة فى قتل عدوٍ من المجرمين لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام .

إن الورقة ، والشوكة ، والشبرقة ، والسهم ، والسموم ، والحبل لتؤدى رسالة من الرسالات التى كلفها الله تعالى بها نيابة عن الصف المؤمن بهذه المرحلة. وتسعد بنصرة نبيها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتتشرف بقتل أعدائه بأمر ربها عز وجل .

٣ ـ هذا ومن حكمة الله ـ عز وجل ـ أن يشترك هؤلاء جميعاً فى المعركة وهن أضعف خلق الله ؛ لتكون العبرة أعظم فى قتل العتاة وأكابر المجرمين الصادين عن سبيل الله . وحين نستعرض أهم نماذج هؤلاء المستهزئين نلاحظ على رأسهم الوليد بن المغيرة عظيم قريش الذى قال : أينزل على محمد وأُترك وأنا عظيم مكة ؟

وقال الله تعالى عن هذا التبجح : ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ (١) .

هذا العظيم وسيد بنى مخزوم ينتهى أمره بالوطء على ذلك السهم الذى خدشه خدشاً يسيراً . ويتمم جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مهمة الثأر لنبيه محمد ﷺ ، فأهوى إليه جبريل فانتفض الخدش . . . ثم تأتى أصغر مخلوقات الله ، الأكلة فى رجله وساقه فتنهش منه حتى يموت .

وعلى رأسهم كذلك أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد ، الذى شبه رسول الله ﷺ عزّ صاحب ناقة صالح بعزِّه فقال :

« انبعث لها رجل عزيز منيع فى رهط مثل رهط أبى زمعة » .

والذى كان بعزته ومنعته يتهكم على المسلمين ملوك الأرض، فتأتى الورقة الخضراء وشوكها يتكفلان بصكه حتى العمى. ولم ينته أمره بعد فدعوة الرسول ﷺ أن يعمى بصره ويثكله، هذا عماه. وأما ثكله بولده. فنشهده بعد بدر . كما يروى ابن إسحاق : (وكانت قريش قد حرمت البكاء على قتلاها حتى لا يشمت المسلمون بهم،فسمع أبو زمعة نائحة من الليل فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظر هل أُحل النحيب؟هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة ـ يعنى زمعة ـ فإن جوفى قد احترق. قال : فلما رجع الغلام قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته . فذلك حين يقول الأسود :

---

(١) الزخرف / ٣١ .

أتبـكى أن يضـل لـها بـعير	ويمنـعها مـــن النـوم السهـود
فـلا تبـكى عـلى بكر ولكـن	عـلى بــدرٍ تــقاصرت الجـدود
وبـــكى إن بكـيت عـلى عقيل	وبـــكى حـارثاً أســـد الأسود
وبكيـهـم ولا تسـمـى جمـيعاً	ومـا لأبـــى حـكيمة مـن نديد

فلم يثكل ولداً واحداً له فقط . إنما ثكل ثلاثة من ولده : زمعة وعقيل والحارث ابن زمعة . وهذا هو حال العزيز المنيع فى رهطه .كيف آلت حاله بعد أن عمى وفقد ولده !!

وعلى رأس هؤلاء كذلك العاص بن وائل السهمى . ويكفى أن نذكر من شرفه أنه هو الذى واجه قريشاً كلها وأجار عمر بن الخطاب بعد إسلامه .

فعن زيد بن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن أبيه قال : بينما هو فى الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمى أبو عمرو عليه حُلَّة حَبِرة وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بنى سهم ، وهم حلفاؤنا فى الجاهلية ، فقال له : ما بالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوننى إن أسلمت ، قال : لا سبيل إليك . بعد أن قالها أمنت. فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى فقال : أين تريدون ؟ قالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذى صبأ . قال : لا سبيل إليه . فكر الناس) (١) .

وفى رواية : (قال عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره وقالوا : صبأ عمر وأنا غلام فوق ظهر بيتى فجاء رجل عليه قباء من ديباج فقال : قد صبأ عمر فما ذاك ؟ فأنا له جار ، قال : فرأيت الناس تصدعوا عنه . فقلت : من هذا ؛ قالوا : العاص بن وائل) (٢) .

هذا العاص بن وائل سيد بنى سهم وشريف مكة ، والذى بلغ من شرفه كما يذكر عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن يعود الناس الذين سال بهم الوادى، وينكشفون عن عمر لكلمته: أنا له جار . هذا العزيز الشريف ، ماذا آل أمره ؟ أصابت رجله شوكة من شبرقة فانتفخت حتى صارت كعنق البعير ومات. ويقال : إنه لما ربض به حماره أو البغلة لدغ فمات مكانه . فالشوكة والعقرب أو الحية حليفان لهدف واحد واشتركا فى قتل العاص بن وائل السهمى .

ومن هؤلاء الحارث بن قيس السهمى ، الذى كان أبا ستة من الشباب يعتز بهم فى رهطه .

(١ ، ٢) صحيح البخارى ، باب إسلام عمر بن الخطاب م ٢ ج ٥ ص ٦٠ ، ٦١ .

فكان القدر السعيد أن دخل هؤلاء الستة فى الإسلام وهم : عبد الله ، والسائب ، والحجاج ، وتميم ، وسعيد ، ومعبد . وتركوه وحيداً فى العراء . قد فقد عزّه (فأكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب عليه الماء حتى اتقد بطنه) .

ومن هؤلاء أبو لهب الذى سمى بأبى لهب لجمال وجهه . والذى فاصل قومه لحرب ابن أخيه محمد ﷺ .

فقد روى الطبرانى عن طارق بن عبد الله قال : (إنى بسوق ذى المجاز إذ مرَّ بى رجل عليه حلة من برد أحمر وهو يقول : «يا أيها الناس قولوا : لا إله الله تفلحوا »، ورجل خلفه قد أدمى عرقوبيه وساقيه يقول : يا أيها الناس إنه كذاب فلا تطيعوه . فقلت : من هذا؟ قالوا : غلام بنى هاشم الذى يزعم أنه رسول الله ،وهذا عمه عبد العزى) [(١)] .

وهو الذى كان يلقى فرث الشاة على رسول الله ﷺ وهو يصلى . هذا العزيز المنيع نشهد وفاته كما رواها ابن إسحاق :

(فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته ضربة فلقت فى رأسه شجة منكرة . وقالت : استضعفته إن غاب عنه سيده ،فقام مولياً ذليلاً . فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته) [(٢)] .

وفى السيرة الحلبية : فلم يحفروا له حفيرة ولكن أسندوه إلى الحائط وقذفوا عليه الحجارة خلف الحائط حتى واروه (أى لأن العدسة قرحة كانت العرب تتشاءم منها . ويرون أنها تعدى أشد العدوى ، فلما أصابت أبا لهب تباعد عنه بنوه ، وبقى بعد موته ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاول أحد دفنه حتى أنتن ، فلما خافوا السبة : أى سب الناس لهم فى تركه فعلوا به ما ذكر .

وفى رواية : حفروا له ثم دفعوه بعود فى حفيرته وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه . وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها كانت إذا مرت بموضعه ذلك غطت وجهها) [(٣)] .

ومن هذه الزعامات أم جميل بنت حرب التى كانت تأخذ الحجر لتضرب به رسول الله ﷺ وترمى الشوك فى طريقه .

(أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٥٩٤ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٥٢ .
(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٤٤٥ .

وفى يدها فِهر من حجارة فلما وقفت عليهما أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ . فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ، فقد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة ، ثم أنشأت تقول :

مذمما عصينا | وأمره أبينا | ودينه قلينا

ثم انصرفت . فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال : « ما رأتنى لقد أخذ الله بصرها عنى » . وكانت قريش إنما تسمى رسول الله ﷺ مذمماً ثم يسبونه . فكان رسول الله ﷺ يقول : « ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذى قريش يسبون ويهجون مذمماً ، وأنا محمد » (١) .

ها هو الحبل الذى كان رفيقها دائماً . يندفع بأمر الملك على عنقها فيخنقها به لينهى حياة حمالة الحطب فى الأرض وتستعد لتكون حطب النار غداً يوم القيامة .

٤ ـ هذا عن الجيل الأول من المستهزئين الكبار ، أما الجيل الثانى فقد أكرم الله حزبه أن مكّنهُ من قتلهم ، وهؤلاء هم أمية بن خلف ، وأبى بن خلف، وأبو جهل بن هشام ، والنضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط . والذين امتد بهم الزمن إلى بدر وأحد . وأذهب الله غيظ قلوب المؤمنين وشفا صدورهم بعد صبر طويل كاد يتلف أعصابهم. ولنقف مع كل منهم وهو يشهد مصرعه .

أما أمية بن خلف : فقد رأى رجلاً فى جيش محمد ﷺ كالأسد يجندل الأبطال ويقتل الرجال . فسأل عبد الرحمن بن عوف عنه فقال : ذاك حمزة بن عبد المطلب . فقال أمية : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل ، إنه حمزة الذى كان قادراً أن يفعل الأفاعيل فى مكة ، كما فعلها فى بدر ، ولكنها التربية النبوية التى غلّت يده عن الحركة فى مكة وأطلقتها فى المدينة . وها هو أمية وهو يرى أنه نجا من الموت ، تأتى ساعة الثأر منه من بلال بن رباح الذى كان أمية يعذبه فى رمضاء مكة ، ويضع الصخرة الثقيلة على صدره ليكفر بمحمد وإله محمد، وآن أوان المستضعفين أن يمكنوا فى الأرض، فصرخ بلال : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا . يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كما فى البخارى : إن بلالاً لما استصرخ الأنصار خشيت أن يلحقونا فخلفت لهم ابنه لأشغلهم به فقتلوه . ثم أتونا فلحقوا بنا ، وكان أمية رجلاً ثقيلاً فقلت: ابرك. فألقيت نفسى عليه لأمنعه فتخللوه بالسيوف من تحتى حتى قتلوه (٢).

أما أبى بن خلف : فهو أشقى الخلق فقد كان قتيل رسول الله ﷺ . وذلك حين

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٣٧ .
(٢) السيرة الحلبية ٢ / ٤١٧ .

أقبل صارخاً:هذا محمد لا نجوت إن نجا (فاستقبل مصعب بن عمير رضي الله عنه فقتل مصعباً، فاعترضه رجال من المسلمين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يخلوا طريقه فأقبل وهو يقول : يا كذاب أين تفر ؟ وتناول النبى ﷺ الحربة من بعض أصحابه فخدشه بها فى عنقه خدشاً غير كبير احتقن الدم . وفى رواية :

أن النبى ﷺ طعنه طعنة وقع فيها مراراً من على فرسه ، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح) (١) .

أما سيد أهل الوادى : أبو جهل بن هشام : فنشهده يقتل من رويعى الغنم عبد الله بن مسعود .

يقول عبد الله : (انتهيت إلى أبى جهل يوم بدر وقد قُطعت رجله وهو صريع وهو يذب الناس عنه بسيف له، فقلت : الحمد لله الذى أخزاك يا عدو الله ، قال : هل هو إلا رجل قتله قومه ؟ قال : فجعلت أتناوله بسيف لى غير طائل فأصبت يده ، فيدر (أى سقط سيفه) فأخذته فضربته حتى قتلته ثم خرجت حتى أتيت النبى ﷺ كأنما أقل من الأرض ـ أى : أحمل من شدة الفرح ـ فأخبرته فقال : « الله الذى لا إله إلا هو » وفى لفظ تقدم: «لا إله غيره» ردده ثلاثاً، وفى رواية عن ابن مسعود: فاستحلفنى ﷺ ثلاث مرات . ثم قال : «الحمد لله الذى أعز الإسلام وأهله» ثلاث مرات وخرَّ ساجداً : أى خمس سجدات شكراً لله) (٢) .

النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط :ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين وفيهم عقبة بن أبى معيط،والنضر بن الحارث . . . حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث قتله على بن أبى طالب . . . ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبى معيط . فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله : فمن للصبية يا محمد ؟ قال: « النار » ، فقتله عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح الأنصارى) (٣) .

٥ ـ هؤلاء أعدى العدو الذين يكذبون الله ورسوله . لو تغلغلنا فى أعماقهم لشهدنا عجباً . وهو مدى ثقتهم بصدق رسول الله ﷺ .ولنأخذ نماذج من ذلك :

أ ـ أمية بن خلف : (قال سعد بن معاذ لأمية بن خلف : إليك عنى فإنى سمعت

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٥١١ .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٤٢٢.
(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٤٧ .

محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلك ، قال : إياى ؟ قال: نعم . قال : بمكة . قال : لا أدرى، قال: والله ما كذب محمد. فكاد يحدث أن يبول فى أثوابه فزعا. فرجع إلى امرأته فقال : ما تعلمين ما قال أخى اليثربى - يعنى سعد بن معاذ ؟ قالت : وما ذاك؟ قال : زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلى . فقالت : فو الله ما يكذب محمد . قال: فلما جاء الصريخ وأراد الخروج ، قالت له امرأته : أما علمت ما قال لك أخوك اليثربى؟ قال : فإنى إذن لا أخرج . فجاء إليه وهو جالس مع قومه عقبة بن أبى معيط بمجمرة فيها مجمر - أى بخور - يحملها حتى وضعها بين يديه ثم قال: يا أبا على ، تجمّر فإنما أنت من النساء. فقال له: قبحك الله وقبح ما جئت به. وكان عقبة - كما فى فتح البارى - سفيهاً. وكان أبو جهل سلّط عقبة على ذلك. وفى لفظ : أتاه أبو جهل فقال له : يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت من أشراف الوادى تخلفوا معك. فسر يوماً أو يومين . فتجهز مع الناس) (١) .

ب - **أبى بن خلف** : وتناول النبى ﷺ الحربة من بعض أصحابه . فخدشه بها فى عنقه خدشاً غير كبير احتقن الدم فقال : قتلنى والله محمد، فقالوا : ذهب والله فؤادك . إنك لتأخذ السهام من أضلاعك فترمى بها ، فما هذا، والله ما بك من بأس . . . فقال : واللات والعزى لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المجاز - وفى لفظ - : لوكان بربيعة ومضر - وفى لفظ - : بأهل الأرض لماتوا أجمعون. إنه قد كان قال لى بمكة أنا أقتلك، فوالله لو بصق علىّ لقتلنى ؛ لأنه كان يقول للنبى ﷺ : يا محمد إن عندى العود (يعنى فرساً له) أعلفه كل يوم فرْقاً (مكيال يسع اثنى عشر مدا) من أذرة أقتلك عليها فيقول له رسول الله ﷺ : « أنا أقتلك إن شاء الله » .

هذا المجرم العاتى الذى يدرك فى أعماقه أن محمداً ﷺ لو بصق عليه لقتله، هو الذى عبأ عقبة بن أبى معيط ليمضى إلى محمد ﷺ فيبصق فى وجهه ويشتمه . ومن أجل هذا كان من أشقى الخلق :

« أشقى الخلق رجل قتل نبيا أو قتله نبى » (٢) .

ولم يقتل رسول الله ﷺ بيده أحداً من الخلق غيره .

جـ - **عقبة بن أبى معيط** : (فلما كان يوم بدر ، وخرج أصحاب عقبة ، وأبى أن

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٣٧٨ .

(٢) أما نص الحديث فهو كما ورد فى مشكاة المصابيح ج ٣ ح ٥٨٥٠ : عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه (وأشار إلى رباعيته) واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله فى سبيل الله » ، والحديث متفق عليه عند الإمامين البخارى ومسلم .

يخرج فقال له أصحابه : اخرج معنا . فقال : قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه. فخرج معهم. فلما هزم الله المشركين وحل به جمله في أخدود الأرض، فأخذه رسول الله ﷺ أسيراً في سبعين من قريش وقدّم إليه ابن أبي معيط . فقال : أتقتلني من بين هؤلاء ؟ قال : نعم. فقام إليه على بن أبي طالب فضرب عنقه) (١) .

د ـ **النضر بن الحارث** : (وفي الإمتاع أنه ﷺ نظر إلى النضر وهو أسير ، فقال النضر للأسير الذي بجانبه : محمد والله قاتلي ، فإنه نظر إليّ بعينين فيهما الموت . فقال له : والله ما هذا منك إلا رعب ، وقال النضر لمصعب بن عمير : يا مصعب ، أنت أقرب من هذا إليّ رحماً ، فكلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي (يعني المأسورين) هو والله قاتلي ، فقال مصعب : إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا ، وتقول في نبيه ﷺ كذا وكذا ، وكنت تعذب أصحابه) (٢) .

سفر النبي ﷺ إلى الطائف .. ذروة المحنة :

(قال موسى بن عقبة وابن إسحاق وغيرهما : ولما هلك أبو طالب ، ونالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تنال منه في حياته . خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف وحده ماشياً . وفي حديث جبير بن مُطعم عن ابن سعد : أن زيد بن حارثة كان معه في ليالٍ من شوال سنة عشر ، يلتمس النصر من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه . ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى .

فلما انتهى إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف . وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح . فجلس إليهم رسول الله ﷺ وكلمهم بما جاء به من نصرته على الإسلام ، والقيام على من خالفه من قومه. فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك .

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم من أن أرد عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خبر ثقيف .

وقد قال لهم :« إن فعلتم ما فعلتم ، فاكتموا عليّ »، وكره رسول الله ﷺ أن

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢ / ٦١٧ . (٢) السيرة الحلبية ٢ / ٤٤٠ ، ٤٤١ .

يبلغ قومه. فأقام بالطائف عشرة أيام ، قيل : شهراً لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاء إليه وكلمه. فلم يجيبوه ، وخافوا على أحداثهم منه فقالوا : يا محمد ، اخرج من بلدنا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس .

قال ابن عُقبة : وقفوا له صفين على طريقه . فلما مر رسول الله ﷺ بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه .

زاد سليمان التيمى: أنه ﷺ كان إذا أذلفته الحجارة يقعد على الأرض . فيأخذون بعضديه فيقيمونه ، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون .

قال ابن سعد : (وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج فى رأسه شجاجاً) [١].

قال ابن عقبة : فخلص منهم ورجلاه تسيلان دماً . فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظل فى ظل حُبلة [٢] منه وهو مكروب موجع ، وإذا فى الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله ﷺ . فلما اطمأن فى ظل الحُبلة قال ما سيأتى .

وروى الطبرانى برجال ثقات عن عبد الله بن جعفر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم أتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدوٍ ملكته أمرى، إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ،وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو تُحلّ علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فلما رآه ابنا ربيعة وما لقى تحركت له رحمهما ،فدعوا غلاماً لهما يقال له : عداس. فقالا له : خذ له هذا القطف من العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل . فقل له: يأكل منه ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال :« بسم الله». ثم أكل . فنظر عداس فى وجهه ثم قال :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢١٢ .

(٢) الحبلة : شجرة العنب أو الكَرْمة .

والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .فقال له رسول الله ﷺ:« ومن أى البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك ؟ ». قال : نصرانى وأنا من أهل نينوى . فقال رسول الله ﷺ : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى » . قال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ والله لقد خرجت منها وما فيها عشرة يعرفون ما يونس بن متى . فمن أين عرفت يونس وأنت أمى وفى أمة أُمية ؟ قال رسول الله ﷺ : «ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى». فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبل رأسه ويديه وقدميه . فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس . قالا له : ويلك ما تُقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال : يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل ، لقد علمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى . قال : ويحك يا عداس لا يصرفنَّك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه. وقال عداس لسيديه ، لما أرادا الخروج إلى بدر ، وأمراه بالخروج معهما فقال لهما : قتال ذلك الرجل الذى رأيت فى حائطكما تريدان ؟ فوالله ما تقوم له الجبال .فقالا له :ويحك يا عداس قد سحرك بلسانه .فانصرف رسول الله ﷺ عنهم وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة ، وقال خالد العدوانى: إنه أبصر رسول الله ﷺ فى سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغى عندهم النصر فسمعته يقول: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ حتى ختمها (١)، فوعيتها فى الجاهلية وأنا مشرك ثم قرأتها فى الإسلام . قال :فدعتنى ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم . فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا لو كنا نعلم ما يقوله حق لاتبعناه .رواه الإمام أحمد (٢) والبخارى فى تاريخه.

وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ فقال : « لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت أحد ، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب ،فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى،فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى وقال :إن الله قد سمع قول قومك لك ،وما ردّوا عليك ،وقد بعث إليك ملك الجبال فتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال ،فسلم علىّ ثم قال : يا محمد ،إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا مَلَك الجبال قد بعثنى الله ـ عز وجل ـ لتأمرنى بما شئت. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .فقال النبى ﷺ :

« بل أرجو أن يخرج الله ـ عز وجل ـ من أصلابهم من يعبد الله عز وجل ولا

(١) سورة الطارق .

(٢) مسند أحمد ٤ / ٣٣٥ .

يشرك به شيئاً » رواه الإمام أحمد والشيخان [1] .

وقال عكرمة : قال رسول الله ﷺ : « جاءنى جبريل فقال : يا محمد ، إن ربك يقرئك السلام . وهذا ملك الجبال قد أرسله وأمره ألا يفعل شيئاً إلا بأمرك . فقال له ملك الجبال : إن شئت رميت عليهم الجبال ، وإن شئت خسفت بهم الأرض » . فقال:

« يا ملك الجبال فإنى آنى بهم لعلهم أن يخرج منهم ذرية يقولون: لا إله إلا الله».

فقال ملك الجبال : « أنت كما سماك ربك الرؤوف الرحيم » رواه ابن أبى حاتم مرسلاً .

وذكر الأموى وابن هشام أن رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونصرته ، أقام بنخلة أياماً ، وأراد الرجوع إلى مكة . فقال له زيد بن حارثة :كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك ؟ فقال : « يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله مظهر دينه ،وناصر نبيه » . ثم انتهى إلى حراء ، وبعث عبد الله بن أريقط إلى الأخنس بن شريق وأسلم بعد ذلك ليجيره فقال : أنا حليف والحليف لا يجير على الصريح . فبعث إلى سهيل بن عمرو وأسلم بعد ذلك ، فقال : إن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب بن لؤى . فبعث إلى المطعم بن عدى ـ ومات كافراً ـ فأجابه إلى ذلك وقال : نعم قل له فليأت . فرجع إليه فأخبره ، فدخل رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة . فلما أصبح خرج المطعم بن عدى ، قد لبس سلاحه هو وبنوه ستة أو سبعة . فقالوا لرسول الله ﷺ : طف . واحتبوا بحمائل سيوفهم بالمطاف فأقبل أبو سفيان إلى المطعم بن عدى . فقال : مجير أم متابع ؟ قال : بل مجير . قال : إذن لا تخفر ، قد أجرنا من أجرت . فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه . فلما انصرف إلى بيته انصرفوا فذهب أبو سفيان إلى مجلسه .

فمكث رسول الله ﷺ أياماً ثم أذن له الله ـ عز وجل ـ فى الهجرة . فلما هاجر رسول الله ﷺ توفى المطعم بن عدى بعده ؛ ولأجل هـذه السابقة التى سبقت للمطعم ابن عدى قال رسول الله ﷺ :

« لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى ـ يعنى أسارى بدر ـ

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق م٢ ج٤ ص ١٣٩ ، وصحيح مسلم : كتاب الجهاد حديث ١١١ ج٣ ص ١٤٢٠ .

لأطلقتهم له » [1] [2] .

وأوردها الفاكهى بسند حسن مرسل، ولكن فيه (أنه أمر أربعة من أولاده فلبسوا السلاح،وقام كل واحد عند ركن من الكعبة. فقالت له قريش:أنت الرجل الذى لا تخفر ذمتك . ويمكن الجمع بأن الأربعة عند الأركان، والمطعم وباقيهم فى المطاف) [3] .

* * *

١ ـ مع وفاة أبى طالب أخذت المحنة أبعاداً جديدة ، ومضت قريش دون قيد فى صب الأذى على النبى ﷺ ، وكان لابد من البحث عن موقع جديد تنطلق منه الدعوة بعد أن وصلت فى مكة إلى الطريق المسدود . ولا شك أن أنسب مكان لذلك هو الطائف . فثقيف من حيث المنعة والعدة والعدد تضارع قريشاً ، ومن حيث الموقع كذلك . فاتجه رسول الله ﷺ إليها . فالحبشة التى أقام فيها التجمع الإسلامى الكبير لا تصلح منطلقاً للدعوة ؛ لبعدها ولعجمة أهلها . والعرب هم الأكفأ والأقدر على حمل الرسالة فى البدايات ؛ لأنهم أقدر على فقهها ، وهى بلسان عربى مبين ، وقد جعل الله فيهم من الخصائص ما يؤهلهم لذلك. وصلة الطائف بمكة تجعل إمكانية التحرك بين البلدين سهلة . وتجعل العمل على استعادة مكة من براثن الشرك سهلة كذلك .

ولا شك أن الرسول ﷺ قد استشار حزبه وكبار أصحابه بهذا الخروج . وكان معه فقط مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه . فهو الفدائى الأول فى هذه المرحلة بعد الصديق رضي الله عنه وحتى تكون المهمة سلمية إلى أبعد الحدود ومرتبطة بالدعوة لهذا الدين . كان هذا الخروج لرسول الله ﷺ مع مولاه زيد . ومع وداع رسول الله ﷺ من مكة كانت قلوب الصف المسلم تتقطع لفراق قائدها ــ عليه الصلاة والسلام ، وترتفع شحنة الأمل فى نفوسهم باكتساب موقع جديد للدعوة ، هو أخطر وأشرف المواقع بعد أم القرى .

٢ ـ وكان أن قصد عليه الصلاة والسلام ابتداء الملأ من ثقيف،وهم بنو عبد ياليل أكبر قادة ثقيف وهم إخوة ثلاثة . ونجاح المهمة معهم يعنى ابتداء فتح الموقع الجديد . لكن قدر الله النافذ كان يريد لهذه الدعوة غير ما تصل له القلوب البشرية ، والفكر البشرى القاصر . فكان الرد العنيف والتجهم الشديد والأذى الرهيب هو حصيلة هذا الاتجاه . وكما ذكر عليه الصلاة والسلام حين سألته عائشة : هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام : «لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على عبد ياليل. . . . » .

(١) البخارى م٢ ج٥ ب غزوة بدر ص ١١٠ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥٧٦/٢ ـ ٥٨٠ .
(٣) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى ٣٥٥/١ .

فنستطيع القول إذن ، وعلى تقدير الرسول ﷺ أن المحنة قد بلغت ذروتها فى الطائف . وأن أشد ما لاقاه الرسول ﷺ كان من ثقيف . وكما تقول الروايات المتعددة : (.... فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ...) .

(... واجتمعوا يستهزئون برسول الله ﷺ ، وقعدوا له صفين على طريقه فأخذوا بأيديهم الحجارة ، فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة، وهم فى ذلك يستهزئون ويسخرون، فلما خلص من صفَّيهم وقدماه تسيلان الدماء عمد إلى حائط كرومهم ، فأتى ظل حبلة من الكرم مكروبا موجعاً تسيل قدماه الدماء ...) [1].

بأبى أنت وأمى يا رسول الله . ربك يرعاك ويحوطك ، ولتُصنع على عين الله . وقد اصطفاك الله لنفسه ، وأصابك ما أصابك . والله تعالى يسمع ويرى ، وهو الذى شاء أن تبلغ المحنة ذروتها لحكمة بالغة وقدر نافذ .

وضخامة المحنة فى التقدير النبوى ليست فى الأذى الجسدى فقط ـ على ضخامته وشدته وفظاظته ـ إنما تكمن فى الأذى المعنوى الذى ينال سيد القوم وشريفهم . والرسول ﷺ حين ذكر أشد ما لاقاه لعائشة ـ رضى الله عنها ـ لم يعرض للأذى الجسدى . إنما عرض للأذى المعنوى من الصد والتكذيب والإصرار على الكفر .

« عرضت نفسى على عبد ياليل بن كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب » .

وفى الرواية الثانية : (فأقام فى الطائف عشرة أيام ، وقيل: شهراً لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاء إليه وكلمه فلم يجيبوه ، وخافوا على أحداثهم منه فقالوا : يا محمد اخرج من بلدنا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس) .

وفى الرواية الثالثة : (فانصرف رسول الله ﷺ وهو محزون ، ولم يستجب له رجل واحد ولا امرأة) .

لقد حضر أسواقهم واتصل بأشرافهم ، واتصل بعامتهم ، ولم يظفر بقلب رجل واحد منهم أن يستجيب للدعوة . كما لم يظفر بقلب رجل واحد منهم أن يحميه ويجيره حتى يبلغ رسالة ربه ، فمكة على فظاظة أهلها؛ فقد وجد فيها من يحميه ويحوطه ويفديه بروحه ودمه وهو على شركه . أما هنا ، فقد بلغت القسوة والشدة

(١) مغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير / ١١٨ .

مبلغاً لا يطيقه إلا قلب نبى أو قلب سيد الأنبياء ﷺ ،ويجمعون كلهم على إخراجه ، دون أن تتحرك نخوة شريف أو مروءة زعيم .

٣ ـ فماذا كان موقف إمام الأنبياء وسيد الدعاة ﷺ من المحنة،وقد بلغت الذروة ؟

كان هذا الدعاء الخالص المتبتل إلى الله سبحانه :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ اللهم إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ،وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا قوة إلا بك » .

فهو دعاء المستعيذ بالله المستجير بالله . وكل ما يخشاه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تكون هذه المحنة غضب من الله جل شأنه ، وإلا فلا يضيره فى الله شىء ، وكل شىء فى جنب الله قليل : « لك العتبى حتى ترضى ...» .

هذه هى نفسية سيد الخلق ، واضحة جلية مع المحنة ، وقد بلغت ذروتها ، ووصلت قمتها ، وهذا هو توجهه ـ عليه الصلاة والسلام ، إنه يذكر مكة ، فقد ملكت أمره ، وسدت منافذه ، وقد تحول بينه وبين دخولها ، والسلطة كلها بيد الشرفاء والسفهاء الذين أجمعوا على أذاه وتكذيبه ، ويذكر الطائف التى لم يرق فيها قلب ، ولم ينفتح فيها صدر ، ولم ترف عين تجاوباً مع دعوة الله ـ عز وجل، ولا تزال الجراح تنزف ، وصديقه الحبيب زيد قد شج رأسه شجاجاً وهو يذود عن قائده ـ عليه الصلاة والسلام .

٤ ـ وبقى هذا الأمر مثار القلق النفسى عند الحبيب المصطفى ﷺ ، مخافة غضب الله ، واستعاذة بوجهه ـ عز وجل ـ من سخطه :

« أعوذ برضاك من سخطك ،وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ،لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

فماذا كان الجواب الربانى ؟

كان ابتداءً أن انتقل عليه الصلاة والسلام ممن يرضخه بالحجارة ،ويسيل منها الدماء إلى من يواسيه فيقبل هذه الأرجل الطاهرة التى تسيل منها الدماء ، ومن يمسح جراحه بفمه ، ومن يثلج صدره بإيمانه ، انتقل عليه الصلاة والسلام فى المرحلة الواحدة ممن يقول : أنا أمرط ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك ، ومن يقول له : أما وجد الله

أحداً يرسله غيرك . إلى من يقول : والله ما على ظهر الأرض أحد خير من هذا .

وأى مواساة أعظم من هذه المواساة . فلئن آذاه قومه . فهذا وافد العراق . وافد نينوى الذى جاب الأرض يبحث عن نبى،يكب على يديه ورجليه، ويقبلهما ، ويشهد له بالرسالة .

إنها الاستجابة الربانية بالتو واللحظة ، أن يسوق من شمال العراق ، من نينوى من يؤمن بالله ورسوله حين كان الصد من أقرب الناس إليه .

ثم كانت المكافأة الربانية على هذا الصبر العظيم من حبيب رب العالمين ! من حائط عتبة وشيبة إلى قرن الثعالب والسحابة،إلى صديقه الحميم جبريل رسول رب العالمين إليه،ها قد حضر ليطمئنه أنه ليس فى غضب الله،وليس فى سخطه،لقد جاء فى أوانه .

فماذا قال للحبيب المصطفى ﷺ ؟ أقرأه السلام من ربه ومعه ضيف جديد هو مَلَك الجبال : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك » .

رب إنى مظلوم فانتصر :

وليس نوح ولا هود ولا لوط ولا شعيب ـ عليهم السلام ـ أكرم على الله تعالى من محمد ـ عليه الصلاة والسـلام ـ (وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم) . فهذه الجبال بإمرة النبى ﷺ ، وكل هؤلاء المكذبين ذرات صغيرة فى بطون هذه الجبال . وكان الإكرام أعظم ، والحفاوة أكبر ، أن يكون الأمر مباشرة من رسول رب العالمين لملَك الجبال ، مَلَك الجبال حضر لتلقى الأوامر من محمد ـ عليه الصلاة والسلام . ليشهد ثأره بنفسه ، ويقر عينه بأن يكون الأمر مباشرة منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (فنادانى ملَك الجبال . فسلّم علىّ ثم قال : يا محمد ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت).

لقد جأر إخوانه الأنبياء قبله بالدعاء إلى ربهم أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق ، وانتصر ربهم لهم :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِـهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1] .

وكما أطبق البحر على فرعون وقومه بضربة من عصا موسى ــ عليه الصلاة والسلام.

فيمكن أن يطبق الجبلان على أبى جهل وقومه وعبد ياليل وقومه بأمر من شفتى

---

(١) العنكبوت / ٤٠ .

محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

هل آن الأوان لينتهى تاريخ الدعوة، فيطبق الأخشبان على قريش وثقيف، كما جرى مع من أخذته الصيحة ، ومن خسفت به الأرض ، ومن غرق ، ثم ماذا بعد ذلك ؟

إن المعجزة الأعظم من إطباق الأخشبين أن يقف عليه الصلاة والسلام وحده من دون الخلق كافة ، وفوق الأنبياء جميعاً ، لا يقبل العرض ، ولما تزل الدماء تنزف من رجليه ، ولا يصدر الأمر لَمَلَك الجبال ، ولا تزال كلمات عبد ياليل يرد صداها فى أعماقه الجريحة (أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟) ، (والله لا أكلمك أبداً . لئن كنت رسولاً كما تقول ، لأنت أعظم من أن أكلمك ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغى لى أن أكلمك) .

أن يقف ليقول : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئاً » .

أى خلق هذا ؟ وأى سمو هذا ؟ إنه على استعداد أن يستمر فى المحنة تدمى رجليه ، ووجهه ، ويُصَدَّ من القريب والبعيد ، من العدو الذى ملك أمره فلا يدخل مكة إلا بجوار ، ومن البعيد الذى يتجهمه ، إلى متى ؟ ! حتى يفنى هذا الجيل ، وينشأ الجيل الآخر من أصلابهم يقول : لا إله إلا الله .

أيها الدعاة إلى الله فى هذا الوجود ، هل سمعتم عن داعية إلى الله أعظم من هذا الداعية ، وبيده الآن الأمر ، والله تعالى بعث له ملَك الجبال ليكون بإمرته ، ويقصم عدوه ، وينتصر عليه ، ويفنى ويباد ويدمر ؟ !

ولكن الدعوة إلى الله ، وأن ينال محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثمرة دعوته وجهاده مع هؤلاء المعاندين المستكبرين ، وأن يتجرع أشد الغصص حتى يصل إلى هذه الثمرة ، أشهى على قلبه من نشوة النصر على عدوه .

إن نشوة النصر بالجيل الذى يخرج من أصلابهم ، ويحمل لواء الدعوة إلى الله أعظم بكثير من أن يرى مصرع القوم بين يديه .

يا لها من قمة شامخة إلى السماء ، قدماها على الأرض ، ولا يرتقى لها مخلوق فى هذا الوجود !!

وشهد ملَك الجبال لهذه العظمة وقال: « صدق من سمّاك: الرؤوف الرحيم » .

وباهى الله تعالى ملائكته فى السموات العلى بعظمة عبده ورسوله محمد ﷺ ، وبأنه خير خلقه على الإطلاق .

وأكرم الله نبيه ﷺ ، فلم ينتظر الجيل الجديد من أصلاب هؤلاء ، بل كان عبد ياليل عضواً فى وفد ثقيف الذى جاء ليعلن إسلامه فى المدينة بعد عشر سنين من هذا الحدث الجليل .

إسلام الجن ذروة التكريم :

قال ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما :

إن رسـول الله ﷺ لـما انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى .

قال ابن إسحاق: وهم فيما ذكر لى سبعة نفر من جنّ أهل نصيبين ،فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ، ولّوا إلى قومهم منذرين . قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقصّ الله تعالى خبرهم على النبى ﷺ فقال : ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (١) .

﴿ **و** ﴾ اذكر ﴿ **إِذْ صَرَفْنَا** ﴾ : أملنا ﴿ **إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِ** ﴾ جن نصيبين أو جن نينوى ،وكانوا سبعة أو تسعة ، وكان ﷺ ببطن نخلة يصلى بأصحابه الفجر. رواه الشيخان. . .وروى ابن أبى شيبة وأحمد بن منيع والحاكم وصححه ، وأبو نعيم والبيهقى عن ابن مسعود قال :

هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: ﴿**أَنصِتُوا**﴾. قالوا : هم . وكانوا تسعة ، أحدهم زوبعة . فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِ . . .** ﴾ .

وروى ابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود قالوا : كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم .

وروى الشيخان عن مسروق قال : قلت لابن مسعود : من آذن النبى ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ قال : آذنته بهم شجرة ، وفى لفظ : سمرة (٢) .

وروى محمد بن عمر الأسلمى وأبو نعيم ، عن كعب الأحبار قال : لما انصرف

(١) الأحقاف / ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) البخارى ،ك المناقب ،ب عبد الله بن مسعود ، وصحيح مسلم ، كتاب الصلاة ح ١٥٣ .

التسعة من أهل نصيبين من بطن نخلة وهم فلان وفلان والأحقب جاؤوا قومهم منذرين فخرجوا بعد وافدين إلى رسول الله ﷺ وهم ثلاثمائة فانتهوا إلى الحجون فجاء الأحقب إلى رسول الله ﷺ فقال: إن قومنا قد حضروا الحجون يلقونك ، فوعده رسول الله ﷺ ساعة من الليل بالحجون .

وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب النبى ﷺ ليلة الجنّ منكم أحد ؟ قال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة فقلنا: استُطير أو اغتيل . فبتنا بشر ليلة باتها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء فقلنا : يا رسول الله ،إنا فقدناك فطلبناك فلم نجدك ،فبتنا بشر ليلة باتَ بها قوم . فقال : « إنه أتانى داعى الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم .

وقال ابن مسعود أيضاً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بت الليلة أقرأ على الجن رفقاً ـ وفى لفظ :واقفاً بالحجون ».

قلت : تبين من الأحاديث السابقة أن الجنّ سمعوا قراءة النبى ﷺ بنخلة، فأسلموا ، فأرسلهم إلى قومهم منذرين ، ثم أتوه وهم ثلاثمائة فقرأ عليهم القرآن وهذه المرة لم يحضرها ابن مسعود بل حضر فى مرة بعدها .

وروى ابن جرير والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى وغيرهم من طرق ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ وهو بمكة : « من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل » . فلم يحضر منهم أحد غيرى . فانطلقنا فقال: «إن بنى إخوة وبنى عم يأتونى الليلة فأقرأ عليهم القرآن ». فسرنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطاً ثم أمرنى أن أجلس فيه ، وقال : « لا تبرح حتى آتيك » ثم انطلق حتى إذا قام فافتتح القرآن فغشيه أسودة كثيرة ، وفى رواية : فذكر هيئة كأنهم الزط ليس عليهم ثياب ولا أرى سوأتهم طوالاً قليلاً ، فجئتهم فرأيت الرجال ينحدرون عليه من الجبال فازدحموا عليه فقال سيد لهم يقال له: وردان : أنا أرحلهم عنك . فقال : إنى لن يجيرنى من الله أحد ، فحالوا بينى وبينه حتى ما أسمع صوته ، فانطلقوا ، فطفقوا ينقطعون مثل السحاب ذاهبين حتى بقى رهط . ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر . فنزل ثم أتانى فقال :« أرسلت إلى الجن » فقلت : أما هذه الأصوات التى سمعتها قال : «هذه أصواتهم حين ودّعونى وسلموا على ، ما فعل الرهط ؟» فقلت : هم أولئك يا رسول الله فسألوه الزاد ، فأخذ عظماً وروثاً فأعطاهم إياهما . فقال : « لكم كل عظم عراق ولكم كل روثة خضرة » . قالوا : يا رسول الله يقدرهما الناس علينا .

قلت: يا رسول الله وما يغنى ذلك عنهم ؟ قال : « إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت ، فلا يتنقينَّ أحدكم إذا خرج إلى الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة ، لما أصبحت رأيت مبرك ستين بعيراً ».

روى ابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية قال : هم اثنا عشر ألفاً جاؤوا جزيرة الموصل .

وذكر أبو حمزة الثمالى قال : إن هذا الحى من الجن كان يقال لهم: بنو الشيصُبان. وكانوا أكثر الجنّ عدداً وأشرفهم ، وكانوا عامة جند إبليس [1] .

* * *

١ ـ روى سفيان الثورى عن عاصم ، عن زر ، عن ابن مسعود قال : كانوا تسعة أحدهم زوبعة . أتوه فى أصل نخلة ، وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر ، وفى رواية: أنهم كانوا على ستين راحلة ، وتقدم أن اسم سيدهم وردان ، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفاً . ففى هذا الاختلاف دليل على تكرار وفادتهم على النبى ﷺ بمكة والمدينة [2] .

هذه الدعوة التى رفضها أولاد عبد ياليل فى هذه البقعة النائية من الأرض ، المنسية من التاريخ، والتى حفل الأولاد والسفهاء فيها بتعذيب سيد الدعاة ، وإيذائه ورضخه بالحجارة . ها هى تنتقل إلى عالم آخر هو عالم الجن **﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾** [3] .

هؤلاء الجن يتلقون دعوة النبى ﷺ دون أن يدرى ، فيأخذوها ويمضوا بها إلى قومهم ، كما مضى بها أبو ذر الغفارى إلى قومه ، وكما مضى بها الطفيل بن عمرو الدوسى إلى قومه ، ويمضون بها إلى عالم لا يعرفه رسول الله ﷺ. ووجد الدعاة ، ووُجد الصحابة ووجد الحواريون فى عالم الجن يبلغون دعوة رسول الله ﷺ إلى قومهم : **﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾** [4] .

لقد غدا اسم محمد ﷺ تهفو به قلوب الجن ، وليس قلوب الإنس فقط ، ليس قلب أبى بكر وعمر وعبد الرحمن وطلحة والزبير والعشرة المبشرين . . . هناك التسعة الحواريون من عالم الجن ، حملوا اللواء والراية ووطّنوا أنفسهم دعاة إلى الله **﴿ قُلْ**

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢ / ٥٨٣ ـ ٥٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٥٨٦ .

(٣) الصافات / ١١ .

(٤) الأحقاف / ٣١ .

أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا . وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا . وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴾ (1).

لقد كانوا أهل فترة وأهل جاهلية،ولعله لم يبلغهم بعد موسى نبوة ،وعاث فجارهم فساداً فى الأرض ،وزعموا لله الصاحبة والولد، سفهاً وشططا،وحسبوا أن هذا من عند الله ،وهو من عند أنفسهم﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

وعاثوا فساداً فى الأرض ، واستغلوا التأثير على الإنس ليُعبدوا من دون الله كما تُعبد اللات والعزى . وكما شرع عمرو بن لحى الخزاعى لمكة والعرب ،فصار كلامه ديناً وعمله شريعة تعبد من دون الله . شرع سفيهم للجن كذلك شططاً من ادعاء الصاحبة والولد . وأوهموا الإنس أنهم ينفعون ويضرون من دون الله فعبدوهم ﴿ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (2) .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .

فى هذه الفترة والجاهلية والفساد والعتو على الله حين كانوا يسترقون السمع من السماء ، فيضيفوا على الخبر الواحد مائة كذبة . فيضلوا عوامهم من الجن، وجدوا تطوراً مفاجئاً فى السماء !

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ .

وإذا بشياطين الجن الذين يضلون الجن والإنس بغير علم، يحرقون وهم يحاولون استراق السمع﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ .
هذا التطور الجديد فى السماء الدنيا ،دعا خيرة أهل الأرض من الجن أن يبحثوا عن الحق ويتلمسوه فى الأرض ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

(1) الجن / ١ ـ ١٣ .

(2) سبأ / ٤١ .

وإن كان إبليس وجنوده أدركوا منذ البداية أن نجم محمد قد طلع ،وأن الرسول ولد ويوشك أن يبعث ، انطلق النفر الباحثون عن الإيمان يبحثون عن هذا النجم ، ويبحثون عن هذا الرسول حتى كتب الله تعالى لهم السعادة العظمى ببطن نخلة ، وأصاخوا سمعهم ، فإذا قرآن ليس بكلام الإنس وليس بكلام الجن ، يعلو ولا يعلى عليه ، لا يستطيعه بشر ، فعلموا أنهم قد ظفروا بما يبغون ﴿ ... **فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا** ﴾ (١) .

فانطلقوا بالبشرى إلى قومهم بعد أن شهدوا أن لا إله إلا الله ، وشهدوا أن محمداً رسول الله ، يدعون إلى الله تعالى على هدى وبصيرة منه .

ومتى كان ذلك ؟

كان هذا ورسول الله ﷺ ببطن نخلة ، عاجز عن دخول مكة ، وقد علم أصحابه به فكانوا يترددون عليه ، ويستأذنونه فى الانقضاض على قيادات مكة ، فلا يأذن لهم عليه الصلاة والسلام . لقد قال لحبيبه زيد بن حارثة الذى شج رأسه شجاجاً وهو يدفع عن رسول الله ﷺ عندما كان يبحث معه قضية دخول مكة .

كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك ؟

« اصبر يا زيد ، فإن الله جاعل لهذا فرجاً ومخرجاً ، وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه » إنه مقيم أياماً يبحث عن الفرج والمخرج من هذه الغمة ، ويستعرض شخصيات مكة عمّن يستطيع أن يحميه ليدخلها . وهو فى هذا الحال وهو فى هذه الشدة ، يوحى الله تعالى له أنه قد صار له أصحاب ودعاة فى عالم الجن ، وأنهم آمنوا به وصدقوه ، وعلى رأسهم زوبعة ،وولوا إلى قومهم منذرين .

فهل يستطيع عتاة مكة وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجن ، وينزلوا بهم ألوان التعذيب وأفانينه ؟! ونستأنس ببعض الأحاديث عن أحد هؤلاء التسعة:

(روى البيهقى ، عن أبى معمر الأنصارى قال : بينا عمر بن عبد العزيز يمشى إلى مكة بفلاة من الأرض ، إذ رأى حية ميتة فقال عليّ بمحفار ، فحفر له ولفه فى خرقة ودفنه ، وإذا بهاتف يهتف لا يرونه : رحمة الله عليك يا سُرَق ، فأشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: « تموت يا سرق بفلاة من الأرض فيدفنك خير أمتى » . فقال عمر : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا رجل من الجنّ . وهذا سرق ولم يبق ممن بايع النبى ﷺ أحد من الجن غيرى وغيره ، وأشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « تموت يا سرق بفلاة من الأرض ويدفنك خير أمتى ») (٢) .

---

(١) الجن / ١ ، ٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٥٨٧ .

وذكر ابن سلام من طريق أبى إسحاق السبيعى ، عن أشياخه ، عن ابن مسعود أنه كان فى نفرٍ من أصحاب النبى ﷺ يمشون ،فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه، ثم انقشع فإذا حية قتيلة . فعمد رجل منا إلى ردائه فشقه ، وكفن الحية ببعضه ودفنها. فلما جنّ الليل إذا امرأتان تسألان : أيكما دفن عمرو بن جابر ؟ فقلنا : ما ندرى ما عمرو بن جابر . قالتا : إن كنتما ابتغيتما الأجر فقد وجدتموه ، إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين فقتل عمرو بن جابر وهو الحية التى رأيتم ،وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد ﷺ (١) .

وحين تدور معارك الكفر والإيمان فى عالم الجن ، نجد رسول الله ﷺ بعد أن يغادر بطن نخلة وقد بثته الشجرة خبر الجن الذين استمعوا القرآن كما فى الروايات الصحيحة . هذه الشجرة الفرحة السعيدة بحبيبها المصطفى وصحابته الجدد . لم تتمكن أن تكتم هذا السر السعيد ، فبثته رسول الله ﷺ وقد دخل مكة بحماية المطعم بن عدى، يتلو على صحابته سورة الجن فتتجاوب أفئدتهم خشوعاً وتأثراً من روعة الحادث، وروعة انتصار هذا الدين ، فليسوا هم وحدهم فى المعركة ، هنالك إخوانهم من الجن يخوضون المعركة كذلك .

وهنالك عالم جديد تصل إليه مبادئ الإسلام ، فتنفتح له قلوب ، وتهتز له أفئدة، وتذوب فى حب الله ورسوله محمد ﷺ نفوس تتوق لتجاهد فى سبيل الله ، وتبذل دمها رخيصة له عز وجل . وسمع الصحب الخلص من أخيهم زيد قصة عداس كما سمعوا قصة صد ثقيف . وأن نصيبين ونينوى أرض جديدة خصبة معطاء للدعوة ، بعد أن آمن ابنها عداس على يدى رسول الله ﷺ وهو يطوف الآفاق ليظفر به ، وكذلك السابقون الأولون من الجنّ الذين كانوا يطوفون الآفاق بحثا عن رسول الله ﷺ وسيد الثقلين الإنس والجن .

٢ ـ كان الوفد الثانى للجن بعد عدة أشهر فقط من اللقاء الأول ، كما روى محمد ابن عمر الأسلمى قال : قدم على رسول الله ﷺ الجن فى ربيع الأول من بطن نخلة وهم فلان وفلان والأحقب ، جاؤوا قومهم منذرين سنة إحدى عشرة من النبوة .

وله فى رواية أخرى توضح عدد الوفد : لما انصرف النفر التسعة من أهل نصيبين فخرجوا بعد وافدين إلى رسول الله ﷺ وهم ثلاثمائة فانتهوا إلى الحجون فجاء الأحقب إلى رسول الله ﷺ فقال : إن قومنا قد حضروا الحجون يلقونك ، فوعده

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٥٨٧ .

رسول الله ﷺ ساعة من الليل بالحجون. وقصة هذا اللقاء فى الصحيح عند الإمام أحمد ومسلم والترمذى. حيث مضى وحده عليه الصلاة والسلام إليهم (. . . قال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا . ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب . فقلنا : استطير أو اغتيل ، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا شر ليلة بات بها قوم ، فقال : « أتانى داعى الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن » ، قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة علف لدوابكم » فقال رسول ﷺ : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم ») [(١)] .

فى عدة أشهر ، انتشرت الدعوة فى عالم الجن ، وجاء وافدهم إلى رسول الله ﷺ يدعو رسول الله إلى اللقاء مع هؤلاء الصحابة يقرأ عليهم القرآن ، وكان هذا النصر فى عالم الجن إرهاصاً وتمهيداً للانتصار فى عالم الإنس . فقد كان اللقاء مع وفد الأنصار بعد عدة أشهر كذلك فى رجب من العام الحادى عشر للبعثة ، وأن يبلغ عدد الصحابة من الجن ثلاثمائة ، فهو نصر عظيم لهذا الدين الذى أطبقت سمعته الآفاق ، وصار فى عالم الثقلين بعد أن كان فى عالم الإنس وحده .

ونقف عند قول ابن مسعود رضي الله عنه: « ولكنا فقدناه ذات ليلة فقلنا: استطير أو اغتيل. فبتنا بشر ليلة » .

هذا الجيل المؤمن الذى ارتبطت حياته بحياة رسول الله ﷺ وامتزجت روحه بروح قائده الحبيب . يفتقد هذا القائد فى هذه الليلة ، وينطلق الصف المسلم من السابقين الأولين باحثاً عن المصطفى العظيم فى الشعاب والأودية . وتبلغ المحنة ذروتها عندهم . وفى كل قلب من قلوب هؤلاء الصحب ألم أمضى من وقع السيوف وطعن الخناجر . ترى هل نجح الشرك فى مهمته. وتمكن من اغتيال المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه؟ وهذه شعاب مكة وأوديتها لا أثر فيها له . ولا نبالغ إذا قلنا: إن ذروة المحنة عند رسول الله ﷺ كانت فيما لقيه من صدّ ثقيف وإيذائها .

فإن ذروة المحنة عند هذا الجيل الرائد كان هذه الليلة، الليلة التى افتقد فيها رسول الله ﷺ ،ولا يعبر عنها شيء كما يعبر عنها قول ابن مسعود: بتنا بشر ليلة بات بها قوم.

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ح ١٥٠ ،ك الصلاة ص ٣٣٢ ، وصحيح الترمذى ،كتاب التفسير (سورة الأحقاف) ج٥ ح ٣٣٥٨ ، وقال : « حديث حسن صحيح ».

ولم تذق عيونهم طعم الكرى ،أو يرفأ لهم جفن لهذا الحدث الفاجع إلى أن انبلج الفجر ، وأقبل عليه الصلاة والسلام من قبل حراء ، فارتدت أرواحهم لهم ، وقالوا : يا رسول الله ، إنا فقدناك فطلبناك فلم نجدك،فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : « إنه أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بذلك ، بل دعا صحبه البضع والستين ليشهدوا آثارهم وآثار نيرانهم ، وقُرَّت عيونهم بهذا النصر المؤزر ، والتهبت قلوبهم بهذا المجد العظيم لنبيهم ﷺ وقد غدا حديث الركبان فى عالم الجن ، ورنت نفوسهم إلى اليوم الذى يبلغون فيه ثلاثمائة وعندها ستكون مكة لهم بلا منازع . ولكن هيهات ! فلم يبلغ عددهم بعد ولا نصف هذا العدد وهم موزعون بين مكة والحبشة والأصقاع الأخرى النائية .

٣ - ثم كان اللقاء الثالث الذى شهده ابن مسعود رضي الله عنه ولعله كان ألوفاً مؤلفة من المؤمنين كما روى عن عكرمة : هم اثنا عشر ألفاً جاؤوا من جزيرة الموصل . وكما ذكر عن الثمالى : أن هذا الحى من الجن كان يقال لهم : بنو الشيصبان وكانوا أكثر الجن عدداً وأشرفهم ،فتحولوا من معسكر الشرك إلى معسكر التوحيد . ورأى ابن مسعود رضي الله عنه تلك الأعداد الهائلة منهم . وشهد أصواتهم ، التى كانت أصوات وداع المصطفى ﷺ ، ولا شك أن هذه المجموعات تتقطع قلوبها لوداع نبيها ﷺ وتغبط تلك الصفوة المختارة فى الأرض ، تغبط هؤلاء المائة الذين شرفوا بصحبة النبى عليه الصلاة والسلام كل هذه السنين العشرة . أما هم فلهم ليلة أو ليلتان من هذا العمر كله ، وعليهم أن يمضوا بهذا الدين مجاهدين فى سبيله . حفظ لنا التاريخ اسم سيدهم وردان ، بعد أن حفظ اسم رسولهم الأول الأحقب ، واسم أحد الحواريين التسعة زوبعة . وإن كانت بعض الروايات تذكر أسماء التسعة الأوائل .

المهم أننا لا نزال فى ذروة التكريم الربانى ، الذى برز به شرف المصطفى ﷺ فى عالم الثقلين الإنس والجن . لنرقى معه من جديد إلى الذروة العليا من التكريم فى هذا الوجود ، فيتجاوز عالم الإنس والجن ، ويتجاوز الأرض إلى عالم السموات العلى ، إلى عالم الملائكة ، إلى حضرة الجليل سبحانه ، إلى أن يرفعه إليه من بين هذه الخلائق جميعاً ، ثم يعيده إليهم فيحدثهم بما رأى فى هذه الرحلة الميمونة الخالدة ، التى لم تعرف البشرية لها مثيلاً ، ولن تعرف حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ويشهد هذا الجيل القائد ، كل هذا التكريم ،وكل هذا الاحتفاء بقائده الحبيب محمد ﷺ .

الإسراء والمعراج .. ذروة التكريم (١) :

بعد عشر سنوات من الدعوة ، ابتدأت بتلقى الوحى فى حراء ، ومضت تشق طريقها فى قلب الفتيان من قريش ، وفى عالم الجن على يد وفد جن نصيبين ، وتتجاوب أصداؤها فى قبائل العرب كلها من خلال لقاءات رسول ﷺ مع وفود العرب فى أسواقهم ومواسمهم ، وتصل ينابيعها إلى جذور النجاشى فى الحبشة فتثمر إسلامه وحمايته .

وفى الصورة المقابلة حيث كانت قريش تبث دعايتها وسمومها فى كل مكان ضد الدعوة الجديدة وتؤلب العرب ضد رسول الله ﷺ وتقذفه بالكهانة والسحر والجنون . وتمد يدها إلى كل القبائل العربية لتكون بجوارها فى حرب محمد ﷺ ، وترسل وفدها إلى الحبشة لملاحقة هذه الدعوة ولا تدع فرصة للانقضاض على الدعوة ورجالاتها إلا واهتبلتها إيذاءً وتشريداً ، وقتلا وملاحقة ، وتبدو الساحة للوهلة الأولى أنها ملك قريش ، وأنها المنتصرة فى هذه الجولة ، فقد سدّت الطريق فى مكة ، وفى ثقيف ، وفى قبائل العرب ، وأحكمت الحصار من كل جانب ضد الدعوة ورجالاتها ، وأصبح محمد على وشك القضاء عليه بعد هلاك عمه أبى طالب أكبر حماته .

ورسول الله ﷺ ماضٍ فى طريقه ، صابر لأمر ربه لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا حرب محارب ، ولا كيد مستهزئ .

آن الأوان لأن يقر الله تعالى عين نبيه، فيعرج به من دون الخلائق جميعاً إليه ، ويكرمه على صبره وجهاده ، ويلتقى به مباشرة دون رسول ولا حجاب ، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافة ، ويجمعه مع إخوانه من الرسل فى صعيد واحد فيكون الإمام والقدوة لهم وهو خاتمهم وآخرهم . ويحدثنا عليه الصلاة والسلام عن هذه الرحلة الخالدة فيقول :

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال :

« أُتيت بالبراق » وهو أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال : « فركبته حتى أتيت بيت المقدس » قال : « فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء » قال : « ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءنى جبريل ـ عليه السلام ـ بإناء من خمر وإناء من لبن . فاخترت اللبن » . فقال جبريل : «اخترت الفطرة » (٢).

(١) هذا البحث مأخوذ من كتاب ـ فقه السيرة ـ للمؤلف مع بعض التصرف .

(٢) مسلم : ك الإيمان ، ب الإسراء برسول الله (١٦٢/٢٥٩) .

وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لما كذبتنى قريش قمت من الحجر ، فجلا الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» [1] .

(قال الحسن[2] فى حديثه: فمضى رسول الله ﷺ ومضى جبريل ـ عليه السلام ـ معه حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفرٍ من الأنبياء فأمَّهم رسول الله ﷺ فصلى بهم ، ثم أتى بإناءين فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن . قال : فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن ، فشرب منه وترك الخمر قال :فقال جبريل: هديت للفطرة وهديت أمتك يا محمد ، وحرمت عليكم الخمر ،ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة. فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر . فقال أكثر الناس: هذا والله الأمر البين ،والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة ؟! قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ، يزعم أنه جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ورجع إلى مكة . فقال أبو بكر : والله لئن كان قال لقد صدق . فما يُعَجِّبكم من ذلك القول ، فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدِّقه. فهذا أبعد مما تعجبون منه .ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله ، فصفه لى فإنى قد جئته . قال الحسن : فقال رسول الله ﷺ: « فرفع لى حتى نظرت إليه ». فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبى بكر،ويقول أبو بكر:صدقت أشهد أنك رسول الله ﷺ،كلما وصف له منه شيئاً .قال : صدقت أشهد أنك رسول الله . . . حتى انتهى . قال رسول الله ﷺ لأبى بكر : «وأنت يا أبا بكر الصدِّيق » فيومئذ سمّاه الصدّيق .

قال الحسن: وأنزل الله فيمن ارتد عن إسلامه لذلك : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيراً ﴾[3]) [4] .

قال محمد بن إسحاق : (وكان ـ فيما بلغنى عن أم هانئ بنت أبى طالب ـ رضى الله عنها ـ واسمها هند ـ فى مسرى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول : ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى نائم عندى تلك الليلة فى بيتى ، فصلى العشاء الآخرة، ثم

---

(١) البخارى ، كتاب مناقب الأنصار ب حديث الإسراء ص م٢ ج ٥ ص ٦٦ .
(٢) الحسن : هو الحسن البصرى ـ رحمه الله . (٣) الإسراء / ٦٠ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٥ .

نام وغمنا ، فلما كـان قبيل الفجر، أهبنا رسول الله ﷺ ، فلما صلى الصبح ، وصلينا معـه ،قال:« يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ،ثم جئت بيت المقدس وصليت فيه، ثم قد صـليت الغداة معكم الآن كما ترين » ، ثم قـام ليخرج فأخـذت بطـرف ردائه ، فتكشف عن بطنه كأنـه قبطية سطوية [١]. فقلت له:يا نبى الله ، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك .قال:« والله لأحدثهموه » ، قالت : فقلت لجارية لى حبشية : ويحك اتبعى رسول الله ﷺ حتى تسمعى ما يقول للناس وما يقولون له . فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم فعجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد ؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط . قال : « آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا . فأنفرهم حس الدابة ، فندَّ [٢] لهم بعيرهم فدللتهم عليه وأنا موجه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بنى فلان ، فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشىء ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوّب من البيضاء ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء » .

فابتدر القوم الثنية ، فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وصفوه مملوءاً ماءً ثم غطّوه ،وأنهم هبوا فوجدوه مغطّى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماءً .وسألوا الآخرين وهم بمكة .فقالوا :صدق والله ، لقد أنفرنا فى الوادى الذى ذكره،وندّ لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه) [٣] .

(وفى رواية يونس:أنه وعد قريشاً بقدوم العير التى أرشدهم إلى البعير،وشرب إناءهم، وأنهم سيقدمون ويخبرون بذلك . فقالوا : يا محمد متى يقدمون ؟ فقال : «يوم الأربعاء » . فلما كان ذلك اليوم ولم يقدموا حتى قربت الشمس أن تغرب ، فدعا الله فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف .

قال : ولم يحبس الشمس إلا له ذلك اليوم وليوشع بن نون) [٤] .

قال ابن كثير : (وقد عاين فى تلك الليلة من الآيات والأمور لو رآها أو بعضها غيره لأصبح مندهشاً أو طائش العقل ، ولكنه ﷺ أصبح واجماً ـ أى ساكناً ـ يخشى إن بدأ فأخبر قومه بما رأى أن يبادروا إلى تكذيبه ، فتلطف بإخبارهم أولاً أنه جاء بيت المقدس فى تلك الليلة ، وذلك أن أبا جهل ـ لعنه الله ـ رأى رسول الله ﷺ فى المسجد

---

(١) قبطية سطوية : نوع من أنواع الملابس الواردة من مصر .

(٢) ندَّ : هرب .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٠ ، ٥١ .

(٤) الروض الأنف للسهيلى ٢/١٤٩ .

الحرام وهو جالس واجم فقال له :هل من خبر ؟ فقال : « نعم » . فقال : وما هو ؟ قال: « إنى أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس » قال: إلى بيت المقدس ؟! قال: « نعم » فأراد أبو جهل جمع قريش ليسمعوا منه ذلك . وأراد رسول الله ﷺ جمعهم ليخبرهم بذلك ويبلغهم. فقال أبو جهل :هيا يا معشر قريش ، وقد اجتمعوا فى أنديتهم ،فقال: أخبر قومك بما أخبرتنى به ،فقصَّ عليهم رسول الله ﷺ خبر ما رأى . وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة وصلى فيه ، فمن بين مصدّق ، وبين مصفِّر تكذيباً له واستبعاداً لخبره ، وطار الخبر بمكة ، وجاء الناس إلى أبى بكر رضي الله عنه فأخبروه أن محمداً يقول: كذا وكذا . فقال : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : والله إنه ليقوله . فقال : إن كان قاله فقد صدق . ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وحوله مشركو مكة . فسأله ذلك فأخبره. فاستعلمه عن صفات بيت المقدس ، ليسمع المشركون ويعلموا صدقه فيما أخبرهم به) (١) .

١ ـ من دلالات الإسراء برسول الله ﷺ هو أن رسالة الله واحدة إلى خلقه وهى الإسلام ﴿ إنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلام ﴾ (٢) . وبه جاء الأنبياء من لدن آدم ونوح إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو يصلى إماماً بالأنبياء،ويؤم بيت المقدس ، الذى أقيم للناس ليعبدوا الله فيه بعد البيت الحرام وهو القبلة الأولى للمسلمين ، وأهميته بالنسبة للمسلمين وثيقة مثل أهمية البيت الحرام ، ولو تحولت القبلة عنه . فمحمد ﷺ خاتم النبيين وإمامهم .

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ، الأنبياء أولاد علات (٣) ، وليس بينى وبين ابن مريم نبى » قال : كان أبو هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أُحسن بنيانه ، ترك منه موضع لبنة فطاف بها النظار يتعجبون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها ، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة ، ختم بى البنيان ، وختم بى الرسل » (٤) .

وقال رسول الله ﷺ:« أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الأولى والآخرة »،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٢٤ . (٢) آل عمران / ١٩ .

(٣) أولاد علات : يقال لإخوة بنى أم وأب : بنو الأعيان ، فإن كانوا لأمهات شتى فهم بنو العلات ، فإن كانوا الآباء شتى فهم أخياف .

(٤) شرح السنة للبغوى ، وقال فيه:« هذا حديث متفق على صحته ،رواه محمد (البخارى) عن قتيبة ٦ / ٨، وأخرجه مسلم عن قتيبة كلاهما عن إسماعيل بن جعفر ٢٢/ ٢٢٨٦ .

قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : « الأنبياء إخوة من علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وليس بيننا نبى » (١) .

ويشعر الصف المسلم وهو يرى نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد مضى إلى القدس قبلتهم في ليلة واحدة وأسرى به إلى هناك وقال الله تعالى له : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ** ﴾ (٢) .

يشعر هذا الصف الذى يبلغ تعداده العشرات أنه هو الذى يمثل الحق فى هذا الوجود .ولا أدل على ذلك من هذه الهجرة النبوية الكريمة إلى القدس،فيما يحتاجه الراكب إلى شهرين ذهاباً وعودة . لقد لمسوا عياناً الآن صدق نبيهم ـ صلوات الله عليه ـ بعد أن لمسوه تصديقاً ،وشهدوا مدى كرامته على ربه ، فأى حظ يحوطهم وأى سعد يغمرهم وهم حول هذا النبى المصطفى وقد آمنوا به وقدموا حياتهم فداء له ولدينه! كم يترسخ الإيمان فى قلوبهم أمام هذا الحدث الذى تم بعد وعثاء الطائف، وبعد دخول مكة بجوار،وبعد أذى الصبيان والسفهاء ﴿ **وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا** ﴾ (٣) .

٢ ـ أما الإشارة فى الرواية إلى ضعاف الإيمان كما تذكر : « فارتد كثير من المسلمين » ، وهو تفسير قوله عز وجل : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ... ﴾ (٤) . فالرسول ﷺ مقدم على مرحلة جديدة ، مرحلة الهجرة . والانطلاق لبناء الدولة ، يريد الله تعالى للَّبنات الأولى فى البناء أن تكون سليمة قوية متراصة متماسكة ، وجعل الله تعالى هذا الاختبار والتمحيص ؛ ليخلص الصف من الضعاف المترددين ، والذين فى قلوبهم مرض ، ويثبت المؤمنين الأقوياء والخلص .

وفى مراجعة مصادر السيرة ، لا نجد اسماً واحداً يذكر من الذين ارتدوا عقب هذه الحادثة ، ولم يشهد تاريخ الرعيل الأول ردة إلا من عبيد الله بن جحش الذى مضى إلى الحبشة وتنصر هناك ومات على نصرانيته ، لكن تذكر كتب السيرة عن خمسة من بيوتات مكة . كانوا قد أسلموا ثم فتنوا ، وماتوا كفاراً . وتذكر الروايات أنهم فتنوا عند الهجرة .

---

(١) المصدر السابق ١٣ / ٣٦١٩ وقال فيه : « هذا حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق أبى هريرة » البخارى ٦ / ٣٥٤ ومسلم ١٤٥ / ٢٣٦٥ فى الفضائل .

(٢) الإسراء / ١ . (٣) المدثر / ٣١ .

(٤) الإسراء / ٦٠ .

يقول ابن إسحاق : (وكان الفتية الذين قتلوا ببدر فنزل فيهم القرآن فيما ذكر لنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١) فتية مسمين من بنى أسد بن عبد العزى :الحارث بن زمعة بن الأسود ، ومن بنى مخزوم : أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، ومن بنى جمح : على بن أمية بن خلف ، ومن بنى سهم : العاص بن منبه بن الحجاج . . . وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ حبسهم آباؤهم وعشائرهم بمكة وفتنوهم ففتنوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا به جميعاً) (٢).

وحيث إن الزمن بين الهجرة والإسراء والمعراج قصير ويعتبر فترة واحدة ، فلعل هؤلاء الخمسة هم أنفسهم الذين ارتدوا بعد حادث الإسراء ، وخضعوا لآبائهم ابتداءً ثم تراجعوا عن عقيدتهم بعد ذلك وأصبحوا من الصف الكافر فانتهوا كفاراً بعد ذلك .

وبينما ازداد الذين آمنوا إيماناً ، وكان جواب الصدّيق خطاً صاعداً فى الأفق للمؤمنين فى الأرض: فوالله إنه ليخبرنى الخبر يأتيه من السماء ساعة من ليلٍ أو نهار فأصدق . وقوله رضي الله عنه : إن كان قالها فقد صدق .

٣ ـ وأن تتابع المعجزات فى الحدث الواحد ، ليبهت الذين كفروا وتدحض مزاعمهم . فهى كرامة هذا النبى المصطفى ﷺ .فالصديق يسأل عن بيت المقدس ، وبيت المقدس يرفع للنبى ﷺ عياناً فأين قصر بلقيس من هذا ؟ إنه عليه الصلاة والسلام يصفه والصديق يقول :صدقت يا رسول الله .ولا شك أن الكثير من رجالات قريش قد زاروا بيت المقدس ، فلم يجرؤ واحد منهم على أن يرد على الصديق كلمته . وفاز أبو بكر بلقب الصديق يومها ، فهو صدّيق هذه الأمة وهو الذى علمنا كيف يكون التعامل مع ما يأتى من الله ورسوله . فلا مجال للرأى بعد ثبوت نقله ، ولا اجتهاد فى مورد النص . وتأتى المعجزة الثانية فى حبس الشمس لرسول الله ﷺ حتى يصل الركب فالكون فى خدمة المصطفى ﷺ ولم يحبس الشمس إلا له ذلك اليوم وليوشع بن نون.

٤ ـ وشرب رسول الله ﷺ اللبن حين خيّر بينه وبين الخمر ، وبشارة جبريل ـ عليه الصلاة والسلام : هديت للفطرة ، تؤكد أن هذا الإسلام دين الفطرة البشرية التى ينسجم معها . فالذى خلق الفطرة البشرية خلق لها هذا الدين الذى يلبى نوازعها

---

(١) النساء / ٩٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٤٣ .

واحتياجاتها ويحقق طموحاتها ويكبح جماحها ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (١) .

٥ ـ وحرص رسول الله ﷺ على إخبار قومه بما منَّ الله تعالى عليه بهذا الإكرام رغم توقع التكذيب درس واضح كذلك لخط سير الصف المسلم وتبليغه حقيقة هذا الدين جلية واضحة .

لقد اهتبلها أبو جهل فرصة لكيد النبى ﷺ، حتى يكذبه الناس ،فما عبأ عليه الصلاة والسلام بما يلاقى رغم إشفاق أم هانئ عليه ألا يحدث الناس حتى لا يكذبوه .

لابد أن تجلى الحقائق فى هذا الدين للناس جميعا وإخفاء الحقائق حرصاً على إرضاء نزوات الناس انحراف عن منهج الله ، وكتمان لما أمر الله تعالى تبليغه ، لكن اختيار الوقت والطريقة الأنسب للتبليغ موضوع آخر .

فلم يبلغ رسول الله ﷺ بما رأى فى المعراج من آيات ربه ، وبدأ بإبلاغهم ما يعرفون ، فبيت المقدس من عالم الحس والشهادة ، ويقدر على إثباته لهم حيث رفع الله تعالى له بيت المقدس ليصفه للناس رأى عين ، وجاء بدلائل من الوقائع الحسية لتصديق خبره .

لقد كان عليه الصلاة والسلام فى غنى عن الشرب ، وفى غنى عن الدلالة على البعير الذى ندّ وهو ماض فى أعظم رحلة تكريم له ، ينالها فرد فى الوجود. ولكنها الوقائع الحسية لدفع حجتهم وإثبات صحة الخبر عندهم .

حديث المعراج :

عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ـ رضى الله عنهما ـ أن نبى الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال :

« بينما أنا فى الحطيم ـ وربما قال: فى الحجر ـ مضطجعاً إذ أتانى آت فقد » ـ قال: وسمعته يقول: فشقّ ـ « ما بين هذه إلى هذه » .فقلت للجارود وهو إلى جنبى : ما يعنى به ؟ قال :من ثغرة نحره إلى شعرته ـ وسمعته يقول: من قصه إلى شعرته ـ « فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبى ثم حشى . ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض » فقال له الجارود : هو البراق يا أبا حمزة ؟ قال أنس : نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه . « فحملت عليه فانطلق بى جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل: من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟

---

(١) الروم / ٣٠ .

قال: محمد . قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم .قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء . ففتح . فلما خلصت فإذا فيها آدم ، فقال : هذا أبوك آدم فسلّم عليه فسلمت عليه ، فرد السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح . ثم صعد حتى السماء الثانية فاستفتح . قيل: من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء . ففتح ، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة. قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما . فسلمت . فردا السلام ، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.ثم صعد بى حتى السماء الثالثة فاستفتح . قيل : من هذا ؟ قال:جبريل .قيل : ومن معك ؟ قال: محمد . قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل :مرحباً به فنعم المجيء جاء ، ففتح . فلما خلصت إذا يوسف ، قال: هذا يوسف فسلّم عليه . فسلَّمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صُعد بى حتى السماء الرابعة فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد. قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فنعم المجئ جاء . ففتح، فلما خلصت إلى إدريس فقال : هذا إدريس فسلّم عليه فسلمت عليه فردّ علىَّ السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. ثم صعد بى إلى السماء الخامسة فاستفتح قيل:من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح . فلما خلصت إلى هارون . فقال: هذا هارون فسلّم عليه . فسلَّمت عليه فرد علىّ السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى السماء السادسة فاستفتح .قيل : من هذا ؟ قال: جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه؟ قال: نعم . قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء . ففتح ، فلما خلصت فإذا موسى. فقال : هذا موسى فسلّم عليه . فسلّمت عليه فرد على السلام . ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . فلما تجاوزت بكى . قيل له :ما يبكيك ؟ قال : أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى . ثم صعد بى حتى السماء السابعة. فاستفتح جبريل. قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم .قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء .فلما خلصت فإذا إبراهيم .قال : هذا أبوك . فسلم عليه .فسلمت عليه .فردّ السلام . فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ،وإذا ورقها مثل آذان الفيلة . قال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران. فقلت :

ما هذان يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لى البيت المعمور ، ثم أتيت بإناء من خمر،وإناء من لبن ، وإناء من عسل . فأخذت اللبن. فقال : هى الفطرة أنت عليها وأمتك ـ ثم فرضت علىّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم .

فرجعت فمررت على موسى ، فقال : بما أمرت ؟ قال : أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال: إن إمتك لا تستطيع خمسين صلاة ، والله لقد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة . فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت ، فوضع عنى عشرا . فرجعت إلى موسى ،فقال لى مثله ، فرجعت فوضع عنى عشرا ، فرجعت إلى موسى فقال لى مثله . فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم. فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت ؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم . قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإنى قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال : سألت ربى حتى استحييت . ولكن أرضى وأسلم . فلما جاوزت نادى مناد : أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى » (1) .

قال ابن شهاب : فأخبر ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصارى كانا يقولان : قال النبى ﷺ : « فعرض الله على أمتى خمسين صلاة ، ثم انطلق بى حتى انتهى بى إلى سدرة المنتهى ، وغشيها ألوان لا أدرى ما هى ، ثم أدخلت الجنة . فإذا بها حبائل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » (2).

وعن عبد الله قال : لما أُسرى برسول الله ﷺ ، انتُهى به إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السادسة . إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط بها من فوقها فيقبض منها ،قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾. قال : فراش من ذهب . قال : فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً ؛ أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات (3) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أسرى بى إلى السماء رأيت موسى ـ

---

(1) البخارى م٢ ج٥ باب المعراج ص ٦٦ . وأخرجه مسلم عن محمد بن المثنى ، ورواه الترمذى والنسائى من طرق عن قتادة .

(2) شرح السنة للبغوى ١٣ / ٣٧٥٤ وقال : « هذا حديث متفق على صحته أخرجه مسلم عن حرملة بن يحيى » .

(3) شرح السنة للبغوى ١٣ / ٣٧٥٦ وقال : « هذا حديث صحيح وهو فى مسلم ٧٣ فى ك الإيمان، ب سدرة المنتهى . والمقحمات : الذنوب العظام التى تقحم أصحابها فى النار » .

عليه الصلاة والسلام ـ يصلى فى قبره » [1] .

وعن الشيبانى قال : سألت زراً عن قوله عز وجل : ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** ﴾ [2] ، قال : أخبرنا عبد الله أنه محمد ، رأى جبريل له ستمائة جناح [3] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال: « لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تعرض عليه أرواح بنى آدم فيقول لبعضها إذا عرضت عليه : خيراً، ويسر به ويقول : روح طيبة خرجت من جسد طيب . ويقول لبعضها إذا عرضت عليه : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث . قلت: من هذا يا جبريل ؟ قال: هذا أبوك آدم ، تعرض عليه أرواح ذريته . . ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل فى أيديهم قطع من نار كالأفهار يقذفونها فى أفواههم . فتخرج من أدبارهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً . ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يُعرضون على النار يطؤوهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك قال : قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء هم أكلة الربا ، ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب قال : قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن . ثم رأيت نساء معلقات بثديهن . فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم » [4] .

تكملة : وقع فى غير هذه الرواية زيادات رآها رسول الله ﷺ بعد سدرة المنتهى لم تذكر فى هذه الرواية (رواية البخارى السابقة) منها ما تقدم فى أول الصلاة « حتى ظهرت لمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام » . وفى رواية شريك عن أنس كما سيأتى فى التوحيد: (حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة تبارك وتعالى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إليه خمسين صلاة) الحديث ، وفى رواية أبى ذر من الزيادة أيضا « ثم أدخلت الجنة . فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك ». وعند مسلم من طريق همام ، عن قتادة عن أنس رفعه : « بينا أنا أسير فى الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ، وإذا طينه مسك أذفر . فقال جبريل : هذا الكوثر » . وله من طريق

---

(١) المصدر السابق ١٣ / ٣٧٥٧ ، وقال : « حديث متفق على صحته أخرجه مسلم والبخارى ».

(٢) النجم / ٩ .

(٣) شرح السنة للبغوى ١٣ / ٣٧٦٠ وقال : « هذا حديث صحيح أخرجه مسلم ٢٣٧٥ فى الفضائل، ب فضائل موسى ﷺ » .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٣ ، ٥٤ .

شيبان عن قتادة عن أنس : « ثم انطلق حتى انتهى إلى الشجرة. فغشيتنى من كل سحابة فيها من كل لون، فتأخر جبريل وخررت ساجداً ». وفى حديث ابن مسعود عند مسلم «وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس ، وخواتم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته المقحمات » يعنى: الكبائر ، وفى هذه الرواية من الزيادة « ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى جبريل . فانصرفت سريعاً . فأتيت على إبراهيم فلم يقل شيئاً . ثم أتيت على موسى فقال : ما صنعت؟ » الحديث . وفيه أيضاً : فقال رسول الله ﷺ: « ما لى لم آت أهلِ سماء إلا رحبوا وضحكوا إلى ، غير رجل واحد فسلمت عليه فردّ علىّ السلام ، ورحّب بى ولم يضحك إلىّ ؟ » قال : يا محمد ، ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خُلق . ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك . وفى حديث حذيفة عند أحمد والترمذى : (حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع) . وفى حديث أبى سعيد: (أنه عرض عليه الجنة . وأن رمانها كأنه الدلاء، وإذا طيرها كأنه البخت. وأنه عرضت عليه النار فإذا هى لو طرح فيها الحديد والحجارة لأكلتهما) . . . وفى رواية أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: (أن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ قال للنبى ﷺ: يا بنى إنك لاقٍ ربك الليلة ، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها فى أمتك فافعل . . .).

وروى الطبرانى فى الأوسط بسند قوى عن ابن عباس قال : (رأى محمد ربه مرتين) . ومن وجه آخر قال : (نظر محمد إلى ربه) . جعل الكلام لموسى والخلة لإبراهيم والنظر لمحمد . فإذا تقرر ذلك ظهر أن مراد ابن عباس هنا برؤية العين المذكورة جميع ما ذكره ﷺ فى تلك الليلة من الأشياء التى تقدّم ذكرها [1] .

* * *

١ ـ لقد كان افتتاح الإسراء والمعراج بشق صدره عليه الصلاة والسلام وبغسل قلبه وملئه بالإيمان وهو أمر من معجزاته ﷺ ، وشارك فى هذه العملية سيدا الملائكة جبريل وميكائيل ـ عليهما الصلاة والسلام . وهذه المعجزة تقتضيها تلك الرحلة إلى الحضرة الإلهية ، والاطلاع على عوالم من عوالم الغيب لن يستطيعها بشر ، ولن يطيقها مخلوق ، ومن أجل هذا هيئ قلبه ﷺ لمثل هذا المعراج . وهذا الأمر يعفينا من كثير من الخواطر حول إمكانية رؤية رسول الله ﷺ لربه ، والأمر كله أكبر من قياسه على العقل البشرى ، والطاقة البشرية الضعيفة ، ومن مِن خلق الله تعالى أُعِدَّ هذا الإعداد لمثل هذه المواجهات غير رسول الله ﷺ ؟

منذ طفولته وهو ابن الرابعة حين شُق صدره ، وانتزع منه العلقة السوداء . حظ الشيطان منه. وعند بعثته شق صدره ثانية ليكون مهيأ لتلقى كلام رب العالمين ، وهذه

(١) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ج ٧ ، ك مناقب الأنصار ، ب المعراج ص ٢١٦ ـ ٢١٩ .

المرة الثالثة التى يشق فيها صدره ليعد للقاء مع الملائكة والنبيين والمثول بين يدى رب العالمين .

٢ ـ ثم كان افتتاح السموات العلا ، واحدة إثر الأخرى، بعد الاستئذان من جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإعلامهم بمصاحبة النبى ﷺ ، ثم لقاؤه مع النبى المقرر اللقاء معه فى هذه السماء . هو إشعار النبى ﷺ أن حدوده ليست مكة وثقيف والطائف، إنه نبى هذا الوجود كله، الذى يستبشر بقدومه ملائكة السماء وحفظتها. إن اسمه ليس نكرة عليهم ،فهم يعرفون فضله منذ خلق الله السموات والأرض،ويعرفون أنه سيد ولد آدم، وسيد الثقلين الإنس والجن ، وإنما الجديد عليهم بعثته ﷺ ، فهم ينتظرون بعثته ، ويتهيؤون لاستقباله ، والأوامر من رب العالمين لهم أن يفتحوا له أبواب السموات العلا عند قدومه لهذه الزيارة الخالدة . والأنبياء هم مستبشرون به وعارفون لفضله ، ومقرون نبوته ورسالته . إنه هو العبد الذى يسير بصحبة جبريل ـ عليه الصلاة والسلام . رئيس التشريفات للحضرة الإلهية إلى أماكن لم تخطر على خلد بشر، يرى عليه الصلاة والسلام هذه الآفاق وهذا الملكوت .وحدوده قبل هذه الرحلة بصرى فى الشام والطائف فى الحجاز .

٣ ـ وإذا كان جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الذى يجوب بمحمد ﷺ آفاق السموات والأرض ويقدمه للملائكة والنبيين ، فلجبريل نفسه حدود لا يتجاوزها . فعند سدرة المنتهى رأى رسول الله ﷺ جبريل للمرة الثالثة كذلك على صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، فلئن رآه قبل فى حراء وفى الأبطح وهو الفرد العادى إنه يراه الآن ، حيث يقف جبريل ، ويتقدم النبى ﷺ إلى المثول بين يدى الرب الأعلى يتلقى منه مباشرة دون واسطة ودون رسول يسمع من ربه ، ويحفل به الله تعالى ، فيريه من الآيات ما لا يستطيع أحد ، وصفه وما تتجلى أنوار الحضرة الإلهية عليه ، فأنى التفت يرى النور ، وعلى رواية الطبرانى بالسند القوى ، أنه رأى ربه ـ جل وعلا ـ مرتين ، وذلك ما لم يحظ به أحد ، وكما مر معنا فقد خُص إبراهيم بالخلة، وموسى بالكلام ، ومحمد بالنظر ، فأى شرف فى هذا الوجود يبلغ هذا الشرف، لذلك المطارد من غلمان الطائف ، والمحجور عليه بلده من ملأ بلده ؟

٤ ـ وفى هذا اللقاء المنفرد شاء رب العزة أن يتلقى رسوله أمر الصلوات الخمس بين يديه من دون أحكام الشريعة كلها . كأنما الهدف من هذا اللقاء هو هذا التلقى، وكيف كانت خمسين صلاة ابتداء ثم غدت خمساً بعد ذلك.

فما أعظم هذه الصلوات فى حس المسلم حين يذكر شرفها ، وعظمتها أين تم

تلقيها ؟ ! وواجب المسلم أن يقتدى برسول الله ﷺ فيعطى هذه الصلاة حقها ، لأنها فى حسه هى الصلة اليومية المفروضة بين الله تعالى وعباده .

وأما فرض الصلاة عليه هنالك ، ففيه التنبيه على فضلها حيث لم تُفرض إلا فى الحضرة المقدسة ؛ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائط أدائها والتنبيه على أنها مناجاة الرب ،وأن الرب تعالى مقبل بوجهه على المصلى يناجيه يقول: حمدنى عبدى ، أثنى علىّ عبدى ، إلى آخر السورة . وهذا مشاكل لفرضها عليه فى السماء السابعة حيث سمع كلام الرب وناجاه ، ولم يعرج به حتى طهّر ظاهره وباطنه بماء زمزم كما يتطهر المصلى للصلاة ، وأخرج عن الدنيا بجسمه كما يخرج المصلى عن الدنيا بقلبه ويحرم عليه كل شىء إلا مناجاة ربه ، وتوجهه إلى قبلته ،فى ذلك الحين ، وهو بيت المقدس ، ورُفع إلى السماء كما يرفع المصلى يديه إلى جهة السماء إشارة إلى القبلة العليا فهى البيت المعمور ، وإلى جهة عرش من يناجيه ويصلى له سبحانه (١) .

وكأنما الصلاة للمؤمن معراج مصغر يتجه المؤمن بقلبه إلى الله تعالى ويمثل بين يديه ، ذكراً وتسبيحاً واستغفاراً وثناءً على الله جل وعلا . كما كرَّم سيد الخلق بأن كان معراجه ومثوله بين يدى ربه بجسده الشريف وقلبه . وإذا كان فرض الصلاة هناك ، فلابد أن يكون حس المؤمن وهو يصلى متجهاً إلى هناك حيث فرضت يوم فُرضت بلا وساطة ولا حاجب ولا حجاب .

ومن أجل هذا كان ترك الصلاة من الكبائر التى تقود إلى الكفر،أو هو الكفر :

« العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » (٢) .

وما كان السلف يرون أمراً تركه كفر غير الصلاة . قال عبد الله بن شقيق :

(كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون من الأعمال شيئاً تركه كفر غير الصلاة) (٣) .

٥ ـ وما هيأه الله تعالى لنبيه ﷺ من أن يكون موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على طريق عودته . ويتذاكر معه فيما فرض عليه ربه ، فيلحُّ موسى على محمد ﷺ العودة إلى ربه ومناجاته ،وطلب التخفيف عن أمته، وكيف كان يمضى ثم يعود فيسقط الله تعالى عنه عشراً ، وكيف وقف عند الخمس بعد ذلك ، ويستحى من ربه ـ عز وجل ـ فى المراجعة . فيسمع نداء ربه: « أمضيت فريضتى ، وخففّت عن عبادى».

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ٢/١٥٩ .

(٢) رواه الترمذى ٥/١٥ وقال :« حديث حسن صحيح » ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى، شرح السنة ٢/ ١٨٠ هامش ٧ .

(٣) شرح السنة ٢/١٨١ .

(وكذلك قال فى آخر الحديث : « هى خمس وهى خمسون ، والحسنة بعشر أمثالها » . فتأول رسول الله ﷺ على أنها خمسون بالفعل ، فلم يزل يراجع ربه حتى بين له أنها خمسون فى الثواب لا بالعمل ، فإن قيل : فما معنى نقصها عشراً بعد عشر؟ قلنا : ليس كل الخلق يحضر قلبه فى الصلاة من أولها إلى آخرها . وقد جاء فى الحديث أنه يكتب له منها ما حضر قلبه منها ، وأن العبد يصلى الصلاة فيُكتب له نصفها وربعها حتى انتهى إلى عشرها، ووقف . فهى خمس فى حق من كُتب له عُشرها ، وعَشرٌ فى حق من كُتب له أكثر من ذلك، وخمسون فى حق من كَمُلت صلاته وأداها بما يلزمه من تمام خشوعها وكمال سجودها وركوعها) (١) .

وحيث بقيت الصلاة خمساً فى الأداء ، فلم يعد من عذر لمسلم بترك واحدة منها ، وفوات صلاة واحدة من غير عذر ذنب لا يعادله ذنب ، لأنها تخلٍ عن مناجاة الرب جلَّ وعلا ، والوقوف والمثول بين يديه ، وحرىٌّ بالمسلم ، وقد سمع ما أكرم الله تعالى به نبيه حين أحضره إليه ، وعرض عليه ـ عليه الصلاة والسلام . وما كان من تلك المراجعة المستمرة من أجل التخفيف عنه حتى عُدَّت خمساً فى العمل وخمسين فى الثواب ، حرى بالمسلم وقد سمع هذا كله أن يحافظ على هذه الصلوات الخمس ويتطهر بها يومياً من ذنوبه .

« أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات،هل يبقى من درنه شيء ؟» قالوا: لا. قال:« فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا »(٢).

هذا من حيث الأجر لمن أداها بحقها . أما من حيث الوزر لمن تخلى عنها وفرّط فى حقها ، فهو مطرود من الحضرة الإلهية ، ومبعوث مع المجرمين العتاة الكفرة . فعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال:« من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة،ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ،وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف »(٣) .

فيكفينا أن نرى صلاة النبى ﷺ فى الأنبياء فى بيت المقدس لتؤكد أن الصلاة جزء من دين الله تعالى الذى أنزل على كل نبى من أنبيائه ، وليست خاصة بالمسلمين وحدهم . وقد شهدنا كيف كان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يشفق على أمة محمد ﷺ من أجل الصلوات الخمسين فيلحّ على أخيه محمد ﷺ أن يطلب التخفيف من

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ٢/ ١٦٠ .

(٢) البخارى ٢/ ٩ فى مواقيت الصلاة ، ومسلم(٦٦٧) فى المساجد .

(٣) رواه أحمد بإسناد صحيح ٢/ ١٦٩ .

ربه، بعد أن بلا بنى إسرائيل وشهد تقصيرهم. وإن كانت كيفيتها تختلف من رسالة إلى أخرى ، لكنها كلها تتجه إلى الله تعالى فإنه: « لا خير فى دين لا صلاة فيه »[1] .

٦ ـ ولا يفوتنا أن نتحدث عن سر هذه المراجعة بين رسول الله ﷺ وبين ربه، فكما يشير بعض العارفين إلى جواب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لربه يوم سأله: ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ** ﴾[2] .

وكان يكفيه من الجواب أن يقول : هى عصاى ، لكن لذة المناجاة مع الرب سبحانه ، دفعته أن يتحدث عن عمله فى عصاه . ورسول الله ﷺ يغادر الحضرة الإلهية بعد لذة المناجاة مع ربه ـ عز وجل ـ ويدعوه أخوه موسى إلى العودة للمناجاة للتخفيف عن أمته ، فيعود مرة وثانية وثالثة ورابعة وخامسة ، فلم يذق عليه الصلاة والسلام فى حياته كلها لذة وسعادة تفوق هذه اللذة والسعادة وهو يناجى ربه ـ جل وعلا ـ دون واسطة.

ورب العزة جل جلاله ، الذى أحب عبده واصطفاه قادر أن يكون التخفيف ابتداء خمسا وأربعين صلاة . ويقول لنبيه المصطفى :هى خمس وهن خمسون. لكن الله عز وجل قد قدّر لنبيه أن تستمر تلك المناجاة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة، وأن يذيق نبيه لذة التضرع والاستجابة . إنه عالَمٌ أعطيه محمد ﷺ دون الخلائق جميعاً ، وحانت له فرصة سانحة أن يرجع إلى ربه ويسأله التخفيف ، ورب العزة سبحانه يشهد تلك المحادثة بين عبديه المصطفيْن موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، ليعود ثانية إليه مصطفاه محمد ، ويعاود التخفيف . وحين استحى رسول الله ﷺ أن يعود إلى ربه فى المرة السادسة ، جاءه النداء الربانى : « أمضيت فريضتى وخففت على عبادى » .

يا الله ، ماذا يستطيع القلم أن يصف عن هذه الأجواء ، وهذه العوالم، وهذه المشاعر !!

إنه شيء يجل عن الوصف، ويفوق الوصف ، ويعجز الفرد الفانى الضعيف المحدود أن يتحدث عن تلك الصلة المباشرة الخالدة بين سيد عبيد هذا الوجود وبين رب هذا الوجود ، بلا وساطة، وقد تراجع جبريل سيد الملائكة ، ومضى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يراجع كذلك بين أخيه موسى وبين ربه ، وقد عرف طريقه ، وعرف مقامه عند ربه ، ثم عاد من رحلته ليحدث صحبه عما شاهده فى عالم الملكوت، وعالم

---

(١) رواه أحمد بلفظ : « لا خير فى دين لا ركوع فيه » ٢١٨/٤ .

(٢) طه / ١٧، ١٨ .

الجبروت: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾(١) .

٧ ـ ونعود إلى هذا الجيل الرائد ، إلى هؤلا الصحب الذين جلسوا يستمعون من حبيبهم عليه الصلاة والسلام إلى رحلته فى هذه الليلة ، وهم يغطون فى نومهم ، ويقيمون فى فرشهم ، أين مُضى بقائدهم فى هذه الليلة ، ومن كان خدمه من الملائكة، وكيف فتحت أبواب السموات العلا له ، وكيف استقبله إخوانه من الأنبياء ، وكيف سعدت وشرفت بلقائه ملائكة الرحمن ، وكيف رأى السدرة ووصفها لهم ، ورأى الجنة رأى عين ووصفها لهم ، ورأى النار رأى عين ووصفها لهم،ورأى ربه رأى عين، وعجز بلسانه البشرى أن يصفه لهم . حين يسمعون من رسولهم الحبيب المصطفى هذه الرحلة توا بعد حدوثها ، وفى صبيحة قدومه من هذا المعراج الأسمى والأسنى . كيف يغدو الإيمان فى جذور قلوب هؤلاء الرجال ؟

ويأتى القرآن الكريم ليؤكد لهم أنباء هذا المعراج العظيم . إننا وبعد مرور خمسة عشر قرناً نقرأ عن هذا المعراج ، فتقشعر جلودنا خشية لله ، وتطمئن قلوبنا بذكر الله ، ويعمر قلبنا بالإيمان .كما رُوِىَ لنا من جيل إلى جيل لا يمكن تواطؤهم على الكذب . أما أولئك الصحب ، أولئك العشرات الذين لم يتجاوزوا المائة ، والذين كانوا فى مكة دون السبعين ، هؤلاء الذين حظوا بهذا اللقاء ، وهذا السماع المباشر ، وهذا الوصف الحى من صاحب الرحلة المباركة . كيف يغدو الإيمان فى قلوبهم ؟ وكم يقتبسون من ذلك النور المحمدى المتصل قبل قليل بالنور الإلهى ؟! وأى جيل وأى قبيل وأى فرد حظى فى هذا الوجود بمثل ما حظوا به من النعمة والفضل ؟ وهل يعدل فضل الصحبة فضل ؟ لقد كانت الأجيال اللاحقة تتفاخر أنها رأت من رأى رسول الله ﷺ ، ثم جاء جيل يفخر بأنه رأى من رأى من رأى رسول الله ﷺ ، وحق لهذا الجيل المحمدى الربانى أن يكون خيرة الله فى خلقه ، وأن تكون هذه التربية الفذة خالصة له لا يحوزها أحد بمستواهم ، ولكن يقترب منهم ، ويقبس من نورهم ، ويهتدى بهداهم .

وثقة هذا الجيل الرائد ، هذا الجيل القائد بنبيه محمد ﷺ ، وصدقه لا يحتاج معه إلى شهود ، من العير الذين قدموا وقد فقدوا ماءهم ، أو الذين جاؤوا وقد ند بعيرهم، أو إلى وصف أكثر مما يصفه لهم عليه الصلاة والسلام فى عوالم لم يصل إليها بشر إلا قائدهم وحبيبهم ونبيهم محمد ﷺ . لقد صدّقنا صدق اليقين وإيمان اليقين بالمعراج وغيره ، حين وصل إلينا متواتراً بعد خمسة عشر قرناً من الزمان ، وبعد تلك

(١) النجم / ١٣ ـ ١٨ .

السلسلة الطويلة الطويلة من الرواة .

فكيف يكون اليقين عند الذين استمعوا مباشرة وللتو من سيد الخلق عن رحلته الميمونة،وعن فيوضات الحضرة الإلهية على عبده محمد - صلوات الله وسلامه عليه - والحظوة التى أعطاها له ربه ، والإكرام الذى أكرمه وأسبغه عليه، ليعود بعدها فرداً بينهم يقودهم بين جحافل الشرك ، وعداد الكفر ، ومؤامرات الطغاة ، ويكون فى مقدمة ركبهم أذىً وصبراً ، وجهاداً،ومحنة؟!

٨ - ونتحدث أخيراً عن رؤية رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج للزناة وأكلة الربا وأكلة مال اليتامى، هو دليل على خطر هذه الكبائر وأنها تقود إلى النار عصاة المؤمنين الذين يرتكبونها . فالتهاون فيها ، والتفريط فيها يجعل المرء يخوض فى نار جهنم خوضاً ولا يدرى ، وقد توعد الله بالنار من يرتكب مثل هذه الكبائر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلاَّ مَن تَابَ . . . . ﴾(٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) النساء / ١٠ .

(٢) الفرقان / ٦٨ - ٧٠ .

(٣) آل عمران / ١٣٠ ، ١٣١ .

الخمسون الثالثة
من السابقين الأولين من المهاجرين

قبل وداع دار الأرقم :

لابد أن نشير إلى أن دار الأرقم قد استمرت ، تقديراً منذ بداية السنة الثالثة للهجرة وحتى حصار الشعب ، وذلك بعد تفرق المؤمنين فى الأرض فى الهجرة الثانية للحبشة. وقد شرف بالانتساب إليها الجيل الأول والثانى،أى الخمسون الأولى والثانية . وسعدوا بالرؤية المستمرة اليومية مع قائدهم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتلقوا التربية الفردية التى تخص كل فرد منهم بعينه وشخصه ، فيما يُعِدّه عليه الصلاة والسلام له ، كما تلقوا التربية الجماعية فى هذه الدار الخالدة التى أَطلق المسلمون عليها فيما بعد دار الإسلام . هذه التربية الجماعية التى تؤهل كل هؤلاء الأفراد ليكونوا مجتمعاً جديداً حياً مترابطا ، منفصلاً عن المجتمع المشرك . وتقوم بهم نواة الجماعة الصلبة القادرة على مواجهة التحديات من المجتمع المشرك المحيط بهم من كل جانب. هذه التربية الجماعية إضافة إلى التربية الفردية .كان لها الدور الأكبر فى توزع المسؤوليات فى بناء هذا المجتمع الجديد ، وفى صهر الكيانات الفردية للعربى الأول فى مجتمع إسلامى ناشئ جديد ،منفصل عن الانتساب لمجتمع القبيلة العربية ،ومصاغ صياغة خاصة . يشرف عليها سيد الخلق محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو مجتمع السابقين الأولين من المهاجرين والذى أطلق عليه رسول الله ﷺ فيما بعد: « والمهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين »[(1)] فقد تحرروا حتى من الانتساب إلى قبائلهم ضمن هذا المجتمع ، بينما بقى الأنصار على انتسابهم لقبائلهم كاملة . وكونوا معاً الأمة المسلمة الواحدة : « هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس » [(2)] .

والذى نشير إليه فى هذه المرحلة إلى موضوع المؤاخاة الذى تم بين المهاجرين أنفسهم، وذلك فى عملية البناء الجماعى ، وتحديد المسؤوليات ، وخلق الروح الجماعية التى تؤهلهم لقيادة الأمم بعد ذلك . فالمشهور فى السيرة أن المؤاخاة قد تمت بين

(١، ٢) من وثيقة المدينة التى كتبها عليه الصلاة والسلام بين المؤمنين والمشركين . السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٧٢، ١٧٣ .

المهاجرين والأنصار بعد الهجرة ،ولكن مؤرخـى السير يشيرون إلى مؤاخاة سابقة قد تمت بين المهاجرين أنفسهم وذلك كما أشـار العسقلانى فى المواهب،والزرقانى فى الشرح :

ذكر المؤاخاة بين الصحابة ــ رضـوان الله عـليهم أجمعـين :

(وكانت كما قال ابن عبد البر وغيره : مرتين : الأولى: بمكة قبل الهجرة بين المهاجرين بعضهم بعضاً على الحق والمواساة . فآخى بين أبى بكر وعمر ، وطلحة والزبير ، وبين عثمان وعبد الرحمن. رواه الحاكم .

وفى رواية له: بين الزبير وابن مسعود ، وبين حمزة وزيد بن حارثة ، وهكذا بين كل اثنين منهم إلى أن بقى على فقال: آخيت بين أصحابك فمن أخى؟قال: «أنا أخوك».

وجاءت أحاديث كثيرة فى مؤاخاة النبى ﷺ لعلى . وقد روى الترمذى وحسّنه ، والحاكم وصححه ، عن ابن عمر أنه ﷺ قال لعلى: « أما ترضى أن أكون أنا أخاك ؟ » قال : بلى . قال: « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » . وأنكر ابن تيمية هذه المؤاخاة بين المهاجرين ،خصوصاً بين المصطفى وعلى . وزعم أن ذلك من الأكاذيب ، وأنه لم يؤاخ بين مهاجرى ومهاجرى .قال: لأنها شُرِعت لإرفاق بعضهم بعضاً ، ولتتآلف قلوبهم بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاته لأحد ولا لمؤاخاة المهاجرين . ورده الحافظ بأنه رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة ؛ لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة . فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ، ويستعين الأعلى بالأدنى . وبهذا تظهر حكمة مؤاخاته لعلى ؛ لأنه هو الذى كان يقوم به منذ الصبا قبل البعثة واستمر ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد ؛ لأن زيداً مولاهم فقد ثبتت أخوتهما وهما من المهاجرين ، وفى الصحيح فى عمرة القضاء أن زيدا قال : إن بنت حمزة ابنة أخى .وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن عن ابن عباس : (آخى النبى ﷺ بين الزبير وابن مسعود) وهما من المهاجرين ، وأخرجه الضياء فى المختارة . وابن تيمية يصرح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرك . انتهى .

والثانية : هى التى ذكرها المصنف ، فقال : ولما كان بعد قدومه بخمسة أشهر آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار) [1] .

وهناك كثير من النصوص فى التراجم تتحدث عن المؤاخاتين معاً ، فتذكر المؤاخاة بين المهاجر وأخيه المهاجرى ، ثم تذكر المؤاخاة بين المهاجر وأخيه الأنصارى ، والأرجح

(١) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى / ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

أن هذه المؤاخاة قد تمت فى مرحلة دار الأرقم ؛ لأن فيها بعض الصحابة الذين تأخر إسلامهم حتى دار الأرقم . . . وذلك هو التجمع الأكبر الذى تم للمسلمين قبل أن يتفرقوا فى الهجرة الثانية إلى الحبشة . فعمر رضي الله عنه وحمزة من خريجى دار الأرقم . . . وكتب لهؤلاء الطلبة فى هذه المدرسة ، التى كان يديرها ويشرف عليها محمد ﷺ أن تخرِّج قادة الدنيا فيما بعد . وما انضم إليهم بعدهم من السابقين الأولين، والذين سنتناول الحديث عنهم فى الصفحات القادمة .

أولاً : الهاشميون والمطلبيون

وهم تسعة ، ستة من بنى هاشم ، وثلاثة من بنى المطلب ، برز منهم قائدان هما أسامة بن زيد ، الحِب ابن الحب رضي الله عنه ومرثد بن أبى مرثد ، وليس بين الهاشميين أحد من صريح بنى هاشم ، بل هم بين مولىً وحليف . أما المطلبيون فثلاثتهم من صريح بنى المطلب ، ويغلب على الجميع أنهم بدريون ، وهذا يعنى أنهم أسلموا قبل الهجرة، وشرَّفهم الله تعالى بالفضل الأسنى بالانتساب إلى البدريين خيرة أهل الأرض كما كان البدريون من الملائكة خيرة أهل السماء .

١ ، ٢ ـ أبو مرثد الغنوى وابنه : (وهو حليف حمزة بن عبد المطلب واسمه كناز ابن الحصين بن يربوع . وكان ترِباً لحمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنهما ـ وحليفاً له،وكان رجلاً طِوالاً كثير شعر الرأس ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبادة بن الصامت . فشهد أبو مرثد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . ومات بالمدينة قديماً فى خلافة أبى بكر سنة اثنتى عشرة وهو ابن ست وستين سنة)[١] .

وأما ابنه مرثد رضي الله عنه (فقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أوس بن الصامت أخى عبادة بن الصامت . وشهد مرثد بن أبى مرثد يوم بدرٍ على فرس له يقال له :الشبل . وشهد أحداً ،وقتل يوم الرجيع شهيداً . وكان أميراً فى هذه السرية وذلك فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة) [٢] .

وقدَّر الله تعالى لمرثد الشاب البطل أن يكون قائداً فى سرية الرجيع وهى كما رواها ابن إسحاق :(عن عاصم بن قتادة قال : قدم وفد على رسول الله ﷺ بعد أحد ، رهط من عضل والقارة من الهون بن خزيمة بن مدركة فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شعائر الإسلام . فبعث رسول الله ﷺ نفراً ستة من أصحابه وهم :مرثد بن أبى مرثد الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب. وخالد بن البكير الليثى حليف بنى عدى، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأوسى، وخُبيب بن عدى من بنى عمرو بن عوف ، وزيد بن الدَّثنة بن معاوية أخو بنى بياضة ، وعبد الله بن طارق وأمر رسول الله ﷺ على القوم مرثد بن أبى مرثد الغنوى ،فخرج مع القوم حتى إذا كانوا على الرّجيع

(٢،١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٧ ، ٤٨ .

ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهدأة[1] غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً ، فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم ، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم : إنا والله ما نريد قتالكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم .

فأما مرثد بن أبى مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت ، فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً ، فقال عاصم بن ثابت :

ما علّتى وأنا جلد نابل[2] والقوس فيها وتر عُنابل[3]

تزلّ عن صفحتها المعابل[4] الموت حق والحياة باطل

وكل ما حَمَّ الإله[5] نازل بالمرء والمرء إليه آيل

إن لم أقاتلكم فأمى هابل[6]

. . . ثم قاتل القوم حتى قتل وصاحباه . . . .) [7].

قال ابن إسحاق : وكان مما نزل من القرآن فى تلك السرية كما حدثنى مولىً لآل زيد بن ثابت ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : قال ابن عباس :

لما أصيبت السرية التى كان فيها مرثد وعاصم بالرجيع ، قال رجال من المنافقين : ياويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا ، لاهم قعدوا فى أهليهم ولاهم أدوا رسالة صاحبهم ! فأنزل الله تعالى فى ذلك من قول المنافقين ، وما أصاب أولئك النفر من الخير بالذى أصابهم .

فقال سبحانه : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ أى لما يظهر الإسلام بلسانه ﴿ **وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ** ﴾ وهو مخالف لما يقول بلسانه: ﴿ **وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** ﴾ أى ذو جدال إذا كلمك وراجعك ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ** ﴾: أى خرج من عندك ﴿ **سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾: أى لا يحب عمله ولا يرضاه ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ . وَمِنَ النَّاسِ مَن**

---

(١) الهدأة : موضع بين عسفان ومكة .
(٢) النابل : صاحب النبل .
(٣) عُنابل : غليظ شديد .
(٤) المعابل : جمع معبلة وهو نصل عريض طويل .
(٥) حمَّ الإله : قدره .
(٦) هابل : ثاكل .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٢٣ - ١٢٥ .

يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1] أى قد شروا أنفسهم من الله بالجهاد فى سبيله والقيام بحقه حتى هلكوا على ذلك ، يعنى تلك السرية [2].

لقد كان عمر هذا الأمير العظيم مرثد قصيراً فى الجهاد ، لكنه أصبح من الخالدين بعد أن أكرمه الله تعالى وإخوته بهذه الآيات المباركات ، ووصفهم بأنهم باعوا أنفسهم لله ولم يبخلوا بشيء . وكان رسول الله ﷺ يحرص على هذه الإمارة لمرثد رضي الله عنه فلا يزال دم حمزة عمه رطباً نديا بعد استشهاده ، فليكن تكريمه بتكريم حليفه أبى مرثد وابنه مرثد ليكون على قيادة هذه السرية ، ويلحق بسيد الشهداء حمزة رضي الله عنه شهيداً على سنته .

٣ : ٥ ــ الموالى الثلاثة : أنسة، وأبو كبشة ، وأبو رافع : إنهم موالى رسول الله ﷺ وفى ضيافة بيت النبوة . أما أنسة فكل ما تذكر كتب التراجم عنه أنه هاجر إلى المدينة . وشهد بدراً .واستشهد فيها على رأى .وعلى رأى آخر أنه عاش حتى خلافة الصديق رضي الله عنه وكان يكنى أبا مَسْرح . وعن الزهرى: أن رسول الله ﷺ كان لا يأذن بعد الظهر ، وهى السنة ،ويأذن عليه أنسة مولاه[3] .

(أما أبو كبشة فاسمه سُليم من مولدى أرض دوس ـ شهد مع رسول الله ﷺ بدراً وأحداً والمشاهد كلها.وتوفى أول يوم استُخلف فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة) [4] .

وثالث الموالى:أبو رافع مولى رسول الله ﷺ من قبط مصر، يقال: اسمه إبراهيم، وقيل : أسلم .كان عبداً للعباس فوهبه للنبى ﷺ . فلما أن بشر النبى ﷺ بإسلام العباس أعتقه .روى عدة أحاديث . . . وشهد غزوة أحد والخندق وكان ذا علم وفضل ، وتوفى فى خلافة علي . وقيل : توفى فى الكوفة سنة أربعين رضي الله عنه وقيل: إنه أوصى إلى على . فكان علىٌّ يزكى أموال بنى أبى رافع وهم أيتام .

شعبة عن الحكم عن ابن رافع عن أبيه أن النبى ﷺ بعث رجلاً على الصدقة، فقال لأبى رافع : انطلق معى فنصيب منها . قلت : حتى أستأذن رسول الله ﷺ . فاستأذنه فقال :« يا أبا رافع إن مولى القوم من أنفسهم،وإنا لا تحل لنا الصدقة »[5] .

---

(١) البقرة / ٢٠٤ ـ ٢٠٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٢٩ ، ١٣٠.

(٣، ٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٤٨ ، ٤٩ .

(٥) أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى وقال :« حديث حسن صحيح »

قال سليمان بن يسار :(قال أبو رافع : لم يأمرنى رسول الله ﷺ أن أنزل الأبطح حين خرج من منى ، ولكنى جئت فنزلت فجاء فنزل) (١) .

وتروى لنا كتب السيرة عنه ذلك المقطع الرائع من اعتزازه بالإسلام وكيف أن ثأر مولاته أم الفضل له من الخبيث أبى لهب كانت سبب منية أبى لهب. وكما ذكر ابن إسحاق فى غزوة بدر عن عكرمة مولى ابن عباس قال : قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل وأسلمتُ وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه . وكان أبو لهب قد تخلّف عن بدر، فبعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة . . . فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش ، كبته(٢) الله وأخزاه . ووجدْنا فى أنفسنا قوة وعزا . قال : وكنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل الأقداح(٣) ، أنحتها فى حجرة زمزم ، فوالله إنى لجالس فيها أنحت أقداحى ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طنب ، فكان ظهره إلى ظهرى ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم . قال : فقال أبو لهب : هلم إلى يا بن أخى ، فعندك لعمرى الخبر . قال : فجلس إليه والناس قيام عليه . فقال : يا بن أخى ، أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم ، فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا ، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس،لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض،والله ما تليق شيئاً(٤) ، ولا يقوم لها شيء . قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة (٥) بيدى ثم قلت: تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهى ضربة شديدة . قال : وثاورته(٦) فاحتملنى ، فضرب بى الأرض ، ثم برك علىّ يضربنى ، وكنت رجلاً ضعيفاً . فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة فلقت فى رأسه شجة منكرة وقالت : استضعفته إن غاب عنه سيده ؟! فقام مولياً ذليلاً ، فوالله، ما عاش سبعة ليالٍ حتى رماه الله بالعدسة فقتلته) (٧) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ١٦ وقال فيه المحقق : أخرجه مسلم فى الحج ١٣١٣ .

(٢) كبته : أذله .

(٣) الأقداح : جمع قِدْح ، يريد أنه كان يصنعها من الخشب .

(٤) طُنبُ الحجرة : طرفها . وطنب الخباء :حباله .

(٥) تُليق شيئاً : تبقى شيئاً .

(٦) ثاورته : وثبت إليه وقاومته .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٥٢ .

وقد ارتفع أبو رافع رضي الله عنه ليكون فرداً من أهل البيت ، فيصبح عزيزا فى أهل الأرض يصلى عليه كما يصلى على أهل البيت . وذلك بعد أن قال له عليه الصلاة والسلام :

« يا أبا رافع ،إن مولى القوم من أنفسهم ، وإنا لا تحل لنا الصدقة ».

وهو الذى دفعه إيمانه ليعلن أمام شيطان مكة أبى لهب أن الرجال البيض على الخيل البلق هم الملائكة ، ويتحدى طاغوته وجبروته .

٦ ـ **أسامة بن زيد** : ونضع ترجمته بين يدى القارئ من الذهبى ــ رحمه الله :

(أسامة بن زيد بن حارثة بن شرحبيل بن عبد العزى بن امرئ القيس المولى ، الأمير الكبير ،حِبُّ رسول الله ﷺ ومولاه وابن مولاه ، أبو زيد ويقال : أبو محمد، ويقال: أبو حارثة . استعمله النبىَ ﷺ على جيش لغزو الشام ، وفى الجيش عمر والكبار . فلم يسر حتى توفى رسول الله ﷺ ، فبادر الصديق ببعثهم ، فأغاروا على أُبنى من ناحية البلقاء . وقيل: إنه شهد يوم مؤتة مع والده . وقد سكن المزة (١) مدة ، ثم رجع إلى المدينة ، فمات بها . وقيل: مات بوادى القرى . . . ثبت عن أسامة قال : كان النبى ﷺ يأخذنى والحسن فيقول: « اللهم إنى أحبهما فأحبهما » (٢). قلت :هو كان أكبر من الحسن بأزيد من عشر سنين. وكان شديد السواد ، خفيف الروح ، شجاعاً . رباه النبى ﷺ ، وأحبه كثيراً .وهو ابن حاضنة النبى ﷺ أم أيمن ، وكان أبوه أبيض، وقد فرح له رسول الله ﷺ بقول مجزز المدلجى : إن هذه الأقدام بعضها من بعض. . .وروى مغيرة عن الشعبى أن عائشة قالت :ما ينبغى لأحد أن يبغض أسامة بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول:«من كان يحب الله ورسوله فليحب أسامة» (٣).

وقالت عائشة فى شأن المخزومية التى سرقت : فقالوا : من يجترئ على رسول الله ﷺ يكلمه فيها إلا أسامة حِبٌّ رسول الله ﷺ (٤) .

موسى بن عقبة وغيره ، عن سالم ، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى أسامة ، ما حاشا فاطمة ، ولا غيرها » (٥) .

---

(١) المزة : قرية فى جنوب غربى دمشق تبعد عنها ثلاثة أميال تقريباً . وقد اتصلت الآن بدمشق وأصبحت منطقة سكنية .

(٢) أخرجه البخارى ، انظر : الفتح ٧ / ٧٠ .

(٣) البخارى انظر : الفتح ٧ / ٦٩ ومجمع الزوائد للهيثمى ٩ / ٢٨٦ وقال فيه: « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ».

(٤) والحادثة فى البخارى ومسلم فى الحدود ١٦٨٨ .

(٥) قال محقق السير : رجاله ثقات .

قال زيد بن أسلم عن أبيه قال : فرض عمر لأسامة ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف . فقال: لم فضلته عليّ ؟ فوالله ما سبقنى إلى مشهد ؟ قال : لأن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك . وهو إلى رسول الله ﷺ منك فآثرت حُبَّ رسول الله ﷺ على حُبى . حسَّنه الترمذى .

قال ابن عمر : أمر رسول الله ﷺ أسامة فطعنوا فى إمارته فقال : « إن يطعنوا فى إمارته فقد طعنوا فى إمارة أبيه ، وايم الله ، إن كان لخليقا للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلىَّ ، وإن ابنه هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده » (١) .

ابن سعد : حدثنا يزيد ، حدثنا حماد بن مسلمة عن هشام بن عروة عن أبيه : أن النبى ﷺ أخَّر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره . فجاء غلام أسود أفطس . فقال أهل اليمن : إنما جلسنا لهذا ـ فلذلك ارتدوا ـ يعنى أيام الردة (٢) .

قال وكيع : سلم من الفتنة من المعروفين : سعد ، وابن عمر ، وأسامة بن زيد ، ومحمد بن مسلمة .

قلت : انتفع أسامة من يوم النبى ﷺ إذا يقول له : « كيف بلا إله إلا الله يا أسامة » فكف يده ، ولزم منزله فأحسن .

وعن أسامة بن زيد قال : أدركت رجلاً أنا ورجل من الأنصار ، فلما شهرنا عليه السيف قال : لا إله إلا الله فلم ننزع عنه حتى قتلناه ، فلما قدمنا على النبى ﷺ أخبرناه خبره . فقال : « يا أسامة ، من لك بلا إله إلا الله ؟» فما زال يرددها حتى لوددت أن ما مضى من إسلامى لم يكن وأنى أسلمت يومئذ ولم أقتله . فقلت : إنى أعطى الله عهداً ألا أقتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله أبدا . فقال النبى ﷺ : « بعدى يا أسامة ؟» قال : بعدك (٣) .

معمر عن الزهرى قال : لقى على أسامة بن زيد . فقال : ما كنا نعدُّك إلا من أنفسنا يا أسامة فلم لا تدخل معنا ؟ قال: يا أبا الحسن إنك والله ، لو أخذت بمشفر الأسد ، لأخذت بمشفره الآخر معك ،حتى نهلك جميعاً أو نحيا جميعاً . فأما هذا الأمر الذى أنت فيه فوالله لا أدخل فيه أبدا .

---

(١) أخرجه البخارى فى المناقب. انظر : الفتح ٧ / ٦٩ .

(٢) قال محقق السير : رجاله ثقات .

(٣) قال محقق السير : الحديث أخرجه بنحوه البخارى ٧ / ٣٩٨ ، ١٢ / ١٧١ ، وأخرجه مسلم ٩٦ .

وروى نحوه عمرو بن دينار ، عن أبى جعفر ، عن حرملة مولى أسامة قال : بعثنى أسامة إلى على فذكر نحوه [١] .

ومن غير وجه ، عن عمر أنه لم يلق أسامة قط إلا قال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله : توفى رسول الله ﷺ وأنت علىّ أمير [٢] .

إبراهيم بن طهمان ، عن عتبة بن عبد الله ، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى جهم قال : دخلتُ على فاطمة بنت قيس وقد طلقها زوجها . . . الحديث، فلما حلَّت ، قال رسول الله ﷺ : « هل ذكرك أحد ؟» .

قالت: نعم ، معاوية وأبو الجهم . فقال : « أما أبو الجهم فشديد الخلق . وأما معاوية فصعلوك لا مال له . ولكن أنكحك أسامة » فقلت: أسامة ! تهاوناً بأمر أسامة ـ ثم قلت : سمعاً وطاعة لله ولرسوله . فزوجنيه فكرَّمنى الله بأبى زيد وشرَّفنى الله ، ورفعنى به [٣] . وروى معناه مالك عن عبد الله بن يزيد عن أبى سلمة عنها [٤] .

قال عروة بن الزبير : قال أبو بكر : والله لأن تخطفنى الطير أحب إلىّ من أن أبدأ بشىء قبل أمر رسول الله ﷺ . فبعث أسامة واستأذنه فى عمر أن يتركه عنده . قال : بلغوا الشام ، أصابتهم ضبابة شديدة ، فسترتهم حتى أغاروا ، وأصابوا حاجتهم فقدم على هرقل موت النبى ﷺ ، وإغارة أسامة على أرضه فى آن واحد . فقالت الروم : ما بال هؤلاء يموت صاحبهم وأن أغاروا على أرضنا ؟!

وعن محمد بن أسامة عن أبيه قال : لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت ، وهبط الناس المدينة فدخلت عليه وقد أصمت فلا يتكلم . فجعل يضع يديه علىّ ثم يرفعهما فأعرف أنه يدعو لى [٥] .

قال الزهرى : مات أسامة بالجرف . وعن المقبرى قال : شهدت جنازة أسامة . فقال ابن عمر : عجِّلوا بحبِّ رسول الله قبل أن تطلع الشمس .

قال ابن سعد : مات فى آخر خلافة معاوية) [٦] .

---

(١) قال محقق السير: انظر: ابن سعد ٤ / ٧١ ، والبخارى ١٣ / ٥٨ فى الفتن . قلت : فالذى دفع أسامة رضي الله عنه ألا يقاتل مع على رضي الله عنه هو عهده لرسول الله ﷺ المذكور فى الحديث الآنف الذكر: « ألا يقتل رجلا يقول: لا إله إلا الله » .

(٢) وهو فى تهذيب ابن عساكر ٢ / ٢٩٨ .

(٣) قال محقق السير : إسناده صحيح ، وأخرجه مسلم فى صحيحه ١٤٨٠ .

(٤) الموطأ ٢ / ٥٨٠ ، ٥٨١ ، وأخرجه مسلم ١٤٨٠ فى الطلاق .

(٥) قال المحقق فيه : سنده قوى ، فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث عند أحمد .

(٦) سير أعلام النبلاء، مقتطفات ٢ / ٤٩٦ـ ٥٠٧ .

وهكذا نشهد أسامة بن زيد رضي الله عنه معلماً من معالم الإسلام العظيمة ، وتبرز فى شخصه المعانى التالية :

١ ـ أحب الناس إلى رسول الله ﷺ بعد فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كما ورد فى الأحاديث السابقة . وكم يكون عظيماً هذا الإنسان الذى يبلغ القمة فى حب رسول الله ﷺ له .

٢ ـ وعرف المسلمون له هذا الفضل فيفرض عمر له فى العطاء أكثر مما يفرض لابنه عبد الله بن عمر ؛ لأنه كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ . كما يعرف المسلمون له هذا الفضل . فلا يرون شفيعاً فى المرأة المخزومية التى سرقت إلا هو . فهو حِبٌّ رسول الله ﷺ .

٣ ـ ورافق الحب تلك التربية العظيمة ، فقد دفعه لأن يمارس مسؤوليته فى الجهاد، فأرسله أميراً على سرية الحرقات من جهينة كما ذكر البخارى ذلك ، بل يشارك مع أبيه فى الجهاد فى غزوة مؤتة . وهذا يعنى أنه فى سن السادسة عشرة من عمره وكان عليه الصلاة والسلام يرشحه للقيادة . قال قيس بن أبى حازم : إن رسول الله ﷺ حين بلغه أن الراية صارت إلى خالد قال : « فهلا إلى رجل قتل أبوه » ؟ يعنى أسامة (١) .

٤ ـ وفى اندفاع الشباب وحماس الشباب ، وهو الأمير على الحرقات يصف لنا هذا الاندفاع :

(بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقة ، فصحبنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه ، قال : لا إله إلا الله ، فكفّ الأنصارى ، فطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبى ﷺ فقال : « يا أسامة أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟ » قلت : كان متعوذاً . فما زال يكررها حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) (٢) .

لقد كان أقسى درس تلقاه فى حياته وهو فى سن السادسة عشرة من عمره ،فلقد كان الثناء عليه يفجر أعظم الطاقات عنده ، وحين انتهت غزوة مؤتة بعد استشهاد أبيه تفجرت الطاقات عنده أكثر وأكثر ورأى قائده عليه الصلاة والسلام يدفعه إلى الجهاد والثأر . وكان أعظم إكرام تلقاه فى حياته أن جعله أميرا على هذه السرية ، وذلك بعد استشهاد أبيه ببضعة أشهر . وهى سرية محدودة يتدرب من خلالها على معارك أكبر وأضخم ويتابع عليه الصلاة والسلام أمره ، ويشحذ إمكاناته ، وكما يقول السدى :

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٥٠٢ .

(٢) فتح البارى ٧ / ٥١٧ .

(كان رسول الله ﷺ إذا بعث أسامة أحب أن يُثنى عليه خيراً ، ويسأل عنه أصحابه ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه . فجعل القوم يحدثون رسول الله ﷺ ويقولون : يا رسول الله ، لو رأيت أسامة . ولقيه رجل فقال الرجل : لا إله إلا الله فشد عليه وقتله ، وهو يُعرض عنهم . فلما أكثروا عليه رفع رأسه إلى أسامة وقال : « يا أسامة، أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟» قال أسامة: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: « أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم ؟» قال السدى: فنظرت إليه. . .)(١) .

وفى ذروة نشوته فى النصر ، ونشوته فى الإمارة وهو ابن السادسة عشرة من عمره ، يتلقى هذا الدرس البليغ الذى لم ينته بنظرة عتاب أو لوم ، ولم ينته بكلمة عابرة ، حسب عادة النبى ﷺ فى التربية مع النبهاء والأفذاذ ، بل مضى رسول الله ﷺ يكررها أمام جنوده الذين كانوا تحت إمرته . إن القضية من الضخامة بحيث لابد لها من العقوبة الصارمة ، وهى أن يقتل رجل بعد أن يقول : لا إله إلا الله . وأسامة فى سن تكاد تكون كلها عاطفة جياشة . وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أنه أحس بعِظم الخطيئة بعد ذلك .

يقول محمد بن عمر بسنده : قال أسامة : فلما أصبت الرجل وجدت فى نفسى من ذلك موجدة شديدة حتى رأيتنى ما أقدر على أكل الطعام حتى قدمت على رسول الله ﷺ فقبلنى واعتنقنى .

إن فرط الحب النبوى لهذا الغلام الأمير لا يعنى أن ينشأ بدون كوابح تحول دون اندفاعاته وطموحاته ، فتفجير الطاقات تصل إلى حد تسليمه إمرة السرية وهو فى سن السادسة عشرة .

والتربية الشديدة العنيفة تصل إلى حد تكرار اللوم أمام الملأ : « فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » ، « فهلا شققت عن قلبه حتى تعلم ؟ » ، « قتلته وقد قال : لا إله إلا الله ؟ » .

حتى بلغ الأمر بأسامة رضي الله عنه أنه تمنى أن لم يكن أسلم بعد . فما كان يحب أن يكون فى صفحته هذا الخطأ الكبير والذنب العظيم .

٥ ـ وما انتهى أسامة من التعنيف النبوى إلا بعد أن أعطى حبيبه المصطفى عهداً ألا يقتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله بعدها ، وامتد العهد النبوى به يطالبه بذلك بعد وفاته عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٢٩٩ .

وكانت المحنة الثانية الكبرى فى حياته ، وقد بلغ بضعاً وثلاثين سنة من عمره . وأحب الناس إلى قلبه بعد المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، وقد دعا إلى جهاد أهل الشام الذين بغوا وخرجوا على الخليفة . . . وعادت إلى ذاكرته تلك العصبية قبل عشرين عاماً من عمره ، وهو يتلقى التعنيف واللوم. ويذكر ذلك العهد القاطع . ويرى علياً ـ رضوان الله عليه ـ الحبيب العظيم يخوض معركة شرسة ، فتغلبه التربية النبوية ،ويصارم حبه الشديد لعلى أمام العهد الذى أعطاه لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويرسل رسول اعتذار يبلغ لخليفته العظيم وحبيبه العظيم، أن لو كان الأمر أمر نصرة أو خوف من الموت ،ورأى أمير المؤمنين قد أخذ بأحد شدقى الأسد ،لكان هو الآخذ بالشدق الثانى. ولكنه العهد الذى أعطاه ، وعذره أمير المؤمنين ليفى بعهده ، وبقى من أقرب المقربين إليه،فهو من أهل البيت ـ رضوان الله عليه .

٦ـ ومع هذا التعنيف أحس أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذا الذنب سيرافقه طيلة حياته ، وهل سيسقط بعده لهذه الخطيئة ؟ وتأتى عظمة التربية النبوية هنا لهذا الغلام ، فتتابع تدريبه بعد هذه الخطيئة وتتابع تحميله المسؤولية .

عن يزيد بن أبى عبيد قال : سمعت سلمة بن الأكوع يقول : غزوت مع النبى ﷺ سبع غزوات ، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات ، مرة علينا أبو بكر ، ومرة علينا أسامة (١) .

فهذا التعنيف ليس لقتل المواهب ، إنما هو للالتزام الدقيق بالإسلام ، ولا يقتضى إذن عزله عن الإمارة ، أو إحالته إلى التقاعد ، بل هو صقل هذه المواهب والطاقات لتكون منطلقة فى كل ذرة من ذراتها من الإسلام وشرعه ،لا أن يكون الاندفاع والجموح هو الذى يقودها فى لحظة من لحظات حياته .

٧ـ ثم كانت الإمارة العظمى التى قلّده إياها رسول الله ﷺ وهو فى الثامنة عشرة من عمره على جيش ضخم من جنوده :صديق الأمة أبو بكر، وفاروق الأمة عمر ، وأمين الأمة أبو عبيدة . وليس لبلد مجاور أو لمهمة خاطفة ، إنما لغزو الروم فى الشام. وحين همهم الناس فى ذلك كان جوابه عليه الصلاة والسلام قاطعاً لكل همهمة ، وتساؤل : « إن يطعنوا فى إمارته فقد طعنوا فى إمارة أبيه ، وايم الله إن كان لخليقا بالإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن ابنه هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده » .

وتوفى عليه الصلاة والسلام ، وعاد الناس للطعن فى إمارته ، ورفض الصديق أن يوقف الجيش أو يغير القائد أو يخالف أمر رسول الله ﷺ ، حتى لو علم أن الكلاب تجر بأرجل أمهات المؤمنين فى بيوتهن . وندع وصف هذه المعركة العظيمة مع هذا القائد

---

(١) فتح البارى ٧ / ٥١٧ .

العظيم لرواة السيرة فيما بعد حين نتناول هذه السرايا بالتفصيل .

لكن حسبنا هنا أن نشهد هذا المعلم العظيم من معالم الإسلام بهذه المتفرقات من حياته .

ثانياً : المطلبيون

٧ ، ٨ ـ **الأخوان : الطفيل بن الحارث ، والحصين بن الحارث** : وكانا أخوين لعبيدة بن الحارث رضي الله عنه الذى شهدناه مع الخمسين الأولى :

(آخى رسول الله ﷺ بين الطفيل بن الحارث ، والمنذر بن محمد . قال محمد بن عمر : وشهد الطفيل بدراً وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .وتوفى فى سنة اثنتين وثلاثين وهو ابن سبعين سنة) [١] .

أما الحصين فقد (آخى رسول الله ﷺ بينه وبين رافع بن عنجدة . قال محمد بن عمر : وشهد الحصين بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفى بعد الطفيل ابن الحارث بأشهر فى سنة اثنتين وثلاثين) [٢] .

٩ ـ **مسطح بن أثاثة** : (ابن عباد بن المطلب بن عبد مناف . وأمه أم مسطح بنت أبى رهم من المبايعات . وآخى رسول الله ﷺ بين مسطح بن أُثاثة وزيد بن المزيِّن ، وشهد مسطح بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . . . وتوفى سنة أربع وثلاثين ، وهو يومئذ ابن ست وخمسين سنة) [٣] .

ثالثاً : العبشميون والأمويون

١٠ ـ **سالم مولى أبى حذيفة** : (من السابقين الأولين البدريين المقربين العالمين .

قال موسى بن عقبة : هو سالم بن معقِل ، أصله من إصطخر ، وإلى أبى حذيفة. وإنما الذى أعتقته هى ثبيتة بنت يعار الأنصارية ، زوجة أبى حذيفة بن عتبة ، وتبناه أبو حذيفة . كذا قال ابن أبى مليكة، عن القاسم بن محمد : إن سهلة بنت سهيل أتت رسول الله ﷺ وهى امرأة أبى حذيفة فقالت : يا رسول الله ، إن سالماً معى، وقد أدرك ما يدرك الرجال . فقال : « أرضعيه ، فإذا أرضعته فقد حَرُم عليك ما يحرم من ذى المحرم » . قالت أم سلمة : أبى أزواج رسول الله ﷺ أن يدخل أحد عليهن بهذا الرضاع . وقلن : إنما هى رخصة لسالم خاصة) [٤] .

(١-٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١ / ١٦٧ . وقال المحقق فيه : « أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات . لكنه مرسل ، ووصله أحمد ومسلم فى الرضاع (١٤٥٣) » .

هذا الغلام المولى ، أحب القرآن فارتفع به إلى القمة : (فعن ابن عمر قال : كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الذين قدموا من مكة حتى قدم المدينة ؛ لأنه كان أقرأهم . وفى رواية : كان سالم يؤم المهاجرين بقباء فيهم عمر قبل أن يقدم رسول الله ﷺ . وفى رواية ثالثة: عن ابن عمر أن المهاجرين نزلوا بالعُصبة إلى جنب قباء ، فأمّهم سالم مولى أبى حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآناً . فيهم عمر وأبو سلمة بن عبد الأسد) [1] .

ثم بلغ به حبه للقرآن وحسن تلاوته ما روته لنا عائشة ـ رضى الله عنها :

عن عائشة قالت : استبطأنى رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فقال : «ما حبسك ؟» ، قلت : إن فى المسجد لأحسن من سمعت صوتاً بالقرآن . فأخذ رداءه وخرج يسمعه ، فإذا هو سالم مولى أبى حذيفة . فقال : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثلك ». إسناده جيد .

وحامل القرآن هذا مهره بالدم حين اقتضى الأمر، ففى رواية الواقدى : لما انكشف المسلمون يوم اليمامة قال سالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ . فحفر لنفسه حفرة فقام . ومعه راية المهاجرين يومئذ . ثم قاتل حتى قتل .

قدَّم دمه فى سبيل الله . أما ما كان يملكه من دنياه . فعن عبد الله بن الهاد : أن سالماً باع ميراثه عمر بن الخطاب فبلغ مائتى درهم . فأعطاها أمه فقال : كليها .

أما ما هو مقامه عند الأمة ؟فيحدثنا الذهبى عن ذلك بقوله وبسنده عن أبى رافع :

(أن عمر بن الخطاب قال : من أدرك وفاتى من سبى العرب فهو من مال الله . فقال سعيد بن زيد :أما إنك لو أشرت برجل من المسلمين ، لائتمنك الناس ، وقد فعل ذلك أبو بكر الصديق وائتمنه الناس . فقال : لقد رأيت من أصحابى حرصاً سيئاً ، وإنى جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة . ثم قال : لو أدركنى أحد رجلين ثم جعلت إليه الأمر لوثقت به : سالم مولى أبى حذيفة ،وأبو عبيدة بن الجراح) [2] .

على بن زيد لين ، فإن صح هذا ، فهو دالّ على جلالة هذين فى نفس عمر ، وذلك على أنه لا يجوزٌ الإمامة فى غير القرشى . والله أعلم .

وهذا يعنى أنه كان مرشحاً للخلافة العظمى على رأى عمر رضي الله عنه وعمر رأيه مَنْ رأيه فى الرجال ، فأى مقام سما إليه سالم مولى أبى حذيفة بالقرآن والإسلام ؟ !

١١ ـ **يزيد بن رقيش** : (ابن رئاب بن يعمر بن . . . غنم بن دودان بن أسد بن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ /١٦٨ ، ١٦٩ وقال المحقق فيه : « أخرجه البخارى (٦٩٢) فى الأذان » .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ١٧٠ .

خزيمة . ويكنى أبا خالد ، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وقتل يوم اليمامة شهيداً سنة اثنتى عشرة) (١) .

رابعا : الأسديون

الأسديون هم حلفاء حرب بن أمية بن عبد شمس. وهم من كبريات القبائل العربية نسباً من بنى أسد بن خزيمة ، وقدر الله تعا لى لهم جميعاً أن يدخلوا فى الإسلام رجالاً ونساء وأطفالاً ، وقد رفع ابن إسحاق عددهم إلى عشرين رجلاً وثمان نسوة ، ومنهم حلفاؤهم بنو عمرو الأربعة ثقف ومالك ومدلاج وصفوان من بنى حَجْر آل بنى سليم، ويكفى أن نعلم كذلك أنهم خمس المهاجرين فى بدر تقريباً ، إذ كان المهاجرون الذين حضروا بدراً ثلاثة وثمانين رجلاً منهم من بنى أسد بن خزيمة وحلفائهم فقط ستة عشر رجلاً . نعرض لهم فيما يلى :

١٢ : ١٥ ـ بنو محصنَ : (عكاشة بن محصن بن . . . دودان بن أسد بن خزيمة، ويكنى أبا محصن ، شَهد بدراً وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وبعثه رسول الله ﷺ إلى الغمر سرية فى أربعين رجلاً .فانصرفوا ولم يلق كيداً . وعن أم قيس بنت محصن قالت: توفى رسول الله ﷺ وعكاشة ابن أربع وأربعين سنة، وقتل بعد ذلك بسنة ، ببزاقة فى خلافة أبى بكر الصديق سنة اثنتى عشرة، وكان عكاشة من أجمل الرجال) (٢) .

يقول الحافظ الذهبى : (كذا هذا القول ، والصحيح أن مقتله كان فى سنة إحدى عشرة ، قتله طليحة الأسدى الذى ارتد ثم أسلم بعد وحسن إسلامه . وقد أبلى عكاشة يوم بدر بلاءً حسنا وانكسر سيفه فى يده . فأعطاه النبى ﷺ عرجونا من نخيلٍ أو عوداً . فعاد بإذن الله سيفاً فقاتل به وشهد المشاهد) (٣) .

(أما أخوه أبو سنان بن محصن : فقد شهد بدراً وأحداً والخندق ، وتوفى والنبى ﷺ محاصر بنى قريظة ، وابنه سنان بن أبى سنان بن محصن ، كان بينه وبين أبيه فى السن عشرون سنة ، وشهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية . وهو أول من بايع النبى ﷺ بيعة الرضوان ، توفى سنة اثنتين وثلاثين) (٤) .

ولا ننسى أن عُكَّاشة رضي الله عنه مضى مثلاً فى الفضل الذى لا يلحق به أحد . وأنه ممن يدخل الجنة بغير حساب (فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « يدخل من

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٩١ .
(٢) المصدر نفسه ٣ / ٩٢ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٠٨ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٩٣ ، ٩٤ .

أمتى الجنة سبعون ألفاً بغير حساب » فقال رجل: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : « اللهم اجعله منهم » ثم قام آخر ، فقال : يا رسول لله ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : « سبقك بها عكاشة » (١) .

وفى الرواية الأخرى : « فإذا سواد عظيم فقيل لى : انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم . فقيل لى : هذه أمتك . ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » . ثم نهض فدخل منزله . فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله . وذكروا أشياء . فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « ما الذى تخوضون فيه ؟ » فأخبروه فقال : « هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » . فقام عكّاشة بن محصن ، فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال : « أنت منهم » ، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال : « سبقك بها عكَّاشَة » (٢) .

عمرو بن محصن : وهو آخر الإخوة الأربعة الذين قال عنهم ابن إسحاق :ثم تتابع المهاجرن يقدمون أرسالاً . فكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ منهم عمرو بن محصن) (٣) .

١٦ ، ١٧ ـ الأخوان شجاع وعقبة ابنا وهب : ابن . . . دودان بن أسد بن خزيمة .

(. . . كان شجاع بن وهب يكنى أبا وهب ، وكان رجلاً نحيفاً طُوالاً أجنأ (٤) . وكان من مهاجرة الحبشة الهجرة الثانية ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أوس بن خولى . . . وبعثه رسول الله ﷺ سرية فى أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع هوازن بالسّى من أرض بنى عامر ناحية رَكية ، وأمره أن يغير عليهم . فصبّحهم وهم غارون فأصابوا نعماً وشاء كثيراً . . .وكان شجاع بن وهب رسول رسول الله ﷺ بكتابه إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى . وكانوا بغوطة دمشق ـ فلم يسلم ـ وأسلم حاجبه مُرَىّ، وبعث إلى رسول الله ﷺ بكتاب مع شجاع يُقْرئه به السلام ، ويخبره أنه على دينه . فقال رسول الله ﷺ : « صدق » . وشهد شجاع بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وقتل يوم اليمامة شهيداً سنة اثنتى عشرة ، وهو ابن بضع وأربعين سنة) (٥) .

---

(١) مسلم ج ١ ح ٣٦٧ ص ١٩٧، ك الإيمان .
(٢) مسلم ج ١ ح ٣٧٤ ص ١٩٩، ك الإيمان .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٢٦ .
(٤) أجنأ : مشرف كاهله على صدره .
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٩٤ .

(وأخوه عقبة بن وهب شهد بدراً ، وأحداً ، والخندق والمشاهد مع رسول الله ﷺ) [1] .

١٨ ـ ربيعة بن أكثم : ابن سخبرة بن . . . دودان بن غنم بن أسد بن خزيمة . هكذا نسبه عند ابن إسحاق ،قال : (أخبرنا محمد بن عمر . . . أن ربيعة بن أكثم كان يكنى أبا يزيد .وكان قصيراً رحراحاً. شهد بدراً وهو ابن ثلاثين ، وشهد أحداً والخندق والحديبية وقتل بخيبر شهيداً سنة سبع وهو ابن سبع وثلاثين سنة ، قتله الحارث اليهودى بالنطاة) [2] .

١٩ ـ محرز بن نضلة : (ابن . . . غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة . ويكنى أبا نضلة . وكان أبيض حسن الوجه . وكان يلقب فهيرة . . . آخى رسول الله ﷺ بين محرز بن نضلة ، وعُمارة بن حزم . . . وعن صالح بن كيسان قال : قال محرز بن نضلة : رأيت سماء الدنيا أفرجت لى حتى دخلتها ، حتى انتهيت إلى السماء السابعة ، ثم انتهيت إلى سدرة المنتهى فقيل لى : هذا منزلك . فعرضتها على أبى بكر الصديق وكان أعبر الناس ، فقال : أبشر بالشهادة ! فقتل بعد ذلك بيوم .خرج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة الغابة يوم السرح وهى غزوة ذى قَرَدٍ سنة ست ، فقتله مسعدة بن محكمة) [3] .

٢٠ ـ أربد بن حميرة : ويكنى أبا مخشى من بنى أسد بن خزيمة . . . (قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن عُمارة الأنصارى قال : هما اثنان أربد بن حميرة شهد بدراً لا شك فيه ، وسويد بن مخشى شهدا أحداً ولم يشهد بدراً) [4] .

٢١ : ٢٤ ـ بنو عمرو الأربعة حلفاء بنى كبير بن غنم بن دودان بن أسد :

مالك بن عمرو : (شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وقتل باليمامة شهيداً سنة اثنتى عشرة ، وذكروه وأجمعوا عليه) [5] .

مدلاج بن عمرو : (شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها، ومات سنة خمسين فى خلافة معاوية) [6] .

ثقف بن عمرو : (وقال أبو معشر : ثقاف بن عمرو . وشهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر ، وقتل بخيبر شهيداً سنة سبع من الهجرة . قتله أسير اليهودى) [7] .

صفوان بن عمرو: قال إبراهيم بن سعد،عن ابن إسحاق فى المغازى:(تتابع

(١، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٩٥ .
(٣) المصدر نفسه ٣ / ٩٥ ، ٩٦ .
(٤) المصدر نفسه ٣/٩٧ .
(٥ ـ ٧) المصدر نفسه ٣ / ٩٧ ، ٩٨.

المهاجرون إلى المدينة أرسالاً . وادعت بنو غنم بن دودان هجرة نسائهم ورجالهم منهم صفوان بن عمرو . وشهد صفوان أحداً ولم يشهد بدراً وشهدها إخوته ثقف ومالك ومدلاج ، كذا قال ابن إسحاق. وقال ابن الكلبى: شهد الأربعة بدراً) (١) .

هذا وقد ذكر ابن إسحاق ستة ممن هاجر من بنى غنم بن دودان ـــ انفرد فيهم من بين علماء السير وهم :

منقذ بن نباتة ، وسعيد بن رقيش ، وقيس بن جابر، والزبير بن عبيدة ، وسخبرة بن عبيدة ، وتمام بن عبيدة : إخوة ثلاثة . كما ذكر محمد بن عبد الله بن جحش (٢) . وكان عمره خمس سنوات عندما هاجر مع أبويه إلى المدينة . وهكذا كان عدد بنى غنم بن دودان الذين هاجروا على رواية ابن إسحاق عشرين صحابيا. وعلى بقية الروايات أربعة عشر ، ولكن أحد زعمائهم كان قد ذكر مع هذه المجموعة وهو :

٢٥ ـ أبو أحمد بن جحش : (هاجر أبو أحمد مع أخيه عبد الله وقومه إلى المدينة. فنزلوا على مبشر بن عبد المنذر . فعمد أبو سفيان بن حرب إلى دار أبى أحمد فباعها من ابن علقمة العامرى بأربعمائة دينار .فلما قدم رسول الله ﷺ مكة عام الفتح، وفرغ من خطبته قام أبو أحمد على باب المسجد على جمل له يصيح: أنشد بالله يا بنى عبد مناف حلفى ، وأنشد بالله يا بنى عبد مناف دارى . فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فسارّه بشيء .فذهب عثمان إلى أبى أحمد فسارّه فنزل أبو أحمد عن بعيره ، وجلس فى القوم فما سمع ذاكرها حتى لقى الله . وقال آل أبى أحمد : إن رسول الله ﷺ قال له: « لك بها دار فى الجنة»)(٣) .

وقال ابن إسحاق : (كان أول من قدم المدينة من المهاجرين بعد أبى سلمة عامر ابن ربيعة ، وعبد الله بن جحش احتمل بأهله وأخيه عبد . وكان أبو أحمد ضريراً يطوف بمكة أعلاها وأسفلها بغير قائد . وكانت عنده الفارعة بنت أبى سفيان بن حرب، وشهد بدراً والمشاهد كلها . وكان يدور مكة بغير قائد . . . وجزم ابن الأثير بأنه مات بعد أخته زينب بنت جحش . وفيه نظر فقد قيل : إنه الذى مات فبلغ أخته موته . فدعت بطيب فمسته . ووقع فى الصحيحين من طريق زينب بنت أم سلمة قالت: دخلت على زينب بنت جحش حين توفى أخوها فدعت بطيب فمسته ثم قالت : ما لى بالطيب من حاجة ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :« لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج » ويقوى أن المراد بهذا

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م ٢ ج ٣ / ٢٤٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٢٦ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ١٠٢ .

أبو أحمد أن كلاً من أخويها عبد الله وعبيد الله مات فى حياة النبى ﷺ . أما عبد الله المكبر فاستشهد بأحد ، وأخوها عبيد الله المصغر فمات نصرانيا بأرض الحبشة . وتزوج النبى ﷺ امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان بعده) (١) .

ونقف عند بنى غنم بن دودان هذه العشيرة المهاجرة التى يحدثنا عنها ابن إسحاق وعن هجرة رجالها ونسائها فيقول :

(ثم قدم المهاجرون أرسالاً . وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ هجرة رجالهم ونسائهم : عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد ابن جحش ، وعكاشة بن محصن وشجاع وعقبة ابنا وهب ، وأربد بن حميرة ، ومنقذ ابن نباتة ، وسعيد بن رقيش ، ومحرز بن نضلة ، ويزيد بن رقيش ، وقيس بن جابر ، وعمرو بن محصن ، ومالك بن عمرو ، وصفوان بن عمرو ، وثقف بن عمرو ، وربيعة بن أكثم ، والزبير بن عبيدة ، وتمام بن عبيدة ، وسخبرة بن عبيدة ، ومحمد بن عبد الله بن جحش .

ومن نسائهم : زينب بنت جحش ، وأم حبيب بنت جحش ، وجذامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن ، وأم حبيب بنت ثمامة ، وآمنة بنت رقيش ،وسخبرة بنت تميم، وحمنة بنت جحش) (٢) .

لقد بلغ المهاجرون منهم ما يقرب من ثلاثين بين مهاجر ومهاجرة ، وأغلقت بيوتهم فصارت يباباً . ونقف كذلك عند شاعرهم العظيم الضرير أبى أحمد بن جحش ، الذى كان الناطق باسمهم ، وأحد مشاهير شعراء الإسلام فى لحظاته العصيبة .

فهو يتحدث عن جذور بنى غنم بن دودان بمكة ، وأنهم غدوا مع الزمن جزء لا يتجزأ من مكة وتاريخها ، وخاصة فهم فى حلف حرب بن أمية ، وصاهروا عبد المطلب بن هاشم . فأمه - أبى أحمد وعبد الله بن جحش - أميمة بنت عبد المطلب . فصاروا فى قلب الأرومة من بنى عبد مناف بحلفهم وصهرهم :

(ولو حلفت بين الصفا أم أحمد ... ومروتها بالله برت يمينها
لنحن الألى كنا بها ثم لم نزل ... بمكة حتى عاد غثا ثمينها
بها خيمت غنم بن دودان وابتنت ... وما إن غدت غنم وخف قطينها
إلى الله تغدو بين مثنى وواحد ... ودين رسول الله بالحق دينها)(٣)

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة م٤ ج٧ / ٣ .

(٢،٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٢٦ .

وحين يرى أن الهجرة لابد قائمة يتجه إلى بنى حرب بن أمية يذكرهم حلفهم ويغمز بقناتهم فيقول :

أبنى أمامة كيف أخذل فيكم ... وأنا ابنكم وحليفكم فى العشر
ولقد دعانى غيركم فأتيته ... وخبأتكم لنوائب الدهر

قال : وكان الأسود بن المطلب قد دعا أبا أحمد يحالفه وقال : دمى دون دمك ، ومالى دون مالك ، فأبى وحالف حرب بن أمية ، وكانوا يتحالفون فى العشر من ذى الحجة قياماً يتماسحون كما يتماسح البنيان ، وكانوا يتواعدون لذلك قبل العشر .

ولا غرو أن يتسابق قادة قريش على حلف أبى أحمد بن جحش ، فأن ينضم لهم شاعر فذ يتحدث بمآثرهم ويذود عن أرومتهم هو ربح كبير ولا شك .

وعندما آن أوان الهجرة ، راح ينشد أبياته لتتناقلها الركبان فى الذين خفروا حليفهم وحاربوا المؤمنين من أبنائهم فيقول :

ولما رأتنى أم أحمد غادياً ... بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول فإما كنت لابد فاعلاً ... فيمم بنا البلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها بل يثرب اليوم وجهنا ... وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهى والرسول ومن يقم ... إلى الله يوماً وجهه لا يخيَّبُ
فكم قد تركنا من حميم مناصح ... وناصحة تبكى بدمع وتندب
ترى أن وتراً نأينا عن بلادنا ... ونحن نرى أن الرغائب نطلب

لقد أعلن فى نادى قريش هجرته إلى يثرب، وفنَّد قول المشفقين عن الخسارة الجسيمة فى هذه الهجرة ، وهو يؤكد لهم أن الرغائب والبيع الرابح فى هذه الهجرة طالما أنها لله ورسوله ، ولن يخيب الله تعالى المهاجرين له ولرسوله .

ويحدّد المعركة بعدها بين الفريقين :

دعوت بنى غنم لحقن دمائهم ... وللحقٌ لما لاح للناس ملحب (١)
أجابوا بحمد الله لما دعاهم ... إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا (٢)
وكنا وأصحاباً لنا فارقوا الهدى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفوجين أما منهما فموفقٌ ... على الحق مهدىٌ وفوج معذب

(١) ملحب : طريق بيِّن.

(٢) أوعبوا : اجتمعوا وكثروا .

وفوج الهداة المهتدين يبغى ويطغى عليه العتاة الضالون المعاندون :

طغوا وتمنوا كذبة وأزلهم عن الحق إبليس فخابوا وخيَّبوا
ورعنا [1] إلى قول النبى محمد فطاب ولاة الحق منا وطيَّبوا
نمتُّ [2] بأرحام إليهم قريبة ولا قرب بالأرحام إذ لا تقرب
فأى ابن أخت [3] بعدنا يأمننكم وأية صهر بعد صهرى ترقب
ستعلم يوماً أينا إذ تزايلوا [4] وزُيل أمر الناس للحق أصوب [5]

وحين طاب المقام فى يثرب لم ينسه ذلك حنينه وحبه لمكة، فراح ينشد :

ياحبذا مكة من وادى بها أهلى وعوادى
بها ترسخ أوتادى بها أمشى بلا هادى

وتابع المعركة من المدينة المنورة فأذاه وفجعه أن يقدم أبو سفيان بن حرب حليفه وأبو زوجه الفارعة وسيد من سادات قريش على بيع داره بمكة بأربعمائة دينار وأكل ثمنها ،فراح يهجوه هجاءه المقذع :

أقطعت عقدك بيننا والجاريات إلى ندامه
ألا ذكرت ليالى العشر التى فيها القسامه
عقدى وعقدك قائم ألا عقوق ولا أثامه
دار ابن عَمِّك بعتها تشرى بها عنك الغرامه
اذهب بها اذهب بها طُوِّقتها طوق الحمامه
وجريت فيه إلى الحقوق وأسوأ الخلق الزعامه
قد كنت آوى إلى ذُرى فيه المقامة والسلامه
ما كان عقدك مثل ما عقد ابن عمر لابن مامه [6]

بقى أن نعلم أن أبا أحمد رضي الله عنه كان من الرعيل الأول، أى من الخمسين الأولى ، فقد أسلم مبكراً وكما يروى محمد بن عمر بسنده :

---

(١) رعنا : رجعنا وقبلنا . (٢) نمت : نتصل .
(٣) ابن الأخت : وعنى بها أنهم ولد أميمة بنت عبد المطلب ، فبنو عبد مناف أخوالهم .
(٤) تزايلوا : تفرقوا وتميزوا. (٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٢٨ .
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ١٠٣ .

(أسلم أبو أحمد بن جحش مع أخويه عبد الله وعبيد الله قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم يدعو فيها) . فهو من الطبقة الأولى وسنعرض معه إلى علمين قرمين من أعلام الإسلام ، فاتنا الحديث عنهم من قبل من الخمسين الأوائل ، وهما عتبة بن غزوان حليف بنى نوفل بن عبد مناف وأبو موسى الأشعرى حليف بنى عبد شمس كذلك ، ونعتبر هؤلاء الثلاثة .

٢٦ ـ عتبة بن غزوان : وهو من القيادات المرموقة فى الإسلام . كان من بنى مازن وحليفاً لنوفل بن عبد مناف ، وكما قال ابن إسحاق عنه : (سمعت بعضهم يكنيه أبا غزوان . وكان رجلاً طوالاً جميلاً . وهو قديم الإسلام فى مكة، وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ . وللواقدى بسنده : قدم عتبة بن غزوان المدينة فى الهجرة وهو ابن أربعين سنة وآخى رسول الله ﷺ بين عتبة بن غزوان وأبى دجانة) (١) .

أما الذهبى فيرى أنه من الخمسين الأولى فيقول عنه :

(السيد الأمير المجاهد أبو غزوان المازنى ، حليف بنى عبد شمس ، أسلم سابع سبعة فى الإسلام ، وكان أحد الرماة المذكورين ومن أمراء الغزاة ، وهو الذى اختط البصرة وأنشأها) (٢) .

وحتى لا نمعن فى الحديث عنه . فمكان الحديث عن دوره القيادى فيما بعد ، لكن نكتفى أن نعرض تلك الخطبة الخالدة له ، والتى أوردها مسلم فى صحيحه بسنده عن خالد بن عمير العدوى قال :

(أما بعد ، فإن الدنيا قد آذنت (٣) بصرم (٤) ،وولت حذَّاءً (٥) ولم يبق منها إلا صبابة (٦) كصبابة الإناء يتصابها صاحبها .وإنكم منتقلون إلى دار لا زوال لها . فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فإنه قد ذُكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوى بها سبعين عاماً لا يدرك لها قعراً . ووالله لتملأنَّ ،أفعجبتم ؟ ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً ،وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام .

ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى قرحت (٧) أشداقنا . فالتقطت بردة فشققتها بينى وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٩٨ ، ٩٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
(٣) آذنت : أعلمت .
(٤) بصُرْم : بانقطاع .
(٥) حذاء : مسرعة .
(٦) صبابة : البقية اليسيرة من الشراب .
(٧) قرحت : صار فيها قروح وجراح .

واتزر سعد بنصفها. فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار . وإنى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيماً ، وعند الله صغيرا. وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً ، فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا) (١).

لقد كان العاص بن وائل وأقرانه وهم ينظرون إلى سعد بن مالك وعتبة بن غزوان وأمثالهما فى برودهم المهترئة وثيابهم البالية وأقدامهم المشققة وكرامتهم المحطمة يهزؤون بهم ويقولون : انظروا جاء ملوك الأرض .

وانتهى العاص بن وائل عزيز مكة حين نهد له جبريل - عليه الصلاة والسلام - بأبشع النهايات وصار عتبة وسعد وأقرانهما ملوك الأرض ، ودانت لهم فارس والروم . وما كانت البصرة إلا أرض الهند آنذاك.

وكما يقول الذهبى: (قيل : كانت البصرة تسمى أرض الهند .فأول ما نزلها عتبة، كان فى ثمانمائة ، وسميت البصرة بحجارة سود هناك . فلما كثروا بنوا سبع دساكر من لبن ، اثنتين منها فى الخُريبة . فكان أهلها يغزون جبال فارس) (٢) .

بقى علينا أن نعرف أن نسب عتبة بن غزوان - كما أورده ابن سعد - ابن جابر بن وهب. . . ابن مازن بن منصور بن عكرمة . . . بن مضر .وأنه (توفى بطريق البصرة وافداً إلى المدينة سنة سبع عشرة وعاش سبعاً وخمسين سنة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) (٣) .

٢٧ ـ **ومولاه خباب** : (ويكنى أبا يحيى .آخى رسول الله ﷺ بينه وبين تميم مولى خراش بن الصمة وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها ، وتوفى سنة تسع عشرة. وهو يومئذ ابن خمسين سنة وصلى عليه عمر بن الخطاب فى المدينة) (٤) .

٢٨ ـ **أبو موسى الأشعرى** : (عبد الله بن قيس بن سليم بن . . . الجماهر بن الأشعر أبو موسى الأشعرى مشهور باسمه وكنيته معا.وأمه ظبية بنت وهب بن عك. . . أسلمت وماتت فى المدينة . وكان هو سكن الرملة وحالف سعيد بن العاص. ثم أسلم وهاجر إلى الحبشة . وقيل : بل رجع إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى الحبشة وهذا قول الأكثر،فإن موسى بن عقبة وابن إسحاق والواقدى لم يذكروه فى مهاجرة الحبشة . وقدم إلى المدينة بعد فتح خيبر ، وصادفت سفينته سفينة جعفر بن أبى طالب فقدموا جميعاً . واستعمله النبى ﷺ على بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالهما ، واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة ففتح الأهواز ، ثم أصبهان . ثم استعمله عثمان

---

(١) مسلم ج٤ ص ٢٢٧٨ ح ٢٩٦٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى ١/ ٣٠٥ .
(٣) المصدر نفسه ١/ ٣٠٦ .
(٤) الطبقات الكبرى ٣/ ١٠٠ .

على الكوفة ، ثم كان أحد الحكمين فى صفين ، ثم اعتزل الفريقين . وأخرج ابن سعد والطبرى من طريق عبد الله بن بريدة أنه وصف أبا موسى فقال : كان خفيف الجسم قصيراً ، ثطاً [(١)] . . . وكان حسن الصوت بالقرآن ، وفى الصحيح المرفوع : «لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود . . . » .

قال الشعبى : انتهى العلم إلى ستة ، فذكره فيهم . وذكره البخارى من طريق الشعبى بلفظ العلماء . وقال ابن المدينى : قضاة الأمة أربعة : عمر وعلى وأبو موسى وزيد بن ثابت . . . قال البغوى : بلغنى أن أبا موسى مات سنة اثنتين، وقيل : سنة أربع وأربعين وهو ابن نيف وستين) [(٢)] . وفى الصحيحين عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً » [(٣)] .

فنحن مع المهاجر المجاهد العالم القارئ القائد القاضى الحاكم الوالى . اكتفينا بهذه العجالة عنه لنسهب عنه فيما بعد .

٢٩ ـ صبيح مولى سعيد بن العاص : وينتهى الحديث عن العبشميين والأمويين بصبيح مولى أبى أحيحة سعيد بن العاص . الذى كان حليف أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه حيث ذكره الواقدى فقال :

(أخبرنا بعض أصحابنا أن صبيحاً مولى سعيد بن العاص تجهّز يريد الخروج إلى بدر ، فاشتكى فتخلّف وحمل على بعيره أبا سَلَمَة بن عبد الأسد المخزومى ، ثم شهد صبيح بعد ذلك أحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وكذلك قال محمد بن إسحاق ، وأبو معشر ، وعبد الله بن محمد بن عمارة الأنصارى) [(٤)] .

٣٠ ـ السائب بن العوام : وهو شقيق الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته ، (روى البخارى والبلاذرى من طريق هشام بن عروة عن أبيه أنه استشهد يوم اليمامة . وكذا ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق ، وفى ديوان حسان رواية أبى سعيد السكرى عن ابن حبيب ، وليس للسائب عقب ، وقد شهد بدراً . وذكر ابن الكلبى أنه شهد الخندق وما بعدها) [(٥)] .

---

(١) ثطاً : ثقيل البطن أو قليل شعر اللحية وهو الأرجح .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة م٢ ج٤ / ١٢٠ .

(٣) البخارى فى المغازى ٨/ ٣٥ ، ومسلم ٢٤٩٨ فى الفضائل .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١١٨ .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٣/ ٦١ .

وكانت صفية ـ رضى الله عنها ـ تقول له فى صباه ، وكان يؤذيها :

يسبنى السائب من خلف الجدر   لكن أبو الطاهر زبَّار أير

٣١ ـ خالد بن حزام : وهو أخو حكيم بن حزام رضي الله عنه وابن أخت خديجة أم المؤمنين .

ذكر البلاذرى وابن منده من طريق المنذر بن عبد الله،عن هشام بن عروة عن أبيه قال:هاجر خالد بن حزام إلى أرض الحبشة فنهشته حية فمات على الطريق. فنزل فيه : **﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾**(١) .

وأخرجه ابن أبى حاتم موصولاً ولفظه : عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام فذكره وزاد : وكنت أتوقع خروجه ، وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة فما أحزننى شىء كما أحزننى لوفاته ؛ لأنه كان من أسد بن عبد العزى ، ولم يكن معى بقى أحد منهم بأرض الحبشة (٢) .

٣٢ ـ حاطب بن أبى بلتعة : وهو من الشخصيات المؤثرة القيادية فى الإسلام .

قال المرزبانى عنه فى معجم الشعراء: (كان أحدفرسان قريش فى الجاهلية وشعرائها) (٣) .

(ويكنى أبا محمد وهو من لخم ، وينتهى نسب لخم إلى قحطان ، وقحطان جماع اليمن . حليف بنى أسد بن عبد العزى . ولما هاجر حاطب بن أبى بلتعة وسعد مولى حاطب نزلا على المنذر بن محمد بن عُقبة . وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين دخيلة بن خالد .وشهد حاطب بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وبعثه رسول الله ﷺ بكتاب إلى المقوقس صاحب الإسكندرية . وكان حاطب من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ . وأخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى شيخ من ولد حاطب عن آبائه قالوا : وكان حاطب رجلاً حسن الجسم ، خفيف اللحية أجنأ . وكان إلى القصر ما هو، شثْن الأصابع) (٤) .

واتفقوا على شهوده بدراً وثبت ذلك فى الصحيحين من حديث علىٍّ فى قصة كتابة حاطب إلى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله ﷺ إليهم فنزلت : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

---

(١) النساء / ١٠٠ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ٢/ ٨٧ .

(٣) المصدر نفسه ١/ ١/ ٧١٤ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١١٤ .

آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ... ﴾ (١) فقال عمر : دعنى أضرب عنقه . فقال: « إنه شهد بدراً » ، واعتذر حاطب بأنه لم يكن له فى مكة عشيرة تدفع عن أهله فقُبل عذره . وروى مسلم وغيره من طريق أبى الزبير عن جابر أن عبداً لحاطب بن أبى بلتعة جاء يشكو حاطباً فقال : ليَدْخلن حاطباً النار .فقال: « لا فإنه شهِد بدراً والحديبية » .

قال المداينى : (مات حاطب فى سنة ثلاثين فى خلافة عثمان) (٢) .

وأما تفصيلات حياة حاطب فسترد فى موقعها المناسب إن شاء الله .

٣٣ ـ سعد مولى حاطب : (وهو سعد بن خولى بن ... عُذرة بن ... كلب من قضاعة . وأجمعوا جميعاً على أنه أصابه سبى فصار إلى حاطب بن أبى بلتعة اللخمى حليف بنى أسد بن عبد العزى . فأنعم عليه . وشهد بدراً وأحداً ، وقتل يوم أحدِ شهيداً على رأس اثنين وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ) (٣) .

خامسًا : العدويون

٣٤ ـ زيد بن الخطاب : وإذا كان عمر بن الخطاب على رأس الخمسين الثانية . فقد كان أخوه زيد بن الخطاب قد أسلم قبله ، وهو أسن منه . وكان زيد رجلاً طويلاً بائن الطول أسمر . وآخى رسول الله ﷺ بين زيد بن الخطاب ومعن بن عدى بن العجلان . وقتلا جميعاً باليمامة شهيدين . وشهد زيد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وروى عنه حديثاً .

وعن ابن عمر قال : قال عمر بن الخطاب لأخيه زيد بن الخطاب يوم أحد : أقسمت عليك إلا لبست درعى . فلبسها ثم نزعها . فقال له عمر : مالك ؟ قال : إنى أريد بنفسى ما تريد بنفسك .

(وعن الجحاف بن عبد الرحمن من ولد زيد بن الخطاب ، عن أبيه قال : كان زيد بن الخطاب يحمل راية المسلمين يوم اليمامة ، ولقد انكشف المسلمون حتى غلبت حنيفة على الرِّحال .فجعل زيد يقول:أما الرحال فلا رحال وأما الرجال فلا رجال . ثم جعل يصيح بأعلى صوته : اللهم إنى أعتذر إليك من فرار أصحابى ، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكّم بن الطفيل . وجعل يشتد بالراية يتقدم بها فى نحر العدو . ثم ضارب بسيفه حتى قتل ووقعت الراية . فأخذها سالم مولى أبى حذيفة . فقال

(١) الممتحنة / ١ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/١/ ٣١٤ .

(٣) الطبقات الكبرى ٣/ ١١٥ .

المسلمون : يا سالم إنا نخاف أن نؤتى من قِبلك . فقال : بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من قبلى . وكان عمر قد حزن عليه حزناً شديداً وكان يقول : إن الصَّبا لتهب فتأتينى بريح زيد بن الخطاب) (١) .

٣٥ ـ **مهجع مولى عمر** : (ويقال : إنه من أهل اليمن أصابه سبى فمنّ عليه عمر بن الخطاب ، وكان من المهاجرين الأولين . وقتل يوم بدر بين الصفين . لا عَقِب له . وعن القاسم بن عبد الرحمن وقال : أول من استشهد من المسلمين يوم بدر مهجع مولى عمر بن الخطاب. وعن الزهرى : قتله عامر بن الحضرمى) (٢) .

٣٦ ، ٣٧ ـ **عمرو بن سراقة وأخوه عبد الله** : ابن المعتمر بن أنس بن عدى بن كعب ابن لؤى . وعن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال :

لما هاجر عمرو وعبد الله ابنا سراقة بن المعتمر من مكة إلى المدينة ، نزلا على رفاعة بن عبد المنذر . وشهد عمرو بن سراقة بدراً فى رواية موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق . وذكر محمد بن إسحاق أن أخاه عبد الله بن سراقة شهد بدراً ولم يذكر ذلك غيره. وشهد عمرو بن سراقة أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وتوفى فى خلافة عثمان بن عفان . وتوفى عبد الله بن سراقة وليس له عقب .

٣٨ ـ **خولى بن أبى خولى** : واسم أبى خولى عمرو بن زهير بن . . . بن سعد العشيرة بن . . . مذْحج . وكان حليفاً للخطاب بن نفيل بن عبد العزى أبى عمر بن الخطاب . أجمعوا جميعاً لا اختلاف بينهم أن خولى بن أبى خولى شهد بدراً . وقال هشام بن السائب الكلبى : شهدها خولى بن أبى خولى وأخوه هلال وعبد الله حليفان لهم ، وشهد خولى بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ومات فى خلافة عمر بن الخطاب (٣) .

٣٩ ـ **مسعود بن سويد** :(ابن حارثة بن نضلة . . . بن عدى بن كعب . وكان قديم الإسلام، وقتل يوم مؤتة شهيداً فى جمادى الأولى سنة ثمانٍ من الهجرة) (٤) .

لقد كان هؤلاء الستة جنوداً فى الدعوة ، يحضرون جميع المشاهد ، ولا يتخلفون عن معركة . وكانت شخصية عمر رضي الله عنه قد طغت على بنى عدى جميعاً . إلا ما كان من ابنه عبد الله الذى صار كنفاً للمسلمين بعد وفاة أبيه .

٤٠ ـ **عبد الله بن عمر** : وسمة شخصية عبدالله رضي الله عنه تمثل نموذجاً محتذىً فى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٣٧٨ .
(٢، ٣) المصدر نفسه ٣/ ٣٩١ .
(٤) المصدر نفسه ٤/ ١٤ .

الأمة، وخطاً من خطوطها العريضة ، يبقى جمهور المسلمين يلتقون عليه. وهذه شخصيته فى معالمها الرئيسة :

هو : عبد الله بن عمر بن الخطاب ... بن عدى بن كعب بن لؤى . وكان إسلامه بمكة مع إسلام أبيه عمر بن الخطاب ولم يكن بلغ يومئذ . وهاجر مع أبيه إلى المدينة . وكان يكنى أبا عبد الرحمن .

وكان أول انغماسه فى أتون الحرب يوم الخندق فى السنة السادسة كما يقول: عرضنى رسول الله ﷺ فى القتال يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى ، فلما كان يوم الخندق ، عرضنى وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى .

وكان يمثل الوسطية فى الأمة: فعن القاسم بن عبد الرحمن قال رجل لابن عمر : من أنتم ؟ قال : ما تقولون ؟ قال : نقول : إنكم سبط وإنكم وسط. فقال : سبحان الله إنما كان السبط فى بنى إسرائيل ،والأمة الوسط أمة محمد جميعاً . ولكنا أوسط هذا الحى من مضر . فمن قال غير ذلك فقد كذب وفجر. قال موسى بن طلحة : إنى لأحسبه على عهد رسول الله ﷺ الذى عهد عليه لم يفتن بعده ولم يتغير . والله ما استغرته قريش فى فتنته الأولى . فقلت فى نفسى: إن هذا ليزرى على أبيه فى مقتله .

وعن مجاهد قال: ترك الناس أن يقتدوا بابن عمر وهو شاب، فلما كبر اقتدوا به . وكان يقول عن نفسه : لو اجتمعت علىّ أمة محمد إلا رجلين ما قاتلتهما . وعن الحسن قال : لما قتل عثمان بن عفان قالوا لعبد الله بن عمر : إنك سيد الناس وابن سيد فاخرج نبايع لك الناس . قال : إنى والله لئن استطعت ألا يهراق فى سببى محجمة من دم . قالوا : لتخرجن أو لنقتلنك على فراشك . فقال لهم مثل قوله الأول. قال الحسن: فأطمعوه وخوّفوه فما استقبلوا منه شيئاً حتى لحق بالله .

وكان رمز الاقتداء بالنبى ﷺ فى الأمة : فعن أبى جعفر محمد بن على قال : لم يكن من أصحاب رسول الله ﷺ أحد أحذر إذا سمع من رسول الله ﷺ شيئاً الا يزيد فيه ولا ينقص منه ، ولا ولا من عبد الله بن عمر . وعن محمد قال : اللهم ابق عبد الله بن عمر ما أبقيتنى أقتدى به فإنى لا أعلم أحداً على الأمر الأول غيره . وعن عائشة قالت: ما كان أحدٌ يتبع آثار النبى ﷺ فى منازله كما كان يتّبعه ابن عمر .

وكان قمة فى الزهد فى الدنيا: فعن الأعمش ،عن إبراهيم قال: قال عبد الله : إن أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا ابن عمر . وعنه قال : ما وضعت لبنة على لبنة ،

ولا غرست نخلة منذ توفى رسول الله ﷺ . وقيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر فى منزله ؟ قال : لا يطيقونه ، الوضوء لكل صلاة والمصحف بينهما . وعن عاصم بن محمد عن أبيه قال: ما سمعت ابن عمر ذاكراً رسول الله ﷺ إلا ابتدرت عيناه تبكيان . وعن نافع أنه دخل الكعبة مع عبد الله بن عمر قال : فسجد فسمعته يقول فى سجوده: اللهم إنك تعلم لولا مخافتك لزاحمنا قومنا قريشاً فى هذه الدنيا .

وكان قمة فى الطاعة والعبادة : فعن نافع مولى ابن عمر قال : رأيت على عهد النبى ﷺ كأن بيدى قطعة إستبرق، وكأننى لا أريد مكاناً فى الجنة إلا طارت بى إليه . قال: ورأيت كأن اثنين أتيانى أرادا أن يذهبا بى إلى النار فتلقاهما ملَك فقال : لا تُرع ، فخليا عنى. قال: فقصت حفصة على النبى ﷺ رؤياى ، فقال رسول الله ﷺ : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل » . قال : فكان عبد الله يصلى من الليل فيكثر . وعن عبيد بن عُمير أنه قرأ : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيد** . . ﴾ [1]، حتى ختم الآية ، فجعل ابن عمر يبكى حتى لثقت لحيته وجيبه من دموعه . قال عبد الله : فحدثنى الذى كان إلى جنب ابن عمر قال : لقد أردت أن أقوم إلى عبيد بن عمير فأقول له: اقصر عليك . فإنك قد آذيت هذا الشيخ . وعن نافع قال : كان ابن عمر لا يدع عمرة رجب . وعن نافع قال : كان ابن عمر لا يصوم فى السفر ، ولا يكاد يفطر فى الحضر إلا أن يمرض ، أو أيام يقدم . فإنه كان رجلاً كريماً يحب أن يؤكل عنده .

وكان قمة فى السخاء والكرم : فعن ميمون بن مهران ، أن امرأة ابن عمر عوتبت فيه فقيل لها : ما تُلطفين بهذا الشيخ ؟ قالت : وما أصنع به ؟ لا يصنع له طعام إلا دعا عليه من يأكله . فأرسلت إلى قوم من المساكين كانوا يجلسون فى طريقه إذا خرج من المسجد فأطعمتهم وقالت : لا تجلسوا بطريقه . ثم جاء إلى بيته فقال : أرسلوا إلى فلان وفلان. وكانت امرأته قد أرسلت إليهم بطعام ، وقالت : إن دعاكم فلا تأتوه . فقال : أردتم ألا أتعشى الليلة . فلم يتعش تلك الليلة . وعن نافع أن عبد الله بن عمر كان إذا اشتدَّ عجَبُه بشىء من ماله قرَّبه لربِّه . فلقد رأيتنا ذات عشية ، وكنا حجاجاً ، وراح على نجيب له قد أخذه بمال ، فلما أعجبته روحته وسرَّه إناخته ثم نزل عنه ثم قال: يا نافع ، انزعوا زمامه ورَحْلَه وجَلِّلوه وأشعروه وأدخلوه فى البُدن . وعن نافع أن عبدالله بن عمر كانت له جارية فلما اشتد عجبه بها أعتقها وزوجها مولىً له ، فولدت غلاماً . فلقد رأيت عبد الله بن عمر يأخذ ذلك الصبى ويُقَبِّله ثم يقول: واهاً لريح فلانة، يعنى الجارية التى أعتق .

---

(١) النساء / ٤١ .

وكان قمة فى العلم والفقه : فقد كان الراوى الثانى فى الأمة لحديث رسول الله ﷺ بعد أبى هريرة . فقد روى أبو هريرة خمسة آلاف حديث وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثاً . وروى عبد الله بن عمر بن الخطاب ألفى حديث وستمائة وثلاثين حديثاً . وعندما يذكر أصحاب الفتيا من صحابة رسول الله ﷺ فعبد الله بن عمر على رأسهم . وقد قسمهم ابن حزم أقساماً ثلاثة : المكثرين وهم السبعة الأول : عائشة أم المؤمنين ، وعمر بن الخطاب،وعلى بن أبى طالب ،وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، فهو رضي الله عنه راوٍ للحديث من جهة، وذو قدم راسخة فى الفقه من جهة ثانية .

وكان الناس يقدمون إليه من كل حدب وصوب يستفتونه فى كل شؤون حياتهم ، دقيقها وجليلها ، وخاصة لما عرف عنه من تتبعه لآثار النبى ﷺ فى كل شىء . وقد أراد عثمان رضي الله عنه أن ينصبه قاضياً بين الناس كما روى يزيد بن وهب ، أن عثمان قال لعبد الله بن عمر : اقض بين الناس . فقال : لا أقضى بين اثنين ولا أؤم اثنين . قال : فقال عثمان: أتعصينى ؟ قال : لا ، ولكنه بلغنى أن القضاة ثلاثة :رجل قضى بجهل فهو فى النار ، ورجل حاف ومال به الهوى فهو فى النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو كفاف لا أجر له ولا وزر عليه . فقال : إن أباك كان يقضى . قال : إن أبى كان يقضى فإذا أُشكل عليه شىء كان يسأل النبى ﷺ ، وإذا أشكل على النبى ﷺ سأل جبرائيل ، وإنى لا أجد من أسأل . أما سمعت النبى ﷺ يقول : « من عاذ بالله فقد عاذ بمعاذ؟ » فقال عثمان: بلى . قال : فإنى أعوذ بالله ألا تستعملنى . فأعفاه . وقال : لا تخبر بهذا أحداً . وبلغت الثقة بعلمه أن يكون المقدّم على العظام من الصحابة . فقد روى محمد بن عمر قال : أخبرنا مالك بن أنس قال : قال لى أبو جعفر أمير المؤمنين : كيف أخذتم قول ابن عمر من بين الأقاويل ؟ فقلت له : بقى يا أمير المؤمنين وكان له فضل على الناس ، ووجدنا من تقدمنا أخذ به، فأخذنا به . قال: فخذ بقوله وإن خالف عليا وابن عباس .

وكان الخليفة غير المتوّج للأمة : فالأمة تعرف له هذا الفضل ، وترى أنه أهلاً للخلافة إذ لم يأخذ مركزه من كونه ابن عمر فحسب ، بل بما يملك من مؤهلات ترشحه للقيادة .

فقد رشحه عمر رضي الله عنه ليشارك فى الرأى مع أهل الشورى دون أن يكون له حق فى الخلافة إذ قال : (ما أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر ـ أو الرهط ـ الذين

توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ : علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء) (١) . ثم رشحه لأن يكون حكماً على الستة عند الاختلاف على الخليفة ، فقد ذكر المداينى أن عمر قال لهم : (إذا اجتمع ثلاثة على رأى وثلاثة على رأى . فحكّموا عبد الله بن عمر . فإن لم ترضوا بحكمه فقدموا من معه عبد الرحمن بن عوف) (٢) .

ولكنه لم يرشحه للخلافة ، وذلك حين قال له رجل من المسلمين . فقد أخرج ابن سعد بسند صحيح من مرسل إبراهيم النخعى نحوه (فقال له رجل: استخلف عبد الله بن عمر . فقال : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، أستخلف من لم يحسن أن يطلّق امرأته ؟) (٣) .

ورشحه الثوار للخلافة بعد مقتل عثمان : فعن سلام بن سكين قال : سمعت الحسن يحدث قال : لما قتل عثمان بن عفان قالوا لعبد الله بن عمر : إنك سيد الناس وابن سيد فاخرج نبايع لك الناس . قال : إنى والله لئن استطعت لا يهراق فى سببى محجمة من دم . فقالوا : لتخرجن أو لنقتلنك على فراشك . فقال لهم مثل قوله الأول. قال الحسن: فأطمعوه ، وخوّفوه فما استقبلوا منه شيئاً حتى لحق بالله .

وعن خالد بن سمير قال : قيل لابن عمر : لو أقمت للناس أمرهم فإن الناس قد رضوا بك كلهم ، فقال لهم : أرأيتم إن خالف رجل بالمشرق ؟ قالوا : إن خالف رجل قتل . وما قتل رجل فى صلاح الأمة ! فقال : والله ما أحب لو أن أمة محمد ﷺ أخذت بقائمة رمح وأخذت بزُجّه فقتل رجل من المسلمين ولِىَ الدنيا وما فيها .

ورشحه معاوية للخلافة : فعن ميمون قال : دسّ معاوية عمرو بن العاص وهو يريد أن يعلم ما فى نفس ابن عمر يريد القتال أم لا . فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ما يمنعك أن تخرج فنبايعك وأنت صاحب رسول الله ﷺ وابن أمير المؤمنين ، وأنت أحق الناس بهذا الأمر ؟ قال: وقد اجتمع الناس كلهم على ما تقول؟ قال :نعم إلا نُفَيْر . . . يسير . قال : لو لم يبق إلا ثلاثة أعلاج بهجر لم يكن لى فيها حاجة . قال : فعلم أنه لا يريد القتال .

وبعد عند اختلاف المسلمين على الخلافة بعد صفين ، وعند اختيار الحكمين ليقضيا فى أمر الأمة .

ورشحه الحكم أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه للخلافة : وذلك كما روى عبد الرزاق

(١-٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر العسقلانى ٨/ ٦٧ ح ٣٧٠٠ .

عن معمر عن الزهرى : (... فقال عمرو ـ لأبى موسى : قد أخلصت أنا وأنت على أن نسمى رجلاً يلى أمر هذه الأمة فسمِّ يا أبا موسى فإنى أقدر على أن أبايعك على أن تبايعنى . فقال أبو موسى : أسمى عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ وكان عبد الله بن عمر فيمن اعتزل ـ فقال عمرو : فأنا أسمى لك معاوية بن أبى سفيان ...) (١) .

والشخصيات الإسلامية التى دُعيت لتحضر التحكيم كان أولهم عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

(فلما حكَّم الحكمان فاجتمعا بأذرح وافاهما المغيرة بن شعبة ،وأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، ووافى رجال كثير .

ونازعته نفسه رضي الله عنه مرة واحدة للخلافة بعد هذا التحكيم ثم عصمه الله عز وجل .

فقام معاوية عشية فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فمن كان متكلماً فى هذا الأمر فليطلع لى قرنه ، فوالله لا يطَّلع فيه أحد إلا كنت أحق به منه ومن أبيه ، قال عبد الله بن عمر : فأطلقت صبوتى فأردت أن أقوم إليه فأقول: يتكلم فيه رجال قاتلوك ، وأباك على الإسلام ، ثم خشيت أن أقول كلمة تفرِّق بين الجمع ، وتسفك فيها الدماء ، وأحمل فيها على غير رأى ، فكان ما وعد الله تبارك وتعالى فى الجنان أحبَّ إلىّ من ذلك كله) (٢) .

وفى رواية : (ولما كان من موعد علىّ ومعاوية بدومة الجندل ما كان ، أشفق معاوية أن يخرج هو وعلى منها ، فجاء معاوية يومئذ على بختى عظيم طويل فقال : ومن هذا الذى يطمع فى هذا الأمر أو يمد إليه عنقه ! قال ابن عمر : فما حدثت نفسى بالدنيا إلا يومئذ فإنى هممت أن أقول : يطمع فيه من ضربك وأباك عليه حتى أدخلكما فيه . ثم ذكرت الجنة ونعيمها وثمارها فأعرضت عنه) .

ورشحه معاوية رضي الله عنه فى وصيته ليزيد :

(وإنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى أسسته إلا أربعة نفر : الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما ابن عمر فهو رجل ثقة قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك) (٣) .

---

(١) المغازى النبوية للزهرى . تحقيق : سهيل زكار : ١٥٩ .
(٢) المصدر نفسه : ١٦٠ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٨/١١٨ .

ورشحه مروان بن الحكم الذى ولى الخلافة بعد يزيد : فعن عاصم بن أبى النجود قال : قال مروان لابن عمر : هلمَّ يدك نبايع لك فإنك سيد العرب وابن سيدها . قال: قال له ابن عمر : كيف أصنع بأهل المشرق ؟ قال : نضربهم حتى يبايعوا . قال : والله ما أحب أنها دانت لى سبعين سنة ، وأنه قُتِل فى سببى رجل واحد . قال : يقول مروان :

إنى أرى فتنة تغلى مراجلها والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

(أبو ليلى معاوية بن يزيد بن معاوية . وكان بعد أبيه يزيد أربعين ليلة بايع له أبوه الناس) . لقد أمضى عمره كله يترفع عن الخلافة خشية الفتنة . فما يزيده ذلك فى الناس إلا تبجيلاً وتعظيماً حين يروا زهده فيها وهو لها أهل .

فعن مجاهد قال : كنت مع ابن عمر فجعل الناس يسلمون عليه حتى انتهى إلى دابته . فقال لى ابن عمر : (يا مجاهد ، إن الناس يحبوننى حبا لو كنت أعطيهم الذهب والورق ما زدت) .

لقد عاش فى الإسلام عشرين عاماً . وتلقى التربية النبوية المباشرة . منها ست سنوات فى مكة وعشر سنوات فى المدينة فكوّن مدرسة خاصة به . ورأت الأمة به كهفها فى الشدائد .

تقف حيث يقف ، وتسير حيث يسير ، وتتوجه حيث يتوجه .

وكان زاده من رسول الله ﷺ تلك الكلمات الخالدات :« نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل » .

وزاده ما قاله ﷺ لحفصة ـ رضى الله عنها ـ فى أخيها عبد الله :

« إن عبد الله رجل صالح » .

وعن مجاهد قال : شهد ابن عمر فتح مكة وهو ابن عشرين سنة وهو على فرس جرور ومعه رمح ثقيل ، وعليه بردة فلوت قال : فأبصره النبى ﷺ وهو يختلى لفرسه فقال :« إن عبد الله . . . إن عبد الله . . . » يعنى : أثنى عليه خيراً .

وبهذا الزاد النبوى فيه اكتفى ، لكنه احتفى بما حفظه عن رسول الله ﷺ علما نافعاً ونوراً مبيناً . كان أحرص الناس على تطبيقه على نفسه . وكما ذكرنا من قبل أنه كان أعظم الناس رواية عن رسول الله ﷺ بعد أبى هريرة . وهذا يعنى أنه عاش مع النبى ﷺ أعظم حياته . حتى شهد الصغيرة والكبيرة منه فرواها وطبقها . وقبس من هذا النور النبوى بهذه الصحبة ما أمده أن يكون إماماً للمسلمين طيلة عمره بهذا

الهدى وبهذا النور وبهذا الاقتداء العظيم الدقيق . الذى لم يبلغ شأوه إلا القلائل القلائل [1] .

سادسًا : الـزهـريـون

والزهريون الذين بين أيدينا جميعاً هم من الرعيل الأول الذى أسلم فى دار الأرقم والأصل أن موضعهم هناك . وهم :

٤١ ـ **طليب بن أزهر** : أسلم بمكة قديماً ، وهاجر إلى أرض الحبشة فى رواية محمد بن إسحاق . وكان طليب خلف على رملة بنت أبى عوف بعد أخيه المطلب بن أزهر [2] .

٤٢ ـ **عبد الله الأصغر** : ابن شهاب بن . . زهر بن كلاب . وكان يسمى عبد الجابّ . فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله ،وهو عبد الله الأصغر بن شهاب . أسلم قديماً بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة فى رواية محمد بن عمر وهشام بن محمد بن السائب الكلبى . ثم قدم المدينة ، فمات بها قبل الهجرة إلى المدينة [3] .

٤٣ ـ **وأخوه عبد الله بن شهاب** : أسلم بمكة قديماً ، ومات بها قبل الهجرتين إلى أرض الحبشة .

٤٤ ـ **عمير بن عبد عمرو** : خزاعى حليف لبنى زهرة ، ويكنى أبا محمد ، وكان يعمل بيديه جميعاً فقيل : ذو اليدين . وقدم أبوه إلى مكة فعقد حلفاً بينه وبين عبد بن الحارث بن زهرة . ولما هاجر ذو الشمالين عمير بن عبد عمرو من مكة إلى المدينة . نزل على سعد بن خيثمة. وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين يزيد بن الحارث بن فُسحم. وقتلا جميعاً ببدر، قتل ذا الشمالين أبو أسامة الجشمى. وكان عمير ذو الشمالين يوم قتل ببدر ابن بضع وثلاثين سنة [4] .

سابعًا : الفهـريـون

٤٥ ـ **صفوان ابن بيضاء**: وهو أخو سهل وسهيل ابنا بيضاء ، وبيضاء أمهم جميعاً. أما أبوهم فوهب بن ربيعة بن هلال بن . . . الحارث بن فهر . وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين رافع بن المعلى ، وقتلا ببدر جميعاً . قال محمد بن عمر : هذه رواية ، وقد روى لنا أن صفوان ابن بيضاء لم يقتل يوم بدر وأنه قد شهد المشاهد كلها مع رسول الله

---

(١) كل ما رويناه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قطوف من ترجمته فى الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٤٢ ـ ١٨٨ . إلا الذى عزيناه إلى مصدره فى مكانه .

(٢ ، ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ١٢٤ ـ ١٢٦ .

(٤) المصدر نفسه ٣ / ١٦٧ .

ﷺ وتوفى فى رمضان سنة ثمانٍ وثلاثين ، وليس له عقب[1] .

٤٦ ـ **وأخوه سهل ابن بيضاء** : أسلم بمكة وكتم إسلامه فخرجت قريش معها فى نفير بدر فشهد بدراً مع المشركين فأُسر يومئذٍ . فشهد له عبد الله بن مسعود أن رآه يصلى بمكة فخُلى عنه . . . وأقام سهل بالمدينة بعد ذلك ، وشهد مع النبى ﷺ بعض المشاهد وبقى بعد النبى ﷺ . وهو أحد الذين ساهموا فى نقض الصحيفة . وعند ابن الأثير : أن سهلاً وسهيلاً توفيا فى حياة النبى ﷺ لخبر عائشة : ما صلى رسول الله ﷺ على ابنى بيضاء إلا فى المسجد [2] .

٤٧ ـ **عمرو بن الحارث بن زهير** : ابن أبى شداد بن ربيعة بن . . . الحارث بن فهر . وكان قديم الإسلام بمكة ، وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية فى رواية محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر . ولم يذكره ابن عقبة وأبو معشر فيمن هاجر [3] .

٤٨ ـ **وهب بن سعد بن أبى سرح** : ابن حبيب بن . . . حسل بن عامر بن لؤى . لما هاجر وهب بن سعد من مكة إلى المدينة نزل على كلثوم بن الهدم ، قالوا : وآخى رسول الله ﷺ بين وهب بن سعد وسويد بن عمرو وقتلا جميعاً بمؤتة شهيدين . وشهد وهب بن سعد بدراً فى رواية موسى بن عقبة وأبى معشر . وشهد أحداً والخندق والحديبية وخيبر ، وقتل يوم مؤته شهيداً فى جمادى الأولى سنة ثمانٍ من الهجرة . وكان يوم قتل ابن أربعين سنة [4] .

٤٩ ـ **عمير بن عوف** : مولى سهيل بن عمرو . . . وكان من مولدى مكة . وكان قد فرّ مع عبد الله بن سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ يوم بدر . . . وشهد عمير بن عوف بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، ومات بالمدينة فى خلافة عمر بن الخطاب وصلى عليه عمر [5] .

٥٠ ـ **ومن بنى سهم : عمير بن رئاب** : ابن حذافة بن سهم . . . بن كعب بن لؤى . وكان من مهاجرة الحبشة فى الهجرة الثانية . ذكروه جميعاً فى رواياتهم وقتل بعين التمر شهيداً ولا عقب له [6] .

٥١ ـ **ومن بنى جمح : نبيه بن عثمان** : ابن . . . حذافة بن جمح بن هصيص . . . وكان قديم الإسلام فى مكة . وهاجر إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية . وأما فى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤١٦
(٢) أسد الغابة ٢ / ٤٦٦ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢١٣ .
(٤ ، ٥) المصدر نفسه ٣ / ٤٠٧ .
(٦) المصدر نفسه ٤ / ١٩٧ .

رواية محمد بن إسحاق . فإن الذى هاجر إلى أرض الحبشة ، أبو عثمان بن ربيعة[1] وذكر البلاذرى أنه ركب السفينة مع جعفر [2] .

٥٢ ـ ومن بنى عبد الدار : أبو فكيهة : مولاهم ، يقال : إنه من الأزد .وقال بعضهم : كان مولىً لبنى عبد الدار ، أسلم قديماً بمكة . وكان يعذب ليرجع عن دينه فيمتنع . وكان قوم من بنى عبد الدار يخرجونه نصف النهار فى حر شديد ، وفى رجليه قيد من حديد ،ويلبس ثياباً ويبطح فى الرمضاء ، ثم يؤتى بالصخرة فتوضع على ظهره حتى لا يعقل ، فلم يزل كذلك حتى هاجر أصحاب النبى ﷺ الهجرة الثانية فهاجر معهم.وقال ابن إسحاق والطبرى : هو مولى صفوان بن أمية ، أسلم حين أسلم بلال . فأخذه أمية فربطه فى رجله وأمر به فَجُرَّ ، ثم ألقاه فى الرمضاء . ومرّ به جُعْلٌ ، فقال : أليس هذا ربك ؟ فقال : الله ربى وربك فخنقه خنقاً شديداً . ومعه أخوه أبى بن خلف يقول : زده عذاباً فلم يزالوا كذلك حتى ظنوه قد مات فمر أبو بكر فاشتراه فأعتقه .

نظرة أخيرة :

أولاً : حين ننعم النظر بهؤلاء الخمسين نلاحظ أن خمسة عشر منهم الأصل أن يكونوا فى الخمسين الثانية . فهم قد أسلموا قديماً . وبعضهم قبل دار الأرقم وبعضهم بعدها .ولعل بعضهم مختلف فيه فى وقت إسلامه . ولا يعنى أن البضعة والثلاثين الباقية كلهم أسلموا بعد دار الأرقم والهجرة الثانية إلى الحبشة . إنما كان هناك جهالة فى وقت إسلامهم .لكن عرفوا أنهم شهدوا بدراً فكانوا من السابقين الأولين من المهاجرين.وقد تحدثنا عن ضماد الأزدى ، والطفيل بن عمرو الدوسى ، وهما من المسلمين الذين انضموا للصف الإسلامى ، لكنهم لم يكونوا جزءاً من المهاجرين الذين هم من قريش حلفاً أو ولاء . إنما مكثوا فى قبائلهم ، وهاجروا فيما بعد إلى المدينة . وينصب الحديث الآن عن القرشيين ، فلم يحضر بدراً مهاجرى واحد لا ينتمى لقريش نسباً أو حلفاً أو ولاء . ويرتفع عدد المسلمين الذين دخلوا فى الإسلام حتى غزوة بدر إلى مائة وبضع وستين صحابيا من المهاجرين . توزعوا فى المدينة والحبشة ومكة، والقلائل منهم وهم بضعة أفراد مكثوا فى قبائلهم حتى هاجروا فيما بعد عندما تمكن الإسلام فى المدينة .

ثانياً : وحين نتحدث عن الشهداء فيهم نلحظ أن عددهم الثلث . فالشهداء فيهم سبعة عشر شهيداً ، منهم من استشهد فى حياة النبى ﷺ ،ومنهم من استشهد بعد وفاته .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢٠٣ .　　(٢) الإصابة م٣ ج٣ / ٢٣٢ .

أما البدريون منهم فعددهم يفوق النصف ، إذ أنهم تسعة وعشرون بدريا . والذين قدر لهم أن يشهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ يقتربون من النصف إذ أن عددهم واحد وعشرون صحابيا . والباقون معظمهم إما استشهد فى حياة النبى ﷺ أو توفى فى حياته ، أو مجهول الحال .

ثالثاً : وحين ننظر إلى الشخصيات القيادية فيهم نلحظ أن عددهم قليل جدا بحيث يمثل الخمس إذ أن الذين أوكل إليهم الرسول ﷺ مسؤوليات قيادية، أو قدِّر لهم أن يكونوا فى قيادة الأمة فيما بعد حوالى العشرة .

وهذه النسبة فى هذه الخمسين أقل منها فى الخمسين الأولى والثانية مع ملاحظة أن الحلفاء والموالى فيهم تفوق الثلثين ، فعدد حلفاء قريش ومواليها فى الخمسين الثالثة اثنان وثلاثون صحابيا .

ولابد أن نشير فى نهاية الحديث عن هذه المجموعة المباركة أن عدد النساء فيها ضئيل جدا ، وأنها تلقت من النبى ﷺ ونهلت منه فى مستويات متفاوتة ، أقل مما تلقى الرعيلان الأولان قبل دار الأرقم وبعدها .

الكلمة الأخيرة

ونحن بصدد الحديث عن المنهج التربوى للسيرة النبوية ، بشكل عام ، والتربية القيادية بشكل خاص ، نوضح المعانى التالية :

أولا :

معالم هذا المنهج والتى ذكرت عقب الحديث عن الخمسين الأولى فى حوالى خمس عشرة فقرة تنسحب على المرحلة كلها ، بشكل عام ، وتفترق فى بعض الجزئيات عنها بشكل خاص .

ثانياً : الشهداء :

لقد قدم السابقون الأولون من المهاجرين والذين بلغ عددهم مائة وبضعاً وستين صحابيا حوالى سبعين من الشهداء بين يدى رسول الله ﷺ وبعد وفاته . وفى هؤلاء الشهداء أعداد وفيرة من القيادات ، فالجندية والطاعة والانضباط والتضحية هى أول مواصفات هذه الذروة المختارة ، أى ما يقارب نصفهم قد قضوا نحبهم . وحين نذكر من توفى وفاة عادية فى عهد النبى ﷺ يتجاوز العدد نصف مجموعهم الكلى .

ثالثاً : الذين شهدوا المشاهد :

والذين شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ينوف عن الثمانين . أى أنه يربو عن النصف . ويمكن القول بصورة أدق : إن كل من لم يستشهد بين يدى النبى ﷺ، وكل من لم يكن مأذوناً له فى البقاء فى قبيلته بأمر نبوى أو البقاء فى مهجره ، فقد شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ . ولعل هناك مجموعة فى مكة منعت من الهجرة ، وفتنت فى دينها وحيل بينها وبين المشاركة فى المسيرة الجهادية .

رابعاً : القيادات الكبرى فيهم :

والذين أوكل لهم مهمات قيادية من النبى ﷺ أو من الخلفاء من بعده أو مارسوا مسؤوليات سياسية أو إدارية أو عسكرية ، يتجاوز عددهم سبعين صحابيا ،أى يقترب من النصف .وهذه أعلى نسبة فى أمة من الأمم . فالسابقون الأولون من المهاجرين الذين بلغ عددهم مائة وبضع وستين صحابيا ، أن يكون فيهم ما ينوف عن سبعين قائد. كان له دور واضح وبليغ فى قيادة الأمة الراشدة هو أمر لا مثيل له فى تاريخ الدعوات والأمم . وعلى أكتافهم تحركت الأمة المسلمة فانساحت فى الأرض تنشر

الإسلام وتجاهد فى سبيله . وكانت هذه القيادات هى التى تخطط وتوجه وتبدع وإن كان قد انضم لها القيادات التى أسلمت فيما بعد من قريش قبل الفتح وبعده .

غير أن الخلفاء الأربعة والمرشحين للخلافة الكبرى والإمامة العظمى كانت من الخمسين الأولى باستثناء الفاروق رضي الله عنه .

خامساً : البدريون فيهم :

وحين يذكر الفضل فى الأمة ، فخيرة أهل الأرض هم السابقون الأولون . وخيرة السابقين البدريون فيهم . والذين بلغ عددهم من السابقين الأولين من المهاجرين بضعاً وثمانين صحابيا . وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر ، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وبقى أهل بدر فى ضمير الأمة المسلمة يمثلون القمة الشامخة فيها ، لكنا رأينا سياسة الصدِّيق رضي الله عنه تنأى بهم عن المسؤولية حتى لا تتشوف قلوبهم إلى الدنيا بعد ذلك العز الأثيل الذى فازوا به.فعن عاصم بن طليق عن ابن سمعان ، عن أبى بكر بن محمد الأنصارى أن أبا بكر رضي الله عنه قيل له:

يا خليفة رسول الله ، ألا تستعمل أهل بدر ؟

قال : إنى أرى مكانهم . ولكنى أكره أن أدنِّسهم بالدنيا [1] .

وكانوا هم أهل الحل والعقد فى الأمة .كما روى ابن ديزيل من طريق عمرو بن سعد بإسناده ، أن قراء العراق وقراء الشام عسكروا ناحية (فى صفين) وكانوا قريباً من ثلاثين ألفاً . وتتحدث الرواية عن وساطتهم بين على ومعاوية ــ رضى الله عنهما ــ وفيها (. . فرجعوا إلى معاوية فقال : ما بال من ها هنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا فى هذا الأمر ؟ فرجعوا فقال على : إنما هذا للبدريين دون غيرهم . وليس على وجه الأرض بدرى إلا وهو معى[2] وقد بايعنى وقد رضى ، فلا يغرنكم من دينكم وأنفسكم) [3].

النساء ودورهن فيهم:

لقد كانت المرأة المسلمة أما وأختاً وزوجاً وبنتاً بجوار الرجل ، رفيقة دربه يصيبها ما

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ج٢ / ٢٨٢ ط دار المعارف .

(٢) إلا ما كان من سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه الذى اعتزل الفتنة ثم ندم على عدم قتاله مع على رضي الله عنه .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٢٧٠ .

أصابه . وكرم الله المرأة المسلمة أن جعل أول مخلوق آمن مع رسول الله ﷺ امرأة وهى خديجة ـ رضى الله عنها ، وأول شهيد فى الإسلام امرأة ، وهى سمية بنت خباط ـ رضى الله عنها ـ أم عمار بن ياسر . وكان عدد النسوة اللاتى شاركن فى بناء الأمة المسلمة تربية وهجرة وإسلاماً واضطهاداً وجهاداً يبلغ الربع من السابقين الأولين. فالنساء اللاتى أسلمن قبل بدر ، وانضممن إلى هذا المجتمع الربانى الوليد كان عددهن خمساً وخمسين امرأة ،وبذلك يبلغ عدد المسلمين من الرجال والنساء مائتين وبضعة عشر من الرجال والنساء ، فيكون ربع هذا المجتمع من النساء المسلمات اللاتى وقفن بجوار أزواجهن وأبنائهن وآبائهن . وبعضهن وقف وحيداً يتحدى كل من حوله من العشيرة والأهل. ولاننسى تلك الصورة الخالدة التى قدمتها لنا أسماء بنت عميس ـ رضى الله عنها ـ وهى المهاجرة المجاهدة . فعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال :

(.... ودخلت أسماء بنت عميس ، وهى ممن قدم معنا ، على حفصة زوج النبى ﷺ زائرة . وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر . فدخل عمر على حفصة ، وأسماء عندها . فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس . قال عمر : آلحبشية ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء: نعم ، قال : سبقناكم بالهجرة ،فنحن أحق برسول الله منكم . فغضبت وقالت : كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا فى دار ـ أو فى أرض ـ البُعداء البُغضاء بالحبشة ، وذلك فى الله وفى رسوله ﷺ. وايم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسوله ﷺ. ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر ذلك للنبى ﷺ وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبى ﷺ قالت : يا نبى الله ، إن عمر قال كذا وكذا . قال : «فما قلت له ؟» قالت : قلت له : كذا وكذا . قال : « ليس بأحق بى منكم ، له ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان ». قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوننى أرسالاً يسألونى عن هذا الحديث . ما من الدنيا شىء هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم النبى ﷺ ، قال أبو بردة: قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى) (١).

التربية المستمرة :

ولم تكن تربية هذا الجيل الفريد القائد لتنقطع لحظة من اللحظات قبل ولا بعد فى حياته كلها . لكن نوع هذه التربية تختلف . فقد كان القرآن الكريم فى هذه المرحلة يحفل بالحديث عن الأنبياء وأتباعهم الذين صبروا وجاهدوا وأوذوا فى سبيل

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ج ٧ / ٤٨٤ ، ٤٨٥ باب غزوة خيبر .

الله . وتحملوا اللأواء والضراء والاضطهاد فى سبيل الله . ويرافق هذا الصبر كف اليد ما أمكن ذلك . فلم يكن الاتجاه قائماً نحو الثورة والمواجهة المسلحة . إنما كان الهدف فى هذه المرحلة تبليغ الدعوة ، وتجميع المؤمنين وتربيتهم التربية التى تعدهم للمواجهة فيما بعد ، وتريد أن تستأصل منهم نزعات الجاهلية ونزواتها وعصبياتها لتعيد بناءهم من جديد بهذا الدين ، بمفاهيمه ومبادئه وعقيدته . وكان الشباب الصغار الذين دخلوا فى هذا الدين بغير حاجة إلى ذلك الاستئصال؛ لأنه لم يكن قد تمكن فى قلوبهم بعد عقائد الجاهلية ومفاهيمها ولوثاتها . فانفتحت صدورهم مباشرة لهذا الدين الجديد .

لقد كانت تربية على الصبر : وهذا عنصر أصيل فى هذه المرحلة وغيرها ، ولكنه فى هذه المرحلة آكد وأشد ، خاصة فى هذه النفس المتوهجة بالعقيدة ، الملتهبة بالإسلام، الواثقة بالله عز وجل . وكيف لا تكون كذلك ورسول رب العالمين بين يديهم وعلى رأسهم ينقل لهم عن ربه الموقف المطلوب والحق الصراح؟! ومع ذلك ، فعليهم أن يصبروا على انتفاش هذا الباطل ، ويتحملوا أذاه، ويضبطوا نفوسهم عن مواجهته ، والشجاعة تسرى فى كل شريان من شرايينهم ، والبطولة تغلى فى دمائهم ، ومع ذلك عليهم أن يصبروا . وكنا نرى أن مواقف المواجهة ورد الأذى ، كانت موكلة بالقيادات العليا التى تعرف متى تقاوم ومتى تواجه ، وكيف تقاوم وكيف تواجه . حتى أن السيرة لتذكر موقفاً من أخطر مواقف المواجهة قام به رسول الله ﷺ بنفسه ومعه فتاه الفدائى وأخوه الحبيب على بن أبى طالب . هذا الموقف هو تحطيم بعض الأصنام فى الكعبة المشرفة .

(فعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال :

انطلقت أنا والنبى ﷺ حتى أتينا الكعبة. فقال لى رسول الله ﷺ: « اجلس» ، وصعد على منكبىّ . فذهبت لأنهض به فرأى منى ضعفا . فنزل وجلس لى رسول الله ﷺ فقال : « اصعد على منكبى » . قال : فنهض بى . قال : فإنه يخيل إلىّ لو شئت لنلت أفق السماء ، حتى صعدت على البيت ، وعليه تمثال صفر أو نحاس . فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله، وبين يديه ومن خلفه حتى استمكنت منه. فقال لى رسول الله ﷺ : « اقذف به »، فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس .

وفى رواية : كان على الكعبة أصنام ، فذهبت أحمل النبى ﷺ فلم أستطع، فحملنى ، فجعلت أقطعها ولو شئت لنلت السماء) (١) .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى م ٣ ج ٦ ص ٢٣ ، باب تكسير الأصنام ، وقال فيه : « رواه أحمد وابنه وأبو يعلى والبزار وزاد بعد قوله : حتى استترنا بالبيوت فلم يوضع عليها بعد (يعنى : شيئاً من تلك الأصنام) ، ورجال الجميع ثقات » .

فقد رأى عليه الصلاة والسلام أن ظهر الكعبة المشرفة يجب أن يطّهر من الشرك والوثنية ، وهو أول بيت وضع للناس فى الأرض لعبادة الله وحده . فكانت إزاحة التمثال أو الأصنام عنه وكأنها هى شعار مكة ذاتها . . . بينما بقيت الأصنام حول البيت حتى كان فتح مكة .

وهذه الخطوة ليست خطوة دفاع عن النفس ، إنما هى خطوة مواجهة وهجوم على المجتمع المكى ومقدساته . لكن الذى قام بها محمد ﷺ بنفسه مع الفتى المنفذ على رضي الله عنه وهو يدرك عليه الصلاة والسلام أبعاد هذه الخطوة ونتائجها .

وعندما خطرت فكرة الهجوم ثانية على أذهان المسلمين ، وهى فكرة اغتيال القيادات المشركة فى مكة كما روى ابن إسحاق ، عرضت على المشورة حتى استبعدت بعد ذلك :

وحدثنا يونس ، عن حبيب الأسدى ، عن مسلم بن صبيح قال : قال أصحاب رسول الله ﷺ : إنا قد كثرنا ، فلو أمرت كل عشرة منا فأتوا صناديد قريش ليلاً وأخذوه فقتلوه ، فتصبح البلاد لنا ؟ فُسّر النبى ﷺ بذلك حتى رؤى فى وجهه، فقام عثمان بن عفان فقال : يا رسول الله ، أبناءنا ، آباءنا ، إخواننا ، فما زال عثمان يردد ذلك حتى سأم رسول الله ﷺ قولهم الأول ورؤى فى وجهه ، حتى رفض ذلك ، وأخذنا المشركون حين أمسينا فما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إلا قد أعطى الفتنة غير بلال فإنه قال : الأحد الأحد [1] .

لقد أبرقت أسارير وجه النبى ﷺ أن صار جنوده على استعداد للمواجهة والقضاء على قيادات مكة. وترك لهم أن يناقشوا الرأى من جميع وجوهه لاستبعاد هذا الرأى .

فهى تربية على تحمل المسؤولية : فهذا الجيل الرائد هو صاحب القضية وهو حامل لواء هذا الدين . ورسول الله ﷺ يريد أن تُفتَح قلوب مكة للإسلام، قبل أن تقتل رجالها ، وهذه المقتلة لو وقعت ستكون حرباً عواناً بين الفريقين وتتحول إلى ثأر وكره لا يعرف مداها إلا الله .وهو عليه الصلاة والسلام فى الحالين ترك الأمر للمداولة بين صحبه . وترجح تأجيل المواجهة فى معركة غير متكافئة ولا محسوبة النتائج ، أو مضمونة العواقب .

فهذا الجيل الرائد رغم أنه يتربى على الجندية والطاعة والانضباط ، فهو يتربى كذلك على القيادة الإدارية والسياسية والعسكرية ، بحيث يشارك فى صنع الأحداث

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق : ١٩٣ وورد أنه يونس (يخطئ) عن حبيب الأسدى (مقبول) عن مسلم بن صبيح (ثقة فاضل) .

برأيه كما يشارك فيها بسيفه ،ويشارك فيها بموقفه ، كما يشارك فيها بتنفيذ الأوامر الصادرة له .

ولم تكن الفرصة مهيأة لأبناء هذا الجيل أن يمارس القيادة وبين ظهرانيه رسول الله ﷺ سيد القادة والخلق كافة ، لكن عندما أتيح له ذلك ، ونتيجة للمقومات القيادية فيه من جهة بصفته قرشياً مصطفىً من الله . ونتيجة للتربية القيادية التى تلقاها من قائده عليه الصلاة والسلام ، أقول : عندما أتيح له ذلك برزت عبقريته النادرة ورأينا كيف قامت الحركة الإسلامية فى الحبشة بدورها المؤثر الفعال بقيادة جعفر رضي الله عنه حتى لتغزو قلب النجاشى ملك الحبشة. فيتعامل معها جنديا مؤمناً يكتم إيمانه فى صفوفها .

وهى تربية على الإسلام ومبادئه : فالعالم لم يحفل بالقيادات والزعامات ، ولكن هذه القيادات والزعامات تدور حول محورها الشخصى ، وتأليهها لذاتها. وحين تعمل لمصلحة القبيلة أو الدولة أو الأمة .إنما يرتبط ذلك ارتباطاً بهذا الولاء المزدوج للذات والقيم الخارجية . وكثيراً ما تجنح هذه القيادات ، فتدوس القيم الخارجية لمصلحتها ومنفعتها .

إن مفهوم ـ سبيل الله ـ والتجرد له ، والإخلاص لله عز وجل ، وحتى تمت التربية عليه . هو تميز لا تملكه أى تربية فى الأرض ، ولن ترتفع إليه أى قيادة فى الوجود ، إلا هذه التربية . ولقد رأى الجيل المسلم من خلال التربية القرآنية والنبوية ، وشهد المثل الأعلى بين يديه ، يتعرض للمحاسبة الربانية فى القرآن الكريم ، ويلح القرآن أحياناً فى تخطئة الموقف . فيتقبل عبد الله ورسوله هذه التربية من ربه ، ويعلنها على الملأ ، ليشهد جيل القيادة الأول مفهوم العبودية الخالصة لله وحده ، ويتحدث القرآن العظيم بهذه الشدة مع سيد الخلق وسيد القادة على لسان جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيتلوها النبى ﷺ فى اليوم الثانى،بل بالتو واللحظة كما سمعها من جبريل :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ (١) .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) عبس / ١ ـ ١٠ . (٢) الأنعام / ٥٢ .

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً . إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ (٢) .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (٣) .

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ . وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

بل يتجاوز الأمر هذا الحد ، حتى لينقطع الوحى عنه خمسة عشر يوماً وهو أحوج ما يكون إليه ، وقد أعطى المشركين وعداً قاطعاً أن يجيبهم على أسئلتهم الثلاثة غداً ، ويمضى الغد بعد الغد ، وجبريل محبوس بأمر ربه عن حبيبه المصطفى ﷺ ليأتى بعد هذا الغياب الشاق على النفس النبوية الطاهرة فيخبره :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (٥) .

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ (٦) .

لقد شهدوا هذه التربية وشهدوا كيف تحاسب القيادات فوطنوا أنفسهم على ذلك وأنهم لابد لهم من الخلوص من ذاتهم والتجرد لله سبحانه، وهذا هو ميزان السمو ، وميزان القيم ، وميزان التفاضل ، لابد أن يتجاوز الأمر التفكير المجرد إلى التنفيذ العملى الذى يشرف عليه المصطفى ﷺ والله أعلم بالسرائر ، والله يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

---

(١) الأنعام / ٣٥ .
(٢) الإسراء / ٧٣ ـ ٧٥ .
(٣) الحاقة / ٤٤ ـ ٤٧ .
(٤) يونس / ١٠٥ ـ ١٠٧ .
(٥) مريم / ٦٤ .
(٦) الكهف / ٢٣ ، ٢٤ .

إن قضية الإخلاص والتجرد لله ،والعمل لله وحده ، والغضب لله ، والرضا لله ، والعطاء لله ، والمنع لله ، تكاد تكون القضية الأولى فى هذا الذين والقضية الأولى فى هذه التربية وهى التى تنفرد بها هذه التربية عن كل تربية فى الوجود . وكان المصطفى ﷺ يرعى هذه النبتات ، ويتعهد هذه الغراس ؛ لتنشأ نقية خالصة بالقرآن وبالحديث النبوى والتوجيه النبوى فتشرف بعد على قيادة البشرية ، وتنشئ أمة أول سماتها العبودية لله تعالى والطاعة له .

فإذا لهذه النبتات الصغيرة ، وهذه الغراس الأولى يشتد عودها فيما بعد ، ويصلب جذعها بالإسلام نفسه فتنطلق هذه المائة الصابرة فى الأرض بعد عشرات السنين تقود الجيوش وتربى الجنود وتفتح الأرض،وينبوع الإيمان والعبودية لله هو الذى يحدوها ويحركها ويقودها ، فتقود به البشرية التائهة .

إن المحظور الضخم لضعف التربية القيادية هو أن تنتحر الأمم والشعوب تحت ملذات القادة، وشهوتهم فى السيطرة والحكم، وأن تسفك الدماء ، وتقط الرقاب ، وتذبح الجماهير ، ويبقى القائد وحده فى سلطته ، فى صولته وصولجانه . فجاء الإسلام لينتزع هذا الفتيل كله الذى يحرق الأمم والشعوب من أجل الذات ويضع عوضاً عنه ، فتيل ـ سبيل الله ـ ليكون كل شىء فى هذا الوجود خاضعاً لله .

فعبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ الملك المتوج فى الأمة . تنازعه نفسه مرة للدنيا ، ويهم أن يقول : (أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام) ثم يذكر الجنة ونعيمها . ويخشى أن يتبع هذا القول بحرب ضروس تفنى الأمة فيمسك . وتقول له أخته التى تربت فى المدرسة نفسها : حفظت وعصمت .

لقد احتاج لهذا الموقف بعد ربع قرن من مغادرة المصطفى ﷺ هذه الدنيا .

وعثمان رضي الله عنه الذى تربى فى مكة ومن الرعيل الأول . يرفض أن تراق قطرة دم من أجله،ويقبل أن يحاصر ،ويقبل أن يقتل ويعلن أن من وضع سيفه ، وأغمده من عبيده فهو حر ، ويرفض أن يأتى بجيش إلى مدينة المصطفى حتى لا يقتر على المسلمين أرزاقهم . وهم جيران المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلقد نشأ رضي الله عنه فى هذه المدرسة النبوية .

وفى المدرسة ذاتها نجد الفتى الصبى ، علىّ الذى كان ظل المصطفى ـ عليه الصلاة السلام ـ يبقى الجندى الأول والمنفذ الأول للخلفاء الثلاثة بعد رسول الله ﷺ كما كان جندياً عند حبيبه المصطفى ـ صلوات الله عليه ،ولكن عندما يكلف بالمسؤولية يقود المعركة تلو المعركة . ويقاتل البغاة بعد البغاة . ليستقيم أمر الأمة . ويقول للذى قتل

قائد جيش خصومه :

يقول لقاتل الزبير : ائذن له وبشره بالنار .

فهو يقاتل عن بصيرة ، ويجاهد فى الله ويمسك فى الله ويقول :

لولا ما كتب الله الجهاد على العلماء . لكانت دنياكم هذه عندى أهون من عفطة عنز .

ويشهده ضرار بن ضمرة . وهو فى أعلى سدة الحكم ، وهو سلطان الأرض يبكى فى محرابه فى الظلام الدامس يخاطب هذه الدنيا فيقول :

يا دنيا إلى تعرضت ، أم لى تشوفت، هيهات هيهات ، غرى غيرى لقد بتتك ثلاثا. فعمرك قصير ، وخطرك يسير ، وعيشك حقير . آه من قلة الزاد ، وبعد السفر، ووحشة الطريق [1] .

وهى تربية على الانصهار بالجماعة المسلمة : وتكاد تكون أعقد قضية وأشد قضية يعانى منها ذلك الجيل . فالعرب قد نشؤوا على الفردية . وتربوا على الذاتية . وعلى الخضوع لروح القبيلة فى أعلى مستوياتها الجماعية . وقد مرت القرون تلو القرون وهم على ذلك . وصراع القبيلة هو الذى يحرك كل فرد فيها . وتنقسم القبائل بالزعامات الفردية والطموحات الذاتية . فيتحول الولاء إلى القبيلة الجديدة . وأخذت الطبقية دورها فى القبيلة بحيث تجد فى القبيلة الواحدة طبقات عدة . ونأخذ على سبيل المثال المجتمع القرشى نفسه .

فأعلى طبقاته أوسطه نسباً وهم بنو عبد مناف بن قصى ، ولا يسلم لهم ذلك بقية الفروع من قصى ، ويتهدد كيان القبيلة للزوال من أجل ذلك .

والطبقة الثانية : طبقة بنى عامر بن لؤى .فكعب بن لؤى أعلى منهم . وبنو عامر لا تجير على بنى كعب . كما قال سهيل رضي الله عنه يوم طلب الإجارة منه .

والطبقة الثالثة : طبقة قريش الظواهر وهم بنو فهر وبنو الأدرم .

والطبقة الرابعة : طبقة الحلفاء لقريش . وكما قال الأخنس بن شريق حليف بنى زهرة :(أنا حليف ، والحليف لا يجير) .

الطبقة الخامسة : طبقة الموالى . وهو من كان عبداً فأعتق . فهو مولى ليس له حقوق السادة والأشراف . وعليه أن يكون فى خدمتهم .

---

(١) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١ / ٨٥ .

والطبقة السادسة : طبقة العبيد : وهم الذين يباعون ويشرون ويوهبون وليس لهم أى حق فى هذا المجتمع . ومثلهم الأعاجم الذين لا أصل عربى لهم .

فى هذا المجتمع الطبقى جاء رسول الهدى إلى الوجود. فأقام مجتمعاً جديداً، فيه الرومى والعربى والهاشمى والمولى والعبد والمرأة فى صف واحد، وكيان واحد وانصهار واحد. وقال القرآن لسيد خلقه فى هذا الوجود ، الذى يمثل وحده عنصراً أعظم من العنصر البشرى لا يدرى عظمته إلا خالقه وبارئه ، يقول القرآن له :

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢) .

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ . وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣) .

ويقول له :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾(٤) .

وكان هؤلاء المائة والبضع والستون قد تكوّن منهم مجتمع جديد تآخى فيما بينه تحت إشراف النبى ﷺ . وعاش حياة تذوب الفوارق الطبقية فيه . وعاش بالإسلام وحده دون غيره ،وآخى فيه الرسول ﷺ بين مولاه زيد بن حارثة وابن عمه الحسيب النسيب جعفر بن أبى طالب . وفيما بعد قدّم مولاه زيد فى قيادة الجيش على الهاشمى العظيم جعفر حيث كان الأمير الثانى فيه .

واستطاعت هذه الجماعة المسلمة أن تمارس مسؤولياتها فيما بعد ، وتشرف هى على تكوين الأجيال القادمة ، وبناء المجتمع الإسلامى الذى انصهرت فيه الأمم لا الأفراد فى بوتقة واحدة هى بوتقة الإسلام ، فتقود هذه الأمم والشعوب سياسياً وعسكرياً وإدارياً وتربوياً وخلقياً وعلمياً ، بعد أن كانت هى الحلقة الأولى فى هذه التربية .

ولـم يستطـع أى جيل فيـما بعـد أن يرقـى إلى مستـوى هـذا الجيـل الأول ، إلى

---

(١) الأنعام / ٥٢ .
(٢) الكهف / ٢٨ .
(٣) الأنعام / ٥٣ ، ٥٤ .
(٤) الكهف / ١١٠ .

مستوى هذه القيادات التى تمثلت بالخلافة الراشدة على هدى النبوة ، ومن معين النبوة، ومن رحيق النبوة . بل أخذت الأجيال فيما بعد تنحدر عن تلك القمة السامقة ، وتتراجع عن تلك الذرى الشامخة . حتى عادت ، فأكلتها الإقليمية ، والعشائرية ، والقبلية ، والوطنية ، والقومية ، والفردية .

إنما كانت على مدار التاريخ بعض التجارب التى حاولت أن تسمو إلى تلك القمة الشامخة وترتفع إليها . بل يمكن القول : إنه ما من قرن إلا ووجد فيه فئة تحاول ذلك، وتصل إلى مستوى معين من الارتفاع الخلقى والتربوى من ذلك الجيل.

لكنه الفرق الكبير بين الطائفة التى تتمثل فى كل جيل ، وبين الأمة كلها التى تربت وبنيت بالجيل الأول ، ولعل هذا الأمر أمكن أن يتابع مدده حتى الجيل الثانى والثالث على مستوى الأمة :

« خيركم : قرنى ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم » .

وبدأت بعد ذلك تتحول إلى مستوى الطائفة الظاهرة على الحق فى الأمة المسلمة . التى لا يضرها من خالفها حتى يأتى أمر الله .

وبعـــد :

فنقول : إن هذا الجزء من الكتاب ـ التربية القيادية ـ هى بمثابة مقدمة للبحث ؛ لأن هذه الفترة التى تناولناها هى فترة الإعداد والتكوين للقيادات . أما الجزء الثانى والثالث من هذا الكتاب فهو الذى يتحدث عن الممارسة العملية للقيادة . وذلك بعد أن قامت الدولة المسلمة وأشرف رسول الله ﷺ على إنشائها وكان بناء المجتمع فى حياة النبى ﷺ حيث أفرغ هذه الطاقات ، وأتاح لها أن تمارس دورها ، فكان منهم الولاة والأمراء والمربون والدعاة والساسة والقضاة والقادة العسكريون ، وذلك هو موضوع الجزء الثانى . بينما يكاد يكون الجزء الأخير هو الصورة العملية النهائية التى اكتمل فيها تفجير الطاقات ، وممارسة المسؤوليات ، ونبوغ العبقريات من خلال هذه الممارسة . وأصبح المجتمع الذى يبنى من جديد ينظر إلى أبناء بدر نظره إلى الهداة القادة . وكما يقول عليه الصلاة والسلام : « نظره إلى النجوم فى السماء ».

وحين عزّ أهل بدر ، ومضوا شهداء إلى ربهم . فكنا نرى أنهم بقوا أفراداً فى نهاية هذا القرن ، قرن الخلافة الراشدة . حتى ليعدوا أن جيش أمير المؤمنين على رضي الله عنه كان فيه البدريون جميعاً ، وكان عددهم ستة أو سبعة ، خلا واحد أو اثنين ممن اعتزل الفتنة . وعذره أمير المؤمنين رضي الله عنه .

أقول : حين عزّ البدريون أصبح الحرص فيما بعد على أى صحابى تشرَّف بصحبة رسول الله ﷺ . وكان قادة الفتوح يقتتلون عليهم . بحيث يحرص كل قائد أن يكون بجيشه أكبر عدد من صحابة المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه. فهم يعرفون فضل هذا الجيل الرائد .

(فعن ابن عباس أن النبى ﷺ أخّر صلاة العشاء حتى انقلب أهل المسجد إلا عثمان ابن مظعون ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ خمسة عشر أو ستة عشر ما بلغوا سبعة فقال عثمان : لا أخرج الليلة حتى يخرج النبى ﷺ فأصلى معه ، وأعلم ما أمره ، فخرج النبى ﷺ قريباً من ثلث الليل ومعه بلال فلم ير فى المسجد أحداً إذ سمع نغمة من كلامهم فى ناحية المسجد ، فمشى إليهم حتى سلّم عليهم ، فقال : « ما يحبسكم هذه الساعة ؟ » قالوا : يا نبى الله انتظرناك لنشهد الصلاة معك . فقال لهم : « ما صلى صلاتكم هذه أمة قط قبلكم ، وما زلتم فى صلاة بعد » ، ثم قال : « إن النجوم أمان السماء ، فإذا طمست النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون ، وإنى أمان لأصحابى ، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون . وأصحابى أمان لأمتى ، فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون ») (١) .

هذا وقد أرجأنا الحديث عن الهجرة النبوية إلى الجزء الثانى من الكتاب؛ لأنه يتناول ابتداء السابقين الأولين من الأنصار ، وقمة هؤلاء الأصحاب السابقين السبعون الذين بايعوا ليلة العقبة .

وهذا كله تم قبل الهجرة النبوية ، وستتابع هذا البناء فى العهد المدنى ، بعد ذلك . ونشهد بناء الطبقة الثانية من الأمة : طبقة الوزراء ، وطبقة الأنصار ؛ إذ الخلافة فى قريش . وكما قال الصديق رضي الله عنه لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء . ونشهد كذلك عمليات التكليف النبوى المحدودة فى المسؤوليات المتنوعة خلال هذا العهد؛ لنفرغ فى الجزء الثالث ، إلى هذا الجيل الذى آتى أكله كما وصفه ربه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢) .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ١/١/٣١٣ ، وقال فيه : « رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون » .
(٢) الفتح / ٢٩ .

لقد نزلت هذه الآية الكريمة بعد صلح الحديبية ؛ حيث بلغ هذا الجيل رشده ، واستغلظ واستوى على سوقه . فأصبح الثناء الرباني لا يزيده إلا طاعة وعبودية .

وتكون من جيل بدر وممن انضم له من جيل الحديبية خيرة أهل الأرض .

وحديثنا عن هؤلاء ، ومجالي عبقرياتهم ونبوغهم والتزامهم هو في الجزء الأخير من هذا البحث .

نسأل الله عز وجل أن يهدينا إلى هداه ، ويجنبنا الزلل والعثار .

وحسبي أني حرصت أن أستشرف لهذا الجيل الرائد ، فأسبر غوره ، وأشهد تربيته العظيمة ، وأعرض ثمرته اليانعة التي آتت أكلها فيما بعد .

وقد لا أكون استطعت الوصول إلى فقه هذا المنهج والإحاطة بخطوطه العريضة والتفصيلية ، لكن حسبي أن أكون بذلت الجهد . علني أستطيع أن أجيب عن السؤال المحدد :

كيف تمت تربية الجيل الأول ؟

وأرجو الله تعالى أن يهيئ لهذه الإجابة أقدر مني وأكثر إحاطة وشمولاً ليتعرف أبناء الجيل المعاصر على هذا المنهج ، فيقتفوا أثره ، وما ذلك على الله بعزيز .

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١) .

منير محمد الغضبان

مكة المكرمة ـ غرة المحرم ١٤١٢هـ

---

(١) هود / ٨٨ .

الفهـرس

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

رقم الإيداع : ١١٠١١ / ١٩٩٧ م
I.S.B.N:977-15-0213-1

هذا الكتاب

★ مما لا شك فيه أنه توجد أعداد وفيرة ضخمة تملأ كل فج، جاهزة للتضحية والبذل، تتوقد حماسا وحيوية أن ترى الإسلام يسود، لكنها تحتاج إلى القائد المبصر، والرائد الحكيم الذى يقود بها فى لجج البحار، فيكون الربان الماهر الذى يقودها إلى شاطىء السلامة، ويحقق بها موعود الله فى الأرض.

★ ولإيجاد هذا القائد لا بد من الوقوف بين يدى المصطفى ﷺ قائد ركب الإيمان فى الوجود والنظر إلى الجيل الذى صاغه حتى كان -أى جيل الصحابة- من كبار القادة الذى نقل روح النبوة وهديها إلى كل أرجاء الوجود، فحكموا بهذا الهدى، وأضاؤا الوجود بهذا النور.

★ وهذا الكتاب - بأجزائه الأربعة - يضع أيدينا على المنهج الذى ربى به النبى ﷺ أصحابه حتى أصبحوا جيلاً قيادياً فذاً عز نظيره فى التاريخ.

★ والذين يحملون عبء قيادات العمل الاسلامى فى الارض مدعوون إلى الوقوف على هذه التربية وهو ما يهدف إليه هذا الكتاب.

ودار الوفاء

يسرها أن تقدم هذا الكتاب إلى القراء الكرام، رجاء أن يعم به النفع، ويهدى به الله إلى أقوم سبيل،،

الناشر

الوفاء للطباعة والنشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة: شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٢ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠

المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠

E-Mail: DAR ELWAFA@HOTMAIL.COM